أدب المقالة الصحفية في مصر

الجزء الرابع

على يوسف

تأليف

الدكتور عبد اللطيف حمزه

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٥

الإهـــداء

إلى مصر المستقلة أهدى كتاباً فى تاريخ الأدب الصحفى لمصر قبل الثورة ضارعا إلى الله القدير أن يصون لها عزها ومجدها وحريتها واستقلالها إلى أبد الآبدين .

عبد اللطيف حمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

فيما أنا مستعد لأن أكتب مقدمة هذا الكتاب ، إذا برسالة ترد إلي من تلميذى وصديق الأديب جرجس إسحق — وهو أول خريجى معهد التحرير والترجمة والصحافة بجامعة القاهرة (فؤاد) هذا العام — وإذا بها تغنينى عن كتابة المقدمة. فيسرنى لذلك أن أنشرها ، ويسرنى كذلك أن أشكره عليها ، وعلى حسن تقديره لهذا الكتاب . [المؤلف]

سيدى الأستاذ الجليل :

كنت أستمع باشتياق إلى المحاضرات القيمة التى كنت تلقيها علينا (بمعهد الصحافة) عن كتاب عهد الاحتلال ، وأهمهم : إبراهيم المويلحى ، وعلى يوسف ، ومصطفى كامل . ولعلك لاحظت — ياسيدى — أنى كنت من أشد المعجبين بها ، المؤمنين بفائدتها .

ثم حين قرأت هذه المحاضرات مجموعة فى أوراق طبعت ليتألف منها كتاب أوحت إلى قراءتها بهذه الرسالة التى أكتبها ، وأجد من نفسى دافعاً قويا جداً لكتابتها

لقد شعرنا — نحن الشباب — بنقص ظاهر فيما صدر إلى اليوم من الكتب ، إما فى وصف الحركة الفكرية فى مصر ، وإما فى وصف النثر الحديث بها ، وإما فى وصف الحركة القومية التى لم نقرأ فيها غير كتب الأستاذ عبدالرحمن (بك) الرافعى. فحين ظهر كتابك (أدب المقالة الصحفية فى مصر) بأجزائه المتتابعة ، وجدنا فيه ما يحقق بعض هذا الغرض ، ويسد

بعض هذا النقص ، فقلنا : تلك مزية من مزايا هذا الكتاب الذى يظهر الجزء الرابع منه اليوم للقراء .

وقد رأينا فى دراستنا لكتّاب عهد الاحتلال أن الشيخ على يوسف لم يكن أقل فى شخصيته أو أهميته من مصطفى كامل .

كان أولهما بمثابة العقل المفكر للأمة . وكان الثانى بمثابة القلب النابض لها . ومع ذلك فقد عنى بمصطفى كامل كثيرون ، وترجم له كثيرون ، على حين أن السيد على يوسف لم يعن به أحد ، ولا قام بأمره أحد . إلى أن قيضك الله — ياسيدى — للقيام بهذا الرجل ، ويسرّك لنشر صحيفته ، فأديت بذلك واجبا نحو التاريخ المصرى الحديث ، وآخر نحو الأدب المصرى الحديث .

فقلنا : تلك مزية ثانية لهذا الكتاب يجب أن تذكر بالثناء والإعجاب .

أجل — لقد كان على يوسف شخصية ضخمة ملأت الدنيا ، وشغلت الناس فى أعقاب القرن الماضى وفى مطلع هذا القرن . عرفته مصر فى وقت عصيب جداً ، حين كان الاحتلال البريطانى سوط عذاب يمزق ظهرها ، ويدمى قلبها . وفى ذلك الوقت اعتلى عرش مصر الخديو عباس الثانى ، وقد جرى فى عروقه دم الشباب . وأشربت روحه مبادىء الحرية ، ورغب فى أن يحقق لمصر شيئاً كثيراً من تلك المبادىء . غير أن الطريق لم يكن ممهداً أمامه ، بل كان محفوفا بالأشواك والنيران ، بعضها يأتيه من داخل ، وبعضها يأتيه من خارج ، بعضها يأتيه من أعدائه ، وبعضها يأتيه من أصدقائه . ولله در ڤولتير إذ يقول :

« رب احمنى من أصدقائى . أما أعــدائى فإنى أعرف كيف أحـمى نفسى منهم » .

ومنذ اللحظة التى ارتقى فيها الأمير عرش أجداده بدأت الحرب الباردة بينه — كحاكم شرعى للبلاد — وبين كرومر — كحاكم فعلى لها — والمجد فى الحرب للغالب ، والويل دائما فيها للمغلوب .

وقد رأيتك ياسيدى تنصف عباسا من أعدائه ، وتنصفه كذلك من أصدقائه ، فراعني ذلك ، وقلت فى نفسى : تلك مزية ثالثة للكتاب ، ينبغي ألا ينساها له كل وطني مخلص لبلاده .

فى تلك البيئة المظلمة عاش السيد علي يوسف ، وعلى هذا المسرح الصاخب المضطرب ظهر هذا الكاتب . فكان أشبه بالينبوع المتفجر فى صحراء محرقة ، يفيء إليه الضاحون ، وتهوى إليه نفوس الظامئين .

ولم يكن الشيخ علي يوسف من عشاق الخيال ، ولا كان يجرى وراء البرق الخلب . وإنما كان يقيس الأمور بمقياس العقل ، ويزنها بميزان المنطق . وبسبب ذلك ظفرت (المؤيد) بحظ من التقدير وبعد الصيت لم تظفر به جريدة أخرى . حتى لقد أطلق عليها أستاذ الجيل أحمد لطفي السيد (باشا) أسم « تيمس الشرق » !

وإذا كان البيان فى عرف (الجاحظ) أو عرف (عبد القاهر) هو الإفصاح عن خفايا النفس ، فان البيان فى عرف (الساسة) هو ستار يستعين به الرجل على إخفاء نفسه ، أو إخفاء رغبة تجول فى خفايا قلبه ، ويبدو أن الشيخ علي يوسف اتخذ من هذا التعريف السياسى للبيان دستوراً فى كتابته ، وقاعدة صدر عنها فى صحافته . ومن هنا جاء أسلوبه الصحفى هادئاً لاذعاً ، كأنه كأس من العسل ، ولكن ديف فيها السم والحنظل !

ومع ذلك لم يقع هذا الأسلوب المنطقى الرائع موقع الرضى من بعض الشباب الثائر . فحمل هؤلاء الشباب على صاحب المؤيد ، وتدرجوا فى حملتهم حتى اتهموه بأنه حاطب فى حبل الإنجليز . ولكن الرجل مضى فى طريقه غير آبه بهم . وكأنما كان يردد فى نفسه كلمة الفيلسوف الساخر برنارد شو : هم يقولون . ماذا يقولون ؟ دعهم يقولون !

وحين أخذت ياسيدى — تصف لنا ظروف السيد علي يوسف ، وتحلل أسلوبه ، وتبين قدرته التى لا تجارى فى الدفاع عن مصر والإسلام مؤمنا

بأنك أنصفت الرجل فى سلوكه ، كما أنصفته فى منهجه وفى أسلوبه ، ودعمت آراءك بالبراهين القاطعة ، والأدلة الساطعة ، فقلت فى نفسى : تلك مزية رابعة من مزايا الكتاب . ولعلها أهم من جميع المزايا السابقة كلها .

(وبعد) فلست أدرى — ياسيدى — هل أهنئك بهذه الجهود الكبيرة التى تبذلها فى سبيل (صاحبة الجلالة) ؟ أم أهنىء بك (صاحبة الجلالة) وقد أتيت تقدم لها بكتابك هذا (باقة من الزهر) نضعها على مذبح الصحافة كما يضع الراهب القرابين ، ويطلق من حولها البخور ؟

إن قلبى ليستميح القارىء عذراً . فما أستطيع أن أمضى معه فى وصف مزايا الكتاب ، وحسبى أن أقول إن مؤلفه قد رسم لنا فيه صورتين رائعتين :

أولاهما : صورة للعصر وما حفل به من تيارات سياسية خفية وظاهرة ، وما كان فيه من أزمات حادة عاصفة .

والثانية : صورة للشيخ على يوسف ، حتى لكأننا نراه ، ونعيش معه ، ونتحدث إليه ، ونأخذ عنه .

أولاهما : صورة مصر الحزينة ، وقد ذهبتَ تصف بعض آلامها ، وتبكى لبكائها ، وتشتفى بهذا البكاء .

والثانية : صورة رجل عظيم ، وشيخ رزين : نصفه للامير ، ونصفه للجماهير . وإن بدا كل واحد من نصفيه كلا كامل النضج ، تام النفع ، ظاهر الغناء .

وهكذا طفقت — ياسيدى — تهدهد هذا الكتاب كما تهدهد الأم وليدها فى المهد حتى إذا بلغ ربيع العمر هامت به القلوب ، وتعشقته الأرواح ، فكأنه جارية ابن الرومى التى قال فيها :

أهى شىء لاتسأم العين منه ... أم له كل ساعة تجديد ؟

القاهرة فى أول أغسطس ١٩٥١
الموافق ٢٨ شوال ١٣٧١

تلميذك المخلص
جرجس اسحق

تقـــدمة تاريخية

بعد العاصفة :

فى ليلة من ليالى الخريف أطل السير ادوارد جراى وزير الخارجية البريطانية من نافذة بيته على لندن ، وقد أظلمت أول عهدها بالحرب العظمى فقال :

« لقد أطفئت المصابيح ، وليس من المحتمل أن تضاء فى أيامنا » .

ولعل هـذه الكلمة تصدق أيضاً على مصر عقب الثورة العرابية ، وقد سلم عرابى نفسه للسلطان الانجليزى ، وأطفأ المحتلون مصابيح البلاد بأيديهم ، وتركوها فى ظلام دامس ، وسكون كسكون أهل القبور .

وهذا هو الخديو توفيق قد عاد إلى عاصمة ملكه تحيط به حراب المحتلين؛ فلم تكن عودته يومئذ عودة الملك الفاتح أو القائد الظافر ، بل كانت أشـــبه بعودة الأسير المكبل بالقيود . ويقول الذين ذهبوا يحملون إليه نبأ الهزيمة التى منى بها الجيش المصرى فى موقعة « التل الكبير » : إنهم رأوا الدموع تتساقط من عينيه[1] . فقد أدرك الرجل أن الثورة العرابية بتطرفها وتسرعها وعـدم إعدادها للأمر عدته إنما قذفت بالبلاد فى أتون احتلال بغيض سيبق جاثماً بصدره عليها ، ولا يدرى أحد متى يفلت منه .

إذ ذاك ندبت الحكومة البريطانية سفيرها فى الآستانة — وهو اللورد دوفرين — فجاء إلى مصر ، وأشرف على محاكمة الثوار بها ، ثم شرع يدرس أحوال البلاد ، ويفكر فى تنظيمها وفقاً لمصالح الاستعمار . وبدأ اللورد دوفرين إصلاحاته فعلا بإلغاء المراقبة الثنائية ، ثم بإنشاء جيش مصرى جديد يرأسه قائد انجليزى، ثم بإصلاح الشرطة، ثم بوضع نظام نيابى جديد يتألف من مجالس المديريات ، ومن مجلس يقـال له مجلس شورى القوانين . وعندئذ انتهت مهمة هذا الرجل . وبادرت الحكومة الانجليزية بتعيين اللورد

---

(١) مذكرات شفيق باشا — الجزء الأول — ص ١٩٤

كرومر معتمداً بريطانيا فى مصر ليقوم بتنفيـذ الإصلاحات التى اقترحها اللورد دوفرين . فأتى كرومر لهذه الغاية . وشـاءت الأقدار أن يقضى فى مصر خمساً وعشرين سنة (ما بين سنة ١٨٨٣ — ١٩٠٧) وهو يعمل كل ما فى وسعه لخير الاحتلال ، وإطالة أمده فى مصر .

وشهد كرومر فى أثناء هذه المدة الطويلة واليين شرعيين من ولاة مصر ، هما الخديو توفيق (١٨٧٩ — ١٨٩٢) ، والخديو عباس حلمى الثانى (١٨٩٢ — ١٩١٤) .

أما توفيق فكان رجلا رضى النفس ، رقيق القلب ، حلو المعاشرة ، معتدلا فى سيرتيه الخاصـــة والعامة ، لم يجد بدأ من مسايرة الاحتلال ، والعمل بنصائح الانجليز . وقد عبر عن ذلك فى حديثه مع مراسل التيمس حيث قال :

«إننى لم أكن أفكر فى منصب الخديوية ، وإن أحسن أيامى أيام كنت بعيداً عن هـذا المنصب ، وإنى لم أقبله إلا قياما بالواجب نحو أبى ووطنى مسترشداً فى ذلك بنصائح المراقبة الثنائية ونصائح انجلترة . وإن أمامى الآن واحدة من ثلاث : فإما أن أتبع هـذه النصائح ظاهراً ، وأعمل على محاربتها فى الخفاء . وإما أن أطيعها طاعة عمياء . وإما أن أناقش هذه النصائح بكل صراحة ، وأبدى آرائى فيها ، فاذا قبلت آرائى كان بهـا ، وإلا فأنا مضطر لقبولها . وقد اتبعت فى الحكم الطريقة الأخيرة ، فاعتبرت ضعيفاً . فهل كان يمكننى أن أقاوم للنهاية ؟ » [١] .

وسار توفيق هـذه السيرة مع كرومر ، فآثر الراحة والدعة ، وسـعى جهده فى تفادى الأزمات العنيفة ، وتجنيب سفينة الحكم أذى العواصف المخيفة . فأصبح أساس الحكم المصرى عقب الثورة العرابية قائماً على وجوب

---

(١) مذكرات شفيق باشا — الجزء الأول — ص ٥٢٧

التفاهم الحسن بين الخديو وأعوانه وكبار رجال دولته من ناحية ، والمعتمد البريطانى وأعوانه وكبار موظفيه من ناحية ثانيـة ، أو بعبارة أخرى بين الحاكم الشرعى للبلاد ــ وهو توفيق ــ والحاكم الفعلى لها ، وهو كرومر .

وبقيت العلاقات بين هذين الحاكمين على أحسن وجه من الاحترام ومن الود حتى قضى الخديو نحبـه ، وانتقل إلى رحمة ربه . وحين ذهب كرومر ليعوده فى مرضه الأخير ، وأخبره الطبيب أن الأمير يحتضر شعر كرومر بصدمة وحزن وحسرة وخيبة أمل . وعبر عن ذلك فى قوله :

« إن القدر الذى عرَّفه هومير بأنه الصاعقة أو نذير الخراب لم يستحق هذا التعريف كما استحقه الآن حينما عصف بحياة هذا الرجل ، وهو فى ربيع حياته ، فقوض بهذا نظاما كان يتوقف وجوده إلى درجة كبيرة على إطالة أجله »[١].

وبموت توفيق خلفه على عرش مصر عباس حلمى الثانى . وكان الصراع فى أيامه على أشده بين مصر والاحتلال البريطانى . ولكن قبل أن نلم بشىء من هذا الصراع يحسن بنـا أن نعرج على السودان ، فقد امتدت إليه يد الاستعمار ، وسال له لعابه ، فراح هذا الاستعمار يومئذ يلعب بهذه الورقة الأخيرة ، وقدر له أن يربحها هى الأخرى فى نهاية الأمر .

فى ربوع السودان :

كان الهدوء الشامل يمد ظلاله على مصر الحزينة عقب الثورة العرابية ، وإذا بثورة فى السودان ينـدلع لهبها ، ويشتد أوارها ، وتقوم هناك على أكتاف الدراويش ، بقيادة رجل منهم يقال له (المهدى) .

واستهانت الحكومة المصرية بهـذه الثورة أول الأمر ، ثم اضطرت أخيراً إلى الاهتمام بها ، فجهزت حملة كان أكثرها من أعوان عرابى .

---

(١) Cromes; Abbas II. p. 7

وسافرت الحملة بقيادة هيكس (باشا) إلى السودان ، وهنالك حدث مالم يكن فى الحسبان . فقد التقت هذه الحملة بجموع الدراويش ، وكادت هذه الجموع أن تبيد الجيش المصرى كله عن آخره !

إذ ذاك تمخضت سياسة الاستعمار عن رأى أشار به الانجليز على الحكومة المصرية . وهذا الرأى هو أن يجلو المصريون عن السودان فى الحال لكى يعيد المحتلون من الانجليز فتحه من جديد . فهال الرأى رئيس الحكومة المصرية وقتئذ — وهو شريف (باشا) — ورفضه بإباء تام . وخاطب الانجليز بقوله « إننا إذا تركنا نحن السودان فإن السودان لايتركنا » . واستقال شريف بعد ذلك من الوزارة . وخلفه نوبار عليها ، فوافق المسكين على الجلاء . وخلا السودان للمهدى الذى أقام فيه حكومة باسمه .

ثم تمخضت سياسة الاستعمار مرة أخرى عن رأى آخر يطيل أمد الاحتلال الانجليزى لجميع الوادى :

هذا الرأى هو إعادة فتح السودان ، واشتراك القوتين الانجليزية والمصرية فى هذا الفتح . وبالفعل تولى اللورد كتشنر قيادة هذا الجيش ، وتمكن به من فتح الخرطوم ، ومن هزيمة (التعايشى) خليفة المهدى . وهناك رفع اللورد كتشنر الرايتين المصرية والانجليزية .

إذ ذاك بدا لفرنسا أن تزحف هى الأخرى إلى السودان ، وتغنم هذه الفرصه الذهبية قبل فواتها ، فتوغلت بجنودها فى السودان .حتى وصلت إلى « فاشودة » ، واحتلتها ، وكان ذلك فى ١٠ يولية سنة ١٨٩٨ . وما كاد الخبر يطير إلى كتشنر حتى سار من فوره إلى فاشودة ، والتقى بالفرنسيين .وتحرج الموقف تحرجا عظيما ، وكاد يؤدى إلى حرب بين فرنسا وانجلترا ، لولا بعد نظر من الأولى ، فقد آثرت فرنسا الانسحاب ، وتنازلت لانجلترا عن فاشودة بحجة انها ملك لمصر والتاج البريطانى فى وقت معاً .

وهكذا نشر الاحتلال الانجليزى أعلامه السود على وادى النيل، وحال بينه وبين الاستقلال الحقيقى إلى يومنا هذا .

حمل بين الذئاب :

جلس عباس الثانى على عرش الخديوية المصرية بمقتضى الفرامانات السلطانية . فشعر منذ اللحظة الأولى أنه لا يدين بعرشه هذا للإنجليز . وكان عباس شابا فى الثامنة عشرة من عمره . ومنى « ڤينا » حيث كان يتلقى العلم دُعى ليتولى الحكم فى مصر .

وكان عباس يعيب على جده اسماعيل تبذيره وإسرافه ، ويعيب على أبيه توفيق ضعفه واستسلامه ، ويعيب على رجال الحاشية والحكومة ذلهم واحتطابهم فى حبل الغاصب . فعقد العزم على أن يتخذ لنفسه سياسة جديدة ليس فيها شىء من كل ذلك .

غير أن الطريق كان وعراً ، والجو ملبداً بالغيوم، والعدو ناشبا أظفاره بمصر ، فهى لا تستطيع منه فكاكا ، ولا تملك من يده انفلاتاً .

والتقى اللورد كرومر بالأمير الشاب عباس حلمى ، ونظر كل منهما إلى صاحبه نظرة فاحصة كتب كرومر بعدها إلى اللورد سالسبورى وزير الخارجية البريطانية يقول :

« إنى أرى أن الخديو الشاب سيكون مصريا بحتا » (1) . ففهم الوزير الانجليزى ماذا يراد بهذه الكلمة !.

منذ يومئذ وطن كرومر نفسه على صراع طويل يحتاج إلى قوة كبيرة وصبر عظيم . كما وطن الأمير الشاب نفسه على مثل ذلك . وكان الشعب المصرى قد أصابه الذهول عقب الثورة العرابية ، وأخذ يتلمس زعماءه ؛ فوجدهم بين أسير يعانى آلام السجن أو النفى ، وهائم على وجهه فى الأرض وما كاد يلوح لهذا الشعب الذاهل عن نفسه بريق أمل فى الجو ، ويحس

(1) Cromer : Abbas II. p. 4.

أن على رأسه أميراً شاباً يريد أن ينتشله من وهدة هذا الجور ، حتى هرع إليه بكل قوته . وأبدى استعداده لأن يضع يده فى يده . وكان فى عباس حماسة واستعداد يؤهلانه لأن يكون زعيما للشعب المصرى فى ذلك الظرف لولا ما اعترضه من صعاب ، وألقى فى طريقه من أشواك ، وصادفه فى حياته من خطوب ومحن .

وإنا لشارحون للقارىء باختصار طائفة يسيرة من هذه الصعاب التى واجهت عباساً فى ولايته ، وقضى العمر كله فى مصر يحاول مناضلتها ، وإن لم يكتب له الظفر الكامل على واحدة منها :

النظار ، والاحتلال ، والباب العالى ، وفرنسا — تلك هى أهم الصعاب التى اعترضت هذا الشاب ، وكانت كل واحدة منها قذيفة كبيرة دك القدر بها دكا فى بناء الوطن ، وأصاب بها منه مقتلا ! ولننظر فى أولاها وهى :

محنة النظار :

كان يتولى سفينة الحكم فى هـــذا البحر المائج المتلاطم طائفة من النظار المصريين الذين وزروا لهذا الأمير . فكان بعضهم يخضعه الخوف ، وبعضهم يخضعه المال ، وبعضهم يكتم فى نفسه حسن الرأى . وكان من أولئك النظار على سبيل المثال : مصطفى فهمى ، ومصطفى رياض ، ونوبار ، وبطرس غالى .

أما (مصطفى فهمى) فيقول عنه الخديو عباس « إن المصريين يعتبرونه انجليزيا أكثر من الانجليز أنفسهم »[1] . وقد كان هذا الوصف منطويا على قدر كبير من الحقيقة . فقد تولى مصطفى فهمى النظارة أربعة عشر عاما لم يكن فى أثنائها أكثر من آلة فى أيدى الانجليز . وكان مصطفى فهمى ينظر إلى اللورد كرومر على أنه الحاكم الحقيقى للبلاد . وحين جلس عباس على

---

(١) Cromer ; Appas. p. 10.

عرش مصر كان مصطفى فهمى لم يزل رئيس الحكومة ، فانتهز الأمير الشاب فرصة سنحت له إذ ذاك، وهى إصابة هذا الرئيس فى أواخر ديسمبر سنة ١٨٩٢ بمرض خطير فى الرئتين ، وأرسل إليه رسولا « يطلب اليه أن يستقيل نظراً لاعتلال صحته ، فأجابه الرئيس بقوله : إن الأوفق لسموه أن يستشير اللورد كرومر قبل أن يصل إلى قرار نهائى » !

ولقد كان هذا الرد أليما شديد الوقع على الأمير ونفوس الوطنيين معه من المصريين ، وحملت أكثر الصحف على الوزير ، واتهمته بخيانة العرش ، لأنه بهذا القول يعترف بأنه يشغل منصبه ، لا بإرادة الخديو ، بل بإرادة الوزير البريطانى [1] .

أما الخديو عباس فانه لم يجد بدأ من أن يرسل إلى الوزير كتابا بإقالته فى ١٥ يناير سنة ١٨٩٢ . وفى الوقت نفسه بعث إلى اللورد كرومر يبلغه أنه أقال مصطفى فهمى ، كما أقال ناظرى المالية والحقانية ، وعين مكانهم حسين فخرى (باشا) وآخرين [2] . وسترى — أيها القارىء — بقية هذه القصة بعد الفراغ من عرض نماذج أخرى من نظار مصر فى تلك الفترة .

ومن هؤلاء النظار (رياض) — وقد اختلف المؤرخون اختلافا كبيراً فى شأن هذا الرجل ،ومصدر هذا الخلاف إنما هو تقلبه الظاهر فى سياسته . فبينا تراه يؤيد حرية الصحافة ، ويحتضن إليه قائداً كبيراً من قادة الرأى العام فى مصر والشرق ، وهو السيد جمال الدين الأفغانى ، إذ بنا تراه بعد ذلك يضيق الخناق على الصحافة ، ويعرض بعضها للتعطيل والايذاء بدون حجة واضحة ، ويضطر صحفيا كأديب اسحق إلى السفر إلى فرنسا ، حيث أصدر بعض الصحف التى تحدثنا عنها فى الجزء الأول من كتابنا هذا . وبينا ترى رياضا شديد الاعجاب بالأجانب إلى حد أنه

---

(١) Cromer : Abbas II p. 12

(٢) مذكرات شفيق باشا الجزء الثانى — القسم الأول ص ٥٨

لا يرى بأساً من إغضاب الخديو توفيق وإغضاب الأمة فى سبيل إرضائهم ، إذ بنا نراه فى عهد عباس الثانى يقاوم النفوذ الإنجليزى مسايرة منه لأهواء هذا الأمير . بل إنه ليزين له سياسة مقاومة الإنجليز ، حتى إذا تحرجت الأمور بين الأمير وكرومر فى أزمة الحدود التى سنشير إليها نصح الأمير بالإذعان والخضوع . ثم بينما نرى رياضاً يلغى السخرة ويعاقب مديراً سخر الأهالى فى حفر ترعة خاصة بالخديو ، إذ بنا نراه بعد ذلك يساعد الخديو على الإستبداد بالأمر والتفرد بالحكم فى مصر .

وقد التفت اللورد كرومر إلى هذا التناقض الكبير فى سياسة رياض ، وأشار إليه فى كتابه إشارات كثيرة[1] .

وأما (نوبار) فقد تعرض كرومر لشخصيته كذلك ، وتناولها بشىء من التحليل فى كتاب له آخر عنوانه (مصر الحديثة) قال فيه :

« ونوبار رجل أرمنى مسيحى قد ظفر بقدر كبير من الثقافة الفرنسية ، وساعده إتقانه للغة الفرنسية على اصطناع الأساليب التى كان يصطنعها الساسة فى القرن الثامن عشر ؛ وهى الأساليب التى تقوم على أساس التلاعب بالألفاظ ، كما تقوم على الشد والإرخاء ونحو ذلك . ونوبار أول من أدخل نظم الحكم الدستورية فى مصر . فقد ألف أول وزارة مسئولة برياسته فى عهد إسماعيل ، وذلك فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ . وكان الخديو فى هذه الحكومة لا نفوذ له » .

ثم أضاف كرومر إلى هذا قوله :

« ومع ذلك فإن نوباراً كان يؤيد الإحتلال الإنجليزى لمصر من الناحية العسكرية ، وإن كان يكره تدخل الإنجليز فى الإدارة المصرية »[2] .

أما (بطرس غالى) فلم يكن يختلف كثيراً عن مصطفى فهمى . فهو الذى

---

(١) Cromer : Abbas II. p. 43.

(٢) Cromer : modern Egypte Vol. II.p. 338.

أبرم مع كرومر إتفاقية السودان سنة ١٨٩٩ . وفى هـذا الإتفاق تراضى الفريقان : مصر والإنجليز على أن يشتركا معاً فى حكم السودان . وأن يكون للسودان حاكم عام يتم تعيينه بمعرفة الخـــديو وبعد موافقة انجلترة[١].

وبطرس غالى هو الذى رأس المحكمة المخصوصة التى نظرت فى قضية دنشواى. ولنسمع للخديو عباس يعقب على ذلك ، ويلقى تهمة التقصير والتخاذل على عاتق الحكومة المصرية فيقول :

« وإنى ليستثير ألمى أن أفصل القول فى هـذا الحادث الذى حمل إلىّ البرق نبأه أثناء استشفائى فى فينا ، فقد هز نفسى أعنف هزة ، سواء من جهة الوقائع التى وقعت ، أو من جهة موقف الحكومة المصرية .

لقد كان الواجب أن يقابل سوء تصرف الإنجليز ووحشيتهم بوطنية المصريين وحرصهم على كرامتهم . وليس مما يغتفر للإنجليز بلا ريب أنهم شكلوا محكمة استثنائية كى يحاكموا فلاحين وادعين لم يرتكبوا جرما إلا الدفاع عن حقوقهم وممتلكاتهم . ولـكن جرمهم فى ذلك لا يقاس بجرم أولئك المصريين الذين قبلوا بغير اعتراض الإشتراك فى تلك المحكمة ، وأباحوا للدولة المحتلة تلك الترضيات التى ما كانت لتجرؤ على المطالبة بها لو أنها أحست من جانبهم مقاومة بسيطة . إن النظار المصريين لم تبدر منهم بادرة للتخلص من ذلك الشرف المحزن — شرف محاكمة مواطنيهم — ولم تند عن شفاههم كلمة طيبة واحدة[٢] .. »

ثم إن بطرس غالى هو الذى حاول أن يظفر من الجمعية العمومية بموافقتها على مد أجل الإمتياز المعروف بامتياز قناة السويس ، وقد كان لهذا الإتفاق الأخير صدى كبير فى الرأى العام المصرى . حتى أنه فى أثناء الهياج الذى أحدثه هذا الامتياز وقع حادث مؤلم ، تعدى فيه صيدلى يقال له (إبراهيم ناصف

---

(١) مذكرات شفيق باشا — الجزء الثانى — القسم الأول . ص ٢٩٨

(٢) أنظر جريدة المصرى — بتاريخ ١٩ مايو سنة ١٩٥١

الوردانى) على حياة ناظر النظار بطرس غالى ، وكان هذا القاتل شاباً عصبى المزاج ، شديد الإنفعال ، وقد صرّح بقوله يومئذ :

« إن تصرفات بطرس غالى هى التى دفعتنى إلى ارتكاب الجريمة . فقد كان الباشا عضواً فى اللجنة الدولية لتصفية الدين المصرى . وعلى يد هذا الباشا تم توقيع إتفاقية السودان عام ١٨٩٩ . ولما عين ناظراً للحقانية رأس بنفسه محكمة دنشواى ، وتمت على يديه إجراءاتها الشاذة . ثم حين أصبح هذا الباشا رئيساً للنظار عام ١٩٠٧ أعيـــد تحت إشرافه تطبيق قانون المطبوعات . وأخيراً أراه قد اندفع فى تحبيذ هذا المشروع الذى هو مد أجل الإمتياز الخ »

ضربة الجبار :

هكذا كان النظار محنة من المحن التى امتحن بها القدر مصر وأميرها الشاب الذى كان يحمل لها فى أعماق قلبه أصدق الرغبة فى تخليصها من براثن الإحتلال . ثم كان هذا الإحتلال فى ذاته المحنة الثانية والأشد من جميع تلك المحن التى امتحن القدر بها مصر وأمير مصر فى ذلك الوقت .

وكان يمثل الإحتلال البريطانى فى ذلك الوقت ثلاثة رجال وهم: كرومر وغورست ، وكتشنر .

أما أول الثلاثة فهو جبار الإحتلال فى مصر ، وقد طال عهده بها حتى قارب خمساً وعشرين سنة ، إمتازت بالأزمات الحادة . وكان من أظهرها أزمتان هما : أزمة النظارة الفهمية ، وأزمة الحدود :

أما (أزمة الوزارة الفهمية) فقد وصلنا بالقارىء فيها إلى الظرف الذى أقال فيه عباس وزيره مصطفى فهمى . وطار الخبر إلى جبار الاحتلال ، فكبر عليه أن يقدم أمير البلاد على إحداث هذا التغيير الوزارى دون الرجوع اليه قبل إحداثه . ورأى اللورد فى هذا العمل الأخير ضربة موجهة للنفوذ

البريطانى فى مصر . فأبرق إلى وزارة الخارجية البريطانية يقول : إن التغيير الوزارى جرى فى مصر بدون علم منه . وقابل بنفسه الخديو بعد ذلك، وأبدى له إعتراضاته ، ثم لم يلبث أن عرض عليه صورة برقية وردت إليه من وزارة الخارجية البريطانية ، وفيها تقول : « إن الحكومة الإنجليزية تنتظر أن يؤخذ رأيها فى المسائل الخطيرة ، كمسألة تغيير النظار ، وإنها فى الوقت الحاضر لا ترى أية ضرورة لهذا التغيير ، ولذلك لا تستطيع الموافقة على تعيين حسين فخرى باشا » . فرد الخديو على ذلك بقوله :

« إنه يرى أن تنازله عن العرش أهون على نفسه من إرجاع مصطفى فهمى باشا الى النظارة »[1] .

وبعد مفاوضات طويلة جرت بين لندن والقاهرة إنتهى الأمر بحل وسط ، هو إبعاد مصطفى فهمى الذى عزله الخديو ، وإبعاد حسين فخرى الذى أتى به الخديو ، ثم إسناد منصب النظارة إلى رياض .

وعلقت الصحف فى مصر والخارج على هذه الأزمة تعليقات مختلفة . فأما الصحافة الوطنية فقد أشادت بموقف عباس ، ودافعت عنه ، وأعجبت بوطنيته . وقامت المظاهرات العامة فى طول البلاد وعرضها ، ولجأت الحكومة فيها الى إستخدام العنف والقسوة ولعل أخطر هذه المظاهرات ما كان منها أمام جريدة المقطم المعروفة بميولها الإنجليزية السافرة .

وأما الصحف الفرنسية فقد نشرت إحداها فى ٥ فبراير سنة ١٨٩٣ صورة كاريكاتورية مثلت فيها (جون بول) وقد اتخذ من عباس لعبة له . ونشرت أخرى من الجرائد الأوروبية كذلك صورة كاريكاتورية مثلت فيها (جون بول) وقد أخذ يعذب عباساً ليؤدبه ، وسلطان تركيا إلى جانبه يرفع يديه إلى السماء فى ذلة وضراعة ، وملكة الإنجليز تنظر إلى جون بول ضاحكة ومصفقة ! .

---

(١) مذكرات أحمد شفيق باشا — الجزء الثالث — القسم الأول — ص ٥٨

وأما صحف إنجلترة فقد حملت حملة شعواء على الخديو عباس . وقالت التيمس إذ ذاك :

« إن عباساً صغير السن ، وتنقصه أشياء كثيرة يلزمه تعلمها . وقد أساء اختيار الطريق الموصل إلى الإستقلال الذى يرغب فيه . فقد غاب عنه أن الإنجليز هم وحدهم القادرون على تأييد عرشه . ومع ذلك فالوقت يسمح له الآن بالخروج من هذا المأزق دون أن يمسه أذى لا يستطيع الصبر على تحمله » .

ولم يكد يمر عام على الأزمة الفهمية حتى فوجىء الرأى العام « بأزمة الحدود » :

ذلك أنه فى أوائل يناير عام ١٨٩٤ سافر الخديو ومعه ماهر باشا صاعداً فى النيل حتى بلغ وادى حلفا . وهناك أخذ فى استعراض الجيش . ثم قال سموه لقومندان السوارى : إننى مسرور جداً من حركات جنودكم . ولكن عند مرور الأورطتين الثانية والحادية عشرة التفت سموه إلى ماهر باشا وقال له : « إن هؤلاء الجنود فى حالة تدعو إلى الخجل » . ثم التفت إلى قومندان الأورطة الثانية — وكان من الإنجليز — فقال له : « إننى آسف لأن سير هذه الأورطة ليس حسناً كسائر الأورط الأخرى . ولكننى أؤمل أن تتقدم حالة جنودكم أكثر من ذلك » . وأبدى سموه مثل هذه الملاحظة على الأورطة الحادية عشرة ، وصرح بكل ذلك لكتشنر قائلا له : « إننى أمدح كل ضابط يقوم بواجباته ، وألوم كل ضابط يقصر فيما عليه نحو فرقته » .

ولم يكد كتشنر يسمع كل هذه الملاحظات حتى أرعد وأبرق ، وأرغى وأزبد ، وكتب إلى كرومر يخبره بما حدث . فانتهز كرومر هذه الفرصة وخلع على الحادث صبغة سياسية ، ورأى فى هذه الملاحظات التى أبداها الخديو عباس إخلالا بنظام الجيش ، وتحريضاً للجنود المصريين على عدم

الطاعة لضباطهم الإنجليز . واعتزم إذ ذاك على أن يضرب الضربة القاضية !

وأتى كرومر إلى رئيس النظار ، وهدد بخلع الخديو إذا لم يسحب انتقاداته . وأنهى إلى الحكومة المصرية بأن برقية وردت إليه من وزارة الخارجية البريطانية تقول فيها : إذا رفضت مصر إجابة هذه المطالب اضطررنا إلى اتخاذ الوسائل الفعالة لوضع الجيش المصرى كله تحت قيادة جيش الإحتلال .

وإذ ذاك أيضاً خف رياض باشا لمقابلة الخديو عباس ، وبالغ له فى شرح خطورة الموقف ، وحمل الخديو يومئذ على الإذعان ، فبعث الخديو فى ٢٦ يناير إلى السردار بالبرقية الآتية :

« قبل أن أترك الوجه القبلى ، وأعود إلى مصر أريد أن أكرر ما أظهرته من العناية وحسن الإلتفات للجيش عند زيارتى للحدود ، وأؤيد حسن رضائى الذى أبديته لكم من حسن حالة الجيش ونظامه . وإننى لمسرور أن أهنىء الضباط الذين يرأسونهم — مصريين كانوا أو إنجليزاً . وإننى أرتاح أيضاً لأن أقدر الخدمات التى أداها الضباط الإنجليز لجيشنا حق قدرها . وأملنا أيها السردار أن تعلنوا أمرنا هذا للضباط والعساكر » .

وكان لهذا الحادث صداه فى داخل البلاد وخارجها . فقد نددت (الأهرام) بموقف النظار من الخديو ، واتهمتهم بمساعدة الإنجليز وتنفيذ مطالبهم . وعلقت الصحف الإنجليزية على الحادث قائلة أن الخديو هو الذى اعتدى على كرامة الضباط الإنجليز ، وأهانهم إهانة لا يمكن إحتمالها . وأما سفير فرنسا فقد كان موقفه سلبياً من الخديو ، ولم يقدم أية مساعدة له فى محنته . والحقيقة أنه كان يمكن الخروج من هذه الأزمة بشرف لو أن النظار المصريين وقفوا جميعاً إلى جانب الأمير ، لأن الأمر فى الواقع لم يكن من الخطورة بالدرجة التى صورها رياض للجالس على العرش . وربما أنه بسبب

ذلك إستقال رياض ، وخلفه فى الوزارة نوبار ، وذلك فى الرابع من شهر أبريل سنة ١٨٩٤ .

وهكذا كاد الإحتلال الإنجليزى لعباس وجاذبه ، وضيق عليه الخناق وحاربه . فقد كان الأمير محقاً يوم أقال الوزير الذى رأى فيه أنه إنجليزى أكثر من الإنجليز . كما كان الأمير محقاً يوم أبدى بعض الملاحظات على نظام الجيش المقيم بالسودان . ولكن هذا وذاك لم يرق فى نظر جبار الإحتلال فى مصر . فوجه إليه هذه الضربة المؤلمة . « مسكين هذا الخديو لا يعرف من أى جهة يأتيه الكدر والضرر » كما يقول أحمد شفيق باشا فى بعض مذكراته التى كتبها .

يد من حديد فى قفاز من حرير :

وفى صيف سنة ١٩٠٧ إستقال اللورد كرومر من منصبه بحجة اعتلال صحته . وودعه الوطنيون جميعاً بشىء غير قليل من الشماتة والسخرية . وقال الشعراء كثيراً فى هذا المعنى . ومنهم أحمد شوقى بك فى قصيدة له بلغت خمسة وخمسين بيتاً منها قوله :

أيامكم أم عهد إسماعيلا   أم أنت فرعون يسوس النيلا
أم حاكم فى أرض مصر بأمره   لا سائلا أبداً ولا مسؤولا
يا مالكا رق الرقاب بيأسه   هلا اتخذت إلى القلوب سبيلا ؟
لما رحلت عن البلاد تشهدت   فكأنك الداء العياء رحيلا
أنذرتنا رقاً يدوم وذلة   تبقى وحالا لا ترى تحويلا
أحسبت أن الله دونك قدرة   لا يملك التغيير والتبديلا ؟
قالوا جلبت لنا الرفاهة والغنى   جحدوا الإله وصنعه والنيلا
وحياة مصر على زمان محمد   ونهوضها من عهد إسماعيلا

في كل تقرير تقول : خلقتكم — أفهل ترى تقريرك التنزيلا ؟
فارحل بحفظ الله جل صنيعه — مستعفياً إن شئت أو معزولا
إنا تمنينا على الله المنى — والله كان بنيلهن كفيلا !!

وانقضت أيام كرومر بخيرها وشرها ،وخلفه (السير ألدون غورست) ، وكان هذا الرجل مستشاراً مالياً لمصر في عهد كرومر ، كما كان صديقاً شخصياً للخديوى عباس . وكانت سياسة غورست تعرف بسياسة « اليد الحديدية في القفاز الحريرى » . فقد وضع هذا الرجل نصب عينيه هدفاً واحداً ، وهذا الهدف هو القضاء على الحركة الوطنية قضاء أبرماً . فكيف السبيل إلى تحقيق ذلك ؟

إتخذ غورست لنفسه إذ ذاك خطة تقوم على مسالمة الخديو ، وملاينته ومداهنته .كما تقوم في نفس الوقت على مخاشنة الوطنيين . والتشدد عليهم، وعدم الرأفة بهم : وإذا ذهبت تبحث عن عنوان لهذه السياسة الإنجليزية المعروفة فلن تجد لها خيراً من عنوان « فرق تسد » .

حاول غورست أن يفرق أولا بين الأمير الشاب عباس حلمى والزعيم الوطني الشاب مصطفى كامل .كما عمل غورست كذلك على التفرقة بين الأحزاب المصرية التى أصبح لها وجود فعلى بين سنتى ١٩٠٦ ، ١٩٠٧ . وكانت هذه الأحزاب ثلاثة هى : الحزب الوطنى وزعيمه مصطفى كامل . وحزب الإصلاح على المبادىء الدستورية وزعيمه على يوسف ، وحزب الأمة وهو الحزب الذى سبق الحزبين الأولين إلى الظهور . وأخيراً أفلح غورست أيضاً في التفرقة بين عنصرى الأمة المصرية ؛ أعنى المسلمين والأقباط . والعجيب أن القدر كتب لهذا الداهية الإنجليزى نجاحاً تاماً في جميع هذه الخطط . !

حفر داهية الإنجليز الخندق الأول من خنادقه بين عباس حلمى ومصطفى كامل

فبعد أن كانا متصادقين متضامنين صار الأخير يعمل وحده فى ميدان الجهاد ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أخذ مصطفى كامل يرمى الخديو نفسه بالخيانة .

« وتقابل[1] الشيخ على يوسف مع الخديو فى ١١ ديسمبر سنة ١٩٠٨ فأظهر سموه إستياءه الشديد من إفتراءات اللواء والحزب الوطنى ، وقال : كيف أقضى خمسة عشر عاماً فى حرب عنيفة مع الإنجليز ، والآن ينسى هؤلاء المفترون كل ذلك ، ويقولون إنى خائن . ولو ادعوا شيئاً آخر لما صعب على » .

وحفر الداهية خندقه الثانى بين الأحزاب المصرية بما زود الصحف يومئذ من أسباب الخصام الذى وصل فى كثير من الأحيان إلى حد المهاترة والإتهامات الباطلة . حتى لقد اتهمت (المؤيد) صاحب (اللواء) بأنه إنما يريد تقليد عرابى .

ثم حفر الداهية خندقه الأخير بين المسلمين والأقباط . فلا ينسى المصريون أنه فى عهد هذا العميد البريطانى الجديد ، بل بجهوده أيضاً تم مشروع خطير هو مد إمتياز قناة السويس أربعين سنة تنتهى ١٩٦٨ . واندفع بطرس غالى فى تأييد هذا المشروع ، فأحفظ عليه الرأى العام المصرى كما رأينا . وانتهى الأمر بمقتل هذا الرجل الذى قيل أنه كان فى نفس الوقت زعيما للطائفة القبطية بالديار المصرية . فأحدث مقتله ثغرة كبيرة فى صفوف الأمة ، وعاد الإنجليز يرمون المصريين بتهمة التعصب الدينى ، ففرقوا بذلك بين عنصرى الأمة . وتلك هى الثمرة الثالثة لهذه السياسة التى اتبعها ألدون غورست .

يضاف إلى كل ما تقدم أن قانون المطبوعات لسنة ١٨٨١ كان قد بعث من جديد فى عهد هذا المعتمد الجديد ، وكان القصد منه التضييق التام على الصحف . وإن كان ذلك فى الظاهر بناء على طلب من الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين لأغراض تختص بالمجتمع المصرى .

---

(١) مذكرات أحمد شفيق باشا — الجزء الثانى — القسم الثانى ص ١٢٤ .

وهنا يجدر بنا أن نقول أن الشيخ على يوسف حين علم بعزم الحكومة على بعث هذا القانون الذى هو وليد الثورة العرابية وظروفها فقط جاء إلى الخديو فى ١٩ مارس سنة ١٩٠٩ وقال لسموه :[١]

« إن هذا الأمر لا يصح بعثه بعد ربع قرن ، وإنه يسىء إلى الجميع من حيث الحرية التامة، وسنحتاج إلى استعمال هذه الحرية فى وقت ما فلا نجدها. فأجابه الخديو : إن ذلك صحيح ، ولكن المخابرات بيننا وبين انجلترة تقدمت تقدماً عظيما ، ولا يمكننا الرجوع إلى الوراء » .

وكانت أول جريدة ذهبت ضحية لهذا القانون هى من غير شك جريدة اللواء . وتلك كانت الثمرة الرابعة والأخيرة من ثمرات السياسة التى اتبعها (السير ألدون غورست) . وقد ظل هذا فى منصبه بمصر حتى يوم ١٢ يولية سنة ١٩١١ وهو اليوم الذى قطع فيه الموت كل صلة له بهذا الوطن .

ثالثة الأثافى :

مات غورست وكان من خير من يمثلون السياسة الإنجليزية التى شرحنا طرفا منها . والإنجليز وإن غيروا ساستهم فإنهم لايغيرون سياستهم . فقد كان كرومر يعمل بوحى من هذه السياسة ، غير أنه كان رجلا يؤثر الشدة والصرامة ، كما يؤثر الشجاعة والصراحة ، وذلك فى مواجهة المواقف والأزمات التى تعرض له . وجاء غورست يعمل أيضا بوحى من هذه السياسة ، غير أنه كان يؤثر المكر والخديعة ، كما يؤثر الملاينة والمداهنة . ثم جاء كتشنر — وهو ثالثة الأثافى — يجرى على نفس هذه السياسة . ولم يكن كتشنر فى ذاته جديداً على مصر والمصريين . فقد عرفوه سرداراً للجيش المصرى ، وحاكماً للسودان . واصطدم به الخديو فى أزمة الحدود ، وكان من المنتظر أن

---

(١) مذكرات أحمد شفيق باشا — الجزء الثانى — القسم الثانى ص ١٧٤

يسير كتشنر فى نفس الطريق التى سار فيها سلفه ، ولكن الناس عرفوا بعد ذلك أنه كان ينوى السير على خطة كرومر . فقد رغب منذ أول الامر عن مجاملة الخديو عباس ومراعاة خاطره . وامتدت رغبته كذلك إلى السيطرة على جميع مرافق البلاد . ولاقت الصحف على يديه الأمرين ، بعد أن سلط عليها شواظا من تلك النار المحرقة ؛ وهى نار قانون المطبوعات ! فعطلت جريدتا اللواء والعلم نهائياً ، ولم تلبث أن لحقت بهما جريدة الشعب . وساد البلاد جو من الارهاب . ولقى الوطنيون ألواناً من العنت والاضطهاد . واستبدل كتشنر بالهيأتين التشريعيتين هيئة جديدة واحدة سميت (بالجمعية التشريعية).وكان رأيها استشاريا فقط ، وإن خولت حق إبداء الرأى النهائى عند فرض أية زيادة فى الضرائب .

ولخص كرومر سياسة كتشنر قائلا :

« إن اللورد كتشنر أرسل إلى مصر ليتولى المنصب الذى خلا بوفاة السير ألدون غورست . وقد جاءت النتيجة محققة لحسن الإختيار وصواب حكمته . فلم يمض على اللورد كتشنر فى مصر وقت قصير ، حتى حاز ثقة كل فئات الشعب المصرى . ولم يكن ذلك لأنه ترك للمصريين الحرية فى حكم أنفسهم بأنفسهم ، بل لأنه شدد المراقبة على أعمال الخديو وتصرفاته ، وتولى حكم المصريين بنفسه . وأما التغيير الجوهرى الذى حصل فهو أن الحكومة أصبحت حكومة فردية بشكل أكثر ظهوراً مما كانت عليه فى أى دور من أدوار الإحتلال البريطانى . ولا شك أن هذا النوع من الحكومة عرضة للانتقاد ، وغير ملائم لحالة البلاد الفعلية . ومادامت القوة الفردية تستعمل فى مصلحة الشعب المصرى فلا حاجة هناك الى إحداث تغيير فعلى يتصل بذلك[١] .

---

(١) Cromer ; Abbas II.

خيبة الظنون :

لم تكن محنة عباس فى وزرائه فقط ، ولا كانت فى الإحتلال البريطانى ذاته فقط ، وإنما جاءته المحنة كذلك من قبل الباب العالى . وكان سلطان تركيا — على زمانه — هو السلطان عبد الحميد الذى اعتلى عرش السلطنة عام ١٨٧٦ . وكانت الإمبراطورية العثمانية إذ ذاك آيلة إلى سقوط حقيق .

وكانت مصر فى عهد عباس ما زالت تابعة لتركيا بالإسم ، ولانجلترة بالفعل ، ويذكر كرومر فى كتابه (عباس الثانى) أن هذا الخديو بدأ حكمه بداية غير حسنة مع السلطان ، إذ استهل حكمه فى مصر بأزمتين :

أولاهما — أزمة الفرمانات .

والثانية — أزمة مختار باشا .

أما الأولى فمنشؤها أن الباب العالى كان يريد تحديد الحد الفاصل بين سينا والعقبة . وكان يريد سلخ الأخيرة عن الحدود المصرية . وقبلت مصر التخلى عن العقبة للدولة العلية . ولكن الباب العالى لم يكتف بذلك بل أراد أن تسلم له مصر أيضاً فى الطور . فعارضت إنجلتره فى ذلك ، وانتهت الأزمة لمصلحة مصر .

وأما أزمة مختار باشا فصدرها محاولة قنصل فرنسا حمل الخديو على إقالة مصطفى فهمى باشا لميوله الإنجليزية على نحو ما وصفنا .

ووافق مختار باشا على هذه الفكرة ، وألح على الخديو إلحاحا شديداً فى تنفيذها ، فرأى الخديو فى ذلك إعتداء على سلطته ، وأرسل برقية إلى السلطان يشكو فيها من سلوك مختار باشا .

وتشتد الأزمة الفهمية على نحو ما وصفنا ، ويرى عباس أن الفرنسيين

كالإنجليز قد خذلوه خذلاناً مبيناً فى هـذه الأمة ، فيفكر يومئذ ، ويفكر رجاله معه فى أن يولوا وجوههم شطر الآستانة .

إذ ذاك عزم عباس على زيارة السلطان ، وعلق أهمية كبيرة على هذه الزيارة ، ولكن السلطان خيب ظنه ، ولم يتحدث معه أثناء الزيارة فى شأن الأزمات التى وقعت بينه وبين رجال الإحتلال البريطانى ، مما لا بد أن يكون قد وصل إلى مسامعه عن طريق مختار باشا .

« ولكن الحديث بين السلطان وعباس دار حول الإحتياطات الصحية التى اتخذتها مصر لمكافحة الكوليرا ، واشتراك مصر فى المعرض الزراعى الصناعى ، ونحو ذلك [1] » .

هكذا خابت ظنون عباس فى عبد الحميد ، وتبين لعباس أنه كان مخدوعاً فى قدرة السلطان أو رغبته فى تحطيم الإنجليز . وكأنى بعباس هذا وقد عاد إلى مصر بعد هذه المقابلة المحزنة ولسان حاله يخاطب السلطان بقول أبى فراس :

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب

وانظر إلى اللورد كرومر يعلق فى كتابه (عباس الثانى) على هذه الزيارة بقوله :

« إن الوفد الذى صحب الخديو لم يلق غير الفشل والخيبة . فإن السلطان — على ما جاء من السفير البريطانى فى الآستانة — نصح للخديو بطريقة أبوية أن يفوض أمره إلى الله ، وأن يرضى بما قسم له ويثق بفعل الزمن ، ويحافظ دائما على العلاقات الحسنة بينه وبين انجلترة الخ » .

ثم مضى كرومر فى وصف هذه الزيارة ، ووصف عباس فقال :

(١) مذكرات أحمد شفيق باشا — جزء ثان — قسم أول — ص ٩٩ .

« لقد ذهب عباس شــاهراً السلاح ، وعاد من الزيارة مخفوض الجناح [1] » .

شجرة الخلاف [2] :

ولعل فرنسا — هى الأخرى — كانت من أشد المحن التى امتحن الله بها هذا الأمير المصرى الصبور. فمنذ نجحت إنجلترة فى إحتلال مصر سنة ١٨٨٢ والفرنسيون يعضون بنان الندم لتخلفهم عن الإنجليز فى مضمار الإستعمار ، حتى انفرد الإنجليز بتلك الغنيمة الباردة والبقرة الحلوب التى هى مصر !

ومن ثم أخذت السياسة الفرنسية تعمل على عرقلة السياسة البريطانية فى مصر ، واستعادة النفوذ الفرنسى فيها . وحين تولى عباس عرش هذه البلاد رأى الفرنسيون أن الفرصة سانحة لهم . ثم حين ظهر فى ميدان الجهاد مصطفى كامل ، وولى وجهه شطر فرنسا إستبشر الفرنسيون بالخير ، وأملوا فى النصر .

غير أن عطف الفرنسيين على مصر لم يكن عن حب حقيقى لها ، وإنما كان عن بغض حقيقى لعدوتهم إنجلترة . وقد كان حادث فاشودة مظهراً لهذا النضال الإستعمارى بين هاتين الدولتين .

ثم فى سنة ١٩٠٢ ماتت الملكة فيكتوريا بعد حكم زاهر طويل ، وخلفها على العرش إدوارد السابع — ملك السلام — كما كان يدعى بذلك. واستطاع هذا الملك — طمعاً فى تطويق ألمانيا — أن يحمل الإنجليز على بغض الألمان والتقرب من الفرنسيين .

وهذا التطور الذى حدث فى السياسة الأوربية هو الذى أدى أخيراً إلى عقد الإتفاق الودى المعروف بين فرنسا وإنجلترة ، وذلك فى ٨ أبريل سنة ١٩٠٤ . وهو يقضى بأن تطلق إنجلترة يدها فى مصر ، فى مقابل أن تطلق فرنسا يدها فى مراكش الغرب .

---

(١) Cromer. Abbas II. p. 45.

(٢) شجرة الخلاف هى شجرة الصفصاف شبه بها ابن الرومى صديقا له خدعه وخذله .

ولكن كم كان هذا الإتفاق ضربة قاضية للحركة الوطنية فى مصر ، ودرساً نافعاً للزعيم الشاب مصطفى كامل فى ذلك الوقت ؟ فقد تعلم هذا أن فرنسا لم تكن تؤثره بالحب أو العطف ، وإنما كانت تتخذ منه مطية لمضايقة إنجلترة ، لا أكثر ولا أقل .

وهكذا برح الخفاء ، وكشف الغطاء ، وتبين للناس جميعاً أن فرنسا كانت لمصر أشبه شيء بصديق ابن الرومى الذى شبهه هذا الشاعر «بشجرة الخلاف» أو شجرة الصفصاف «تورق للعين وتأبى الإثمار كل الإباء» ، أو كما قال .

كالذى غرّه السراب بما خيّـــل حتى هراق مافى السقاء

وانظر إلى شاعرنا الكبير حافظ ابراهيم يحزن لهذا الإتفاق العجيب بين انجلترة وفرنسا ، ويظهر اليأس من المصريين حيث يقول[1] :

حطمت اليراع فلا تعجبى وعفت البيان فلا تعتبى
فما أنت يا مصر دار الأديـــب ولا أنت بالبلد الطيب
وكم فيك يا مصر من كاتب أقال الـــيراع ولم يكتب
فلا تعذلينى لهذا السكوت فقد ضاق بى منك ما ضاق بى
أيعجبنى منك (يومَ الوفاق) سكوت الجماد ولعب الصبى
وكم غضب الناس من قبلنا لسلب الحقوق ولم تغضبى
أمـــور تمر وعيش يمر ونحن من اللهو فى ملعب
وهذا يلوذ بقصر الأمير ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير ويطنب فى ورده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين على غير قصد ولا مأرب

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم — نشر أحمد الزين ص ٢٠٦ .

سماء مظلومة :

على أن الإحتلال البريطاني البغيض كان يكيد لمصر وأهلها من طريق آخر ، هو طريق الدين . ولست أدرى كيف يخلط المفكرون دائماً بين الفكرة والمعتنقين لهذه الفكرة ، أو بين النظام والقائمين على هذا النظام . فالذى لا ريب فيه أن الفكرة سليمة مادامت تصدر عن عقول سليمة ، وأن النظام صحيح مادام يصدر عن مشرع حصيف . فما ظنك بالدين ، وهو ليس من صنع البشر ، وإنما هو من صنع خالق البشر ؟

أو كلما طرأ على المسلمين أو غير المسلمين ضرب من ضروب الضعف أو الخور . أو اعتراهم مرض من أمراض العقيدة أو الرأى ، وأصابتهم محنة فى أخلاقهم أو سلوكهم عزوا كل ذلك إلى الدين ، والدين براء مما يصفون !

غير أن السياسة لا قلب لها — كما يقول الشيخ على يوسف — أو قل أن السياسة لا تعرف دائماً غير لغتين ، إحداهما (لغة المصالح) والثانية (لغة المتاعب) . وهكذا كان المحتلون فى مصر ، كلما أرادوا التنصل من جريمة اقترفوها ، أو النقمة على المصريين لحركة قاموا بها دخلوا عليهم من طريق الدين ، فرموا دينهم هذا بطائفة من التهم الباطلة ، يذرون بها رماداً فى الأعين ، ويحدثون بها وقراً فى الآذان ، ويصنعون بها سدوداً منيعة ضد العقول الكبيرة فى الشرق أو الغرب ، فلا تحاول هذه العقول أن تفهم الحقيقة ، أو قل ، تجد مشقة كبيرة فى ذلك .

لقد انتقم الإنجليز من المصريين إنتقاماذريعافى حادثة دنشواى أخرجهم عن حدود الإنسانية ، وسلكهم فى زمرة المنعوتين بالهمجية . وحين أبلس جبار الاحتلال فى مصر — وهو اللورد كرومر — لم يجد أمامه باباً يهجم به على المصريين غير أن رماهم بتهمة التعصب الدينى الذى يخشى منه على حياة الأجانب المقيمين فى مصر .

هنالك انبرى له رجلان ، هما السيد على يوسف ومصطفى كامل ، وضيقا عليه الخناق ، وألزماه الحجة ، وأنزلاه عن العرش الذى يتربع عليه فى وادى النيل ، وذلك على النحو الذى سيصفه هذا الجزء من كتابنا والجزء الذى يليه إن شاء الله .

جامعة جديدة إلى جانب الجامعة الأزهرية القديمة :

وكان من سياسة الانجليز فى مصر قلة عنايتهم بالتعليم العالى ، وانصراف همتهم إلى نشر التعليم الأولى . من أجل ذلك شجعوا بكل ما ملكت أيديهم على نشر الكتاتيب . ونظموا لهذه الغاية حملات كبيرة ، وجمعيات عظيمة انبثت فى المديريات والأقاليم ، وأخذ بعضها ينافس بعضا فى جمع المال اللازم لإنشاء هذه المدارس الصغيرة .

ثم التفت الرأى العام المصرى التفاتة قوية إلى صنع الإنجليز ، وطفق المفكرون فى الأمة يتناظرون على صفحات الجرائد فى هذا الموضوع وهو: أيهما أجدى على المصريين : العناية بالتعليم العالى أم العناية بالتعليم الأولى؟ وكثر الجدل بين المتناظرين ، واشتغل الجميع طويلا بالتفكير فى هذا الموضوع الخطير ، وانتصر الرأى القائل بتشجيع التعليم العالى فى البلاد واتجه التفكير منذ ذلك الوقت إلى إنشاء جامعة مصرية حديثة تقف جنبا إلى جنب مع الجامعة الأزهرية القديمة .

وفى يوم ٣٠ سبتمبر عام ١٩٠٦ نشر مصطفى كامل الغمراوى «بك» من أعيان بنى سويف نداء نشرته أكثر الصحف العربية والأوروبية أهاب فيه بأغنياء مصر أن يجمعوا المال اللازم لإنشاء الجامعة ، وبدأ هو بهذا التبرع .

ثم فى عام ١٩٠٨ افتتح الأمير فؤاد بن اسماعيل هذه الجامعة ، ودعا شباب مصر يومئذ إلى الإقبال عليها ليأخذوا العلم من مورده ، ويستقوا الثقافة الصحيحة من منبعها . وشعر الناس إذ ذاك أن الاحتلال البريطانى — كما

قال الدكتور طه حسين (باشا) وزير المعارف بعد ذلك بنصف قرن ــ قد أضاع على البلاد كثيرا من الوقت وأنه لا بد أن يعوض هذا الوقت [1]

ولنا عودة إلى هذا الحديث فى بداية الجزء الخاص بمصطفى كامل بمشيئة الله تعالى . وبحسبنا أن نشير هنا إلى قصيدة من القصائد التى نظمها حافظ (بك) إبراهيم يحبذ فيها مشروع الجامعة . ومنها قوله :

إن كنتموا تبذلون المال عن رهب ... فنحن ندعوكمو للمال عن رعب
ذر الكتاتيب منشيها بلا عـــدد ... ذر الرماد بعين الحاذق الأرب
فأنشأوا ألف كتاب وقد علموا ... أن المصابيح لا تغنى عن اللهب
هبوا الأجير أو الحراث قد بلغا ... حد القراءة فى صحف وفى كتب
من المداوى إذا ما علة عرضت ... من المدافع عن عرض وعن نشب؟
ومن يروض مياه النيل إن جمحت ... وأنذرت مصر بالويلات والحرب ؟
ومن يميط ستار الجهل إن طمست ... معالم القصد بين الشك والريب ؟
فما لكم أيها الأقوام جامعة ... إلا بجامعة موصولة السبب
نبكى على بلد سال النضار به ... للوافدين وأهلوه على سغب
متى نراه وقد باتت خزائنه ... كنزاً من العلم لا كنزاً من الذهب
هـذا هو العمل المبرور فاكتتبوا ... بالمال إن اكتتبنا فيه بالأدب [2]

* * *

(وبعد) فذلك هو الجو السياسى الذى كان يتنفس فيه الشيخ على يوسف وأمثاله ، وتلك هى الأفكار العامة التى عاش فيها وبدأ حياته الصحفية . وهؤلا هم الرجال الذين كانوا بين راض به وساخط عليه .

وبودى لو أضاف القارىء لهذا التمهيد الذى عنوانه (مصر تحت نير الاحتلال البريطانى) تمهيداً آخر سبق أن كتبناه بعنوان (مصر بين الاحتلال

---

(١) من خطبة له فى الاحتفال بالعيد الفضى لجامعة القاهرة (فؤاد) — وذلك في ديسمبر سنة ١٩٥٠ .

(٢) ديوان حافظ ابراهيم — نشر أحمد الزين — ص ٢٦٥ .

الفرنسي والاحتلال الانجليزى) وذلك فى صدر الجزء الخاص بإبراهيم المويلحى . وعندى أن كلا من هذين التمهيدين يكمل الآخر ، ويمد القارىء المدقق بفكرة إجمالية عن العصر الذى عاش فيه هذان الكاتبان الكبيران اللذان أطلقنا عليهما وعلى مصطفى كامل وأحمد لطفى السيد [1] اسم (كتاب عهد الاحتلال) .

(١) وكان بودى كذلك أن أضمن هذا الكتاب شهادة لكاتب ومؤرخ فرنسى عاش حياته فى انجلترا هو المسيو تيودور روذ ستين » صاحب كتاب « تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطانى وبعده » .

ولقد قدمُ المستر بلانت — صديق المصريين المشهور — لهذا الكتاب بمقدمة جاء فيها:

« إن هذا الكتاب بقلم رجل قد اتخذ هذه البلاد — وطنا ثانيا له . وهو فوق ذلك رجل تجري في عروقه الغيرة على سمعة انجلترا وعلى شرفها . ولا سيما أنه يرى أن الشعب الانجليزى فى معالجته المسألة المصرية بصفة خاصة قد حاد عن جادة الصواب ، وأو شك أن يضل نهائيا فى طريق غير شريف » الخ .

علي يوسف

١٨٦٣ - ١٩١٣



١٨٦٣ - ١٩١٣

الفصل الأول

حياة على يوسف

ربما كان لكل عظيم فى أمته سيرتان : سيرة شخصية — هى عبارة عن تاريخه وتاريخ أسرته ، وما كان لهذه الأسرة من مال أو جاه أو مجد أو شرف أو موهبة ، وسيرة قومية — هى عبارة عن تاريخ الأمة التى وجد فيها هذا العظيم ممثلا فى فرد أو تاريخ العصر الذى عاش فيه ممثلا فى رجل .

إذا صح ذلك فقد كنا مع المويلحى أمام شخص غلبت فيه السيرة الشخصية على السيرة القومية ، بمعنى أن الحديث عن أسرة المويلحى ، وعما كان لهذه الأسرة العريقة من مال أو من مجد ، وما كان لها من علاقات بالأسرة العلوية الحاكمة منذ ظهورها ونحو ذلك قد غلب على الحديث عن المويلحى من حيث أثره فى المجتمع المصرى ، أومن حيث مدى اشتراكه فى الحوادث العامة لهذا المجتمع المصرى ، بل من حيث نصيبه من التوجيه العام لمصر فى هذه الفترة الحالكة من فترات تاريخها الحديث ، وهى فترة الاحتلال الإنجليزى .

وليس معنى ذلك أننا نغمط المويلحى فضله فى هذا الميدان القومى ، أو ننقص من شأنه فى مجال الجهاد الوطنى ؛ فقد رأيت كيف وصفنا للقارىء بعض الجهود التى بذلها الرجل فى هذا السبيل . وكيف أثنينا عليها وعليه بما يستحق ، وكيف انتهينا من ذلك إلى أن المويلحى — وإن كان إلى الأدب بمعناه الصحيح أدنى إلى الصحافة بمعناها الصحيح — فقد سخر قلمه الرفيع لخدمة الأغراض الوطنية بقدر ما سمحت له ظروفه وأعانت مواهبه .

لكننا مع الشيخ على يوسف سنرى أنفسنا أمام رجل من طراز آخر

فى كل شيء ؛ أمام رجل غلبت سيرته القومية على سيرته الشخصية . ومعنى هذا أننا إذا ذهبنا نؤرخ لهذا الرجل من الناحية الشخصية البحتة لم نجد ما نكتبه عن أسرته التى انحدر منها ، ولا ما نكتبه عما كان لهذه الأسرة من مال أو جاه أو شهرة ، أو صلة قوية بالحكام ، أو انغماس قوى فى الحياة العامة وما إلى ذلك .

ولكننا حين نؤرخ للسيد على يوسف من الناحية القومية البحتة فهنا نجد أنفسنا أمام رجل فذ يمكن أن يختصر تاريخ أمته فى تاريخه ، وتاريخ الزعماء الذين ظهروا إلى جانبه ، وأن يترجم للعصر الذى عاشوا فيه فى ترجمة حياتهم . فكأن أقلامهم كانت مقياساً لحرارة الشعب المصرى فى ذلك الوقت، وكأن عقولهم كانت مرآة صادقة تعكس صورة صحيحة لهذا الشعب المصرى فى تلك الفترة ، وكأن مصر كانت إذ ذاك هى على يوسف ومصطفى كامل وأضرابهما، وكأن هذين الرجلين كانا هما يومئذ مصر وأى غرابة فى ذلك ؟ لقد كانت حياة رجل كالسيد على يوسف تختصر فى كلمة واحدة ؛ وهى «صحفى» ، وما أضخم هذه الكلمة يومئذ . لقد ظلت تتسع وتتسع حتى شملت الحياة المصرية كلها من جميع جوانبها . وكذلك كان على يوسف ؛ لأنه الصحفى الأول فى فترة الاحتلال الانجليزى، وكذلك كان الزعيم الشاب مصطفى كامل لأنه الداعية الأول لمصر فى تلك الفترة أيضاً . وكذلك كان أحمد لطفى السيد لأنه المعبر عن آراء الصفوة المثقفة فى تلك الحقبة وهكذا .

ذلك أول الفروق الواضحة بين المويلحى من جهة وعلى يوسف من جهة ثانية . وثم فروق أخرى كثيرة بينهما لا نستطيع أن نأتى عليها جملة ، لأنها ستتضح من ثنايا السطور .

سيرته الخاصة :

وصاحب الترجمة هو «السيد على يوسف بن السيد أحمد يوسف بن السيد يوسف بن السيد مبارك يوسف بن السيد شيخون يوسف بن السيد بركات

يوسف بن السيد مبارك بن السيد يوسف ، من ذرية سيدى محمد شيخون الحسينى الكائن ضريحه ناحية بلصفورة التابعة لمركز سوهاج بمديرية جرجا بصعيد مصر ، — ذلك نسبه حسبما هو مذكور فى سجل نقابة الأشراف الرسمى بالديار المصرية[1] .

وكان ميلاده فى جمادى الثانى عام ١٢٨٠هـ الموافق عام ١٨٦٣م ببلدة بلصفورة بالصعيد . وتوفى والده بعد ولادته بسنة واحدة . وكانت أمه من بلدة تسمى بنى عدى تابعة لمركز منفلوط بمديرية أسيوط ، وهى بلدة ذات شهرة كبيرة فى صعيد مصر بالعلم والعلماء . فاضطرت الأم بعد وفاة زوجها أن تحمل ولدها إلى هذه البلدة لتعيش فى كنف أخوتها ، ولينشأ الطفل اليتيم فى رعاية أخواله . وإذ ذاك علمه أخواله القرآن الذى أتم حفظه فى الثانية عشرة من عمره ، ثم بدأ يتلقى العلم على الشيخ حسن الهوارى أحد العلماء المشهورين فى تلك البلدة الصغيرة ، وفيها لازم الصبى أستاذه مدة قيل أنها تتراوح بين عامى ١٢٩١ و ١٢٩٩هـ .

فى تلك السنة — أعنى سنة ١٢٩٩هـ ، والفتى يومئذ لم يكمل من عمره تسعة عشر ربيعا — سافر إلى القاهرة ليتم تعليمه بالأزهر الشريف ، فأتمه على مشهورى الأساتذة فى ذلك الوقت .

فقد تلقى الفقه على أستاذه الشيخ حسن داود ، وكان فقيها على مذهب الإمام مالك . كما تلقى النحو والبلاغة على أستاذه الشيخ أحمد أبى الفضل ، وقرأ عليه كتاب الأشمونى وحاشية الصبان ، وكتاب السعد التفتازانى فى البيان والبديع والمعانى . وقرأ الفتى جزءاً كبيراً من كتاب جمع الجوامع فى الأصول ، وهو آخر ما كان يقرأ فى العلوم العقلية فى الأزهر الشريف . كما قرأ كتبا كثيرة فى الحديث والتفسير والمنطق والتوحيد وآداب البحث

---

(١) راجع إلياس زاخورة فى كتابه : مرآة العصر فى تاريخ رسوم كبار الرجال بمصر ص ٥٣٧ ط ١٨٩٧ .

والمصطلح ، وذلك على كبار الأساتذة يومئذ ، كالشيخ الإمبابي ، والشيخ محمد البحيري ، والشيخ محمد المغربي وغيرهم .

غير أن الفتى كان فى أثناء تلك الفترة التى انقطع فيها للأزهر الشريف يختلس من وقت الأزهر زمناً غير قليل يقرأ فيه كتب الأدب والسير والتاريخ، حتى قليل يومئذ أنه نبغ فى النظم والنثر، واستطاع فى عام ١٣٠٣هـ ــ ١٨٨٥م أن يخرج ديواناً مطبوعا من نظمه ونثره ، وسمى هذا الديوان باسم « نسمة السحر » . وربما عرضنا على القارىء بعض نماذج من هذا الديوان عند الكلام على أسلوب السيد على يوسف .

وعلى حين غرة ، أو على غير انتظار وقف الفتى عن متابعة الدرس فى الأزهر . ولست أدرى لم كانت الكثرة المطلقة من شباب مصر فى ذلك الوقت تسأم الأزهر ، وتمل متابعة العلم الذى كان يلقيه الأساتذة هناك ــ لعله كان علماً يعنى فيه بالشكل أكثر من العناية بالروح أو الجوهر ، أو لعله كان علماً يعتمد فيه على الكتاب لا على حسن العرض أو جمال الطريقة . ومهما يكن من الأمر فقد طاف بذهن الفتى يومئذ طائف من المجد ألح عليه إلحاحا كبيراً فى أن يترك الأزهر وشيوخ الأزهر ، ويخرج إلى الحياة العامة نفسها ليجرب حظه فيها . ولكن ما نوع الحياة التى طمع فيها الشيخ على حينذاك ؟ لقد سمعت همة هذا الشاب طفرة واحدة إلى الصحافة . فلم لا يكون صحفيا ؟ ولم لا يتخذ لنفسه صناعة الكتابة ؟ الحق أن الفتى كان يأنس من نفسه منذ بداية حياته قدرة على مواجهة الصعاب ، وكان يشعر بأن بين جنبيه نفسا من تلك النفوس الكبيرة التى تمنحها الأقدار لطائفة من الناس ، فإذا هم قادرون على المضى فى الحياة بنجاح .

لم يكن مع الشيخ على يوسف حين فكر فى الصحافة شىء من المال . ومع ذلك فقد شوهد هذا الشاب يوما ما فى نظارة الداخلية وهو يطلب ترخيصا له بجريدة سماها « جريدة الآداب » . وما كاد يحصل بعد ذلك على

هذا الترخيص حتى عمد إلى صديق له بالأزهر الشريف، هو الشيخ أحمد ماضي، كان يعرف فيه ميلا قوياً للأدب والإنشاء، كما كان يعرف أيضاً أن له بعض الثراء. فاستعان بماله وقلمه على إخراج هذه الجريدة التي بقيت تصدر إلى عام ١٣٠٧ هـ — ١٨٨٩ م. ولم نظفر نحن بعدد من أعداد هذه الجريدة إلى الآن. وإن كنا لا ننظر إلى عمل السيد علي يوسف فيها وفي جريدة أخرى اشترك فيها، وهي جريدة « القاهرة الحرة » لصاحبها أحمد فارس الشدياق (١) — إلا على انه من قبيل التجربة والتمرين على الدخول في هذا الميدان الجديد، وهو ميدان الصحافة، وقد ظهر السيد علي يوسف في هذا الميدان ظهوراً لم يكن له نظير في مصر والشرق العربي كله في مدى ربع قرن من الزمان، وهي المدة التي اشتغل في أثنائها بجريدة المؤيد.

فمن ذلك الوقت — أعني في سنة ١٣٠٧ هـ — ١٨٨٩ م فكر الرجل في إنشاء هذه الجريدة الجديدة، وهي جريدة المؤيد. وقد شجعه عليها ماشاهده قبل ذلك من إقبال الناس على جريدة الآداب، وما عرفه من حبهم الشديد لها ولأقلام المحررين بها.

ثم ماهو إلا أن حصل الشاب على ترخيص له بهذه الجريدة الجديدة حتى عمد مرة أخرى إلى صديقه القديم الشيخ أحمد ماضي. فأمده هذا الصديق بمائة جنيه، استعان بها على هذه الجريدة الجديدة التي صدر العدد الأول منها في ٨ ربيع الثاني ١٣٠٧ هـ الموافق أول ديسمبر ١٨٨٩ م. غير أن الشيخ أحمد ماضي لم يلبث بعد بضعة شهور من إنشاء الجريدة أن اعتراه مرض أقعده عن العمل فيها، وكف يده كذلك عن تقديم المعونة المادية لصاحبها. ولا شك أن الجريدة كانت في أول نشأتها تحتاج إلى نفقات كثيرة، وأن إيرادها

(١) ذكرت ذلك جريدة أبو الهول التي صدرت في مصر — راجع العدد ١٨ من السنة الخامسة عشرة الصفحة الرابعة.

كان لا يكفى للانفاق عليها بحال ما . وتلك كانت أولى الصعاب التى واجهت السيد على يوسف ، وإن كانت هذه الصعوبة الأولى ليست شيئا بالقياس إلى ما ينتظر هذا الشاب ، وينتظر جريدته كذلك من صعاب .

فقد أبل الشيخ أحمد ماضى من مرضه ، ولم يكد يعود إلى العمل فى الجريدة حتى اختلف مع الشيخ على يوسف اختلافا أدى إلى الخصومة ، وترك الشيخ أحمد ماضى صديقه وحيداً فى هذا الطريق . ولكن عزيمة الشيخ على كانت ترافقه فى كل مرحلة من مراحل حياته ، فلم يضعف ولم يتردد ، بل فوض أمره فى هذه المرة للقدر الذى بعث إليه يومئذ بصديق جديد ، هو (سعد بك زغلول المحامى — سعد باشا فيما بعد) ففصل بين المتخاصمين ، وأرضى الشيخ أحمد ماضى بقدر من المال ، وحمله على ترك الجريدة نهائيا ليستقل بها الشيخ على يوسف . والظاهر أن سعداً لم يكتف بذلك حتى أمد الشيخ علياً بقدر آخر من المال يستعين به على إصدار جريدته . وسيقص علينا الشيخ على يوسف قصته هذه مع سعد زغلول فى الفصل الذى سنكتبه عن جريدة المؤيد خاصة .

منذ يومئذ وصاحب المؤيد يستعد لمواجهة صعاب كثيرة كانت كل واحدة منها خليقة بأن تعطل صدور الجريدة ، لولا ما أشرنا إليه من أمر هذه العزيمة التى اتصف بها الشيخ ، وكانت ردءاً له فى كل محنة من المحن التى صادفها فى حياته . وهكذا قدر للمؤيد أن يعيش مؤيداً من الله ومن الناس ، كما قدر له أن يحمل علم الجهاد الوطنى زهاء خمسة وعشرين عاما من حياة مصر ، وذلك فى أشد أوقاتها حلكة وظلاما ، بل فى أشد ظروفها حرجا واضطرابا وغليانا ، يومئذ كان يجثم على صدر البلاد طاغية من طغاة الاحتلال ، عاش فيها خمسة وعشرين عاما مقابلة لتلك المدة التى قضاها المؤيد فى ميدان الجهاد : هذا يمعن فى ظلمه واستعباده ، وذلك يمضى فى كفاحه وجهاده . « والحق أننا لنعجب كل العجب حين نتصور البلاد خالية

فى تلك الفترة العصيبة من جريدة وطنية عظيمة كجريدة المؤيد ، تقف لهذا الطاغية بالمرصاد ، وتذود عن مصر والإسلام جميع التهم التى نسجها له خياله وجبروته وتهالكه فى حب الاستعمار .

والحق - أن المواطن المصرى ليحمد لبلاده هذا الظرف الذى أنعم الله فيه على مصر برجل كالشيخ على يوسف يجاهد الانجليز بقلمه وعقله ، كما أنعم عليها بشاب كمصطفى كامل يجاهدهم فيها بلسانه وقلبه . ومن مجموع أولئك الرجال خلقت مصر لأعدائها طائفة غير يسيرة من المصاعب والمتاعب . والأنجليز كغيرهم من دعاة الاستعمار فى كل زمان ومكان لا تؤثر فيهم غير هذه اللغة التى هى لغة التعب

وندع المؤيد جانبا لنمضى فى سيرة صاحبه .

كتب تشارلز آدمس فى كتابه (الإسلام والتجديد فى مصر) وصفاً للمؤيد وصاحبه فقال :

« لقد كان السيد على يوسف صحفياً ماهراً ، وله دهاء يشوبه المكر أحياناً . ولقد رفع المؤيد إلى مقام الصدارة فى العالم العربى . فأحاط الخديو عباس جريدة المؤيد برعايته ، وشملها بحمايته ، فأصبح الشيخ على يوسف يسير فى ركاب الخديو حيث سار ، ويخلص له إخلاصاً يفوق إخلاص مصطفى كامل للجالس على العرش ، وقد وجه الشيخ على يوسف سياسة المؤيد ، لجعله بوقاً للدعوة إلى الرأى السنى المحافظ ، وكان فى نظر خصومه - على الأقل - يهيج دفين التعصب الدينى » (١)

على يوسف والخديو عباس :

منذ اعتلى عباس عرش البلاد فى سنة ١٨٩٢ ظهرت له ميول وطنية عنيفة أزعجت رجال الاحتلال أيما إزعاج . وطفق أمير البلاد منذ ذلك الوقت

---

(١) عباس محمود : مترجم كتاب (الاسلام والتجديد فى مصر) - راجع هذه الترجمة ص ٢١٦ - ٢١٧ .

يفتش بنفسه عن رجال يعتمد عليهم فيما انتواه من إصلاح ، وعزم عليه من مقاومة لرجال الاحتلال . فكان إذا سمع برجل كالسيد عبد الله النديم دعاه واستدناه وأوحى إليه بإنشاء جريدة (الأستاذ) ، ثم إذا رأى تلميذاً نابهاً بالمدارس كمصطفى كامل فيه جرأة وشهامة ، وفيه صدق وصراحة ، وعليه سيما الفطنة والنجابة شجعه بماله ، وجاهه . وحين رأى صحيفة المؤيد تسير فى طريقها قدماً خطب ود صاحبها ، وأحب أن يعتمد عليه فى قيادة الحركة الوطنية . وهكذا لم يدخر عباس وسعاً — أول الأمر — فى تغذية الحركة الوطنية ، وحشد الرجال المخلصين من أفرادالشعب ، مادام النظار أنفسهم قد بدا منهم ميل لأن يخذلوه فى الظرف الذى يصطدم فيه بقوى المحتل .

غير أن الظروف أثبتت فيما بعد أن صاحب المؤيد كان أشد إخلاصاً لأمير البلاد حتى من الزعيم الشاب مصطفى كامل . وقد اعترف بذلك صاحب المنار ، وصرح به فى كتابه (الأستاذ الإمام) حيث قال :

« والخديو عباس هو الذى أوجد مصطفى كامل ، واستعمله فى الحركة الوطنية ، وهو تلميذ فقير مع مسيو (دولونكل) مندوب حزب الاستعمار الفرنسى الذى كان مناوئاً للاحتلال البريطانى فى مصر إلى العهد بمسألة (فاشودة) المشهورة ، وما أعقبها من اتفاق الدولتين سنة ١٩٠٤ . وقد جعل سموه لمصطفى كامل راتباً شهريا قدره خمسة وعشرون جنيها . ثم مازال يزيده حتى بلغ مائة جنيه . ومع هذا لم يكن مصطفى كامل مخلصاً له إخلاص الشيخ على يوسف ، بل انقلب عليه هو والحزب الوطنى باطنا[1] .

وبقيت الصداقة بين عباس وعلى يوسف تنمو على الأيام حتى أصبح الشيخ جليس الأمير ، ومستشاره وحافظ أسراره ، لا يعمل الأمير عملا إلا بمشورته ، ولا يقدم على خطة إلا بعد أخذ رأيه . حتى الرتب والألقاب

(١) رشيد رضا : الأستاذ الإمام . حـ . ص .

كانت لا تمنح لأصحابها إلا بجهود الشيخ على ، كما حدثتنا بذلك المذكرات التى نعتمد عليها فى هذا الفصل [1] .

أجل — كان الشيخ على يوسف فى ركاب الخديو يسير معه أنى سار ، ويعبر عن رأيه فى كل مناسبة . ولكن التاريخ ينظر إلى الشيخ فى تصرفه هذا على أنه شجاع ومقدام . فقد آثر الخديو عباس ، وتولى الدفاع عنه وعن أفكاره فى وقت كان فيه أمير البلاد يعانى مايعانى من ظلم الاحتلال ، بل فى وقت كان فيه هـذا الاحتلال أشبه بالوحش الذى كشر عن أنيابه ، واستعد لالتهام فريسته . والذى لاشك فيه أن عباساً كان شجى فى حلوق الانجليز ، وشوكة فى جنوبهم ، وأنهم كانوا يتربصون به الدوائر . فإذا جاء وطنى كالشيخ على يوسف ووقف إلى جانب هذا الأمير المظلوم كان وقوفه ضرباً من الشهامة التى يحمد عليها ويشكر كثيراً من أجلها .

نعم — تغيرت خطة عباس بعد الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤ ، وأصبح رجلا بادى الضعف ، ظاهر الاستسلام ، بعد أن قلّم الانجليز أظفاره ، وأغلقوا أبواب الرجاء دونه ، وأفهموه أنه لا ينبغى له أن يلتفت لغير مصالحه الخاصة . وإذ ذاك فقط تخلى عنه صـديقه مصطفى كامل ، بل جاهره بالعـداء ، وصارحه بالخصومة ، ونادى على رؤوس الأشهاد أنه أصبح لا يعبر عن رأيه ، ولا يعتمد عليه فى حركته .

أما الشيخ على يوسف فاحتكم فى هذا الأمر لعقله لا لقلبه ، وآثر يومئذ ألا يقطع صلته بالخديو عباس ، وألا يتركه وحيداً فى الميدان ، ولا يخلى بينه وبين السبع الانجليزى ينهش لحمه ، ويعرق عظمه أكثر مما فعل من قبل .

وقف الشيخ من أمير البلاد موقفه هذا ، ثم لم يمنعه ذلك من الذود عن مصالح الشعب المصرى ضد الاحتلال الانجليزى الذى كان لا يتوخى

---

(١) مذكرات احمد شفيق باشا — الجزء الثانى — القسم الثانى .

مصلحة الشعب المصرى. ولا يستطيع القارىء لصحيفة المؤيد أن يجد صفحة واحدة فقط يفهم منها أنها ضد هذا الشعب ، أو يفهم منها أنها كتبت لمجرد الدفاع عن الخديو عباس ، وإن كان فى هذ الدفاع أذى لمصر .

صحفى موهوب :

كان على عباس بعد اعتلائه العرش أن يسافر إلى الآستانة ليقدم للسلطان فروض الولاء والطاعة ، فذهب معه فيمن ذهب إليها الشيخ على يوسف . وكان الشيخ موكلا حينذاك بإمداد المؤيد بوصف لرحلة الخديو عباس يوماً بيوم . ثم رأى الشيخ بعد ذلك أن يجمع هذه المقالات، فجمعها فى كتاب سماه « أيام الجناب الخديوى المعظم عباس الثانى فى دار السعادة » . وأهم ما فى هذا الكتاب مقدمته التى كتبها الشيخ على يوسف ، وهو فى عرض البحر الأبيض المتوسط فى طريقه إلى دار السعادة ، وكان موضوع هذه المقدمة الكلام عن أهمية البحر الأبيض المتوسط السياسية والتجارية قديما وحديثا ، وأهمية الموقع الجغرافى لمصر تبعا لذلك ، قال :

« ونخلص من كل ما تقدم أن للقطر المصرى شأنا عظيما فى مدينة البحر الأبيض المتوسط الأولى ، وفى تاريخ الديانات ووسائل انتشارها فى أرجاء العالم ، وفى عصور المنازعات والمنافسات بين ممالك الأدوار السابقة . (يريد أن لكل مملكة دوراً فى السيطرة على البحر الأبيض) . وفى هذا العصر الحاضر ، سواء من جهة السياسة أو التجارة ، أو تأثير الدين . وفضلا عن كل ما تقدم فإنها امتازت بخاصة كونها الطريق الموصل بين أغنى وأعمر بلاد فى الدنيا ؛ ألا وهى أوربا وأقطار الشرق الأقصى . وامتازت أيضا بقربها من الأماكن المقدسة فى كافة الديانات الرسمية . وامتازت أيضا بكونها طريق اتصال لداخل أفريقية ، بخلاف غيرها من الأقطار التى يعبر منها إلى داخل السودان ، فانه يوجد بينها وبينه فاصل كبير من الصحارى والقفار المضللة . . . وهذه الخصائص التى تعد من لوازم مصر وحدها

كافية لأن تحيط هذا القطر السعيد بالدسائس الكبرى ، والمنافسات المختلفة . فإذا أضفنا إليها أهمية نصيبها من آثار البحر الأبيض المتوسط كان لها — ولا شك — مركز خصوصي تنفرد به عن بقية الأقطار والممالك فى العالم . من فهمه حق الفهم وقف على كنه معنى قولهم إن الدولة التى تملك مصر تصير عدوة لكافة دول العالم . . . فواجب أن تكون كل قوى الدولة العلية — أيد الله عرش سلطانها — منصرفة إلى تقوية رابطة الاتصال بين الآستانة العلية — ملجأ الخلافة العظمى — ومصر باب الحرمين الشريفين ، والقدس الشريف . كما أنه من الجهة الأخرى يجب على كل وطنى انجليزى يحب مجد وطنه وعظمة دولته أن يعمل جهده لمنع حكومته من إطراد سياستها الحالية التى لا نتيجة لها سوى معاداة كل الدول ، وفتح أبواب العدوان عليها . وكيف يتصور أنها تستطيع مناظرة كل قوى أوروبا التى لا ترضى أن تترك لانكلترا وحدها تجارة الشرق الأقصى بأسرها ، ولا أن تجعل هذا الطريق الوحيد وديعة عندها تتصرف به طبق إرادتها . وعلى مايشاء هواها »[1] .

فانظر إلى هذا الشيخ الصحفى بطبعه كيف اتخذ من مشاهدة البحر موضوعا سياسيا تاريخيا عالجه إذ ذاك بعقلية واقعية سياسية . وفى ذلك مايدل على غلبة الصحافة على مزاج هذا الرجل أكثر من كل شىء . ولو أن كاتبا كالمويلحى أراد أن يتخذ من البحر موضوعاً للكتابة لاتخذه موضوعا أدبيا خياليا خالصا ، وذلك لغلبة المزاج الأدبى عليه . وسبحان من فرق بين عباده فى المواهب والطبائع .

وحين بلغت السفينة جزيرة كريد (العثمانية) سبح الشيخ فى ذكريات تاريخية طويلة ، واستعرض فى ذهنه حوادث هذه الجزيرة وثورتها على السلطان . وجرى قلمه بعد ذلك بشرح طرف من هذه الحوادث ، وكشف

---

(١) على يوسف : أيام الجناب الخديو المعظم عباس حلمي الثانى فى دار السعادة ص ١٤

فى أثناء ذلك عن ضمائر الدول التى كان يعنيها الأمر ، وأخذ يذكر أقوال الصحف الانجليزية فى هذا الشأن . « فلقد تغالت الجرائد الانكليزية فى تضليل القراء حتى أفهمت أوروبا أن كل يونان كريد من الأبطال أصحاب الشرف والشهامة ؛ إن برزوا للقتال أزهقوا أرواح المئات من خصومهم . وأما عساكر الترك فقد وصفوهم بأنهم ذئاب ميالون لهتك الأعراض ، ظامئون لشرب الدماء ، ولكنها دماء النساء اللواتى يدافعن عن شرفهن ، وقد عبرت هذه الجريدة المنصفة بهذه الكلمات القليلة عن مقدار ما كان يتكلف رسل الحرية من التمويه والتضليل فى سبيل إثارة الأخطار الأوروبية على الدولة العلية فى معرض الإغراء بها . ولكن لم تلبث هذه الستائر أن مزقت ، وظهرت الحقائق لأوروبا ، وتبين لليونانيين من جهة أخرى أنهم بحركتهم العدوانية ضد الدولة العلية يناطحون الصخور بقرن الوعل »[1].

وأتم الشيخ على يوسف تحرير اثنتى عشرة رسالة فى الآستانة بعث بها من هناك إلى جريدته المؤيد . وكان فى هذه الرسائل كلها يذود عن الخديو عباس خطر الكائدين والدساسين الذين حاولوا إفساد الأمور بينه وبين السلطان . ومنها دسائس أبى الهدى الصيادى من ناحية ، ودسائس ابراهيم (بك) المويلحى وجريدة المقطم من ناحية ثانية .

وباختصار جرى الشيخ على يوسف فى رسائله هذه على سياسة مضادة للسياسة التى جرى عليها المويلحى فى كتاب « ماهنالك » .

على يوسف والالقاب :

وتحدثنا مذكرات شفيق (باشا) كذلك عن هذه الزيارة ، وعن المأدبة التى أقامها السلطان فى يلدز لتكريم المصريين هناك قالت[2] :

---

(١) نفس المصدر ص ٢٠ .

(٢) المذكرات : الجزء الثانى ، القسم الأول ص ١٠١ .

وكان السلطان قد أنعم على ثمانية وعشرين منهم (أى من المصريين) بمداليات الامتياز الذهبية ، وعلى خمسين بالمدالية المذكورة من الفضة » .

نذكر منهم الباشوات : على آصف ، ومحمد صادق ، والبكوات : اسماعيل صبرى ، وأمين فكرى ، وأحمد زيور ، وأحمد الحسينى ، وأحمد تيمور ، وحسنى حلبى ، وعباس الدرهماللى ، وقاسم أمين ، ومحمد فهمى ، ويوسف طلعت ، والشيخ على يوسف ، وأحمد لطفى السيد ، وسعد زغلول وغيرهم .

ولمناسبة الرتب والألقاب يجمل بنا كذلك أن نشير كذلك إلى أنه فى سنة ١٩٠٤ أنعم السلطان عبد الحميد على السيد على يوسف (بالمدالية الذهبية) اعترافاً بالمجهود العظيم الذى بذله فى الحصول على أكبر مبلغ من المال الذى جمع من تبرعات الشعب المصرى مساهمة منه فى مشروع السكة الحديدية الحجازية . ثم إنه عند افتتاح هذا الخط الحديدى الحجازى الذى يصل دمشق بالمدينة المنورة سافر السيد على يوسف ، وبصحبته محمد (بك) المويلحى ، وخطب السيد على يوسف فى دمشق خطبة عظيمة . وإذ ذاك أنعم عليه السلطان عبد الحميد بوسام آخر .

وفى عام ١٩٠٦ عاد السلطان فأنعم على صاحب المؤيد بالرتبة الأولى من الصنف الأول ؛ وهى الرتبة التى تخول لصاحبها لقب باشا ، ومن أجلها يخاطب (بحضرة صاحب السعادة) .

كما أنعم شاه إيران مظفر الدين خان بوسام كذلك على صاحب المؤيد . وهكذا أصبح صدر الشيخ مزدحماً بعدد كبير من الأوسمة ، كما أصبح اسمه مقروناً بألقاب التفخيم والتعظيم . كل ذلك واسم (على يوسف) مجرداً من جميعاً هذه الألقاب يرن فى الآذان رنيناً لا تبلغ بعضه هذه الألقاب جميعاً .

علي يوسف والصحفيون الاجانب :

وكان الشيخ علي يوسف من أوائل المصريين الذين طالبوا بالدستور . يحدثنا شفيق (باشا) : أن مكاتبا لجريدة النيورك هيرالد أتى إلى مصر ، وتحادث مع الرجال الممتازين بها ليعرف الشعب الأمريكى بسير الحالة بعد تغيير النظارة الفهمية، وكان من أهم الرجال الذين حرص هذا المكاتب الأمريكى على مقابلتهم الشيخ علي يوسف الذى أفهمه أن المصريين — وهو معهم — يلحون فى طلب الدستور .

ووصل إلى الاسكندرية فى ٢١ مارس سنة ١٨٩٥ المسيو فرنسوا دولونكل النائب الفرنسى الذى دافع عن القضية المصرية فى البرلمان الفرنسى عند وقوع حادث تغيير الوزارة الفهمية . فاستقبله مصطفى كامل مع جمهور غفير من الناس . ومكث هذا السياسى بمصر زهاء عشرين يوماً ألقى فى خلالها خطبا مهمة بمصر والاسكندرية ، وجمع له الزعيم الشاب مصطفى كامل أموالا طائلة من الشعب المصرى ، بحجة أنه مستعين بهذا المال على الدفاع عن مصر على هذا الوجه .

وفى ١١ ابريل اجتمع جمهور من الصحفيين فى (نيو أوتيل) بالقاهرة تلبية لدعوة وجهها إليهم المسيو دولونكل . وألقى خطابا بدأه بشكر الصحفيين ، ودلل على أن حياة مصر حياة حقة لوجود الصحافة فيها . ثم قال : «قد تكوّن فى فرنسا وألمانيا وانجلترة رأى عام موافق لرأيكم ، وأصبحنا لا يفوتنا شىء مما يحدث عندكم » .

وبعد أن انتهى من خطابه وقف الشيخ علي يوسف وشكره على عواطفه ثم قال من خطبة طويلة : إننا نحمد الله إذ ألفينا من الجرائد الفرنسية المحبة خير ترجمان يردد صدى صوتنا الحق ، وينصر الحقيقة المحبوبة .

وإذا كنت أيها الرصيف الفاضل قد اشتهرت بحب مصر التى تقدر

خدمتك الجليلة حق قدرها فكن كما كنت دائما نصيراً للحقيقة ، نصيراً للضعيف الذى يطالب بالحق فى دائرة قانونية .. إلخ » .

وفى نهاية الحفلة وقف مصطفى كامل فألقى خطبة مستفيضة شكر فيها (دلونكل) من أجل مصر ، وحمد لفرنسا ماتبذله للقضية المصرية من تعضيد مشكور . ثم انفرط عقد الاجتماع[1] .

على يوسف واللغة العربية :

وحين كان السيد على يوسف عضواً عن مدينة القاهرة فى الجمعية العمومية تقدم إلى الجمعية باقتراح طلب فيه أن يكون التعليم فى المدارس الابتدائية باللغة العربية ، وكان ذلك سنة ١٩٠٧ يوم كان سعد زغلول ناظراً للمعارف. ودارت مناقشة بين الرجلين حول هذا الموضوع استطاع فيها السيد على يوسف اقناع سعد بوجاهة الاقتراح ، فعمل به بعد أن كان مصمما على رأيه الذى كان فى الوقت نفسه رأى الاحتلال ورجاله فى مصر .

على يوسف والأستاذ الإمام :

كان صاحب المؤيد — فيما يصوره لنا التاريخ — صديقا للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، يرى فيه الرجل الوحيد الذى يمكن أن يعتمد عليه دون سواه فى إصلاح الأزهر الشريف . غير أن العداء كان على أشده بين الخديو عباس والأستاذ الإمام . وكان من أسبابه إذ ذاك عدة أمور منها « اتهام بعض الوشاة النمامين » للشيخ بأنه غير مخلص لسموه ، ولا راض بإمارته ، وأنه يعاكسه ويشاكسه . بل اتهامه بما هو أكبر من ذلك — بأنه يكره آل محمد على ، ويؤلف عصبية فى مصر لنزع الإمارة منهم ، وجعلها جمهورية . ولكن الأستاذ الإمام رحمه الله كان أكبر عقلا وأصدق وطنية من أن يفكر

---

(١) المذكرات — الجزء الثانى ١٩٧ .

فى مثل هذا فى وطنه الساقط تحت ضغط دولة أجنبية قوية مسيطرة عليه[1].

« غير أن الشيخ على يوسف اتخذ لنفسه موقفاً وسطاً بين الخديو عباس والأستاذ الإمام . فظل وفياً لهذا الأخير موالياً له ولرجال حزبه ، ولاسيما حسن عاصم ، وسعد زغلول ، وكان يخبرهم بجميع أسرار الخديو وماينكره من أعماله وآرائه ، ويستشيرهم فيها ، وذلك ليقينه أنه لا يصل إلى سموه شىء من مكاشفته . وكان يحاول التوفيق والتقريب ما استطاع ، ولا يطعن فى أحد من أركان هؤلاء الرجال ، كما يفعل مصطفى كامل بدون تفريق بين الحق والباطل ، حتى أنه نصر اليهود على الأستاذ الإمام فيما قرره من دروس الأزهر من بيان مساوىء اليهود فى تفسير الآيات التى أنزلها الله فيهم . ولم يندفع الشيخ على مع الخديو فى مضارة الأستاذ الإمام » .

وكان الشيخ على فى الوقت نفسه حريصاً على ألا يمس شعور عباس ، فكان لا يعارضه إلا عند الضرورة . وحين اتجه التفكير إلى تعيين الأستاذ الامام شيخاً للجامع الأزهر ، كان السيد على يوسف يريد ذلك فى قرارة نفسه — ولكنه أظهر خلافه مرضاة لعباس . وعجب بعض أصدقاء الأستاذ الإمام من موقف الشيخ على يوسف فى ذلك : فقال لهم حسن عاصم (باشا) : سبحان الله : أتريدون من صعيدى فقير صار جليساً للخديو ومستشاره وأمين سره أن تسمو نفسه إلى تركه لأجلكم . . ؟ .

على يوسف فى لندن وباريس سنة ١٩٠٣

وكان الشيخ على يوسف من المنتمين للسراى ، فانتهز فرصة زيارة الخديو للندرة ، وسافر إليها ليتتبع أخبار هذه الزيارة كيما ينشرها فى المؤيد ، ثم بارحها إلى باريس ، وتقابل مع بعض السياسيين فيها ، وتكلم معهم بخصوص

(١) انظر تاريخ الأستاذ الإمام للشيخ رشيد رضا .

المسألة المصرية كما سيجيء . ثم أرسل إلينا من لندرة فى ٥ يوليو خطابا يقول فيه : « كانت مأدبة المستر موزلى — وقد كان قاضياً بمصر — فى نيوسان ستيفان كلوب وهو كلوب المحافظين — مساء أمس ، وأجاب الدعوة اثنان وعشرون شخصاً بينهم عضوان فى البرلمان ، ومديرو جرائد ستاندرد والديلى تلغراف والديلى نيوز وغيرهم من الكتاب والأعيان . ومع أنى كنت سمعت من المستر موزلى نفسه أنه لا خطب ولا كلام ، بل حفلة تعارف وسمر بسيط ، فقد جر الطعام إلى المدام ، والمدام إلى الكلام . وانتهى الأمر بالقوم إلى أن كانوا فى حلبة خطابة . فخطب منهم سبعة، منهم عضو فى البرلمان وأصحاب الجرائد الثلاث ، وشخص اسمه المستر ديسى مؤلف كتاب (الخديو فى مصر) والمستر موزلى . واضطررت أن أتكلم أيضاً ، وكان مدار الخطب كلها مظاهرة للجناب العالى الذى شربوا نخبه مراراً . وحيوه مراراً بكلمة (هورا) . وأضاف إلى ذلك أنه رد عليهم بالشكر ، وبسط القضية المصرية ، وما للخديو من منزلة بين أمته » .

ووردت لنا منه أيضاً رسالة من باريس يصف فيها احتفاء الصحفيين الفرنسيين به ، وماتبادلوه من الأحاديث بخصوص مصر وسياسة فرنسا .

ثم أرسل إلينا رسالة أخرى جاء فيها :

« سيذهب وفد من مجلس النواب الفرنسى إلى لندرة ليجتمع مع مندوبين من برلمان انجلترا للمفاوضة فى المسائل المختلف عليها بين الدولتين . وقد طلبت مقابلة مسيو (أتين) وكيل مجلس النواب الفرنسى بواسطة دولونكل ، لأعرف منه إن كانت مسألة مصر من جملة المسائل التى يجرى الكلام فيها أم لا ؟ وقد كتبت لصاحب لى فى انجلترا ليعرف شيئا من ذلك أيضاً لأعرف مايمكننى الوقوف عليه من أسرار المخابرات فى شأن من يكون فى اللجنة المخصصة لذلك . ولعل هذا هو السبب فى كثرة الأسئلة التى تتوارد على من لندرة فى المواضيع المصرية » .

وكتب الشيخ على يوسف بعد ذلك ما يأتى :

« عاد النواب الفرنسيون . وقد قابلت (دولونكل) وهو منتفخ بالآمال الكبار ، ويقول : إن المسألة المصرية لابد أن تعرض أول المسائل على مجلس التحكيم الذى يراد عقده . وقد كان فى المأدبة البرلمانية على يسار المستر تشمبرلين ، وعلى يمين السير شارل ويلك ، وتكلم مع الاثنين فى المسألة . ومن رأيه أن تشمبرلن لا يبقى طويلا . بل الوزارة كلها ستغير وتأتى وزارة الأحرار . ولما خطب قال : لابد من عرض المسألة المصرية فى مقدمة المسائل . ولكنه لم يرد أن يتعمق معى فى الكلام حتى يعرض ما لديه رأساً على الجناب العالى . وهو مسافر غداً إلى لندرة التى بها (مسيو أتين) وكيل مجلس النواب ، وبعد مقابلته يتوجه إلى ذيفون . وربما اقتضى الحال تأخير سفره يوم الخميس أو الجمعة التاليين » [1] .

وزار الشيخ على يوسف لندن مرة أخرى فى يوليو سنة ١٩٠٧ وذلك بوصفه عضواً فى اللجنة البرلمانية المصرية ، وأقام الأحرار فى لندن احتفالا لتكريم هذه اللجنة رأسه المستر روبرتسون . وكتب الشيخ كلمة ترجمت إلى الإنجليزية وألقيت فى هذه الحفلة . وفى هذه الكلمة دفاع سريع عن مصر ضد الاحتلال البريطانى الذى تم فى ظروف سماها الشيخ ظروفا استثنائية . وانتقد الشيخ فى هذه الكلمة رجال الإحتلال البريطانى وتأخيرهم الأكفاء من الوطنيين عن خدمة وطنهم ، وتقديم غيرهم عليهم فى مضمار هذه الخدمة الوطنية . وطالب الشيخ بعقد الجمعية العمومية لأن روح التشريع أوشك أن يضيع تماما من البلاد ، كما طالب أيضاً بتحويل المحاكم المختلطة حق الفصل فى قضايا الأجانب بدلا من المحاكم القنصلية ، إلى آخر ذلك كله من المطالب . ومع ذلك فقد وجدنا فى صفحات المؤيد من يرد على مقالات

---

(١) انظر فى جميع النصوص المتقدمة مذكرات احمد شفيق (باشا) القسم الثانى من المذكرات ص ٢٦ وما بعدها .

كتبها بعض الصحفيين ، ووجهوا فيها اللوم الشديد للشيخ على يوسف وزميله حافظ عوض ، لأنهما لم يطالبا أثناء وجودهما فى انجلترا باستقلال مصر ، ولكنهما اكتفيا بالشكوى من الاحتلال البريطانى [1] .

على يوسف والدستور والحرية :

كان مراد (بك) الداغستانى شيخ أحرار تركيا قد نشر رسالة فى أوروبا باللغة الفرنسية يطلب فيها من الدول العظمى أن تتداخل فى شؤون الدولة العلية لإصلاح إدارتها الداخلية . فكتب السيد على يوسف بمؤيده رداً قاسياً عليه ! قال فيه : إن هذه السياسة الخرقاء لو نجحت ذهبت باستقلال الدولة العلية . والدولة إذا فقدت استقلالها فقدت نفسها .

وقرأ عزت (باشا) العابد — وكان صديقاً شخصياً لصاحب المؤيد — هذه العبارة فذهب مسرعاً إلى السلطان عبد الحميد ، وقال إن المؤيد يدافع دفاعا منطقياً ، ولكنه يسىء التعبير . فأمر السلطان بمنع دخول المؤيد جميع الممالك المحروسة .

وأخذ المؤيد على عاتقه عام ١٩١٠ نشر كتاب (طبائع الاستبداد) للكواكبى . وكان هذا الكتاب أشد على نفس السلطان من كل مانشره الكتاب الأحرار فى مصر وغيرها من بلاد الشرق والغرب ، فأصدر السلطان أمراً آخر بمنع دخول المؤيد فى الممالك العثمانية . كل ذلك برغم أن السيد على يوسف كان يلتزم دائما جانب الدفاع عن السلطان عبد الحميد وعن سياسته فى العمل على تشجيع ما سماه (بالجامعة العثمانية) .

وأعلن الدستور العثمانى ، وبعد إعلانه بخمسة أيام كان السيد على يوسف فى بيروت . وهنالك ألقى خطبة طويلة شكر فيها الجيش شكراً حسناً على عمله . ولكنه نصح لهذا الجيش بأن يقف بعد ذلك بعيداً عن

---

(١) راجع المؤيد : العدد ٥٢٣٤ — ٥ أغسطس سنة ١٩٠٧ .

الدستور وأن يتخذ من نفسه حارسا أميناً لهذا الدستور ، فلا يقترب رجاله من الأعمال السياسية والادارية ، قائلا لهم هذه الكلمة المشهورة التى أثرت عنه وهى :

« إن السيف والحرية والدستور لا يبيتون فى قراب واحد » .

واجتمع السيد على يوسف مرة بالجراح العثمانى الشهير (جميل باشا) وهو أحد أعضاء جمعية الاتحاد . فسأله الشيخ على يوسف فى حضرة سعد زغلول هذا السؤال : « هل تبقى جمعية الاتحاد عاملة مستمرة بعد انعقاد مجلس المبعوثان ؟ » فقال « نعم تبقى كرقيب على المجلس حتى يستقر أمر الدستور على حالة وطيدة». ومعنى ذلك أنه كان من رأى السيد على يوسف أنه لا ضرورة لبقاء جمعية الاتحاد قائمة ذات سلطة مستقلة محسوسة للناس بعد مباشرة مجلس المبعوثان عمله ، لأن ذلك يؤذن بعدم الثقة بنواب الأمة .

نفهم مما تقدم أن السيد على يوسف كان من أحرص الناس على الحرية من جهة ، وعلى الدستور من جهة ثانية ، أما الجامعة العثمانية ، فيظهر أن صاحب المؤيد — بتأثير من الخديو عباس راعى المؤيد — قد أصبح فيما بعد لا يتحمس كثيراً لها ، بل غدا قليل الإيمان بها . والشيخ على يوسف — كما عرفنا — ذو عقلية سياسية واقعية ، تعاف الجرى وراء الخيال ، وتعرف الخضوع لحقائق الأشياء [1] .

على يوسف والهلال الأحمر :

أغارت إيطاليا على ولاية طرابلس الغرب التى كانت تحت سيطرة تركيا ، ففكر الشيخ على يوسف فى تأسيس جمعية الهلال الأحمر ، وأوفد باسمها عدة

---

(١) نحن نعرف أن العلاقات قد توترت بين السلطان والخديو عباس حتى قيل : أن عباسا فى سنة ١٩٠٢ قبل الاشتراك فى مؤامرة حاكها رجال تركيا الفتاة لخلع السلطان عبد الحميد ، وأنه أعطى رجلا منهم هو اسمعيل بك كمال أربعة آلاف من الجنيهات كساعدة من سموه . ولكن بعض خاصة الخديو نصحوا له بالبعد عن فتنة كبيرة كهذه الفتنة ، فاقتنع بهذا الرأى .
(مذكرات ق باشا — قسم ثان . جزء ثان . ص ٨) .

بعثات طبية لمواساة الجرحى فى طرابلس ، ومواساة فلول الجيش العثمانى هناك . وكان من بعض هذه البعوث رجال مشهورون ؛ منهم على (باشا) ابراهيم ، وحافظ (باشا) عفيفى ، ونصر فريد (بك) . والأخيران من أركان الحزب الوطنى، ومن أقوى دعائمه ، ومنهم كذلك الدكتور محجوب ثابت، والدكتور سليمان (باشا) عزمى وغيرهم .

ولما شبت نار الحرب العثمانية اليونانية المسماة فى التاريخ (حرب البلقان) أرسلت هذه الجمعية عدة بعوث طبية إلى هناك . ويقال إنه كان من رأى الأستاذ لطفى (باشا) السيد الذى كان يرأس تحرير (الجريدة) ـــ لسان حال حزب الأمة وقتئذ ـــ العدول عن جمع الإعانات من طريق الهلال الأحمر للجيش العثمانى المقاتل . وإذ ذاك انبرى له السيد على يوسف مفنداً رأيه فى ذلك . وانضمت إليه . إذ ذاك بعض الصحف الوطنية ، وأهمها صحف الحزب الوطنى . ومن ثم أقبل الجمهور المصرى على جمع هذه الإعانات استجابة لنداء الشيخ على يوسف وجمعية الهلال الأحمر .

لقد كانت هذه الجمعية يداً طولى للسيد على يوسف على مصر . وغيرها من بلاد الشرق ولم تزل تقـــدم الخير الجزيل لها إلى اليوم . وفى الحديث الشريف « من سنَّ سنة حسنة فله أجرها إلى يوم القيامة » .

على يوسف وامتياز قناة السويس :

وإن تنس مصر لا تنس للشيخ على يوسف موقفه المجيد بإزاء مشروع خطير ، هو مد امتياز قناة السويس إلى أجل آخر . فقد عارض الشيخ فى هذه الفكرة الخطيرة بكل ما أوتى من قوة ، وحاول جهد طاقته إقناع زملائه النواب فى الجمعية العمومية بخطر الموافقة على مد هذا الأجل . ولولا خشية الإطالة لبسطنا للقارىء طائفة من أقوال الشيخ فى ذلك . ولكننا نستعفى القارىء هـذا ، ونحيله إلى أعداد جريدة المؤيد فى شهرى يناير وأبريل من عام ١٩١٠ . فثم يجد ما يدله على وطنية الشيخ ، وغيرته على مصالح قومه ضد الأجانب الذين يأتمرون فيما بينهم عليها .

ونحن نعرف أن هذه الفكرة كانت السبب الحقيقي فى مقتل بطرس (باشا) غالى ، وأن الانجليز عادوا إلى اتهام المصريين يومئذ بتهمة التعصب الدينى . وحين عرضت فكرة الامتياز على الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين، كان يدافع فيها عن وجهة نظر الحكومة أحد أعضاء النظارة حينذاك سعد زغلول (باشا) ، وكان يدافع فيها عن فكرة الشعب المصرى الشيخ على يوسف صاحب المؤيد . واشتد النضال بين الرجلين حول هذا الموضوع . ولم يكتف الشيخ بذلك حتى جمع حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية . وأصدر الحزب يومئذ قراره فى الفكرة . وهو قرار يقضى برفضها . ومع ذلك لم ينجح الوطنيون فى غرضهم ، ووافقت الحكومة المصرية على مد هذا الأجل[1] .

على يوسف والجامعة الاسلامية :

نظر الباحثون من الأوروبيين إلى كل حركة قام بها المسلمون قصد الإصلاح والتجديد على أنها نزوع منهم إلى تحقيق هذه الفكرة التى اشتهرت باسم «الجامعة الإسلامية» . وقال بعضهم إن هذه الفكرة لاوجود لها بالفعل فى أذهان المسلمين ، ولكن الموجود منها بالتحقيق إنما هو نزوع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها إلى النهوض . وهذا كلام صحيح فى جملته . وقد وجدنا السيد على يوسف يميل إليه ويوافق عليه ، بل وجدنا جريدة المؤيد تقول ما نصه :

« الجامعة الاسلامية قسمان : دينية وسياسية . والدينية موجودة بوجود العقيدة الإسلامية ، والسياسية غير موجودة، ولم توجد ، ولن توجد لعدم وجود الرابطة بين الأمم الإسلامية ؛ وهى المصلحة . ذلك أن المسلمين

---

(١) راجع (محمد فريد) للرافعى حيث تجد محاضر الجلسات التى تثبت عدم الموافقة بالاجماع على المد

إذا أوجدوا جامعة سياسية إسلامية أوجد غيرهم جامعة مسيحية وهكذا ، فتكون المضرة عليهم بسبب ذلك[1] » .

وفى مذكرات الخديو عباس الثانى التى نشرتها جريدة المصرى ما يؤيد ذلك أيضاً . وقد جاء فيها قوله[2] :

« وكانت سياسته ـــ أى سياسة على يوسف ـــ وآراؤه الشخصية قائمة على الوحدة العربية ، وإن لم يفتنه ـــ فى يوم من الأيام ـــ ما كان فى الاتحاد العربى من عظمة . وكان يرى أن من الخطأ أن تقام سياسة شعب على اتفاق روحى بحت ، بينما كان من الصعب إقامتها على أساس الجنس . وكان من رأيه أن فترة الحروب الصليبية قد انتهت إلى الأبد . وكنت أرى معه أنه على حق ».

هكذا بقى صاحب (المؤيد) يولى هذا الموضوع جانبا كبيراً من عنايته ، وكان يكتب فيه بنفسه تارة ، ويستعير أقلام غيره من الشرقيين أو الأوربيين تارة أخرى .

والخلاصة أن فكرة الجامعة الإسلامية لم تكن إلا متنفساً صغيراً لبعض الكتاب المصريين ، يتنفسون من خلاله فى فترات قليلة ، وذلك ريثما ظهرت فى الميدان فكرة أخرى تنافسها ، وتحاول أن تشق طريقها إلى أذهان المصريين المحدثين . وهذه الأخيرة هى فكرة (مصر للمصريين) . ومن الجائز أن تكون هذه الفكرة نفسها من وحى الإنجليز الذين أرادوا منذ الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ أن يصل نفوذهم فى مصر إلى الحد الأقصى . وإذ ذاك تمخض الذكاء الانجليزى عن فكرتين تحققان له هذا الغرض المطلوب : أولاهما فكرة مصر للمصريين التى أريد بها فصل مصر عن تركيا . والثانية إلغاء الامتيازات الأجنبية فى مصر ، حتى لا يصبح لأية دولة أوروبية فيها ظل السلطان ما إلى جانب انجلترة .

وهكذا كان الشيخ على يوسف يؤمن بالجامعة الإسلامية من الناحية

(١) المؤيد عدد ٥١٠٨ سنة ١٩٠٧ .

(٢) جريدة المصرى بتاريخ ١٣ مايو ١٩٥١ .

الدينية ، ولا يؤمن بها من الناحية السياسية . وهذا معنى قول عباس الثانى فى وصف سياسة على يوسف :

كانت سياسته تستند أحيانا على نفوذ الخليفة ، ولكنها لم تكن على الخصوص تركية إسلامية(١) .

على يوسف والجامعة العربية :

كانت العصبية العربية فى دورها الثانى يوم فكر زعماؤها فى إنشاء إمبراطورية باسم :

الجامعة العربية ، وأريد بهذه الإمبراطورية أن تشتمل على شبه جزيرة العرب ، وسوريا ، والعراق ، ومصر ، والسودان ، وطرابلس ، وشمال إفريقية .

غير أن فكرة (الجامعةالعربية) فى دورها الثانى لم ترق إلى حد (الجامعة الطورانية) برغم ما ظهر فى الأولى من صبغة الدين ، وما أفادته من فكرة (الجامعة الإسلامية) التى دعا اليها جمال‌الدين . ذلك أن الجامعة العربية كان ينقصها التنظيم ، ووحدة السير ، تلك الوحدة التى عرفتها الجامعة الطورانية وسارت عليها منذ البداية .

ولم تبرح سوريا ومصر المركزين الرئيسيين لحركة الجامعة العربية . (وإن رأى شكيب أرسلان أن‌مصرهى الأولى والأصلح للقيام‌بهذه‌الحركة).

وأما البرنامج المصرى للجامعة العربية فيرمى إلى توحيد جميع الأقطار العربية ، وعلى رأسها الخديو . ولكن يبدو أن هذه الأقطار العربيةخضعت للوصاية البريطانية فى أول الأمر . وحينئذ أصبح على العرب أن يتحدوا لمقاومة هذا النفوذ وتمزيقه والتخلص منه .

---

(١) نفس المصدر المتقدم .

ومهما يكن من شيء فإن الخديو عباس يعزى تشجيع هذه الحركة[1]

علي يوسف ومشيخة السجادة الوفائية :

شاءت الظروف بعد ذلك أن يترك الشيخ علي يوسف حرفة الصحافة ، وأن يتعلق بأمر آخر لا صلة له بالصحافة . وهذا الأمر الجديد هو مشيخة السادة الوفائية فى الديار المصرية[2] .

والحق أن العجب ليملأ نفس الباحث حين يرى رجلا سياسياً صحفياً يبلغ من المجد والشهرة حداً لا يطمع فيه أحد ، ويسطع نجمه فى سماء الصحافة والسياسة إلى هذا الحد الذى لا يتطلع اليه أحد ، ثم يترك هذه الحرفة العزيزة على نفسه ، بل الحرفة التى هى السبب الوحيد فى شهرته ومجده الى حرفة أخرى لا تحتاج الى هذه المواهب العالية ، أو الذهنية السليمة الناضجة ، أو التجارب الطويلة القيمة .

ولكن القارىء يخفى عجبه قليلا حين يعلم من ظروف الرجل بعض ما حمله على هذا الانحراف المفاجىء فى أخريات حياته .

ولعل أول هذه الظروف التى نشير اليها عناده النفسى الذى كان طابعاً عاما لحياته منذ بدايتها . وسيعلم القارىء فى فصول أخرى أن الشيخ علياً أراد أن يصهر إلى هذا البيت العظيم من بيوتات مصر ، وهو بيت السادة الوفائية ، وخطب لنفسه بنتا للسيد عبد الخالق السادات ، فقبل والد الفتاة الخطبة أول الأمر ، ثم مالبث أن رفضها مستعلياً على صاحب المؤيد بعد ذلك . فلم يكن من صاحب المؤيد ومن ابنة السيد عبدالخالق إلاأن اتفقا على عقد الزواج فى بيت غير بيت السيد عبد الخالق ، وبدون إذن منه ، وهنالك ثارت ثائرة الوالد ، ورفع على ابنته وعلى صاحب المؤيد قضية كان لها شأن يذكر فى تاريخنا الاجتماعى فى القرن الماضى ، ونعنى بها قضية الزوجية ، وفيها

---

(١) حاضر العالم الإسلامى للاستاذ لوتروب ستوتارد ، الأمريكى ترجمة الأستاذ عجاج نويهض ، المجلد الرابع ص ١١٩ وما بعدها .

(٢) انظر نسب السادة الوفائية فى هامش صفحة ١٠٨ من هذا الجزء .

حكم بالحيلولة بين الزوجين ، ثم وضعت الأمور فى نصابها الحقيق ، فأعادوا كتابة العقد فى بيت السيد عبد الخالق وبإذن منه .

وعلى الرغم من ظفر الشيخ على يوسف بما أراد فى هذه المسألة ، فان رفض البيت الوفائى له يومئذ حز فى نفسه ، وبقى شوكة فى جنبه ، وشجى فى حلقه ، حتى أتيحت له فرصة جلس فيها على عرش المشيخة الوفائية ، فاعتبر ذلك حلا لتلك العقدة التى غاضت فى أعماق نفسه مدة من الزمن .

أما السيدة صفية السادات زوجة الشيخ على فبدأت حياة زوجية فيها شىء من الرضى أول الأمر ، ولكنها لم تلبث أن كدرت معيشة زوجها بعد ذلك . فقد كانت تشعر بالاعتزاز بجمالها ، أو الاعتزاز بمالها وبفضلها على أقرانها فى الحسب ، وفضلها فى الثقافة التى كان والدها قد وصلها بها منذ الصغر ، أضف إلى ذلك كله تلك الشدة التى قاستها منذ ظهورها على مسرح المجتمع المصرى فى أثناء اشتغال هذا المجتمع بالنظر فى هذه القضية العجيبة التى سنأتى على ذكرها فيما بعد .

ثم إن حياة الشيخ على يوسف بعد هذه الحادثة ما لبثت أن ساءت فى منزله ، وطفقت زوجته بصلفها وجبروتها تكدر عليه عيشته . وربما أنه بسبب ذلك رأينا الشيخ ينصرف إلى مكتبه (بالمؤيد) يعمل فيه نحواً من عشرين ساعة فى اليوم والليلة تاركا منزله وزوجته .

ومنذ عام ١٩٠٧ — وقد أثرى الشيخ ثراء عظيما من مؤيده — أقحم هذا الشيخ نفسه فى مضاربات عقارية لبيع الأراضى . وخسر فى هذه المضاربات معظم ثروته . وهو وإن كان رجلا لا يهتم بالمال ، ولم يكن البخل من خصاله بحال من الأحوال ، إلا أنه حزن يومئذ لضياع ثروته ، وندم على فعلته ، وتكاثرت همومه ؛ ودخل اليأس قلبه من كل جهة ، وقلت بهجته بالحياة نفسها ، وزاده بالحياة ضيقا سوء معاملة زوجته له . وبقى الشيخ على هذه الحال التى وصفنا حتى أصيب بذبحة صدرية كادت

تقضى على حياته ، ولكنه نجا من الموت ، وإن لم ينج من الضعف الذى لازمه منذ ذلك الوقت ، وحدّ من نشاطه ، وأثر فى قوته .

هكذا اصطلحت على الشيخ أسباب كثيرة : فمن عناد نفسى أو صراع داخلى ، إلى ارتباك مالى ، إلى تعاسة زوجية ، إلى ذبحة صدرية . فليس عجيبا بعد ذلك أن يترك الرجل فى نهاية الأمر هذا العمل الذى توفر عليه نحواً من خمس وعشرين سنة . فقد أصبح لا يجد فى نفسه قوة على أدائه ، ولا يأنس من أعضائه نشاطا على النهوض به . وحين أتيحت له فرصة السجادة الوفائية أحب أن ينتهزها ليلقى عصاه عندها ، ويستقر بها ، ويركن إليها ، كما يفعل المسافر فى رحلة شاقة حين يؤوب إلى منزله ، ويستلقى استلقاء على فراشه ، لينال قسطا من الراحة من طول السفر .

وفى ٦ مارس سنة ١٩١٢ أقيمت له حفلة تقليدية بسراى عابدين لم يسبق لها نظير ، وخلعت عليه الخلعة الخاصة التى تمنح فى العادة من ولى الأمر بهذه المناسبة ، وذلك بحضور السادة العلماء ، وعلى رأسهم شيخ الأزهر ، والنظار ، والكبراء ، ومن إليهم .

إذ ذاك بعث أحمد فتحى زغلول (باشا) إلى السيد على يوسف يقول :

« ياشيخ : والله إنى أريد أن أهنئك تهنئة دونها كل التهانى ، ليس بمنصبك الجديد ، ولا بأسف الناس على اعتزالك الصحافة بعد أن خدمتها تلك المدة الطويلة ، وبعد أن لاقيت فى سبيلها كل صعب فذللته ، وسرت فى كل حزن فسهلته .

إنما أهنىء فيك همة بنيت لها بعزيمتك الصادقة قصراً تقصر دونه الهمم ، ومجداً لم يأته الفتور من بين يديه ولا من خلفه ، وبذلك الدرس العالى الذى ألقيته على الأمة بعملك المجيد ، ونجاحك الباهر ، وفوزك المبين .

كنت لا حول لك إلا قوة إرادتك ، وصارعت الدهر فصرعته ، وقلبت أعداء الحوادث خداماً لغايتك السامية حتى استويت مكانك الذى أنت فيه الساعة سيداً مكرما مغبوطا .

فعل هذا كله مصرى صميم ، وشيخ معمم ! إنما هذبته نفسه ، وقومته حكمته الذاتية ، وحواه وجدانه النير ، وساعده عقله الرصين الخ [1] :

ويومئذ أيضا كتب السيد على يوسف يودع الصحافة بكلمة هذا نصها [2].

« إلى سادتى وإخوانى ورصفائى قراء المؤيد

بعد ثلاث وعشرين سنة أنشأت فيها المؤيد ، وقمت بتحريره مسئولا عنه قد اضطررت منذ أمس بمقتضى أسباب عائلية قوية أن أودع مهنة الصحافة التى أحترمها وأعتبرها من أشرف الأعمال المفيدة للهيئة الاجتماعية . بل اضطررت أن أودعكم راجيا أن تكونوا حفظة كراما خيرين ، تذكرون الحسنة وتنسون السيئة « إن الحسنات يذهبن السيئات » .

على أنى مع هذا الوداع إنما أترك وظيفة التحرير فى المؤيد ، وقد صار قوة كبرى فى خدمة الأمة ، بحيث لم أصبح فيه إلا عاملا من جملة عمال كثيرين ، وكاتبا بين كاتبين ، فهو لا يخلو يوما واحداً من آثار أقلام عشرات من كبار الكتاب المفكرين ، ولايضيره ألا يكون فيه واحد من هؤلاء ، ولن تتخلى عنه الأمة التى أصبح هو وديعة فى ذمتها إن تخلى عنه قلم من بين أقلام المحررين .

وفضلا عن هذا فانى إذا تركت قلمى بجانبى فلم أكسره ، وإن عطلت وظيفة لى فى المؤيد فلم أعطل فكرى وضميرى . وسأقوم بما يجب على لوطنى كلما دعانى هذا الواجب بقدر ما أستطيع .

كما أنى سأبذل جهدى فى القيام بأعباء (جمعية الهلال الأحمر) لجعلها جمعية ثابتة قادرة على الدوام أن تؤدى وظيفتها المقدسة التى تطلبها منها عواطف الإنسانية الروحية . أسأل الله أن يوفقنى وإياكم فى خدمة الأمة والملة لما يحبه ويرضاه » .

---

(١) ذكريات من حياة المرحوم السيد على يوسف : بقلم عطية على شلبى أفندى ص٧—٨

(٢) المصدر السابق ص ٩ .

أخلاق السيد علي يوسف :

لعل أظهر ما يمتاز به الرجل صفتان كان لهما أكبر الأثر في تكوين شخصيته التي عرفها له التاريخ .

أما أولاهما فشدة عزمه وقوة إرادته . والإرادة القوية تزيدها المصاعب قوة على قوة ، وتمنحها الشدائد صلابة على صلابة . فاذا هـذه الإرادة كالسيف القاطع ، أو كالصخرة التي لا تعرف الضعف ولا الوهن . وكذلك كانت حياة الشيخ من أولها إلى آخرها جهاداً متصلا ضد الظروف المحيطة به ، ومقاومة مستمرة لشتى العقبات التي اعترضته .

والأخرى من هاتين الصفتين اللتين كونتا شخصية الشيخ صفة الدهاء والمكر . وبهذا الدهاء أصبح الشيخ سياسياً ناجحاً ، وصحفيا بارزاً ، وكاتبا لايشق له غبار . وإذا صح مايقال من أن (الأسلوب هو الرجل) فان أسلوب السيد علي يوسف — على ماسنرى — كان أدل عليه من سواه . فقد نضح دهاء هذا الرجل على الورق ، وتكلم مكره بين السطور ، فجاءت كتاباته كلها لذعا وسخرية ، وهي في الوقت نفسه إصابة مباشرة للهدف الذي أراده ، وحزة في المفصل الذي قصد إليه . ولعل هذا الدهاء هو وحده مصدر النجاح الذي أصابه الشيخ في ميدان الصحافة المصرية ، في وقت كانت فيه مصر — على ماعرفت — تحت نير الاحتلال البريطاني البغيض الذي وقف للصحافة المصرية والقومية المصرية موقف العناد والمقاومة ، بل موقف الإصرار على إماتة الشعور الوطني ، وقتل الروح المعنوى ، ووأد الحياة المصرية نفسها قبل أن تنمو وتزدهر ، وتسير في طريقها إلى السمو الحقيقي . وفي مثل هذه الظروف يظهر كتاب وأدباء من طراز علي يوسف يكتبون بهذا الدهاء الذي يصبح طابعا للحياة الصحفية ، والحياة الأدبية . لاغنى عنه إذ ذاك بحال من الأحوال .

والشيخ بعد هذا صفات أخرى تتصل بشخصه وتنبىء عنه .

ومن هذه الصفات كرمه وسخاوته ، ومروءته وأريحته . وقد وصف المنفلوطى هذا الجانب من طبيعته حيث قال :

« ورأيته يضم إلى كنفه كثيرا من أصدقائه الذين نبا بهم الدهر بعد سقوط دولة عبد الحميد ، وتنكر لهم الناس جميعاً ، خصوصاً أولئك الذين كانوا يزدلفون إليهم أيام إقبالهم ؛ ويمرغون وجوههم على أعتاب قصورهم . وكان يلاقى فى سبيل ذلك من عنت العانتين عليه ، ولوم اللائمين له مالا يستطاع احتماله »(١).

وإن ننس لا ننس ما وصف به الشيخ على يوسف من الثبات على المبدأ حين كانت المبادىء المختلفة تتعاور غيره من الرجال فيتقلبون بين هذه المبادىء كلها كما يتقلب الناس فى مختلف الثياب !

فلقد أخلص الشيخ أولا للخديو عباس ، وثبت على إخلاصه له طول حياته ، وأخلص الشيخ لصديقه الأستاذ الامام ورجال حزبه ، وبقى وفياً لهم لم يتحول إلى غيرهم ، ولم يتخل عن واحد منهم حتى فى الوقت الذى تخلى فيه عباس عن رجال هذا الحزب ، وناصبهم العداء ، ونظر اليهم على أنهم خصومه الألداء . وكان الشيخ فوق هذا وذاك حكيما حليما فى معاملة خصومه فى الرأى ، أو خصومه فى السياسة . وما منى الانجليز فى مصر بشىء مثلما منوا بأناة هذا الشيخ ورويته ، وصبره وحلمه وحنكته .

هكذا أصبح الشيخ بما اجتمع له من جميع هذه الصفات رجل مصر وواحدها فى كثير من الأزمات العنيفة التى مرت بها ؛ أو قل ثانى اثنين فى مصر فى ذلك الوقت ؛ هما مصطفى كامل والشيخ على يوسف . وكم كان

---

(١) نفس المصدر ص ١١

الوطن بحاجة إلى هذين الرجلين معا يحارب بهما الإنجليز فى ميدان السياسة ، ويذود بهما عن نفسه ضد مطامع الاستعمار .

هذا بخطابته ، وحماسته ، وقوة قلبه ولسانه ، وحذقه أساليب الدعاية لمصر فى جميع أقطار العالم ، وذاك بقلمه وحكمته وسكونه فى عقر جريدته ، يرسل منها المقالات تلو المقالات ، يناقش فيها القوم حقوق مصر ، ويرد فيها على مزاعم الطاعنين فى أهل مصر ، ويلزم فى كل هذا جانب اللين والدهاء ، ويتوخى فى كلامه أساليب السخرية والرثاء ، ويثبت للعالم كله أن استمساك الأمة الإنجليزية بالشرف كذب ومحض إدعاء .

وهكذا بينما كانت (اللواء) تطلع على الناس فى أساليبها الحماسية المعروفة بتأثير مصطفى كامل ، إذ (بالمؤيد) تطلع عليهم بأساليبها الهادئة الرزينة التى تعرف طريقها إلى العقول السليمة ذات الطابع الواقعى السياسى . فإذا أصحاب هذه العقول متفقون مع صاحب المؤيد فى الرأى الذى ذهب اليه . كانت (اللواء) تحسن أن تثير العواطف ، وتهيج المشاعر ، وتحمس الجماهير . على حين كانت (المؤيد) تحسن أن تعرض القضايا السياسية ، كما تحسن أن تناقشها وتنقدها ، وتدافع عن وجهة نظر الأمة فيها ، وتحارب خصومها بسلاح المنطق والبرهان .

على أن حياة الشيخ على يوسف لم تكن وقفاً على الكتابة فى الصحف ، أو بعبارة أخرى لم يكن الشيخ على يوسف صحفيا فقط ؛ وإنما كان زعيما وصحفيا فى وقت معا .

أما الصحافة فنى هذا البحث الذى نكتبه شاهد على نبوغه فيها إلى درجة أثارت إعجاب المصريين والأوروبيين على السواء ، حتى قال عنه بعض هؤلاء (إنه أعظم صحفى فى العالم) .

وأما الزعامة فقد سلمت له من وجهين :

أولها : أنه كان رئيسا لحزب له أهميته فى تلك الفترة — فترة

الإحتلال — وهذا الحزب هو حزب « الإصلاح على المبادىء الدستورية » ، كما سنوضح ذلك فى فصل خاص به .

وثانيهما : أنه كان ينظر إلى صاحب المؤيد على أنه لسان الشعب المصرى فى ذلك الوقت . فكان كلما حزب الأمر ، وادلهمّ الخطب ، نظر الناس إلى هذا الشيخ على أنه لسان الأمة الناطق ، وعقلها المفكر ، وقلبها الذى لا تملك غيره فى الرد على الخصوم ، أو الدفاع عن حقوق هذا الشعب الذى يعانى من ظلم الغاصبين شيئا غير قليل .

وهكذا جمع الشيخ بين الصحافة والزعامة ، أو بين القلم والسياسة ، وتركزت فى قلبه آمال أمة بأسرها ، وكانت له خطة واحدة فى قيادتها . ومع ذلك لم يسلم من أذى المصريين والمحتلين ، ولا نجا من سخطهم وكرههم ، بل قاسى من ذلك الشىء الكثير .

وإليك وصفاً للشيخ على يوسف بقلم الشيخ عبد العزيز البشرى . قال رحمه الله :

« ليس بالطويل البائن ، ولا القصير المتردد . على أنه كان إلى الطول . يظهر فى مرأى العين نحيلا هزيلا . ولكنه كان مكتنز اللحم ، مستطيل الوجه ، واسع مساحة الجبهة ، أزرق العينين ، طويل الهدبين ، كثيراً ما ترى له فى إطراقه نظرة غريبة ساجية ، ضيق الفم ؛ على أن فى شفتيه الحمراوين شيئاً من الغلظ . تعلوه صفرة ما أحسبها من أثر مرض ، وشعر لحيته الدقيقة المنسقة يميل إلى الشقرة ، رقيق الصوت لينه إذا تحدث ، فاذا رفع صوته ضمر بعض الضمور ، وتسلخ بعض التسلخ ، فلم يكن من تلك الأصوات التى تصلح للخطابة .

وكان بعد رجلا شديد العقل ، قوى النفس ، حديد العزم ، وافر الشجاعة ، لا تتعاظمه قوة خصم بالغة ما بلغت قوة ذلك الخصم وبأسه . وإذا تحداه متحد ركب رأسه فى نضاله ، لا يبالى أين يقع المصير . وقد صح فيه قول الشاعر :

إذا همَّ ألقى بين عينيه عزمه ونكَّب عن ذكر العواقب جانبا

وكان فى كثير من الأزمات التى تعرض لها المؤيد كثيراً ما يقول :

« والله ما يعنينى أن يكون الناس جميعاً فى صف واحد ، وأنا والحق الذى أعتقده بإزائهم فى صف واحد » . ومما يشاع عنه كذلك أنه كان يقول :

« أنا لا أبالى أن أخسر هذا البلد ، فنى إمكانى أن أعود فأكسبه بثلاث مقالات ! » .

ومضى عبد العزيز البشرى يصف الشيخ عليا فقال :

« فانى لا أعرف رجلا سياسيا عظيما كان أقل الناس أنصارا وأكثرهم خصوما كما كان الشيخ على يوسف . وخصومه على كثرتهم لقد كانوا من جميع الطبقات ، وكانوا من جميع الهيئات . وأنهم ليحيطون به إحاطة الطوق من كل جانب ، وكلهم عامل على إسقاطه ، جاهد ما امتد به الجهد فى هدم المؤيد ، مذك عليه الأقلام والألسن من كل ناحية . يدمغه بتهمة الخيانة الوطنية فما دونها فى غير هوادة ولا إشفاق ... ثم إذا الشيخ يتجمع ، وإذا هو يشرع القلم شرع الرمح الردينى ، وإذا هو يطعن الطعنة البكر ها هنا مرة ، وها هنا مرة ، فلا يصيب إلا الكلى والمفاصل ، وإذا هؤلاء الخصوم يتطايرون عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض ، وإذا المؤيد يرن فى البلد رنينه ، بعد ما تردد تأوهه وطال أنينه .

وقد عرفت أن الشيخ على يوسف كان مبغَضاً إلى الكثرة فى البلاد .

وإن هذا البغض ليرجع فى الأكثر إلى أسباب صناعية . منها المناقشات الصحفية ، ومنها الغيرة من موضعه يومئذ من ولى الأمر . ومنها أنه كان هناك رجال أقوياء ببسطة الجاه وسعة الغنى ، وفيهم كذلك من ذهب لهم فى العلم والأدب صيت وذكر ، وكان هؤلاء لا يستريحون إلى سياسة القصر ،

فهم بالضرورة ينقمون من كل رجل يواليه القصر ، وخاصة إذا كان رجلا كالشيخ على يوسف جبار العقل ، جبار القلم !

ومع هذا كله فنى يوم الحلي ، يوم تحدث الأحداث القومية ينفض الناس قلوبهم حتى يتساقط منها كل ماعلق بها من الحقد على الشيخ على يوسف ، ويتلعون أعناقهم نحو المؤيد ، شاخصة أبصارهم ، مرهفة آذانهم ، معلقة فى انتظار ما يقول الشيخ أنفاسهم ، فاذا النمر الجبار يثب على فريسته من عدوان العادين وثبته ، فلا يزال يوسعها تمزيقاً بمخلبه ، وضغا بأنيبه ، حتى مايدعها إلا أعظما وجلوداً (١) .

* * *

هكذا كان الشيخ على يوسف رجلا شعبياً بكل ماتحمل هذه الكلمة من معنى ، وذلك على الرغم من اتصاله بالقصر وتقربه من السلطان . وربما أنه بسبب ذلك لم نستطع أن نلم بسيرته فى فصل واحد فقط . فقد سبق القول فى بداية هذا الفصل أن الجانب القومى فى هذه السيرة التى أمامنا غلب على الجانب الشخصى فيها . ومن ثم فنحن بحاجة إلى أن تتم هذه السيرة فى فصول أخرى ، يتناول كل فصل منها جانبا واحداً من الجوانب التى لم تتحدث عنها . فلنتبع هذا الشيخ فى باقى مراحله ، ولننظر إلى طائفة أخرى من الأحداث التى مرت به فى حياته ، وكان الشعب فيها من ورائه يؤيده ويؤازره ، وترى فيه زعيما من زعمائه المخلصين ، وقائداً من قادته المحنكين.

وذلك ماسنفعله فى الفصول الباقية من فصول الكتاب إن شاء الله .

وفاة السيد على يوسف :

وتوفى السيد على يوسف فى ٢٥ أكتوبر ١٩١٣ بعد حياة قضاها فى الجهاد العنيف من أجل الوطن والحرية، كل ذلك وسيف الاحتلال البريطانى مسلط فوق الرءوس ، وخطامه آخذ بأنوف الكثرة المطلقة من المصريين ،

---

(١) عبد العزيز البشرى . المختار . الجزء الأول ص ٢١٠ — ٢١٢ .

والاستعمار الأوروبي نار تتأجج فى صدور المستعمرين ، وشواظ يلق به المستعمرون فى وجوه المصريين وغير المصريين . والمدنية الأوروبية تلبس لباس الراقصة اللعوب تريد أن تبتز الشبان أموالهم ، وتزعزع أخلاقهم ، وتفقدهم كل إيمان بأنفسهم وبماضيهم وتاريخهم !

فى تلك الظروف العصيبة يصبح الأدب فى ثورة ، والصحافة فى هياج ويحتدم النزاع بين الوطنيين العزل من جانب ، والاستعمار المدجج بالسلاح من جانب آخر . والعجيب أن قلم السيد على يوسف كان فى تلك الآونة شيئاً يخشاه المستعمرون ، ويحسب له رجال السياسة منهم ألف حساب.ومن ثم كانت وفاة هذا الرجل خسارة كبيرة على أمته ، كما كان انسلاخه قبل ذلك من ميدان الصحافة كارثة عظيمة على بلاده .

واستمع إلى (أحمد فتحى زغلول باشا) يقول فى رثاء السيدعلى يوسف:

« مات على يوسف . مات الشيخ على يوسف . مات الصحافى على يوسف مات السيد على يوسف ، أحقاً كل هؤلاء ماتوا ؟ فأى خسارة خسرنا ؟ وكم فقدنا ؟ . . .

أجل — ماعرفتُ الإقدام أنفذ فى قلب الزمان مثلما عرفته من على يوسف ولا أدركتُ بالحس إلى أى شأو تبلغ الهمة بصاحبها مثلما شهدت ذلك فيه .

رجل رمت به الأيام فى معترك الحياة وهو وحيد، والجو أقتم، وظلمات الحوادث تتكاثف على الأمة ، والله يعلم كيف تنكشف تلك الغمة . ساورته الشدائد وهو فى مؤيده ، وشب بنفسه ، واختط فى الحياة طريقة بذاته ، لا معين له من طارف أو تليد ، ولا ناصر له من أب أو قريب أو نسيب . ولو أنه كان من أولئك الذين يطويهم الزمان فى ثناياه ، وتطوح بهم الحياة أنى شاءت ، لما اجتمعنا اليوم لتأبينه ، بل لما عرفه الكثير منا ، بل لما عرفه أحد . لكنه كان رجلا استعصت نفسه الكبيرة على الزمان فقهرته،

وكبرت همته على الحوادث فأخضعها ، واستقبل الشدائد بعزم وثبات ، يخدمهما فكر صحيح ، ونظر ثاقب ، ورأى سديد ، فصيرها من عوامل مجده، وأحالها خداما لمرامه :

رام الصحافة فكان شيخها ، وتطلع إلى مجالسة الملوك والأمراء فتربع فيها ، واشتاقت نفسه إلى المعالى فاغترف منها مااشتهى ، لكنه ما اكتفى ، وما كان ليكتفى وله تلك النفس التواقة إلى نيل مالم ينله أحد من قبل .

هل سمعتم أن الأحساب عرض يكتسب ؟ هل علمتم أن الشؤون الذاتية مما يطمع فيه أحد ؟ ماعلمنا ولا سمعنا . لكنا رأينا قوة الإرادة تعلو على الأحساب . ورأينا صدق النية يتخطى الأنساب . فتعلمنا ماكنا نسمعه من الحكماء من أن مراد النفس أكبر منها على الدوام ، ومن أن قدرة الانسان فى الوجود لاحدّ لها إلخ (1) .

أما (السيد مصطفى لطفى المنفلوطى) فرثى الشيخ على يوسف بكلمات منها قوله :

« هكذا تقوم القيامة . وهكذا ينفخ فى الصور ، وهكذا تطوى السماء طى السجل للكتب . . .

ماكنا نرجو لهذه الأمة غير هذين الرجلين : حيث الأمس الشيخ محمد عبده ، وحيث اليوم الشيخ على يوسف . . فقد كانا لها طودين شامخين رابضين على أكتافها ، يمسكها الأول أن تزل بها مزالق المدنية الخالبـــة فيذهب دينها ، ويمسكها الثانى أن تطير بها أعلام السياسة الكاذبة فتذهب جامعتها . واليوم لانرجو لها من بعدهما أحداً ، فويل للأمة فى دينها ، وويل لها فى جامعتها . الخ » (2)

---

(1) ذكريات من حياة المرحوم السيد على يوسف : لصاحبها عطية على شلبى أفندى ص16

(2) نفس المصدر ص 11 .

ورثى الشاعر الكبير حافظ ابراهيم قلم الفقيد وجريدة المؤيد بقصيدة منها :

صونوا يراع عليّ فى متاحفكم ... وشاوروه لدى الأرزاء والنوب
واستلهموه إذا ما الرأى أخطأكم ... يوم النضال عن الأوطان والنشب
قد كان سلوة مصر فى مكارهها ... وكان جمرة مصر ساعة الغضب
فى شقه ومراميـــه وريقته ... مافى الأساطيل من بطش ومن عطب
كم ردّ عنا وعين الغرب طامحة ... من الرزايا وكم جلى من الكرب
له صرير إذا جـــد النزال به ... ينسى الكماة صليل البيض والقضب
ماضر من كان هذا فى أنامله ... أن يشهد الحرب لم يسكن إلى يلب[1]
فلو رآه (ابن أوس) ما قرأت له ... (السيف أصدق أنباء من الكتب)
ألا فتى عربى يستقل به ... بعد الفقيد ويحمى حوزة الأدب
ويمنع الحق أن يغشى تبلجَهُ ... ما فى السياسة من زور ومن كذب
أودى فتى الشرق بل شيخ الصحافة بل ... شيخ الوفائية الوضاحة الحسب
أقام فينا عصاميا فعلمنا ... معنى الثبات ومعنى الجد والدأب
وراح عنا ولم تبلغ عزائمنا ... مدى مناها ولم تقرب من الأرب

* * *

كم أرجفوا بعد موت الشيخ وارتقبوا ... موت (المؤيد) فينا شر مرتقب
وإن يمت تمت الآمال فى بلد ... لولا (المؤيد) لم ينشط إلى طلب
صُبابة من رجاء بين أضلعنا ... قد بات يرشف منها كل مغتصب
ألم يكن لبنى مصر وقد دهموا ... من ساسة الغرب مثل المعقل الأشب؟
كم انبرت فيه أقلام وكم رفعت ... فيه منابر من نظم ومن خطب
وكان ميدان سبق للأولى غضبوا ... للدين والحق من داع ومحتسب
أى الصحائف فى الطرين قد وسعت ... رد (الإمام) مزيل الشك والريب؟

(١) اليلب الدروع من الجلود : (القاموس المحيط) .

أيام يحصب (هانوتو) بفريته   وجه الحقيقة والإسلام فى نحب[1]
لولا (المؤيد) ظل المسلمون على   تناكر بينهم فى ظلمة الحجب
تعارفوا فيه أرواحا وضمهمو   رغم التنائى زمام غير منقضب
فى مصر ، فى تونس ، فى هند ، فى عدن
فى الروس ، فى الفرس ، فى البحرين ، فى حلب
هذا يحن إلى هذا وقد عُقدت   مودة بينهم موصولة النسب

* * *

أبا (بثينة) نم يكفيك ما تركت   فينا يداك وما عانيت من تعب
جاهدت فى الله والأوطان محتسبا   فارجع إلى الله مأجوراً وفز وطب
واحمل بيمناك يوم النشر ماذنشرت   تلك الصحيفة فى دنياك وانتسب

---

(١) النجب من نحب من باب كسر بمعنى صاح وبكى : مختار الصحاح .

الفصل الثاني

على يوسف وجريدة المؤيد

فى الثامن من شهر ربيع الأول عام ١٣٠٧ للهجرة ، الموافق لأول ديسمبر عام ١٨٨٩ للميلاد أصدر الشيخ على يوسف جريدته ، « المؤيد » . من أولى الجرائد اليومية فى الديار المصرية . وهى وإن سبقها إلى الظهور — فيما نعلم — جريدتان يوميتان ، هما جريدة (صدى الأهرام) التى صدرت عام ١٨٧٦ ودامت إلى عهد الثورة العرابية ، (وجريدة الطائف) لصاحبها السيد عبد الله النديم ، لسان حال الثورة ، فمن المحقق أن المؤيد هو أدوم الجرائد اليومية فى مصر فى القرن الماضى ، وأطولها عمراً ، وأجلها خطراً ، وأعظمها أثرا ، وأرفعها منزلة .

والحق أن صدور جريدة يومية لها هذا الخطر يعتبر حادثاً هاماً فى تاريخ مصر الحديثة يستحق فى الواقع كل التفات واهتمام ، وخاصة إذا كان قد أقدم على هذا العمل الخطير شاب أزهرى فقير كعلى يوسف ، كان لا يملك من الوسائل المادية أو المعنوية ما يؤهله لتحمل هذه التبعية التى تثقل كواهل العصبة أولى القوة . وقد مر بك بعض الصعاب التى اعترضت هذا الشاب فى طريقه ، ولكنه تغلب عليها بواحدة فقط من صفاته ؛ هى قوة العزيمة .

ونحن حين نستحضر فى أذهاننا صورة رجل نشيط كان يوماً ما مديراً لسياسة جريدة كبيرة كجريدة المؤيد ، وحين نستحضر فى أذهاننا طوائف الرجال العظماء الذين كانوا يختلفون إلى إدارة هذه الجريدة يوماً بعد آخر ، وحين نستحضر فى أذهاننا كذلك صورة لشتى الأحاديث القيمة التى كانت

تدور فى إدارة الجريدة ، وفى حضرة مديرها — نقول : حين نستحضر فى أذهاننا كل ذلك نعرف أى رجل ذلك الذى كان يلتقى فى مكتبه بكل هذه العقول على اختلافها ، وتنصبُّ فى جريدته كل هذه الأفكار على تباينها . ثم جاءت جريدته صدى لجميع هذه الأفكار والآراء ، وكان على مدير سياستها إذ ذاك عمل هام ؛ هو إحداث الإنسجام التام بين جميع هذه المواد ، ثم تقديمها إلى جمهور القراء شرابا سائغا ، وطعاما شهيا ، بل معرضا جميلا لآثار العقل المصرى تارة ، والعقل الشرقى تارة ، والعقل الأوربى تارة ، والعقل الأمريكى فى بعض الأحيان .

ولقد عبر الخديو عباس فى مذكراته عن ذلك فقال :

« كان المؤيد فى الواقع يحفل بالمقالات العظيمة بأسلوبها البارع وأفكارها العميقة . وكان الشيخ بأسلوبه اللاذع ، وبلاغته التى لا تغيض ، وعاطفته التى كان يطامن من غلوائها — لحسن الحظ — فلسفة إنسانية فائقة قد غدا أستاذاً بفضل اتصاله اليومى بالشخصيات البارزة فى كل علم وفن . وكان يتحدث إلى القراء فى مسائل تستثير مخيلاتهم ، لأنها تمس مستقبل البلاد وتاريخها فى الوقت نفسه [1] » .

وفى الحديث عن الظروف التى نشأ فيها «المؤيد» يجعل بنا أن نلفت النظر أولا إلى أن الاحتلال البريطانى فى مصر استطاع بنفوذه وجبروته أن ينشىء له جريدة مصرية عربية تتحدث بلسانه ، وتعبر عن آرائه واتجاهاته ؛ وهى جريدة المقطم التى تم إنشاؤها عام ١٨٨٨ . إذ ذاك عز على الوطنيين فى مصر أن يكون للإحتلال البريطانى فيها جريدة ، ولا تكون لهم فى بلادهم مثل هذه الجريدة ، وانتظر الناس يومئذ فى شوق وتلهف أن تصدر جريدة وطنية تناهض جريدة المقطم وتقف لها بالمرصاد . وحين أبدى

(١) راجع جريدة المصرى بتاريخ الاحد ١٣ مايو سنة ١٩٥١ .

الشيخ على يوسف رغبته فى إصدار جريدة «المؤيد»، وجد معونة صادقة له من جانب الوطنيين جميعا. وفهم الشيخ على يوسف منذ أول الأمر ماعلى «المؤيد» من واجب نحو هذا الوطن المحتل، وأدرك هذا المعنى إدراكا حسناً وقام على تنفيذه كذلك بضمير حسن.

وهكذا ظهرت جريدة «المؤيد» فى الوقت الصحيح، واختار لها القدر الرجل الصحيح، واتخذت لنفسها إذ ذاك المنهج الصحيح. وهذه كلها خطوات وفق فيها صاحب «المؤيد» توفيقا عاد بالخير والبركة عليه، كما عاد بالخير والبركة على أمته.

* * *

وافتتح الشيخ على يوسف أول عـــدد من أعداد جريدة المؤيد بقوله:

بسم الله الرحمن الرحيم

أفتتح المقال بحمد من نسأله التأييد فى القول والعمل، واستهل ببراعة الشكر لمن فى قوته أن يعصمنا فى كل الأحوال من الخطأ والزلل. فلله الحمد سبحانه خط قلمه فى اللوح ما الكل عليه الآن، وما يكون وما كان. ونثنى بميمون الصلوات على خير خلقه المبعوث إلى كافة الناس بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، مؤيداً بالحق المبين، ذى القوة المتين، مدبر هذا العالم، ومبدع نظام الأمم فى توجيه إرادة العمل إلى إظهار جريدة سياسية يومية تلازم منهج الحق أمام الخلق، وتنادى على منبر الأمة بصوت الذمة. تناجى القراء بلسان عربى مبين خدمة لأبناء الوطن وقياماً بواجبات بلاد نحن صور هيولاها، وكنه حقيقة معناها.

أقول لك الأوطان وهى عبارة يفسرها ما قد حوته من الناس. وما لنا ألا نقوم بشعائر تطالبنا بها الاحساسات الطبيعية، والحاجات الوطنية،

وذواعى الحياة المدنية والأدبية ، وكمال التحقق بحقيقة وحدة الجامعة الجنسية . فنسألك اللهم أن ترشدنا إلى الخير ما أردنا وأحسن ماتريد؛ وأن تؤيدنا بعنايتك الصمدانية . فانك الفعال لما تريد؛ وأن توفقنا فى تأدية حقوق الخدم ، لتأمن زلة القدم وذلة الندم ، ويامن اليك إنابة الضعفاء فى السراء والضراء أنت حسبنا ونعم الوكيل .

(مقاصـــد المؤيد)

علمنا الدهر بمطالعة الأخبار ، ووعظنا بغرائب الآثار ، ودربنا بالإنذار والاعتبار ، وجلا عن قلوبنا ظلمات الجهل ، فأبان لنا أن أعمـال السلف مدرسة الخلف ، تتلقى فيها أن خدمة الأوطان من أوجب الواجبات ، وألزم الفرائض . من أضاعها قضت عليه شريعة الطبيعة بالحرمان الأبدى والشقاء الدائم .

فما قصدنا من نشر المؤيد إلا تأدية ذلك الفرض عن طهارة طوية ، وإخلاص نية . وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى ، ولكل عامل وجهة يقصدها ، عليها يكون الجزاء . وليس فى عمل العاملين ، وجد المجدين أبر ، ولا أفضل من نصيحة مستنصح ، وإرشاد مسترشد . وما دام الكل فى حاجة إلى التعاون والمشاركة فلا غنى لهم عن تبادل الأفـكار ، ومعرفه الأخبار ، بمـا يدعو اليه صلاح شأنهم . وقوام معيشتهم .

والناس رجلان : حاكم ومحكوم ، وبينهما مطالب متبادلة ، وحقوق متكافئة . إن سكت عنها صريح المقال أبان عنها لسان الحال . ووظيفة الجرائد الصادقة فى البلاد شرح مطالب الفريقين ، وترجمة أفكار الهيأتين .

والمؤيد جريدة وطنية يقصد أن تـكون على هذا المبدأ سفير الخير ، وبريدالمطالب . وكما أنه سيشرح إحساسات الهيئة المحكومة مجتهداً فى إظهار مابزواياها من خفايا الحاجات بين يدى الهيئة الحاكمة ، وإن كانت هى أوسع

علماً ، وأصدق خبراً وأطول باعا ، وأدرى بطلائع الأوقات ، وأعرف بمواقع الحاجات . فكذلك يبين للأمة مايحسن فيه الطلب ، وينال به الأرب ، ويسمع به النداء ويقبل عنده الدعاء ، ويكون به استجلاب المنافع ، وفيه رفع المضار ، غير ناكث عهداً ، ولا خافر ذمة . وكيف ونحن بعض من نطالب بحاجاتهم ، ونعمل للحصول على مرضاتهم . ومهما جدّ سوانا في خدمتنا واجتهد ، أو هجرت عينه الغمض فلا تقوم النافلة مقام الفرض ، وليس من المروءة ألا نشارك من جاد علينا بخدمة الوطن ، وندع نواظرنا لفتور الوسن .

فلا يسعنا إلا أن نقوم بهذا الواجب معترفين لمن سبقنا بما له من فضل السبق ، وأحقية الشكر على ما أداه من الخدمة الجزيلة في هذه البلاد .

فإليكم يابني مصر جريدة نشأت في مهد الإخلاص حميدة المبدأ والغاية . تناجيكم ولا تسر النجوى لسواكم . وقد أخذت على عهدتها بث الأفكار المفيدة ، والأخبار الصادقة ، والمبادرة إلى نشر الحوادث الداخلية ، من الإعتبار والتحذير ، أو الترويج والتبشير ، لأن الميل إلى اقتطاف الأخبار ، والرغبة في استطلاع ما يكون من الأفكار من ودائع الفطرة البشرية ، غير تاركة شأن التجارة الداخلية والخارجية . بل من واجباتها البحث في حقيقة الأسعار ، ومبادلة التجار ، والأخذ والعطاء ، وحركات الأسواق ، وهبوطها وصعودها ، والنظر في أسباب الارتفاع والانحطاط . ومن واجباتها نشر كل ما يهم الوطن معرفته من الحوادث معتمدين في ذلك على البرهان القوى ، والسند الثبت ، والعقل والنقل ، وحكم الظروف واختلاف المقال ، ورعاية المصلحة الوطنية ، والخدمة الحقيقية ، بعد التروى الصادق ، والبحث الدقيق ، وإرسال النظر خلف كل سانحة . ونسأل الله العالى الأعلى أن يكشف عن بصائرنا حجاب الإلباس في الأشياء ، حتى نرى الحقائق كما هي ، كيلا نضل ونشقى . والسلام على من اتبع الهدى .

(إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) .

ومضى الشيخ يكتب فى جريدته ويفسح المجال معه لكبار المصريين والشرقيين فى وقت معا ، وما لبثت المؤيد أن أصبحت فى وقت قصير سجلا لتاريخ مصر السياسى ، وتاريخها الإدارى ، وتاريخها العلمى ، وتاريخها الاقتصادى .

ولكن عز على أعدائها يومئذ أن يروها تنمو وتزدهر ، وتنير السبيل لكل من يريد العمل فى سبيل هذا الوطن ، فوضعوا فى طريقها العقبات ؛ وحاكوا لها المؤامرات أملا فى القضاء عليها قبل أن تستأثر بحب الأمة ، وتصبح جزءا من كيانها ، وعنصراً من عناصر وجودها ، وعاملا فى نهوضها من كبوة الاحتلال البريطانى .

وقد ذكرنا للقارىء (أولى) تلك الصعاب التى واجهت الشيخ فى مستهل حياته الصحفية ، وهى الصعوبة التى نجمت عن اختلافه مع شريكه أحمد ماضى ونريد أن نمضى معه فى ذكر الصعوبات التى تغلبت عليها إرادة الشيخ وهزمتها، وأفسحت الطريق لجريدته فلبثت تعمل فى الميدان الوطنى قرابة ربع قرن.

(فالثانية) من تلك الصعاب التى نتحدث عنها أنه اتصل بمسامع الخديو توفيق بعد صدور الجريدة أن « المؤيد » لسان حزب وطنى يعمل سراً على عزله عن العرش ، كما عزل إسماعيل من قبل ، فأوجس الأمير خيفة من هذه الصحيفة ، وفكر فى قتلها وهى فى مهدها . ولكن المنية عاجلته ، فمات فى العام الثالث فقط من حياة هذه الصحيفة .

(والثالثة) من تلك الصعاب التى واجهت صاحب «المؤيد» أن الحكومة المصرية أصدرت أمراً منعت فيه جميع الدواوين الحكومية أن تمد المؤيد بمعلومات رسمية مهما كان نوعها . وكانت الحكومة المصرية مدفوعة إلى ذلك بوحى من الوكالة البريطانية التى نظرت إلى جريدة المؤيد — بعد اجتيازه مرحلة الطفولة — على أنها جريدة وطنية مناهضة للسياسة البريطانية . فأرادت الوكالة يومئذ أن تفقد المؤيد قيمتها كصحيفة إخبارية ، ليكون ذلك سبباً فى زوالها إلى الأبد .

(والرابعة) من هذه المصاعب التى نشير إليها نظر الأجانب فى مصر والنزلاء والقناصل بها إلى هذه الجريدة على أنها نذير السوء ، وعلى أنها كارثة حلت بالاحتلال الأجنبي فى مصر . وإذ ذاك لم يجد الأجانب ما يدخلون به على هذه الجريدة غير باب واحد ؛ وهو باب التعصب الدينى الذى رموها به رمياً بغير تبصر أو تعقل . وانبرت جريدة المؤيد تدافع عن نفسها ، وعن المصريين معها ضد هذه التهم الخطيرة ، حتى أصبحت بعد قليل من الزمن لسان الشعب المصرى .

(والخامسة) من الصعاب « قلم المطبوعات » . وكان سيفا مصلتا على رقاب الصحف عامة ، وصحيفة المؤيد خاصة. وكان يرأس هذا القلم إذا ذاك بعض الأجانب . فكان هذا الأجنبي يقعد للمؤيد كل مرصد ، ويقسو عليها كل قسوة ، ويناقشها الحساب لأتفه الأسباب .

وقد ذكرنا من قبل فى (التمهيد) كيف عارض صاحب المؤيد معارضة قوية فى إصدار قانون المطبوعات الجديد ، كما أشرنا إلى المناقشة التى دارت بينه وبين الخديو عباس بشأن هذا القانون . فلا حاجة بنا إلى إعادة القول فى ذلك .

(والسادسة) من تلك المصاعب خوف الباب العالى شر هذه الجريدة . وقد كان السلطان — كما رأينا فيما مضى من فصول هذا الكتاب — يخاف كل شىء ، بل يخاف على حد تعبير المتنبي غير شىء . ومنذ أن علم بأمر هذه الجريدة الوطنية الجديدة فكر فى إعادة التجربة التى جريت أيام سعيد ، حين بعث السلطان يومئذ إلى القاهرة برجل يقال له (اسكندر افندى شلهوب) ليقوم فيها بنشر جريدة (السلطنة) . وقد بعث السلطان فى هذه المرة (بحسن باشاحسنى) من الآستانة إلى القاهرة ليتولى فيها إصدار جريدة (النيل) لا لشىء إلا لمحاربة المؤيد وصاحبه فى ذلك الحين . ولكن مصير جريدة النيل لم يكن خيراً من مصير جريدة السلطنة . فقد سقطت الجريدة

الأخيرة كما سقطت سابقتها فى مجال الصحافة . وهكذا حبط عمل السلطان ، وبقيت «المؤيد» وحدها تملأ الميدان ؛ والشعب المصرى من ورائها يؤيدها بكل قوته .

(والسابعة) من هذه الصعاب (قضية التلغراف) وغيرها من القضايا التى شغلت بال الرأى العام ؛ وهى القضايا التى كان يقف فيها الشعب المصرى فى جانب ، وتقف السلطات الانجليزية نفسها فى جانب آخر ، وكان الظفر فيها غالبا للشعب المصرى على الغاصب الأجنبى . وكانت « المؤيد » مسرحا لقصة هذا الجهاد الطويل الذى كان على المصريين أن يبذلوه فى سبيل التخلص من عار الاحتلال البريطانى .

الحق — لقد كانت كل واحدة من هذه الصعاب خليقة بأن ترد الشيخ عن عزيمته ، أو تهىء من قوته ، أو تعود بالأذى الحقيق بل التعطيل الأبدى لجريدته . ولكن شيئاً من ذلك لم يكن . وبقيت « المؤيد » — كما قلنا — مؤيدة من الله ومن الشعب المصرى الذى آثرها بحبه ، وحاطها برعايته . بل بقيت المؤيد معرضاً لأقلام الكثيرين من صفوة المصريين ، ومدرسة عالية يتعلمون فيها دروساً فى السياسة والكتابة . ومن هذه الصفوة — على سبيل المثال — قاسم أمين ، وسعد زغلول ، وعبدالسلام ذهنى ، وتوفيق البكرى ، وأحمد تيمور ، وإبراهيم الهلباوى ، والسيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، وذلك الشاب الذى كان بعد طالباً فى مدرسة الحقوق ؛ وهو مصطفى كامل وغيرهم . كما كان يكتب فيها من غير المصريين الأستاذ كرد على ، والمستشرق ا. ميجو والشيخ عبد القادر المغربى والاخير من أصدقاء الشيخ محمد عبده وتلاميذه منذ كان الإمام فى بلاد الشام مدة من الزمان . ومازال عضواً فى مجمع فؤاد الأول للغة العربية إلى يومنا هذا

ولا ننس كذلك أنه كان من محررى المؤيد كاتب اشتهر عن طريق هذه الجريدة شهرة كبيرة ؛ وهو الشيخ عبد الحميد الزهراوى وكثيرون غيره من كتاب الشام والمغرب وسائر الأقطار الشرقية الإسلامية .

وأخذت (المؤيد) تنمو وتزداد، حتى أصابت من ذلك حظاً لم يحلم به صاحبها. فقد بلغ مجموع النسخ التي طبعت من المؤيد في السنة الأولى ثمانمائة، وفي الثانية مائتين وألفاً. وفي الثالثة ألفين. وبقيت على ذلك في السنتين الرابعة والخامسة. ثم في السادسة بلغت ألفين وثمانمائة. وفي السنة السابعة أربعة آلاف. واستمرت على ذلك حتى شهر أغسطس سنة ١٨٩٦ م. ثم ما كادت تظهر القضية التي سنشير إليها — وهي قضية التلغرافات — حتى كان متوسط مايطبع من المؤيد يومياً ستة آلاف نسخة. أما ما كان يطبع في أيام المرافعات فكان يتراوح بين عشرة آلاف نسخة وإثنى عشر ألف نسخة، وهو مالم تصل إليه جريدة ما في مصر والبلدان العربية إلى ذلك الوقت [١].

ولقد أخذت «المؤيد» على عاتقها منذ بداية الأمر أن تعالج على صفحاتها وبأقلام أولئك الكتاب موضوعات شتى:

منها الموضوعات الوطنية، كموضوع الأمة والحكومة، وموضوع السخرة، وموضوع الاحتلال العام، وموضوع الأماني القومية وغير ذلك.

ومنها الموضوعات الأدبية كموضوعات الترف، والعدل، وقيمة الوقت، والتمدن، وأسباب التقدم، والاصلاح الخلقي الخ.

ومنها الموضوعات الادارية كهيئة الحكومة المصرية، وكالتقارير والقوانين والمشروعات والتعديلات التي تصدرها الحكومة.

ومنها الموضوعات القضائية وما يتصل بالمحاكم المصرية على اختلافها والأحكام التي تصدر عنها، والاقتراحات التي تريد أن تدخلها على القانون لتعديله، مع الاشارة إلى بعض القضايا الشهيرة الخ.

---

(١) راجع في ذلك: إلياس زاخورة في كتابه (مرآة العصر) السابق الذكر.

ومنها الموضوعات العلمية والتعليمية كموضوع التربية والتعليم فى مصر ، وكالتقارير التى يكتبها رجال التعليم من مثل عبد الله (باشا) فكرى وغيره . مع العناية بأخبار المؤتمرات الهامة ، كمؤتمر برلين الطبي ونحو ذلك .

ولقد كانت المؤيد تعنى عناية كبيرة بأخبار الدولة العلية وبانكلترا ، فكتبت فى موضوع الجلاء. وكانت تهتم اهتماماً خاصاً بتقارير المعتمد البريطانى.

كما كانت المؤيد تقصر بعض جهودها على السودان ، فكتبت فى العلاقة بينه وبين مصر ، وأخذت تنادى باسترجاع هذا القطر ، وتكتب عن رحلات ستانلى فى السودان الخ .

على أن جريدة المؤيد لم تكن تغفل إلى جانب ذلك كله أمر القارة الأفريقية : فكتبت عن الحبشة مع إيطاليا ، وعن الروسيا وإيطاليا فى الحبشة ، وعن المستعمرات الأوروبية فى داخل القارة الأفريقية ، وعن زنجبار ومراكش الخ .

أما المقالات السياسية الخالصة فكانت تحتل مكانها الممتاز فى صحيفة المؤيد . ودع عنك السياسة المصرية الانجليزية ، وانظر إلى السياسة الدولية فثم تجد (المؤيد) آخذة بنصيبها من هذا المجال : فمرة تكتب عن (الدول والسلام) وأخرى عن (منظر أوروبا السياسى) وثالثة عن (انكلترا ومستعمراتها) ورابعة عن (الدول العظيمة فى الشرق) وخامسة عن (إمكان نزع السلاح) ، وسادسة عن (بسمارك) ، وثامنة عن (السياسة الاستعمارية فى أوربا) بوجه عام وهكذا .

وأخيراً لم تخل صحيفة المؤيد من باب هام ، هو باب (التراجم) وفيه قدمت الصحيفة للقراء صوراً من عظماء الرجال فى مصر وبلاد أوروبا . وممن ترجمت لهم هذه الصحيفة فى عامها الأول من رجالات مصر : عبد الله (باشا) فكرى ، وشفيق (بك) منصور ، ومحمد بيرم التونسى[1].

---

(١) راجع منتخبات المؤيد ، السنة الأولى ، سنة ١٨٩٠ ، المجلد الأول .

وعلى هذا النحو سارت (المؤيد) اليومية سبع عشرة سنة كاملة . حتى إذا كان عام ١٩٠٦ وجدنا هذه الصحيفة الوطنية الشهيرة — وقد توطد مركزها فى مصر ، وبلغت من الشهرة حداً لم تصبه جريدة وطنية من قبل — تظهر فى ثوب جديد ، وتبدأ طوراً جديداً . ولندع لصاحبها يتحدث عنها فيقول :

المؤيد فى طوره الجديد :

ظهر المؤيد اليوم لحضرات قرائه فى طور جديد من مظهر وجوده . إذ يرونه فى حجم أكبر ، وشكل أظهر ، ومادة أغزر .

ولما كان الشىء بالشىء يذكر فقد عن لنا أن نرجع بالقارىء إلى ذكرى أطوار المؤيد من يوم نشأ إلى هذا اليوم الذى يخطو فيه للأمام خطوة جديدة .

قبل سبعة عشر عاما هجرية وبضعة أشهر ، وفى أواخر سنة ١٨٨٩ أفرنجية كان صاحب الجريدة يصدر صحيفة أدبية أسبوعية باسم (الآداب) . وكان كثيرون من القراء يعجبون بها ، ويلتذون من قراءتها . فكانت همته منصرفة يومئذ إلى تحسينها وجعلها أفيد مما هى عليه . ولم يكن يفكر فى إصدار صحيفة سياسية يومية للأسباب الآتية :

فقد سنحت لى فرصة بعد ذلك قُدمت فيها إلى دولة الوزير الجليل رياض (باشا) وكان يومئذ رئيس الوزارة المصرية فى عهد المغفور له الخديو السابق توفيق (باشا) فأشار علىّ بعض المقربين من دولته أن أسترخص منه إصدار جريدة سياسية يومية . ولكنى ترددت كثيراً فى ذلك لعلمى أن جريدة يومية سياسية تصدر من مصرى مسلم بعد خلو القطر من جرائد مصرية مسلمة سبع سنين ، جريدة قادرة على أن تعيش بين الصحف القوية التى كانت قابضة إذ ذاك على إميال القراء اختياراً أو اضطراراً ، جريدة لا تتأثر بدسائس الدساسين ووشايات الواشين من الأوروبيين وغير الأوروبيين — تحتاج إلى رأس مال أكثر من مالى ، وإلى حول أكبر من حولى ، وإلى معارف جمة ، ووسائل عدة ، أنا خلو من كثير منها .

ولكن وجد دافع قوى لى بعد ذلك من استحسان دولة الوزير أو إشارته . فتقدمت إلى نظارة الداخلية مسترخصا بهذه الجريدة . وفى اليوم الذى التمست فيه الرخصة نلتها ، وظهر العدد الأول من المؤيد فى ٨ ربيع الأول سنة ١٣٠٧ (أول ديسمبر سنة ١٨٨٩) فى حجم أربع صحف قليلة المواد ، كما يرى القراء نسخته المنقولة برمتها فى الصحيفة الرابعة من عدد اليوم . وحسبهم فارقا بين مانشأ عليه وما صار إليه أن يروا العدد الأول كما هو فى صفحة واحدة من صحفه الثمان !

سار المؤيد فى طوره الأول الجديد كالوليد يأخذ كل يوم من الوجود حصته ، ومن مكانه بقدر حركته . وبينما هو يحبو حبو الطفل فى مهده إذ عصفت به ريح خبيثة من مكائد مناظريه الذين كانوا يخشون أن تعيش جريدة مصرية لمسلم ، فيستحوذ على أميال المصريين وعواطفهم . وقانون التنازع فى هذه الحياة يجعل النصال أشد فى زحزحة الغير عن مكانه من هذا الوجود ، سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

جاءت هذه الريح من حيث تعصف الرياح بكل عمل يحتاج إلى التآزر فى أمة لم يفهم فيها تماما معنى التضامن فى الأعمال من حيث هو ، ولم تنم فى نفوس أفرادها ملكة حب الارتفاق كما ينبغى . ودب دبيب الخلف بين مدير المؤيد (وكان المرحوم الشيخ أحمد ماضى) وبين صاحب امتيازه كاتب هذه السطور ، بسبب ما دس أولئك الدساسون . وليس من حق هذا القلم الآن أن يزيد فى التفصيل إكراما لرفات صديق فى عالم آخر غير هذا العالم. ولكن نتج عن هذا الخلف احتجاب المؤيد عن قرائه وقتئذ من ٣٠ سبتمبر إلى ٢ نوفمبر من سنة ١٨٩١ . وكانت اليد الحاسمة لهذا الخلف هى يد ذلك الغيور المفضال سعد (بك) زغلول (وكان وقتئذ محامياً) إذ اختاره الشريك المرحوم حكما للفصل فى مواضع النزاع . فانتهى حكمه بترك المؤيد لصاحب امتيازه بعد ما أرضى محكمه بمال من عنده ومن آخرين من فضلاء الشبيبة المصرية . ويومئذ خاطبنى سعد (بك) زغلول قائلا :

لقد صار لك المؤيد بلا منازع ، فإن كنت كفؤاً لعملك فاجعل من همتك وثباتك فيه رأس مالك ، وبرهن على ثقة إخوانك بك .

وكانت هذه الكلمات أشد تأثيراً على نفسى من كل مشجع ومرغب فى عمل .

ظهر المؤيد بعد ذلك الاحتجاب ، وكنت خالياً من رأس مال له سوى القلم والصبر والاحتمال . وكانت رئاسة النظار يومئذ فى يد عطوفتلو مصطفى فهمى (باشا) . والدسائس ضد المؤيد أقوى منها قبل . وقد هال أعداءه ظهوره ثانيا ، فوشوا إلى الحكومة أن هناك جمعية سرية ذات مقاصد خفية أخذت على نفسها الإنفاق على المؤيد ، والكتابة فيه ضد الحكومة والاحتلال ، وكادت ريح الشر تؤذى أولئك الأفاضل الذين مدوا يد المساعدة بالشكل الذى شرحناه للمؤيد وصاحبه ، لولا أن مقرباً من الوكالة الانكليزية ، ومن عطوفة رئيس النظار (ونعنى به المرحوم محمد بك بيرم) تولى يومئذ تحقيق تلك الوشايات بنفسه ، فظهرت له الحقيقة التى شرحناها . وانتهى الأمر بمقابلة حضرة سعد (بك) زغلول لعطوفة رئيس النظار ليدحض بالبراهين القاطعة تلك الدسائس البالغة ، وقد كان ذلك ، ووثق الرئيس بالحقيقة التى شرحها كل الثقة ، وأعجب بفضله وشمائله ، وشكره على خالص غيرته .

ومن ذلك اليوم استمرت صلة حضرة البك بعطوفة الباشا إلى أن صارت على أكمل وجوهها ، كما يعرف القراء .

وجد للمؤيد من ذلك الحين أنصار ، كما وجد له حساد وأعداء . وكلما ازداد هؤلاء كثر أولئك . وأنا بين هذه الجواذب والدوافع اعمل جهدى لكى يثبت المؤيد ويعيش ، فلا يكون العار على المصرى أن يسجل عليه الغش كلما شرع فى عمل . ثم وجد بعد ذلك اضطهاداً من الحكومة ، ظهر بأقبح مظاهره ، حتى وصل إلى حد إقفال أبواب الدواوين فى وجه صاحبه وكتابه ومخبريه . ولم ينته هذا الدور حتى جاءت وزارة دولة رياض (باشا)

فى يناير سنة ١٨٩٣ ويومئذ ألغى عمل (قلم المطبوعات) الذى أنشىء لمضايقة المؤيد ليس إلا ، يوم كانت وظيفة البارون دى مالورتى مدير قلم المطبوعات محصورة فى مطاردة المؤيد وصاحبه فى كل ديوان ، يحاكم هذا ويطرد ذاك من المستخدمين الذين كانوا يتهمون بإعطائنا الأخبار . فلما تولى الوزارة دولة رياض (باشا) منحه إجازة لم يعد بعدها إلى العمل ، وخلص المؤيد من عوامل الاضطهاد الشديدة التى كادت تقضى عليه ، واستمر فى طريقه ينمو حتى كانت فى سنة ١٨٩٦ قضية التلغرافات المشهورة التى لم تنته حتى بلغ المؤيد بفضل إقبال الأمة عليه أضعاف ما كان عليه قوة وانتشاراً . ولا يزال بفضل الله عز وجل وبمؤازرة الفضلاء من الكتاب، وبإقبال القراء عليه فى المزيد إلى أن بلغ هذا الطور الجديد .

فالقراء يعلمون من مجمل هذا التاريخ أن اليد الأولى فى ظروف إصدار جريدة المؤيد كانت لدولة الوزير الجليل رياض (باشا) . وأن اليد الثانية فى خلاصه من الورطة التى سقط فيها سنة ١٨٩١ كانت لحضرة المفضال سعد (بك) زغلول، والذين اشتركوا فى تلك المبرة معه . وأن اليد الثالثة التى تجلى بها فى مظهرها الفخيم سنة ١٨٩٦ كانت للأمة . وهو لا يزال فى ظلها الظليل .

أما صاحب هذه الجريدة فلا يعتبر نفسه إلا عاملا بسيطا لظهور الجريدة كبقية العمال الذين يشتغلون لصدورها من محرر وصاف حروف وطابع . وكفاه فخراً أن بقية العمال يتغيرون ، وهو عامل مستمر إلى ما شاء الله أن يكون كذلك .

وتبع هذا النمو فى الانتشار والترقى على الاستمرار اختلاف الآلات التى يطبع بها المؤيد . فيوم كان عدد مشتركيه لا يتجاوزون ستمائة نسخة ، وعدد ما يباع منه لا يتجاوز الستين فى القاهرة كانت الآلة التى يطبع بها صغيرة حقيرة تدار باليد الواحدة ، وتطبع بالكبس ، ولا يزيد ما يطبع فى الساعة على مائة نسخة . وكان هذا شأنه فى السنتين الأولين . ثم ازداد عدد

ما يطبع منه رويداً رويداً حتى كان فى آخر سنته الرابعة ألفا وأربعمائة نسخة ، فاضطررنا إلى شراء آلة من معمل (ألوزيه) وهى التى تدار باليدين معا ، وتطبع بكابس اسطوانى إلى ستمائة نسخة فى الساعة الواحدة . وكان هذا من ١٦ يناير سنة ١٨٩٤ حيث ظهر المؤيد فى أربع صحائف كما كان ، ولكن فى كل صحيفة ستة أعمدة .

ثم تضاعف الانتشار حتى بلغ عدد ما يطبع منه خمسة آلاف ، وكثرت المواد والاعلانات عليه حتى اضطررنا إلى جلب مطبعة ألمانية كبرى تطبع بكابسين اسطوانيين ، وتدار بالبخار . فظهر المؤيد فى ثمان صحائف من ١٦ يوليو سنة ١٨٩٩ .

وقد ذكرنا فى ذلك العدد ما يأتى بحروفه :

أصدرنا الجريدة منذ اليوم فى ثمان صفحات طبقا لرغبات جمهور القراء . ونسأل الله تعالى أن يوفقنا دائما لخدمة الأمة ، ويمدنا بمعونته لنزيد فى مواد وصفحات الجريدة كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

ونحن اليوم نشكر الله عز وجل على أن تضاعف انتشار الجريدة ، وأن وفقنا بطبعها على آلة طبع من أحسن طراز أخير من اختراع الخواجة (ماربتونى) الفرنساوى المشهور باختراعاته المطبعية . ولما كانت هذه أول مطبعة من نوعها أوصى بها من مصر ، وجلبت إليها ، وبُديء عملها منذ اليوم ، فقد دعونا الكثيرين من حضرات العلماء والذوات والأعيان لتشريف إدارة الجريدة وقت الشروع فى الطبع . وهـــذا نص الدعوة التى وزعناها لذلك :

« بمشيئة الله تعالى سنبتدىء من يوم الثلاثاء ٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦ فى طبع جريدتنا المؤيد على نمط جديد ، وفى حجم أكبر بواسطة آلة الطبع الكهربائية (روتانيف) التى تطبع بواسطة صناعة جديدة غير الحروف

المعتادة ، وتتجز فى الساعة الواحدة طبع اثنى عشر ألف نسخة من الجريدة ذات الثمان صحف ، مقطوعة ، ملصوقة ، مطوية ، معدودة . فندعو....تكم لتشرفوا إدارة الجريدة فى الساعة الثالثة بعد الظهر من اليوم المذكور لتشاهدوا إدارة هذه الآلة البديعة لأول مرة فى مصر ، ولكم جزيل الشكر؟

تحريراً فى ١٣ شعبان سنة ١٣٢٤

على يوسف

* * *

منذ ذلك الوقت اتخذت «المؤيد» شكلا جديداً ، وأخذت تظهر للقراء (جريدة يومية سياسية تجارية) فى ثمان صفحات . وكان مقر مطبعتها بشارع محمد على بالقاهرة ، وكانت تحتوى دائما على عشر مواد ، وربما زادت أحياناً إلى اثنتى عشرة . وكانت خمس — على الأقل — من هذه المواد تتجدد بتجدد الأفكار التى تهم صاحب الجريدة ، وأما الباقى من هذه المواد فمرتبة فى أبواب تعتادها الجريدة كل يوم .

خذ لذلك مثلا — العدد رقم ٥٠٠٤ وقد صدر بتاريخ ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٠٦ فانه يبتدىء هكذا :

فهرس :

رأى جريدة الغازيت فى كفاءة المصريين .

ما هى الحكومة النيابية ؟

أطوار المسألة الشرقية .

استئناف النيابة .

التمثيل العربى .

أخبار بريد أوروبا .

مكاتبات .

الحوادث .

التلغرافات

إعلانات قضائية وتجارية .

فالمواد الخمس الأولى مواد متجددة . والمواد الخمس الأخيرة يجدها القارىء عادة فى كل عدد ، وربما أضيفت إليها مادة بعنوان (الإسكندرية) يؤتى فيها بأخبار هذه المدينة وأحوالها وأحيانا تضاف إليها كذلك مادة أخرى بعنوان (انتقاد) تشمل عرضاً سريعاً لبعض المؤلفات الحديثة والترجمات والمجلات ، وتشمل نقدا لها .

والقارىء إذ يلقى نظرة عجلى إلى الأعداد اليومية التى صدرت فى أثناء هذه السنة — ونعنى بها سنة ١٩٠٦ — يستطيع أن يفرق بين موضوعات صحفية يطرقها الكاتب ثم لا يعود اليها مرة ثانية ، وأخرى يطرقها الكاتب مرارا ويعالجها معالجة دقيقة قوية مفصلة .

ولا شك أن (المقالة الإفتتاحية) فى المؤيد كانت أهم مادة فيه . وكثيراً ما كان يكتبها السيد على يوسف بنفسه . وكثيراً ما يتركها لكاتب غيره ، وربما كان هذا الكاتب أحد محررى المؤيد . وربما كان موضوع المقال فى هذه الحالة الأخيرة صفحة من تاريخ رجل عظيم كنابليون ، أو اقتراحا هاما فى إصلاح الأزهر ، أو التعليم بالمدارس الحديثة ، أو كلمة مترجمة عن الفرنسية أو الإنجليزية لكاتب أجنبى له شهرة فى عالم الفكر أو السياسة ، أو تقريراً صحفياً لبعض المصريين ممن زاروا لندن وغيرها من العواصم الأوروبية ، واشتغلوا هناك بدرس المسألة المصريه ، وأحبوا أن ينقلوا القراء صورة من فهم الأوربيين فى بلادهم لهذه المسألة .

وقد أعجبت — من جانبى — إعجابا عظيما بطائفة من المقالات نشرها المؤيد فى مكان الصدارة تحت عنوان «المقالات الأمريكية» وليعذرنى القارىء حين استطرد قليلا إلى ذكر شىء عن هذه المقالات الظريفة . وهى

عبارة عن مجموعة من المقالات المفيدة كتبها رجل أمريكي له شهرة واسعة في صحافة «المجلات» واسم هذا الرجل (آرثر بريزباين). وكان يبعث بمقالاته دائما إلى إحدى مجلات (هرست) الأمريكية . . وكانت تلقى رواجا كبيراً جداً في بلاد أمريكا ، على الرغم من أنها لم تكن تتصل بأمور السياسة .

وكان من المعجبين بهذه المقالات أيما إعجاب شاب شرقي اسمه (سليم) — كان مقيما بأمريكا ، وكان ينشر بها مجلة باللغة العربية . واشتهت نفس سليم أن يحظى بلقاء هذا الصحافي الشهير في مكتبه ، ويشهد بنفسه كيف يكتب مقاله عادة . ونجح سليم في ذلك ، على الرغم من أن مقابلة هذا الصحافي كانت أعسر على طالبها من مقابلة رئيس الجمهورية الأمريكية نفسه . وإذ ذاك سأله سليم قائلا : كيف تكتب مقالاتك دائما ؟

قال الرجل « أقضي نهاري في مراقبة الناس وأحوالهم ومطالعة أفضل المؤلفات . فمتى اختمر المعنى الذي اخترته موضوعا للمقالة في عقلي أتيت غرفتي هذه ، وكتبت مقالتي على الآلة الكاتبة بيدي » .

واستمتع قراء المؤيد — في طوره الجديد — بطائفة صالحة من مقالات هذا الرجل — برغم أنها إلى طبيعة المجلة الأسبوعية أو الشهرية أدنى منها إلى طبيعة الجريدة اليومية .

هذا كله فيما يتصل بالمقالة الافتتاحية — أما ما عداها من المقالات الأخرى في جريدة المؤيد فالحق أنها كانت تعتبر مرآة صادقة للمجتمع المصري ، وخاصة في العشرة الأعوام الأولى من بداية القرن العشرين ، وكانت المؤيد تفسح صدرها للكثيرين من كتاب المصريين ، فيعالجون على صفحاتها شتى المسائل الاجتماعية ، فضلا عن مشكلات السياسة والتعليم والتربية والدين . وقد عجبت كل العجب حين رأيت أصحاب هذه المقالات يخوضون في كثير من المشكلات التي لم نزل نحن نخوض فيها إلى يومنا هذا ونحاول إقناع الحكومة بها . مثال ذلك : مسألة الضرائب التصاعدية ، وفرض ضريبة

على التركات [1] ، ومطالبة الحكومة بمحاربة البغاء [2] ثم مطالبة المتعلمين من الأزهريين بتوسيع ثقافتهم ، وتزويدهم بالعلوم الكونية والاجتماعية والتشريعية ونحوها ، حتى حمل ذلك الأستاذ فريد وجدى على التفكير فى إنشاء مدرسة لهذا الغرض، يتعلم فيها الطلبة هذه العلوم بالمجان [3]. ثم من ذلك تشجيع الفتيات على مواصلة التعليم . ومطالبة الحكومة بمجانية التعليم [4] إلى كثير من هذه الأمور التى لم يزل بعضها أمل الكثيرين من المصلحين ، والغاية التى يسعون وراء تحقيقها إلى اليوم .

وإذا كانت حادثة (دنشواى) هى أهم الحوادث التى حدثت فى عام ١٩٠٦ فقد اتخذ منها الزعيم الشاب مصطفى كامل فضيحة كبيرة ، فضح بها الانجليز أمام العالم المتمدن ، واتخذ منها الصحافى الداهية — على يوسف — قضية كبيرة بسطها بسطاً قوياً للرأى العام الشرقى .

ووجدنا جريدة المؤيد تكتب فى هذه الحادثة ثلاثاً وعشرين كلمة ضافية ، نشرت فى ثلاثة وعشرين عدداً متوالية ، وقدم لها الشيخ على يوسف بكلمة للمستر بلانت هى قوله :

لا مبالغة فى أنه بمقتضى ديكريتو (قانون) ١٨٩٥ قد يحكم على المصرى بالموت خوزقة . أو صلباً إذا ضرب الجندى الانجليزى منعا له من انتهاك حرمة زوجته [5] .

وهكذا اتخذ المحرر من هذه القضية مادة أدبية واجتماعية وسياسية وقضائية

---

(١) راجع جريدة المؤيد . العدد ٥١٦٥ بتاريخ ١٦ مايو سنة ١٩٠٧ حيث تجد مقالا بقلم الأستاذ نجيب شقير المحامى .

(٢) نفس المصدر . العدد التالى للعدد الأول .

(٣) نفس المصدر . العدد ٥١٦٧ .

(٤) نفس المصدر . العدد ٥١٧٤ . حيث نقرأ حديثا جرى بين مراسل المؤيد وناظر المعارف سعد (باشا) زغلول .

(٥) بلانت Blant ص ٢٢ .

طعن فيها الإنجليز طعنة نجلاء ، ودحض الحجج التى يستندون عليها فى رمى المصريين بهذه التهمة الشنعاء ، وهى تهمة التعصب الدينى .

ثم كان من الموضوعات التى عالجها المحرر فى أثناء ذلك العام — وهو عام ١٩٠٦ — موضوع الحكومة النيابية فى مصر ،فقد كتب فيه عشرة فصول طوال ، وربما عدنا بعد قليل إلى شرح ماجاء بفصل منها على سبيل المثال .

وعلى شاكلة هذه الموضوعات أو الأفكار عالج المحرر : موضوع المسألة الشرقية ، وموضوع الجامعة المصرية ، وموضوع الأزهر ، وما يجب له من إصلاح ، وفكرة الجامعة الإسلامية ، والرد على مزاعم الصحف الأجنبية الصادرة فى مصر ، وغيرها من البلاد الأوربية ، وذلك كله فضلا عن موضوع السياسة الإنجليزية فى مصر . وقد خصها بطائفة من مقالاته الجيدة ، كان من أهمها ما كتبه فى عامى ١٩٠٦ ، ١٩٠٧ وعرف (بمقالات قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء) ، وقد أفردنا لها فصلا خاصاً من فصول الكتاب .

والمهم أن صاحب المؤيد كان يقف بإزاء هذه الموضوعات العامة إما موقف المحامى الذى يدافع عن موكله ، إذا كان الموضوع مما يتصل بسمعة المصريين ، والرد على مزاعم الأوربيين . وإما موقف المعلم القدير الذى يحرص على نفع تلميذه ، إذا كان الموضوع مما يتصل بالحكومة النيابية ، والحياة الدستورية ، ونحو ذلك .

فى الحالة الأولى كان صاحب المؤيد يتوخى أن يرد على الانجليز بأقوال نفر منهم ، ليجعل بعضهم لبعض عـــدواً فى قضية الكفاءة المصرية ، أو السمعة المصرية ، أو الحكم الذاتى فى مصر .

ومن ذلك أنه نقل رأى جريدة « الغازيت » فى كفاءة المصريين ، وقدم للقراء خلاصة لهذه الآراء القبيحة التى روج لها الإنجليز . ثم بدأ رده على ذلك مستشهداً بكلام أحدهم ؛ وهو المستر ادوار إيسى الذى قال ماخلاصته :

« إن الطريقة التى اتخذناها لتعليم المصريين كيف يتولون أمورهم بأنفسهم

على قاعده تمرينهم عن طريق الأحكام العادلة المستقيمة تحت إدارة الإنجليز إنما هى طريقة غرور ووهم ، رغم مابذلنا من العناية ، وأظهرناه من الأمانة فى السعى وراء تحقيق تلك الأمانة . . . وأن كل نجاح لنا فى مصر كان فى حقيقة الأمر سيراً بها إلى الوراء . . . الخ » .

وفى الحالة الثانية — أعنى الحالة التى يمثل فيها الشيخ على يوسف دور المدرس للشعب المصرى فى مدرسة الصحافة — يتحدث الشيخ إلى هذا الشعب حديثاً سهلا ، وهو فى الوقت نفسه محكوم بالمنطق والقواعد التى يعرفها كل من مارس مهنة التعليم من حيث هى . فتراه يخاطب القارى قائلا:

« وسنجعل بحثنا سهل المأخذ كأنه دروس تلقى على طلبة ، ونتدرج من السهل البسيط ، إلى ماهو فوق السهل ؛ لأن الموضوع قديم . ولكن طريقة البحث فيه والإفاضة عنه جديدة »[1] .

ثم يمضى الشيخ فى هذا الدرس من دروس التربية الوطنية ، فيقسمه الى نقط يتحدث فى أولاها عن (الوطن) وعن حقوقه وواجباته،فيقول لقرائه:

« أن الوطن لايشترى بمال ، ولكنه شىء يرثه الوطنى عن آبائه وأجداده . وهو ثمرة اجتهادهم ، وبذلهم النفس والنفيس فى سبيل بلادهم « ومن ثم فنحن مدينون بالشكر لعمل أسلافنا . ولما كانوا قد مضوا من هذا العالم ، فلانستطيع أن نبلغهم شكرنا شخصيا . وانما كل ما نقدر أن نفعله من هذا القبيل هو أن نعترف بفضلهم . وهذا الاعتراف يكون بأن نعنى بما خلقوه لنا ، ونصونه من الأذى والسقوط . فإذا كنا نتمتع الآن بالحرية والراحة من فضل اجتهاد رجالنا العظماء وسعيهم ، وجب أن نحرص على تلك الحرية بمزيد الغيرة والاهتمام . حتى إذا جاءت الأجيال الأخرى من بعدنا أكرموا آثارنا، وأجلّوا تذكارنا ، كما نكرم نحن آثار أسلافنا ، ونجل تذكارهم . فعلينا إذن واجب مضاعف :

---

(١) راجع العدد ٥٠١٠ من سنة ١٩٠١ .

الأول : أن نهتم بالمحافظة على ما خلفه لنا أسلافنا ، حتى لايزول ولايشوه .

والثانى : ان نزيد على ما خلفوه لنا ، ليتمتع به أولادنا وأحفادنا » .

إلى آخر ماقال .

أرأيت إذن إلى هذه الطريقة السهلة التى كان يكتب بها الشيخ على يوسف ؟ أرأيت إليه كيف كان مدرساً بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة عند إطلاقها ، وكيف إلتزم الطرق المعروفة فى فن التربية ؟ الحق أن المحرر لم يكن فى هذه الفصول وأمثالها صحفياً بقدر ما كان معلما . ولا شك فى أنه كان يقصد إلى ذلك قصداً لينجح فى أداء المهمة التى أخذها على عاتقه ، وهى مهمة تعليم الشعب المصرى هذه المبادىء التى لم تزل جديدة عليه بعض الشيء .

* * *

سار الشيخ على يوسف فى كفاحه سيراً حميداً على هذا الوجه حتى جاء الوقت الذى عدل فيه الشيخ فجأة عن طريق الصحافة ، حين بدا له يومئذ أن يكون شيخاً لسجادة !

وإذ ذاك أيضاً كانت جريدة (المؤيد) قد أمعنت فى سياسة الاعتدال والهدوء ، وهى سياسة لم تعد تتفق وهوى النشء الجديد الذى أصبح يؤثر الحركة والتمرد ، فاختفى شيخ الصحافة الحديثة من الميدان ، وترك صحيفته ليد القدر ، تصرفها كيف تشاء .

* * *

وقبل أن ندع هذا الفصل الذى نتحدث فيه عن جريدة المؤيد يجمل بنا أن نذكر شيئا عن مكاتبى هذه الجريدة ، وإليهم يوجه الشيخ على يوسف هذا المقال :

« إن أحسنوا عملا ، وصدقوا خدمة ، وتنزهوا عن الغايات ، وتنبهوا

لمصادر الأخبار والأعمال ، وخبروا حقيقة البلاد وحاجاتها ، ودرسوا أخلاق الأهالي وعوائدها ، وسبروا أدواء النفوس وأدويتها ، ودروا قيمة ما تتحمله ذممهم . وتتكفل به هممهم من مطالب الهيئة الانسانية ، كأنها الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان . مما يكون على أيديهم من المنافع والمضار للهيئات بعد أن يسطره البنان أو يفصله البيان ، أو يحيط بكنهه جنان ، فحكمهم حكم أرباب الجرائد على السواء أمام محكمة العالم .

أيها الأفاضل المكاتبون الذين يعتمد المؤيد عليكم ، ويدع ثقته فى أخبار البلاد مستندة إليكم — لا تحملوه أن يعتذر بلاذنب ، أو أن يصلح خطأ يقع فى إصلاحه خطأسوا كم . فذلك مما تاباه نفوسكم ، وتأنفه هممكم . وأن قيمة الإنسان ما يحسنه ، إلى آخر ما قال [1]

ولقد كان لجريدة المؤيد مكاتبون فى شتى انحاء العالم . ومنهم على سبيل المثال :

الدكتور على (بك) زكى (فى باريس) والمسيو اميجو Emigo (فى لندن)[2] والأستاذ توحيد السلحدار (فى برلين) والأستاذ زكى بك مغامز (فى الآستانة) . إلى مكاتبين آخرين فى كل من مراكش وتونس والجزائر . وكان هؤلاء يخافون على أنفسهم بطش الحكومة الفرنسية ، فلم يعلنوا عن أسمائهم . وكان للمؤيد مكاتبون آخرون أيضا فى كل من الهند ، وأفغانستان ، وإيران واليمن ، والحجاز ، والشام ، و فلسطين ، ومكاتب المؤيد فى هذه الأخيرة هو القلقيلي الصحفى المعروف هناك[3] .

وبعد أن ترك الشيخ على يوسف جريدة المؤيد ، تولاها من بعده

---

(١) منتخبات المؤيد ص ٣

(٢) كان هذا الرجل من كبار موظفى شركة قناة السويس ثم تركها ليكاتب المؤيد .

(٣) اعتمدنا فى معرفة أسماء هؤلاء المكاتبين على صديقنا الشيخ المحترم عطيه أفندى شلى

الدكتور سيد كامل الذى كان قدمه الشيخ فى يوم من الأيام إلى الخديو عباس، وتعلم بعد ذلك على نفقة سموه فى فرنسا . فلما عاد إلى مصر اختاره الشيخ لتولى تحرير الصحيفة . فظل يعمل بها إلى أن عين سكرتيراً للجناب العالى الخديو [1]

ثم تولاها من بعده كذلك الأستاذ حافظ (بك) عوض ، ومن بعده الأستاذ محمد أبو شادى ، ثم محمود (بك) الباجورى . ثم زالت من الوجود تلك الصحيفة التى كانت سجلا لأعظم محنة مرت على مصر فى تاريخها الحديث، ونعنى بها محنة الاحتلال البريطانى .

ولا نستطيع أن ندع هذا الفصل الذى خصصناه لجريدة المويد دون أن نتحدث فى نهايته عن هذا الموضوع وهو :

سياسة المؤيد بين سياسات الصحف المعاصرة :

عبر المستشرق المعروف (براون) فى الفصل التاسع عشر من كتابه (بونابرت فى مصر) عن رأيه فى جريدتى المؤيد والمقطم فقال :

« . . ذكرت فى الفصل السابق ماذكرت من منافع حرية الصحافة . وأما فى هذا الفصل فإننى أذكر شرورها وسيئاتها . فان فى مقدمة المؤثرات الضارة فى مصر ، بل المؤثر الرئيسى الضار هو جريدة المقطم .وهى الجريدة المعتبرة لسان حال المصالح الانجليزية الخاصة فى مصر . فقبل أن يظهر الشيخ على يوسف ، وقبل أن يعرف من أمره شىء عزم ثلاثة من المسيحيين السوريين ، وهم أصحاب مجلة علمية شهرية فى بيروت على الانتقال إلى القاهرة . فلما جاءوها نالت مجلتهم رواجاً تستحقه . ولا تزال رائجة إلى الآن . ولما كان أصحاب المجلة المذكورة ذوى مقدرة ، وكانوا متشبعين بالنشاط والاقدام الذى عرف به جنسهم ، رأوا فى الاحتلال الانجليزى فرصة سانحة لتوسيع

---

(١) وذلك على أثر سفره إلى الآستانة على رأس وفد من أعيان مصر بقصد تهنئة الخديو بنجاته من الاعتداء الذى وقع عليه سنة ١٩١٤ .

نطاق أعمالهم فأنشأوا جريدة يومية — هى المقطم — قبل أن يظهر المؤيد بسنة ، أو أقل .

أما السياسة التى اتخذتها هذه الجريدة الجديدة — ولا تزال جارية عليها حتى الآن بمزيد الاصرار — فهى ذات غرضين : تأييد المصالح الانكليزية فى مصر ، والعدوان على الإسلام ، والمملكة العثمانية كلما سنحت الفرصة.

ولما كانوا لا يهمهم شىء فى صالح البلاد التى نزلوها ، وهم يذكرون دائما أن تداخل الدول الأوربية هو الذى اضطر محمد على إلى الاقلاع عن سوريا ، انصرفوا إلى عملهم برغبة وحمية . ومع أن المؤيد مالبث طويلا حتى فاز على جريدتهم بسعة الانتشار ، والاقبال العام ، فانهم تمكنوا حالا من جعل المقطم فى المنزلة التى له الآن . وهى أنه — بدون ريب — أعظم كفاءة من جميع الجرائد المسيحية العربية . وإذا استثنينا سعى المقطم وراء تعزيز السياسة التى تدافع عنها ، فالحق أولى أن يقال إنه يستحق أعظم ثناء على كيفية تحريره وإدارته .

فى أول عهد الاحتلال — حيث كانت الجريدتان المتناظرتان المؤيد والمقطم — فى حداثتهما كانت السياسة المصرية ، وبالتالى الصحافة المصرية تجرى على خطة الأحزاب المجردة . فظن كل من تداخل فى السياسة المصرية أن الواجب يقضى عليهم بانكار كل مزية أو فضيلة فى كل من عارض آراءهم. ولذلك بينما كان أولياء الامور الانكليز يتلمسون فى ظلمات الأغلاط طريقا وسط ما تكاثف من ضباب الصعاب التى قامت فى طريقهم ، فيجربون العلاجات ، الواحد بعد الآخر للمتاعب التى اعترضتهم من الأهالى والصحافة لم يجدوا معينا لهم على الإطلاق .

وكانت خطة المقطم أن يؤيد الانكليز دائما . فلم يجد أصحابه لسذاجتهم طريقة لتأييد مصلحة انكلترا إلا التغالى والتفانى فى إطراء كل مايفعله الانكليز ، أو ينوون فعله بدون تمييز ومحاسبة فى ذلك الإطراء .

وكان المؤيد يعارض ويقاوم كل عمل استحسنه المقطم ، أو أخذ بناصره . فكانت كل واحدة من هاتين الجريدتين تجرى على خطة ؛ من شأنها أن تفسد عليها الغرض الذى ترمى إليه ، وتعرض مبدأها للخزى عندما يفشل المشروع الذى أيده المقطم وأطراه مدحا ، أو عندما ينجح المشروع الذى ذمه المؤيد ونقضه .

ومن ذلك اليوم حتى الآن لم يستفد المقطم شيئا من تلك الحوادث . ولا يزال اليوم يجرى على تلك الخطة نفسها . وأما المؤيد فإنه استفاد ، وتعلم وبلغ من دراية الشيخ على يوسف ومقدرته أنه رأى الخطأ الكامن طى هذه السياسة ، فعزم على أن يجرى على خطة أفضل . إلا أن إقدامه هذا لم يكن سهلا ، فإنه كان لا يزال شابا ، ولم يعترف له الشيوخ الذين كانوا زعماء الحزب الوطنى الإسلامى بالكفاءة اعترافا كاملا . ولم تكن جريدته قوية إلى حد أن تختار لنفسها الخطة التى تريدها . وكان وجودها ونفوذها ومستقبل صاحبها أيضاً متوقفا بتمامه على مساعدة الرجال الذين ادعوا لأنفسهم الزعامة . وحسبوا أن من حقهم إصدار الأوامر لا الاستفادة من الآخرين . وفضلا عن هذا اعترض الشيخ عليا أمر آخر أشد خطراً ، وهو أن يتخذ سياسة تستميل الذين لا سبيل إلى استمالتهم ، وأن يوفق إلى خطة لتأييد تلك السياسة .

وكان يعتقد يومئذ ما لا يزال يعتقده الآن — أسوة بجميع المصريين وسائر الشرقيين غير المسيحيين — أن صداقة انكلترا ممكنة وموافقة ، أكثر من سائر الدول الأخرى .

على أنه كان من رأى الحزب الوطنى المصرى يومئذ التظاهر بتفضيل فرنسا . وعليه — كان ينتظر من الجرائد الإسلامية أن تؤيد فرنسا ، وأن تعتبر الفرنساويين أصدقاء الإسلام وأنصاره . ولو أن الشيخ علياً طعن

على هذا الرأى ، وعارض هذه الخطة ، لكان تهوره هذا الضربة القاضية على المؤيد .

تجلت له هذه الحقيقة ، ولكنه رجل لاتثنى الصعاب عزيمته ، ولاتخيفه الأخطار ، بل كان يرى الصواب صوابا ، والخطا خطأ . ورأى أن الواجب يفرض عليه — بصفته من علماء الدين — أن يذيع الحقائق ، وينشر الحق . ولكن لابد من الفشل إذا اقتحم الأميال والتحزبات السائدة اقتحاما . وعلم أنه إذا طلب الفوز والنجاح فلا يتم له ذلك إلا تدريجيا ، وأن يسعى وراء تحويل الآخرين شيئا فشيئاً إلى أمياله وآرائه ، بنشر مبادئه على مهل ، وأن يبثها فى النفوس بطريقة خفية

وانتشار الجريدة وكتاباتها لاتدل فى الشرق غالبا على قوة صاحبها ونفوذه الحقيقى . لأن صاحب الجريدة يتمكن غالبا من جر الفوائد ، وإنجاز المقاصد بواسطة نفوذه الشخصى خارجا عن جريدته ، بأكثر من استطاعة أعظم نصير لها فى أعمدة الجريدة . كذلك كان حال الشيخ على . فقد كان هناك رجال من ذوى النفوذ يصغون بكل اهتمام لكل ماأراد الشيخ أن يقوله لهم فى محادثة خصوصية ، ويقبلون آراءه ، ويعملون بها . إلا أنهم ينكرون على الجريدة التهور بإذاعة تلك الآراء نفسها على العموم .
وقد عمد الشيخ على — بإقدام وتحفظ — إلى تكييف آراء أنصاره ، وكان يدخل فى أذهانهم الآراء التى يريدها ، كما يدخل الطبيب حبوب الدواء المر ، وهى محلاة بالسكر .

وتمكن على مهل وبثبات من التغلب على العقبات القائمة فى طريقه ، فأخذ الناس يميلون إلى رأيه ، حتى مال إليه أولئك الذين أنكروا عليه تلك الآراء ، واعترفوا بصواب عمله .

ومرت الأيام ، وانقضى بمرورها ذلك الميل المندفع القديم الذى كان يذهب إلى عدم التسليم . وطرأت تغييرات كثيرة ، وظل الشيخ فيها يتقدم

ويفوز . وكما أن الأجسام الساقطة تستجمع فى سقوطها قوة وسرعة ، فان النهضة العقلية أيضاً تستجمع قوة وسرعة فى صعودها وارتقائها ، ورغماً عن جميع الصعاب التى لا يكللها إلا الشجاعة والصبر والكفاءة أدرك الشيخ على غايته ، وبدون أن يعلم كيف ولماذا ، بل بدون أن يعلم أنه نال مايريد وإذا بالمصريين قاطبة قد اعتمدوا سياسة الشيخ ، وهى السياسة التى يمكن تحديدها بقولنا : إنها سياسة السلام والترقى .

وقدكان فى مصلحة مصر وانكلترا بالذات أن يقتفى أصحاب المقطم أثر الشيخ على يوسف فى خطته هذه . ولكن سبق القول إن سياستهم اليوم لاتزال كما كانت .

ثم قال :

« إن مظاهر الجرائد الانكليزية المعادية لتركيا ، وكتاب السير وليم موير ضد الإسلام ، وكتابات غيره أيضاً إنما تؤثر تأثيراً قليلا على المسلمين فى مصر وسواها ، لما هو معلوم من أن هؤلاء دائرة ضيقة . وأما اندفاع جريدة محلية يقول عنها الانجليز أنفسهم إنها لسان حال الإنجليز للتبرير على من ذكرنا فى الطعن ، فليس له إلا نتيجة واحدة ، وهى ازدياد الرعب فى النفوس ، وعدم الثقة بما يدعيه الاحتلال من المقاصد الحسنة .

هذا هو السبب الأصلى الأساسى لما يتهم به المصريون من قلة التحمس، وعدم الاعتراف بالجميل .

وعليه ـــ نجد أن الجريدة التى قال عنها المستر هرتمان فى كتابه أنها نالت نعمة لدى اللورد كرومر هى وحدها التى انفردت بوضع العقبات فى طريقه . ومع وجود مبادىء هى لسان حال الانجليز فى مصر ـــ معادية للاسلام نجد أننا عبثاً ننتظر من المسلمين فى مصر وسواها أن ينظروا إلى الاحتلال الانكليزى إلا وهم يشعرون بالغيرة .

ولو أن المقطم جرى على سياسة الموالاة والمسالمة ، وحاول هداية الانكليز بالإرشادات الصحيحة الصادقة ، وحسن تقدير الأعمال التى تمت — لو فعل المقطم ذلك لخدم الانـكليز والمصريين أيضاً خدمة لاتقدر[1] » .

* * *

ولا ننس فى خاتمة هذا الفصل أن نشير إلى هاتين الجريدتين وهما :

المؤيد الأسبوعى العربى .

المؤيد الأسبوعى الفرنسى .

وقد كان يدير سياسة كل منهما ، ويسأل عنهما الشيخ على يوسف .

أما الأول فكان يصدر يوم الجمعة من كل أسبوع . وأما الثانى فكان يصدر يوم الأحد . وكانت تنشرفيهما أجود المقالات التى اطلع عليها القراء فى المؤيد اليومى ، وخاصة منها المقالات ذات الطابع التوجيهى فى المجتمع والسياسة . وقد يضاف إلى ذلك بعض المقالات الأخرى مما لم يسبق نشره.

ألا — ما أضخم العمل الذى كان يتولاه الشيخ على يوسف وحده ، ويسهر على تنظيمه وإخراجه بمفرده !

وبهذا العمل الضخم . والجهد المتصل استحق هذا الرجل أن يكون شيخ الصحفيين فى زمانه ، ورمزاً للصحافة المصرية كلها فى عصره . ولسنا نعدو الحقيقة والتاريخ حين نضيف إليه كل ذلك .

(١) راجع جريدة المؤيد — العدد ٥٢٧٥ بتاريخ ٢٣ / ٩ / ١٩٠٧

الفصل الثالث

على يوسف وقضايا المؤيد

أشرنا فى الفصل الماضى إلى بعض الظروف التى نشأ فيها المؤيد ، وهى ظروف عصيبة حقاً ؛ كان فيهـــا اللورد كرومر صاحب السلطان الفعلى فى البلاد . وكان لهذا الداهية الإنجليزى صحف منها جريدة المقطم ، تعبر عن رأيه ، وتفصح عن سره ، وتكشف عن سياسته ؛ وهى سياسة تقوم على الضغط بمختلف الوسائل التى لا يعنينا منها الآن غير وسيلة الصحف . فقد أملت عليه سياسته إذ ذاك أن يحوط صحافته فى مصر بالرعاية التامة ، ويمدها بالمال اللازم ، ويؤثرها بالأخبار الحكومية ، لتصبح ذات قيمة صحفية عظيمة فى نظر القراء .

أما الصحافة الوطنية فقد أعد لها كل ما استطاع من وسائل العنف والاضطهاد . وفضلا عن أن هذه الصحافة الوطنية كانت — فى رأى كرومر نفسه — تعانى الفقر والعوز ، كما كانت عزلاء من كل سلاح ، فان هـذا اللورد سلط عليها يومئذ « قانون المطبوعات » وجعله لها بالمرصاد . ثم لم يكتف الطاغية بذلك حتى رأيناه يوحى إلى الحكومة أن تصدر أمرا مشدداً لكافة الدواوين ألا تمد المؤيد بأى قدر من المعلومات . فأوصدت الحكومة بابها فى وجه السيد على يوسف ، على حين فتحته يومئذ للدكتور فارس نمر ولغيره من أصحاب جريدة المقطم ، لينشروا فيها ما شاءوا من الأخبار . ولقد بلغ الأمر ببعض هذه الصحف الموالية للسلطان الإنجليزى إذ ذاك أنها كانت تنشر الأحكام القضائية قبل أن ينطق بها القضاة !

قضية التلغرافات :

وما قضية التلغرافات التى نبسطها الآن إلا أثراً من آثار هذه السياسة الإنجليزية الخرقاء ، وصفحة من صفحات الجهاد الذى منى به الشعب المصرى فى شخص ذلك الصحفى الذى نمضى فى ترجمته الآن . وهو السيد على يوسف.

ففى مايو سنة ١٨٩٦ أصدرت نظارة الحربية أمراً بعدم إعطاء المؤيد بنوع خاص أية معلومات تتعلق بالحملة المصرية على دنقلة . وكان معنى ذلك أن الجرائد الأخرى تستطيع أن تحصل على هذه المعلومات من نظارة الحربية متى رغبت هذه الصحف فى شىء منها .

فما العمل ؟ وكيف يحتال السيد على يوسف على هذا الأمر ؟

أيضرب صفحاً عن أخبار الحملة المصرية فى السودان ، وأخبار هذه الحملة يومئذ تهم الشعب ، وجنود هذه الحملة يومئذ هم أبناء الشعب ؟

لا — لا ينبغى لصحفى كالسيد على يوسف أن يضرب صفحاً عن أخبار هذه الحملة ، ولا ينبغى له أن يقف موقف المتفرج من الانتقادات المرة التى توجه إلى الحكومة المصرية فى الفينة بعد الفينة ، وذلك منذ اندفعت فى إعداد هذه الحملة بضغط من الإنجليز .

وإذن فلن يعدم ذلك الصحفى يومئذ حيلة يتغلب بها على سياسة ذلك الداهية الإنجليزى ، بل ذلك النمر البريطانى الجاثم بصدره على أنفاس الشعب المصرى وحكومته فى ذلك الوقت ونعنى به اللورد كرومر .

« وفى ٢٦ يوليو سنة ١٨٩٦ ، والساعة الثالثة بعد الظهر ، ابتدأ أحد موظفى مكتب التلغراف بالأزبكية — تحت إشراف نجيب أفندى اسكندر رئيس هذا المكتب — فى تناول إشارة تلغرافية من السردار إلى ناظر الحربية يبلغ عدد كلماتها ٥٦٦ كلمة . وانتهى منها فى الساعة العاشرة والنصف مساء . . . وفى هذا التلغراف يعتذر السردار عن تأخره فى مخاطبة الناظر ،

لأن الكوليرا التى تفشت فى الجيش كانت شغله الشاغل عن ذكر إحصاء تقريبى عن عدد الإصابات . وعدد الوفيات . ثم نعى إليه بعض ضباط الجيش إلى آخر ماجاء بهذا التلغراف » . (١)

ثم فى يوم ٢٨ يوليو فوجىء ناظر الحربية بهذا التلغراف منشوراً بنصه فى جريدة المؤيد ، فهاج وهاجت معه السلطات الانجليزية فى نظارة الحربية، ودعا إليه ملحم (بك) شكور ، فأمره أن يبحث فى الموضوع من مختلف جهاته ، فلم يهتد الرجل إلى شىء .

« ثم فى يوم ٣٠ يوليو توجه الدكتور فارس نمر أحد أصحاب جريدة المقطم إلى مكتب تلغراف الأزبكية ، وشكا إلى وكيله من أن مكاتب المقطم فى بيا كان قد بعث إليه برسالة تلغرافية فى يوم ٢٨ يوليو ، فنشرتها صحيفة المؤيد فى نفس هذا اليوم ، وطلب التحقيق فى ذلك . فاهتم اسكندر افندى نجيب بالأمر ، لأنه يعلم أن شكوى الدكتور فارس نمر لا تقل عن شكوى نظارة الحربية » .

وتوالت على مكتب تلغراف الأزبكية شكاوى من هذا النوع ، بعضها من صحف مصرية ، وبعضها من صحف أجنبية تصدر فى مصر ، وحارت الحكومة فى الأمر ، وحار السلطان الانجليزى كذلك . غير أن القرائن كانت تدل على أن الذى كان يعين السيد على يوسف فى الوصول إلى هذه الأخبار البرقية رجل من أقباط مصر ؛ هو توفيق أفندى كيرولس . ولست أدرى بالضبط إن كان ذلك بدافع من تلقاء نفسه ، أم بإيعاز وإغراء من صاحب المؤيد . وعبثا حاولت الحكومة والسلطات الانجليزية أن تحمل هذا الرجل — وهو توفيق افندى كيرلس — على الاعتراف بأنه هو الذى يوصل الأخبار إلى السيد على يوسف .

---

(١) راجع مجلة الشباب لمحمود عزمى — العدد الثانى من السنة الأولى بتاريخ ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٦ حيث تجد مقالا عن قضية التلغرافات بامضاء محمد أمين عبده المحامى .

ولكن — لابد أن ينجح اللورد كرومر فى إدانة السيد على يوسف ، وفى تقديمه إلى المحاكمة . فأنى له ذلك وقانون المطبوعات ليست به مادة تعاقب الصحيفة على الأنباء متى كانت صحيحة ؟ وإذن فلا بد من التفكير فى طريقة أخرى لإدانة هذا الرجل . هنا فكر اللورد كرومر فى أن القانون العام يعاقب الموظف الذى يعمل على إفشاء أسرار الحكومة . وعلى هذا فليتقدم اللورد بمحاكمة توفيق أفندى كيرلس بهذه التهمة . ومحاكمة السيد على يوسف بتهمة اشتراكه معه فى هذه الجريمة . وهكذا أصبح للقضية جسم على حد تعبير القانون ، ونظرت فيها المحكمة .

واستدعى صاحب المؤيد إلى ساحة القضاء ، فسئل يومئذ عن المصدر الذى توصل به إلى هذه البرقيات . فأجاب بأن سرّ المهنة يحول دون التصريح بذكر المصدر . ثم سئل عن معرفته بتوفيق أفندى كيرلس ، فأجاب بأنه إنما يعرفه معرفة سطحية .

وهكذا أخفقت النيابة هى الأخرى فى أن تصل إلى شىء تستند عليه فى معاقبة السيد على يوسف .

• هنا جن جنون الطاغية الانجليزى ، ولم يبق أمامه إلا أن يفكر فى طريقة واحدة ، وهى تهديد توفيق أفندى كيرلس بكل الوسائل الممكنة حتى يعترف بأن صاحب المؤيد هو الذى كان يحرضه على هذا الفعل « وبين هذه الآلام والعواصف المضطربة استضعف توفيق كيرلس ، وقبل أن يحرر اعترافا يذكر فيه أن الشيخ على يوسف على هو الذى حرضه على مافعل » . ولكن القدر المواتى لصاحب المؤيد ساق هذا الموظف المسكين توفيق أفندى كيرلس إلى جريدة مصر ، وقابل بها رجلا من أهل طائفته ، هو صاحب هذه الجريدة ، وقد اشتهر عنه أنه من أعداء المؤيد ، واسمه تادرس أفندى شنوده ، غير أن الزمن أثبت أن هذا الرجل مثال الشرف

والأمانة . فقد عرض عليه كيرلس أفندى هـذا الأمر ، فشوهد تادرس أفندى يعتدل فى جلسته ويقول لصاحبه :

يجب أن تعلم أن الحق وحده هو الذى يدعو إلى النصر ، وأن فيه النجاة من كل شر . فإن كان صاحب المؤيد هو الذى دفعك إلى فعل ما فعلت فقل عنه آمنا مطمئنا هادىء النفس . فالخير فى ذلك لك ، ما فى ذلك ريب . وإن كان لم يدفعك ، وكنت كاذباً فيما تريد أن تعترف به ، فلتعلم أنك تقود نفسك إلى الهاوية السحيقة التى يتردى فيها دائماً كل رجل يكذب على الناس . فقل الحق لله وللناس ولا تخف » .

فاعترف كيرلس أفندى أن صاحب المؤيد لم يدفعه ، وأنه كاذب فيما يريد أن يعترف به ، وأنه مدفوع إلى ذلك بتهديد الجبار !

وفى يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٩٦ نظرت محكمة عابدين فى هذه القضية واتهمت النيابة العمومية توفيق أفندى كيرلس والشيخ على يوسف معاً . وكان قاضى المحكمة يومئذ محمود (بك) خيرت . وحضر للدفاع عن المتهمين ابراهيم الهلباوى (بك) ، وأحمد الحسينى (بك) ، وهما من كبار المحامين المعروفين فى مصر .

« وقد رابطت على باب المحكمة ، وفى أرجائها قوات كبيرة من البوليس لتمنع تدفق الناس إلى قاعة المحكمة . وأشرف حكمدار العاصمة بنفسه على النظام ، ووفدت على القاهرة جموع كثيرة من مختلف مدن القطر الشهيرة لتشهد المحاكمة ، حتى ضاقت بهم فنادق القاهرة . وترافع المرحوم على (بك) توفيق ممثل النيابة العمومية . ودافع المحاميان عن المتهمين دفاعا جليلا بليغاً ، لا سجع فيه ولا بديع ولا تنميق ، ولا قذف إلا بالحق الهادىء الصريح . وكان الدفاع قائماً على بحوث قانونية ربما كانت غريبة عن الناس فى مصر فى ذلك الوقت » .

ثم فى يوم ١٨ نوفبر أصدرت المحكمة حكمها فى القضية . وهو يقضى بحبس توفيق أفندى كيرلس ثلاثة أشهر مع الشغل ، وبراءة السيد على يوسف .

ولا تسل عن تأثير هذا الحكم فى نفوس النظارة من المصريين فى ذلك الوقت . فقد هتفت الجموع المحتشدة للسيد على يوسف ، وصفقت وهللت ، وأقبل بعضهم يهنىء بعضاً بهذا الحكم ، ثم انثالوا على صاحب المؤيد يهنئونه ويهتفون بحياة جريدته .

وكان يوماً مشهوداً فى تاريخ الشعب المصرى انتصر فيه هذا الشعب المصرى على السلطان الانجليزى ، بعد أن أعيت الحيل هذا السلطان فى إدانة الرجل الناطق بلسان أمته إذ ذاك ، وهو السيد على يوسف .

تلك قضية من القضايا السياسية التى لفتت أنظار الرأى العام فى مصر لفتاً قوياً فى ذلك الوقت ؛ وكان هذا الرأى العام مظاهراً فى هذه القضية للسيد على يوسف مظاهرة قوية ؛ إذ اعتبر نجاح الرجل فيها نجاحا له على رمز الاحتلال فى مصر ؛ وهو اللورد كرومر ، وصحيفة الاحتلال فى مصر ؛ وهى جريدة المقطم .

وثم قضية أخرى اجتماعية فى جوهرها ، سياسية كذلك فى مظهرها ، تتصل بحياة السيدعلى يوسف ، وكان للشعب فيها رأى مخالف لرأيه الأول ، أو لعل هذه هى المرة الوحيدة التى انقسم فيها الشعب على نفسه انقساما ظاهراً ، وهذه القضية الأخيرة هى :

قضية الزوجية :

أبت الظروف المحيطة بهذه القضية إلا أن تخلق لها أهمية كبيرة من نواح عدة ، مع أن الأصل فيها أنها قضية شخصية تخص صاحب المؤيد ،

وقد أراد أن يصهر إلى بيت كبير من بيوتات مصر فى ذلك العهد ، وهو بيت السادات الوفائية [1]

ثم تعقدت هذه المسألة الشخصية ، ودخلت فيها اعتبارات كثيرة أورثتها هذه الأهمية التى نتحدث عنها . ومن هذه الاعتبارات :

أولا : أن القضية مست من قريب أعز شيء على نفوس المصريين ، وهو التقاليد .

ثانيا : أن الحكومة المصرية ، ومعها السلطات الانكليزية — لامر ما — أقحمت نفسها فى هذه القضية ، ومالت كل من الجهتين إلى جانب السيد على يوسف .

ثالثا : أن موقف القضاء الشرعى من هذه القضية كان يوصف بالنزاهة والحق والعدل والمحافظة على الكرامة ، إلى درجة لا تذكّر إلا بموقف علماء الإسلام من الأمراء العظام ، وذلك فى عهود الحكومات الإسلامية القوية كحكومة سلاطين الأتراك فى مصر ، ونحوها من الحكومات الأخرى .

---

(١) من هو بيت السادات ؟ بيت من أقدم البيوت المصرية فقد أسس فى مصر منذ سبعة قرون ونصف قرن . وينسب هذا البيت إلى سيدى محمد وفا . وإقامتهم الأصلية كانت بتونس وصفاقس وأجوازها . وأول وافد من هذا البيت إلى الديار المصرية سيدى محمد النجم . ونسبهم الشريف كما يأتى :

السيد عبد الخالق أبو الفتوحات بن وفا بن السيد أحمد أبى النصر بن السيد أحمد أبى الاقبال ابن السيد يوسف أبى التسهيل . وهو شقيق السيد محمد أبى الأنوار بن السيدة صفية بنت السيد أبى الإرشاد يوسف المتوفى سنة ١١١٢ هـ بن أبى التخصيص عبد الوهاب بن أبى الاسعاد يوسف ابن السيد أبى المطاعبد الرزاق بن السيد أبى المكارم ابراهيم بن أبى الفضل محمد بن أبى المكارم ابراهيم بن أبى الفضل محمد محب الدين بن أبى المراحم محمد بن أبى الفضل عبد الرحمن بن أحمد شهاب الدين بن أبى التدانى سيدى محمد وفا المنسوب إليه هذا البيت بن السيد محمد بن النجم الوافد إلى مصر من المغرب ... وينتهى نسبه إلى محمد بن إدريس التاج الخليفة بالمغرب منشىء مدينة فاس بن ادريس الأكبر بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط رضى الله عنهم ابن فاطمة الزهراء رضى الله عنها الخ . وهذه السلسلة هى من أعظم سلاسل الأشراف وأمجدها وأقومها عموداً ، لأن عبد الله المحض أحد رجالها أبوه الحسن المثنى بن الحسن السبط ، وأمه فاطمة بنت الحسين ، فقد جمع النسبين وحاز الشرفين : إقرأ : كتاب بيت السادات الوفائية للسيد محمد توفيق البكرى .

رابعاً : أن القضية تعرضت فى أثناء التحقيق لموضوع هام يتصل بالصحافة ، وهو قيمة الرجل الصحفى فى مصر ، والشروط التى لابد منها لكى يصبح أهلا للثقة والاحترام .

من أجل هذه الاعتبارات نظر المؤرخ الحديث إلى هذه القضية على أنها سياسية ، اجتماعية ، قضائية ، صحفية فى وقت معا . كما استدل المؤرخ الحديث منها على أن فى الشعب المصرى نوعا من المقاومة العنيفة التى تظهر حتى فى أشد الفترات حلكة ، وأكثرها غليانا كفترة الاحتلال البريطانى .

وفى مذكرات أحمد شفيق (باشا) قوله : « وكان من أهم حوادث هذا العام قضية زواج صاحب المؤيد ، فنى آخر ربيع الثانى سنة ١٣٢٢ هـ الموافق ١٤ يوليو سنة ١٩٠٤ م عُقد عَقد السيدة صفية السادات على الشيخ على يوسف بسراى الخرنفش بمنزل السيد محمد توفيق البكرى وتولى الوكالة عن الزوجة الشيخ حسن السقا . فلما علم والدها السيد عبد الخالق السادات بذلك رفع دعوى التفرقة بين كريمته والشيخ على يوسف لعدم أهليته لها . وتحدد لذلك جلسة ٢٥ يوليو بمحكمة مصر الشرعية ، ورأس الجلسة فضيلة الشيخ أحمد أبى خطوة ، وحضر عن الشيخ على يوسف حسن (بك) صبرى المحامى ، وعن زوجته الشيخ محمد عز العرب (بك) . وحضر عن السيد عبد الخالق السادات الشيخ عثمان الفندى » .

معنى ذلك باختصار أن هذا الزواج إنما تم برضاً من الزوجة ، وغير رضا من أبيها السيد عبد الخالق . وتلك هى العقدة القصصية لهذه الحادثة ، أو تلك هى المشكلة الأولى من مشكلاتها كما سنرى . ولكن ما مقدمات هذا الزواج ؟

لم تحدثنا المصادر عن شىء من ذلك . غير أن شيخا من أصدقاء السيد على كان يعمل معه فى جريدة المؤيد كتب إلينا يقول [1] :

---

(١) هذا الشيخ هو حضرة عطية شلبى افندى .

« ... نشأت هذه القضية سنة ١٩٠٤ . ويتلخص موضوعها فى أن المغفور له السيد على يوسف (باشا) خطب إلى المغفور له السيد عبد الخالق السادات كريمته المغفور لها السيدة صفية هانم السادات. فلبى السيد عبد الخالق طلب السيد على يوسف ، وقبل الصداق على ذلك . وسافر الجميع إلى الآستانة العلية لقضاء الصيف بين ربوعه . وكانت بين المغفور له السيد على (باشا) والمغفور له أحمد عزت العابد (باشا) كبير مستشارى السلطان عبد الحميد صداقة متينة فى قديم الزمان . فقدم عزت (باشا) للسيد عبد الخالق السادات عقداً نفيساً من اللؤلؤ هدية لابنته . هذا وقد كان المتفق عليه أن يتم القران بعد العودة من الآستانة . ولكن لم يكد الجميع يعودون إلى مصر ، حتى بدت بوادر المماطلة فى إتمام القران . وسعى بعض خصوم المغفور له السيد على يوسف (باشا) فى الوقيعة بينه وبين المغفور له السيد عبد الخالق السادات . وتمت الوقيعة بالفعل ، ورفض السيد عبد الخالق السادات إتمام الزواج بدعوى أن السيد على يوسف يشك فى نسبه وحسبه ، وأنه ليس كفؤا لشريفة من بنات النبى صلى الله عليه وسلم .

هنا تدخل فى الموضوع عنصر جديد ، هو المغفور له السيد محمد توفيق البكرى عميد بيت السادات البكرية ونقيب الأشراف ، وشيخ مشايخ الطرق الصوفية ، والكاتب الشاعر المعروف ، وعضو مجلس شورى القوانين، وصهر المغفور له السيد عبد الخالق السادات . وكانت صحيفة الصاعقة لصاحبها الأديب المرحوم أحمد فؤاد قد نشرت قصيدة استقبلت فيها ساكن الجنان الخديو عباس الثانى على أثر عودته من الآستانة ، جاء فى مطلعها :

قدوم ولكن لا أقول سعيد ... وملك وإن طال المدى سيبيد

هذا وقد كانت بين الخديو عباس الثانى والسيد توفيق البكرى جفوة ، فاتهم الأخير بأنه قائل هذه القصيدة .

ولكن المغفور له السيد على يوسف (باشا) سعى فى إخراجه من هذه التهمة

ونجح فى مسعاه . واعترف المرحوم السـيد مصطفى لطفى المنفلوطى بأنه صاحب هذه القصيدة ـ فعوقب هو وأحمد فؤاد بالحبس بضع شهور . أما السيد توفيق البكرى فعزل من نقابة الأشراف ، وبقى شيخاً للطرق الصوفية .

وقد ذكر هذا السيد جميل المغفور له السيد على يوسف (باشا) ، وكان السيد توفيق البكرى نفسه زوجاً للمغفور لها السيدة حفيظة السادات أخت المغفور لها السيدة صفية السادات . فاتفق السيد على يوسف مع السيدة صفية على عقد الزواج فى دار آل البكرى الكرام بسراى البكرى بالخرنفش . وتم العقد بالفعل ، وتولى المرحوم الشيخ السقاخطيب وإمام الجامع الأزهر الشريف الوكالة عن السيدة صفية هانم السادات . وشهد على العقد كل من السيد توفيق البكرى ، وابن أخيه السيد عبدالحميد البكرى . وفى هذه الأثناء سعى السيد على يوسف (باشا) لدى الخديو عباس حتى أعاد للسيد توفيق البكرى نقابة الأشراف» . (انتهت الرسالة)

أما الصلة بين السيد على يوسف وكريمة السيد عبد الخالق فيظهر أنها كانت أقدم من تاريخ الزواج بمدة ليست بالقصيرة . فقد كان السـيد عبد الخالق شغوفاً بابنته صفية . فكانت ترافقه دائماً أنى سار ، وكان يظهر بها فى المجالس العامة ، وقد عاد ذلك على ابنته باللسن والنشاط ؛ وذلك على غير عادة الفتيات فى زمانها ممن كن يخجلن من مقابلة الرجال ، ويجـدن الحرج كل الحرج فى التحدث إلى واحد منهم . ولعله فى مجلس من تلك المجالس العامة ، بل لعله فى إدارة المؤيد ذاتها التقى الشيخ على يوسف بابنة السيد عبد الخالق ، وصادفت منه هوى ، فأقدم على خطبتها من والدها[1] .

وتلك إذن مقدمات القصـة . وهى مقدمات لا غرابة فيها ، وخاصة للقارىء الحديث .

---

(١) رجعنا فى ذلك إلى السيدة بثينة هانم كريمة المغفور له السيد على يوسف «باشا» .

ومع ذلك فمن الناس من نظر إلى هــذا الحادث عن أنه اعتداء على الأخلاق والعادات حيث قال (١) :

« ولعل أخطر ما فى القضية أنها كانت نكبة على الأخلاق والفضائل الاسلامية ، ومثالا سيئا عاما للتقاليد القومية . وهل بعد استغواء سيدة شابة من أعرق بيوت الاسلام فى الشرق ، وبعد أخذها إلى غير بيت أبيها لتتزوج فى غير حضوره ، بل وبغير رضائه بمن لا يراه أهلا لها ، ثم مقاومة هذا الأب عندما كان استنجد بقاضى المسلمين — هل بعد هذا اعتداء على الأخلاق ؟ لذلك كان مكتوبا فى لوحة القدر أن ينهار المجد الاجتماعى الذى بناه الشيخ على يوسف لنفسه قبل هذه القضية ، كما انهار مجده الوطنى بعد أن خرج من صفوف الشعب » .

ليس من عمل المؤرخ الأدبى أن يدلى برأيه فى هذا الجانب الأخلاقى من المسألة . ولكنه مسئول فقط عن وصف ما كان لهذه القضية على هذا النحو من أثر فى نفوس الشعب . ولا شك أن الشعب قد انقسم فى هذه الحادثة فريقين : فريق مع السيد عبد الخالق وهو الأغلبية ، وفريق مع السيد على يوسف وهو الأقلية .

وندع الرأى العام فى مصر منقسما على نفسه على هذا الوجه لننظر فيما آلت إليه القضية نفسها بعد ذلك :

فى يوم السبت ١٦ يوليو سنة ١٩٠٤ نشرت صحيفة المقطم أنه قد تم قران السيد على يوسف بإحدى كريمات السيد عبد الخالق السادات فى حفلة جمعت الكثير من العلماء . ثم قصدت العروس بعد ذلك إلى المنزل الذى أعده لها بناحية الظاهر .

غير أن المقطم تعمدت يومئذ إغفال المكان الذى عقد فيه القران .

---

(١) راجع مجلة الشباب — العدد الثالث من السنة الأولى بتاريخ مارس سنة ١٩٣٦ حيث تجد مقالا فى قضية الزوجية للاستاذ محمد أمين عبده المحامى .

ثم ما كاد السيد عبد الخالق يطلع على الخبر ، حتى كتب من فوره إلى المقطم وإلى المؤيد كتاباً يتضمن أنه لا علم له بهذا الزواج ، وأنه إن كان قد حدث فعلى غير رضاه ، وأنه قد أبلغ الأمر إلى جهات الاختصاص . فامتنعت المؤيد وامتنع المقطم من نشر هذا الخطاب ، وقبل اللواء نشره على الناس .

وقد يعجب القارىء كيف وقفت المقطم والمؤيد فى صف ، ووقفت اللواء ومعها بعض الجرائد الوطنية فى صف آخر . وقد يسأل القارىء نفسه ما الذى حدا بالحكومة والسلطان الانكليزى فى مصر فى ذلك الوقت إلى الوقوف فى صف السيد على يوسف ، وهو اللسان الناطق عن الشعب ؟

ليس شك فى أن السلطان الانجليزى يومئذ أحب أن ينتهز فرصة ذهبية أتيحت له لكى يضم فيها صاحب المؤيد الى جانبه، وينتزعه نهائيا من صفوف الشعب . وللإنكليز منذ وطئت أقدامهم مصر إلى يومنا هذا قدرة عجيبة ، وصبر عجيب أيضاً على دراسة الرجال الذين هم قادة الرأى عندنا فى مصر دراسة يقصدون من ورائها معرفة نقط الضعف فى أولئك الرجال، ليدخلوا منها إلى نفوسهم ، ويتسللوا منها إلى قلوبهم، ويضموهم فى النهاية إلى صفوفهم ، ليأمنوا بذلك شرهم على الاحتلال الانكليزى .

فذلك إذا هو السبب فى انحياز الانكليز فى مصر إلى جانب السيد على ، وحملهم الحكومة المصرية أيضا على أن تتخذ معهم جانبه ، وأن تعبث من أجله بالقانون ، وأن تنقل بسببه الموظفين ، وأن تحشد كل قواها فى هذه المرة لينجح السيد على بفضلها وفضل الانكليز ، فتكون لهم منّة فى عنق هذا الذى يخشون بأسه ، ويعملون له ألف حساب !

ولكن للحق سيفا يقاوم به الباطل ، فتزهق روحه فى أثناء المقاومة ، وينتصر عليه انتصارا باهراً وإن كان الطريق الى هذا الانتصار طريقا طويلا ينبغى أن يصبر فيه الحق ، حتى يكتب له النصر .

فى ٢١ يوليو سنة ١٩٠٤ م عقدت المحكمة الشرعية ، وكان قاضيها المرحوم

الشيخ أحمد أبو خطوة للنظر فى القضية التى رفعها السيد عبد الخالق السادات ضد الشيخ على يوسف والسيدة صفية السادات ، طالبا فيها فسخ عقد الزواج الذى تم فى ١٤ يوليو بمنزل السيد توفيق البكرى . وإذ ذاك طلب الأستاذ حسن صبرى (بك) وكيل السيد على يوسف تأجيل النظر فى القضية حتى يطلع على الأوراق . فانبرى له وكيل السيد عبد الخالق — وهو هنا الشيخ عثمان الفندى — طالبا إقامة الحيلولة بين الزوجين فيما لو رأت المحكمة التأجيل . فأصدرت المحكمة حكم الحيلولة .

هنا سافر السيد على يوسف إلى الاسكندرية ، وقابل بنفسه ولاة الأمور بها . ومنهم بطرس (باشا) غالى وزير الحقانية . وعلى أثر هذه المقابلة نشرت جريدة المقطم كلمة فحواها أن قرار الحيلولة لن ينفذ . فانبرت جريدة اللواء للرد على ذلك ، وكتبت مقالات حماسية ، هى غاية فى القوة طلبت فيها حماية القضاء وحماية الدين وحماية الأخلاق .

وكان على رأس القضاء الشرعى فى مصر فى ذلك الوقت الشيخ عبد الرحمن أفندى قاضى قضاة مصر . وكان رجلا نزيها عنيداً « فوقف موقفه التاريخى العظيم الذى حمى به استقلال القضاء ، وأجبر الحكومة على احترامه » .

وفى الساعة السابعة من صباح يوم ٢٧ يوليو اتصل عبد الرحمن أفندى قاضى القضاة بمحافظ القاهرة ، وسأله عما تم فى تنفيذ حكم الحيلولة . فأجابه المحافظ بأن الأوراق عند ناظر الداخلية بالاسكندرية . فاتصل عبد الرحمن أفندى من فوره بالشيخ أحمد أبى خطوة ، وطلب منه أن يذهب إلى المحكمة ، وينتظر منه كتابا يقرؤه فى الجلسة عند افتتاحها . واتفق الرجلان على أن يتخذا مع الحكومة « إجراء يهذبها ويعلمها أن حكم القاضى واجب الاحترام ، وأن القضاء يجب أن يكون بعيداً عن شهوات السياسة وأغراضها » . واتفقا كذلك على أنهما إن عجزا عن ذلك فسيأمر قاضى القضاة بإغلاق المحاكم الشرعية فى جميع جهات القطر ، ويدعو إلى الإضراب العام !

وذهب الشيخ أبو خطوة إلى المحكمة ، وأخذ مكانه من قاعة الجلسة . وجاءه الخطاب ، وقرأه على الناس ، وأعلن أنه إنما ينظر فى هذه القضية باسم قاضى القضاة ، وأنه لن يستأنف النظر فيها إلا بإذن منه ؛ وذلك بعد أن تقوم الحكومة بتنفيذ حكم الحيلولة .

« ولم يكد يعلن القاضى هذا القرار حتى هتفت له الجموع التى احتشدت فى ساحة المحكمة تنتظر نتيجة الصراع بين اللورد كرومر ومجلس النظار من ناحية ، وقاضى قضاة المحكمة الشرعية من ناحية ثانية » .

وخرج الشيخ أبو خطوة من قاعة المحكمة فى مظاهرة حماسية رائعة . وإذ ذاك ارتاع مجلس النظار ، وارتاع معه اللورد كرومر ، وعرض الجميع حلولا شتى للمسألة . ولكن قاضى القضاة ومعه الشيخ أبو خطوة ثبتا فى موقفهما ، ولم يأبها للإنذارات المختلفة التى كانت توجهها الحكومة إلى كل منهما . وأخيراً لم تر الحكومة بدأ من أن تطأطىء رأسها لحكم الشيخ أبى خطوة ، وتقوم بنفسها على تنفيذ هذا الحكم !

وكانت السيدة صفية السادات إذ ذاك قد لاذت ببيت الشيخ الرافعى . وحين أصر قاضى القضاة على أن تخرج منه إلى بيت والدها السيد عبد الخالق كتب هذا إلى قاضى القضاة يقول : إنه يرضى ببقاء ابنته فى منزل الشيخ الرافعى ، وإنه يعتقد أن هذا الشيخ قادر على تنفيذ حكم الحيلولة .

وهنالك فى منزل الشيخ الرافعى عاشت السيدة صفية حزينة سجينة ، وذلك فضلا عن أنها كانت إذ ذاك عرضة للأقاويل والشائعات . وذهب الخصوم فيها إلى أنها اعتادت أن تلق السيد على يوسف فى بيت الرافعى فى ساعة متأخرة من الليل ، وأنها كانت تظل معه إلى الفجر ، إلى آخر هذه الشائعات التى نالت من السيدة صفية كل منال ، وجعلت بسببها تفكر فى الخروج من بيت الرافعى . ولكنها بقيت فى هذا البيت ، والحزن يأكل قلبها والحرج يحبس أنفاسها ، والخجل باد على وجهها .

وكان لا يفثأ عنها هذا الحزن إذ ذاك غير الرسائل التى دارت بينها وبين السيد على يوسف عن طريق خادمة أوروبيـة . وهى رسائل كانت تفيض حقا بالعواطف التى أبداها السيد على يوسف فى تحفظ واحتباط ، وكانت السيدة صفية تبديها بغير تحفظ ولا احتياط .

وضاق الشيخ الرافعى نفسه بأمر هـذه الخادمة الأوروبية ، وكتب إلى قاضى القضاة بإخراج السيدة صفية من بيته ما دام عاجزاً عن تنفيـذ أمر الحيلولة ولكنه عاد فعدل عن هذا القرار، وقبل أن تبقى عنده السيدة صفية على شرط ألا تقابل الخادمة الأوربية .

وفى يوم أول أغسطس عقدت المحكمة الشرعية جلستها للنظر فى القضية. وطلب وكيل السيد عبد الخالق فسخ العقد لأسباب ، منها عدم كفاءة الشيخ على يوسف لمصاهرة بيت السادات . ذلك أن السيد عبد الخالق من نسل النبى، والسيد على يوسف ليس كذلك . ومنها أن العقـد تم بدون موافقة الولى الشرعى ، وهو والد الزوجة . ومنها احتراف السيد على يوسف حرفة أصبح بها غير كفء للسيد عبد الخالق ، وهذه الحرفة هى الصحافة .

ودافع وكيل السيد على يوسف بحجج ، منها أن للسيد عبد الخالق السادات من رأيه العضل ، فقد عضل عمته ، وعضل أخته ، وعضل ابنته ، وهو هنـا يريد عضل ابنته السيدة صفية . ومنها قبول السيد عبد الخالق للهدايا التى أهديت إليه بمناسبة هـذا الزواج . وفى ذلك دليل على رضاه . ومنها أن السيد على يوسف من نسل الحسن بن على ، كما أن السيد عبد الخالق من نسل الحسن بن على ، فهما متكافئان فى النسب من هـذه الناحية ، ثم يزيد الشيخ على يوسف بأنه ذو مال .

ثم بدأت المحكمة فى التحقيق ، فوجهت للأستاذ حسن صبرى المحامى (حسن باشا صبرى فيما بعد) هذا السؤال :

س : هل فيما اتخذه الشيخ على فى هـذه الدعوى ما يتفق مع الفضائل

والآداب الإسلامية والعادات القومية ؟

ج : إننا نتقاضى قضاءاً شرعياً نظاميا لا قضاءاً أدبيا .

س : ما الدليل على علم الشيخ على يوسف ؟

ج : إنه درس كتب الدين فى الأزهر ، وكان على أن يتخرج للتدريس فيه . ولكنه آثر صناعة الأقلام ، فعمل فى الصحافة .

وبعد أن فرغت المحكمة من إثبات نسب السيد عبد الخالق من جهة ، ونسب الشيخ على يوسف من جهة ثانية ، بدأت التحقيق فى الحرفة التى يحترفها الزوج . وهنا سمحت المحكمة للشيخ الفندى بالكلام فقال :

« أما الصحافة فهى صناعة لا تشرف إلا بشرف استعمالها . وحيث إن حرفة الصحافة التى نسبها المدعى لنفسه قسمان : قسم يبحث فى علوم وفنون مخصوصة ، وهى المجلات غير اليومية ، وهذه شرفها بشرف ما يبحث فيه . وهذه الصحافة لا يدعيها الشيخ على يوسف لنفسه . وقسم لا يختص بموضوع مخصوص ؛ وهى الجرائد اليومية . ووظيفتها إرشاد من تتكون منهم المملكة من الأفراد والهيئات الاجتماعية والحكومة . وهذه الصحافة جليلة جداً ، ولها أثر فى رقى المملكة من ناحيتيها الداخلية والخارجية ، ويجب أن يتوفر فى صاحبها أعلى أنواع الثقافة الاجتماعية والخلقية والسياسية ، كما يجب أن يكون على أعلى قدر من شرف النفس ونبل الضمير ، وأن يكون من أشد الناس محافظة على الكمالات والآداب ، حتى يمكنه أن ينفع بنصحه ، ويجمع الناس إلى رأيه ، فضلا عن وجوب علمه بالسياسة الداخلية والخارجية . والمدعى عليه لا يمكنه أن يدعى لنفسه هذه الصحافة ، وذلك لتقلبه فى المبادىء لغير سبب ، وتعرضه للشخصيات فى ثوب المصالح العامة ، وسكوته عن بعض ما يلزم الكلام فيه لأغراض بعض من يهمه رضاؤهم ، وكثرة أضراره . وهو يدعى أنه يريد النفع مما هو معروف عنه ، ولا نريد أن نعدو ذلك . وكفى بهذه القضية وحدها دليلا عليه .

ثم مضى المحامى يقول :

وعلى ذلك فالمدعى عليه ليس مشتغلا بالصحافة ، قائما بها . وإنما هو مشتغل بشىء يتسبها لأغراضه ، ملبساً إياه ثوب الإرشاد والمصلحة العامة . وهذا اشتغال بأخسّ الحرف وأدنئها .

وكرر المحامى قوله : وعلى ذلك فلا يكون محترفا الصحافة ، وإنما هو محترف حرفة أخرى دنيئة .

ومن أجل ذلك حكمت المحكمة بعدم صحة العقد . وهلل الشعب لهذا الحكم . ونظر الناس إليه على أنه انتصار للأخلاق ، والتقاليد ، والعادات . وجاء هذا الحكم هزيمة ثانية للورد كرومر ، وللحكومة المصرية التى اجتهدت فى تنفيذ أغراضه .

أما الشيخ على يوسف فقد تعلم درسا نافعا قيما من هذه القضية . وسرعان ما عاد إلى صفوف الشعب ، وازداد إدراكا لخطره ، وتقديرا لمشيئته .

وأسدل الستار فى هذه القضية الاجتماعية عن منظر السيدة صفية السادات ، د أعيد عقد زواجها من الشيخ على يوسف فى منزل أبيها ، وبرضى منه .

قضية المسامير :

بقى أن نتحدث عن القضية الثالثة من قضايا المؤيد ، وهى القضية الخاصة (بكتاب المسامير) . ولكن يحسن بنا — أولا — أن نتحدث عن هذه الصفحة من صفحات الأدب الهيجائى ، فى مصر ؛ وهى صفحة كتبها السيد عبد الله النديم ، وقصد به إلى هجاء الشيخ أبى الهدى الصيادى ، وقد اصطدم بهذا الداهية فى الآستانة . وكان من عادة النديم أنه لا يهاب أحداً ، ولا يخشى عاقبة ، ولا يبالى بعمل . فالويل كل الويل لمن يعترضه فى طريقه ، أو يثير فيه وفى لسانه دواعى الشر أو الأذى .

ومنذ اصطدام النديم بأبى الهدى كتب فيه كتاب المسامير ، فجعله على شكل مقامة . توخى فيه أسلوبها الذى يعتمد على السجع ورواية الشعر ،

وبناها على تسعة مسامير ، وجعل الغاية منها وصف أخلاق أبى الهدى الذى سماه فى كتابه باسم (أبى الضلال) ، وتخيل فيه قصة نسبه وميلاده بأقبح صورة ، وأدناها إلى الإفحاش والأقذاع .

ونحن نعرف أنه ليس للأدب الساخر من هذا النوع غاية إلا الإضحاك والازدراء ، وأن للعلماء والأدباء والفلاسفة والمفكرين طريقة أخرى فى السخرية والتهكم ، لا تقوم على القذف والسباب بقدر ما تقوم على اللذع والانتقاد . وهذا الأخير لا نستطيع أن نسميه خروجاً على الآداب العامة (١) .

خذ لذلك مثلا واحداً من كتاب المسامير للسيد عبد الله النديم . وليكن هذا المثل وصف ميلاد (أبى الضلال) من أبوين من الجان ، أو ممن لهم نسب إلى الشيطان . قال :

« حين سبق القضاء المحتوم بتكوين الضليل من هذا المشؤوم . غابت النجوم بعد ما أشرقت ، وأرعدت السماء وأبرقت ، وزلزلت الأرض زلزالها . وقال الإنسان مالها ، وارتج الكون رجة ، وصار العالم فى ضجة ، وقضى الله ألا تحمل أنثى فى تلك الليلة من الجن أو الانس ، حتى ينفرد ابن الصياد بهذا الطالع النحس ، ثم نادى مناد بين الأرض والسماوات ، يسمع صوته ، ولا ترى منه الذات :

أيتها الأمم الحاضرة ، والعوالم الناظرة ، استعدوا للبلايا وهجوم الرزايا ، وحدوث الكروب والهموم ، والشدائد والغموم ، فقد آن ظهور مثير الفتن ، وغارس الأحقاد والإحن ، وموغر الصدور ، وجالب الشرور ، ومظهر الفساد ، ومضل العباد ، ومفسد مذاهب الأئمة ، ولاعن الأشراف وعلماء الأمة ، وعدو محمد وعيسى ، وخصيم ابراهيم وموسى — إلى أن قال :

---

(١) راجع فصلا بعنوان : السخرية فى الأدب العربى من كتاب حكم قراقوش للمؤلف .

عزوا الهدى وشريعة الإسلام　　عزوا العلوم وحكمة الأعلام
عزوا النبي وآله في سـنة　　عزوا الصحاب وجامعي الأحكام
عزوا الأئمة في نفائس كتبهم　　عزوا الهداة وثلة الأقلام الخ

* * *

وإن قارىء هذه المقامة ليعجب من خيال النديم كيف اتسع لكتابة كل هذه الصفحات الطوال في موضوع واحد، هو ميلاد الشيخ أبي الضلال، كما يعجب من قدرة النديم على الهجاء المرير إلى الحد الذي يذكر بجرير وابن الرومي والمتنبي وغيرهم من الشعراء الهجائيين.

وأرجو أن يعتبر القارىء ذلك من أننا إنما ننقل له من كتاب المسامير أقل السطور هجاء وإفحاشا، وأننا أعرضنا عما سوى ذلك.

* * *

ولقد قام الشيخ علي يوسف بطبع هذا الكتاب، فأفضى ذلك إلى رفع قضية عليه اتهم فيها بالقذف في الشيخ أبي الهدى الصيادي. وقد شغلت هذه القضية الرأي العام حقبة طويلة من الزمان، وخرج علي يوسف من هذه الأزمة الأخيرة منتصراً، لم يستطع القضاء أن يناله بعقاب ما. ونحن نستميح القارىء عذراً في إعراضنا عن الرجوع به إلى أعداد المؤيد التي نشرت بها أخبار هذه القضية، وفي تتبعها على النحو الذي اتبعناه في القضايا الأخرى.

ومهما يكن من شيء فإن القصة الأخيرة لم يكن من الشأن ما كان للقضيتين الأوليين، وإن كان لها من الضجة ما كان لهما. ومع ذلك فلم نشر إليها إلا استقصاء للواقع، وتصويراً للحقيقة والتاريخ.

الفصل الرابع

علي يوسف والإحتلال البريطاني

فى تلك المحنـة الشديدة التى مرت بالمصريين ، ونعنى بها محنة الاحتلال البريطانى كان يذود عن مصر ضد هذا الاحتلال البغيض رجلان كبيران ، بل زعيمان خطيران ، هما السيد على يوسف ومصطفى كامل . أما الأول فكان رئيساً لحزب الإصلاح على المبادىء الدستورية، وأما الثانى فكان رئيسا للحزب الوطنى . وكانت المؤيد لسان حال الحزب المعتـدل ، وهو حزب السيد على يوسف . كما كانت اللواء لسان حال الحزب المتطرف ، وهو حزب مصطفى كامل . وكان الفرق بين الرجلين فى مناهضة الاحتلال الانجليزى هو عين الفرق بين سياسة حزب الإصلاح وسياسـة الحزب الوطنى ، أو بعبارة أخرى بين سياسة المؤيد وسياسة اللواء ، وذلك حتى قبل أن تظهر حركة الأحزاب المصرية نفسها . وأن الناظر فى تاريخ مصر فى تلك المحنة ليرى كيف كان كل واحد من هذين الزعيمين يكمل الآخر ، ويعتبر عمله متمما له .

فهـذا هو الزعيم الشاب مصطفى كامل يثير الخواطر ، ويهيج المشاعر ، ويقذف فى وجوه الانجليز بين حين وحين بكلماته القوارص ، ويكسب إلى جانبه الرأى العام فى مصر ، بل الرأى العام فى أوروبا كلها إلى جانبه .

وهذا هو الزعيم الآخر السيد على يوسف يعمد إلى هـــذه القضايا السياسية التى يخلقها الاحتلال فيبسطها لقرائه فى المؤيد ، ويأخذ فى مناقشتها تارة ، وتحليلها تارة ، ويبرهن على أخطاء الانجليز تارة ثالثة ، ويبنى برهانه على طائفة من الدلائل المحسوسة ، والقرائن الملموسـة ، والحجج العقلية والمنطقية التى لا تقبل الرد ، ولا تحتمل الانكار .

بهذه الطريقة وتلك طفق زعيما مصر فى ذلك الوقت يعالجان المسائل الهامة ، والقضايا التى تشغل بال الرأى العام : هذا بعنفه وشدته ، وذاك بعقله ورويته . حتى لكأن أحدهما ، وهو مصطفى كامل قلب مصر النابض ، وكأن الثانى ، وهو على يوسف عقلها المفكر . وليس للأمة نفسها غنى بأحدهما عن الآخر .

وهكذا عولجت جميع المشكلات السياسية والاجتماعية التى كانت من خلق الاحتلال ، وهى مسائل كثيرة ، أشرنا إلى بعضها فى (تمهيد) هذا البحث فمنها مسألة فاشودة ، ومنها مسألة دنشواى ، ومنها مسألة المحكمة المخصوصة، ومنها مسألة النظار . وأشد هذه المسائل فى نظر المصريين جميعا جبار الاحتلال كرومر ، ثم خلفاؤه من بعده . ولست أريد هنا أن أتعرض لموقف السيد على يوسف فى كل واحدة من هذه المشكلات على انفراد . فالكتاب الذى بين أيدينا لا يتسع لكل ذلك . ولكننى مكتف ببعض المواقف الهامة للسيد على يوسف ضد الاحتلال . أذكر منها على سبيل المثال ما يأتى :

كان للسيد على يوسف موقفه المشهور من الخطبة التى ألقاها رياض (باشا) فى الحفل الذى أقيم بمناسبة إنشاء مدرسة محمد على الصناعية . وسنعرض لهذه الخطبة بعد قليل .

كما كان لهذا الكاتب الكبير موقفه المشهور بمناسبة الزيارة التى قام بها الرئيس الأمريكى روزفلت للسودان ثم مصر ، والخطب التى ألقاها فى هذين البلدين وجرح فيها الكرامة المصرية جرحا بليغا وسنعرض كذلك لهذا الموقف فى فصل مستقل من فصول هذا الكتاب .

وكان للسيد على يوسف موقفه المشهور كذلك بالنسبة للتقارير التى كان يصدرها اللورد كرومر كل عام ، ويسب فى بعضها المصريين وينال منهم ، ويصفهم فى بعضها الآخر بالتعصب الدينى ، ويمنّ عليهم فى بعضها الثالث بما قام الاحتلال من تحسين نظام الرى وهكذا . وقد دأب السيد على يوسف

مولانا (يخاطب الخديو عباس) :

اسمح لى بأن أتكلم بما يخالج ضميرى . إذا نظرنا وتأملنا الآن إلى ماجريات الأحوال،وطبقنا ماضيها على حاضرها نجد أن الأفكار والأحوال قد تغيرت تغيرا كليا ، واتخذت لها مجرى جديدا نحو التقدم والترقى ، وبث العلوم والمعارف ، وانتشارها فى كل بقعة من بقاع البلاد . وكل ما نراه بأعيننا من هذه المشروعات العلمية الأدبية ، والمؤسسات الخيرية الأهلية يتلو بعضها بعضا لا نشك ولا نرتاب بأنها أثر من آثار هذا الانقلاب . فلاحاجة بنا الآن إلى أن ندخل فى موضوع الشرح والتأويل ، ولافى البحث والتدقيق فى علل الأمور ومسبباتها . بل نكتفى الآن بأن ننظر بعين البصيرة والاعتبار إلى ما كنا عليه بالأمس ، وما نحن فيه اليوم ، ونهنىء أنفسنا ، ونتهلل بشراً ، ونسجد لله شكراً على ما وصلنا إليه من التقدم الباهر ، مستبشرين بما تدلنا عليه قرائن الأحوال بمستقبل زاهر الخ .

وعلق السيد على يوسف فى مؤيده على هذه الخطبة قائلا :

(وإننا ممن يحترمون دولة رياض (باشا) احتراما زائداً ، ونعتقد أنه نفع البلاد المصرية أكثر من كل وزير مصرى ، وأنه كان أشد المصريين وقوفا فى وجه الاحتلال مدة وزارته التى تولاها . ونعتقد أنه من أصدق الرجال قولا فيما يترجم به لسانه عن ضميره . ولكن كل ذلك لا يمنعنا أن نقول إن كلامه فى الحفلة قد ثقل على أسماع أكثر من فيها ، وأنه ربما يكون مقاله خفيفاً عليها بعد عشر سنوات تأتى — مثلا — حتى تكون الأفكار والأحوال قد تغيرت عما هى عليه الآن. وقد قلنا عشر سنوات مثلا ، لأنها مثل المسافة التى مضت منذ ما كان عليه رياض (باشا) من معارضة الاحتلال، والوقوف فى وجهه كالجبل الذى لا يتزعزع ، وبينه اليوم وهو يقول : إن كل ما نراه من المشروعات العلمية والأدبية والمؤسسات الخيرية الأهلية التى يتلو بعضها بعضاً من أثر ذلك الانقلاب الذى لاموجب الآن للبحث فى علله وأسبابه ،

ولا كيف جرى وكان . أما الآن فلا شك ولاريب أن أكثر الموجودين لم يكونوا ينتظرون مقاله هذا . ولذلك ثقل على أسماعهم ، وأكثروا فيه من التأويل . على أننا إذا اعترفنا مع دولة الوزير بالتقدم الكثير ، والارتقاء العلمى والأدبى من أثر ذلك الانقلاب ، فلسنا معه فى الاستبشار الفائق بمستقبل البلاد الزاهر الباهر .

فإننا نعتقد أن البلاد التى تكون أكبر نتائج الانقلاب فيها أن يستبد بأمورها كلها رجل واحد، يأتمر بأوامره أربعة أو خمسة رجال من المحتلين ، يقومون فى أعمالهم مقام الحكومة الرسمية والدستور النيابى ، غير مسئولين عن شىء ، لا يمكن أن تكون لها ضمانة بذلك المستقبل الزاهر الباهر الذى بشرنا انتظاره دولة الوزير .

وقد جاء فى أول المقال[1] الذى نشير إليه قول صاحب المؤيد :

. . . وقد جرت العادة أيضاً أنه إذا شرف الاحتفال الجناب العالى أمير البلاد المعظم اقتصر الخطباء — رسميين أو غير رسميين — على ذكر العناية الإلهية التى شملت هذا المشروع من سموه ، ولم يذكر يدأ سواها معها بالشكر والثناء . فعلى ذلك ذهب إلى الاحتفال العظيم الذى أقيم أول أمس لوضع الحجر الأول فى أساس مدرسة محمد على الصناعية كل من لبى الدعوة . ولم يكن أحد ينتظر أن يسمع من خطيب الحفلة الرسمى ، الذى هو صاحب الدولة رياض (باشا) كلمة سياسية ، أو أن يذكر بجانب اسم الجناب العالى الخديوى اسم رجل آخر ، يصفه برفعة المقام والنفوذ الشامل ، ويرجوه ألا يترك موضوع الاحتفال طفلا فى مهده ، بل يعضده حتى يشب وينمو ويبلغ أشده .

ولكن هناك حقيقة يجب أن يعترف بها الكل ، وهى كما قال دولة الوزير إن الأفكار والأحوال قد تغيرت . واتخذت لها مجرى جديدا . وهذا التغيير الأفكار والأحوال هو الذى جعل مثل رياض (باشا) يقول فى أكبر حفلة

---

(١) انظر المؤيد — العدد رقم ٤٢٦٨ بتاريخ ٢٥ مايو سنة ١٩٠٤

أهلية ، وبين يدى مولاه الخديو المعظم كلاما ربما اعتقد سامعوه أنه لم يرُق لدى مسمعه العالى ، أو على الأقل لم يرق لدى أكثر السامعين .

وهذا التغير قد فتح الباب لعظماء مصر وكبرائها الآن أن يبدوا آراءهم وما يخالج ضمائرهم فى المحافل الكبرى ، وهو تغير يجب أن تتلقاه أرباب الأفكار بالاهتمام والعناية . فإذا كان فى البلاد عظماء وعقلاء كبار يسمّون قادة أفكارها كما وصفهم دولة رياض (باشا) ، فليست هذه الصفات لتكون لهم ألقاب حلى وفخار بل ليكونوا قادة للأمة — حقيقة — بإبداء الآراء النافعة والأفكار الصالحة . فإذا قال خطيب منهم كلاما رآه آخر خطأ أصلح هذا منه الخطأ . وإذا اتخذ هذا مبدأ رآه غيره ضارا بالبلاد احتفظ هو لغيره بالمبدأ النافع . وهلم جرا . (أذكر قصيدة شوقى)

فهذا موقف من مواقف السيد على يوسف ضد جبار الاحتلال فى مصر ، ونعنى به كرومر . وقد بلا هذا الجبار من قلم السيد على شيئا كان أشق على نفسه من مناوأة دولة أجنبية بأسرها ، تريد أن تزاحمه فى احتلال مصر .

زيارة روزفلت :

وحدث أن زار الرئيس روزفلت — رئيس جمهورية أميركا — مصر ، وذلك فى يوم ٢٤ مارس سنة ١٩١٠ م ، فاستقبله من قبل الخديو سعيد ذو الفقار (باشا) . وزار الرئيس سموه فى عابدين ، ورد له سموه الزيارة . ثم أقيمت له مأدبة شائقة فى ٢٦ مارس ، أقامها له (الأمير) أحمد فؤاد رئيس الجامعة الأهلية المصرية ، ودعاه لإلقاء محاضرة فى الجامعة . فلبى الدعوة ، وألقى محاضرته فى اليوم التالى ، وتكلم فى هذه المحاضرة عن أهمية الجامعة ، وأنها الطريق القويم للتربية الصحيحة ، وتحدث عن واجبات الذين يلون أمرها ، وواجبات الطلبة الذين ينتسبون إليها . ثم عرج المحاضر على مقتل بطرس غالى (باشا) ، وأشار فى حديثه إلى أن هذه الجرائم بغيضة إلى نفوس الجميع ، وأنها وبال على الأمانى الوطنية . وتطرق من ذلك إلى الحديث عن الأمم

التي تمنح الدساتير ، وهي لم تزل في دور التكوين . وقال إن مثل هذه الأمم تكون خطراً على نفسها ، لأنها لم تكمل فيها الصفات التي تمكنها من الانتفاع بالدستور ، وأن الأمر الجوهري ليس هو الإسراع للحصول على سلطة ليس هناك أيسر من سوء استعمالها ، وإنما هو ترقية الصفات التي يسمو بها الفرد والأمة ترقية دائمة ، وإن تكن بطيئة ، وأن هذه الصفات هي التي تجعل الأمة قادرة على حكم نفسها بنفسها . ثم أشار روزفلت في خطابه إلى الإدارة الانجليزية في السودان ، وأثنى على اللورد كرومر ، وعلى سياسته في مصر .

وكان هذا الخطاب مثاراً لعاصفة شديدة من النقد ظهرت على صفحات المؤيد ، والجريدة ، واللواء . ووجه الشيخ عبد العزيز جاويش يومئذ رسالة إلى روزفلت يلفت نظره فيها إلى أنه في بلد إسلامي ، فليس له أن يبشر بحسنات المسيحية ، وأن ينسى فضل التعاليم الإسلامية .

كما نظم حافظ (بك) ابراهيم قصيدة قوية في هذا المعنى ذكر فيها روزفلت برأي الأمريكيين في الانجليز يوم كانوا يحتلون بلادهم . ومما جاء فيها :

يا نصير الضعيف مالك تطري خطة القوم بعد ذاك النكير ؟
لم تطيقوا جوارهم بل أقمتم في حماكم من دونه ألف سور الخ .

أما الشيخ علي يوسف فإنه كتب في مؤيده خطاباً مفتوحا إلى روزفلت حمل فيه على مسلكه وخطته وإخلاله بواجب الضيافة . ونشرت ترجمة هذا الخطاب في بعض الصحف الأمريكية الشهيرة . وبعث بعضها إلى الشيخ علي يوسف يطلب إليه كتابة تحقيقاً صحفياً في هذا الموضوع ، يتحدث فيه عن روزفلت وما كان لزيارته من أثر في نفس الشعب المصري . فلبى الشيخ هذه الدعوة وبعث إليها بمقال :

وفي ذلك يقول السيد علي يوسف :

علم قراء المؤيد أننا كنا أول من انتقد خطة المستر روزفلت في السودان

وخطبته فيه . فكتبنا قبل وصوله إلى القاهرة بيومين خطاباً مفتوحاً ، وجهنا له فيه الإحترام بصفته ضيفاً عظيما على مصر ، والانتقاد والعتاب لأنه نحا نحو عشاق الاستعمار الإنجليزى فى أقواله ونصائحه التى وجهها للسودانيين والمصريين ، مرغباً فى الطاعة العمياء للحكم الإنجليزى . وقد أرسلت يومئذ ترجمة هذا الخطاب بالإنكليزية تلغرافيا لجرائد أمريكا . فكان له تأثير قوى فى الولايات المتحدة ، كما يفهم من الخطاب الآتى الذى ورد علينا بعد ذلك ، وهو :

إدارة مجلة نورث أمريكان رڤيو

رقم ٣٢ پيرل ستريت

نيويورك فى ٢٩ مارس ١٩١٠ م

حضرة الشيخ على يوسف مدير سياسة جريدة المؤيد بمصر

إن شهرة ردكم على خطاب مستر يتودور روزفلت الرئيس السابق قد ذاعت فى الولايات المتحدة ، وأحدثت اهتماما عظيما .

ولما كنا نريد أن نزيد هذا الموضوع وضوحاً وجلاء جئت أرجوكم أن تتفضلوا فترسلوا إلى مجلة (نورث أمريكان رفيو) فى ٣٢٥ پيرل ستريت — نيويورك مقالة تشتمل على ٢٥٠٠ كلمة تبدون فيها رأيكم مفصلا فى المستر روزفلت .

وعلى أمل أن يصلنى جواب عاجل أرجو قبول احتراماتى ؟

الداعى

وليم . او . انجليس

وفى ٢٤ ابريل سنة ١٩١٠ بعثت له بالجواب الآتى مترجما ترجمة موافقة للأصل باللغة الانجليزية . وهذا بنصه :

جناب المحترم مستر وليم . او . انجليس

مدير مجلة نورث أمريكان رفيو ٣٢٥ شارع پيرك بنيويورك .

تشرفت بكتابكم المؤرخ فى ٢٩ مارس سنة ١٩١٠ تشيرون فيه إلى

الخطاب المفتوح الذى رفعته إلى جناب الكولونيل روزفلت رداً على خطبته فى السودان . وتقولون أن هذا الجواب صادف حظا من الشهرة فى بلادكم، وترغبون أن أكتب لمجلة (نورث أمريكان رفيو) مقالة أبين بها رأيي فى المستر روزفلت ، وأضمنها حقائق أخرى تختص بزيارته . فأنا أشكركم على حسن اعتقادكم ، وأرى حقا أن أجيبكم إلى ماطلبتم .

لقدكنا ننتظر وصول رئيس الولايات المتحدة السابق إلى بلادنا بشغف عظيم . ذلك لأنه كان فى اعتقاد المصريين جميعاً أنه أفضل ممثل للأمة الأمريكية العظيمة . كما هم يعتقدون أن الأمريكان أعظم الأمم الراقية فى هذا العصر مكانة فى المدينة ، وانتصاراً لحرية الأمم بقدر ما أحرزوا من الأخلاق الدستورية . وزد على ذلك أن المصريين يميلون للأمريكان أكثر من الأمم الأوربية ، لأنهم لم يصلهم أذى من ناحية أمريكا . وهم مع ذلك منتفعون من مدنيتها بقدر ماهم منتفعون من مدنية أوروبا . ولذلك كانت تجارات ومنافع أمريكا فى الصف الأول من رغبة المصريين فى ثمرات التمدن العصرى .

وفضلا عن ذلك فان المصريين قد انتفعوا انتفاعا مخصوصاً من الأمريكان الذين استقدمهم المرحوم اسماعيل(باشا)الخديو الأسبق لوظائف الرى فى نظارة الأشغال ، والجندية فى الجيش المصرى . فهم الأساتذة الوحيدون الذين علموا المصريين بأمانة ، ولم يخلطوا وظائفهم بالسياسة . وحسبهم فخاراً وذكراً فى مصر أن جميع الضباط العظام الحائزين لرتبة اللواء العسكرية فى الجيش المصرى الآن هم من تلامذة الجنرال ستون ، ومن كان معه من الضباط الأمريكيين فى عهد الخديو الأسبق .

لهذا كله ما اقترب الكولونيل روزفلت من عاصمة السودان قادماً عليها من سياحته فى مجاهل إفريقية ، حتى أخذت الصحف المصرية على اختلاف

نزعاتها فطرية ، وتذكر مناقبه وتاريخ حياته المجيد . وقد استعد الكثيرون من سراة القاهرة وكبار أعيانها لملاقاته بآيات الحفاوة والترحيب . ورأى الكثيرون من أعضاء حزب الإصلاح الدستورى الذى أتشرف برياسته أن ندعوه إلى مأدبة سياسية . وقد ذهب فعلا رسول من قبل الحزب إلى جناب الجنرال قنصل الولايات المتحدة يسأله عن إمكان نيل هذا الشرف ، ويرجوه تبليغ هذه الدعوة . فأجاب القنصل الجنرال بما يأتى :

« إن الكولونيل روزفلت لايجيب دعوة سياسية ، لأن الأمريكان يحظرون على أنفسهم التدخل فى السياسة ، حتى أن المصرى الذى تجنس بالجنسية الأمريكية ، وأخذ إحدى الجرائد المصرية تحت اسمه ليحميها من سلطة القانون المصرى يفقد حمايته من أجل ذلك . فإذا كان هذا شأن سائر الأفراد الأمريكيين ، فكيف برجل يحمل أعباء مسئولية كبرى مثل الكولونيل روزفلت رئيس الولايات المتحدة سابقا ، والمنتظر أن يكون رئيسها قريبا ؟

ومع هذا الجواب قد عقدنا النية على أن نبذل كل مافى وسعنا لإظهار الحفاوة لضيف مصر العظيم ؛ وكان هذا الشعور القائم بنا عاما عند جميع الأحزاب المصرية ، بل عند جميع الذين يعرفون اسمه المبجل فى كل مكان .

ولكن ماوصل مدينة الخرطوم وألقى خطابه فى نادى الضباط المصريين ، وعلى طلبة المدارس الأمريكانية حتى فوجئنا باندهاش عظيم .

ألقى الكولونيل روزفلت خطبته على الضباط المصريين ، وكان أهم شىء وجه إليه عنايته فى كلامه أن نصحهم بالإبتعاد عن السياسة . والنصيحة فى ذاتها صحيحة ، لأن الجندى إذا اشتغل بالأمور السياسية أصبح عسكريا ضعيفا ، وسياسيا سخيفا ، وقد رفعت صوتى مراراً بمثل هذه النصيحة للضباط العثمانيين . ولكن موضع الإنتقاد على الكولونيل روزفلت أنه

ألتى نصيحته فى ظروف مخصوصة أخرجتها عن مغزى النصح إلى قصد غمز الضباط، وإيلام عواطفهم، وجعلت الواقفين على الحقائق — وأنا من جملتهم — يندهشون من خطة ذلك الضيف فى السودان، ويتوقعون اندفاعه إلى أكثر من ذلك متى وصل إلى القاهرة.

وهذا ما دعانى إلى أن أسارع برفع الخطاف المفتوح إليه على صفحات المؤيد، أنتقد فيه خطته فى السودان، وأرجوه أن يلاحظ كرامة الأمة المصرية وهو بين ظهرانيها.

ولكى تعرفوا الظروف الخصوصيـــــة التى جعلت تلك النصيحة صحيحة نقول:

سبق وصول رئيسكم السابق مدينة الخرطوم خبر مقتل الطيب الذكر بطرس غالى (باشا) رئيس مجلس النظار، وقد كان من الطائفة القبطية التى هى الفئة الصغرى فى الأمة المصرية.

فلما قرىء ذلك الخبر المكدر فى نادى الضباط المصريين صفق له بعض الأحداث منهم. ولا ريب أن هذا لو صح كان خالياً من الفطنة، وبعيداً عن الذوق وورد خبر هذا الحادث بالتلغراف سرا على بعض ولاة الأمور، فلم يطلع عليه إلا القليلون جداً، ولم تكتب عنه صحيفة مصرية حرفاً واحداً. ولكن الكولونيل روزفلت لم يتحاش أن يشير إلى هذه الواقعة التى تحسب هفوة داخلية وقعت فى نادى الضباط، ولم تتعد جدرانه، ولم ير الضباط الانجليز الذين يرأسون الضباط المصريين من حسن السياسة، ولا من الذوق أن يخاطبوهم فى شأنها.

ولما كنت أعرف ما عزى إلى الضباط المصريين قبل خطبة المستر روزفلت عليهم أيقنت أن فى هذا الرجل العظيم موضع ضعف ابتلى به كثيرون من كبار الرجال، وهو غرورهم بأنفسهم، وظنهم أنهم فوق كل ظنون الناس وملاحظاتهم. وعلمت أنه مع ما اشتهر به من قوة الإرادة واستقلال

الرأى قد يكون فى بعض الأحيان من أولئك السياسيين الذين يدفعون بالتملق إلى حيث يراد بهم من حيث لا يُشعرون .

كان المستر روزفلت من أربعة أشـــهر يقاتل الوحوش ويطاردها فى وسط مجاهل إفريقية ، ولم يكن يصله من أخبار العالم إلا الشىء القليل من أنباء قومه، وما يعتد به جداً من أعمال حزبه وكانت الأخبار تصله بصعوبة وبعناية نادرة المثال . فمن البديهى أنه كان مشغولا عن أخبار الامم الأخرى. فلم يكن يعنيه أن تصل إليه بالدقة أخبار مصر والمصريين.

وأول مدينة حضرية وصلها ذلك الرئيس بعد ســـياحته القفرية هى الخرطوم . وعقب وصوله إليها بيوم التى تلك النصيحة على الضباط المصريين فى ناديهم . فمن أين جاءه أن هؤلاء الضباط كانوا مشتغلين بالسياسة ، ولم يؤثر عنهم منذ دخلوا السودان حادث سياسى ، ولم تتهمهم جريدة شرقيه ولا غربية بذلك ؟!

أليس ما ألقاه عليهم محمولا عليه من أشخاص يهمهم أن يسمع أولئك الضباط هذه النصيحة ؟

لذلك وقع فى خاطرى أن المستر روزفلت يمكن أن يحمل على راحات الفخفخة وهو مقبـل على القاهرة ، فيدفعه الغرور بنفسه مرة أخرى إلى عرض الأمة المصرية بين يديه ، وإلقاء درس قاس عليها مثل الذى ألقاه بعد ذلك فى الجامعة المصرية . فكتبت ذلك الخطاب الذى كان أول ما قرأه بعد وصوله إلى القاهرة .

وقد علمت أنه اهتم بمـا كتبت كثيراً ، ورغب فى مقابلتى بالذات ، ثم تراءى له بعد ذلك أن يقابلنى مع بعض رصفائى الصحافيين . وأذكر أنه كان فى مقابلته لطيفاً ، ولو أنه كان يضرب بيديه على بعضهما بشدة ، كلما حاول أن يؤثر علينا . ومن أقواله لنا إذ ذاك ما يأتى :

بلغنى أنه قد وشيت على وأنا فى السودان وشاية كاذبة ؛ قالوا فيها إنى جرحت عواطف المسلمين . فأنا أكذب هذه الوشاية بتاتاً . ثم قال كلمة دلتنى على أنه تألم كثيراً من انتقادى عليه ؛ وهى : إننى لاأنتظر من صاحب الجريدة أن يعلمنى ماذا أقول . وها أنا سألقى خطبتى غداً فى الجامعة المصرية ، فانتظروها ، وقولوا فيها ما تشاؤون . وبعد مفارقتنا علمت أنه هذب خطبته التى كان أعدها ليلقيها فى الجامعة ، وحذف منها عبارات كثيرة . ولكن مع الأسف العظيم بقيت أقواله مهينة للأمة المصرية ؛ إذ أشار عليها أن نصبر أجيالا طوالا ، حتى تكون مستحقة للحكم الذاتى .

وقد كلف الكولونيل روزفلت نفسه أن يحفظ مثلا عربيا ، وهو « إن الله مع الصابرين إذا صبروا » لينطق به عربيا ، ظانا أنه بعد ذلك يتسنى له أن يصب الرصاص ذائبا فى أدمغة المصريين فيجمد . ولكنه لم يكد ينطو به حتى ضحك السامعون ، وأنا فى جملتهم . وقد التفت رئيسكم المحترم لى وأنا أضحك عند ما نطق بهذه الجملة ، فابتسم وانحنى محييا بالإشارة .

أما أكثر الناس فقد ضحكوا لأنهم رأوا أن جناب الخطيب المحترم أجهد نفسه ، وحملها فوق طاقتها لغرض التأثير على السامعين . ولكن كل مصرى إذا قيل له إنك لا تستحق الحكم الذاتى إلا بعد مرور عدة أجيال ضحك ضحكاً كالبكاء ، وتعجب من قائله .

مصر محتلة بدولة أجنبية ، يعرف الكولونيل روزفلت أنها قائمة على شئونها قيام الوصى القوى على قاصر غنى . فلا الوصى يريد أن يرفع يده عن ذلك القاصر وكل مايملك . ولا القاصر يستطيع أن يدرك منزلة الرشد ، مادام الوصى يمنعه من الوصول إليها بمقتضى مصلحته الخصوصية

ألم يكن الأجدر بالكولونيل روزفلت وهو ينصح المصريين أن يصبروا إلى عدة أجيال ليكون الله معهم أن يوجه لأبناء عمومته المحتلين نصيحة تليق أن توجه إلى الوصى القوى الطماع ؟ !

فاذا قيل إن الخطيب تحاشى ذلك حتى لا يجعل مركز المحتلين حرجا أمام الوطنيين . فكيف سوغ لنفسه وهو يمثل أعظم أمة حرة أن يجعل مركز الوطنيين حرجا أمام المحتلين ؟ وهل من مقتضى شهامة الامريكي الذى يأنس من نفسه قوة الكولونيل روزفلت واقتداره أن يطعن أمة هو ضيفها هذه الطعنة النجلاء ، مهما كان اعتقاده الخصوصى ؟ !

وفوق ذلك فإنه جرح فى خطبته هذه عواطف المسلمين كثيراً ، فسجل على نفسه ما كان نفى نسبة صدوره عنه فى السودان . فقد ذكر مقتل بطرس (باشا) ، وذكر فى جانبه الأقلية والأكثرية ، وقال : إن لدينا فى « فيلبين » المسلمين والمسيحيين ، ولكننا لانسمح للفئة الكبرى أن تتعدى على الفئة الصغرى . مع أن التحقيق أثبت إثباتا قاطعا آن الجانى فرد ، وأن جنايته فردية ، وأنه لادخل لغير الجانى معه ، لا فى النية ، ولا فى التدبير ، ولا فى ارتكاب الجريمة .

فكأنه كان يردد فى خطابه أقوال بعض الصحف الداعية إلى الشقاق والتفريق بين المسلمين والمسيحيين بنسبة التعصب الدينى للأولين .

وإذا أضفنا إلى هذا أن المستر روزفلت رفض دعوة كثير من سراة المسلمين ، وفى مقدمتهم بعض أعضاء الجمعية العمومية ، معتذراً بضيق الوقت ، وأجاب مع ذلك دعوة جماعة من أعيان الأقباط فى القاهرة بعد وصوله إليها بيوم ، كان للمسلمين بعض العذر فى أن يظنوا فيـــه ما لا يرضاه هو لنفسه .

ألقى المستر روزفلت خطبته فى الجامعة المصرية قبل ظهر يوم الاثنين ٢٨ مارس سنة ١٩١٠ . ولم يكن من حظ كثير من الحاضرين أن يفهموها كما هى وقت سماعها . فكان تأثيرها فى هذه الحالة موزعاً غير منضبط . ولكنها ماظهرت فى الصحف الساعة الثالثة بعد الظهر ، وهو موعد أكثر الصحف

المصرية فى الظهور، حتى شملت الناس دهشة لامزيد عليها . وقام بعض الخطباء فى عدة أماكن ، مساء يوم الخطبـــة ، واليوم التالى يندون بالخطيب . وصارت التلغرافات ترد من جميع جهات القطر للجرائد بالاحتجاج على أقواله القاسية .

ولا أبالغ إذا قلت لكم أن أبناء وادى النيل لم يتألموا من مطاعن اللورد كرومر التى طفح بها كيله فى خطبة الوداع قبل سفره النهائى من القطر المصرى بيومين (يوم السبت ٤ مايو سنة ١٩٠٧) مثل ما تألموا من خطبة الكولونيل روزفلت فى الجامعة المصرية. إذ اللورد كان مفارقاً مصر، حاقداً على أهلها ، غاضباً منهم . وبينه وبينهم الحزازات التى توجد عادة بين الحاكم المستبد وبين أمة مغلوبة على أمرها . أما المستر روزفلت فقد وفد على مصر ضيفاً مكرما من أهليها ، مرموقا بعين الإجلال والإعظام من جميعهم . ولم يكن تحت دافع سياسى يدفعه إلى أن يقف ذلك الموقف الشاذ ، ويحكم ذلك الحكم القاسى على أمة يعرف عظمتها التاريخ منذ ستة آلاف سنة . ولم تختف أنوار التمدن منها فى عصر من الأعصر ، بالرغم من حملات القاهرين فى القرون الماضية عليها .

كل ذلك والمستر روزفلت لا يعرف من أحوال مصر أكثر مما فى كتاب « مصر الحديثة » تأليف اللورد كرومر ، وما يقرأه فى الصحف الانكليزية . وإن زاد عن ذلك فكما يعرف السائح النبيه فى مثل الأيام التى أقامها رئيسكم المحترم فى وادى النيل ، مع ما كان يحيط به من الرسميات التى تحول بينه وبين معرفة الكثير فى الزمن القصير .

على أنه لا يفهم من قولى إن المصريين تألموا من خطبة الكولونيل روزفلت ، واحتجوا عليه أن هذا الرئيس المحترم كان فى مركز حرج يخشى منه على حياته ، أو على كرامته ، كما أشاع بعض المرجفين، وكما سارعت بنشر

هذا الخبر جريدة « الديلي ميل » التي نقل مكاتبها حديثاً عن رئيس الوزارة المصرية ، وكذبه الرئيس فيه .

كلا وألف مرة كلا .

فان هـذه الوشاية قد خلقها أشخاص أدنياء يريدون أن يسيئوا إلى سمعة مصر . وروجها بعض الموظفين الانجليز الذين يكرهون السير « ألدون غورست » .

ومن سوء حظ هـذا المعتمد أنه لا يزال يستعين برجال اللورد كرومر الذين يبكون عهده بدموع حارة ، وينقمون على رئيسهم الحالي أنه كف أيديهم عن السيطرة على المصالح المصرية والموظفين المصريين ، وكانوا في عهد اللورد أصحاب جبروت وطاغوت لا يطاق . فهم لهذا لا يفتأون يشوهون سمعة خلف اللورد كرومر ، كلما سنحت لهم الفرص .

فلما شعروا بانقباض نفوس المصريين عن الكولونيل روزفلت بعض الشيء عقب خطبته في السودان ، رأوا الفرصة سانحة لأن يروجوا وشاية ذات حدين : حد يصيب المصريين بوصمة الهمجية والتوحش ، وحد يصيب لسير ألدون غورست بوصمة ضعف السياسة ، الى حد أن أعظم عظيم إذا ار مصر في عهده لا يأمن على حياته من شر فوضاها

نعم — إنه وجد عشرات أو مئات من الشبان المتحمسين قد وقفوا عند باب نزل شبرد ، وصاحوا (ليسقط روزفلت . ليسقط الاحتلال . ليحيي الدستور) . وكان الرئيس في هذه الساعة ضيفاً في الوكالة الألمانية .

ومثل هذا النداء لا يصح أن يفسر بغير إظهار استياء الشبيبة المصرية من خطة الرئيس السياسية . ومن يقول غير هذا فهو في ضلال مبين .

نعم إن الرئيس لما عاد إلى الفندق ، وبلغه خبر هذه المظاهرة لم يكن مسروراً منها . ولكننا لا نظن أنه كان يشعر بخوف على نفسه مهما جسم له الوشاة هذا الوهم .

والحقيقة أن عقلاء المصريين لم يكونوا مسرورين أيضا من تلك المظاهرة ، وعدوها عملا صبيانياً .

ولكن اللهجة العامة التي جرى عليها الكولونيل روزفلت في خطبه بالسودان ومصر ، وفي أحاديثه الكثيرة مع الناس ، وكان لها شيء من تأثير الكدر عند المسلمين أوجدت ميلا خاصا من طائفة الأقباط إليه ، ونتج من ذلك أن مئات من شبانهم أيضاً وقفوا في محطة القاهرة يوم مبارحة الرئيس المحترم لها وصاحوا (ليحيي المستر روزفلت) . ولعلهم قصدوا أن يجاوبوا أولئك الشباب الذين تظاهروا أمام فندق شبرد مساء اليوم الماضي ضد المستر روزفلت .

ومن غريب الصدف أنني عندما وصلت إلى هذه العبارة من رسالتي اليكم قدم لي المترجم الإنجليزي العبارة الآتية منقولة عن الجريدة المذكور فيها وهي : « نشرت جريدة النيويورك إيفنن چورنال بتاريخ ٣١ مارس رسالة لمكاتبها في الاسكندرية وصف فيها سفر المستر روزفلت إلى أن قال :

ولما وصل المستر روزفلت إلى محطة طنطا أخبروه بأنه واقف حيث كان المسلمون يجرون المسيحيين من القطارات ويذبحونهم !

فأجاب الكولونيل روزفلت بما يأتي :

« نعم وهذا الأمر يحدث مرة ثانية لو أعطيت مصر الحكم الذاتي » .

فأنتم ترون أن الكولونيل روزفلت كان مصحوباً برفقاء سوء على الدوام ، وأنه قد ملئ سوء ظن بالمسلمين . وهذا ماجعل لهجته في خطبه وأحاديثه غير مرضية للمسلمين ، ولا موافقة للحقيقة . فتح المستر روزفلت باب الكلام في هذا الموضوع عندما شرف الصحافيين المصريين بمقابلته . وقد ذكرت له أن الإسلام دين التسامح المطلق ؛ يجعل لأبناء الوطن الواحد حقوقاً متساوية . ومن أجل ذلك عاش المسلمون والمسيحيون في مصر مدة

ثلاثة عشر قرنا ؛ يتجاورون فى المنازل ، ويترافقون فى الأعمال ترافق العائلة الواحدة ، وأنهم يدخلون منازل بعضهم ، ويطلعون على عورات بعض ، للروابط المتينة التى بينهم . ولا يفصلهم عن بعضهم إلا الجامع والكنيسة وقت الصلاة .

فهل كان يحفظ الأقباط فى ذلك المدى الطويل احتلال انجليزى أو تسلط مسيحى ؟ لقد كنا نشك كثيراً فى رواية « نيويورك إيفنن چورنال » لو أن الكولونيل روزفلت لم يلق ذلك الدرس القاسى على المصريين ، ولم يشر فى خطبته بالجامعة إلى أن مصر لاتصلح للحكم الذاتى ، إلا بعد مرور أجيال عليها .

وأما بعد هذا الحادث فإنا نرى رواية ذلك الكاتب أقرب إلى الحقيقة ، وتكون كلمته (وهذا الأمر يحدث ثانية لو أعطيت مصر الحكم الذاتى) نتيجة من نتائج انخداع الكولونيل برفقاء السوء الذين يبتلى بمثلهم عظماء الرجال فى بعض الأحيان .

على أثر هذه الخطبة برح الكولونيل روزفلت القطر المصرى . وعند نزوله من ميناء الاسكندرية إلى سفينة «البرنس هنريك» بعد ظهر يوم الأربعاء ٣٠ مارس سنة ١٩١٠ وجد هذا المنظر المحزن :

وقف جماعة من شبان المسلمين جانباً ، وجماعة من شبان الأقباط جانباً (ونسبة المسلمين من مجموع الأمة المصرية ٩٢ ٪ ونسبة الأقباط ٦ ٪ والباقى من الطوائف الأخرى والنزلاء) . وأخذ الأولون ينادون « ليسقط روزفلت » والآخرون « ليحي روزفلت » . وكان هذا هو المنظر الأخير فى وداعه ، والنتيجة الأخيرة لسياحته ! .

أقبل عليها وأهلها يتدافعون لاستقباله وإجلاله ، ورحل عنها وهم فريقان يتدابران . ولولا أن عقلاء الفريقين ــ المسلمين والأقباط ــ أخذوا يجاهدون فى محو ذلك الأثر السىء الذى تركه بينهم ذلك الزائر الكريم لساءت العاقبة !

لو أن روزفلت رجل مثل غيره من الرجال ، أو كان شأنه واقفا عند حد ذكائه ونباهته ، ومواهبه العالية الذاتية لقلنا أصاب أو أخطأ . وليس ثمت شيء وراء هذا . ولكنه رئيس الولايات المتحدة سابقا . ومن المحتمل القريب أن يكون رئيسها مرة ثانية . فعمله ليس خاصا به . ولا قاصراً عليه، بل الجمهورية العظيمة التي وضعته فوق منصة حكومتها زمنا طويلا تحمل جزءاً كبيراً منه .

* * *

هكذا كانت سياسة الشيخ علي يوسف تقوم على المنطق ، ومقارعة الحجة بالحجة . فقد كان الشيخ معتدلا بطبيعته ، لا يرى العنف سبيلا إلى استرداد حقوق البلاد . بل إن هذا العنف لقد يرديها في أخطار لم تكن لها في الحساب».

بل هكذا كانت حياة السيد علي يوسف الصحفية حرباً باردة بينه وبين الاحتلال البريطاني في مصر ؛ لا تفوته فرصة من فرص الجهاد من أجل مصر والاسلام إلا اقتنصها ، ولا تمر به مناسبة من مناسبات الخير العام إلا انتهزها . وكانت صحيفة المؤيد معرضا لكل ذلك . ومن ثم أصبحت هذه الجريدة اليومية بعد زمن قصير ضرورة من ضرورات الحياة المصرية في تلك الفترة ، وعنصراً هاما من عناصر كيانها القومي .

وإن أنس لا ننس ما كتبه الشيخ علي يوسف في موضوع دانشواي . فقد بلغ ما كتبه يومئذ في ذلك الموضوع ثلاثاً وعشرين كلمة كما قدمنا ، ناقش فيها الانجليز مناقشة قوية وهادئة . فعملت هذه الكلمات عملها في الأوساط السياسية على اختلافها . ولكن قلم الزعيم الشاب مصطفى كامل كان صاحب الفضل الأكبر في إثارة الرأي العام الأوروبي ضد الانجليز في هذه الحادثة — على النحو الذي سنراه مفصلا عند الكلام عن هذا الرجل ، في جزء خاص به من أجزاء هذا الكتاب ، بمشيئة الله .

(وبعد) فيجمل بنا — بعد كل ما تقدم — أن نأتي على آراء بعض الكتاب الأوربيين في الشيخ علي يوسف وسياسته بإزاء الاحتلال البريطاني .

تحدث الأستاذ المستشرق براون الذى كان بمصر فى سنة ١٩٠٥ عن سياسة كرومر بإزاء الصحافة المصرية والادارة المصرية فقال :

« على أنه مهما كانت مزايا السياسة التى جرى عليها اللورد كرومر حكيمة، فلا يغيب عنا أنه قد كان يخشى بقاؤها فى ظلمات الخفاء والجمود ، فلا تأتى بالفائدة المقصودة منها . لو لم يوجد بين المصريين أنفسهم من أدرك تلك المزايا الحكيمة فى تلك السياسة القويمة ، فجرى عليها ، وجعل منافعها ممكنة بمساعيه .

ولكن التوفيق أوجد مثل هذا الرجل . ففى سنة ١٨٨٧ ظهرت لأول مرة فى القاهرة جريدة عربية أسبوعية صغيرة اسمها (الآداب) . واشتهرت فى وقت قصير ، نظراً لما ظهر فى كتابة مقالاتها من المقدرة والكفاءة . فأخذت تنمو وتنتشر ، وتنال إقبال الشعب الاسلامى ... وعرفوها جريدة خاصة بالمباحث العلمية والأدبية والدينية . حتى اذا كانت سنة ١٨٩٠ أنشأ صاحبها مع آخر جريدة (المؤيد) اليومية . وبعد مضى زمن استقل صاحب (الآداب) بملك جريدة (المؤيد) وإدارتها ، ومن ذلك الحين تقدم المؤيد تقدما سريعا . ولما كان لسان حال علماء الأزهر أدرك المنزلة التى لا يزال حائزاً عليها ، وهى أنه زعيم الجرائد العربية الاسلامية ، ليس فى مصر وحدها ، بل فى العالم الاسلامى بأسره .

وقد ظهرت جرائد مختلفة بعد ذلك من حين إلى آخر معارضة للمؤيد، أو مزاحمة له ، فلم تفلح واحدة منها فى التأثير على منزلته وأوليته .

إن صاحب المؤيد ومحرره الشيخ على يوسف هو الذى أعطى جريدته هذه المنزلة من التقدم ، وحافظ عليها من أول نشأته حتى الآن . وهو رجل واسع الاطلاع على جميع العلوم التى تجعله فى مصاف علماء الدين. ولا يعرف من اللغات إلا اللغة العربية . فهو بصفته صحافيا وصاحب مقالات افتتاحية لا يعد فقط فى طليعة صحافيي الشرق . بل هو فى ميزته الخاصة هذه ربما لا يطاوله

مطاول بين صحافيي العالم . قال عنه الدكتور هارتمن فى كتابه (الصحافة العربية فى مصر) ما يأتى :

إن لجريدته نفوذاً يخشى ويرجى . يقرؤها المسلمون بارتياح وسرور ، فيجدون فيها ما ترتاح إليه نفوسهم ، وتقر به عيونهم . إنهم يطلعون فيها على آرائهم الخاصة مكتوبة بلغة جمعت بين الجزالة والسهولة والكلمات المختارة . أو هم يتوهمون أنهم يقرأون فيها آراءهم الخاصة ؛ لأنه بلغ من حيلة الصحافى وبلاغته فيها أن القارىء يجرى معه فى قراءة آرائه ، فيتصور أن آراء الكاتب هى آراؤه الخاصة .

ثم إن هذا الرجل قد جمع بين إصالة الرأى ، وردع النفس عن هواها . وهو صبور همام كثير الثياب . وكفى بهذا البيان رسماً صحيحاً لرجل لا بد أن يكون له نفوذ عظيم كصحافى فى كل مجموع . ولكنه أعظم نفوذاً بين شعب كالمصريين ، لا يكلفون أنفسهم كثيراً عناء التفكير الخاص . والحق يقال إنه خدم أكثر من أى عشرة رجال ، نقدر أن نسميهم لهداية الرأى العام الإسلامى فى مصر وتكييفه . وهو كالمؤرخ الجبرتى عربى الأصل . وأما فى شخصه فهو رجل متأصل ، متحفظ ، يعيش معيشة هادئة ، كثير المطالعة والدرس ، نفور من الدعوى والمباهاة على اختلاف أنواعهما . ومع ذلك فهو مفطور على الذكاء الخارق فى ممارسة الأشغال . وإنما أحرز بجريدته مالها من المكانة بجريه الثابت على السياسة التى اختطها لنفسه عند أول شروعه فى العمل ، وهى سياسة حب الانصاف ، والرغبة فى ترقية مصالح الاسلام ومصر .

ولقد اضطر من حين إلى آخر إلى تحمل العداء الظاهر من طبقات الناس المختلفة التى كان يحاول خدمتها . لأنه كان يقدم على المدافعة عن مشروعات ومبادىء غير محبوبة لديه ، متى رأى بحكمته أنهما مشروعات وآراء نافعة . ومع كل هذا لا يزال الأوروبيون يزعمون أنه متعصب ، وصاحب دسائس

ومع أن الشيخ علياً يعلم حقيقه المنافع التى أجزلها الاحتلال الانجليزى للبلاد ، فهو مضطر بصفته مسلماً أن يقارن بين المنافع المذكورة من جهة ، والمضار التاريخية ، لامن وجود الانجليز فقط ، بل من نفوذ الدول الأوروبية عموما — من جهة ثانية . ولما كان غرضه الدائم الإنصاف والتؤدة ، وكان مفطوراً على عدم التهيج ، مع اعتدال فى بيان آرائه ، كان هو الصحافى الأول والوحيد فى مصر الذى سعى فى السنوات العديدة بثبات وأمانة وحسن نية وراء بث روح الوفاق بين الشعب وأولياء الأمور الانكليز . وقد عرف المصريون فيه كل هذا من زمن بعيد .

نعم — إن عدداً قليلا زعموا أحيانا أن الانكليز قد اشتروه بمالهم . ولسوء الحظ أن الأفرنج قصروا عن إدراك ماهية هذا الرجل وسياسته . فباتوا ايتناولون بعض فقرات من جريدته ، وربما كتبها كاتب أجنبي عن الجريدة . فيعتمدون على تلك الفقرة ، ويمثلون الرجل متعصبا مثيراً للفتن والقلاقل (١) .

هكذا صور لنا هذا الفصل من فصول الكتاب صاحب المؤيد بصورة الرجل الذى آمن بخير الاحتلال . ولكن إيمانه بالدين والوطن جعله لايمتنع عن وصف شروره وآثامه . وهكذا جرت سياسة الشيخ على يوسف — كما صوره لنا صاحب هذا الفصل الذى تشير إليه — على حب الانصاف والرغبة فى ترقية مصالح الاسلام ومصر . ومن هنا استطاع الشيخ على يوسف — على حد قول براون — أن يخدم مصر أكثر من عشرة رجال يمكن أن نسميهم لهداية الرأى العام الاسلامى فى مصر وتكييفه . ومعنى ذلك كله أن سياسة الشيخ على يوسف — فى رأى هذا الكاتب — إنما تصدر عن عقلية واقعية لا تنكر الواقع الملموس ، ولكنها لا تظهر الرضى به ، وإنما تسعى جاهدة للانتقال به إلى أحسن منه .

---

(١) جريدة المؤيد — العدد ٥٢٧٥ بتاريخ ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٠٧ . وانظر كتاب بونابرت فى مصر — الفصل الثامن عشر .

والحق أن سياسة الشيخ علي يوسف إنما كانت تقوم على الاعتدال في كل شيء . وهي بالقياس إلى سياسه الزعيم الشاب مصطفى كامل قد لا ترضى طموح الشباب الذين لا يتأثرون بالواقع الملموس قدر ما يتأثرون بالأخيلة البعيدة ، والآمال العريقة التي تترنح بها أعوادهم الرخصة اللينة .

مهما يكن رأي هذا الكاتب أو غيره من الكتاب الشرقيين والغربيين في الشيخ علي يوسف ، فالذي لا شك فيه أن هذا الرجل كان نكبة على الاحتلال البريطاني ، ولعل أشد ما مني به الاحتلال ورجاله في مصر تلك الفصول التي كتبها الشيخ بعنوان : (مقالات قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء) . وهي فصول أعجب بها الشعب المصري ، ونالت من نفوس أفراده موقعاً . وجمعها بعضهم في كتاب خاص بها . فلابد لنا من أن نفردها ببحث خاص في الفصل التالي .

الفصل الخامس

على يوسف وحزب الاصلاح على المبادىء الدستورية

تحدث الخديو عباس عن الروح الوطنية وعن نشأة الأحزاب المصرية فقال:

« إن الروح الوطنى قد تحدد وتجلى بوجه خاص فى عهدى . وقد ظهر ذلك الروح فى إخلاص أكثر زعمائه جلدا وبلاغة — مصطفى كامل. يومذاك كنت أمسك بيدى عنصرى الوطنية المتفرقين المتنافرين . الحزب المحافظ ، أو حزب أعيان البلاد الذى يأتمر بأمر الشيخ على يوسف ، وحزب الشباب المتطرف بزعامة مصطفى كامل. وكان معنى الوطن عند كل من هاتين الجماعتين مختلفاً عنه عند الآخر . فهما لا يستطيعان تحقيقه فى صورة موحدة ، ولا فى لحظة واحدة . وقد أدركت بعد قليل استحالة ضم الفريقين، وصار لزاماً على أن أسعى عند كل منهما سعياً خاصاً به . وكان هذا هو ماجعل البعض يقول: إنى كنت أقوم بلعبة مزدوجة. ولكن على العكس من ذلك كنت أبغى أن أتجنب ما وسعنى ترك هاتين القوتين المتنافستين إحداهما بإزاء الأخرى. وكنت أحرص قبل كل شيء على ألا تبدر منى بادرة تفضيل قد تثير غيرة تجعل أحد الحزبين ينهض لعداوة الآخر ، وكان تفضيلى مع المعتدلين ، ولكننى كنت أفهم المتطرفين . ولم أستخدم لنفسى لا هؤلاء ولا هؤلاء ، ولكن الجميع كانوا يرفضون مبدأ الاحتلال الإنجليزى غير المحدود بأجل ، فكنت من صميم قلبي مع هؤلاء وهؤلاء .

وقد كان موقفى سبباً فى أن يقـــال إننى لم أكن مخلصاً لا للوطنيين ولا للإنجليز [1] » .

(انتهى)

---

(١) جريدة المصري بتاريخ ١١ مايو سنة ١٩٥١ .

مهما يكن من شيء. فمنذ أواخر سنة ١٩٠٦ نشطت حركة تأليف الأحزاب المصرية، وكانت يومئـــذ ثلاثة: حزب الأمة. فالحزب الوطني، فحزب الإصلاح على المبادىء الدستورية.

وقد ابتدأ تأليف هذه الاحزاب فى أكتوبر سنة ١٩٠٦. وانتهى فى سبتمبر سنة ١٩٠٧. وكان أولها فى الظهور حزب الأمة، ثم تلاه حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية وأخيراً ظهر الحزب الوطنى. والمهم أن نقول هنا عن هذه الأحزاب الثلاثة أنهـا نشأت فى احضان الصحافة. ففى دار الجريدة لمحررها لطفى السيد نشأ حزب الأمة. وفى دار المؤيد نشأ حزب الإصلاح، وفى دار اللواء نشأ الحزب الوطنى وهو غير الحزب المعروف بهذا الاسم منذ سنة ١٨٧٩. ولا بأس من ذكر برامج الأحزاب الثلاثة على سبيل المقارنة:

أما حزب الأمة:

وهو أول الأحزاب المصرية ظهوراً كما قلنا فقد ألفه كل من محمود سليمان (باشا)، وحسن عبد الرازق (باشا)، وذلك فى ٢١ سبتمبر، حين كان الخديو غائبا فى أوربا. وكانت (الجريدة) التى يشرف عليها الأستاذ أحمد لطفى السيد لسان حال هذا الحزب. وحين أعلن عن هذا الحزب خطب فى الأعضاء أحمد لطفى السيد نائبا عن محمود سليمان (باشا) الذى تخلف لأسباب صحية. فأوضح عن أغراض الحزب وعن المنهج الذى يسير عليه.

«وقد كان الخديو عباس يخشى أن يكون لسعد زغلول (باشا) وأخيه أحمد فتحى زغلول (باشا) يد فى تأليف هذا الحزب لذلك سألنى مرتين — بأوربا — عن ذلك، فأجبته بأنه لم يظهر لى أن لهما علاقة به[1]».

وكانت تتلخص مبادىء هذا الحزب فى مواد منها:

١ — معاضـدة حركة التعليم، ونشره بكافة الطرق، وجعله إجبارياً فى الأولى والابتدائى.

---

(١) مذكرات أحمد شفيق (باشا) الجزء الثانى القسم الثانى ص ١٢٦ وما بعدها.

٢ – الحصول على حق البلاد الطبيعي فى الاشتراك مع الوزارة فى وضع القوانين والمشروعات العامة، وتوسيع اختصاص مجالس المديريات، ومجلس شورى القوانين تدرجاً إلى إيجاد مجلس نواب.

٣ – توسيع نطاق الجمعية الزراعية توصلا إلى تقدم البلاد الزراعى. وعدم إهمال الصناعة والتجارة، والسعى لترقيتهما.

« وبعد حضور الخديو من أوربا دارت عدة أحاديث بينه وبين رجال معيته فى شوون هذا الحزب. وقد ظهر بعد ذلك أن لسعد (باشا) يداً فى تأليفه، وأنه يعمل سراً مع أخيه فتحى (باشا) لتقوية نفوذه».

« وقد علمنا أن اللورد كرومر كان من المعضدين لقيام هذا الحزب، إذ كان يتوسم فيه مناهضة سياسة عباس ومقاومتها».

وتمضى مذكرات الخديو عباس الثانى فى الحديث عن الأحزاب المصرية فتقول:

« كان الحزب الوطنى فى بادىء الأمر – حزب المثقفين – مكونا من جماعتين مختلفتين: إحداهما ترأسها الأميرة نازلى تحت نفوذ اللورد كرومر. والأخرى يقودها رئيس مجلس الوزراء السابق رياض (باشا). وعلى (باشا) مبارك وزير المعارف. وقد وجهها إلى السياسة الزعيم الشيخ على يوسف الذى سيؤسس فيما بعد أول جماعة من كبار الأعيان وكبار السن. وفى أكتوبر سنة ١٩٠٧ نهض لمحاربة الحزب الوطنى حزب لا خفاء فى أنه يتلقى الوحى من اللورد كرومر، ويغلب على الاحتمال أن يكون خاضعاً لأوامره. وكان ذلك «حزب الأمة» الذى أسسه محمود سليمان (باشا)[١]. وكان يملك صحيفة، هى «الجريدة» التى كان يتزعمها الأستاذ لطفى (بك) السيد. وقد كان سعد (باشا) زغلول هو الرأس المفكرة وراء هذا الحزب وتلك الجريدة فى مستهل عهدها. وكان قد تلقى دروسه الأولى فى السياسة بإشراف الأميرة الخديوية نازلى

(١) يفهم من ذلك أن أعضاء حزب الأمة كان من رأيهم العمل على تخليص مصر من السيادة العثمانية. ولعلهم بسبب ذلك كانوا مقربين من الانجليز.

سليلة محمد على ، والموالية مع ذلك لانجلترة . وإنه لتطور أساسى ذلك الذى جعل من هذا الفلاح ابن الفلاح بطل الاستقلال الوطنى بذلك الإخلاص المطلق الذى اتسم به من قبل نشاط مصطفى كامل فى الحزب الوطنى (١) » .

يفهم من ذلك أن الحزب الوطنى كان له وجود فعلى قبل أن يعلن عنه الزعيم الشاب مصطفى كامل . بل أن (الحزب الوطنى) كلمة كان يطلقها المصريون والأوربيون على جميع المشتغلين بالسياسة فى مصر . وكان هؤلاء الساسة يلتقى بعضهم ببعض فى النوادى الخاصة ؛ ومن أهمها فى ذلك الوقت ناديان أو صالونان ؛ هما صالون الأميرة نازلى فاضل ، وصالون رياض (باشا) ومعه على (باشا) مبارك .

فأما الحزب الوطنى :

فكان برنامجه واسعاً يغرى أصحاب النفوس الطامحة ، ويرضى المتطرفين من الشباب المتحمس . وقد تألف برنامجه هذا من جملة مواد ، أهمها ما يأتى :

١ ـ استقلال مصر كما أقرته معاهدة سنة ١٨٤٠ ذلك الاستقلال الذى يضمن عرش مصر لأسرة محمد على ، مع الاستقلال الداخلى عن تركيا .

٢ ـ إيجاد دستور فى البلاد بحث تكون الهيئة التنفيذية مسؤولة أمام مجلس نيابى عام السلطة كالمجالس النيابية فى أوربا

٣ ـ احترام المعاهدات الدولية والاتفاقات المالية التى ارتبطت بها الحكومة المصرية لسداد الديون ، وقبول مراقبة مالية كالمراقبة الثنائية ما دامت مصر مدينة لأوربا ، إذا طلبت منها ذلك .

٤ ـ الصراحة فى انتقاد الأعمال الضارة ، وتشجيع الأعمال النافعة للحكومة المصرية .

٥ ـ العمل لنشر التعليم على أساس وطنى صحيح ، بحيث ينال الفقراء منه أوفى نصيب .

---

(١) جريدة المصرى بتاريخ ١١ مايو سنة ١٩٥١ .

٦ — ترقية الزراعة والصناعة والتجارة .

٧ — بث الشعور الوطنى فى الشعب ، وإفهامه حقوقه الوطنية،ودعوته للائتلاف والتساند بين عنصريه .

٨ — العناية بالشؤون الصحية .

٩ — بث روح المحبة بين المصريين والأجانب .

١٠ — تقوية العلائق بين مصر والدولة العلية .

١١ — الدعاية لمصر فى الخارج، ونفى كل شبهة عنها يلصقها بها خصومها .

حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية :

« وعلى أثر تأليف الحزب الوطنى ظهرت فكرة تكوين الحزب الذى رأى الشيخ على يوسف صاحب المؤيد إنشاءه وقتئذ . خصوصا وق شعر الخديو بأن الحزب الوطنى قدتوسع فى برنامجه بما لايناسب الحالة الج بدة — حالةالوفاق بين سموه وبين السير ألدون غورست ، أى أنه لابد ن قيام حزب يؤيد سموه ، ويكون عاملا من عوامل التوازن » [1] .

عندئذ تألف هذا الحزب الثانى من الأحزاب المصرية — بعد لحزب الوطنى . وكان تأليفه فى إبريل ، أعنى بعد أن تألف حزب الأ بنحو ستة أشهر . وسمى (حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية) . وق تألف برنامجه من جملة مواد منها :

١ — تأييد السلطة الخديوية فيما منحتها الفرامانات الشاهانية لا قلال مصر الإدارى .

٢ — الاعتماد على الوعود والتصريحات التى أعلنتها بريطانيا عظمى عند احتلالها القطر المصرى ، ومطالبتها بتحقيق هذه الوعود .

---

(١) مذكرات شفيق (باشا) . الجزء الثانى — القسم الثانى — ص ١٢٦ .

٣ — المطالبة بمجلس نيابى مصرى يكون تام السلطة فيما يتعلق بالمصريين والمصالح المصرية .

٤ — أن يكون التعليم الابتدائى عاما ومجاناً .

٥ — أن تكون اللغة العربية لغة التعليم فى جميع المدارس المصرية .

٦ — أن تعطى الوظائف فى المصالح المصرية للوطنيين بمقتضى الكفاءة والاستحقاق ، مع تقليل عدد الأجانب بقدر الإمكان ، حتى يتأتى للمصريين أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم فيما بعد .

٧ — أن تكون محاكمة الأجانب جنائياً امام المحاكم المختلطة ، كما هم يتقاضون أمامها اليوم فى الحقوق المدنية والتجارية والمخالفات وذلك إلى أن يتم توحيد المحاكم المصرية لجميع سكانها تحقيقا لأعظم مبدأ فى إقامة العدل بين سكان البلد الواحد ، وهو المساواة أمام القانون .

وقد نصت المادة الرابعة من القانون الأساسى لهذا الحزب أنه لا يجوز له خلط الدين بالسياسة ترويجا لها . ولكن له الحق فى إبداء رأيه فى إهمال المصالح الدينية . ونقدها بما يؤدى إلى إصلاح إدارتها كعمل ضرورى للهيأة الإجتماعية [١] .

يقول أحمد شفيق (باشا) فى مذكراته :

« وبعد تأليف الأحزاب الثلاثة اشتدت المنازعات بينها ، لا سيما بين الحزب الوطنى وحزب الإصلاح . وكانت جريدتا اللواء والمؤيد ميداناً لهذا النزاع الذى وصل فى كثير من الاحيان إلى حد المهاترة ، والاتهامات الخطيرة ؛ حتى لقد اتهمت المؤيد مصطفى كامل بأنه إنما يقلد عرابى » [٢]

---

(١) جريدة المؤيد — عدد ٥٣٣٧ بتاريخ ١٩٠٧/٢/٩

(٢) وكان السيد مصطفى لطفى المنفلوطى ممن تجردوا للرد على مزاعم اللواء ونقد مصطفى كامل وذلك فى مقالات له نشرها فى جريدة المؤيد تحت عنوان (الصحافة فى أسبوع). وذلك فى أعداد كثيرة من أعداد سنة ١٩٠٧ .

وكتب مراسل (التيمس) بتاريخ ٢٠ نوفمبر كلمة عن الأحزاب المصرية جاء فيها مايلي :

« إن الحرب الصحافية التي درات رحاها بين مايُدعى أحزاب الوطنيين (يريد حزب مصطفى كامل وحزب علي يوسف) لاتزال قائمة بحدة وشدة :

أما الحزب الوطني الرسمي الذي تألف سنة ١٩٠٦ فقد انقسم قسمين : حزب المتطرفين برياسة مصطفى كامل ، وحزب المعتدلين برياسة علي يوسف [١] . وإنك لا تجد فرقا بين ماعرضه هذان الصحفيان المتناظران من المشروعات الإصلاحية . ولكنهما اختلفا في أمر واحد ، وهو أن مصطفى كامل يطلب جلاء الانجليز عن مصر في الحال ، وينتقد المحتلين ورجال الحكومة المصرية الحاضرة بلهجة عنيفة . أما مناظره — وهو أوفر منه حكمة ، وأكثر خوفا ونظراً في سوء العواقب — فإنه يرى الآن ، أو يتظاهر بأن مسألة الجلاء خارجة عن دائرة السياسة الممكن تنفيذها . وينكر على زعيم المتطرفين وأنصاره حدة لهجتهم ولكن يصح أن يقال إن المؤيد والمنبر — وهما لسان حال المعتدلين — قدأظهرا تعقلهما السياسي وحكمتهما ، بسعيهما أخيراً وراء إيجاد تفاهم أفضل وأنفع مع الأمة المحتلة .

وأما حزب الأمة الذي تألف حديثا فإنه حتى الآن لم يقم بعمل يستحق الذكر . ولعله أقرب إلى المحافظين في تأثيره على طبقة الملاك ، وطبقة الموظفين ، والشبان والطلبة . فان من اهتم من هؤلاء بالسياسة كان مناصراً لمصطفى كامل الخ [٢] » .

---

(١) أخطأ المراسل الصحفي في ذلك . لأن الشيخ علي يوسف لم يكن يوما ما منضما إلى الحزب الوطني . أو لعل المراسل يريد أن يشير إلى أن الحزب الوطني كان له وجود قبل ظهور مصطفى كامل .

(٢) هذا الحديث لمراسل التيمس مأخوذ أيضا من مذكرات شفيق (باشا) .
ولا يغيب عن ذهن القارىء أن هذا الراسل أخطأ أيضا في فهم صاحب المؤيد لمسألة الجلاء فإن صاحب المؤيد كان يرى الجلاء الناجز ، كما يظهر ذلك من قانون حزبه أولا ومن خطبة الافتتاح التي سيأتي ذكرها بعد ذلك .

وكتب (سياسى كبير) مقالا فى جريدة المؤيد يصف السياسة البريطانية ويصف موقف الأحزاب المصرية منها — فقال :

« . . أما الحزب الوطنى المعتدل — يريد حزب الشيخ على يوسف — فيقول بعض رجاله : إن مصر بالنسبة لانجلترا (كمفتاح الخزانة) . وقد كان بين تقاليدها القديمة أن تأمن الدولة العثمانية على هذا المفتاح . ففقدته الدولة — أول مرة — فى عهد نابليون بونابرت ، فردته لها انجلترا . ثم فقدته — مرة ثانية — فى زمن محمد على (باشا) ، فردته لمصر كذلك . ثم فقدته — مرة ثالثة — فى زمن العرابيين . فأرادت أن ترده لها أيضا ، ولكن بشرط بسيط تأمن به عليه فى المستقبل . وهو ما ذكره البند الخامس من معاهدة (ولف) ونصه :

يحق لانجلترا احتلال مصر بمساعدة العساكر العثمانية ، إذا وقع اختلال بها ، أو أخشى أن ترسل دولة أجنبية عساكرها إليها .

وأبدت الحكومة العثمانية ذلك . فاضطرت انجلترا أن تغير تقاليدها المذكورة ، مع المحافظة على وعودها . فرأت أن تأمن الأمة المصرية نفسها على هذا المفتاح ، وأخذت تساعدها فى إصلاح أمورها لتؤهلها للقدرة على ذلك ، تاركة السلطة النهائية بيد الخديو وحكومته ، حتى لقد كان المرحوم توفيق (باشا) — فى آخر أيامه — هو الحاكم الحقيقى لمصر .

ولكن وقعت بعد ذلك دسائس أجنبية ، وتطرفات وطنية قلبت مجرى الأعمال من حال إلى حال ، فأصبحت انكلترا إزاء أمة معادية كانت تعدها لأن تكون صديقة محالفة . فغيرت تقاليدها فى المرة الثالثة ، وقررت أن تبقى (المفتاح) فى يدها . ولم تبق إذن حاجة لبقاء السلطة الحقيقية فى يد حكومة مصر ، فنزعتها منها .

لا لوم على رجال الدولة العلية أولا ، ولا لوم على رجال مصر ثانيا ، فى إخفاق الاتفاق مع انجلترا ، لأنهم إنما فعلوا ذلك مسوقين بأيد وآراء كانوا يظنونها لهم ، وهى فى الواقع عليهم . فهم معذورون وإن أخطأوا .

وإنما المسئول عن كل ما ألم بهذه الديار هي (فرنسا) التي لعبت بالكل على الكل في هذه المسألة ! فوضعت هذا الحل الأخير من أول الأمر نصب عينيها ، ثم ساقتهم جميعا إليه . وهذا أمرها في مراكش اليوم شاهد عليها .

ثم قال (السياسي الكبير) — وأكبر الظن أنه زعيم حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية .

إننا والحزب المتطرف اختلفنا في المقدمات واتفقنا في النتيجة . وهي أن الانجليز ينوون البقاء لا الجلاء . غير أننا نختلف أيضاً في طريقة إبدال هذا البقاء بالجلاء . فهم يرون القوة ، ونحن نرى الاتفاق . بل نرى أن حلّ المسألة بالقوة يشبه أن يكون حقيقة إلا أنه خيال ، وأن الاتفاق يشبه أن يكون خيالا إلا أنه حقيقة »[1] .

* * *

نشرت المؤيد (القانون الأساسي لحزب الاصلاح على المبادىء الدستورية) كما قدمنا . وأعلن صاحب المؤيد عن أعضاء حزبه يومئذ ، وهم :

الشيخ على يوسف رئيساً

وأحمد حشمت باشا وحسن رفقي باشا وكيلين

وأحمد حافظ عوض أفندي مديراً للأعمال

ومحمد مسعود أفندي سكرتيراً

ويوسف بك صديق أميناً للصندوق

ومحمد حسن باشا ، ويعقوب صبري بك ، وأحمد تيمور بك ، والسيد عبد الحميد البكري ، وإلياس عوض ، والسيد أحمد على الحسيني ، والسيد أحمد رافع ، وخالد بك سعيد ، ومحمد سعيد عبدالمنعم أعضاء .

واجتمعت الجمعيه العمومية لهذا الحزب في يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٠٧ وخطب الشيخ على يوسف خطبة طويلة ، نشرتها جريدة المؤيد في اليوم التالي

---

(١) جريدة المؤيد — العدد ٥٣١٠ بتاريخ ١٩٠٧/١١/٣ بامضاء سياسي كبير — ولعله السيد على يوسف نفسه . كما قلنا ومن هنا نظر المصريون والإنجليز الي صاحب المؤيد على أنه من المعتدلين الواقعيين ، لإيثاره طريق الاتفاق ، وتحاشيه سبيل العنف . (المؤلف)

وملأت هذه الخطبة من حيز هذه الجريدة صفحات ثلاثا جاء فيها قوله (١):

أيها السادة :

إننا قد أنشأنا هذا الحزب لغرضين كبيرين :

الأول : تكوين رأى عام بين المصريين مبنى على المبادىء المذكورة . . وهى المبادىء التى قبلتموها شعاراً لكم فى الوطنية ، والتى نؤمل أن يقبلها السواد الأعظم من الأمة ، ويتخذها شعاراً له مثلكم .

والغرض الثانى : السعى فى تنفيذها وبذل الجهد فى أن تكون الاعمال فى إدارة البلاد منطبقة عليها . أومنسوجة على منوالها . . لقد كانوا يقولون إذا انتقدت الصحف الوطنية عملا ، أو أبدت رأياً ، أو طلبت مطلباً ، أو أبانت عن حاجة للأمة فى وقت من الأوقات إنها صحف أفراد ، لا صحف جماعات ، وآراء أشخاص لا آراء أحزاب . فليدلونا على الطريق الذى يجب أن يسلكه المصريون لتصوير آرائهم فى صورة محترمة . ولعلهم يطعنون على حزبنا هذا بما يدلنا غدا على وسائل كماله ، حتى يكون يوماً ما على أكمل صورة للأحزاب السياسية الكبرى فيؤدى أسمى وظيفة لها .

أيها السادة :

إن حزبكم هذا ليس كالأحزاب التى أعلن عن وجودها فى بلادكم ، فهو لم يظهر للوجود حتى تكوّن تكوناً حقيقياً على طريقة الاحزاب السياسية فى البلاد التى نحذو حذوها ، ونحاول أن نبلغ شأوها فى المدنية والارتقاء . وفضلا عن هذا فإن حزبكم يمتاز عن سواه بأن له أصدقاء كثيرين فى انجلترا يثق بهم ويثقون به ، أولئك هم الذين يريدون أن يخدموا مجد بريطانيا العظمى باحترام كرامتها ، وحسن سمعة نفوذها خارج بلادها . وهذه المزية

---

(١) جريدة المؤيد — العدد ٥٣٥١ بتاريخ ١٩٠٧/١٢/٢٦ .

تجعل علينا واجباً آخر ، وهو أن يكون الصدى الذى يسمع لحزبنا فى البلاد الخارجية ، وفى انجلترة على الخصوص قوياً وشريفاً ، حتى يخرق الأسماع القاسية ، بقوة الحق والبرهان » .

ثم بدأ زعيم الحزب يشرح المبادىء السبعة التى نصت عليها المادة الثالثة من القانون الأساسى ، وهى المبادىء التى ذكرناها فى أوائل هذا الفصل .

« وإنه لعنينا المبدأ الثانى من تلك المبادىء خاصة ، وهو الاعتماد على الوعود والتصريحات التى أعلنتها بريطانيا العظمى عند احتلالها القطر المصرى ، ومطالبتها بتحقيقها وفاء بها » .

وهنا سرد الزعيم سبعة وعشرين وعداً من هذه الوعود والتصريحات منسوبة إلى قائليها ، فكأن هذه الوعود شهود على الاحتلال الانجليزى ، وحجة عليه لا له .

ونحن نكتفى من جميع هذه التصريحات ببعضها ، ومنها :

وقال اللورد جرانفيل ناظر الخارجية الانجليزية فى رسالة برقية بعث بها إلى (السير ادوارد ماليت) بتاريخ ١٩٨١/١١/٤ (راجع الكتاب الأزرق والوقائع المصرية فى ١٥ نوفمبر) :

« إن ساسة حكومة جلالة الملكة لاترمى إلا إلى غاية واحدة ، وهى أنها تحافظ على الحرية التامة التى نالها الخديو بموجب فرمانات متعددة . وإنا لنرغب أن نوطد فى مصر أركان الاستقلال الإدارى الذى ضمنه لها السلطان . فإذا رغبت حكومة جلالة الملكة فى إضعاف هذه الحرية فإنها تكون قد جرت على ما ينافى تقاليدها المعروفة عنها فى التاريخ وفى الرابطة التى تجمع بين مصر والباب العالى سلامة الأولى من التداخل الأجنبى . فإذا عرا تلك الرابطة ما يزعزعها أصبحت مصر بين حين وحين عرضة لطمع الطامعين » .

وقال السير ماليت قنصل انجلتره فى مصر ، وكان قد قابل جلالة السلطان الأعظم يوم ٢١ سبتمبر سنة ١٩٨١ :

« وحكومة جلالة الملكة لا تقصد إلا توطيد سلطة الباب العالى ، وتأييد حقوق الخديو ، فهى لا تريد أن تحتل مصر ، ولا أن تضمها إلى أملاكها يوماً ما » .

وقال غلادستون رئيس الوزارة الانجليزية فى خطبة له بمجلس العموم يوم ١٤ يونيو سنة ١٨٨٢ (كما جاء فى الكتاب الأزرق بتاريخ ٣ يوليو سنه ١٨٨٢ .

« ليس لبريطانيا العظمى أدنى مطمع فى مصر ، فلم تبعث اليها بالجند إلا لإعادة الأمن وإرجاع السلطة التى فقدها الخديو . وهى عاقدة نيتها الأكيدة على أن تجعل الحكم النهائى فى المسألة المصرية بيد الاتفاق الأوروبى » .

وقال هذا الوزير فى خطبة له فى حفلة محافظ لندن يوم ١٩/٨ / ١٨٨٢ :

« إننى أرفع صوتى وأشهد أمام العالم المتمدن أن مصالح انجلتره فى مصر ليست خاصة بها . وإنما هى للعالم أجمع . ألا — وأن انجلترة لم تذهب إلى مصر إلا لإنقاذ أهلها من الظلم العسكرى ، وإن انجلترة قصدت القطر المصرى ويداها طاهرتان ، وليس فى صدرها ما تكتمه عن الدول من أسرار . ولذلك حق لها أن تطالب بثقتهن وانعطافهن » .

وقال اللورد غرانفيل فى منشوره إلى السفراء بتاريخ ٣ يناير سنة ١٨٨٣ : (كما فى الكتاب الأزرق) :

الجنود البريطانية مرابطة فى مصر إلى الآن محافظة على الراحة العامة . فإن حكومة جلالة الملكة راغبة فى استدعائها متى سمحت حالة البلاد ، وجرت أمورها على مايوطد سلطة الخديو فيها » .

وقال السير تشارلز دليك وكيل خارجية انجلترة فى خطاب له أمام مجلس العموم يوم ٩ أغسطس سنة ١٨٨٣ :

« أن حكومة جلالة الملكة معارضة فى إلحاق مصر بأملاكها أو فيما

يشبه ذلك من وجوه الفتح ، مرعاة لوعودها التى جهرت بها ، وخوفاً على مصالح انجلترة » .

وقال غلادستون فيما صرح به أمام مجلس العمــــوم يوم ٢٣ يونيو سنة ١٨٨٤ :

« إننا نتعهد بأننا لا نطيل احتلالنا العسكرى فى مصر إلى مابعد أول يناير سنة ١٨٨٨ إذا أعلنت الدول إذ ذاك أن حالة مصر تسمح بجلائنـا دون أن يصيب الأمن العام فى مصر خطر . ولو كان فى نيتنا أن نحقق مساعى الدول من هذا القبيل ، أو أن نعارض طلب الجلاء عنـدما يحين وقته لمـا كان لنا أن نفيض فى الكلام على شرف بلادنا » .

وقال غلادستون أيضاً فى منشوره الانتخابى يوم ١٨ / ٩ / ١٨٨٥ :

« يجب على انجلترة أن تخرج من مصر عندما يقضى بذلك شرفها البريطانى ونحن لن نقبل مطلقاً ما يشاع عنا من أن فى النية ضم القطر المصرى إلى أملاكنا ، أو وضع حمايتنا عليه ، أو إطالة مقامنا فيه إلى ماشاء الله .

إن السياسة الإنـكليزية فى مصر قائمة الآن على وهم . فأحسن مايجرى فى مثل هذه الحالة هو أن نضع حداً لتداخلنا فى هذا القطر » .

هكذا كان زعيم حزب الاصلاح يطالب بالجلاء ، ويعتمد فى ذلك على أسانيد تاريخية قيمة . وقد حمل نفسه مشقة الاستيعاب التام لهذه الأسانيد ، حتى تـكون شفيعاً له أمام الجمهور فى إيثار سياسة الاتفاق مع الانجليز فى حل القضية المصرية ، ولـكى يدلهم على أن هذه السياسة زعيمة بحل هذه القضية التى لاتحتاج فى رأيه إلى العنف ، كما يدعو إلى ذلك حزب آخر فى البلاد ، هو الحزب الوطنى .

ومضى زعيم حزب الاصلاح فى خطبته فقال :

أيها السادة :

يقولون لنا : من أنتم حتى تؤيدوا هذه السلطة فى البلاد (يريد السلطة

الخديوية ؟) وأمام من تؤيدونها ؟ وجوابنا أننا جزء من الأمة المصرية التى أيدت رأس العائلة الخديوية تأييداً كاملا يوم لم يكن مؤيد له سواها . هذه الأمة التى عند ما اغترت بقوتهـــا ، وانحرفت عن سلطتها الشرعية بعض الانحراف أصبحت تلك السلطة الخديوية فى حاجة إلى مؤيد آخر لها . فكان الاحتلال الأجنبى الذى دخل بحجة تأييـدها ، ولا يزال يقول أنه باق لهذا الغرض مع غيره من الأغراض .

إن بلادنا قضى عليها أن تخطىء خطيئة كبرى ، فنيت بالاحتلال الأجنبى عقوبة لها . وقد كان يظن فى أول عهده أن أمده سيكون قصيراً ، نظراً للوعود والتصريحات الكثيرة التى وعدت وصرحت بها انجلترة عند احتلالها هذا القطر ، وبعده بقليل . ولـكن — ها قد مضى على احتلالها ربع قرن من الزمان ، ولم تبد علامة ما لقرب الجلاء . بل أن اللورد كرومر صرح فى خطبة له يوم وداعه بأن الاحتلال باق إلى ما شاء الله . وبون شاسع بين الوعود والتصريحات الأولى ، وكلمة اللورد الأخيرة . ولـكننا نجد تلك الوعود السابقة عهوداً علنية عاهدت بها الدولة الانكليزية الفخيمة نفسها وغيرها من الدول العظمى على الجلاء يوماً ما . ونجد كلمة اللورد كرومر نفثة مصدور نفثها فى وقت هاج به غضبه ، وكثيراً ما يقول الغاضبون . فلا توزن هذه بتلك ، ولا يمكن أن تكون هذه الكلمة ناسخة لتلك الوعود والتصريحات ، بل تلك العهود المعطاة للعالم تحت ضمانة الشرف البريطانى .

* * *

غير أن الشيخ على يوسف كان يعتمد فى زعامته السياسية على قلمه أكثر من اعتماده على لسانه ، وعلى قدرته الصحافية ، وحسن فهمه للمسائل السياسية أكثر من قدرته الخطابية . وفضلا عن ذلك لم يكن الشيخ مهيأ من الناحية الجسمية للنهوض بأعباء زعيم سياسى لا بد له من أن يوطن نفسه بين حين وحين لملاقاة الجماهير ، وإثارة الشعور ، وتنظيم المظاهرات ، ونحو ذلك .

فى ذلك ، وفى الصلة بين عمل على يوسف ، وعمل مصطفى كامل يقول الخديوى عباس الثانى فى مذكراته التى نشرتها جريدة المصرى [٢] .

« ولكن الشباب الذى أصابت حجج (المؤيد) هوى فى نفسه لم يكن بعد يعرف الحماسة . فان وطنية على يوسف لم تكن قد فتنته فتنة خاصة . ولعل الرجل لم تكن له الصفات البدنية التى تكوّن مروّضى الجماهير ولكن نخبة البلاد كانت قد اهتمت بحملته ، وصارت لذلك متأهبة لتلقى التعاليم الجديدة التى تسمح لهذه الحملة أن تظهر على المسرح ، وتحمل إلى رسالة التحرير المشتركة حيوية قراراتها ، وقوة منطقها المقنعة .

كانت الأرض قد حرثت ، وكان العاملون على قدم الاستعداد للبدء ، وكان على العناية التى تسهر على الشعوب ، كما تسهر على الأفراد أن ترسل إلى مصر باذر حبّ الوطنية المنتظر : مصطفى كامل » .

---

(١) بتاريخ الاحد ١٣ مايو ١٩٥١ .

الفصل السادس

على يوسف ومقالات

قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء

كان الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤ نكبة حقيقية على مصر ، فمنذ يومئذ خلا وجه هذا الوطن للإنجليز ، وأحسوا أنهم انفردوا به بعد زوال هذا المنافس الخطير — وهو فرنسا . ومنذ يومئذ أحس جبار الاحتلال بأنه الحاكم المطلق فى البلاد . فلبس للمصريين جلد النمر ، وظهر لهم على مسرح الحياة العامة ملكا لا منازع له فى ملكه ، ولا معقب لحكمه . وظهر أثر ذلك فى التقارير الرسمية التى اعتاد أن يكتبها كل سنة . فبعد أن كانت التقارير السابقة لعـــام الاتفاق هينةً بعض الشىء ، رقيقةً نوعا ما ، أصبحت تقاريره بعد عام الاتفاق تمتاز بالجبهة،والغلظة ، والقسوة والجفوة ، والغضب ، والحقد ، وما شئت من معانى السطوة والجبروت . أو معانى الكبر ، والاستعلاء ، وإهدار كرامة الضعفاء .

ومنذ ذلك الحين ثقلت وطأة الجبـار على المصريين ، وتربصوا به الأحداث ، لعل واحدة منها أن تحكم باجتياحه واستئصاله .

ثم سافر اللورد إلى انجلترا ، ولكنه سرعان ماعاد منها إلى مصر . وكانت عودته يوم الأربعاء ٢١ اكتوبر سنة ١٩٠٦ ، فانتهزت الجرائد المحلية فرصة عودته ، وأخذت ترشُقُه بمقالات تنقد فيها سياسته ، وتبدى فيها للعالم صفحتَه ، كان من أولى تلك الصحف المحلية إذ ذاك (صحيفة المؤيد) . وفيها كتب السيد على يوسف ست مقالات ، نشرها تباعا ، فكانت أولاها يوم الأربعاء ١٤ اكتوبر سنة ١٩٠٦ ، وأخراها يوم الثلاثاء ٢٠ اكتوبر

من نفس هذه السنة . واتخذ لها عنوناً عاما ، هو « فى قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء » .

ثم فى عام ١٩٠٧ أعدت الحكومة البريطانية العدة لاستدعاء اللورد كرومر نهائياً إلى انجلترا ، وتعيين السير ألدون غورست مكانه فى مصر ، واستوثقت الصحف الوطنية من صحة هذا النبأ الأخـــير ، فطفقت تكتب المقالات التى يشتم منها ريح الحقد على اللورد ، والشماتة به ، وبما آل اليه من هذا المصير ، بعد أن ظن أن الزمن قد صفا له ، وأن القـدر قد سالمه ، وأن الدهر قد أعطاه مصر طعمة .

إذ ذاك جرى قلم الشيخ مرة أخرى بسبع مقالات ، تبع بعضها بعضا ، ونشرتها جريدة المؤيد بين يومى ٢٢ ابريل و٣٠ ابريل من نفس هذه السنة ، وهى سنة ١٩٠٧ .

ثم استعد اللورد للرحيل ، ودبر الأنصار لتوديعه حفلا أقيم لهذا الغرض بمسرح (الأوبرا الخديوية) . وخطب اللورد خطبته الطويلة المعروفة ، وذلك فى الرابع من شهر مايو .

وانبرت الصحف الوطنية للرد على هذه الخطبة الخطيرة ، وكان من أشدها على صنائع الاحتلال رد المؤيد . إذ ذاك جرى قلم الشيخ مرة ثالثة بمقال طويل ، رد فيه على اللورد رداً مفحماً ، حتى لقد أبلس الرجل وصنائعه ، بينما صفق له الرأى العام فى مصر ، وانهالت على الشيخ على يوسف كثير من الرسائل البرقية والبريدية من شتى أنحاء القطر ، مستحسنة رده ، مهنئة له أصدق التهنئة [1] .

---

(١) من ذلك أن أحد الوجهاء — وهو أحمد نجيب الجواهرجي — بعث إلى الشيخ بهدية ثمينة لتكون تذكارا لمقالته التى رد بها على اللورد كرومر . وتألفت هذه الهدية من دواة من الفضة بقلم ذهبي ، وبجانبها أقلامها ، وختامتها ، ورملتها ، ونشافتها ، كلها من الفضة المموهة بالذهب (انظر كتاب مقالات قصر الدوبارة ص ١٠٢)

ثم رأى بعض الصحفيين ــ استجابة منهم للجمهور ــ أن يجمعوا كل هذه المقالات والردود فى كتاب ، وأذن لهم صاحب المؤيد فى ذلك ؛ فتألف لهم منها كتاب بعنوان « مقالات قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء » . وهو الكتاب الذى نريد أن نعرضه الآن على القراء كنموذج كامل لصحافة السيد على يوسف .

لكن ــ ليس معنى ذلك أن قلم الشيخ لم يجر فى محاربة الاحتلال البريطانى بغير هذه المقالات التى نتحدث عنها . لا ــ بل إن قلم الشيخ كان سيفا مصلتاً على عنق الاحتلال زهاء خمس وعشرين سنة من حياة مصر ، لم يفتر فى أثنائها عن المناهضة حينا ، والمناصحة حينا آخر . غاية الأمر أن هذه المقالات الثلاث عشر ، ومعها الرد الذى كتبه الرجل على خطبة اللورد جاءت تباعاً ، وفى ظرف خاص ؛ هو ذلك الظرف الذى رغبت فيه الحكومة البريطانية فى تغيير سياستها منذ حدوث ذلك الحادث المعروف باسم (حادث دنشواى) عام ١٩٠٦ . وهو الحادث الذى عصف بحياة اللورد ، وأوقع الحكومة البريطانية نفسها فى حرج أمام مجلس النواب البريطانى . فاستقر الرأى هناك على عزل اللورد كرومر .

والحادث بسيط فى حد ذاته ، فقد خرج ضابط انجليزى مع رفقائه لصيد الحمام فى قرية دنشواى من قرى المنوفية . فاصطدم هنالك بالفلاحين الذين ضربوه ، ففر منهم هارباً فى حمارة القيظ . فمات فى الطريق غير أن كرومر اتخذ من هذه الحادثة الفردية أساسا لطائفة من التهم العريضة التى اتهم فيها المصريين بالتوحش والتعصب الدينى ، إلى الحد الذى يخاف منه على حياة الأجانب المقيمين فى مصر .

وإلى هذه الحادثة المشهورة يشير شاعرنا المصرى المعروف حافظ (بك) ابراهيم بقوله من قصيدة طويلة أربت على ثلاثين بيتا . ومطلعها :

قصر الدوبارة هل أتاك حديثنا　　فالشرق ريع له وضج المغرب

ومنها قوله مخاطباً كرومر :

نقلت لنا الأسلاك عنك رسالة　　باتت لها أحشاؤنا تتلهب
ماذا أقول وأنت أصدق ناقل　　عنا ولكن السياسة تكذب
أنقمت منا أن نحس وإنما　　هذا الذى تدعو إليه وتندب
إن ضاق صدر النيل عما هاله　　(يوم الحمام) فان صدرك أرحب
أو كلما باح الحزين بأنّة　　أمستْ إلى معنى التعصب تنسب؟
رفقا عميد الدولتين بأمة　　ضاق الرجاء بها وضاق المذهب
رفقا عميد الدولتين بأمة　　ليست بغير ولائها تتعذب
إن أزهقوا صيادكم فلعلهم　　للقوت لا للمسلمين تعصّبوا!
ولربما ضن الفقير بقوته　　وسخا بمهجته على من يغضب!
فى (دنشواى) وأنت عنا غائب　　لعب القضاء بنا وعز المهرب
حسبوا النفوس من الحمام بديلة　　فتسابقوا فى صيدهن وصوبوا
نُكبوا وأقفرت المنازل بعدهم　　لو كنت حاضر أمرهم لم ينكبوا!
جلدوا ولو منيتهم لتعلقوا　　بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا
شنقوا ولو منحوا الخيار لأهلوا　　بلظى سياط الجالدين ورحبوا
يتحاسدون على الممات وكأسه　　بين الشفاه وطعمه لا يعذب
موتان هذا عاجل متنمر　　يرنو وهذا آجل يترقب الخ (١)

ومن هذه الحادثة المشهورة خلق الزعيم الشاب مصطفى كامل فضيحة كبرى للانجليز، نشرها فى أرجاء العالم المتمدن، وأوغر بها صدور الشعب الانجليزى وحكومته، وأسقط بها اللورد كرومر من عرشه، كما سيأتى الكلام عن ذلك فى موضعه من هذا البحث إن شاء الله.

---

(١) نشرها المؤيد بالعدد ٤٩٩٥ بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٩٠٦.

ونعود إلى مقالات (قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء) فنرى المجموعة الأولى منها ، وعدد مقالاتها ست تنشر بالعنوانات الآتية ·

الطوب والقلوب

حرية : مراقبة وتقييد

حكومة نيابية

تعديل الديكريتو

أحوال المستشارين

التعليم ونظارة المعارف

فأما مقالة (الطوب والقلوب) فهكذا بدأها الشيخ :

« يوم الأربعاء القادم يعود جناب اللورد كرومر إلى القطر المصرى ، وقد نقص عدد سكان البلاد أربعة من الرجال ، قضوا فى (دنشواى) شنقا، وكانوا حتى يوم سفر اللورد إلى انكلترا أحياء يرزقون. لكن السياسة لاقلب لها. وجناب اللورد سياسى محنك مشهود له ، فهو لا يشعر بهذا النقص التافه الذى طرأ على أمة يربو عددها على اثنى عشر مليونا .

إلا أن السياسة التى لا قلب لها ولا حنان ، لها فى الوقت نفسه قلب يتأثر من الفشل والخسارة . ومن هذا القبيل ينتظر أن يتأثر جناب اللورد عند وصوله ، لأنه سيجد فى البلاد نقصا كبيراً من هذه الوجهة » .

ثم طفق الشيخ يشرح وجوه هذا النقص الذى سيشعر به اللورد عند وصوله . فسيجدهذا اللوردشعباً ضائقاً به، نافراً منه «لأن السلطة الانكليزية ضربت مصر بيد من حديد فى حادث تعتبره الأمة من أبسط حوادث الاعتداء والخصام ، وهو حادث دنشواى » . ثم لم يكفها ذلك حتى طفقت تصور الأمة المصرية بصورة الأمةالمتوحشة التى غلب عليها التعصب الدينى، بحيث أصبح يخشى على نزلائها من فتك أفرادها بهم .

حدث كل ذلك فى غياب اللورد كرومر عن مصر . وإذ قد عاد إليها فان الوطنيين يبادرونه بهذا السؤال :

« هل يريد جناب اللورد أن يعطى حكومته طوب مصر ، أم هو يريد أن يجمع حولها قلوب المصريين ؟ » .

فأما إن أراد الإنجليز طوب مصر فعليهم بالعسف ، وإذلال الشعب ، وازدراء عاداته ، والنيل من قوميته . وأما إن أرادوا قلوب المصريين فعليهم أن يغيروا من خطتهم ، وألا يرموا المصريين بطائفة من الموظفين الانجليز ، ليس لهم حظ من جلال العمر ، ولا وقار الشيخوخة ، يسومون المصريين سوء العذاب ، ويمارسون فيهم أول درس من دروس السياسة والرياسة ، ويلتذون برؤية شيوخ المصريين وسراتهم وأكابرهم وقوفاً بين يدى شاب منهم ، خرج أمس فقط من حصن المدرسة !

* * *

وفى المقالة التى عنوانها (حرية: مراقبة أو تقييد) استهلها الشيخ بقوله:

« فى القطر المصرى الآن سلطة قوية قادرة : هى الصحافة الوطنية ، لا أدعى لها الكمال ، ولكنى أقول — ولا أخشى لومة لائم — إنها قوة قادرة ، وكلمة نافذة ، وصوت يخترق الأسماع ، ويؤثر على القلوب . قد تخطىء أحيانا ، ولكنها تصيب غالبا . وللأمة تعلق بها ، وميل إليها ، وثقة بآرائها ، واعتماد على صحة وطنيتها » .

ثم قال : « وخلاصة ما يقال عن أهمية الصحافة الوطنية فى مصر إنها — على علاتها — السلاح الوحيد الذى يأباه الاحتلال . فأنت تعلم أن الاحتلال استولى على كل نفوذ فى كل دائرة من دوائر الأحكام بواسطة المستشارين ، ولم يبق حراً فى مصر غير الصحافة ، فهى موضع أمل المصرى فى شدته وكربه ، ينقل بواسطتها شكواه ، ويعلن رضاه » .

علم اللورد كل ذلك وأقر بفضل الصحافة المصرية ، ولكنه بعد حادث

دنشواى خاف شر الصحافة ، وأراد أن يئدها ويقتلها ، فاتهمها أولا بأنها كاذبة ، وأنها أبرع جرائد العالم فى اختراع الأراجيف .

وهنا نرى صاحب المؤيد يوجه الخطاب بدهائه المعروف إلى اللورد كرومر قائلا له : أن تقييد الصحافة وإلغاء حريتها — بعد حادث دنشواى — لا يتفق وخطة اللورد القديمة قبل حادث دنشواى . ألم يحاول بعض أعداء المؤيد أن يحملوا اللورد على إسقاطه ، فقال لهم اللورد كلمته المشهورة :

« إن إسقاطه لا يكون إلا بأحد أمرين ، إما إيقاع صاحب المؤيد فى مكيدة يكون بها القضاء على جريدته ، وإما إلغاؤها بطريقة استبدادية . والأول لا ترضاه ذمتى ، والثانى لا يرضاه البرلمان الانجليزى ؟ » .

هكذا كان الوطنيون فى مصر يخافون سطوة اللورد إذا رجع اليهم بعد حادث دنشواى . وأخوف ما كانوا يخافونه على أنفسهم أن تمتد يده إلى إيذائها عن طريق الضغط على الصحف ، وهى الأداة الباقية لهم للتعبير عن آرائهم ، والمطالبة بحريتهم واستقلالهم .

* * *

وفى المقالة الثالثة وعنوانها (حكومة ذاتية) افتتحها الشيخ بقوله :

« إن الصوت الذى يسمعه جناب اللورد كرومر بعد رجوعه من مصيفه — صوت مصر تنشد لنفسها حكومة دستورية نيابية — ليس صوتا جديداً لم يسمعه اللورد من قبل . وليس هو بخاطر طاف الآن فقط على نفوس المصريين ، ولا هو مطلب تنزع إليه مصر محاكاة للفرس أو الروس أو الترنسفاليين الآن ، ولا تشبها بالانكليز والفرنسيس والألمان وغيرهم ، بل هو ميل قديم فى المسلمين ، فطروا عليه منذ نشأتهم .. لأن الشورى من قواعد أحكام الشريعة الاسلامية فى إدارة شئون الأمة .. تلك الشورى التى وجدت فى الاسلام قبل أن توجد فى انكلترا الدستورية المنظمة .

وإن فمصر تطلب فى سنة ١٣٢٤ هجرية ، نظاما وضع أساسه الاسلام قبل وجود التاريخ الهجرى فى حساب العالم » .

وبقى الشيخ يطالب بالدستور بلهجة فيها عنف ما ، وفيها سخرية ما ، وفيها قدر كبير من المنطق والبرهان ، وفيها تذكير قوى للانجليز بوعودهم السابقة للمصريين منذ عام ١٨٨٢ . ثم قال لهم : «ما هو الضرر الذى يخشاه الاحتلال الانجليزى من منح مصر حكومة ذاتية ، وقد منحت انكلترا هذا النظام للترنسفاليين الذين أثخنوها بالأمس جراحا ، وأزهقوا أرواح الألوف المؤلفة من أبنائها ، حتى ملئت بدمائهم السهول ، وحتى أفرغوا خزائن انكلترا من المال ؟ » .

فإذا كان الانجليز صادقين فى رغبتهم فى الإصلاح ، فليستعينوا عليه — لا بمستشاريهم الذين لا يعلمون شيئا عن مصر وأهل مصر — ولكن بمجلس نيابى يضم خيرة المصريين العارفين ببلادهم ، والمدركين لوجوه الإصلاح التى تحتاج إليها بلادهم » .

«أما الادعاء بأن مصر إذا نالت حكومة نيابية ألقت بنفسها فى أحضان الدولة العلية ، فهو ادعاء يقصد به ذر الرماد فى العيون ليس إلا » .

« إن الحكم الصحيح لا يعتمد على الرجال بقدر ما يعتمد على النظام ؛ ذلك أن الرجال معرضون للغضب والرضا ، وللصواب والخطأ . أما النظام فبمنأى عن كل ذلك » .

« فإذا شاء المصلح أن يكون مصلحا إلى الأبد ، فليترك وراءه نظاما صالحا لا يقدر المفسدون بعده أن يهدموه . وهذا ما يريده اللورد كرومر فى مصر ليذكر فى أعقابها من أفضل المصلحين» الخ .

***

ثم فى المقالة الرابعة التى عنوانها (تعديل ديكريتو سنة ١٨٩٥) رأينا صاحب المؤيد ينقد هذا النظام ، ويضع يده على موضع الخلل فيه . والنظام الناقص لا ضمان له من الرجال . بل الرجال أنفسهم يكشفون عن نقصه فى ظروف غضبهم ، وتحت ضغط من أهوائهم ونزعاتهم . وإذ ذاك يؤمن

الناس بهذه الحكمة التي تقول « الظلم كامن في النفس : القوة تظهره والضعف يخفيه » .

«وفي حادثة دنشواي تجلت قوة الإنسان وضعف النظام بأكمل وجوهها . فظهرت صورة القوي مطلقا لنفسه العنان في الانتقام ، وظهرت صورة الضعيف شوهاء مظلمة متلاشية . . وتلك كانت وظيفة المحكمة المخصوصة ، ومنفذي حكمها ، بمقتضى دكريتو سنة ١٨٩٥ » .

« فعلام توجد هذه المحكمة المخصوصة بل « الدائرة المخصوصة » لأنها دائرة الدوائر التي تدور على المصري ، وفي البلاد محاكم منظمة يحاكم فيها كل وطني اعتدى على أحد ، حتى على مقام ولي الأمر ؟ » .

وهنا دعا الشيخ إلى إلغاء هذا القانون (أو الديكريتو) قائلا إن المحكمة المخصوصة والعدل ضدان لا يجتمعان . ففيم الحرص عليها إلى الآن ؟

هل يريد اللورد أن تمضي عشر سنوات أخرى ليظهر له خطأ هذا القانون الذي وجدت المحكمة المخصوصة بمقتضاه ؟

* * *

أما المقالة الخامسة وعنوانها (أحوال المستشارين في إدارة الحكومة الخديوية) فيها عقد الشيخ موازنة بين المستشارين الإنجليز والنظار المصريين ، وهي موازنة محزنة حقا « لأن مركز النظار في حكومة غير نيابية يختلف عنه كثيراً في حكومية نيابية . فهم في الأولى وكلاء الحاكم المطلق ، وهم في الثانية وكلاء الأمة ، وسطاء بينها وبين الملك » .

ولكن النظار في مصر على هذه الحال : «كل ما في أيديهم مطابع صغيرة يطبعون بها الأوراق التي تعرض عليهم من قبل المستشارين ، أو رؤساء الأقلام الخاضعين للمستشارين مباشرة . وقد لا يجسر الواحد منهم على قراءتها ، حتى لا يناجي نفسه برأي في موضوعها » .

ثم أبدى الكاتب عجبه مرة أخرى من جناب اللورد كرومر ، كيف شاءت

حكمته أن يتخذ مستشاريه فى مصر من الشبان الذين لم ينالوا بعد شيئا من التجربة ، وكيف لم يجد من رجال مصر من يصلحون أن يكونوا مستشارين له فى دواوين الحكومة على اختلافها ؟ ثم قال :

« وإذا كان لابد من وجود المستشارين ، فلماذا لا يكون لقب الموظف مشيراً إلى حقيقة منصبه ؟ . . لماذا أصبح هذا اللقب علماً على كل القوة الفعالة فى الحكومة المصرية ، حتى غرس فى عقول الأمة من كبير وصغير، وقارىء وأمى أن الأمور مرهونة بإرادته : فالعرائض لا تقدم إلا إليه ، وإن رفعت إلى النظار كانت من قبيل الاستشهاد ، كما ترسل صورها إلى الجرائد . فالناظر مع المستشار كالصفر على اليسار » ! .

ثم تعجب الشيخ بعد ذلك من هذه الوصاية التى فرضها اللورد على مصر عن طريق مستشاريه ، ومن أن هؤلاء « يقضون الأعوام الطويلة فى مصر، فلا يتصلون فى أثنائها بأحد من المصريين ، ولا يعرفهم أحد منهم ، لا لشىء سوى أن المستشار يشمخ بأنفه حتى على رجال الأمة وأعيانها » !

ألا يقدر اللورد فى نفسه ما لهذه الفوضى الادارية من أثر معنوى سىء غاية السوء فى نفوس المجتمع المصرى على اختلاف طبقاته ؟ فلقد « أصاب حلوق الناس شجاها ، واستفز سخيمة الأنفس اللئيمة هواها ، وكان من وراء هذه الأحقاد النفسية التى تشعبت فى طبقات الأهالى المختلفة ما نراه اليوم من الفوضى العامة فى البلاد ، ولا يزال ضرعها يدر بالفساد بعمل أولئك الصنائع الذين هم أقرب إلى المستشار من كل أحد » .

وختم الشيخ مقاله بالنصيحة لجناب اللورد أن يقف من الأمة المصرية موقف الطبيب الماهر ، لا الطبيب الجاهل ، فيعمل على أن تحصل هذه الأمة على دستور نيابى يكون أساساً للاصلاح الإدارى المنشود . فذلك أولى به من رمى المصريين بعدم الكفاءة ، وذلك منذ « أصبح من القضايا البديهية

عند الانكليز أن كل عيب أو ضعف فى الادارة المصرية منشؤه صفات فى العاملين من المصريين ، أو فى طبيعة الأمة المصرية» .

* * *

وأخيراً تأتى المقالة السادسة والأخيرة من المجموعة الأولى . وعنوانها (التعليم ونظارة المعارف) . وقد استهلها الشيخ بجملة للورد كرومر اقتبسها من تقريره عام ١٩٠٣ ؛ هى قوله « إن التقدم فى المعارف يتوقف على كون نظام التعليم وافيا بحاجات الأمة على اختلاف طبقاتها » .

ثم هجم الشيخ على موضوعه دفعة واحدة فقال :

« إن سياسة التعليم التى جرت عليها نظارة المعارف المصرية ، وينفذها المستر دانلوب بغلظة وصلابة هى أن تكون المكاتب الابتدائية رافعة لأمية الذين يتعلمون فيها القراءة والكتابة بقدر الإمكان .

والحكومة توهم بأنها راغبة فى نشر التعليم الصناعى ، وهمتها فى ذلك واهنة ، وغاية التعليم الثانوى والعالى عندها واحدة ؛ هى إعداد الفئة اللازمة لخدمة الحكومة من الشبان ليس إلا . فالتعليم الرسمى هنا يقتصر على حاجة الأمة من بعض وجوهها ، لا كلها . ويقصر نفعه على فريق قليل منها . فلا يشمل كل الطبقات . وقد نادى مجلس شورى القوانين حتى بح صوته فى سنين كثيرة ، يطلب من الحكومة عرض لوائح التعليم العامة عليه ، ليبدى رأيه فيها ، فتقتصر الحكومة فى الجواب على أنه : ليس من اختصاص مجلس الشورى نظر لوائح التعليم » .

« وإنها فظاظة لا معنى لها . فالأموال التى تنفق على التعليم من خزينة الحكومة هى أموال الأمة ، والأموال التى تؤخذ أجرة للتعليم من آباء التلاميذ هى أموال الأمة . والموظفون الذين يفرضون على زمام إدارة التعليم فى نظارة المعارف إنما يأخذون مرتباتهم من أموال الأمة !

وكلما ارتفع صوت أعضاء المجلس بطلب النظر فى برامج التعليم قيل لهم بلسان دانلوب :

«إننا لا نراكم أهلا لأن تنظروا فى نظام تعليم أنتم جهلاء به : فلا تطلبوا ما لستم أهلا له ».

ومعنى هذا ، أن الحكومة لا تريد إلا ما يريده قصر الدوبارة من سياسة التعليم وقصر الدوبارة بمثابة وصى على قُصَّر أغنياء ليس لهم مجلس حسبي يراقب أعمال الوصى ، ويجعل حداً لرشدهم . فلا الوصى يحب أن يخرجهم من هذه الوصاية ، ولا القصر قادرون بذواتهم على الخروج . ولا رقيب فوق الوصى يحسب له الوصى حسابا . والسر كله فى العلم والتعليم لأنهما ينبوع رشد القاصرين » .

ثم قال الشيخ :

« وأكبر لعبة أظهرتها سياسة الاحتلال فى التعليم لتبهر بها أبصار الوطنين والأجانب لعبة إنشاء الكتاتيب فى البلاد . والمعيب فى هذه اللعبة أنها أقرب للرياء منها لشرف القصد . ولقد نفذت بطريقة هى الرياء كله إذ ترك لكل مدير أن يتنافس مع زملائه فى حض الأعيان على إنشاء المكاتب الأولية ومن ثم عادت للعمد سلطتهم الأولى فى الضغط على الفقير لاستنزاف جلده قبل جيبه ، فتحول الخير شراً من وجهين : وجه الرياء من جهة ، ووجه الإرغام من جهة أخرى» .

وختم الشيخ مقاله بهذه العبارة :

« والخلاصة أن سياسة التعليم الجارية فى البلاد الآن غير مفيدة لتكوين أمة ينبغ فيها العلماء فى كل فن ، ولا هى سائرة للأمام قدما . لأن التقدم فى المعارف والعلوم يتوقف على كون نظام التعليم وافياً بحاجات الأمة على اختلاف طبقاتها . كما قال اللورد نفسه » .

* * *

أرأيت إلى الشيخ على يوسف كيف التقى وجهاً لوجه بجبار الاحتلال

فى مصر ؟ فأخذ يقرعه حجة بحجة ، وبرهانا ببرهان ، ويقف منه موقف الناصح الأمين والمرشد الصادق ، يريد أن يأخذ بيده إلى الإصلاح المنشود.

أرأيت إلى الشيخ كيف عبر عن ثورته فى هدوء عجيب ، وكيف سيطر على عواطفه سيطرة تامة ؟ وكيف كان يسلط على عدوه العنيد سيفين لا ثالث لهما : المنطق السليم والفهم المستقيم ، وسيف السخرية الخفيفة التى حلت فى مقالاته كلها محل الغضب الجامح والثورة العاصفة ؟

تلك وأمثالها صفات الصحفى الحقيقى ، كما شرحنا ذلك كله فى خاتمة الجزأين الأول والثانى من أجزاء كتابنا « أدب المقالة الصحفية فى مصر » .

مناقشة فى هدوء ، وسخرية فى تلطف ، والتزام دقيق لجانب المنطق ، وتوجيه سليم للأداة الحكومية كلها فى مصر ، ومحاسبة للحكام مشتقة من الواقع المحسوس ، وموازنة محزنة بين قوة المحتلين وضعف المصريين ، وردود قوية على حجج الخصوم من الإنجليز . واعتدال ظاهر فى سياسته معهم ، ودقة بالغة فى التعبير ، واستبطان حقيقى للأمور يدل على قدرة هائلة ، وبراعة سياسية بالغة . هذه صفات تطالع القارىء لهذه المجموعة الأولى من مقالات قصر الدوبارة ، وتتضح له وضوحا تاما من خلال سطورها.

أجل — ربما شعر مصرى فى وقتنا هذا أن الشيخ يوشك أن يستجدى اللورد كرومر حين يسأله حكومة نيابية يشترك فيها المصريون بأنفسهم ، ولكن هذا المصرى حين يقدر العقلية العملية التى يصدر عنها الشيخ من جهة ، وحين يقدر الضعف والإستسلام الذى كان يبدو حتى من ولاة الأمور المصريين أنفسهم منذ الإتفاق الودى سنة ١٩٠٤ من جهة ثانية ، لاشك أنه يلتمس العذر للشيخ فى اصطناع هذه اللغة ، وفى توجيه الخطاب للورد كرومر — وهو صاحب السلطان الحقيقى فى مصر — بهذه الطريقة .

على أن صاحب المؤيد كان لا ينسى مطلقاً أن يذكر المحتلين دائما بأنه إنما يطالب للأمة المصرية المسلمة بإصلاح تدعو إليه الشريعة الإسلامية

القائمة . ذلك أن الشورى فى بلاد كمصر ليست نباتاً غريبا عن أرضها أو تربتها ، وإنما هى نبات ملائم كل الملائمة لجوها وطبيعتها . وهذا هو السبب الذى من أجله ينظر المؤرخون الأوروبيون إلى هذا الشيخ على أنه من دعاة الإصلاح فى مصر ، على أساس الدين الإسلامى .

أما أسلوب الشيخ فى التعبير عن هذه المعانى جميعها فأسلوب يعتمد قبل كل شىء على السهولة والوضوح ، كما يعتمد كذلك على التدقيق فى اختيار الألفاظ التى يعبر بها عن هذه المعانى . وأهم من هذا كله ، وأولى منه بالتفات الناقد النزيه أنه أسلوب يعتمد فيه الكاتب على نفسه ، ولا يميل فيه إلى التسلق على كلام غيره من الأدباء القدامى والمحدثين ، اللهم إلا فى ظروف قليلة ونادرة ، لا يمكن أن يقاس عليها .

الحق أن أكبر مايلفت نظر الناقد عند قراءته هذه المقالات هو إعراض الكاتب هنا إعراضاً يوشك أن يكون تاماعن الأساليب الأدبية الموروثة ، والتعبيرات العربية المعروفة من مئات السنين والعدول عن كل ذلك إلى الأساليب الحديثة أو التى لا عهد للأدب العربى بها من قبل :

(فالوزراء إلى جانب المستشار أصفار على اليسار) ، (وإنشاء المكانب الأهلية لُعبة سياسية)، (وقصر الدوبارة وصىعلى قُصَّر أغنياء ليس لهم مجلس حسبى) ، والكلام كله مطلق أو كالمطلق من جميع القيود التى يتقيد بها فحول الأدب القدماء . ولا وجود فيه للحكمة، أو المثل، أو الشعر ، أو القرآن، أو الحديث ، أو الأدب الفرنسى ،أو الأدب الانجليزى ، اللهم إلا فى مرات قليلة لا تلفت نظر الناقد ، ولا يستطيع أن يتخذ منها سمة من سمات الكتابة. ولهذا الكلام بقية فى الفصل الذى نشرح فيه أسلوب هذا الكاتب خاصة .

* * *

ونعود إلى المجموعة الثانية من (مقالات قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء). فقد استقال اللورد كرومر من منصبه كمعتمد لانكلترا فى مصر ، وخلفه

غورست فى هذا المنصب . وطرب الوطنيون كثيراً لاستقالة الأول . وانتهزت الجرائد الوطنية هذه الفرصة ، لتقوم من جانبها بتوجيه الثانى . وكانت المؤيد أقدر الصحف الوطنية جمعاء على القيام بهذه المهمة الأخيرة .

فكتب الشيخ فى هذا المعنى سبع مقالات تباعا كما قدمنا .

(أولاها) بعنوان : اللورد كرومر ولماذا اختلفوا على إكرامه ؟ ذهب فيها إلى تقرير ماجبلت عليه الأمة المصرية من إكرام ضيوفها إلى حد تجاوز المعروف عند الشعوب الأخرى ، ومن العطف على الأجنبي إلى حد السرف ، ومن التساهل واللين حتى يخيل للطامع فيها أنه يكاد يلويها بيديه . واستدل على ذلك بما قام به المجلس البلدى الاسكندرى من إطلاق اسم الشاعر الإيطالى كردوتشى على أحد شوارع المدينة ، لا لشيء إلا لأن بالأسكندرية جماعة كثيرة من الطليان ، وأن فى (القومسيون البلدى) بعض الأعضاء الطليان . كما استدل على ذلك باستمساك المصريين (بسابا باشا) رئيساً لمصلحة البريد ، مع أنه رجل سورى لا مصرى . ثم تساءل الشيخ :

فما بال الأمة المصرية مختلفة الآن على إكرام اللورد كرومر ، وهو بلا جدال — قد نفع القطر أكثر من سابا باشا ، وأكثر من كردوتشى ؟

ما بال اللورد بعد أن قضى ربع قرن فى مصر ، ترقى فى غضونه من قنصل بسيط إلى صاحب سلطة قيصرية فى قصر الدوبارة ، يغادر البلاد وحوله ضجيج منقسم إلى نغمتين : نغمة الأجانب الراغبين فى تخليد ذكراه بإنشاء نصب له فى العاصمة أو الثغر ، ونغمة الوطنيين . وأقل ما يقال عن مظهر الأمة بين تلك النغمات المختلفة إنها غير راضية عن الرجل . ومن يقل غير ذلك فهو عن جادة الحق الصراح بعيد .

ما السبب فى ذلك ؟

السبب الجوهرى فى ذلك أن اللورد منح مصر — على أكثر ما يعزى له — ثروة ورخاء باليد اليسرى ، وسلبها أسباب رقيها الأدبى باليد اليمنى ،

فسلبها بذلك آمالها فى المستقبل . والآمال زهرة الحياة البشرية فى هذا العالم . وإن اللورد قد منحها ثروة زائلة — ولا يثبت الزائل الزائل — وهى تريد ثروة ثابتة ، ضمانتها الوحدة الوطنية التى يريد اللورد ذهابها من الوجود .

« رأى بعض الحكماء رجلين لا يفترقان ، فسأل عنهما ، فقيل له إنهما صديقان . قال : فما بال أحدهما غنى ، والآخر فقير ؟

فما بال اللورد كرومر ، الذى هو ثمرة أحزم وطنية فى العالم ، بنيت على أشرف مبادىء التضامن الجنسى يريد لنا أسوأ المذاهب فى الوطنية الذاهبة بالمصريين إلى الفقر المدقع من خيرات بلادهم ، ويريد أن تكون للأجنبى على طرف الثمام ؟ » .

« ما بال انجلترا بعد ما كررت مواعيـدها الحلوة المغرية تركت عميدها العظيم فى وادى النيل يختم أعماله بالتصريح : بأن الاحتلال باق فيه إلى الأبد ، وأن وطنية أهليه يجب أن تكون كشكولا ، ليس له فى مجموعات الأمم مثيل؟

هكذا مضى الشيخ ينقـد سياسة اللورد كرومر فى مصر . وهى سياسة قامت على العنف . وأخذ يشدد النكير عليه فى خطته التعليمية التى خدع بها المصريين ، فجعل يشجع التعليم الأولى ، ويعرض إعراضاً تاماً عن كل ماله صلة بالتعليم العالى ، كأن مصر ليست أهلا له . ولم يفعل اللورد فى أثناء مقامه بمصر نحواً من خمس وعشرين سنة أكثر من أنه غرس فى عقول أوربا أن مصر أمة قاصرة متعصبة ، وليس فيها رجال ، ولا تصلح أن تكون أمة بحال من الأحوال .

* * *

(والثانية) من هـذه المقالات — وعنوانها : السياسة الثابتة وكيف تكون ؟ ذهب فيها الشيخ إلى ما تدعيه الدول الأوربية من أنها إنما أتت الشرق لإصلاحه ، وأتى الانجليز خاصة إلى مصر لإعدادها للحكم الذاتى .

وتلك هى السياسة الثابتة التى تجرى عليها انكلترا . وكل ما هنالك — على حد قول كرومر — أن انكلترا تذهب وأخرى تأتى مكانها .

«آمنا بالله وباليوم الآخر ، وأن سياسة الانكليز ثابتة لا تتغير . ولكن ما هى هذه السياسة ؟

« فقد بدأ الاحتلال بوعد صريح بأنه مؤقت، وسينقضى متى استعدت البلاد لأن تحكم نفسها بنفسها . وبعد ثلاث عشرة سنة من الاحتلال أى فى سنة ١٨٩٥ قال اللورد كرومر فى تقريره عن مصر : إن القاعدة الأساسية التى يناسبها الإصلاح فى مصر يمكن تلخيصها فى كلمة واحدة هى : رأس أوروبية وأيد مصرية !

وبعد اثنتى عشرة سنة أخرى — أى ربع قرن من يوم بدأ الاحتلال انتهى اللورد كرومر بأقوال غامضة فى ذلك . ولو أراد أن يلخص قاعدة عمله الذى جرى عليه ، وانتهى إليه الآن لقال : رأس وأيد انكليزية ، وأرجل مصرية » !

فما الذى يريدونه إذن من كلمة السياسة الثابتة ، وماذا يعنون بها ؟ هل يعنون ما صرحوا به مراراً وتكراراً ، وجعلوا شرف بريطانيا العظمى رهن إنفاذه ؟ أو يعنون بها سياسة اللورد كرومر الذى عكس آية ذلك الوعد الشريف إلى ضد مغزاه فيما يتعلق بتربية المصريين ، وتعليمهم حكم أنفسهم ؟ أو يقصدون بها تلك الآراء الغامضة ، والأفكار المختلطة التى تضمنتها وصيته الأخيرة .

يقولون أن سياسة انجلترا ثابتة فهل يلزم من ذلك أن تتكرر أغلاط معتمدها السابق على يد معتمدها الجديد ؟ . .

« إن الله عز وجل خالق هذا الكون هو الذى يغير ولا يتغير ، وهو عليم بذات الصدور » .

* * *

(والثالثة) من هذه المقاولات عنوانها : اختراعات قصر الدوبارة . وفيها يقول :

« حدثت حادثة دنشواى المحزنة ، فصاح أحرار الإنكليز فى البرلمان صيحة أفزعت قلب اللورد ، وبلبلت لسان السير إدوارد جراى ، فلم يجد الأول ما يسكن به ثائرة الأنفس عليه ، وعلى أعوانه سوى أن يلقن الثانى أن المصريين على يقظة تعصب خطير يخشى من شره ، حتى على شمال أفريقية المعرضة لهذه العدوى من مصر . فنادى ناظر الخارجية بذلك وسط البرلمان ، حتى انتفخت أوداجه . ولـكنه زاد فى هذه النغمة حتى راب قومه فى أن التهمة مصطنعة لغرض إسكاتهم فقط » .

وحين أنكرت الأمة المصرية ذلك على بكرة أبيها ، وأنكره النزلاء الأجانب عدل وزير الخارجية عن كلمة « التعصب » إلى كلمة « القلق » .

« والآن قد توج اللورد كرومر هذه التهم بأخطر منها ، وهو إعلانه أن المصريين مجردون من الـكفاءة الطبيعية ، ومصابون بداء عقم أبدى ، منشؤه الجمود الدينى الذى يقف بأهله إلى ما قبل ألف سنة للوراء . ولذلك لا يمكن أن يكونوا — يوما ما — رجالا أكفاء لإدارة شئونهم فى المستقبل » .

ومضى الشيخ يرد على هذه التهم بالحجج المنطقية السليمة ، والدهاء السياسى الذى عرف به . ومن الحجج المنطقية السليمة حجة التاريخ الذى يشهد أن المسلمين عاشوا فى مصر مع القبط ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، لم تحدث فى أثنائها حادثة واحدة تدل على التعصب ، على حين حدثت مئات الحوادث التى من هذا النوع فى أوربا . ومن الدهاء السياسى الذى عرف به الشيخ كذلك جمعه لردود كثيرة على هذه التهمة الخطيرة من أفواه المصريين على اختلاف طبقاتهم ، وتباين أعمالهم ، ومن أفواه النزلاء الأجانب أيضا فى مصر . وكلها ناطقة ببراءة المصريين من هذه التهمة الخطيرة .

«ولم يكتف اللورد بما زعم من سريان عدوى التعصب من مصر إلى شمال إفريقية، حتى قام يدعو الأوروبيين إلى (جامعة صليبية) بدعوى أن المصريين يؤسسون (جامعة إسلامية) فسرها لقومه بأنه يراد بها اتحاد المسلمين فى العالم أجمع لمقاومة الدول المسيحية، وأنه يقتضى لذلك أن تتدبرها جميع الأمم التى لها فى الشرق مصالح سياسية».

وثم اختراع ثالث من اختراعات قصر الدوبارة، وهو عدم كفاءة المصريين. وقد بنى اللورد حكمه عليهم فى ذلك على قاعدتين. الأولى أن العقل الشرقى من حيث هو شرقى غريب فى أشكاله وتصوره. بل هو كما يقول الأستاذ (سايس) : غريب الشكل كعقل ساكن زحل. والقاعدة الثانية جمود دين المسلمين فى مصر. والدين غالب على مزاجهم غلبة تامة. وهذا الدين عبارة عن «مبادئ» وضعت منذ الف سنة هدياً لهيئة اجتماعية فى حالة الفطرة والسذاجة إلخ».

«قاعدتان : صيغت إحداهما من كلمة خيالية للأستاذ سايس، وصيغت الثانية من جهالة ظاهرة بروح الشريعة الإسلامية»...

ومع أن القاعدة الأساسية فى الممالك أن الدين والملك أخوان، لاغنى لأحدهما عن الآخر. فالدين أس والملك حارس. والبناء إذا لم يكن له أس متهدم. والملك ما لم يكن له حارس ضائع».

* * *

(والرابعة) من هذه المقالات عنوانها : الجرائد واللورد كرومر. وتحت هذا العنوان كتب الشيخ هذه العبارة المشهورة لجفرسون :

« أفضل عندى أن أقيم فى بلاد ذات جرائد ولا قانون من أن أقيم فى بلاد ذات قانون ولا جرائد».

ثم عجب الشيخ من أن يقول اللورد كرومر فى تقريره عن مصر سنة ١٩٠٣ «إن خوف التشهير على صفحات الجرائد يمنع كثيراً من الشرور،

ويقلل العيوب التي تعتور نظام الحكومة ». ورأيي الخاص أن خير ما فعلته الجرائد أفاد الحكومة بوجه عام، وأن شر ما فعلته لم يضر ضرراً بليغاً بمصالح البلاد الحقيقية ». ثم يقول: «ولا أظن أنه يمكن ذكر حادثة واحدة في العشرين سنة الماضية تدل على أن حرية الجرائد أضرت بالبلاد ضرراً عظيماً، أو أخرت سير الإصلاح الحقيقي يوماً واحداً ».

يعجب الشيخ من أن يقول كرومر كل هذا الكلام عن الصحافة المصرية في تقاريره عن سنة ١٩٠٣ وسنة ١٩٠٤ وسنة ١٩٠٥، ثم يظهر الغضب كله على الصحافة المصرية بعد ذلك. «وعهدنا بعظماء الرجال مهما نبض في نفوسهم نابض الغضب، بل مهما جاشت به صدورهم أن يكون عندهم من حزم الحلم مايضبطون به ألسنتهم وأيديهم أن تظهر عليها أفاعيله، فلا يسيئون ولا يبطشون، ولا يحكون على المغضوب عليهم حكم الجبارين ».

ما بال اللورد بعد أن أقر بفضل الصحافة المصرية هذا الإقرار يعود فيقول عنها «ولست أتذكر أني قرأت في جريدة منها مقالة واحدة صحيحة المادة، أو حسنة الاستدلال، أو مفيدة في المسائل المالية، أو المعارف، أو النظام القضائي إلخ »؟

ولكنا نسأل جناب اللورد هذا السؤال:

«لماذا اهتم جنابه بهذا الجانب من خطة الصحف المحلية، ولم يهتم بذلك الجانب الذي كان أشد تطرفاً ضد الدولة العلية. وكان يتكلم عنها كعدوة لدودة لمصر، مشرفة على حرب معها؟ فكذلك فعلت (المقطم) و(البروجريه) وغيرهما من الصحف المحاذية للاحتلال. «وكان يظهر من عباراتها أنها تستقي الأخبار ساعة فساعة من الوكالة البريطانية. ونسيت هي أو نسي جناب اللورد أن مصر لم تزل تحت سيادة الدولة العلية، مهما وهنت أعلاق هذه السيادة »..

«واهتم اللورد أيضاً بمنع الجرائد المحلية — إلا ماهي من صنائع الوكالة

البريطانية — من الدخول إلى السودان . تخالف بهذا المنع المبدأ الذى ينادى به على رءوس الأشهاد من ميله إلى تعميم حرية الصحافة » .

« واهتم جنابه بكتمان الأخبار المهمة والنافعة عن الجرائد المحلية . وسارت المصالح المصرية على خطته فى ذلك . فلا ترى فى قلم المطبوعات للصحف المحلية إلا ماهو من قبيل الإعلانات . . . إلخ » .

* * *

(والخامسة) من هذه المقالات — وعنوانها : تقارير اللورد كرومر — يظهر الشيخ فيها للرأى العام المصرى مبلغ التناقض الذى جرت عليه تقارير هذا اللورد قائلا لهم « إن الذى يطلب الثبات على قول واحد من سياسى إنما يطلب من الماء جذوة نار ، وخصوصاً إذا كان هذا السياسى مستعمراً » .

فإذا قالت انجلترا على لسان اللورد إن الاحتلال مؤقت ، فلا عليها أن تقول بعد ذلك إن الاحتلال دائم ولا نهاية له .

وإذا ذهب اللورد فى نقد اسماعيل كل مذهب ، وقال إنه حصر كل السلطة فى يده ، فلا على اللورد أن يتردد فى حصر السلطة كلها فى يده هو .

وإذا مال اللورد يوماً إلى تشجيع الصحافة ، ومنحها قسطا من الحرية ، فلا لوم عليه بعد ذلك أن يبطش بهذه الصحافة ، وأن يحاول تقييدها ما استطاع .

وإذا اعترف اللورد فى بعض تقاريره المبكرة أن مصر وطن للمصريين ، فلا بأس عليه بعد ذلك أن يقول : لا بل هى وطن لجميع العناصر فيها ؛ لهم ما حقوق كل وطنى من وطنه ، بالإضافة إلى بقاء الامتيازات الأجنبية .

ثم لم يكتف اللورد بكل ذلك حتى رمى المصريين بما رماهم به من التهم السابقة . فوقر فى نفوس الأوربيين ، أن المصريين على ما وصفهم به اللورد ، وهم يزعمون أن وراء كل تقرير سنوات كثيرة من الاختبار . وهكذا أعطى اللورد خصوم مصر سلاحاً حاداً يحاربونها به فى كل زمان ، ولو بعد زوال السلطة الكرومرية » .

ثم اتجه الشيخ إلى المعتمد الجديد ــ سير ألدون غورست ــ فسأله هل ينوى المضى على سياسة سلفه ، وهى سياسة العنف ، والقذف ، وكيل التهم للمصريين جزافا ؟ وقال له : لقد كان اللورد كرومر يصفق بيد واحدة ، فهل تنوى أنت أن تصفق بيدين ، أحدهما يدك ، والأخرى يد الأمة المصرية؟ هل ينوى المعتمد الجديد أن يكسر تلك النظارات الملونة التى كان المعتمد القديم يضعها على عينيه ، وأن يضع مكانها نظارات بيضاء ، يرى بها المصريين على حقيقتهم ؟

« ونحن نرجو أنه متى استقر اللورد كرومر فى قصره الإنجليزى ، ورجعت له عواطف الإنكليز الشريفة ، ومبادئهم الإنسانية العالية ، وحاسبته ذمته النقية ، فراجع مجموعة تقاريره عن مصر وجد فيها من منازعات ضميره ما يحمله على الندم ، وتحقق أنه لم ينصف نفسه ، ولم ينصف الأمة التى كتب عنها : لم ينصف نفسه لأننا نحن معاشر المصريين نذكر لجنابه أنه أحسن كثيراً فى الأفعال ، وأساء أكثر فى الأقوال . فكان بمثابة الذى يتصدق ، ويتبع صدقاته بالمن والأذى ، أو بمثابة الذى يطعم الجائع ، ويلعنه فى وقت واحد . ولم ينصف الأمة لأنه ظلمها بما كتب فى تقاريره عن تعصبها وجمودها وفساد طبيعتها ، وبما افترض لها من المضار الاجتماعية التى لا تجتمع فى زمن واحد . إن التاريخ سيمحص تقاريره ، فيجد فيها اختلافا عظيما يدل دلالة واضحة على أن كاتبها كان فى حيرة مما يريد أن يسطر . فيكتب على غير هدى ، ولا اختبار ، ولا علم كاف بحقائق الأحوال » .

. . .

(والسادسة) من هذه المقالات عنوانها : لو كنت اللورد كرومر . وهى من المقالات السياسية البارعة التى كتبها الشيخ على يوسف ومنها قوله:

« لو كنت اللورد كرومر . . لجريت على الخطة الآتية : وهى أن أضع نصب عينى قبل كل شىء درس أخلاق الأمة المصرية وعاداتها وتقاليدها ؛

حتى إذا عرض لى فى المستقبل ما يقتضى التردد بين سياستين اخترت بحكم الخبرة التامة أفضلهما ، وجئت الأمة من حيث استهوى أميالها ، واتخذها عضداً لى فى كل أعمالى » .

ولكن اللورد بدلا من أن يفعل ذلك اتخذ له حجاباً وأعواناً ، وجعل لنفسه منهم عيوناً وآذاناً ، فلم يهتد يوماً ما إلى الحقيقة .

« ولو كنت اللورد كرومر ، وأحطت علماً بكثير من أسرار تقدم الأمم ، وأسباب ارتقائها ، التى من أهمها وأفضلها رفع نير الجهالة عن أعناقها ، لمنحت مصر يداً عالية من التعليم الصحيح . ولو أنه تمكن فى مدى ربع القرن الماضى — وهو أكبر زمن لحضانة العلم فى رأى فلاسفة العمران — من نشر العلم كما يجب ، وتسهيله على ناشئة الأمة كما ينبغى ، لوجد الآن أمة متعلمة فى مجموعها ، أمة عالمة بمصيرها ، لو عارضته كانت معارضتها له خيرا من محاباة الجاهلين » .

« بل لو كنت اللورد كرومر لفعلت ما فعله الأحرار فى وزارتهم الحاضرة . فإنهم بعدما حاربت أمتهم الترنسفال ثلاث سنوات ، وبعدما وضعت الحرب أوزارها ، وألقى البوير سلاحهم بين يدى أعدائهم الأشداء ، لم يروا من مصلحة بريطانيا العظمى أن ينتقموا لها من خصمهم الذى تجرأ على قتلها غير أهل لذلك . وفى أقل من عامين منحوهم استقلالهم الإدارى ، مظهرين لهم ، وللعالم بأسره أنهم لم يحاربوهم منتقمين ، ولا ليجعلوا بلادهم غنيمة للشاردين والواردين .

« أما جناب اللورد فقد جاء مصر بعد فتنة قصيرة لم يذهب فيها من عساكر الإنجليز أكثر مما يذهب فى غرق سفينة اصطدمت بصخرة فى البحر ، ثم أقام فيها مدى ربع قرن يبعد قلوب المصريين عن المحتلين ، ويلاشى الثقة بمواعيد أسلافه وحكومته ، حتى الساعة الأخيرة من وجوده فى قصر ملكه » .

« لو كنت اللورد كرومر لأقمت برهانا واحداً على اقتداري السياسي ، كما أقمت ألف برهان وبرهاناً على اقتداري المالي » ، ولأعددت المصريين إعداداً صحيحاً لتولي أمورهم بأنفسهم ، بدلا من رميهم بعدم الكفاءة لتولي هذه الأمور .

« ولو كنت اللورد كرومر لما ختمت أعمالي في مصر بهذا التقرير الأسود الذي كله تناقض وتحامل وسباب للمصريين ، وقضاء عليهم بالجمود الذاتي ، وغمز لدينهم ، وطعن على أخلاقهم الخ » .

ثم تصور الشيخ أن اللورد كرومر خلا بعد ذلك بالسير ألدون غورست خلوته الأخيرة ، فمضى يقول :

« لو كنت اللورد كرومر لقلت للسير غورست أثناء الخلوة الأخيرة بين التسليم والوداع : نحن هنا لا ثالث بيننا ، وغايتنا معا واحدة ، وهي أن نقدس مصلحة حكومتنا ، ونعزز نفوذها في مصر ، فاتعظ بأغلاطي ، واعلم أن سياسة أربع وعشرين سنة أقنعتني أن السياسة الفضلى هي في محاسنة الأمة ، لا في مخاشنتها ، في اللين لا في العنف » .

« احترم دين هذه الأمة تملك أعنة قلوبها . أكرم رؤساءها تطاطىء لك هامات الشعب احتراماومودة ساعدها على الحكم الذاتي، لأنها أصبحت بفضل رعايتي لها قادرة في الحقيقة عليه . ولا تعارض الرأي العام بصلف وكبرياء ، فإنك لا تستطيع أن تصده إلا باللين وحسن المعاملة » .

« لو كنت اللورد كرومر لكذبت تلك الجرائد التي أوهمت الناس أنها تتكلم بلساني ، وتخاطبهم ببياني عندما قسّمت الوطنية في مصر : إلى وطنية مصرية ، وأوروبية مصرية ، وسورية مصرية (كما قالت المقطم منذ يومين).

* * *

(والسابعة) والأخيرة من هذه المقالات عنوانها : المعتمد الجديد في قصر الدوبارة .

وفيها وازن الشيخ بين المعتمد القديم والمعتمد الجديد . أما الأول فقد جاء مصر وحالها غير حالها اليوم ، فجعلها مدرسته وموضوع تجاربه . ومن كان كذلك فهو كثير التعرض للأغلاط ، كثير الأعذار فيما يسيء . وأما الثانى فقد تلقى دروسه السياسية الأولى فى مصر ،حتى وصل إلى وظيفة المستشار، فأحاط بكل شيء علماً ، ثم غادر مصر إلى وزارة الخارجية البريطانية ، حيث لبث ثلاث سنوات كاملات كافيات لأن يخرج التلميذ من مدرسة المعلمين أستاذاً كاملا . وعلى ذلك فقد جاءنا حائزاً لشهادة عالية فيما أحرز من علوم السياسة . فلا ينتظر أن يتعلم دروسها على نفقة مصر من جديد ».

« ثم هو قد امتاز على سلفه بأنه جاء هذه البلاد، والهدوء شامل،والعسر المالى زائل ، وعداء الدول غير موجود على الإطلاق . بخلاف الأول فإنه جاء مصر والقلق السياسى لايزال ضارباً أطنابه فيها على أثر الثورة العرابية ، والعسر المالى محيط بها من كل جهاتها ، وعداء الدول يكاد يسد عليه كل طريق ، ويأخذ منه بالخناق . وقد كان هذا مضيعاً جهداً كبيرا على المعتمد القديم يجد المعتمد الجديد نفسه فى راحة من عنائه ، وفى غنى عن أن يضيع طرفة عين من وقته فيه »

« وامتاز أيضا عليه بأنه جاء البلاد ، وقد ترقت فى كل مظاهر الحياة : فى ماليتها وثروتها ، فى عمرانها وحضارتها ، فى معاملاتها مع الأجانب من كل قبيل ، وفى معارفها أيضاً — لا لأن سلفه عنى بها من هذا الجانب كما ينبغى ، ولكن جرياً مع سنن الطبيعة التى تذهب بالأمم إلى التقدم البشرى مالم يعقها عائق » .

« إن الأمة المصرية يوم جاءها اللورد كرومر كانت أشبه بطلسم من الطلاسم الهيروغليفية قبل حل معناها ، فعمل فيها ما عمل الفرنسيون الذين حلوا خطوطها القديمة قبل قرن من الزمان . وأما ماهى الآن ؟ فكتاب مفتوح يقرؤه السير غوست كلما جال ببصره فيه . فهى تنتظر من عميد قصر

الدوبارة الجديد ألا يسيء فهم كتابها بتحريف المحرفين ، ووشايات الواشين».
ثم وجه الشيخ حديثه إلى المعتمد الجديد قائلا له :

« إن الذى يهم انكلترا فى مصر ، وقد اطفأت نيران الثورة العرابية ، وأيدت العرش الخديوى ، ونظمت مالية البلاد ، وأصلحت طرق الرى . وبنت الخزان ، وفصلت نظامات الأعمال تفصيلا حسناً أن يبقى مركزها فى مصر ممتازاً على كل مراكز الدول الأخرى . فليكن شأنها كذلك على الرأس والعين ، ولكن لا يلزم من هذا أن تبقى مصر فى حكم القاصر الذى لا يرشد ، والجاهل الذى لا يتعلم ، والعضو الذى لا يتحرك بعمل ، والفكر الذى يشله التعطيل ، والإرادة التى تخدر حتى تموت ! »

« فيأيها المعتمد الجديد — وقد عهدناك من الذكاء النادر على ما يعرفه لك الخاص والعام — لا نسألك أن تغير سياسة قررت دولتك الثبات والاستمرار عليها ؛ فإنما نطلب منك أن توفق — ما استطعت — بين مصلحة الاحتلال ومصلحة مصر . يكفى لهذا أن يكون لقصر الدوبارة رأى الناصح الصادق المرشد لخير الأمور . ولكن إذا انقلب ذلك الإرشاد أمراً فى كل شيء ، وتبدل ذلك الإشراف تداخلا فى كل شيء ، واحتقر عمل المصرى ، وفكره ، وإرادته فى كل وظيفة ، انقلبت صور الأشياء إلى عكس المطلوب منها ، وضاعت مصلحة مصر تحت مواطىء أقدام الأثرة الإنكليزية ضياعا تاما» .

* * *

إلى هنا انتهى حديث الشيخ على صفحات مؤيده فيما سماه (بمقالات قصر الدوبارة) . وقف الشيخ فى هذه الأحاديث موقف الناصح الأمين للانكليز ، واعترف لهم فى شجاعة محمودة بما قاموا به من الإصلاح . ولكنه كشف القناع فى الوقت نفسه عن أغراضهم من هذا الإصلاح ؛ وهى أغراض تتلخص فى أن يتعهدوا البقرة الحلوب بالأكل وبالنوم حتى يدر لبنها، وتغفل

عن نفسها، ولا تدرى من أمرها شيئاً ما . وعلى هذا فلا محل للثقة بالانكليز، ولا أمل فى أن يقوم الانجليز بالتعهدات التى أخذوها على أنفسهم ، والوعود التى قطعتها حكومتهم على نفسها .

وأما الأسلوب الذى كتبت به تلك الأحاديث فقد كان أسلوباً سياسياً أكثر منه أسلوباً أدبياً . والحق أن هناك فرقا واضحا بين هذين الأسلوبين. اعتمد الشيخ فى أسلوبه هذا على الدهاء وعلى المنطق فى محاسبة القوم. كما اعتمد فيه كذلك على الأمثلة المشتقة من الواقع الملموس، ومن الحياة المصرية الصميمة، ومن الحوداث السياسية التى لا جدال فيها ، كما اعتمد على التقارير التى كتبها عاهل الاحتلال بيده ، وعلى الأقوال التى نشرتها الصحف الموالية له باسمه ، وبوحى منه ؛ صنيع الرجل السياسى المحنك ، لا الأديب الذى لا يعنيه أن تعى ذاكرته جميع هذه الأقوال والأخبار والأحداث والأفعال. وكم كان الشيخ صحافياً حقاً حين سلك فى الرد على التهم التى ألصقها الاحتلال بمصر طريق الشهود من المصريين والنزلاء من مختلف الوظائف والطبقات ، وقد أتى بأقوالهم جميعا على صفحات المؤيد ، لتكون برهانا على كذب الإنجليز ، ودليلا على اختلافهم وبطلانهم . وكم كان الشيخ يتوخى الحيطة والاعتدال فى هجومه ، ويضغط كثيرا على أعصابه ، ويعرض إعراضاً تاما عن أساليب القذف والسباب ، ويتجنب تجنبا ظاهراً طرق المهاترة وسخف القول ، ويتأدب مع الانكليز تأدباً نال منهم أكثر مما ينال منهم السباب ، أو القذف ، أو عبارات الغضب والنهور والقحة فى الرد . لا يكيل القول جزافا ، ولا يكتب عبارة ليس لها قوة إيحائها وتأثيرها فى نفوس الوطنيين من ناحية ، ونفوس المحتلين من ناحية ثانية .

وما نحسب جبار الاحتلال — ونعنى به اللورد كرومر — حين يفكر فى أسلوب الشيخ على يوسف ، إلا مغالطا نفسه كل المغالطة ، وكاذبا عليها كل الكذب ، عندما طعن على الصحافة المصرية بقوله :

« ولست أذكر أنى قرأت فى جريدة منها مقالة واحدة صحيحة المـادة ، حسنة الاستدلال ، مفيدة فى المسائل المالية أو المعارف أو النظام القضائى»

أجل — لقد كذب كرومر على نفسه وعلى مصر والانكليز فى ذلك . فقد كان الأسلوب الصحفى الذى اختاره الشيخ على يوسف يمتاز بصحة المادة، وحسن الاستدلال ، وعظم الفائدة فى التوجيه العام — لا محل للنزاع فى ذلك ولا موضع للريبة فيه .

. . .

ويرحل اللورد كرومر عن مصر ، ولـكن يشاء بعض صنائعه من الأجانب النزلاء أن يقيموا له حفلة توديع فى دار الأوبرا الخديوية . وهناك يخطب اللورد خطبة الوداع .

وفيها يثنى على القائمين بالحفلة ، ويزعم لهم أن استقالته مبنية على أسباب صحية بحتة ويذكر أصدقاءه الكثيرين فى مصر ، ومنهم الخديو توفيق ، ثم نوبار ورياض وبطرس غالى . ويقف وقفة خاصة عند مصطفى فهمى . ويذكر كذلك سعد زغلول فيقول « إننى لم أشتغل معه إلا من عهد قريب لـكن معاشرتى القصيرة له قد علمتنى أن أحترمه احتراما عظيما . وإن أصاب ظنى أو لم أخطىء كثيراً فسيكون أمام ناظر المعارف الجديد — سعادة سعد زغلول — مستقبل عظيم للنفعة العمومية » .

وانتقل اللورد من هذه المقدمات إلى الكلام عن المصريين ، فقال إنه سمع من الكثيرين أنهم قوم لا يعترفون بالجميل ، وأنه لا يرد عليهم إلا بكلمة قالها فيلسوف فرنسى ؛ وهى « إذا قاسى شعب آلام الظلم والضيم طويلا لم يكد يبق له طاقة على شكر الذين يخلصونه منها» .

ثم قال : « وهب أنى اقتنعت — وما أنا بمقتنع مطلقا — بأن أبنـاء الجيل الحاضر لا يعترفون بهذه الحقيقة ، فإنى لا أزال أؤمل مع ذلك أن

نسلهم سيعترفون بها . إذ المعتاد أن أولاد العميان يكونون من المبصرين»

ومضى اللورد بعد ذلك يوضح أن للإحتلال الإنجليزي غرضين : أحدهما سياسى . والآخر إدارى .

فأما الغرض السياسى فالمحافظة على الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا ، وهو الاتفاق الذى عقد بينهما سنة ١٩٠٤ .

وأما الغرض الإدارى فالسعى لإيجاد حكومة بيروقراطية فى مصر .

وانطلق اللورد بعد ذلك يتحدث عن الرقى الأدبى والعقلى الذى أعان عليه فى مصر ، فعجب من المصريين كيف أنكروا عليه ذلك ، ثم قال :

«عجباً أيها السادة كيف يقال إن مصر لم ترق أدبيا ؟ هل الحكم فيها اليوم للكرباج وحده ، كما كان فى الأيام الغابرة ؟ هل السخرة (أو العونة) باقية فيها ؟ هل لعنة الرق لا تزال حالّة عليها ؟ أليس كل شخص فيها ، من الأمير إلى الصعلوك سواء أمام القانون ؟ ألم ينشط الناس فيها إلى السعى والكسب؟ أليس أصغر الناس فيها يجنون اليوم ثمار سعيهم ، ويتمتعون بما يحصلونه من عرق جبينهم ؟ أليس كل إنسان حراً — بل ربما ظن قوم أنه حر أكثر مما يجب أن يكون — فى المجاهرة بآرائه ، والتعبير عما فى ضميره ؟ وأن ماء النيل الذى يحيي الأراضى ، ويأتيها بالخصب يوزع على الأمير الخطير ، والفلاح الفقير بالقسط والعدل ؟ وإن اشتراك الحكام والمحكومين فى المصالح أصبح أمراً مقرراً عند الفريقين قولا وعملا ؟ وإن الأموال التى تؤخذ من جيوب الذين يدفعون الضرائب ، والتى قلت كثيراً عما كانت عليه تصرف الآن فى الوجوه النافعة للبلاد ، بعد ما كان معظمها يصرف على بناء قصور لا منفعة لها ؟ فإذا كانت هذه الأموال كلها ، وكان غيرها مما يمكننى أن أذكر منه كثيراً لا يعد ترقية أدبية ، فالحق يقال إنى لا أعلم بعد ذلك ما المراد بقولهم آداب وأدبيات» ؟

ثم مر مروراً سريعا بعد ذلك على التعليم الابتدائى ، وتعليم البنات ، والتعليم العالى وقال :

« ما هى حقائق الحالة المصرية الآن ؟

أولاها — أن الاحتلال البريطانى يدوم إلى ما شاء الله !

وثانيتها — أنه ما دام الاحتلال البريطانى باقياً ، فالحكومة البريطانية تكون بالضرورة مسئولة عن الخطة التى تجرى عليها الادارة المصرية ، لا تفصيلا بل إجمالا .

والنتيجة لهاتين المقدمتين أن نظام الحكومة الحالى دائم رغما عما يعتريه من العيوب التى لا يعترف بها أحد أكثر منى . وأظن أنه ليس فى الناس من هو أقدر على ضمان الدوام لهذا النظام من جناب السير ألدون غورست ! ».

ثم تحدث اللورد عن خلفه هذا ، وعن السياسة الكرومرية ، وعن حجته فى اتباع هذه السياسة . وختم كلامه بنصيحة أخيرة ، وهى :

« الاتحاد . ولا يصدق ذلك على الذين فى خدمة الحكومة فقط ، بل على جميع الذين يهمهم إدخال التمدن الحقيقى إلى هذه البلاد » .

* * *

كان على صاحب المؤيد أن يرد على هذه الخطبة التى ختم بها اللورد كرومر حياته فى مصر . ومن أولى من صاحب المؤيد بالرد على جبار الاحتلال فى الكلمة التى أعلن فيها عند مغادرته البلاد أن الاحتلال قائم فيها إلى الأبد ؟

أليس صاحب المؤيد هو الكاتب الأول ، والصحافى الأول ، والسياسى الأول فى مصر ، فى هذه الحقبة الذليلة من تاريخها ، والخطوة الآسيفة المؤلمة من حياتها ، وهى فترة الإحتلال البريطانى ؟

ويستطيع القارىء أن يجد نصاً لهذا الرد فى نهاية هذا الجزء من أجزاء الكتاب .

الفصل السابع

على يوسف والمؤتمر المصرى

مضى عهد كرومر، وخلفه داهية آخر، هو ألدون غورست. وكانت سياسة هذا الأخير قائمة على قاعدة «فرق تسد». وقد أفلح هذا الرجل فى التفرقة بين عنصرى الأمة، وأوغر صدور الأقلية على الأكثرية، وسلك فى سبيل ذلك من الطرق مالا يتسع المجال هنا لوصفه، بعد إذ أشرنا إلى بعضه فى التمهيد لهذا الجزء من أجزاء الكتاب.

وكان السيد على يوسف ينظر إلى نفسه، وينظر إليه الناس أيضا على أنه من المدافعين عن الإسلام، بل الغيورين عليه إلى حد التعصب. وقد رأينا كيف دافع الرجل عن دينه دفاعا عظيما أمام الاحتلال، وإن جاء دفاعه دائماً فى ثوب السياسة، وفى مجال الرد على أولئك الساسة الذين كانوا لا يفترون عن إثارة الغضب فى نفوس المسلمين كلما سنحت لهم الفرص المواتية لذلك. وربما كان من تحمس الشيخ لدينه كذلك ما دعا إليه من وجوب إحتفال الحكومة المصرية والشعب المصرى بأول السنة الهجرية، وذلك أسوة بالأوروبيين الذين يهتمون بالاحتفال بأول السنة الميلادية. والحق أن الشيخ على يوسف كان أول من دعا إلى إحياء هذه السنة القديمة فى مصر.

مهما يكن من شىء فقد كان على صاحب المؤيد أن يعالج بمكره ودهائه تلك السياسة التى أتى بها ألدون غورست. وظهر أثر هذا فى مقالاته التى كتبها فى مؤيده. وأما غيره من الكتاب الثائرين كمصطفى كامل، والشيخ عبد العزيز جاويش، فلم يكن لهم ما كان للسيد على يوسف من صفات المكر والدهاء، ومحاورة الأعداء، بل أخذوا يحاربون الاحتلال بأساليب الشدة والمقاومة، وطرق السباب والمهاترة. وأتى المحتلون فدخلوا عليهم

من هذا الباب ، وأوقعوهم فى خصومة عنيفة ضد إخوانهم الأقباط وانزلق أحد المسلمين — وهو الشيخ عبد العزيز جاويش — فى مقالات كثيرة لاذعة ، جاءت كلها سبابا فى الأقباط ، وقذفا لهم ، وإثارة لهذه العصبية الدينية التى أوقد نارها المحتلون ، وهيأوا الظرف المناسب لأمثال الشيخ جاويش ، لكى يزيدوا النار ضراما ، واللهب سعيراً .

وكان من أشد هذه المقالات التى كتبها الشيخ جاويش ضد القبط فى مصر مقالة له بعنوان (الإسلام غريب فى داره) . نشرتها اللواء رداً على مقال نشره قبطى يدعى فريد كامل فى جريدته (الوطن) ، وفحواه أن القبط فى مصر مظلومون ، وحقوقهم فى هذا البلد مهضومة .

وعلى أثر ذلك فكر الأقباط فى الدعوة إلى مؤتمر عام ، واختاروا له أسيوط من مدن الصعيد وانعقد هذا المؤتمر ، وشرح فيه الأقباط مطالبهم بصراحة تامة .

وإذ ذاك دعت الجرائد الوطنية ، وفى مقدمتها (المؤيد) إلى عقد مؤتمر عام ، واختاروا له ضاحية مصر الجديدة ، وأطلقوا عليه اسم (المؤتمر المصرى الأول) . وانعقد هذا المؤتمر فى غرة مايو سنة ١٩١١ . وكان رياض (باشا) رئيساً له ، وخطب فيه كثيرون من وجهاء المسلمين ، منهم السيد على يوسف ، وكان موضوع خطبته (التعليم فى مصر وحظ المسلمين والأقباط منه) والشيخ عبد العزيز جاويش ، وكان موضوع خطبته (الربا فى الإسلام) وإبراهيم (بك) الهلباوى ، ومحمود (بك) أبو النصر ، وفريد أبو شادى (بك) ، وطلعت حرب الذى ارتفع صوته بأول اقتراح اقتصادى وطنى ، دعا فيه يومئذ إلى إنشاء بنك مصر .

أشار الشيخ عبد العزيز البشرى فى كتابه المختار إلى هذا المؤتمر فقال :

« فشت الفاشية — لا أعادها الله — بين المسلمين وإخوانهم الأقباط عقب مصرع المرحوم بطرس (باشا) وكان ذلك فى سنة ١٩١٠ على ما أذكر .

وعقد الأقباط مؤتمرا مليّاً لهم فى أسيوط ، وأجابهم المسلمون بمؤتمر مثله فى القاهرة ، ولفضوا برياسته إلى أكبر رجل فى البلاد يومئذ ، وهو المرحوم مصطفى رياض (باشا) . واختار القائمون على هذا المؤتمر مثوى لاجتماعه (ملعب مصر الجديدة) .

ومضى الناس أفواجا فى اليوم المشهود ، واجتمع رجالات البلد ، لم يتخلف منهم إلا من انقطع به العذر . وتصدر الحفل رياض (باشا). وتعاقب الخطباء كابرا بعد كابر ، فأبلوا فى المقال أيما بلاء ، وأبدعوا فى الخطاب أيما إبداع ، حتى إذا كانت النوبة على الشيخ على يوسف أذكى بعض شبان الحزب الوطنى فى المحتشدين فى بهو الملعب طائفة من الفتيان من طلبة الأزهر وتلاميذ المدارس ، يسألون القوم ألا يصفقوا إذا خطب الشيخ ، ولا يظهروا أية إشارة تدل على الاستحسان . فوعدهم أكثر الناس بهذا ، وأصروا عليه مخلصين ، لما تنطوى صدورهم عليه من حقد ومن بغضاء .

وينبعث الشيخ يخطب — وهو كما قدمت لك غير خطيب — استغفر الله بل لقد انبعث يتلو مقالته فى أوراق بين يديه . وأنت حق خبير بالفرق الهائل بين أثر التالى وأثر الخطيب . وما إن مضى فى تلاوته بضع دقائق حتى أخذ الناس عن نفوسهم ، ونسوا ما عاهدوا أولئك الفتيان ، وعاهدوا أنفسهم عليه . فبرَوْا من التصفيق أكفهم ، وشققوا بالصياح حناجرهم تشقيقا . فكنت تسمع من هتافهم مثـــل الرعد القاصف ، وترى من اضطرابهم وتموجهم فعل الريح بالاغصان فى اليوم العاصف . وكان من أشدهم سَعَرا من كلام الرجل أولئك الفتية الذين كانوا يروضون الناس على ألا يلقوْا خطابه إلا بالجحود والإعراض .

وجُهد بالرجل ، فتعاود التلاوة عنه كل من أستاذنا ابراهيم (بك) الهلباوى ، والمرحوم أحمد (بك) عبد اللطيف المحامى الأشهر . وأنت كذلك خبير بأثر خطبة يتلوها فى الساعة غير منشئها ، ما أرخى إليها من قبل

نظرا ، ومع هذا فما برحت تزداد الفورة ، ويشتد بالقوم الفتون ! »[1] .

* * *

بدأ الشيخ على يوسف خطبته بقوله :

أيها السادة : سمعنا فى الأيام الأخيرة صيحة قامت من جانب فريق من المصريين ، تفرق بين المسلم والقبطى فى الكفاءة الذاتية ، وفى حظهما من العلوم والمعارف والتهذيب ، وتتحدث عنهما كأنهما عنصران يعيشان بعيدين عن بعضهما[2] فى الأوطان ؛ أحدهما متمدن متعلم مهذب مترب ، والثانى جاهل منحط ؛ وهو مع ذلك واقف حجر عثرة فى سبيل الفريق الآخر .

سمعنا هذه الصيحة عالية فى بعض صحف الإنكليز المأجورة للأقباط ، والمستمالة باسم المسيحية إليهم ، وسمعناها أيضاً فى صحف القوم ، وفى بعض الصحف الأفرنجية هنا ؛ حتى إن جريدة البروجريه نشرت فصلا طويلا بإمضاء كاتب قبطى فى ١٣ أكتوبر الماضى يقول فيه :

« إن طائفة الأقباط فى مصر أصبحت عاملاً كبيرا من عوامل المدنية ؛ لأنها اولا مسيحية ، ولأنها ثانيا أحرزت مكانة عالية ، نسبة أهميتها منعكسة مع نسبة عددها ، سواء فى الثروة ، أو فى الحركة العلمية الخ .

ولقد أخذ الكاتب يسرد إحصائيات لفقها كما يشاء ، مظهرا الفرق العظيم بين الأقباط والمسلمين ، حتى لو أراد الأولون أن يكونوا معه أوصياء أو قواما على الآخرين ، أو لو ادعوا الأفضلية الراجحة فى قبضهم زمام أمور البلاد كلها فى أيديهم لكان حسنا . حتى ولو كان الأقباط وحدهم سكان وادى النيل وأصحابه ، لما كان ثمة حاجة للاحتلال الانكليزى فيه ، على ما يفهم من رأى هذا الكاتب » .

---

(١) الشيخ عبد العزيز البشرى — المختار — الجزء الأول ص ٢١٣ .

(٢) هذا خطأ فى تركيب الجملة وصوابه: كأنهما يعيشان بعيدين بعضهما عن بعض. والشيخ على يوسف كغيره من كتاب القرن الماضى كثيراً مايقع فى هذا الخطأ .

واتخذ الشيخ من هـذا الموضوع قضية من القضـايا الهامة ، وجعل من نفسه طرفاً فى هـذه القضية ، وأخذ يعـالج وجهة نظره من الناحية الواقعية البحتة ، مبتدئا فى ذلك بالتعليم فى مصر منذ الفتح الإسلامى .

فبدأ الشيخ يصور ما كان عليه المصريون قبل الفتح الاسلامى من الذل ، والاستعباد على أيدى الرومان والفرس واليونان والعرب العمالقة والبربر ، وغيرهم ممن تناوبوا حكم مصر ، وتركوا آثارهم فيها ، حتى فقـد المصريون بسبب ذلك ملكة الحكم الذاتى ، وفقدوا العصبية الجامعة بينهم ، ووصلوا إلى حال من الانحلال ، فقدوا به أنسابهم ، ورحبوا من أجله بالفتح الإسلامى.

واستشهد الخطيب فى ذلك بنص لياقوت الحموى فى كتابه معجم الأدباء، وآخر لمؤرخ قبطى ، برهن فيه أن النصرانية فى مصر اقترنت بالفوضى والانقسام ، بسبب المذهبيه التى أضرت بالبلاد . وهكذا أوحى الشيخ على يوسف إلى المستمعين بأن الإسلام إنما جاء مصر لينتشلها من هذه الفوضى.

« هذا ما كان عليه المصريون — ولا سيما النصارى منهم — من شقـاء واسترقاق، ونـكد عيش قبيل الفتح الإسلامى . ولا حاجة لأن نسرد أقوال المؤرخين الذين مثلوا قبط مصر فى ذلك الحين تمثيلا يبكى الجماد ، ويفتت الأكباد . ولم يبق إلا أن نشير إلى ما أصبحوا عليه بعد الفتح الإسلامى السعيد » .

ثم مضى الشيخ يصور يوم الفتح ، ويصفه بأنه (اليوم الأبيض) على مصر . فقد « فكت به أغلال الأسر والعبودية والمظالم عن أعناق المسيحى واليهودى والوثنى على السواء» . وكان ذلك فى يوم الجمعة غرة المحرم سنة عشرين للهجرة. فجمع ذلك اليوم المبارك بين ثلاثة أعيـاد : عيد الجمعة ، وعيد رأس السنة الهجرية ، وعيد الفتح . وفيه كتب عمرو بن العاص كتاب الأمان لأهل مصر . ثم أشار الشيخ إلى سياسة عمرو فى مصر ، وهى السياسة التى أملت عليه

جباية نصف ما كان يجبيه الروم من الضرائب . كما أشار إلى مبدأ العدل والمساواة الذى أتى به الإسلام ، وهو المبدأ الذى تصوره بجلاء حادثة ولد لعمرو بن العاص ضرب بعض المصريين . فما كان من خليفة المسلمين عمر ابن الخطاب إلا أن أخذ للمصرى بحقه من الأمير وولده ؛ قائلا لهما هـذه الكلمة المشهورة « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ؟

ثم لم يكن حظ مصر فى العهدين الأموى والعباسى بأقل من حظهـا فى عهد الخلفاء الراشدين .

ثم ضرب الشيخ مثلا على سعادة المصريين — والقبط منهم خاصة — بحادثة زيارة المأمون الديار المصرية، وخروج مارية القبطية إليه تدعوه لزيارتها ، وتكرمه إكراما عظيما ، وتقول له « كل هذا من خير مصر ، ثم من عدلك يا امير المؤمنين » .

وعاش القبط فى كنف المسلمين على هـذه الحالة من السعادة والوفاق ، حتى إذا طرأ على مصر حكام دخلاء فى الاسلام أصاب المصريين فى أيامهم ماأصابهم ، سواء فى ذلك المسلمون والمسيحيون واليهود وغيرهم من الطوائف الدينية التى تألف منها الشعب المصرى .

ثم مضى الشيخ يصور ارتفاع شأن المسلمين فى ميدان الحضارة فى غضون ثمانية قرون من تاريخ ظهور الإسلام . وكأنه أراد بذلك أن يعتذر عما أصاب الشرق عامة ، ومصر خاصة من انحطاط عام — لا بسبب الدين ، ولـكن بسبب أهل هذا الدين ، موضحا أن هذا الانحطاط كان قد عم الدول الأوروبية فى القرون الوسطى، ثم زحف على البلاد الإسلامية فى الشرق كله .

ثم مضى الشيخ كذلك يتساءل من هم مسلمو مصر ؟ ومن هم قبطها ؟ فأشار فى بعض الجواب عن ذلك إلى كثرة من أسلم فى مصر من قبط ، وغير قبط ، حتى لقد شكا والى مصر فى عهد عمر بن عبد العزيز من قلة الجزية لقلة من يدفعها من هؤلاء .

« وخلاصة هذا وذاك أن أكثر مسلمى مصر من أصل سكانها الذين كانوا أهلها قبل الفتح الإسلامى ، وأن الذين أسلموا من قبط مصر كانوا أكثر عن ظلوا على النصرانية حتى الآن » .

ويخلص الشيخ من هذا إلى أن كثيرين من مسلمى مصر يلتقون مع القبط فى عنصر واحد ، وأن عدداً قليلا جداً من المسلمين كانوا ينتمون إلى القبائل العربية التى اشتركت فى الفتح الإسلامى ، ثم امتزجت بالشعب المصرى ، ونسيت أصولها العربية الأولى

« ومن خواص مصر التى ميزها الله بها على سائر الأوطان والبلدان أن تتناسب فيها صور سكانها متى مرت عليهم الأجيال ، فلا تبقى لهم بعد ذلك إلا الصورة المصرية ، تحمل الذكاء المصرى . والأخلاق المصرية الكريمة التى زادها الإسلام جمالا وتسامحاً » .

وهكذا اتحد عنصرا الأمة المصرية منذ القدم فى العادات والأخلاق وسائر المقومات . كما اتحدا فى اللغة التى تكلما بها منذ يومئذ ، وهى اللغة العربية الشريفة .

وحين بلغ الشيخ هذا الفصل من خطبته ملك على السامعين سمعهم ، واستأثر بكل اهتمامهم ، وخاطب عقولهم وقلوبهم فى وقت معا .

وبعد هذا العرض التاريخى للقضية العنصرية فى مصر رأينا الشيخ يلتوى فى كلامه بعض الإلتواء ، فيذكر القبط فى لهجة لاتخلو من الشدة والعنف ، كما لا تخلو من الدهاء والمكر بأنه أولى بهم أن يذكروا أن بينهم وبين المسلمين فروقاً من نواحى شتى : منها ناحية الفرق الذى يكون بين الغالب والمغلوب . وناحية الفرق الذى يكون بين الأكثرية والأقلية ، وناحية الفرق الذى يكون بين قوم نسخت لغتهم لغة غيرهم ، وقوم محيت لغتهم من الوجود . وناحية الفرق الذى يكون بين قوم عليهم حماية غيرهم ، وآخرين يعيشون

فى كنف هذه الحماية . وناحية الفرق الذى يكون بين قوم لهم فى العلوم على اختلافها تاريخ قديم ، وآخرين لاحظ لهم من تلك العلوم .

« فاذا ما ادعى المسلمون على هذا أنهم يتوارثون عقولا أرق ، ونفوسا أزكى ، واستعداداً أقرب لمعالى الأمور مما عند سواهم من ذلك فلهم الأدلة التى لاتدحض ، والبراهين التى لا تنقض قائمة على صحة دعواهم . . إلا أن المسلمين لم يقولوا هذا ولا أقل منه ، واعتبروا أنفسهم والأقباط سواء فى كل شيء من مقومات الأقوام والأمم . ولكنهم لما سكتوا نطق غيرهم بالبهتان . وقال الأقباط فى جرائدهم : إن المسلمين جبناء ، فروا من دينهم الأصلى ، واعتنقوا الإسلام هرباً من ظلمه ، وإن المسلمين متأخرون ، بينما الأقباط قد سبقوهم فى النهضة العلمية الحديثة بمراحل . فهم أحق من أولئك بالقبض على أزمة أمور البلاد ، وإدارة أحكامها ، وإن لهم لذلك لمطالب شتى ، وهم لابد مدركون ما يطلبون » .

أرأيت إلى هذا الشيخ كيف أنحى على القبط باللائمة ، وأقام عليهم الحجة الدامغة ، وزعم لهم فى دهاء عجيب أن المسلمين سكتوا عن هذه الحجج والبراهين ، وسرهم أن يعيشوا إخوانا متحابين مع إخوانهم القبط فى مصر . ولكن هؤلاء مالبثوا — بتحريض من العدو الأجنبى — أن أثاروا دفين العصبية الطائفية ، وانزلقوا مع المحتل فى إيقاظ هذه الفتنة الدينية النائمة !

ألا — ما أخبث اليد التى حركت هذه الفتن ، وما أمكر الذئب البريطانى الذى كان سبباً فى كل هذه المحن التى أصابت الوطن ؟ !

لم يجد الخطيب بدأ بعد ذلك من الكلام عن تاريخ النهضة العلمية فى مصر الحديثة، وراح يبحث فى حظ كل فريق من المصريين من هذه النهضة . مادام الأقباط قد ادعوا أنهم متفوقون على المسلمين فى هذا الميدان. فعرض الخطيب لحالة مصر منذ تولى حكمها محمد على ، وكان الأقباط إذ ذاك يشتغلون بمهنة الكتابة البسيطة فى دواوين الحكومة ، كما كانوا يشتغلون من الصناعات

اليدوية بما يكثر ربحه ، ويقل عناؤه ونعبه ، فلما رأى محمد على أن ينهض بالأمة ، وطفق يفتح معاهد التعليم على اختلافها كان الأقباط وحدهم هم الذين عافوا دور العلم ، وأعرضوا عنها إعراضا تاما . « وكأنهم رأوا ألا حاجة لهم بالعلم ، ما داموا قادرين على الكتابة البسيطة التى مبلغها وضع سطر تحت سطر ، وضم رقم إلى رقم ، أو طرحه منه أو ضربه فيه » .

وكذلك أمسك القبط يومئذ عن السفر إلى أوروبا فى البعثات العلمية التى كان قوامها المشايخ من الأزهر الشريف أو الشبان من أبناء العمد والأعيان ، وأبناء الشركس والروم والأرمن والسوريين وغيرهم .

والحق أن لهجة الشيخ فى ذلك الموضع من خطبته لم تخل من سخرية لاذعة . وماذا كان يريد القبطى من أوربا وعلمها ؟ إذا كان يكفى له أن يكون تلميذاً بسيطا لكاتب من أبناء طائفته فى الديوان ، أو لصراف القرية بضعة أشهر ، يتعلم فيها الخط ، ويعرف كيف يضع الرقم بجانب الرقم ، أو يحفظ صورة الفدان ، أو يعرف كيف يكتب خانات القروش والبارات بإزاء خانات الفدان والقيراط فى دفتر الصراف [1] ؟

ثم مضى الشيخ يستعرض تاريخ البعثات العلمية منذ نشأتها إلى زمانه . فأثبت أنه قد اشترك فى هذه البعثات كل الأجناس المتوطنة فى مصر على اختلاف أديانهم . ومع ذلك لم يشترك فى هذه البعثات قبطى واحد ، مع كثرة ما انفق على هذه البعثات كلها من الأموال ، وما بذلت حكومة محمد على من جهود . وقد بلغ عدد المبعوثين فى عهد محمد على تسعين ومائتين ، وفى عهد عباس الأول ثمانية وأربعين . وفى عهد إسماعيل خمسة وخمسين ومائة ، ليس فى هؤلاء جميعا من القبط غير ثلاثة . وفى زمن توفيق لم يزد عدد المبعوثين على أربعة وثلاثين ، لم يكن فيهم من القبط عدد يذكر . وفى عهد توفيق كذلك

---

(١) المؤتمر المصرى الأول . التعليم فى مصر وحظ المسلمين والأقباط منه ص ١٤ .

أرسل بعض الأغنياء أبنـاءهم إلى أوروبا على نفقتهم ، فبلغ الجميع ثلاثة وثمانين . ثم فى عام ١٩٠٧ بلغ عدد البعثات العلمية تسعا وخمسين بعثة .

« وإلى هنا يحق لنا أن نقول أن البعثات العلميـة التى تلقت العلوم والمعارف من أوربا ، وعادت إلى مصر ، وكان لها أعظم أثر فى تكوين مصر الحديثة كانت إسلامية محضة ، ليس بينها إلا نحو عشرين طالبا من الأرمن والروم والسوريين والأحباش ، وثلاثة فقط من الأقباط . وهؤلاء كانوا طلاب وظائف ، لا ناشرى علوم ومعارف ، ولا آخذين بيد مصر إلى ذرى الارتقاء العصرى الذى نشاهده الآن ، وإن كان دون ما نطلبه بمراحل »[1] .

«غير أنه فى العهد الأخير — يريد بعد سنة ١٩٠٧ — توجهت رغبات الأقباط كالمسلمين إلى هجرة الأوطان فى طلب العلوم .. وأصبح عدد البعثات العلمية المصرية الحاضرة خارج القطر المصرى أربعين وسبعمائة. وإذا شئت أن تعرف مقدار عـدد الأقباط فى البعثات العلمية الموجودة الآن فى القارات المختلفة . سواء على نفقة الحكومة ، أو على نفقة آبائهم ، فإنهم لم يبلغوا خمسين طالباً . أكثر من نصفهم فى كلية بيروت . وأكثر من ثلثهم على نفقة الحكومة . فنسبة الأقباط إلى المسلمين فى البعثات العلمية الحاضرة كلها لا تكاد تبلغ سبعة فى المائة » !

ولـكن متى نهض الأقباط نهضتهم العلمية الحاضرة ؟

« بقى هؤلاء على طريقتهم القـائمة على اكتفائهم بوسائل الكسب السهلة أيام محمد على وعباس وسعيد واسماعيل .ولـكن من أواخر عهد هذا العاهل الكبير ، ثم فى عهد خلفه توفيق دخل بعضهم مدارس الفرير والجزويت ؛ حيث تعلموا تعلماً محدوداً . «ولم يشتهر منهم على عهد المرحوم توفيق (باشا)

---

(١) نفس المصدر ص ١٦

كاتب ولا شاعر غير ميخائيل أفندى عبدالسيد منشىء جريدة الوطن ، ووهى (بك) ناظر المدارس القبطية » . ثم فى عهد الاحتلال أخذوا يباشرون نظم الحساب والكتابة فى سجلات الحكومة ، متبعين فى ذلك الطرق الحديثة التى لم يحسنوا منها شيئا .

وإذ ذاك « انتبهوا إلى أمرهم ، فظهر لهم أنهم فرطوا فى طلب العلم تفريطا مضيعا ، فرأوا أن يبتدئوا شوطهم من جديد » .

« وكان قد نبغ فيهم رجل عصامى رزقه الله ذكاء ممتازا ، وعقلا راجحا ، ونظراً بعيداً فى عواقب الأمور — ألا وهو الطيب الذكر بطرس غالى (باشا). وكان قد وصل من الرتب والألقاب إلى رتبة ميرميران الرفيعة فى عهد الثورة العرابية. وقد طلبها له عرابى (باشا) . ويروى أنه يوم نال هذه الرتبة السامية جمع إليه الرؤساء الدينيين من طائفته ، وكثيرا من أعيانها ، ووقف بينهم خطيبا فقال :

إن الأمة الإسلامية قد اغتصبت منا السلطة ، فأعينونى ببذل كل مجهوداتكم النافعة لأرد لكم ما فقدتم » .

« واتفق أننى قابلت ذلك الرجل الكبير فى مدينة فيشى سنة ١٩٠٣ . وكانت قد تأكدت المودة بيننا هناك . فعن لى أن أسأله بلطف عن مركز تلك الرواية من الصحة أو عدمها فتأوه تأوه السياسى المحنك وقال :

« أين نحن الآن — وقد اغتصبت السلطة من صاحبها بيد الاحتلال . فالواجب علينا جميعا أن نعمل لردها إلى صاحبها الشرعى — مولانا الخديوى المعظم » .

منذ ذلك الوقت أخذ عميد القبط فى مصر — يريد بطرس غالى يرشح أبناء طائفته لوظائف القضاء فى المحاكم ، دون أن تكون لهم معارف تؤهلهم لذلك . غير أنه لم ير أن يزجهم فى ميدان المنافسة الجديدة من غير

أن يتسلحوا بسلاح العلم . فكان يجمع إليه أعيانهم بين حين وآخر ، ويبث فيهم روح الغيرة والتدافع ، ليعلم أبنائهم . وقد أحسن كثيرا فى استنهاض أبناء طائفته ، لأن فى نهوضهم نفعا كبيرا للبلاد ، مهما طوحت بهم الآمال والمطامع بعد ذلك . ومع هذا كله فقد أبطأوا كثيرا فى طرق أبواب المدارس العالية ، لتكون نهضتهم صحيحة » .

ثم أخذ الشيخ يدلل على إبطائهم فى هذه الناحية ، معتمدا فى ذلك على الإحصاءات كعادته . ثم قال :

«فأنتم ترون من هذا الملخص التاريخى العظيم للتعليم فى مصر أن الفضل كل الفضل للمسلمين فى ارتقاء مصر الحاضر للوظيفة الكبرى التى قامت بها وقد أحسنوا أداءها مدة قرن كامل ، سواء كان ذلك فى جلب أنوار المدنية والعلوم والمعارف من الخارج ، أو فى تأسيس المدارس وتنظيمها ، وتعليم أبناء مصر العلوم المختلفة ، مع اشتغالهم بالتأليف وترجمة الكتب النافعة . وأنهم الآن أساتذة المدارس النافعون المفيضون على الناشئة المصرية بركة العلوم والتربية ؛ ولم يشترك الأقباط فى أداء هذه الوظيفة السامية مع المسلمين، بل كانوا عالة عليهم أولا ، ثم تلامذة لهم فى العهد الأخير » (١)

ثم فى لهجة خطابية شديدة مضى الشيخ يعلق على هذا التلخيص الذى أتى به حتى قال : ويخطىء من ينظر إلى نهضتهم الحاضرة بعين الحسد والبغضاء، فإنما هم يتداركون فائتاً كان فواته مخلا بصفوف الناهضين بالأمة فى سبيل رقيها وحضارتها . ولكن من الواجب عليهم مع هذا ألا يجعلوا حركتهم العلمية السريعة الأخيرة كسلاح ذى حدين : أحدهما لتوثيق عرى التضامن فيما بينهم إلى حد الإفراط المضر الذى يسمى تعصبا ، والثانى لمحاربة إخوانهم

---

(١) المصدر السابق ص ٢١

المسلمين فى سبيل نيل الوظائف ، والاستئثار بمصالح الحكومة . فإن كلا الغرضين مضر ، مفرق ، ممزق لأوصال الجامعة [1] » .

ثم نظر الشيخ فى التعليم الحاضر ، وبحث فى حظ المسلمين والأقباط من هذا التعليم ، واعتمد على الإحصاءات الدقيقة فى كل ذلك . وانتهى إلى أن الأقباط أصبحوا « يتعلمون فى مدارس الحكومة — لا على نسبتهم العددية مع المسلمين ، ولا على نسبة ثروتهم فى البلاد — بل على مقدار ثلاثه أضعاف النسبة العددية ، وعلى الضعفين من نسبة ثروتهم الخاصة بهم » .

« وهناك مدارس كثيرة ينفق عليها من أوقاف المسلمين ، ويتعلم فيها أبناء الأقباط بجانب أبناء المسلمين كتفا لكتف ، وعلى نسبة عددية مرتفعة خلافا لنص شروط الواقفين . ولو أن الأقباط فكروا فى ذلك ماشنوا الغارة على الحكومة ، وعلى مجالس المديريات منذ صدر قانون لمجالس المديريات الجديد ، وأباح لها أن تجبى خمسة فى المائة من ضريبة الأطيان ينفق منها على التعليم فى الكتاتيب ، وقالوا : كيف تكون هذه الكتاتيب إسلامية تعلم القرآن ، ونحن ندفع حصة من هذه الضريبة التى تنفق عليها ؟ »

وأقحم الشيخ نفسه وأقحم السامعين معه بعد ذلك فى تفصيلات طويلة حول المكاتب الأهلية ، وما حبس عليها من الأوقاف الكثيرة من البيت المالك ، ومن أعيان البلاد ، ومن الأطيان التى آلت إلى هذه المكاتب عن طريق انقراض بعض الأسر الإسلامية العريقة ، ونحو ذلك كثير . ثم فصّل القول تفصيلا بعد ذلك فى مدارس الأوقاف وكتاتيبها — وهى غير المكاتب الأهلية التى تحدث عنها منذ قليل . وأحصى عدد التلاميذ الذين يتعلمون فى هذه المدارس . ثم قال :

« من هذا البيان ترون أن المسلمين تسامحوا كثيرا إلى حد أنه يحق

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢ .

لغيرهم أن يرميهم بالغفلة ، ويحق للأقباط خصوصا أن ينكروا جميلهم معهم ، وأن يصيحوا فى وجوههم صيحة السخرية والاستهتار . وكيف لا يكون ذلك والحكومة تساعدهم على صيحتهم هذه ، فتقرر مع هذا كله أن يعلم الدين المسيحى للتلامذة الأقباط فى هذه المدارس التى ينفق عليها من أوقاف المسلمين ، !

وما دام الإسلام دين الدولة الرسمى ، وذلك بحق الفتح ، ثم بحق الأغلبية ، ثم بحق السيادة العثمانية فلا ينبغى أن يدرس دين سواه فى جميع مدارس القطر المصرى !

وعلى ذلك فإن المؤتمر المصرى يلتمس تقرير ما يأتى :

أولا — فصل جميع مدارس المكاتب الأهلية ومدارس الأوقاف عن نظارة المعارف ، وجعلها إدارة قائمة بذاتها يراعى فيها تنفيذ شروط الواقفين .

ثانيا — إبطال تعليم الدين المسيحى من جميع مدارس الحكومة ، لأنه لا يجوز تعليم غير الدين الرسمى فيها ، كما هو متبع فى الممالك المتمدنة .

* * *

رحم الله الشيخ عليا فقد أجهد نفسه وعقله وقلمه فى سبيل الدفاع عن وجهة نظره فى هذه القضية العنصرية ولو بعث الشيخ من قبره لسره ما يجد عليه الأمة المصرية فى هذا العهد الأخير من التضامن الشديد ، والاتحاد الوكيد ، والاستمساك بالعروبة الوثقى لا انفصام لها ؛ ونعنى بها عروة الوحدة القومية . لو بعث الشيخ من قبره لسره ذلك كل السرور ، ولعرف أن المصريين على يد زعيمهم سعد زغلول وضعوا لأنفسهم من بعده خطة حكيمة لمحاربة المحتلين ، وأن هذه الخطة قامت على مبدأ الوحدة الوطنية ، ووأد الفتن الطائفية ، وللظهور أمام المحتل الغاصب صفا واحدا ، وجبهة واحدة .

الفصل الثامن

أسلوب السيد علي يوسف

تحدث الخديو عباس الثانى عن صديقه السيد على يوسف فى المذكرات التى نشرتها جريدة المصرى [1] فقال :

« وكنت أريد أن تكون لى صحيفة قادرة على أن تثير الشعب ، وتقوده شيئا فشيئا إلى إدراك أكثر وضوحا للوطن وواجبات المواطن . فدعوت كاتبا من كتاب اللغة العربية كنت قد سمعت عن صفاته ومزاياه ، وهو الشيخ على يوسف . وكان قد تردد على مدرسة المعلمين ، وكان خارجا من الجامعة الأزهرية . وكان قد لفت إليه الأنظار ، إن لم يكن باتساع أفقه الفكرى ، فبحماسته فى المناقشة ، وبموهبة مجادل حقيقية ، وبقدرته المشهودة على هضم المسائل . وخاصة إذا ذكرنا أنه لم يكن يتكلم لغة غير العربية ، ولم يدرس إلا فى المساجد .

وكان الشيخ على يوسف — وهو من أهل الصعيد — يعرف عقلية مواطنيه ومطامعهم . وكان — رغم أنه تربى فى بيئة دينية — يعرف كيف يفرق بين واجبات الفرد نحو بلاده والاحترام الواجب للدين . وكانت سياسته تستند أحيانا على نفوذ الخليفة ، ولكنها لم تكن على الخصوص تركية إسلامية !

وهذه ألوان قد لا يحسن الوطنيون فى الوقت الحاضر إدراكها ، ولكنها فى بداية نشاطنا قد زادت من تأثير الشيخ على يوسف على الشعب .

---

(١) جريدة المصرى بتاريخ الأحد ١٣ مايو سنة ١٩٥١ .

وكان الشيخ على يوسف يتخذ أحيانا مظهر مدافع عن الإسلام أكبر منه محركا للشعور الوطنى . وكان الغرض من هذا «التكتيك» هو أن تجتمع كل القوى المشتتة حول فكرة واحدة عامة وقوية ، وخلق عاطفة التماسك والترابط عند الجماهير ؛ وهى العاطفة التى لا يتم بدونها عمل . وفضلا عن ذلك فقد كان الشيخ على يوسف فى بداية نشاطه يتخذ على الأخص ستار الكثير من الشخصيات البارزة التى كانت تحمل إلى الجريدة ثمرة ملاحظاتها ، وخلاصة تجاربها فى حياة كرست للإدارة ، أو لتسيير العدالة فى طريقها السوى . وكان أكبر رجال البلاد اقتداراً ، وأعلاهم تميزاً يساهمون فى عمله هذا . وكان معروفا أن القصر يؤيد ذلك . فكان قارىء لسان حال التحرير يقطف من أعمدته زهرة الفكر المصرى .

وسرعان ماغدا (المؤيد) بفضل هذه الوسائل إحدى الصحف العربية الرئيسية ، يقرؤه الناس من طنجه إلى الهند ، ومن تركيا إلى زنجبار .

وقد أفلح على يوسف فى بعث الإحساس فى قلوب مواطنيه بشخصيتهم القومية ، لفرط ما استمع إلى الحديث عن علاقات مصر ، وعن ماضيها وحقوقها ، ولفرط ماناقش معاونيه الأعلام فى السياسة العامة ، وعلاقاتها بالموقف الراهن ، كما كان استحضاره للعصور الغابرة — التى كان حسن الإلمام بها يتيح له إيقاظ الذكريات الجيدة — يبعث فى نفوس قرائه الإيمان بالمستقبل .

لقد كانت تلك مرحلة أولى . وكان علينا أن نجتازها . كنت أرى أن من سوء التصرف أن ننقل شعباً نائماً — بدون فترة انتقال — إلى نور الأحداث الجارية الساطع ، وأن تزعجه يقظته ببهر مفاجىء .

وقد كان على يوسف بارعا فى استخدام الرباط الطبيعى القوى الذى يربط المصريين منذ عهد بعيد ، بارعاً فى تأسيس وطنية على أساس من تلك العاطفة العميقة الجذور . ولم يكن تعلمه الدينى يؤثر إلا قليلا على نزعاته

التحررية . وكان يرى أنه يقود أمته نحو الاستقلال ، وإن كان لايزال يتصور مصر كعضو فى الأسرة الاســـلامية الكبيرة التى كان يرى ألا انفصام لمصر عنها .

وطالما قلت لنفسى : إن مما يؤسف له بالغ الأسف أن يكون تعليم الشيخ قد باعد به إلى حد ما عن الحضارة الأوربية وتاريخها . ولعله بما وهب من ذكاء ، وبغريزته الملهمة فى الحقائق السياسية كان قد غدا رجلا آخر ، وكان قد وسعه أن يمنح الحركة الوطنية طابعاً أكثر مطابقة للواقع والحاضر .

وكان مع ذلك قد زار أوربا ، وخاصة فرنسا وانجلترا وتركيا . ولكنه ظل مغلق النفس أمام مفاتن حضارة لم يكن يعرف غير واجهاتها ، وإمام إغراء البادشاه [1] الذى كان قد استقبله .

والحق أن الشيخ على يوسف لم يكن — يوما ما — رجل تركيا . وإذا كان فى بعض الأحيان قد أيد الخليفة . فانه لم يكن يعنى سلطان القسطنطينية وإنما زعيم الإسلام .

كان ذلك الرجل الذى قاد الرجال ، وأدرك معنى الأمة ،ومعنى الإخلاص مصرياً قبل كل شىء . وقد نجح — أياً ما كانت شخصيته وآراؤه — فى أن يستميل الرأى العام ، ويجمعه ، ويعلمه التفكير » !

* * *

وندع هذه المذكرات التى أمدتنا بأصدق صورة نعرفها لهذا الكاتب الصحفى ونعود بحياته من أولها . فنرى الشيخ عليا بدأ حياته أديباً أومتعاطيا للأدب، وذلك منذ كان طالبا يتلقى العلم فى أروقة الأزهر. ولكنه كان أديبا من طراز الأدباء المغمورين فى عصره ، لا لشىء إلا لأنهم يكتبون جميعا بطريقة قديمة، ولا يستطيعون أن يدركوا أن الأدب لفظ ومعنى وأسلوب وعاطفة . فهم إذن نسخ مكررة لكتاب واحد ، وصور كثيرة لنمط فرد ،

(١) بادشاه فارسية معناها الملك. ولعله يريد بها هنا (المظاهر الملكية الرسمية) أو نحو ذلك.

وتألف للشيخ على يوسف من جهوده الأدبية الأولى كتاب، أوديوان سماه «نسمات السحر». ولا بأس من أن نقتطف منه نموذجاً لشعره، وآخر لنثره لمجرد المعرفة.

مدح الشيخ على يوسف فى شبابه السيد عبد الخالق السادات بقصيدة منها:

دمع بماء حشا الملهوف قد وكفا ... بجفن صب على بحر الهوى وقفا
قدغادرته حُداة الظعن فى شغف ... ياحادى الظعن رفقاً بالذى شغفا
ناشدتك الله أن تمرر بذى سلم ... فاذكر أخلاىّ عهداً كان قد سلفا
وقل لهم قد تركت الصب ينشدكم ... صِلوا صحيح غرام صبرُه ضعفا
إن لم تغيثوه وصلا عاد مشتغلا ... يتلو مدائح عبد الخالق بن وفا
ففـــيه للنفس ترويح وتسليه ... عنكم فياحبـذا ما كان ملتحفاً
فذاك مولى له الفضل منزلة ... عليا تسامت على السادات والشرفا
مولى تراه بثوب المجد مكتسيا ... وبالسعادة مشهورا ومتصفاً
لا يأمن الدهر إلا من يلوذ به ... والجار بالجار فى كل الورى عرفا(١)

ولا بأس بهذا الشعر يصدر من فتى فى مقتبل العمر ؛ لولا ما به من خطأ صرفى وآخر نحوى لا يخفيان على قارىء البيت الثالث.

وقال يهنىء رجلا برتبة المتمايز:

تهنيـــك نفسى ونفسى أهنى ... فكل التهـــانى إلىَّ ومنى
وإن قلت يادهر هنى أمـــيرى ... يقـول وهـا أنا من لى يهنى
فناهيـــك أنى نلت المعـالى ... وحـــزت بمرقاه كل التمنى(٢)

وقال فى غادة:

عجبت لقـــدها لمـا تثنت ... بحلية حسنها تسعى لقلبى
طلبت دنوهـــا منى فضنت ... ولـكن بعد ذا منت بقرب(٣)

---

(١) نسمات السحر ص ٧١.
(٢) نفس المصدر ص ٣٢.
(٣) نفس المصدر ص ٥٣.

وعلى هذا الغرار نظم الفتى أكثر شعره .

أما النثر فمنه ما كتب إلى بعض أصدقائه بعد غيبة طويلة [1] .

« يا أشواقى مالك كل وقت تعبثين بالمهج ، وأتواقى مالك قد أهديت إلى أحشائى الوهج؟ وأنى تطيب النفس ولا أنس ؟

فياقلبى ما أجهلك بالمودة إذا لم تراع عهود الأودة أين اظهارك الصداقة والخلة [2] فلا خلة ؟ وأين محالفتك الأحباب بالوفاء ، والصفوة وعدم الجفاء؟ وأين انبعاثك إلى الوعد بالرسائل ، وسعيك فى توطيد الوسائل ؟

فكن طوع يد الهوى ، وأسير الجوى ، ولو طال النوى ، ووهت القوى ، جزاء تأخيرى رد رسائل الصديق الصدوق ، الأشهى من الصبوح والغبوق ، المنتبه إلى حفظ خلته ، وازدياد مودته . ونظرت إلى نفسى نظر الشانى ، ودعوتها إلى تقديم العذر عن هذا التوانى . فثارت — وهى خجلة الوجه — إلى وجه الاعتذار عند إقامة الأعذار .

ولكن علىّ بما لدى السيد من المكارم ألجأنى إلى استعطاف المراحم . فعذرى — وخلتك — هو ماحل بجسمى من الفتور الشديد ، والضعف الذى ما عليه من مزيد ، زمناً لا ينقضى عن زمن التأخير ، وعفوك أوسع من أن يرد صاحب القلب الكسير ، وهو غير عسير . وإن كنت استحق الجفاء والعقاب . وها أنا انتظر ما يكون الجواب بعد هذا الجواب — والسلام » .

تلك صورة موجزة ، بل لمحة خاطفة من أدب هذا الفتى فى صباه لا تحتاج منا إلى تعليق بعد الذى بدا فى سطورها من ميل إلى السجع ، والجناس وتشبه بكتاب العصر ، وكتابة الرسائل الإخوانية على طريقة الشاعر فى قصائده الوجدانية .

---

(١) نفس المصدر ص ١٠٣ .

(٢) الخلة بضم الخاء الصديق يستوى فيه المذكر والمؤنث .

ثم انتقل الفتى فجأة إلى عالم الصحافة ، وبدا للناس خلقا من طراز آخر . وأدرك يومئذ أنه إنما يمارس فناً غير فن الأدب . وكم كانت الأقدار سخية على هذا الرجل حين كشفت له فى نفسه عن هذه الموهبة ، وحين زودته فى الوقت نفسه بطائفة من الأخلاق التى لابد منها لصاحب هذه الموهبة .

وعندى أن الصحفى كالسياسى يجب أن يكون رجلا شديد اليقظة ، حاضر البديهة ، هادىء النفس ، قوى الأعصاب ، ماكراً ، بعيد الغور بقدر المستطاع ؛ لاينفعل انفعال الأديب ، فيثور ثورة يظن أنه يقيم بها الدنيا ويقعدها ، ولا يعالج الأمور بسذاجة رجال الدين ، فيعتمد على النصح والإرشاد وحدهما ، ولا يعمل عمل الفنان ، فيضيع وقتا طويلا فى قطعة فنية واحدة يريد أن يخرجها . ولا يخاطب الناس من أبراج عاجية تبعث الرهبة فى نفوسهم ، وتباعد بينه وبينهم .

وكذلك الشيخ على يوسف . كان يعرف لنفسه غاية يسعى إليها ، ويرسم لنفسه طريقة يسلكها فى سبيل وصوله إلى هذه الغاية .

فأما الهدف فالأخذ بيد مصر والإسلام فى محنة هى أشد المحن التى مرت بهما ، وهى محنة الاحتلال . وأما الطريقة فمصانعة الانجليز . وأخذهم حيناً بالتشدد ، وأحياناً باللين ، وبذل النصيحة لهم فى شىء غير قليل من السخرية ، حتى يعرفوا للاسلام حقه من جهة ، ويسيروا على هدى من المؤيد سيراً حسناً فى انهاض مصر من كبوتها من جهة ثانية . ولعل مصر فى تلك الفترة العصيبة التى مرت بها لم تكن محتاجة إلى كاتب صحفى قدر احتياجها إلى كاتب من هذا النوع .

والخلاصة أن الرجل كان معتدلا قوى الحجة ، ناصع البيان ، قريب المأخذ . كل ذلك فى هدوء ، وسخرية ، ولين مس ، وإصابة هدف . ولعل

ذلك ما عناه بعض المستشرقين بقوله عن صاحب المؤيد – كما قدمنا – إنه استطاع أن يخدم مصر أكثر من عشرة رجال يمكن أن نسميهم لهداية الرأى العام الإسلامى وتكييفه .

فما هو الأسلوب الذى اصطنعه الشيخ على يوسف لأداء أغراضه الصحفية المختلفة ؟ وما خصائص هذا الأسلوب ؟ وما الصلة بينه وبين صاحبه، وبينه وبين الظروف المحيطة به ؟

وفى هذا المقام يجدر بى أن أنبه إلى شىء جدير بالانتباه : ذلك أن حسن البيان ، وجودة المقال لا ترجع فى جميع الأحوال إلى تمكن الكاتب من ناصية اللغة ، وتفقهه فى أساليبها ، وبصره بمواقع اللفظ منها ، واستظهاره لصدر صالح من بلاغات بلغائها ، إلى حسن ذوق ، ورفاهة حس ، بحيث يتهيأ له أن يصوغ فكرته أنور صياغة ، ويصورها أبدع تصوير . بل إن ذلك ليرجع فى بعض الأحوال ، وهى أحوال نادرة جدا – إلى شدة نفس الكاتب ، وقوة روحه . فقد لا يكون الرجل وافر المحصول من متن اللغة ، ولا هو على خط كبير من استظهار عيون الكلام ، ولا هو بالمعنىّ بتقصى منازعات البلاغات . ومع هذا القدر يرتفع بالبيان إلى ما تتقطع دونه علائق الأقلام . ذلك لأن شدة نفسه ، وجبروت فكرته تأبى إلا أن تسطو بالكلام، فتنتزع البيان انتزاعاً . ولعل فى بيان السيد جمال الدين الأفغانى – وهو غريب عن العربية ، وقاسم (بك) أمين – وهو شبه غريب عنها ، أبين مثال على هذا الذى نقول . ولقد يعجب القارىء أشد العجب إذا زعمت له أن المرحوم حسين رشدى (باشا) – وكان رجلا قل أن تطرد على لسانه ثلاث كلمات عربية متواليات – لقد كان أحياناً يرتفع بالعبارة إلى ما يتخاذل من دون جهد أعيان البيان .

والآن أستطيع أن أزعم أن الشيخ على يوسف – على أنه تعلم فى الأزهر ، وقرأ طرفا من كتب الأدب ، واستظهر صدرا من مظاهر البلاغة

فى منظوم العربية ومنثورها ـــ إلا أنه لم يكن مدينا فى بيانه لشىء من هذا ، بقدر ما كان مدينا لشدة روحه وسطوة نفسه . وإنك لتقرأ له المقال يخلبك ويروعك ، وتشعر أن أحدا لم ينته فى بيانه منتهاه . ثم تقبل على صيغه تفتشها وتقرها ، فلا نكاد تقع على شىء من هذا النظم الذى يتكلفه صدور الكتاب . وبهذا أنشأ الرجل لنفسه أسلوبا ، أو على الصحيح ـــ لقد خط قلمه القوى نهجا من البلاغة غير ما تعاهد عليه الناس من منازع البلاغات [1].

وشىء آخر يجدر بنا كذلك أن ننبه عليه قبل الإجابة عن هذه الأسئلة ، هذه الملاحظة الهامة فى تاريخ الصحافة وخلاصتها ؛ أن جريدة المؤيد تعتبر من أولى الصحف التى ظهرت على أنها يومية منذ بداية صدورها . وإذا قلنا صحيفة يومية ، فقد قلنا كل شىء عن أسلوب السيد على يوسف فى كتابة المقال الصحفى . ذلك أن الفرق كبير دائما بين كتّاب الصحف اليومية ، وكتاب المجلات الأسبوعية والشهرية . وهو فرق يأتى من الزمن الذى يتاح لكاتب المجلة الأسبوعية أو الشهرية ، ولا يتاح لكاتب الصحيفة اليومية .

والزمن عنصر هام فى هذه القضية الأدبية ، ولا ينبغى للناقد أو المؤرخ أن يغفل عنه أو يهمله . وفرق كبير بين رجل صحفى يلتصق إلى مكتبه فى الصحيفة ، لا يبرحها فى وقت من الأوقات ، ورجل أديب لا يجلس إلى مكتبه ، أو يضع القلم بين أصابعه إلا متى أراد .

والآن يصح لنا أن ننظر فى أسلوب الشيخ على يوسف فنرى أنه متميز بصفات ، منها على وجه الإجمال :

أولا : شيوع الروح المنطقية فى الكتابة . ولهذه الروح المنطقية فى عبارة الشيخ على يوسف مظاهر عدة :

---

(١) الشيخ عبد العزيز البشرى ، المختار — الجزء الأول ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

منها — تأليف الجمل على شكل مقدمات ونتائج ؛ تبدأ المقدمة بقوله (ولما) أو (ولما كان) وفى النتيجة دائما يكون الجواب . ومنها — أعنى من مظاهر الروح المنطقية فى هذا الأسلوب — شيوع المناقشة فى غضون المقال . وهى مناقشة على طريقة الأزهريين ، أو طريقة الكتب القديمة » . وتمتاز هذه الطريقة بقولهم دائماً : فإن قلت كذا . قلنا كذا . وهى كثيرة الدوران فى كتبهم ودروسهم وأحاديثهم . ثم من مظاهر الروح المنطقية فى هـــذا الأسلوب إكثاره من التقسيمات ، ومن التعريفات ، ومن التلخيصات الخ .

وقد مرت بك أمثلة كثيرة من هذا الأسلوب المنطق ؛ كما فى مقالة له بعنوان (ما هى الحكومة النيابية) وقد ذكرنا طرفا منها .

ولعل أروع مظهر للروح المنطق فى أسلوب ذلك الصحفى إتيانه بالحجة القوية ، يدمغ بها حجة خصمه ، والدليل الواضح يفحم به معارضيه . وحين استعرضنا مقالات قصر الدوبارة وقعنا على شىء غير قليل من هذا النوع .

ولعل من مظاهر الروح المنطقية أيضاً فى هـذا الأسلوب عظيم اهتمام الشيخ فى أكثر الأحيان بكتابته المقدمة والخاتمة .

ولعل آخر ما نراه من مظاهر هذا الروح المنطق فى كتابة السيد على يوسف هذه الخاصة التى نشرحها فى الأسطر التالية :

ثانياً : اعتماد الكاتب فى أكثر الأحيان على أسلوب الاستفهام الإنكارى الذى يشيع فى كتابته دائما عقب فراغه من مناقشة الرأى السياسى أو الاجتماعى الذى يعرض له . وفى مثل هذه الحالات يشعر الكاتب عادة برغبته الملحة فى استكمال حجته عن هذا الطريق ؛ فيندفع فى سيل من هذه الأسئلة الاستنكارية ، يلقى بها فى وجه محدثه ، أو فى وجوه خصومه

الذى يحملهم على الاتفاق معه فى الرأى ، ليرسم لهم الطريق الصحيح الذى ينبغى أن يسلكوه ، حتى يضمنوا لأنفسهم النجاح والسداد .

والأمثلة على هذا كثيرة جداً فى كل مقال لهذا الكاتب الصحفى الكبير لاتحتاج فيها إلى إعادة التمثيل .

ثالثاً : اعتماد الكاتب على الواقع المحسوس يشتق منه الدليل الذى يسوقه على صحة رأيه فى مسألة من المسائل ، وتنكبه طريق الأدباء المعروفين بالتسلق على كلام من سبقهم من مشهورى الرجال ؛ وذلك فى ميدان الشعر أو الحكمة أو الشعر أوالقصص أو القرآن.ولا شك أن ذلك أثر من آثارعقل واقعى قبل كل شىء، وأثر من انغماس الشيخ فى الحياة المصرية التى يراها ماثلة أمامه دائما ، بخيرها وشرها . ثم لاشك أيضاً أن هذه قاعدة عامة من قواعد الكتابة الصحفية التى عرف بها هذا الرجل . فهو يشتق دليله من الحوادث اليومية ،لامن بطون الكتب الأدبية أو الفلسفية ، مع قدرته على الوصول إلى هذه الكتب ، والانتفاع بها ، والاستشهاد بكلام ذويها ، ومتى أراد .

وهكذا يجد الشيخ أن فى الواقع الملموس ما يكفى دائما لإقناع القارىء بوجهة نظره . وهنا يبلغ الحذق بالكاتب حداً يشعر معه القارىء أنه إنما يقرأ وجهة نظره هو ، لا نظر صاحب المقال .

وليس معنى ذلك أن الشيخ أعرض إعراضاً تاماً عن إيراد الحكم أو الحكايات والشعر أو الأمثلة الخ . بل معناه أنه كان مقلا فى ذلك إقلالا أخرجه من دائرة الفن أو محيط الأدب الى محيط الصحافة .وفى هذا المحيط الأخير كان له من الاستشهاد بأقوال الساسة من العرب،أو الساسة من الاوروبيين ما يحتاج إليه فى تقوية كلامه ؛ لا يعنيه شىء وراء ذلك .

أنظر إلى قوله «لقد ذهب المارشال تلى من قبله وقال للويس الثامن عشر سآتيك بنابليون فى قفص من حديد ، ولكنه لم يفعل . وجناب اللورد قال

لملكته وحكومته وأمته : سآتيكم بمصر تحفة راضية خاضعة ، ولكنه لم يفعل .

وإلى قوله : رأى بعض الحكماء رجلين لا يفترقان ، فسأل عنهما ، فقيل إنهما صديقان . قال فما بال أحدهما غنى ، والآخر فقير ؟ ونحن نقول : فما بال اللورد كرومر يريد بنا أسوأ المذاهب فى الوطنية الخ .

تلك العبارات وأشباهها أمثلة من اقتباس الرجل ، أو من اعتماده على كلام غيره متى حدثته نفسه بشيء من ذلك . وقلما تحدثه .

رابعاً : مساواة اللفظ للمعنى . والحق أن الشيخ كان من أولئك الكتاب الذين لا يؤمنون بالمبالغة فى القول ، أو الإسراف فى اللفظ ، والإطالة فى الكلام ، أو الإسهاب فى العبارة حين لا حاجة إلى هذا الإسهاب .

لا يحب أن يكيل الألفاظ كيلا بغير حق . ولا أن يلقى القول جزافا لغير غاية . وإنما كان يعطى لكل معنى حقه من الألفاظ التى يكون بحاجة إليها . ولكل قضية حقها من الدفاع الذى تتطلبه .

وليس شك فى أن ذلك أتى من جهتين :

أولاهما : ميل الرجل إلى الاعتدال وتجنبه السخط والفحش فى المقال .

والثانية : شغله بالمعانى ، واحتفاله بالأفكار التى يحرص على نقلها إلى قرائه من الوطنيين والأجانب على السواء .

وأكبر الظن أن الشيخ حين كان يهدف فى مقاله دائما إلى إقناع الإنجليز بنوع خاص كان يقدر فى نفسه تماماً أن هؤلاء لا يحفلون بالمقالة حتى تكون صحيحة المعنى ، حسنة الاستدلال ، موجهة فى المسائل المالية ، أو المعارف ، أو النظام القضائى ، والنظام الإدارى — على حد قول كرومر نفسه كما تقدم .

وهكذا كان الشيخ على يوسف الصحفى الوحيد الذى أفاد من توجيهات

خصومه ، وانتفع بنقدهم ، وحاربهم بسلاحهم في ميدان الكفاح الصحفي ، والكفاح السياسي .

على أن أسلوب الشيخ قد يميل أحيانا إلى التكرار المقبول ، انسياقا منه فى لهجة جدلية ، أو لهجة خطابية يراد بها التأثير على نفس القارىء ، كما فى قوله فى بعض مقالات قصر الدوبارة قاصداً اللورد كرومر : إساءات خالدة ما بقيت تقاريره فى الوجود . إساءات لا تقف عند حد القراءة ، ولكنها تثبت فى نفوس الأوربيين أن المصريين على ما وصفهم به اللورد الخ .

وكما فى قوله فى بعض تلك المقالات :

«لو كنت اللورد كرومر» وتكراره هذه العبارة فى بداية خمس أو ست فقرات من فقرات المقال الخ .

خامسا : زهد هذا الصحفي الكبير فى البديع والمحسنات ، بل زهده فى هذا الذى لا يخلو منه نثر فني مهما كان قائله ، ونعني به التقسيم الموسيقى للكلام . أو تساوى أكثر العبارات من الناحية الموسيقية الخالصة التى يراد بها إراحة أذن القارىء .

وإذا ذهبت تسأل : لم أعرض الشيخ عن كل ذلك مع قدرته عليه متى أراد ، وجدت أسبابه فى أمور منها :

(ا) اهتمام الشيخ اهتماماً قوياً بالمعنى الذى يدور فى ذهنه ، صنيع الرجل السياسى المسؤول عن كل عبارة ينطق بها فمه ، أو إيماءة تتحرك بها يده .

(ب) نظر الشيخ إلى أنه إنما يكتب فى جريدة يومية ، لا جريدة أسبوعية ؛ كما كان يفعل المويلحى وغيره من الصحفيين قبله . والجريدة اليومية لا تتيح لصاحبها متسعاً من الوقت فى الأسلوب . والتأنق فى التعبير . والمبالغة فى التنظيم والترتيب .

(حـ) عناية الشيخ دائماً بالرد على مزاعم الأوروبيين فى صحفهم المختلفة

وتقاريرهم المتباينة . وقد صرفه كل ذلك عن العناية باللفظ ، أو توخى الجمال أو الحسن ، إلى إتقان الفكرة وتوضيح المعنى ؛ غير مبال بالمحسنات البديعية التى قد تعبث بالمعنى فى ذهن القارىء العادى ، وتعبث به فى ذهن القارىء السياسى ، وخاصة إذا كان هذا القارىء أجنبيا لا علم له باللغة العربية .

(د) على أن الرجل كان — كما عرفنا — شديد المكر معقّد الشخصية ، بعيد غور النفس . وقد جعله كل ذلك لا يتحمس فى كتابته ويثور ، ولا يندفع فى مقاله ويتهور ، كما يفعل الشبان الذين فطروا على الهياج والتمرد ؛ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وهكذا عدل الشيخ عن المحسنات اللفظية التى لا تساوق شخصيته كرجل صحفى وسياسى فى وقت معاً . ولا ننسى مع ذلك أن الشيخ علياً لم يكن خطيبا ، ولا كان يصلح للخطابة . ولم يكن محاضراً ، ولا من أصحاب المنابر الخطابية العامة . وفى نظرى أن ذلك سبب من أسباب زهد الرجل فى تنعيم الكلام ، أو فى التقسيم الموسيقى للعبارات . ولو أن الشيخ كان من فرسان الخطابة ، أو عشاق المحاضرة لأثر ذلك فى أسلوبه هذا النوع من التأثير ، على النحو الذى نراه فى الخطباء ، والمحاضرين ، والممثلين .

سادساً : إيثار هذا الشيخ الأساليب العصرية ، والعبارات المتداولة ، والألفاظ الجارية على الألسن ، والمعانى الدائرة فى الأذهان . كل ذلك فى غير تبذل أو إسفاف ، أو هبوط بالأسلوب إلى مستوى العامة ، أو نزول به إلى الدرجة التى لا ترتضيها الخاصة .

ونحن نعرف أن هناك فى كل لغة نوعين من الأساليب :

أولهما : نوع يميل فيه الكاتب إلى التشبه ما أمكنه بالقدماء حين تغريه جزالتهم فى الألفاظ ، أو حين يجذبه إليهم تعمق فى الفكرة ، أو حين تستهويه منهم صورة بيانية حسنة ، أو تنميق وتجميل للكلام على نحو ما .

والآخر : نوع لا يحب كاتبه التقيد بالقدماء ، ولا يعنيه أن يتشبه بهم

فى أناقتهم ، ولا يرغب فى استعارة شىء من بضاعتهم ، ولا يميل إلى التسلق على بعض كلامهم .

والنوع الأول من أنواع الأساليب إرستقراطى المنزع ، موكل بالحال ، يتبعه أنى كان . والنوع الثانى عصرى المنهج يعيش فى الواقع الذى وجد فيه . ولكل من النوعين حظ من الحسن على كل حال .

وقد كان الشيخ على يوسف — فى ميدان الصحافة — من أولئك الذين يؤثرون الضرب الثانى . ومن ثم عرف أسلوبه (بالأسلوب السياسى) ؛ لأن فيه من الميزات السياسية أكثر مما فيه من الميزات الأدبية .

أجل — عرف أسلوبه (بالأسلوب السياسى) حين عرف أسلوب مصطفى كامل (بالأسلوب الحماسى) . وهذا الأخير أدنى إلى الخطابة منه إلى الكتابة والصحافة .

وبينما كانت المؤيد تمثل الأسلوب السياسى ، إذ باللواء — كما سنرى إن شاء الله — تمثل الأسلوب الحماسى . وهكذا أمست كل واحدة منهما تتمم الأخرى فى ميدان الحركة القومية ، والصحافة الوطنية .

(فاللواء) كما قلنا يثير الجماهير ، ويهيج الشعب ، ويبعث الحقد فى النفوس ، ويوقظ الكراهية فى القلوب .

(والمؤيد) ينير الطريق ، ويناقش المسائل فى هدوء ، ويعلق على الحوادث تعليقاً حكيما دقيقاً ، وينتقد ولاة الأمور فى الصميم .

أفليس من حق الشيخ على يوسف بعد كل ذلك أن نقول عنه إنه زعيم المدرسة الحديثة فى الصحافة المصرية ، لا ينازعه هذه الزعامة منازع ، ولا ينكرها عليه منكر ؟ ويستطيع كل ناقد أن يجحد فضل الشيخ على يوسف من أية ناحية ، ولكنه لا يستطيع مطلقاً أن يسلبه هذه الزعامة ، أو يجرده من هذه الموهبة .

وهكذا نرى الفرق واضحاً بين الشخصيتين اللتين تحدثنا عنهما فى جزأين من أجزاء هذا الكتاب ، وهما شخصية المويلحى ، وشخصية على يوسف : فأما الأول فرجل له فى الأدب جولة . وحين احترف الصحافة اتخذها مجالا لإظهار أدبه وفنه ، فكان يحرص على الأخذ من القرآن ، وعلى الاستشهاد بكلام الشعراء ، وعلى الإتيان بحكم الفلاسفة من العرب والأوروبيين على السواء ، وعلى إتقان الصور البيانية ، بل اللوحات الفنية التى يقدمها للقراء .

وأما الشيخ على يوسف فقلما تجد عنده شيئاً من ذلك . وهو إذا اتجه بذهنه إلى معنى من معانى القرآن ، أو فكرة من أفكار الكتاب ، أو أسلوب من أساليب الشعراء أتى بهذه الأشياء كلها بسرعة عجيبة ، وعدم اكتراث بالأساليب أو القوالب الأدبية التى وضعت فيها .

ومع ذلك فقد مر بنا كيف أن لبعض الأدباء قدرة ما على العبث بهذه القوالب ، ولكنه عبث فنى فى ذاته ، يقبله الذوق ، ويستريح له الخاطر ، وتتلذ به النفس . وأما عبث الشيخ على يوسف فليس فى شىء من كل ذلك .

* * *

توفى للشيخ ابن له فى سنة ١٩٠٨ . فرثاه فى (المؤيد) بكلمتين قال فى أولاهما :

فى ذمة الله ياعمر

فقد صاحب هذه الجريدة الساعة السادسة بعد ظهر أمس ولده الوحيد « عمر يوسف » فى الحادية عشرة من عمره ، بعد مرض قليل الأيام ، كثير الآلام ، فإلى الله مآبك ياعمر ، وإلى الله مآبك أيها الزهر الذى قطفه الموت فى أزكى شذاه .

إلى الله مآبك أيها الكبد الذى يمشى على الأرض ، ثم هوى إلى حفرة أبدية يسمونها القبر ، ولو استطعنا لكان فى القلب .

بل هناك قلبان أولى بهما أن يكونا قبره : قلب والده الحزين ، وقلب أمه الثكلى .

قبل عشر سنوات وأربعة أشهر ، أى فى ١٠ رجب سنة ١٣١٦ امتلأ بيتنا فرحا وسروراً ، وأفعم قلبانا بشراً وحبوراً لمولد عمر . فلا غرو أن يمتلىء اليوم هذا البيت ، وكل قلب فيه غماً وحزناً لفقده ، والحياة قصاص .

إلى الله مآب كل وديعة فى هذه الحياة ، ولابد يوما أن ترد الودائع ، فالوداع الوداع ياريحانة القلب ، وفلذة الكبد التى لا أجد على فراقها سلوا إلا التأسى بما ودع به رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنه ابراهيم عند ما فاضت روحه :

« إن العين لتدمع ، وإن القلب ليخشع ، ولا نقول إلا مايرضى الرب ، وإنا على فراقك ياابراهيم لمحزونون ، وإنا لله وإنا إليه راجعون » .

وماذا يفعل الفاقد لكل حول وحيلة أمام ذلك الخالق ذى الجبروت ، الذى تحطم قدرته كل قوة ، وتفقد المحتال كل حيلة . فإذا لم يكن أمامنا — وقد عظم المصاب ، وسحق كل قوة فينا — إلا الصبر ، فلنصبر طوعا أو كرها ، والله ولى الصابرين . (انتهت الرسالة)

ومن معانى الشيخ على يوسف هذه نظم الشاعر الكبير اسماعيل (باشا) صبرى أبياتا فى رثاء عمر ؛ قيل إنه ارتجلها يومئذ ، ونشرت هذه الأبيات فى المؤيد وهى :

يامالىء العين نوراً والفؤاد هوى ... والبيت أنساً . تمهل أيها القمر
لا تخل أفقك يخلفك الظلام به ... والزم مكانك لايحلل بك الكدر
فى الحى قلبان باتا ، يانعيمهما ... وفيهما - إذ قضيت - النار تستعر
وأعين أربع تبكى عليك أسى ... ومن بكاء الثكالى السيل والمطر
قد كنت ريحانة فى البيت واحدة ... يروح فيه ويغدو تحتها العطر

فارحل تشيعك الأرواح جازعة   فى ذمة الله بعـــد القبر ياعمر

ودع عنك أبيـات صبرى رغم رقبتها ، وأصابتها جميع المشاعر التى ازدحمت فى قلب هذا الشيخ ، وانظر فى هذه السطور القلائل التى كتبها الرجل مرة أخرى فى رثاء ولده .

فنى اليوم التالى نشر الشيخ فى مؤيده الكلمة الثانية بعنوان :

من الدنيا إلى الآخرة

فى الساعة الثالثة بعد ظهر أمس شيعنا جنازة عمر من الدار الدنيا إلى الدار الآخرة .

خرجنا من الدار التى ولد وشب فيها ، فألفها منذ كان طفلا يحبو ، إلى أن صار فتى يمشى بها مشية الخيلاء . من الدار التى كان يضيق فناؤها على سعته به ، فيذهب إلى الشارع ، وإلى المتنزهات ، تحيط به الخدم من أن يصيبه أذى — إلى ذلك اللحد الضيق الذى لا يستطيع أن يعيش فيه إنسان ساعة من الزمان ، ولكنه مع ما به من وحشة ووحدة أوسع المنازل بعد الموت ، وآنسها لمن يلقى الله طاهراً مثل عمر .

خرجنا به . لا كما كان يخرج فى عربته إلى المدرسة ، يصحبه خادمه ، بل محمولا على الأعناق ، مودعا بجماهير المشيعين ، فى سرير كما تزف العروس مغشىّ بالحرير الأبيض ، ومجلل بالزهور . ولكنه كان زفافا محزنا ، يعلوه جلال الموت خطيبا يصيح « الصبر أجمل » والناس يصيحون .

سار مشيعوه جميعا مطرقى الرؤوس ، كأن عليها الطير ، وتخاف أن يطير ، إلا رأسين كانا يلتقيان إلى النعش بنظرات الملهوف : رأس والده الحزين فى مقدمة الجنازة ، ورأس والدته الثكلى فى مؤخرتها . فيهما أربعة أعين هامية . ودونهما قلبان مستعران ، ومهجتان زافرتان « وكبدان واجفان . لولا الصبر لصارا أوارا . ولذابا استعارا . والصبر أحمد العواقب فى مثل

هـذه المصائب ، لأنه فضيلة يتحلى بها ذوو الشمائل الفضلى . ولـكنه أيضاً منتهى ضعف المخلوق .

* * *

فانظر فى هذا الإيجاز الذى توخاه الشيخ ، بل المساواة التى أشرنا إليها على أنها سمة من سماته فى الكتابة . ثم انظر إلى طريقة الرجل فى الاستعارة من كلام الشعراء ، فإنها طريقة موجزة شديدة الاختصار ، ولولا أن العبث بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجوز على هـذا النحو لمـا وجدنا الحديث برمته فى هذا الرثاء .

وتأمل معى رجلا فى مكان الشيخ على يوسف ، مات وحيده ، وكان الرجل من الكتاب أو الشعراء ، أو من الفلاسفة الحكماء. تأمل معى رجلا فى مكانه من هـذا الطراز ، ألا تراه يكتب فى هذا المجال مقالا غير هذا المقال ؟ ألا تراه يميل إلى الاستشهاد الكامل بكلام المعرى حيناً وأبى الطيب المتنبى حيناً ، وابن الرومى حيناً ، وبالقرآن حيناً ، وبأقوال الفلاسفة حيناً وهكذا ؟

لا شك أن المجال هنا أدبى لا صحفى . ومع ذلك فقد ظهرت خصائص الأسلوب الذى عرف به الشيخ على يوسف فى الأدب ، فإذا هى قريبة من خصائصه فى الصحافة .

* * *

(وبعد) فإنى أخشى أن يفهم من كلامى هذا أن أسلوب الشيخ على يوسف قليل الحظ من الجمال . أخشى ذلك بعد إذ أوضحت فى جلاء أن مصدر الجمال فى أسلوب الشيخ ذاتى بحت . فأسلوب هذا الرجل صورة صادقة من هدوء نفسه ، ووضوح فكرته ، واعتدال مزاجه واعتماده على قوته وإيمانه بالواقع الملموس ، وميله أحيانا إلى السخرية الخفيفة التى تصيب الهدف منها ، وهى فى الوقت نفسه تعمل عملها فى نفوس الخصوم السياسيين ، بل صورة من

ميله أحيانا أخرى إلى إحداث الموازنة التى يستعين بها دائماً على إظهار الحقيقة ، ليؤمن بها أصدقاؤه ومعارضوه على السواء . وتلك جميعها صفات الصحفى الناجح الذى يعرف أن من أيسر واجباته نحو الصحيفة اليومية التى يديرها قيامه بكتابة المقال الافتتاحى كل يوم ، فيقبل على كتابة هذا المقال بالسهولة التى يزاول بها كل فرد من أفراد الأمة عمله اليومى .

(والخلاصة) فى المقـال الصحفى على يد الشيخ على يوسف أنه لم يعد محاولة بدائية ضعيفة ، كما كان عند رفاعة الطهطاوى وتلاميذه ، ولا موضوعاً إنشائياً أنيقاً ، كما كان عنـد أديب اسحق ، ولا درسا دينيا أو اجتماعيا أو أخلاقيا كبيرا ، كما كان عند الشيخ محمد عبده ، ولا خطبة من الخطب الطويلة ، كما كان عند السيد عبد الله النديم ، ولا معنيا فيه باللغة التقليدية (الكلاسكية) القديمة ، كما كان عند ابراهيم المويلحى . بل إن المقال الصحفى الذى كتبه على يوسف كان مادة صحفية صحيحة بكل ماتحمل هذه الكلمة من معنى . وكان فى الوقت نفسه مطلقا من جميع قيود المـاضى التى تقيـد بها أولئك الأدباء والصحفيون ممن ذكرناهم فى معرض الموازنة بينهم وبين هذا الشيخ . وأهم من ذلك كله أن السيد على يوسف كان يتكىء فى هذا الأسلوب الصحفى الجديد على نفسه ، لا على غيره من أساطين الـكلام .

وذلك معنى قولنا عن هذا الصحفى الفذ أنه : كان بحق زعيم المدرسة الصحفية الحديثة فى مصر .

خاتمة ونموذج

الخاتمة

عجب الناس فى مصر والشرق ، كما عجب الناس فى أوروبا كيف أن أزهريا بسيطاً كالشيخ على يوسف يستطيع فى وقت قصير أن يكون صحفياً ناجحا إلى حد أن وصفه بعض المستشرقين ، كما تقدم القول فى ذلك ، بأنه أكبر صحفيي العالم ، بل إلى الدرجة التى وُصفت بها جريدة المؤيد بأنها « تيمس الشرق » .

ولعل مصدر هذا العجب أن الثقافة الأزهرية وحدها قد لا تعين صاحبها على أن يكون عبقريا فى ميدان الصحافة . ونحن نعرف أن هذه الثقافة الأزهرية الخالصة لا تعدو العلوم النقلية المعروفة من ناحية، وبعض العلوم العقلية ، كالمنطق وغيره من ناحية ثانية .

وإذن فلا مفر من القول بأنها الموهبة ؛ يهبها الله من يشاء من عباده ، فتظهر عند أول فرصة تلائم هذا الظهور ، وتظل منذ ذلك الوقت مصدر إشعاع قوى تراه الأبصار فى صاحب هذه الموهبة ، أو نبوغ عظيم تحكم به الأذواق عند قراءتها لثمراتها الطيبة . ولا غرو فى ذلك فمن الشعراء من تحس عند قراءته بأنه صاحب « نبع شعرى » يتفجر منه الشعر فى سهولة ويسر ، ومن الشعراء من تحاول جاهداً أن تحس فى شعره بوجود هذا النبع ، فلا تفلح فى هذه المحاولة .

الحق أننا حين نقرأ للشيخ على يوسف ، ونطيل قراءته ، وحين نعاشر هذا الشيخ من خلال صحيفته، نشعر شعوراً قوياً بأننا فى حضرة رجل صحفى بكل ما فى هذه الكلمة من معنى .

بل إن قراءتنا لآثار هذا الرجل ، ومعاشرتنا إياه من خلال صحيفته تنهض دليلا كافيا على الفروق الواضحة بين رجل الصحافة ورجل الأدب .

وهى الفروق التى أشرنا إليها فى خاتمة الجزأين السابقين من أجزاء كتابنا هذا ، وأنكر الناس علينا هذه التفرقة . لظنهم أن كل أديب من الأدباء يستطيع أن يكون صحفياً ناجحاً، وأن كل صحفى من الصحفيين فى استطاعته أن يكون أديباً بارزا ، إذ ليست الصحافة والأدب بزعمهم ، غير القدرة البيانية التى لابد منها لكل منهما .

نعم — من الناس من يجمع بين الأمرين ، ويستطيع أن يكون هذين الرجلين ، ولكن هؤلاء قليلون ، ولهم ظروف خاصة بهم . ومع ذلك فلا بد لأحدهم أن يكون فى إحدى الناحيتين أكثر تفوقا منه فى الناحية الأخرى .

يجب إذن أن ندرك دائما أن الصحافة « أدب غيرى » بمعنى أنه أدب يعنى فيه الصحفى بغيره لا بنفسه ، أو بمعنى أنه أدب مقيد دائما بالمجتمع . ومن هنا اختلفت الموهبة الصحفية عن الموهبة الأدبية اختلافا بينا .

ولقد كان الشيخ على يوسف من أولئك الرجال الذين أفردتهم الأقدار بواحدة فقط من هاتين الموهبتين ، ونعنى بها الموهبة الصحفية . والرجل الصحفى بحاجة دائما إلى هضم المسائل العامة فى المجتمع هضما جيدا . وهو بحاجة بعد ذلك إلى السطوة النفسية التى يسطو بها على هذه المسائل العامة ، فإذا هى جزء من نفسه وروحه وعقله وقلبه ، وإذا التعبير عنها تعبير عن ذلك كله فى وقت معاً . ومقياس هذه السطوة النفسية فى الكاتب الصحفى شيئان ، هما الوضوح والحماسة . والكاتب الصحفى لا يبلغ من هاتين الصفتين مبلغا ما إلا عن طريق السطوة التى نتحدث عنها .

ولقد كان الشيخ على يوسف واضحا ، كما كان — إلى حد ما — متحمسا . وذلك أن تحمسه من نوع آخر غير الذى نراه عند رصيفه فى الصحافة والسياسة — مصطفى كامل . ومرجع ذلك إنما هو اختلافهما فى المزاج ، وفى النشأة ، وفى الخلق ، وفى الشخصية .

ثم إن مصر فى حقيقة الأمر لم يكن لها عهد بالطريقة التى سلكها رجل كعلى يوسف فى الكتابة . فقد ألف المصريون منذ بداية القرن الماضى أن يقرأوا لرجال من الكتاب تخرجوا فى الأزهر الشريف ، وربما أتم بعضهم تعليمه بعد ذلك فى أوربا . ولكن منذ ظهور الصحافة الشعبية المصرية ظهر إلى جانب الأزهريين كتاب آخرون ، تثقفوا بثقافة لاتمت إلى الأزهر بسبب . وكان هؤلاء وأولئك يكتبون بلغة روعى فيها التنميق الأدبى مراعاة تلفت النظر . وقد أطلقنا على هذه اللغة أو الأسلوب الكتابى اسم « الطريقة الكلاسيكية فى الأدب أو الصحافة » .

أما الشيخ على يوسف فبرغم أنه ممن تعلموا فى الأزهر ، ولم يتموا تعلمهم فى أوروبا ، فإنه منذ جال بقلمه فى ميدان الصحافة الشعبية اليومية وجدناه يقدم لقرائه نموذجاً جديداً من الكتابة العربية ؛ وهو نموذج قد لانستطيع نحن المحدثين أن ندرك مقدار مافيه من التطور أو التجديد ؛ لأن صحافتنا — فى الحقيقة — وليدة هذه الجهود التى بذلها أمثال الشيخ على يوسف فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، ثم نسينا نحن هذه الجهود منذ ألفنا هذا النمط من الكتابة الصحفية . ومن هنا ينظر التاريخ إلى الشيخ على يوسف على أنه زعيم مدرسة حديثة فى الصحافة ، أو صاحب طريقة جديدة فى الكتابة ، هى هذه الطريقة التى تجرى عليها صحافتنا فى الأعم الأغلب إلى اليوم .

والخلاصة : أن من أراد أن يعرف المراد بكلمة (المقالة الصحفية) عند إطلاقها ، أو أراد أن يعرف الفرق بينها وبين المقالة الأدبية الخالصة عند إطلاقها فليقرأ مقالات الشيخ على يوسف فى المؤيد .

غير أنه لاغنى لصاحب هذه الطريقة التى نحن بصددها عن التزود من « الأدب الكلاسيكى » وإن ظهر للقارىء أنه لا أثر لهذا الأدب الكلاسيكى القديم فى طريقة جديدة فى الكتابة كتلك التى اتبعها الشيخ على يوسف .

فحبذا لو أدرك الناشئون فى الصحافة هذه الحقيقة ، فأخذوا أنفسهم أخذاً قوياً بذلك ؛ وربحوا لأنفسهم محصولا كبيراً من الآداب القديمة ، شرقية كانت أم غربية .

أجل — لقد كان الشيخ على يوسف رئيساً لتحرير المؤيد ؛ فأفاد من ذلك فائدة ليس إلى إنكارها أو حصرها من سبيل .

فمن اجتماع له بقادة الرأى فى مصر ، إلى حيازة لمكتبة ضخمة لا تستغنى عنها أسرة التحرير فى أى وقت ، إلى تنظيم للقصاصات الصحفية التى لابد منها كذلك لكل مشتغل بهذا الفن ، إلى اطلاع واسع ودقيق ومتصل على شتى الصحف الوطنية والأجنبية التى تناقش المسائل العامة فى هذا القطر ، إلى غير ذلك من الأمور التى جعلت الرجل يلتصق بمكتبه فى إدارة المؤيد ، لا يبرحه ليل نهار . وقد خلق منه كل ذلك شخصية كبيرة لرجل عرف كيف يقود الرجال ، بل لربان سفينة ؛ هى سفينة الوطن التى كانت تسير فى بحر عاصف بالأمواج ، مشمول بالظلام !

* * *

والمقال الصحفى — كما نعرف — على ثلاثة أنواع :

منها النوع العرضى — بسكون الراء — ونعنى به المقال الذى يحاول فيه الكاتب عرض فكرة من الأفكار على صفحات جريدته .

ومنها النوع النقدى — وفيه يعمد الكاتب إلى نقد فكرة ، أو موضوع ، أو اتجاه من الاتجاهات فى السياسة والاجتماع .

ومنها النوع النزالى — نسبة إلى النزال . وفيه ينازل الكاتب خصمه فى الرأى ، ومناوئه فى العقيدة ، ويصارعه مصارعة تدل على قدرته الصحفية ، ومهارته السياسية ، ودهائه العقـــلى الذى ينبغى ألا يفارقه فى وقت من الأوقات .

وكثيراً ما يحدث أن ينازل الصحفى خصماً له ، ولا يبادله هذا الخصم ضرباً بضرب ، أو رأياً برأى . فيمضى المنازل الأول فى كتابة مقالاته ، وتوجيه ضرباته ، حتى يأخذه شىء من الإعياء . وفى هذه الحالة الأخيرة يطلق الصحفيون على هذه المقالات النزالية اسم « الحملة الصحفية » .

والذى لاشك فيه أن مقالات الشيخ على يوسف بعنوان « قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء » كانت من هذا النوع الأخير . ففيها حمل الكاتب حملة شعواء على اللورد كرومر ، ومضى يوجه إليه ، وإلى سياسته ضربات متواليات ، حتى شفى نفسه ، ونال من خصمه ، وانتقم للوطن عما رمى به من التهم الشنعاء .

وإذا لم يكن قد ندّ عن دهنى شىء من التاريخ ، فإنى أنظر إلى هذه المقالات على أنها من أولى الحملات الصحفية الناجحة فى تاريخ الصحافة المصرية . إذا استثنينا بالطبع مقالات مصطفى كامل عقب حادث دنشواى .

هكذا نجح على يوسف فى المقالة الصحفية بأنواعها الثلاثة المعروفة . على حين أن غيره من كتاب المقالات ربما لم يحسن غير نوع واحد منها . فإذا واتته الظروف أحسن نوعين فقط . ولهذا المقياس الأخير فى تقدير نجاح الصحفى نظيره فى الميدان الأدبى . فبمثل هذه الطريقة رأينا القدماء يفاضلون بين الشعراء . فمن أحسن من هؤلاء أن يقول الشعر فى أغراض كثيرة كان فى نظر القدماء أشعر ممن لا يحسن إلا غرضا واحدا أو غرضين فقط من هذه الأغراض .

تلك ناحية من نواحى الفضل فى هذا الرجل . وأخرى من نواحيه أيضا ، هى أنه وقف وحده فى أول الأمر يناضل الاحتلال البريطانى فى مصر مناضلة قوية متصلة ، ومضى فى نضاله زهاء خمسة وعشرين عاما من حياته وحياة مصر ، هى المدة التى أقامها كرومر جبار الاحتلال البريطانى مسيطرا كل السيطرة على أداة الحكم . وإن المؤرخ ليرثى حقا لحالة مصر

لو أنها خلت فى تلك الفترة من كاتب كالشيخ على يوسف، يذود عن كرامتها، ويصون سمعتها وسمعة الإسلام معها فى أحرج الأوقات .

وليس شك فى أن الرجل الآخر الذى قام بمهمة الدفاع عن مصر فى ذلك الوقت هو مصطفى كامل . وهذا الأخير هو أول زعيم حقيقى للحركة الوطنية فى الديار المصرية ، وهو أصدق داعية لها فى الشرق وفى الغرب . وإلى هذين الرجلين على كل حال يرجع الفضل كل الفضل فى بقاء مصر كريمة على نفسها ، وذلك فى أثناء هذا العهد البغيض من عهود التاريخ المصرى الحديث ، أو فى أثناء تلك المقاومة العنيفة التى بذلها الوطنيون ضد الاحتلال البريطانى .

* * *

على أن يراع الشيخ على يوسف قد امتد فى غضون تحريره « المؤيد » إلى جميع المرافق الحيوية فى الديار المصرية ؛ وذلك فضلا عن الناحية السياسية التى أشرنا اليها . فكان له رأى فى كل واحد من تلك المرافق العامة ، وكان شديد اليقظة لما تصنعه الحكومة والإحتلال فى كل منها . بل إن قلم الشيخ كان موجها لهما ، مزوداً إياهما بين حين وآخر بإرشاداته الحكيمة، ونصائحه الغالية .

وهل ينسى التاريخ للشيخ على يوسف جهوده فى ترقية المجتمع المصرى والخلق المصرى ؟ أو هل ينسى التاريخ لهذا الشيخ عمله فى التشجيع على إنشاء الجامعة المصرية ؟ أم هل ينسى التاريخ موقف هذا الشيخ من الخديو عباس حين راجعه فى إحياء قانون المطبوعات لسنة ١٨٨٢ — وقد كان هذا القانون الذى هو وليد الثوره العرابية أشبه شىء فى ذلك الحين بإعلان للأحكام العرفية التى جاءت لخنق الحرية والصحافة الشعبية ؟

أما الإسلام والمسلمون فالله تعالى وحده هو القادر على أن يتولى جزاء الشيخ عن ذلك أحسن الجزاء .

* * *

قلنا إن السيد على يوسف يمثل فى التاريخ الأدبى الصحافة المصرية مذهباً جديداً فى الكتابة . وذهبنا إلى أنه يعتبر رأس هذه المدرسة الجديدة من مدارس الصحافة . وحين أردنا أن نلتمس العلة لذلك وجدناها أولا فى هذه الظاهرة الهامة ، هى أن جريدة المؤيد كانت من أولى الصحف اليومية فى مصر . ومن المحقق أنها كانت من أطولها عمراً فى ذلك الوقت . والصحافة اليومية هى المسئولة عن هذا الأسلوب الجديد فى الكتابة ، على حين أن الصحافة الأسبوعية أو الشهرية ترتفع عادة بالأسلوب الكتابى إلى درجة أعلى من هذه . ومن ثم نظرنا إلى كاتب كالمويلحى فى جريدة « مصباح الشرق » على أنه آخر من يمثل الطريقة « الكلاسيكية » أو القديمة فى الكتابة والصحافة . فى حين نظرنا إلى الشيخ على يوسف أنه من أوائل من يمثلون الطريقة الحديثة .

فلقد كان المويلحى مفتوناً بالجزالة اللفظية أحياناً وبالتشبيه والاستعارة أحياناً ، وبتوشيح الكلام بالقرآن والحديث والأشعار ، وحكم الفلاسفة أحيانا . وعبثاً حاولنا أن نجد ظلا لهذه الميول الأدبية فى أسلوب على يوسف ، اللهم إلا نادرا وفى مناسبات قليلة . فدلنا ذلك على أن عبارة هذا الصحفى الأخير ، وإن تمتعت بالوضوح والبساطة ، فقد كان يعوزها شىء غير قليل من الجمال والأناقة .

ولقد كان شبيها بعلى يوسف فى كل ذلك رصيفه فى الصحافة « بشارة تقلا » صاحب جريدة الأهرام . وهو رجل لا يجيد الكتابة على النهج القديم ، وإنما يجيدها على النهج الحديث . ومن هنا صح النظر إلى هذا الأخير على أنه تلميذ للمدرسة التى ينتمى إليها على يوسف .

* * *

ليس من حق المؤرخ الأدبى فى الحقيقة أن يفاضل بين طريقتين من طرق

الأداء فى الأدب ، لأن عمله — فى الواقع — يقف عند حد الوصف لها وعلى الرغم من ذلك فإن للأديب غيرة على الأساليب الأدبية ربما لا يملك إخفاءها أو التغاضى عما يصيبها أحياناً من الضعف أو الخور . وهذا الأديب حين يقرأ الصحافة الشعبية اليومية يحملها تبعة الهبوط بالمستوى العام للكتابة الصحفية وينظر إلى صحفى نابه كالشيخ على يوسف على أنه الرجل الذى يتحمل جانبا من وزر هذا الهبوط النسبى للعبارة الصحفية ، ما دام فى الإمكان أن يسمو الصحفى بهذه العبارة إلى مستوى يقرب من الأدب .

على أن هذه وإن كانت رغبة فى نفس الأديب ، يبديها طمعا فى الوصول بالأساليب الصحفية إلى الدرجة التى ترضى أذواق الخاصة ، إلا أنها ليست مما يسهل تحقيقه ، نظراً إلى أسباب شتى ، وعوامل مختلفة . ولعل أيسر هذه العوامل أن الصحافة أدب غير خالد ، وأنها موجهة على الشعب كله على اختلاف طبقاته ، ومن ثم يعود الأديب فلتمس العذر لرجال الصحافة . وخاصة إذا كانوا من أصحاب الجرائد اليومية ، لا المجلات أو النشرات الدورية وخاصة كذلك أن الذوق الأدبى العام أصبح لا يميل إلى الطرق الفنية القديمة بحال من الأحوال . بل غدا هذا الذوق لا يطيق النظر إلى القديم ، ويخشى على نفسه من التأثر به ، بله التحمس له . وكل ذلك أثر من آثار الصحافة اليومية . وليس إلى التخلص منه سبيل . ومهما يكن من شىء فإن للطرق الحديثة فى الأداء جمالا وروعة لا يقلان عن جمال الطرق القديمة وروعتها . والأدب نفسه — على أى شكل من أشكاله — هو فن التعبير .

* * *

(وبعد) فقد رأيت — أيها القارىء — من سيرة الشيخ على يوسف ومما كتبناه حتى الآن من تاريخ كفاحه أن هذا الرجل العظيم كان كخمسة رجال عظماء على الأقل :

أما (أولهم) فالشيخ على يوسف مدير الجريدة وهى من أعظم الجرائد اليومية فى الشرق ، وأكثرها رواجا ، وأعظمها خطراً على الاستعمار الأوروبى . فلقد كانت (المؤيد) منبراً عاما يتحدث من أعلاه الشيخ على يوسف وأصحابه والمتفقون معه فى المذهب السياسى ، والمذهب الاجتماعى. ولا جدال فى أن هذا المنبر كان من أعلى المنابر كلها فى ذلك الوقت . ومن أبعدها صوتا ، وأفعلها سحراً فى نفوس المصريين والشرقيين على السواء .

وأما (ثانيهم) فالشيخ على يوسف رئيسا لحزب الإصلاح على المبادىء الدستورية . وهو من أول الأحزاب المصرية من حيث الظهور ، ومن أنفعها وأجلها قدراً فى نفوس الوطنيين . وقد كان الأوروبيون يحسبون لهذا الحزب حسابا كبيراً ، ويضعونه دائما فى المنزلة المقابلة للحزب الوطنى الذى يرأسه مصطفى كامل . بل أن من الباحثين المنصفين من ذهب إلى أن مصر استطاعت أن تفيد من هذا الحزب المعتدل أضعاف ما أفادت من الحزب الوطنى المعروف بتطرفه .

وأما (ثالثهم) فالشيخ على يوسف عضواً فى الجمعية العمومية عن مدينة القاهرة . والجمعية العمومية وإن كان رأيها استشاريا محضا ، إلا أنها أتاحت لبعض الشخصيات الكبيرة أن تظهر على المسرح ، وأن تقود دفة الأمور ، وأن يكون لها تأثير كبير فى السياستين الداخلية والخارجية للديار المصرية . وفى مقدمة هذه الشخصيات على يوسف وسعد زغلول . وقد كان هذان الرجلان فرسى رهان ، وفارسى ميـــدان — كما يقول القدماء — يتساجلان فى الأمور العامة التى تمس مستقبل البلاد ، أو يكون لها صلة بكرامتها وقوميتها .

فمرة يكون موضوع السجال مدّ امتياز قناة السويس : وأخرى يكون موضوع السجال جعل اللغة العربية لغة التعليم الأولى فى المدارس المصرية وهكذا . والحق أنه لو كانت الحياة الدستورية فى مصر فى ذلك الوقت

أعظم قوة مما كانت عليه ، وأنفذ قولا ، وأقدر على العمل لكان الشيخ على يوسف أول مصرى يبذل من ذات نفسه من حسن الرأى والإخلاص للوطن ما لا يستطيع مصرى غيره أن يبذله فى عصره .

(و ما رابعهم) فالشيخ على يوسف زعيما من زعماء الإصلاح فى مصر . ولا ريب أن التاريخ نفسه ينظر إلى الشيخ هذه النظرة ، وأن الشعب المصرى نفسه يرى فيه هذا الرأى . ومن ثم كانت تشرئب إليه الأعناق وقت المحنة ، وكانت تتعلق به القلوب إذا قيل : حدث اختلال أو هياج فى النفوس والأحوال . وكان الناس ينتظرون كلمة المؤيد وصاحبه فى تلك الساعات الخطيرة التى تزرع الشيب فى الرءوس ، أو اللحظات القليلة أو الكثيرة التى يتحرج فيها الموقف إلى حد بعيد . وكان على الشيخ بحكم مركزه هذا أن يفكر فى الإصلاح من وجوه شتى ، وأن يحيط نظره الثاقب بكل ناحية من نواحى الحياة المصرية ، لا بواحدة أو اثنتين منها . وكان الرجل مستعدا لأن يدلى برأيه فى كل مسألة من المسائل التى تهم قومه وحكومته .

(وأما خامسهم) فالشيخ على يوسف أديباً سياسياً من الطراز الأول ، وصاحب فضل لا سبيل إلى إنكاره على اللغة العربية أولا ، والأساليب الأدبية نفسها بعد ذلك .

فأما فضله على اللغة العربية فقد جاء من دفاعه عنها دفاعاً حاراً فى مواطن شتى : منها الجمعية العمومية ، حيث وقف مرات يناضل عن هذه اللغة ضد وزير المعارف العمومية ، وهو يومئذ سعد زغلول . ولم يكن من رأى هذا الوزير أن يجعل اللغة العربية لغة التعليم فى المدارس المصرية ، فما زال به الشيخ على يوسف حتى أقنعه وألزمه الحجة ، وربحه إلى صفه ، فربح به للغة العربية رجلا فوق الرجال ، وغيوراً على لغة القرآن لا يدانيه رجل آخر فى هذه الصفة .

وأما فضله على الأساليب الأدبية فقد جاء من الصحافة التى جعلته يستحدث فى الأدب العربى ما يسمى « بالأسلوب السياسى » . فاهتدى بذلك إلى طريقة أدبية جديدة ، جرد بها الأسلوب الأدبى من كثير من التكلف البغيض إلى نفوس القراء ، وغسله من كثير من الأوضار التى علقت به منذ القدم ، وصهره فى نار الصحافة الحرة فأخرجه للناس أنقى من الذهب ، لسواه ، وأصفى من الزجاج ، وأحلى من الماء الزلال .

فهذا هو الشيخ على يوسف . وهذا هو الرجل العظيم الذى قلنا أنه كان كخمسة رجال عظماء ، لكل واحد منهم ناحية ليست للآخر .

* * *

رحم الله الشيخ على فقد كان قطب الرحى من هذه الأمة كلها ، وكان الرجل المرتجى فى كل محنة من المحن التى مرت بها . فكان قلبه نبراساً يهدى السائرين ، كما كان عقله نوراً إلهياً قذف الله به فى قلوب المصريين ، وكان ذا خلق قوى أعانه على النهوض بذلك العمل الذى أعد نفسه له ، ووقف حياته عليه .

(وبعد) فقد كنا نود أن نختم هذا الجزء من الكتاب عن على يوسف بطائفة من النماذج الصحفيـة للشيخ على يوسف ؛ وذلك على طريقتنا فى الجزء الخاص بالمويلحى . ولكن القول امتد بنا فى هذا الجزء إلى أكثر من الحد الذى قدرناه له . لذلك آثرنا أن نكتفى هنا بنموذج واحد فقط من كتابة السيد على يوسف ؛ هو رده على خطبة اللورد كرومر عند وداعه .

لقد تأنق الشيخ على يوسف فى هذا الرد قليلا على غير عادته ، وأطال فيه كثيراً على غير عادته أيضاً . ولكن لا ننسى أن الموقف كان يدعو الكاتب إلى الأمرين معا ، وأى ساعة كانت أهنأ للمصرى من تلك الساعة التى يترك فيها جبار الاحتلال منصبه ، ويرحل عن أرض الوطن ؟

النمـــــوذج

حفـــلة الوداع

وخطبـة اللورد كرومر [1]

تقفون والفلك المحرك دائر   وتقـدرون فتضحك الأقدار

وقف الخطباء مساء السبت الماضى موقف الممثلين فى دار (الأوبرا الخديوية) يحكمون على الماضى والمستقبل حكم الأقدار فى الكائنات. ويبرمون وينقضون ويرفعون ويخفضون، والناس يسمعون مختارين أو مكرهين؛ لأن فرسان ميدان الخطابة كانوا ثلاثة لا يزيدون ولا ينقصون ولو أن الموقف كان حراً لكل قائل لسمع الثلاثة ما يكرهون كما قالوا ما يحبون.

قلنا إنهم وقفوا موقف الممثلين، لأنهم كذلك فى حقيقة الواقع وقد مثلوا آخر فصل من رواية كثيرة الحوادث، عديدة الفصول، طويلة الزمان. بطل وقائعها وفارس معمعاتها ذلك الذى كان آخر الخطباء فى الحفلة كلاما، وأشدهم إيلاما وأكثرهم آلاما.

وقف لميثل آخر سلطة له فى هذه الديار ولسان حاله يقول:

« ما فى وقوفك ساعة من باس ».

مثلها فى مكان هو أليق ما كان عظة لقائل، ومظهراً لسلطان راحل ومجد زائل وأصدق ما ضرب من له من الأمثال « لكل مقام مقال ».

وقبل أن نذكر شيئا عن الخطباء وخطبهم يجدر بنا أن نذكر شيئا عن هذا الأسلوب الذى اختير من أساليب الوداع، ولماذا فضلت حفلة الأوبرا على المأدبة التى كان يراد عملها فى أول الأمر؟؟ فضلت لأن القوم لم يريدوا مظهر إكرام الرجل الراحل إكراما معتاداً فى مثل هذا المقام، ولـكنهم

---

(١) تجد هذا المقال في نهاية كتاب بعنوان :
مقالات قصر الدوبارة . كما تجده بجريدة المؤيد فى الموضع الذى أشرنا إليه فى نهاية هذا المقال.

أرادوا مظاهرة سياسية أساسها سلطة الحكومة وأساطينها قوى الاحتلال بعيدة عن الأمة والأمة بعيدة عنها . وقد بالغوا فيها ما شاءوا وما استطاعوا أن يبالغوا فى هذه المظاهرة بقصد أن يذهب من نفوس المصريين كل أثر للظن بأن اللورد مستقبل لأسباب سياسية ، وحتى يستقر فيها أن اعتلال صحته هو الباعث الأول . بل والأخير على استقالته من وظيفته . ولو أنهم أحسنوا الصنيع معه لتركوا هذه المظاهرات التى حملت كل الناس بكل ما جرى فيها على فهم أن الرجل راحل طبق المثل : «مكره أخاك لا بطل» .

وفوق هذا — أنهم لسوء الحظ لم ينجحوا فى القيام بالمظاهرة السياسية كما أرادوا ، منها بل فشلوا فى تكوينها من الأمة . وقد حاولوا ذلك بواسطة سلطة الحكومة المخلوطة بقوى الاحتلال .وانعكست الآية عليهم ، فلم يكن من الوطنيين فى هذه المظاهرة سوى نفر قليل يعرفون بسيماهم ، ويكادون يعدون على أصابع اليــــدين والرجلين ؛ سوى رجال الحكومة الذين هم صنائع اللورد والذين يمن عليهم بوجودهم فى هيكلها.ولم يكن من الأوروبيين سوى بعض الرجال الرسميين ونفر ممن حسنت حالهم على يد اللورد بمناسبات شتى ، أو ممن جذبتهم جاذبية حب الظهور فوق المسارح ، والحشر فى غمرات المجامع من النقيض إلى النقيض . وما أكثر المتحذلقين لذلك بين الناس !

ثم وصف الكاتب رقعة الدعوة التى وزعت على الأعيان والوجهاء والموظفين لحضور الحفلة . وسخر من هـذه الرقعة ، ومن طريقة توزيعها بوسائل القهر والقوة ..

ثم قال :

وإذا كان ما يبذل من الجهد والعناء فى سبيل الوصول إلى الغرض المعيار

الحقيقى للفوز أو الفشل فإن ما بذلته الحكومة وعناصرها المختلفة فى سبيل جعل هذه المظاهرة السياسية ممثلة للأمة المصرية بحذافيرها وعنواناً كاملا على قدر شكرها للرجل الراحل جاء دليلا على أن الفشل كان أعظم ما يمكن أن يقدر لعمل العاملين . وعلى هـــذا القياس كان الفشل أيضا فى الدعوة العمومية لحضور غير المشتركين فى الاحتفال . فإن بعض المديرين كانوا يسوقون الأعيان سوقا إلى القاهرة ، ويصحبونهم بالرسل فى مجيئهم ، حتى إذا جاؤا إليها أبى أكثرهم الخروج من الفنادق التى نزلوا بهاليلة الاحتفال .

ولا تفسير لذلك الفشل العظيم ، وهذا الإباء الذى عم المدن والقرى إلا أن اللورد ، ولو أنه أحسن كثيراً فى هذه البلاد فقد أساء كثيراً فيها ، وكانت سيئاته الكبرى فى أخريات أيامه ، فلم ينسها النـاس لأنه لم يترك فى جعاب تقريره الأخير سهاما مؤذية إلا سددها نحو مصر والمصريين ، ونحو مبادئهم وعقائدهم . والذكرى تغلب بالسيء من الأقوال ، والعبرة بالخواتيم من الأعمـال !

* * *

أما الاحتفال نفسه فلم يكن مظاهرة سياسية لإكرام الرجل عند رحيله كما أرادوا ، ولـكنه انقلب بما جرى فيه مظهراً عدائيا من اللورد لم ير الراءون ، ولم يرو الراوون مثله فى مقام وداع كهذا المقام !

دعنا من كون رئيس الاحتفال أخطأ فى أنه لم يكن المتكلم الأول وما عرف حتى الآن أن رئيس احتفال ، ورئيس وزارة معاً يُقدم عليه سواه فى الـكلام . ودعنا من كونه خطب بالفرنساوية ولم يجعل للغة البلاد نصيباً من كلامه فى احتفال كهذا . ودعنا من زعمه أنه يمثل مع الحكومة فى موقفه السواد الأعظم من الأمة المصرية، والسواد الأعظم يخالفه فى الرأى والقول.

دعنا من كل هذا وانظر إلى خطبـــة اللور السياسية التى جعلها بمثابة وصيته الأخيرة ، وخاتمة أعماله فى مصر .

فبينما كانت الأمة المصرية واقفة موقف الآمل ، منتظرة من ذلك الراحل العظيم والشيخ الحكيم أن يصلح ما فرط منه نحو الشريعة الإسلامية بما قضى عليها من الجمود الأدبى ، ونحو الأمة المصرية بما وصفها به من العقم السرمدى — بينما هى ترجو من جنابه أن يغتنم هذه الفرصة السانحة ليأسو الجراح التى جرحها ويضمد الكلوم التى فتحها فى جسمها بما تقدم ، وبما أراد أن يجعل وطنيتها أعجوبة بين الوطنيات ، وجامعتها كشكولا بين الجامعات.. وبينما كان سمو أمير البلاد يتعطف ويتلطف ويبالغ فى إكرام الراحل عند رحيله متناسياً الحزازات السياسية التى طالما كان اللورد مهاجما فيها غير عادل ولا متلطف ، بينما كان هذا إذا ببركان « البيروقراطية » التى نشأ عليها اللورد ومارسها كل حياته حتى برز فيها أكثر من كل مبرز فى تواريخ الحكومات المطلقة قد انفجرت نيرانه ، وقذف بلظاه على الأحياء والأموات .

وقف اللورد خطيباً وهو يدافع كيد السقام ، ويجاذب داعى الخصام ، بخال فى خاطره أنه مفارق قصراً تجرى من تحته الأنهار ، وملكا خضع له فيه الليل والنهار ، وتارك خصوما قد يتوهمون أنهم نازلوه فغلبوه ، أو يتوهم هو أنه حاكمهم فأغضبوه .

وقف اللورد وله نفسان : نفس نزاعة إلى حب البقاء ، وأخرى تقول كيف البقاء بعد الاستعفاء ؟

وقد ذكر أصدقاءه القليلين كما يعلم ، وأعداءه الكثيرين كما يتوهم ، فسر وساء وترخص وتشدد ، وعدد وندد ، ووعد وتوعد ، وأرغى وأزبد وحذر وأنذر ، وحكم وقدر .

ربما أخرج الحزين جوى الحز   ن إلى غير لائق بالسداد
مثلما فاتت الصلاة سليما   ن فأنحى على رقاب الجياد [1]

---

(١) زعم بعض المفسرين أن سليمان اشتغل بالصافنات الجياد حتى فاتته صلاة العصر ، =

وقف اللورد خطيباً راحلا عن بلاد أقام فيها أكثر سنى حياته، فظن الناس أنه محسن وداعه لها، ذاكر جميل أهليها معه فى ماضيه الطويل ليذكروا جميله معهم بعد فراقه. فإذا هو قد جمع فى ساعة واحدة كل أغلاطه الماضية، ومثل فى هذه الساعه الزائلة كل مظاهر السلطة والاستبداد التى عرفت عنه، وزاد عليها أضعاف أضعافها.

وعجيب أن إنساناً يقدر أن يسىء إلى أمة بأسرها فى ماضيها وحاضرها وأحيائها وأمواتها كما فعل جناب اللورد فى ساعة وداعه، فإنه فى هذه الساعة بل فى نصف ساعة بالتحديد طعن على أمير البلاد طعناً جارحاً لعواطف الأمة، كما طعن على بصائرها فقال إنهم «عميان» ومجد سكرتيره المستر فندلى الذى نقل من مصر بعد ما أساء للأمة فى حادثة دنشواى المحزنة أعظم إساءة، مشيرا إلى أنه عمل لها أنفع عمل، مع أنه هو الذى رمى الأمة بالتعصب، ورمى جرائدها بارتكاب الرشوة كذباً!

طعن اللورد فى نصف ساعة على الأحياء والأموات، فرشق المرحوم إسماعيل (باشا) وهو فى قبره بسهام جارحة، كان الأمير حسين (باشا) نجله الأكبر فى غنى عن سماعها لو لم يتفضل بحضور الاحتفال بوداعه هذا الأمير الجليل الذى والى جناب اللورد بالصداقة زمناً طويلا، وخصه باحترامه دائماً، وكان له فى عهده أعظم أثر فى خدمة البلاد معه خدمة حقيقية، بأخذه الجمعية الزراعية الخديوية تحت رئاسته، وبذله عنايته الجليلة فى ترقية شؤونها بنفسه وماله. ومع ذلك لم ير اللورد أنه خليق بكلمة ثناء يوجهها إليه فى جنب ما وجه من عبارات الثناء لغيره من الأحياء والأموات

= فغضب على نفسه من ذلك وأمحى على جياده ذبحا وقطعا لرقابها وسيقانها. وهى رواية إسرائيلية دحضها الفخر الرازى، وتبعه فى دحضها الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه (قصص القرآن) فليراجعها من أراد. والكاتب يريد أن يقول أن كرومر ركب رأسه فى إظهار حزنه لخروجه من مصر على هذا النحو. المؤلف

لم يكتف اللورد بأن يجبه الأمراء من العائلة الخديوية جبهاً فى «اسماعيل» بل قال عن المرحوم «توفيق» قولا أشبه بالمديح فى أسلوبه وهو عين الهجاء. قال عنه «إنه لم يشترك كثيراً فى إصلاح مصر»، وأثنى عليه بأنه كان بذلك يعرف قدره ومركزه. تعريضا بالجناب العالى الخديوى الذى لم يكفه منه هذا التعريض بل طعن عليه بعد ذلك طعنا صريحا وكاد يسبه سباً!

خص اللورد أشخاصا معدودين بثنائه، فذكر فى أولهم الطيب الذكر نوبار (باشا). ولكنه لم يذكر أثراً طيبا له يستحق هذا الثناء سوى أنه كان المختلط الأول لخطة تعديل نظام الامتيازات الأجنبية، ولكن الخطيب لو أنصف الرجل فى قبره لقال إن مشروعه فى تعديل الامتيازات كان مخالفا لهذا المشروع الجديد، لأن نوبار (باشا) إنما كان يطلب تعديلها بإعطاء المحاكم المختلطة سلطة الحكم فى الجنايات والجنح، كما طلبت الجمعية العمومية ذلك منذ سنين. وكان أشد الناس اعتراضاً له فى طريق نجاح هذا المشروع اللورد كرومر الذى يزعم اليوم أنه متمم عمله العظيم.

ذكر بعد ذلك رياض (باشا)، وأطرى شجاعته التى اشتهر بها فى زمن إسماعيل (باشا) قائلا:

«أنه علق الجرس بعنق الهر». ومغزى هذا المثل أنه لم يكن يبالى إذ ذاك أن يصيبه مكروه من ذلك المستبد الذى كانت تعنو لهيبته الوجوه[1] ولكن اللورد لم يقل أن رياض (باشا) لما أراد فى زمنه أن يعلق الجرس فى عنق الهر قطعت هذه العنق، وحلف اللورد ألا يعود[2] إلى خدمة الحكومة ما دام هو فى البلاد، وزاده عقوبة أن رفت ابنه من وكالة الداخلية فى اليوم التالى لاستقالة أبيه من الوزارة، فكان المستبد إسماعيل أخف وطأة على رياض (باشا) من المستبد كرومر.

ذكر بعد رياض (باشا) مصطفى فهمى (باشا) صديق اللورد العزيز الذى

(١) يريد بالمستبد هنا الخديو اسماعيل.

(٢) الضمير فى (يعود) راجع إلى رياض.

كان ينتظر الناس أن يقول عنه ما قال وأضعافه ، ذلك الصديق العزيز الذى حلف له يوم عاد إلى رئاسة النظار فى سنة ١٨٩٥ أن يبقى فيها ما دام حياً وما بقى اللورد فى مصر . وقد بر فى يمينه كما بر فى يمينه عن رياض (باشـا) ولـكن الناس لا يحكمون لمصطفى فهمى (باشا) حكم اللورد له فى كل ماقاله عنه إنه أنكر نفسه وعرف اللورد فاستحق أن يكون سامى المقام فى عينيه لا فى عينى الأمة المصرية .

وذكر بعده بطرس غالى (باشـا) فمدحه بسعة الحيلة العقلية فى حل المشكلات ، وهى كلمة صغيرة جداً فى جنب ما أدى من الخدم الجليلة للبلاد فى حل المشكلات بين اللورد والجناب العالى من جهة ، وبينه وبين قناصل الدول من جهة أخرى .

ثم ذكر من بعده سعد (باشـا) زغلول بالمدح والإطراء الـكثير . ويسرنا أن مدة تجربتـه كانت قصيرة عند جناب اللورد ، فصرنا نؤمل أن يدخل فى مناصب الحكومة العليا كثيرون من أمثاله القادرين على العمل بعد ما كان اللورد يتهددنا بأنه إن لم يؤد مدة التجربة بنجاح يضطر إلى أن يسلم كل أعمال الحـكومة العليا للإنكليز ويقول على المصريين فيها السلام .

على أن اللورد بعد أن ذكر هؤلاء الثلاثة من النظار أعرض عن ذكر بقية الأربعة الباقين ، فلم يشر إليهم بأقل إشارة كأنهم ليسوا نظاراً فى الحـكومة ،ولا عمل لهم مطلقا فيها . فتساءل الناس ،أليس هؤلاء من صنائع اللورد أيضـا ؟ أو لم يكونوا مثل مصطفى فهمى (باشـا) يخدمون بلادهم بالسكوت عنده ، أوكما قال هو :

«بالسكينة والهدوء» والابتعاد عن التعرض للغير والدخول فيما لا يعنى أو هم كانوا على غير هـذه الخطة ، فلم يكونوا محسنين عملا ؟ إن كان الأمر كذلك فلمـاذا هو أبقاهم فى مناصبهم مدة اثنتى عشرة سنة لا يعملون عملا يليق أن يذكروا به فى مثل هـذه الحفلة . وتساءل الناس كثيراً عن إغضاء

اللورد عن ذكرهم ، ونحن مثلهم لا نعرف له سبباً ، ولعل حضرات النظار المسكوت عنهم يعرفون هذا السبب !

* * *

وبعد ما قال عن بعض كبار الانجليز مدحاً وثناء وإعجاباً وإطراء عاد إلى المصريين فذكرهم بمن الاحتلال عليهم ، وقال إنى لا أصدق ما يقال عنهم من أنهم ناكروا الجميل ، كافرو النعم . ولكن إذا صح ما يقال عنهم من هذا القبيل فهو ينتظر شكران نعم الاحتلال من أولاد هؤلاء العميان .

وبعد أن رمى المصريين بهذا السهم الجارح انتقل إلى بيان (الغرض السياسى) الذى زعم أنه كان نصب عينيه منذ قلد وظيفته فى مصر ؛ وهو أن يسعى إلى إعادة الاتفاق الفرنساوى الانكليزى إلى ما كان عليه ، والذى كان يوصى به على الدوام ذلك السياسى الطائر الصيت (غامبتا) قائلا : إياكم أن تقطعوا حبل المحالفة الانكليزية . كذلك هو يوصى قومه اليوم : إياكم وأن تقطعوا حبل الاتفاق الفرنساوى . كأنما اللورد الذى ينسى التاريخ يظن أن جميع الناس ينسون التاريخ مثله ، فينسون تلك الخشونة السياسية أو الجلافة العسكرية التى كان يقابل السير (أفلن بارنج)[1] بها خصومه الفرنساويين فى مصر على الدوام ، وأنه كان يحارب النفوذ الفرنساوى فى كل مصلحة وفى كل طريق ، وأنه هو الذى أنحى على العلوم والآداب واللغة الفرنساوية فى مدارس الحكومة المصرية ، وكانت نبراساً للناشئين ، وأنه هو الذى أقفل جريدتى الأهرام والبسفور لكونهما فرنساويتين وما عادتا إلا بأمر من لندن ، وأنه أتى — لاحباً فى مصلحة مصر — ولكن ليحل محل كل قدم فرنساوية قدماً انكليزية ، وكل شيء فرنساوى مثله انجليزياً ، لتدخل سياسة الاحتلال على المصريين من كل باب ؟

* * *

(١) هو كرومر نفسه .

أراد اللورد كرومر بعد كل ما تقدم أن يعدد منته على مصر والمصريين من الوجهتين المادية والأدبية . فذكر التقدم المالى إجمالا لعلمه أن الناس يجمعون على الاعتراف بفضله فى بابه . ثم ذكر التقدم الأدبى تفصيلا فأخذ يعدد للناس فصوله قائلا : هل السخرة باقية فى مصر ؟ هل لعنة الرق لا تزال حالّة عليها ؟ أليس كل شخص فيها من الأمير إلى الصعلوك أمام القانون سواء ؟ ألم ينشط الناس إلى العمل والكسب ؟ أليس صغار الناس يجنون ثمار كدهم الخ .

ولقد فات اللورد أن حكومة مصر كانت قد قررت قرارها فى أمر (العونة) قبل الاحتلال ، وكانت سائرة فى طريق التنفيذ ، وأن أول معاهدة للرق كانت بينها وبين انكلترا قبل عهد اللورد بسنين . وأن النظامات القانونية التى سوت بين الأمير والحقير فى النهاية لم يضع أساسها فى مصر اللورد ولا قومه ، وأن الناس نشطوا إلى الكسب والعمل وأخذوا يجنون ثمار أعمالهم من يوم بدىء برفع أثقال الضرائب الشاذة عن كواهلهم ، وأن مارفع من هذه الأثقال فى سنتى ٨٠ و ٨١ قد بلغ أكثر من مليونى جنيه ، مع أن مارفع من هذه الأثقال فى زمن الاحتلال كله لم يزد عن ٦٠٠ ألف جنيه سنويا . وأن كل شىء كان سائراً بطبيعته إلى التحسن والكمال ، بحيث لو لم يكن فى البلاد احتلال لما وقفنا عند ذلك الحال الذى تركنا عليه الخديو الأسبق . وهَب أن ما وصلنا إليه فى عهد ٢٥ سنة كنا مدركيه فى مدى ثلاثين مثلا فالتقدم حاصل بطبيعة الوجود وسنة الارتقاء فى الأعمال . ولكن الارتقاء الأدبى لم يكن يبقى واقفاً عند الحد السلبى الذى من علينا به اللورد كرومر . فإن هذه الوجوه التى ذكرها سلبية لا إيجابية ، كبث أنوار العلوم فى البلاد وكتأهيل المصريين لأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ؛ وهما العاملان القويان فى ترقية الأمم من الوجهة الأدبية . فأما مايوجد فى البلاد الآن من هذين النوعين فمن عمل الشعب لا من عمل الاحتلال ولا من تشجيعه

فالاندفاع فى طريق التعلم وتحصيل المعارف للذكور والأناث ليس من عمل الاحتلال الذى لو استطاع أن يوقف هذا التيار القوى المتدفق فى وادى النيل من رغبات أهله لفعل . وإن الميل الشديد إلى العمل والكسب والاشتغال بالمهن الحرة وما أشبه ذلك مما يعد من قبيل تأهيل المصريين للارتقاء الذاتى إنما جاء كله من طبيعة قوة احتكاك الأقوام النازلة فى البلاد وتشعب طرق العمل فيها ،لا بعمل الإنكليز ، ولكن بواسطة قوة الامتيازات التى جعلت الأجانب من كل أمة فيها أسوة بالإنكليز فى العمل والكسب . ولو استطاع هؤلاء أن يقطعوا طريق الكسب على النزلاء وسواهم ليحصروه فى أنفسهم لما تأخروا طرفة عين !

وهل ينسى أحد فى البلاد خطة اللورد كرومر فى التعليم وسياسته العلمية فى نظارة المعارف التى حصرها فى أمرين : نشر التعليم الابتدائى البسيط بقدر الامكان ، وقصر التعليم الوسط والعالى معا على غرض واحد ؛ هو أن يصنع من الناشئة المصرية القدر اللازم لوظائف الحكومة فقط ؟ !

* * *

أراد اللورد بعد هذا كله أن يحى الأمة المصرية بكلمتين ، إحداهما موجهة لأميرها المعظم . والأخرى موجهة إليها بالذات ليدلها على مستقبلها .

واستطرد من ذكر الارتقاء الأدبى إلى التعليم العالى إلى ذكر الجناب العالى الخديوى وأشار إلى كل الذين شاركوه فى العمل ، وساعدوه على ترقية البلاد من الأحياء والأموات . وانتظر سامعوه أن يأتى على ذكر أمير البلاد بما يليق له من التجلة والإعظام ، وبالقسط الذى يناسبه من الثناء والإطراء على ماجرى بواسطته وعلى يديه من الأعمال التى تعزى إلى عهد الاحتلال . وكلها بأوامر من الجناب العالى وبمشاركة له محسوسة فى العمل ؛ وبينما كان الناس ينتظرون أقواله عن سموه إذا هو قد خرج من ذكر نعم الاحتلال على مصر إلى التهكم على أمير البلاد وتقريعه بعبارة مملوءة بالأحقاد وخالية من كل ذوق وأدب !

مضى على الجناب العالى الخديوى جالسا على عرش أجداده العظام خمسة عشر عاما وكسر ، يرأس مجلس النظار ، ويناقش اللورد ، ويجادله فى المشروعات ولا يظهر منها إلا ما يوافق عليه . وكم له من وقفة حالت دون أخطار كبار .

مضى عليه ذلك الأمد الطويل وهو يصدر الأوامر العلية على كل نظامات القضاء والإدارة والمالية ، متوجاً عمل المصلحين الذين يستمدون السلطة الشرعية منه بإمضائه الشريف . مضى عليه ذلك العهد المديد وهو يعلم الناس كيف يتقدمون شأناً ، ويسبقون شأواً فى الأعمال الزراعية والمشروعات الاقتصادية الكبرى ، بإحياء الموات من الأراضى الواسعة واستثمارها ،حتى إنه أحيا جانباً من الصحراء تؤسس اليوم فيها حكومة محلية شاسعة الأطراف. وسيكون لعمله العظيم فى استعمار ما بين مريوط ومرسى مطروح أعظم ذكرى تاريخية . الخ . ولكن جناب اللورد لم يكشف وجود الجناب العالى فى مصر إلا من ذلك الحديث الذى اطلع عليه صدفة فى بعض الصحف الفرنساوية . وما كاد يذكر اسمه الكريم بعد هذا الاكتشاف حتى عيره بالفضائح التى تجرى بين يديه فى ديوان الأوقاف قائلا : إن سموه قادر على أن يبطل هذه الفضائح فى الديوان ، وأن يطهره من الأدران المفسدة للآداب والأخلاق .

ثم طفق الشيخ على يوسف يدافع عن ديوان الأوقاف . إلى أن قال :

ألم يشع قبل عشر سنوات أن أموال الأوقاف تصرف فى سبيل الرسالات السياسية فى أوروبا ، وتعطى منها المرتبات لمصطفى كامل وأضرابه ؟ وقد اتخذ اللورد تلك الإشاعات ذريعة إلى التداخل فى شئون الأوقاف .

ألم يتقرر لنظارة المالية من سنة ١٨٩٥ أن تشرف بسبب تلك الإشاعات على ديوان الأوقاف وتراقب حسابات دخله وخرجه ؟

ألم يمعن النظر ويدقق البحث موظفو نظارة المالية فى دفاتر الأوقاف ويقلبوا أوراقها ظهراً لبطن ، حتى يروا مسوغا لتلك الإشاعات الباطلة

فلم يجدوا شيئاً ؟ ألم تضع نظارة المالية طريقة لضبط حسابات الديوان مورداً ومصرفاً قد جرى عليها العمل بعدذلك إلى الآن تحت مراقبة النظارة وإشرافها ؟ ألم تنسخ الطرق القديمة لحسابات الأوقاف المختلة ، وتستبدل [1] بطرق أخرى من عمل نظارة المالية قد وحدتها بقدر ما يجيز الشرع الشريف توحيدها ؟

فإذا كان الأمر كذلك فى الديوان فما هى إذن تلك الفضائح التى يلوكها اللورد بلسانه ، ويملأ بها ماضيه ؟

وكيف سوغ اللورد لنفسه — وهو رجل شريف مؤدب — أن يقول عن ديوان الأوقاف ما لا يقال أفظع منه عن مواخير الفسق وحانات الفجور لا لسبب غير كون الأوقاف مصلحة إسلامية صرفة ؟

* * *

عيَّر اللورد الجناب العالى الخديوى بأنه لم يعمل شيئاً ما لإصلاح المحاكم الشرعية ، كأنما هذه المحاكم قلم من أقلام الخاصة الخديوية ، مع أنها تابعة لنظارة الحقانية . ولم يعهد أن الجناب العالى وقف فى طريق إصلاح استطاعته وإرادته الحكومة لهذه المحاكم .

أليس أكبر إصلاح فى هذا الباب يأتى من قبيل انتخاب الأشخاص الذين يتولون العمل والقضاء فى المحاكم الشرعية ؟ فهل الجناب العالى الخديوى هو الذى ينتخب القضاة والكتاب ، أم نظارة الحقانية ؟ هل الجناب العالى الخديوى هو واضع لائحة المحاكم الشرعيـــة وتعليمات القضاة والعمال أم تلك النظارة ؟

هل الجناب العالى الخديوى هو الذى يضع درجات القضاة ، ويقرر مرتباتهم بمثل ما يعطى صغار الحجاب فى المحاكم الأخرى ؟ أم تلك النظارة الخاضعة لإرادة المستشار الانكليزى ؟

---

(١) صحتها من الناحية اللغوية : تستبدل بها طرق أخرى . لأن الباء للترك . (المؤلف)

واللورد كرومر عندما ذكر الجناب الخديوى بلسانه عرته حمى الغضب، وانتفخت أوداجه بالأحقاد ، فلفظ من فيه أقوالا لايحسن بمثله،وخصوصا فى مثل موقفه أن يقولها ، حتى دل الناس على مكنونات صدره من هذا الرحيل الذى هو فاعله بالرغم عنه ، ولا بمطلق إرادته !

ألم يكن عند اللورد أسلوب لتحية الأمة فى شخص أميرها المعظم ألطف من هذا الأسلوب فى وداعه؟ وهل مثل هذه الكلمات التى لفظها فى آخر موقف له بمصر هى الوصية التى تركها للمصريين؟ يعلمهم بها كيف يتأدبون فى مخاطبة أولياء الأمور؟ وأى فرق بين ما قال اللورد عنه الجناب العالى الخديوى وما كان يكتب المقطم فى أسوأ مظاهر وقاحته عنه؟

لقد حيا اللورد الأمة المصرية هذه التحية المؤلمة التى حصبها بها حصباً ، ثم حياها تحية أخرى موجهة لها بالذات ، ليدلها بها على مستقبلها فقال : (أما الاحتلال الانكليزى فباق فى مصر إلى الأبد) . كأنما اللورد غار من (الزرقاوى) وساءه ما أصاب تنجيمه عنه ، فبزه فى نتيجته أو كأنما هو مصرف الأقدار ، فنطق بما قال واثقا من جبروته وقدرته . وقد غفل عن كون المقادير لا تلقى بأعنتها إلى تلك التقارير ؛ فإنها بيد الله القاهر فوق كل قاهر ، والقادر فوق عباده ؛ يصرفها كيف يشاء ، لا كما يشاء اللورد وغضبه وحقده !

توعد الأمة ببقاء الاحتلال خالداً وقال : إن بقاءه يستلزم أن تكون الكلمة العليا له فى مصر . فلا يظنن المصريون أنهم محررون يوما من رق هذا الاحتلال ، ولا يرجُن أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم فى حال من الأحوال . ثم أنذرها بأنه واقف لها فى انكلترا بالمرصاد يجاهدها ويجادلها !

فأين هذا من دعواه أنه لم يستقل إلا لأن وطأة المرض قد ثقلت عليه؟

وإن الأطباء منعوه بتاتاً من العمل حتى ينجو من مخالب الموت الذى يتهدده آنا فآنا ؟ والقارىء لما كتب المقطم — نقلا عن الوكالة الانكليزية — فى بيان أسباب الاستقالة يوم ورد الخبر يخيل له أن الرجل لم يبق بينه وبين حشرجة الموت إلا أن يودع بسلام !

فماله قد وقف أكثر من ثلاثين دقيقة ينزل الصواعق من فمه على مصر والمصريين ، وينذرهم بأنه سيعقد فى انكلترا لخصومه هنا وهناك بالمرصاد ؟

ما باله كان يمشى فى بهو الأوبرا يمينا وشمالا ، كما يمشى الممثل القدير متكبراً متجبراً مختالا غضوبا ، وصوته فى بعض المواضيع يكاد يسقط العرش على الفرش ؟

ماله وهو ينادى بأن الحركة الوطنية الموجودة فى مصر الآن مفتعلة لا تستحق شيئا من العناية والاحترام — يناشد كل الأوروبيين فى مصر ويدعوهم إلى قوة الاتحاد ليقاوموا هذه الحركة ويخفوا صوتها من الوجود؟

ماله وهو يظهر الثقة التامة بخلفه السير غورست يكاد يقيم نفسه عليه وصياً يحذره كل الحذر أن يحيد عن خطته يمنة أو يسرة ، كأنما خلفه سيبق كواحد من النظار المصريين يحركه كالآلة بين يديه وهو فى انكلترا ، كما كان يحركه وهو فى مصر ؟

ما كان أغنى اللورد عن كل هذا التفاعل الغضبى الذى بدا على كل كلمة قالها فى خطبته ، حتى قد انقلب عن موقفه ، ولسان حاله يقول :

وتجلدى للشامتين أريهمو أنى لريب الدهر لا أتضعضع

فسبحان الذى لا يزول ملكه ، سبحان العلى القهار مقلب الليل والنهار .

(المؤيد فى ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٢٥ — ٧ مايو سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٥٧) .

* * *

صفحة الشكر

فى عنق المؤلف دين يجب أداؤه . ويسره الآن كثيراً أن يؤديه : وهذا الدين هو واجب الشكر يقدمه — أولا — لحضرة السيدة الجليلة بثينة هانم كريمة المغفور له على (باشا) يوسف ؛ فقد أطلعته هذه السيدة على طائفة صالحة من الرسائل التى كتبها والدها بخط يده . وكان المؤلف يرجع إليها فى بعض ما يتصل بحياته الخاصة .

ثم إن المؤلف يقدم الشكر بعد ذلك لشيخ محترم هو المرحوم عطية أفندى شلبى . وكان ممن يعملون قديما فى جريدة المؤيد .

والحق لقد كان هذا الشيخ بمثابة وثيقة حية نظرت إليها على أنها من أهم الوثائق التى يجب الرجوع إليها فيما يتصل بصاحب الترجمة ، أو يتصل بالعصر الذى عاش فيه صاحب الترجمة .

فإلى هذين أكرر شكرى وفاء بما بذلاه معى من جهد .

عبد اللطيف حمزة

دكتور عبد اللطيف حمزة

أدب المقالة الصحفية في مصر

الجزء الخامس

مصطفى كامل

صاحب اللواء

الاهـــــداء

إلى مصر المستقلة أهدى كتاباً فى تاريخ الأدب الصحفى لمصر المحتلة ضارعا إلى الله القدير أن يصون لهـا عزها ومجدها وحريتها واستقلالها إلى أبد الآبدين.

عبد اللطيف حمزه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حقيق بنا حين نقدم للقراء هذا الجزء الخاص بصاحب اللواء أن نصل بينه وبين الأجزاء الأربعة التي سبقته ،وفي الجزء الأول من هذه السلسلة التي خرجت باسم

«أدب المقالة الصحفية فى مصر »

تحدثنا عن المدرسة الأولى من المدارس الصحفية التى ظهرت فى هذا القطر ، وهى المدرســـة التى كان على رأسها رفاعة الطهطاوى محرر « الوقائع المصرية » و«روضة المدارس » ومن رجالها عبد الله أبو السعود محرر جريدة «وادى النيل» ومحمد أنسى محرر صحيفة «روضة الأخبار » وميخائيل عبد السيد محرر جريدة «الوطن »وغيرهم .

وقصارى القول فى هذه المدرسة أنها حاولت إنشاء المقال الصحفى ، ولـكنها تعثرت فى الطريق . والسبب فى ذلك أنها كانت مقيدة بميراث أدبى هزيل لم يعنها على القيام بهذا الفن الجديد الذى اضطلعت به ، وهو الصحافة .

ثم فى الجزء الثانى من هذه السلسلة تحدثنا عن ثلاثة من أعلام المدرسة الصحفية الثانية ، وهم أديب إسحاق ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم فرأينا أعلام هــذه المدرسة ينجحون نجاحا عظيما فى كتابة المقال ، وعلى أيديهم كتب لمصر نجاح تام فى هذا الميدان . ولـكن ثلاثتهم كانوا أدباء ، فغلب على صــحافتهم الأسلوب الأدبى الممتاز . وتقدم أديب اسحاق على صاحبيه فى هــذا المضمار . ثم كان محمد عبده واسطة هذا العقد من الـكتاب . أما ثالثهم وهو النديم فلا مراء فى أنه كان صحفى مصر الممتاز فى القرن المـــاضى غير مدافع ، وكان من وسائله الصحفية الناجحة إذ ذاك وسيلة الحوار فى قصة رمزية حيناً ، وأخرى غير رمزية حيناً ، وكان يكتب باللغة العربية تارة ، ويكتب بالعامية تارة أخرى . وكان حــوار الرجل فى الميدانين لا يشق له غبار .

ثم كان من أعلام هذه المدرسة الثانية من مدارس الصحافة رجل أغرانا كثيراً بأدبه، واستمالنا اليه بروعة قلمه، وبهر أعيننا بثروته اللفظية والفكرية، وراعنا أخيراً بتلك الوسيلة الأدبية ونعنى بها القصة الخيالية، يكتبها فى نقد السياسة أو المجتمع. وقد حملنا كل ذلك على أن نخصه بالجزء الثالث من أجزاء هذه السلسلة. وهذا الأديب الممتاز الذى صنع بنا كل ذلك وضنمنا به كل ذلك هو ابراهيم المويلحى.

ثم فى الجزء الرابع من أجزاء هذه السلسلة بدأنا الحديث عن المدرسة الصحفية الثالثة فى مصر، وزعيمها السيد على يوسف صاحب المؤيد. وهو أول من فصل نهائياً بين الكتابة الصحفية الخالصة والكتابة الأدبية الخالصة. وعرف الفرق الواضح بينهما. لذلك وللظروف التى ظهرت فيها « المؤيد » قلنا عن هذه الجريدة الشهيرة « إنها ظهرت فى الوقت الصحيح، واختار لها القدر الرجل الصحيح، واتخذت لنفسها المنهج الصحيح ».

وبظهور السيد على يوسف على مسرح الصحافة المصرية بدأت هذه الصحافة طوراً جديداً من حيث الاصالة، ومن حيث الفن، ومن حيث الاسلوب.

أما الاصالة، فلأن هذه الصحافة أصبحت بالفعل صحافة رأى وفكرة، أو صحافة هذا الحزب أو ذاك من أحزاب الأمة. وكان لكل منها رأى فى المسائل السياسية والاجتماعية والثقافية و غيرها.

وأما الفن الصحفى فلأن صحيفة « المؤيد » وزميلاتها من الصحف اليومية الأخرى « كاللواء » و « الجريدة » وغيرها أصبح لها نظام خاص فى تبويب الصحيفة ونظام خاص فى طريقة العرض. كما أصبح أكثرها يجرى وراء هدف رئيسى واحد: هو مقاومة الاحتلال البريطانى فى مصر.

وأما الأسلوب فلأن صاحب « المؤيد » كان — كما قلنا — يفرق بين الكتابة الأدبية والكتابة الصحفية، ولأنه كذلك وضع للناس نموذجا جديداً فى كتابة المقال السياسى.

وها نحن بعون الله تعالى وحسن توفيقه نصل بقرائنا إلى الجزء الخامس من أجزاء هذه السلسلة . وهو الجزء الخاص بالزعيم الشاب مصطفى كامل.

ومصطفى كامل فى نظرنا تلميذ مجتهد من تلاميذ المدرسة الثالثة ، كتب بأسلوبها ، واتبع منهاجها ، وأصبح لا ينفرد عن رجالها إلا بميزتين واضحتين :

أولاها — الاسترسال فى اصطناع الأسلوب الخطابى .

والثانية ــ إثارة الشعور بالمعانى الوطنية الجديدة التى جرت على لسانه وكان لها أعظم صدى فى مواطنيه .

وسنحاول فى هذا الجزء الخامس أن نشرح الظروف التى أحاطت بهذا الحوارى وجعلت منه زعيما فى السياسة ، وزعيما فى الصحافة ، وزعيما فى الخطابة ، وزعيما فى الدعاوة لمصر فى جميع أنحاء العالم الأوروبى .

ولقد درج زعماؤنا المصريون فى أوائل هذا القرن على خطة سديدة ،وفكرة سليمة،عادت بالفائدة عليهم وعلى الشعب المصرى فى ذلك الوقت . فحرص كل واحد من أولئك الزعماء على أن تكون له صحيفة باسمه تعبر عن رأيه ، وتصل بين أفراد الشعب وبينه ، وتشارك فى تكوين ما يسمى بالرأى العام المصرى . فكان من النادر أن يمر يوم فى حياة صحيفة من صحف الرأى فى مصر دون أن تشتمل هذه الصحيفة على مقال قيم لصاحبها . وكانت اللواء من أسبق الصحف المصرية يومئذ إلى إبداء الرأى . والذى لاريب فيه أن صاحب اللواء كان من أغنى الزعماء الصحفيين السياسيين فى زمانه بالمعانى الوطنية الجليلة ، والعواطف القومية الشريفة ، والمعنى الجليل إذا خطر ببال صاحبه تطلب لفظا جليلا .والعاطفة الشريفة إذا إزدحمت فى صدر صاحبها طلبت كفؤاً لها من العبارات القوية . وكذلك كان أسلوب صاحب اللواء فى الكتابة ، وأسلوبه فى الخطابة .

وقد جعلت هذا الجزء من أجزاء السلسلة فى ثلاثة كتب:

أولها ــ كتاب عنوانه « على هامش الحركة الوطنية فى مصر » هو خلاصة

قراءات ، وثمرة مراجعات فى التاريخ الحديث ، وفى السياسة العالمية فى تلك النهضة المباركة التى نسميها « حركة الوعى القومى فى مصر » .

وثانيها ـ أى ثانى الكتب التى اشتمل عليها هذا البحث كتاب عنوانه « حياة مصطفى كامل » أعترف منذ الآن بأننى انتفعت فيه كثيراً برجلين ، هم : المرحوم على بك فهمى شقيق مصطفى كامل باشا والمؤرخ الكبير عبد الرحمن بك الرافعى صاحب تاريخ الحركة القومية في مصر .

وأما ثالثها ـ فكتاب عنوانه « مصطفى كامل والصحافة » . وهذا الاخير هو الثمرة المرجوة من وراء هذا البحث ، وهو الذى قضيت فى سبيله معظم الوقت ، ولأجله رجعت إلى صحف « الأهرام » « والمؤيد » و « اللواء » أتتبع فى كل منها قلم هذا الشاب الذى هام بحب مصر ، وهامت به مصر . فاذا بى تجاه صورة رائعة لعقله وقلبه ونفسه . وهى صورة جذبتنى وسحرتنى وجعلتنى أصيح فى نفسى قائلا :

« إن كل مصرى لا يقرأ سيرة مصطفى كامل ويستوعبها فى صدره جيدا يعتبر فى نظرى ناقصا فى تربيته الوطنية نقصاً ليس له ما يعوضه » .

(وبعد) فنى الفترة الاخيرة من كفاحنا القومى ظهر شبابنا العربى وكأنما أعياه العثور على أمثلة حية للعظمة الحقيقية . فالى هذا الشباب العربى الوثاب أقدم هذا الكتاب راجيا أن يجدوا فيه طلبتهم ويظفروا فيه ببغيتهم ، ويروا فى الوطن أنه خليق بمحبتهم ، وأنه أهل لتضحيتهم ، كما ضحى فى سبيله ذلك الفتى الخالد الذكر مصطفى كامل ، طيب الله ثراه ، وجزاه عن أمته الجزاء الاوفى .

وقف هذا الشاب خطيباً فى حفل افتتاح مدرسته وذلك فى غرة شهر مارس عام ١٩٠٢ فكان مما قال :

« يحار بعض الناس فى أمر هذه الديار إذا رأوا ماصارت اليه ، ويقولون إنها دخلت فى عداد البلاد الميتة ، ويضربون صفحاً عن التاريخ وماحوى ، كأنه ليس

المرشد الأكبر للشعوب ، والمعلم الخبير الذى لاريب فى قوله ، ولاشك فى صدق حكمه .

قام هذا النزاع فى التاريخ بين قضيتين عظيمتين :

الأولى يزعم أصحابها أن مصرماتت ولن تحيا أبد الدهر لأن أمة حكمها الأجانب هذا الحكم الطويل ، وتقلبت عليها دول الأرض ،واستعبدها الزمان وأهله ، وقهرتها الليالى والايام ، لا تجد من مادة الحياة مايكفى لنهضتها وارتقائها ، ودخولها فى ميدان العمل والمنافسة .

وقال أصحاب القضية الثانية : إن أمة لاقت من الاهوال مالاقت أمة مصر ، وأساءت اليها الحوادث بهذا المقدار ، وكافحتها الليالى هذا الكفاح الشديد ، ثم لايزال فى بنيها من يحس ويشعر ، ويعمل ويجد ، ولاتزال هى حافظة لشكلها ، باقية على عهدها لأمة دونها كل الأمم . والجاهل من يزعم أنها فقدت مادة الحياة ، وتجردت عن عوامل القوة .

ثم قال رحمه الله : ليست حاجة مصر إلى شيء فى هذا الزمن مثل حاجتها إلى تخريج رجال متحدى الكلمة ، متفقى الرأى ، عارفين بتاريخها ، معتبرين بعبر حوادثها ، ناهضين بها ، مجدين فى سبيل إسعادها وليس لنا بانشاء هذه المدرسة غاية غير هذه . فانما نحن لانرمى إلى تربية موظفين ، أو إعداد طلاب للشهادات ... ولكننا نرمى إلى تخريج رجال ، خلائقهم محبة الوطن ، والتمسك بالفضيلة ، والارتباط ببعضهم البعض ، والتفانى فى خدمة هذه البلاد . نرمى إلى تكوين نفوس عالية تأبى الضيم والذل ، وتهوى الشرف والمجد ، وترى الحياة بغير عز الأوطان وسعدها حياة شقاء وبلاء » إلى آخر ماقال رحمه الله .

ونحن نقول — الحق أن مصر كافحت من أجل استقلالها بكل الطرق ، ومارست فى سبيل خلاصها وحريتها كل وسيلة ممكنة . فاذاأردنا أن نتخذلأنفسنا عبرة من كل أولئك فلنؤمن ايماناً قوياً يملأ قلوبنا ، ويمتزج بدمائنا ، ويسيطر على نفوسنا أن مصر العزيزة لن يتم لها إستقلالها ... ، ولن تنعم بحريتها الكاملة إلا بقوى ثلاث :

هي قوة الجيش ، وقوة العلم ، وقوة الخلق .

ويقيني أن في واحدة من هذه الثلاث متى كملت وبلغنا بها المدى ما يضمن نجاحنا وبلوغ أملنا . فما ظنك بنا حتى نستكمل جميع هذه القوى ؟ إننا نرقى بسرعة عظيمة إلى مصاف الدول الكبيرة . وإنا لخليقون بهذه المنزلة في القريب العاجل بإذن الله .

مصر الجديدة في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٥٢

عبد اللطيف حمزه

الكتاب الاول

على هامش الحركة الوطنية فى مصر

« لكل لوحة فنية (صورة) . ولها كذلك ما يسمى (بخلف الصورة) . والصورة هنا هى حياة مصطفى كامل وبلاؤه العظيم فى ميدان الصحافة . وأما (خلف الصورة) فهذا الكتاب الأول الذى جعلته على مقدمات ثلاث :

أولاها — عن اوروبا والاستعمار .

والثانية — عن أوروبا والاسلام .

والثالثة — عن بناة الوعى القومى فى مصر » .

المؤلف

المقدمة الاولى

اوروبا والاستعمار

كانت أوربا فى القرن التاسع عشر تضطرب اضطراب المحيط وتغلى غليان المرجل. فقد كان ذلك العصر عصر ثورة فى السياسة، وثورة فى العلم، وثورة فى الصناعة، وثورة فى الاقتصاد، وثورة فى المجتمع الاوروبى نفسه آخر الامر.

فأما الثورة السياسية فاقترنت بالثورة الفرنسية التى جعلت شعارها : الحرية والاخاء والمساواة. وأما الثورة العلمية فقد بذر بذورها بيكون وديكارت وغيرهما من العلماء. وكان من آثار هذه الثورة أن عرف الناس نظريات جديدة فى أصل الانسان، ومبدأ الخليقة عارضت ما جاء فى الكتب المقدسة فأشاعت بين الناس موجة حادة من الألحاد سلبتهم إيمانهم، وسلطت عليهم شياطين الشك تنوشهم من كل جانب. وأما الثورة الصناعية فقد أتت لتقويض المجتمع الاوربى من أساسه إذ كان من نتائجها المحتومة أن انطلق الانسان كما انطلقت الجن من قمقم سليمان، وطفق يزاحم الطيور في السماء والأسماك فى الماء، ويربط بين أجزاء العالم كله بخيوط من حديد وأخرى من كهرباء.

ثم فى أحضان الثورة الصناعية نشأت الثورة الاقتصادية ونمت وترعرعت فى ظل الرأسمالية، ووجدت برهانها ساطعا، وغذاءها وافرا فى ذلك التعاون البعيد الذى كان بين هاتين الطبقتين المتمايزتين، وهما طبقة العمال وطبقة أصحاب الأعمال.

ويستطيع الكاتب أن يؤدب التاريخ. أعنى ينظر اليه نظرة أدبية فى أكثرها فيتألف له من تلك الحوادث مسرحية ذات مشاهد مختلفة، من الخير أن نعرض لبعض مشاهدها.

المشهد الأول

فيه تنشب الثورة الفرنسية ، وتعلن في الناس مبادئها وتصيب عقول المفكرين الأوروبيين بهزة عنيفة . ومن هؤلاء « جيته » المفكر الألماني الذي لم يكد يشهد الحرس البروسي بقوته وجبروته يرتد مهزوما أمام الفرنسيين الذين أسكرتهم نشوة النصر في معركة « ڤالمي » حتى صاح قائلا « إن عصراً جديداً في تاريخ البشرية لا ريب قد بدأ »

ثم إن هذه الثورة الفرنسية تمخضت عن ذلك الفتى الكورسيكي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس ، وظفر بآيات من التعظيم والتبجيل لم يظفر بها الأولياء والقديسون وذلك الفتى الكورسيكي العجيب هو « نابليون »

كان نابليون كالسرطان في جسم أوروبا . فلم يكد يظهر على مسرح السياسة الأوربية حتى أشاع القلق في أنحاء أوروبا : فقد حارب في إيطاليا ، وهزم الأتراك في مصر وسوريا ، وغزا أسبانيا ، واستوى على عرشه في الروسيا . ثم لم يكد يعبر بحر المانش حتى شهد الراية الانجليزية وهي تخفق على تلك الجزيرة المنيعة في عزة وشموخ أنف فارتد على عقبه وعاد إلى بلده . وكأنما كان الشاعر الفرنسي « لافونتين » يشير إليه حين قص علينا في إحدى خرافاته قصة الثعلب الجائع الذي مر على كرم عنب ناضج . فلما أعياه الوصول إلى هذا الكرم قفل راجعاً يقول : أي قيمة لهذا الكرم . إنه حصرم »

ولكن الجزيرة لم تدع القائد الفرنسي يمضي في طريقه كما مضى الثعلب في خيال الشاعر الفرنسي . فقد نجح الانجليز في تعبئة جيوش النمسا وبروسيا والروسيا ضد نابليون . وانتهى المطاف بهذا البطل العظيم إلى جزيرة « سنت هيلانه » حيث قضى له الرجل ما بقي من حياته يكتب مذكراته ويعيش في أوهامه ثم يأتي

المشهد الثاني

من مشاهد هذه المسرحية . فيرتفع الستار عن انجلترة وقد قطعت شوطاً

بعيداً في ميدان الانقلاب الصناعي الذي ظهرت طلائعه من قبل على يد كارل ماركس في المانيا . وكان من أثر ذلك أن تغيرت ملامح المجتمع الانجليزي تغييراً بعيد المدى . فقد حلت الآلة محل العامل في صناعات الغزل والنسيج وغيرها . وانتشرت أساليب الزراعة بالآلات الحديثة في انجلترا . وكان من نتائج ذلك أن هجر الفلاح الصغير مزرعته ، وأهرع إلى المدن فوجدها مزدحمة بالعمال وأصحاب رؤوس الأموال . ومن ثم انقسم الشعب الانجليزي كما يقول «دزرائيلي» قسمين بل أمتين : أمة الملاك وأصحاب رؤوس الأموال ، وهي التي أثرت إلى حد التخمة . وأمة العمال وصغار الملاك وهي التي افتقرت إلى حد يقرب من الاملاق

وغمرت المنتجات الانجليزية أسواق العالم في مستهل عهد الانقلاب الصناعي . ولكن القرن التاسع عشر لم يكد ينتهي حتى كانت الثورة الصناعية قد انتشرت في جميع الدول الغربية وكان من نتيجة ذلك أن ظهرت منافسة تجارية حادة بين تلك الأمم الأوربية . وبعد أن كانت انجلترا في مستهل القرن التاسع عشر تأخذ نفسها بمبدأ حرية التجارة الذي نادى به « آدم سمث » أصبحت في نهاية ذلك القرن مضطرة بازاء المنافسة التجارية الحادة إلى أن تلتمس لنفسها أسواقا لتصريف بضائعها ، بل لا ترى بدا من استخدام القوة المادية بغية الحصول على هذه الأسواق !

ومن هنا بدأت انجلترا حركتها الاستعمارية الواسعة . فتمت لها السيطرة على بوغاز جبل طارق وغيره من المواقع الهامة في البحار والمحيطات . وامتدت سيطرتها إلى استراليا وكندا ونيوزيلندة ، وجنوب افريقيا ، ومصر والسودان ووصلت إلى الهند .

ولكن ــ ترى هل تقف الدول الأوربية مكتوفة الأيدي أمام تقدم الانجليز في هذا الميدان ؟ كلا ــ فقد تطلعت هذه الدول هي الأخرى إلى أسواق توزع فيها بضاعتها ، وأخذت تسعى في تكوين امبراطوريات تضارع امبراطوريتها . وقد أفضى كل ذلك إلى احتكاك دائم بين جميع تلك الدول .

وما كان حادث « فاشودة » كما سنرى الا مظهرا من مظاهر هذا الاحتكاك بين انجلترا وفرنسا . أما الألمان فحين رأوا الانجليز سبقوهم إلى احتلال مصر والسيطرة على الهند روجوا لمشروع « سكة حديد بغداد » يرومون به الوصول إلى أسواق الشرق عن طريق البر إذ حيل بينهم وبين الوصول إليها عن طريق البحر

على أن نتائج الانقلاب الصناعى لم تكن مقصورة على ظهور التنافس الاستعمارى أو التجارى بين دول الغرب ، بل كان من آثاره كذلك ظهور الصراع الاجتماعى بين الطبقات وتبلور المذاهب الاشتراكية على يد « كارل ماركس » « وبرنارد شو » ، و « و ب » فى انجلترا وإن كان المذهب الاشتراكى الذى قدمه كارل ماركس على قدر المجتمعات الصناعية فى المانيا لم يقدر له أن ينتصر انتصارا تاماً إلا على يد لينين في الروسيا .

وكأنى بمخرج هذه المسرحية التاريخية التى نتحدث عنها قد أحب أن يريح أعصاب النظارة بعد مشهدين ثائرين عاصفين من مشاهد هذه المسرحية ، فأتى بالمشهد الثالث منها هادئاً لا يتحدث فيه إلى عواطف الجماهير بل يتحدث فيه إلى عقولهم ، ولا يحتكم فى قضاياه إلى السيف بل يحتكم فيه إلى العقل وإلى العلم . ومن ثم أتى .

المشهد الثالث

وفيه نشر « شارلس ليل » Charles Lyell كتابه «مبادىء الجيولوجيا» وذلك بين عامى ١٨٣٠ ، ١٨٤٣ وقال فيه إن تاريخ العالم كله مكتوب على صخوره وإن قراءة هذه الصخور قد أثبتت أن عمر العالم يقدر بألوف الألوف من السنين

ثم نشر شارلس داروين Charles Darwin كتابه « أصل الأنواع وطريقة الانتقاء الطبيعى عام ١٨٥٩ ثم لم يلبث أن قفاه بمؤلفه العظيم « تسلسل الانسان » فكانت هذه المؤلفات كلها هى القارعة التى أيقظت الناس من سباتهم ، ونبهت عقولهم كما يقول بيكون في « القسطاس الجديد » .

أجل — أحدثت هذه النظريات الجديدة أثارها العميقة فى الدين والسياسة،

أما فى الدين فقد أشاعت فى الناس موجة من الشك والالحاد كما ذكرنا .

وأما فى السياسة فقد حاول القادة فى أوربا أن ينتفعوا من بحـــوث علم البيولوجيا فنادوا بتشجيع السلالات القوية وتعقيم السلالات الضعيفة . وغالى بعضهم بعد ذلك إلى حد أنه أخذ يروج للنظرية القائلة بتفوق جنس على جنس وطفق الانجليز أنفسهم يقسمون البشر إلى بيض وسود . ويزعمون أن معدن البيض مخالف لمعدن السود . وما برحت هـــــذه النظرية تتطور مع الزمن حتى تبلورت فى إنجيل الثورة الالمانية ، ونعنى به كتاب « كفاحى » لهتلر . وهو الـكتاب الذى دعا فيه الرجل إلى سيادة الجنس الآرى على بقية أجناس البشر ثم شاء القدر أن يكون تعصب هتلر على هذا النمط عاملا من العوامل التى أسرعت بألمانيا نفسها إلى سوء المنقلب .

* * *

وندع هذه المسرحية الاوربية جانباً لنلقى نظرة أخـــرى على هذا العالم الاوربى بعد إذ غدا مسرحا للتنـافس التجارى والتنافس الاستعمارى ، وأصبح كالمحموم الذى أخـذته رعدة قوية وعجز عن أن يقف اهتزازات جسمه العنيفة من أثر هذه الرعدة .

ففى الثامن عشر من شهر يناير سـنة ١٨٧١ أزيح الستار فى بهو « المرايا » بقصر فرساى عن حادث جلل هو إعلان الامبراطورية الالمانية ، وكانت هــذه الامبراطورية بل الوحدة السياسية الالمانية ثمرة جهود قوية بذلها ذلك السياسى الذائع الصيت « بسمارك » وقد نجح ذلك الداهية فى إغراء فرنسا باحتلال تونس ليتلهى الفرنسيون بهـا عن الالزاس واللورين . ووقف يرقب النزاع بين الانجليز والفرنسيين حول مصر والسودان . واستطاع ذلك السياسى الخطـــير كما يقول الاستاذ محمد رفعت باشا فى كتابه « التيارات السياسية فى حوض البحر الابيض المتوسط » أن ينتهج لنفسه خطة من شأنها أن تـكفل لألمانيا أن تمسك بميزان القوى السياسية فى القارة الاوربية .

قامت خطة بسمارك على إضعاف فرنسا ، وعلى الايقاع بينها وبين انجلتره وخاصة منذ أصبحت الأولى ناقة على الثانية بسبب انفرادها بتلك الغنيمة الباردة مصر ، حتى إذا نشبت الثورة المهدية في السودان وأصبح هذا القطر هو الآخر غنيمة لمن يسبق صاحبه إلى الظفر به فى ميدان الاستعمار تطلعت فرنسا إلى هذه الصفقة الجديدة تريد أن تظفر لنفسها بحظ منها . فأرسلت حملة بقيادة المارشال ماريشان Marechand إلى الكنغو الفرنسي فسارت الحملة إلى هناك ثم اتجهت إلى الشمال قاصدة بحر الغزال إلى أن وصلت إلى « فاشودة » عند مصب السوباط. وهناك رفعت الحملة الفرنسية علمها على تلك البلدة . وكانت فرنسا ترمى من وراء هذه الحركة إلى أغراض شتى :

منها أن ترغم انجلتره على الاعتراف بنصيبها فى السودان . ومنها مفاوضة انجلترا عند ما تسمح الظروف بذلك فى أمر الجلاء عن مصر.

ولكن كتشنر خيب ظنون الفرنسيين منذ تصدى لحملتهم عند « فاشودة » وأقنعهم بالانسحاب عن هذه المنطقة بحجة أنها مصرية.

ولقد كان لهذا الحادث الخطير أسوأ الأثر فى نفوس الوطنيين المصريين الذين علقوا آمالهم فى جلاء الانجليز على مناهضة السياسة الفرنسية للسياسة البريطانية الاستعمارية . ثم جاءت رسائل مصطفى كامل التى أخذ يبعث بها إلى مدام جولييت آدم تفيض بالألم وتفصح عن خيبة الرجاء . قال فى إحداها : « إن السياسة الأوروبية تبغض إلى بكل جوارحى المدنية الحديثة . ولكن السياسة الفرنسية تعكس أمرى وتجعلنى ذاهلا أمام التناقض الغريب المسطور فى تاريخها . عجبا ــ أنسيت فرنسا فاشودة ؟ إن الحكومة الفرنسية لم تعمل عملا واحدا يجعلنى آملا فيها الخ » .

وفى سنة ١٨٨٨ اعتلى عرش المانيا الأمبراطور « وليم الثانى » وكان شابا طموحا شديد الغرور بنفسه ، محبا للظهور ، أشربت نفسه حب الروح العسكرية البروسية فأعلن أنه ليس هناك غير سيد واحد في المملكة الألمانية هو « أنا »

ومن أجـــل ذلك عزل بسمارك مؤسس الأمبراطورية الالمانيةوبطلها الأوحد. ومنذ يومئذ وألمانيا تفتقر إلى سياسى كف، يقود سفينتها .

ثم لم يلبث الامبراطور أن فاه بتصريح خطير أعلن فيه « أن المانيا أصبحت بفضل صناعاتها واتساع نفوذها الاقتصادى دولة عالمية ذات مصالح حيوية ، وأن هذه المكانة وتلك المصالح تقتضيانها أن يكون لهـا أسطول بحرى يضارع أكبر أسطول فى العالم ».

أجل ـ لقد كان هذا التصريح الذى نطق به الامبراطور الالمانى فى أوائل القرن العشرين أخطر تصريح له فى حياته وحياة المانيا.وهو إن دل على شىء فانما يدل على جهل هذا الشاب بنفسية الشعب الانجليزى وجهله بآماله وطبيعة كيانه فان الانجليز وإن استطاعوا أن يغمضوا جفونهم على القذى ، ويطووا بطونهم على الطوى يستطيعون السيطرة على أعصابهم ولا يقدرون على ضبط نفوسهم إذا رأوا سيادتهم على البحار أصبحت مهددة بخطر .

ومهما يكن من شىء فقد كان من نتائج هذه السياسة الألمانية الجديدة أن يئست انجلترا من صداقة المانيا . ثم زاد الطين بلة أن اعتلى عرش الامبراطورية البريطانية « ادوارد السابع » وكان شديدالكراهية لقريبه وليم الثانى امبراطور المانيا . فسعى الملك ادوارد فى التقريب بين السياسةالانجليزية والسياسة الفرنسية وكللت جهوده بنجاح تام بهذا الاتفاق الودى الذى عقده عام ١٩٠٤ وبمقتضى هذا الاتفاق أطلقت فرنسا يد انجترا فى مصر والسودان ، وأطلقت انجلترا يدفرنسا فى شمال أفريقية . وبذلك وضع الاتفاق الودى كما يقول السير «ادوارد جراى» حدا نهائيا لسياسة وخز الابر التى كانت قائمة بين فرنسا وانجلترا فى كثير من أنحاء العالم .

وإذا كان حادث فاشودة قد آلم المصريين ،وفت فى عضدهم إلى حد كبير فقد كان الاتفاق الودى قاصمة الظهر التى أطاحت بكل ما بقى لهم من أمـــل فى

مساعدة فرنسا لهم فى محنتهم . يقول مصطفى كامل فى رسـالة له إلى مدام جوليت آدم :ـ

« ليس فى وسعى أن أتسلى عن همومى أمام هذا الوفاق الانجليزى الفرنسى المشئوم الذى سيكون من ورائه أسوأ النتائج على وطننا التعس وخديوينا السيء الحظ . كما أنه ليس فى وسع جميع مدارس المعمورة أن تربط المصريين بفرنسا بعد الآن . إن مواطنى يكرهون اليوم فرنسا أكثر من انجلترا نفسها أقول ذلك وإن كنت أعلم أنه من القساوة المتناهية أن أقوله لك . ولكن أليست الصراحة أساس كل مودة وروحها ؟ . إنى أتألم ألماً مزدوجا أتألم لك ولى وإلا فأذكرى أن فرنسا هى أول دولة صادقت على الاحتلال بعقد رسمى . أما أذل الوطنيين المصريين والفرنسيين ؟ إنك لاتدرين مبلغ تشامخ الانجليزفى الوقت الحاضر. فانهم يسخرون منا نحن صغار الأحلام الذين اعتمدنا على فرنساولهم الحق أن يسخروا وأن موقفى الذاتى يصير مع ذلك من أضعف المواقف وأخطرها . فان جميع أصدقائى المصريين والفرنسيين الذين كانوا يناضلون بجانبى أصبحوا إما أصدقاء للانجليز وإما يائسون » .

المقدمة الثانية

اوروبا والاســـــلام

منــذ أصبحت أمم الشرق هـــدفا من أهداف الاستعمار الاوروبي و الساسه الاوربيون يفكرون جديا في هدم كيان هذه الأمم وتوهين قواها وحل الرباط الذى يربط بينها ، سواء أكان هذا الرباط سياسيا كما تصوره العلاقة بين الدولة العلية والأقطار الاسلامية التى تدين لها بالزعامة الحقيقية ، أم كان هذا الرباط معنويا كما تصوره العقيدة الاسلامية التى تتعلق بها جميع الدول العثمانية . ومن ثم انصرفت جهود أولئك الجبابرة المستعمرين الى تلك الدولة العلية يريدون اضعافها وقد كانت هــذه الدولة من حظهم تعانى اذ ذاك من آلام المرض والشيخوخة ما أطمع فيها تلك الدول الأوروبية . فاجتمعت كلمتها على تمزيق الدولة العليـــة وتقسيم هذه الدولة التى عرفت فيما بينهم باسم « الرجل المريض » ورمزوا الى فكرة تقسيمها باسم « المسألة الشرقية » .

والمسألة الشرقية فى نظر المؤرخين عامة ـ ومصطفى كامل بوجه خاص ـ هى مسألة وجود الدولة العلية من قلب القارة الاوروبية وكان من أسباب عداوة الأوروبيين للعثمانيين اختلاف هؤلاء وهؤلاء فى الدين ورغبة الأوروبيين فى تقسيم الدولة العثمانية كما قلنا بحجة حماية رعايا المسيحية.

وكانت انجلترا من بين الدول الأوربية اشدها بغضا للاســـلام والمسلمين ، وا كثرها رغبة فى إغتنام الفرصة الثمينة التي تتيح لهـا امتلاك جزء من املاك العثمانيين . وقد أصبحت هذه المسألة الشغل الشاغل للعلماء والساسة على السواء . فأما العلماء فقد كتبوا في موضوع الاسلام كتبا شتى ومنها علي سبيل المثـال كتاب المستر بلانت « مستقبل الاسلام » وأما السياسيون فقد تمخضت أفكارهم عن مشروع (الخلافة العربية) ليحل محل الخلافة العثمانية .

ومهد ذلك لدخول الانجليز مصر واشتراكهم مع المصريين فى امتلاك السودان فيما بعد . وهكذا نبه المستر بلانت فى كتابه السابق الذكر إلى أن العالم الاسلامى قوة كبيرة ، وأن المدبر لأموره يكون قوياً واسع السلطان ، وأن نابليون كان من أغلى أحلامه تحقيق تلك الأمنية وأن مركز الخلافة الإسلامية يجب أن يكون فى المدينة أو مكة ، وأن خليفة المسلمين يجب أن يكون رئيساً دينياً لاملكا دنيوياً . (١)

هكذا وصف مصطفى كامل المسألة الشرقية من بعض نواحيها بأنها مسألة النزاع القائم بين إنجلترا وبعض الدول الأوروبية بما فيها الدولة العلية وقال بعد ذلك : ــ « فواجب المسلمين أن يلتفوا جميعاً حول راية الخلافة الاسلامية المقدسة ، وأن يعززوها بالأموال والأرواح . فنى حفظها حفظ كرامتهم وشرفهم ، وفى بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الاسلامية ذلتها . (٢)

وسترى فى بعض فصول هذا الكتاب كيف عنيت جريدة اللواء عناية تامة بالمسألة الشرقية ، وشغلت نفسها طويلا بأخبار الحرب المقدونية . وذلك فضلا عن أن صاحب اللواء بدأ حياته السياسية بتأليف كتاب خاص بالمسألة الشرقية هو هذا الكتاب الذى اقتبسنا منه العبارتين السالفتين .

تلك إذن نظرة العالم الأوربى كله إلى العالم الاسلامى كله . وأنظر بعد ذلك إلى عبارة مصطفى كامل ، وهى العبارة التى يقول فيها

«وكان من المنتظر من اللورد كرومر ــ وهو الحاكم المطلق على أمة غير أمته لها آداب غير آدابه وعادات غير عاداته ــ أن يتقرب ما استطاع من نفس الأمة التى يحكمها ليقف على شىء من أفكارها ، وليجذب إليه ثقتها وإخلاصها . أى أنه كان المنتظر منه أن يخفف من مرارة الحكم المطلق فى النفوس باتباعه سبيل المستبدين الشرقيين فى احترام آداب الأمم التى يحكمونها ، والوقوف بأنفسهم على

(١) راجع كتاب المسألة الشرقية لمصطفى كامل صفحة ٢٨

(٢) نفس المصدر صفحة ٣٠

عاداتها وتقاليدها . ولكن قصر اللورد ولم يفعل مافعله بونابرت من قبله . فالجنرال بونابرت بقي مدة إقامته في القاهرة وهو يزور المساجد ويحضر الصلاة والأذكار ، وما ترك شعيرة من شعائر الله إلا واستفسر عنها ولا حفلة من الحفلات الدينية إلا شهدها ولا حلقة من حلقات الدروس الاسلامية إلا دخلها وكان يحترم عقائد المسلمين احتراماً جماً ، حتى لقد كان يتظاهر باعتقادها والايمان بها . وكان له محادثات دينية وفلسفية مع علماء الاسلام وشيوخه ، أرسل تفاصيلها تباعا إلى حكومته فنشرتها وقتئذ في جريدتها الرسمية . بل إنه بلغ من شأن بونابرت في اهتمامه من هذا القبيل أن كل أفكاره كانت فيها نزعة شرقية كما لاحظ ذلك رجال السياسة في عهده وأن وجهه كان موجهاً شطر المشرق كأنه وطنه ، أما اللورد كروم فنزعت به منازع الصلابة الانجليزية فلم يكلف نفسه عناء البحث ، ولا مشقة الدرس ، ولا حسن التودد للمسلمين :

يعيب اللورد دين الاسلام بأنه مجموع مبادىء صورت منذ أكثر من ألف عام لادارة شئون جمعية في حالة البداوة . فهذه اللفظة « صورت » لا يمكن أن توجد في الدنيا إساءة في اختيار ألفاظ لمعان مثل إساءة اللورد في اختيار لفظة «صورت» لمبادىء دين يعتنقه الملايين من الناس . وماذا يقول رجال الكنيسة الانجليزية إذا عبر عن التوراة والانجيل بمثل هذا التعبير ؟ ولكن لندع هذه الاساءة في الاختيار فما هي تستحق في نظرنا التفاتا .

إذا كان يعد من عيوب الديانات تقادم العهد عليها وعدم تغيير مبادئها ، فلعل اللورد لا يجهل أن المسيحية أقدم عهدا من الاسلام بخمسة أو ستة قرون ، ومع ذلك لم يخطر ببال أحد من أعدائها أن يعيبها بقدم عهدها . ثم هؤلاء الكاثوليك يفخرون كل الفخر بثبات مبادىء الديانة الكاثوليكية وعدم تغيرها . بل هؤلاء المصلحون البروتستانت أنفسهم لم يدعوا إلا إلى الرجوع إلى المسيحية الأولى واتباع تعاليم الكنيسة في صدرها الأول . فاذا كان اللورد كرومر يعيب الديانة

الاسلامية لقدم عهدها وعدم تغيير مبادئها فأولى به أن يعيب دين أمته لأنه دين المسيحية الأولى ، ولأنه أقدم من الاسلام عهداً » (١).

هكذا كان موقف الانجليز من الاسلام منذ أن وطئت أقدامهم أرض مصر ، ومنذ طفقوا فوق ذلك ينشرون الشك والريبة فى نوايا المسلمين والخوف من انتعاشهم وتكتلهم ، ويرون فى كل نهضة من نهضاتهم نذيراً لهم بسوء مصيرهم فى الشرق الاسلامى .

والذى يثير العجب والدهشة فى نفوس المؤرخين المحدثين هذا الذى بالغ فيه بعض الانكليز من تصوير نهضة المسلمين على نحو أثار الخوف فى قلوب الكثيرين من ساسة الأوروبيين والأمريكيين فأخذت طائفة من هؤلاء وأولئك تتبع الانجليز فى أوهامهم وتصوراتهم ، وتنساق معهم فى هذا السبيل .

ولقد كان من نتيجة ذلك أن طفقت الصحافة الأوروبية منذ ذلك الحين تكثر من الكتابة فى موضوع الاسلام والمسلمين ، وقد ابتدعت لذلك عنوانا طريفا أخاذا هو عنوان (الجامعة الاسلامية) .

كل ذلك والمسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها لا يفكرون إلا فى نفوسهم ومحنهم ، فإن تجاوزوا ذلك إلى غيرهم ، ففى البحث عن الوسائل التى يتذرعون بها للتخلص من نير الاستعمار الأوروبى والوسائل التى توصلهم إلى الحكم النيابى .

وحين أخذت المقالات تترى على الصحف الأوروبية بعنوان (الجامعة الاسلامية) وجدت الصحافة الوطنية فى مصر نفسها مضطرة إلى الرد على ماجاء فى تلك الصحف . وكان من أولى الصحف الوطنية فى تلك الفترة صحيفتان هامتان هما : صحيفة المؤيد وصحيفة اللواء .

أما الأولى فقد تحدثنا عنها فى غير هذا المكان . وأما الثانية فما أكثر مانشرت من المقالات بعنوان .

(إنجلتره والاسلام)، (فرنسا والاسلام) ، (أوروبا والاسلام) ، (مصالح

---

(١) مجلة العالم الاسلامي – عدد أبريل سنة ١٩٠٧

الدول والاسلام) ،(مستقبل الاسلام) . وسنعود إلى ذلك فى فصل من فصول هذا الكتاب إن شاء الله .

والحق أن سياسة على يوسف وأراءه الشخصية — كما يقول عنه الخديو عباس — كانت قائمة بصفة خاصة على الوحدة العربية . . . ولكن كان من رأيه أن فترة الحروب الصليبية قد إنتهت إلى الأبد) (١) .

والحق أيضا أن مصطفى كامل كان أشد من على يوسف محافظة على الطابع الدينى الذى ظهر بوضوح فى نتاجه الصحفى بجريدة اللواء ، ولتندار أجيبسيان . وغيرهما وأن فكرة التكتل الاسلامى على النحو الذى تخشاه أوروبا ، ويبالغ فى تصوره اللورد كرومر كانت تداعب خياله ، وإن كان ضعف الأمل فى تحقيقها على تلك الصورة . .

وصحيح قبل هذا كله أن فى المسلمين منذ ظهورهم نزوعا إلى الترابط والتآلف إستجابة منهم لقوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) ولقول نبيهم صلوات الله وسلامه عليه (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) ولقوله كذلك (المسلمون تتكافأ دماهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم) . ولكن الاسلام كما دعى إلى هذه الأخوة الاسلامية دعا كذلك إلى الأخوة الانسانية يدل على هذا قوله تعالى (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وكما يدل عليه الحديث الشريف (لافضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى) .وأكثر من ذلك وأقوى منه دلالة على سعة صدر الاسلام أنه دعا المسلمين إلى العدل فى معاملة المشركين مالم يعتدوا عليهم . قال تعالى « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم — الآية » .

جهل الأوربيون عن الاسلام كل هذه الأمور ، وراحوا يخلقون (للجامعة الاسلامية) معنى سياسياً يبعث الرعب فى النفوس ، ويحل اليأس محل الأمل فى

---

(١) جريدة المصري ١٥ مايو سنة ١٩٥١

بقاء الأوربيين مستبدين بالأمم الاسلامية التى أصبحت فى هذه الفترة من فترات حياتها عاجزة عن الدفاع عن نفسها أمام تيار الاستعمار الأوربى .

وقد أعجبنى فى هذا المعنى مقال كتبـــه لمجلة القرن التاسع عشر الانجليزية الدكتور بهجت بك وهي تحت عنوان« الجامعة الاسلامية » جاء فيه :

« لا ريب فى أن الدول الأوروبيـة جعلت لنفسها مركزاً قلقاً فى سياستها الاستعمارية . لأنه ظهر أخيراً أن أقل مظهر من مظاهر الحيـاة يبدو على حدود أملاك تلك الدول الممتدة إلى آلاف الأميال يلفت أنظارها بسرعة غريبـــة ، ويزعجها جميعاً . وكل علامة من علامات التقدم فيما وراء تلك الحدود تنقلب إلى خطر يتهدد تلك الدول .

فانه منذ عهد قريب شغلت أوروبا نفسها بالخطر الأصفر

وماذا كان نوع هذا الخطر ؟ هل أظهرت الأمم الصفراء رغبةفى الاغارة على الممالك الأوروبية ؟ كلا . إن الخطر الذى حدثت بشأنه تلك الضوضاء العظيمة لم يكن يتهدد السلام العام فى أوروبا . ولـكنه زعزع آمال الدول الاستعمارية التى كانت تؤمل أن تضع تلك الأمم تحت نيرها الأبدى ، لأن أوروبا كانت تعتبر تلك الأمم الصفراء لا تستحق إلا المذلة والاستعباد .

ولـكن لحسن حظ الانسانية نالت اليابان مقداراً وافراً من النصر على أمة الروس ، وهي الأمة التي كانت تمثل السلطة الأوروبيـة . وكذلك نهضت الصين نهضة شماء ، وأظهرت ميلها لمقاومة الأجانب ومسابقتهم . فـكان ذلك الضربة القاضية على آمال الأمم المستعمرة فى الشرق الأقصى .

ولما أفلتت تلك القطعة الـكبرى من أيدى أوروبا هنأت نفسها على بقاء الأمم الاسلامية ، حاسبة أنها تلتهم تلك الممالك لتسد بها جشعها .

ولـكن منذ أظهر العفاريت الصفر أنهـم لم يذعنوا ، ولن يرضخوا أحست أوروبا أن نفوذها أخذ يقل شيئاً فشيئاً فى ممالك الاسلام التىاعتبرتها « أملاكها الخاصة » .

خشيت أوروبا من روح الاستقلال الحديثة التى ظهرت ، واخترعت إسماً جديداً لتلك النهضة التى اعتبرتها الخطر الاسلامى ، هو (الجامعة الاسلامية).

ويحق لأوروبا ألا تخشى من الجامعة الاسلامية خطراً إلا بمقدار ما خشيت من الخطر الأصفر . لأن النهضة الاسلامية خالية من كل روح عدائيــة . إنما هى نتيجة لاستيقاظ تلك الأمم من السبات العميق الذى أصابهــا ، ورغبتها فى التخلص من النفوذ الأوروبى الذى يعمل على الدوام على تأخر المسلمين أكثر مما يعمل على تقدمهم .

وقد انتهزت تلك الدول فرصة وجود الممالك الاسلامية حول أملاكها ، وأخذت تذيع خبر الخطر الذى يتهددها من الاسلام وتكبيره وتعظمه . وبلغ بها الميل للاغراق إلى درجة أنها أخذت توهم العالم بأن الجامعة الاسلامية اذا تركت وشأنها تؤول بلا شك إلى ضياع المدنية الحديثة التى هى ثمرة أعمال البشر فى القرون كلها . وهى كذلك تدعى بأن الجامعة الاسلامية تحرض طبقات العامة وتهيجها . وفى كلمة واحــدة إن ممالك أوروبا تريد أن توهم العالم المتمدن بأنه سيرى من أخطار الجامعة الاسلامية ومصائبها أشد مما رأته أوروبا من الوحشيين فى القرون الوسطى . ولم تلجأ أوروبا إلى هذه الحيلة إلا لأنها علمت أنها ليست فى حاجة إلى المطالبة بالأماكن المقدسة . ولذا اخترعت وسيلة جــــديدة ، وهى الرغبة والتفانى فى حماية المدنية الانسانية من غوائل المسلمين وتوحشهم !

ثم طفق كاتب هذا المقال يصور آمال المسلمين ، ويعرف الأوروبيين نهضتهم وبالغرض الذى ترمى اليه الأمم الاسلامية من وراء هــذه النهضة . وذكر أن أوروبا استمعت إلى أقوال المستشرقين فيما سموه (بالجامعة الاسلامية)وهى آراء يكتنف الخطأ معظمها ، وقال لهم إن النهضة الاسلامية ليست إلا يقظة المسلمين فى سائر الأقطار الاسلامية لمقاومة الظلم الواقع عليهم .

وانتقــل الكاتب من ذلك إلى الرد على الأوروبيين الذين ذهبوا فى تصوير (الجامعة الأسلامية) بصورة التعصب الدينى ، فسألهم : -

هل يقترف المسلمون ذنبا لا يغتفر اذا سعوا لنيل حريتهم واستقلالهم ؟ ألم تحدث مثل هذه الثورات فى أوروبا فى القرون الماضية لنيل هذه الحقوق ؟ ومن أين علمت أوروبا أن المطالب التى تؤدى بأصحابها إلى الحرية والسعادة الأبدية والتقدم الحقيقى ليست إلا تعصبا مذموماً ؟ ألا يحق لنا أن نسأل أينا جدير بصفة التعصب : الشرق أم الغرب ؟ وهلا تدل هذه المفتريات على سوء نيات أصحابها ؟

على أنه من الانصاف لبعض كتاب هذا الغرب أن نقول إن منهم من أنصف لاسلام فى بعض الكتب أو الصحف . ولكن هؤلاء قليلون فى جملتهم . وفى ذلك يقول مصطفى كامل فى مقالة له بعنوان (سفينة الاسلام) نشرت بجريدة اللواء فى أول أكتوبر سنة ١٩٠٣ .

« وخليق بالأتراك أن يذكروا كلمة حكيم من حكماء أوروبا الذين أنصفوا المسلمين والاسلام حيث قال : — المسلمون فى فضائلهم أكبر الأمم وأفضلها ، ولكنهم دون الغربيين فى قوة السواعد التى سلحها العلم . ولا فوز فى أى معترك للطاهر القلب الشريف الاعتقاد ، بل الفوز للقوى البنية ، ومهما ارتقى النوع الانسانى فان القوة المادية تبقى فيه أشد فعلا ونفوذا من القوة المعنوية.

(الجامعة الاسلامية) إذن ليست فى الواقع إلا شعوراً عاماً لدى المسلمين جميعاً بالظلم ، وشكايات متكررة من وقع هذا الظلم ، ورغبة عامة فى النهوض بأممهم للتخلص الأبدى من آثاره إلى الأبد.

وحول هذا المعنى دارت المقالات الكثيرة التى نشرتها جريدة اللواء فى موضوع (أوربا والاسلام)وسيعود هذا البحث إلى تكملة الحديث عن هذه القضية الهامة فى فصل خاص من فصول هذا الكتاب عنوانه (اللواء والاسلام والدولة العلية).

مهما يكن من شىء فقد كان لهذا الشعور العام من جانب أوروبا نحو الاسلام أعمق الأثر فى مصر . فقد رأينا الاحتلال الانجليزى فيها يسيء الظن بالمسلمين إساءة بالغة ، ورأينا المصريين من جانبهم يضيقون كثيرا بهذه الاساءة البالغة

وأكثر من هذا كله أن الحياة العامة فى مصر تأثرت بهذا الشعور الذى نتحدث عنه . من ذلك — مثلا —أن الانجليز كانوا فى وقت ما يقصـــرون الوظائف الحكومية على القبط دون غيرهم من أهل مصر ، وأحس المسلمــون وقع هذا الظلم ، ومن هؤلاء المرحوم حافظ ابراهيم ، وقد لبث زماناً طويلا يحاول الحصول على (وظيفة) يأكل بها العيش ، فلما لم تتيسر له نظم قصيدة أولها :

سعيت إلى أن كدت انتعل الدما　　وعدت وما أعقبت الا التنــدما
لحى الله عهد القاسطين الذى به　　تهــدم من بنياننا ما تهـــدما
اذا شئت أن تلقى السعادة بينهم　　فلا تك مصريا ولا تك مســـلما

* * *

أيا ما كان الأمر فقد كان دفاع اللواء عن الاسلام بمثل هذه الحرارة من جانب مصطفى كامل بنوع خاص نتيجة لأمور كثيرة ، منها ظهور حركة الالحاد التى فشت فى الشرقيين منذ اتصالهم بالعقل الأوروبى الحديث ، وكانت نتيجة لجهود المبشرين التى نمت وترعرعت فى ظل الاحتلال الأجنبى البغيض .

وعندى أنه لامجال للشك فى أنه لولم يهاجم الأوروبيون الاسلام على هــذا النحو ، ويسخروا من عقول المسلمين إلى هذا الحد لما كانت ثم حاجـة إلى تلك الفصول الطويلة التى كتبها كل من المويلحى الكبير والسيد على يوسف ومصطفى كامل فى صحف مصباح الشرق والمؤيد واللواء ، ولما احتلت هذه الفصول فراغاً كبيراً من تلك الصحف

المقدمة الثالثـــة

من هم بناة الوعى القومى فى مصر ؟

فى غضون ذلك كانت شجرة القومية تمتد جذورها فى الأرض وتسمو بفروعها فى الجو . وكانت قلوب الشباب تهـوى إليها كما تهوى الحمائم الظمآى إلى ماء النبع فأخذت الشعوب المغـــلوبة على أمرها تشعر بما يجمـع بين أفرادها من روابط الجنس واللغة والتقاليد ، وتعمل على لم شمثها فى وطن واحد تحت سلطان واحد ، حتى إذا بلغت من ذلك ما تريد سعت تفرض سـلطتها على ماجاورها من الأمـم والشعوب . فأنشأت الأمم الصغيرة المغلوبة على أمرها تتمرد وتتذمر ، كما أنشأت الأمم الغالبة الظافرة تتحفز وتتنمر .

وإن المرء حين يتحدث عن القومية فى ذاتها لا يجد بداً من أن يسأل نفسه هـذا السؤال : أخير هى أم شر ؟ أنذير حرب هي أم بشير سلام ؟ أوسيلة هى من وسائل التقدم والعمران أم وسيلة من وسائل التأخر والخراب ؟

مهما يكن من شيء فقد كانت الروح القومية — كما يقول « رمزى ميور » أستاذ التاريخ الحديث بجامعة منشستر — من أقوى العوامل السياسية فى العالم عندما اشتعلت نار الحرب الكبرى ،التى ساعدت على تفتيت الامبراطـــورية العثمانيـة وقوضت أركانها ، وذهبت بسلطانها ، وحملت الشعوب البلقانيـة على الكفاح ، فسعت للتخلص من أيدى الأتراك ، وأعانتها الدول الكبرى بالسلاح والرجال حتى كتب لها الظفر بحريتها بعد نضال شاق .

ثم لم تلبث شعلة القومية أن عبرت البحر ، وانتقلت بسرعة البرق من الغرب إلى الشرق ، وأخذ الحلفاء — خدمة لمآربهم الخاصة يدفعون العرب إلى الثورة على السيادة التركية .

أما فى مصر خاصة فيقول المؤرخون إن القوميـــة المصرية مرت بمرحلتين متميزتين :

أولاها — كانت مصر فيها تحاول الظفر بحظ من الاستقلال الذاتى ، وتعمل شيئا فشيئا على التخلص من الحكم التركى.

والثانية من مراحل القومية المصرية تبدو فى الأطوار التى مرت بها القضية المصرية منذ تطلعت مصر إلى نيل حريتها واستقلالها وتبلغ هذه المرحلة ذروة قوتها فى حركة مصطفى كامل وفى الثورة الوطنية الكبرى التى قادها سعد زغلول سنة ١٩١٩ .

ولعل إقدام الحكومة المصرية فى أكتوبر سنة ١٩٥١ على إلغاء المعاهدة الانجليزية المصرية التى أبرمت سنة ١٩٣٦ أحدث مظهر من مظاهر هذا الكفاح القومي المرير ، وهو الكفاح الذى نريد أن نقف عنده ، ونقفو أثره ، ونترسم خطاه ، لنرى من هم بناة هذا الوعى القومي فى مصر ؟

صحيح أن مصطفى كامل كان الباعث الحقيقى للشعور بالقومية المصرية. ولكن الذى لا شك فيه أيضا أن هذه الحركة التى قام بها كانت مسبوقة بحركات أخرى لا يصح إغفالها ، ولا ينبغى للمؤرخ الحديث أن يهمل ذكرها فى معرض الكلام عن هذه الحركة القومية .

تحدث الخديو عباس فى مذكراته عن السيد على يوسف حديثا طويلا ثم ختم حديثه بقوله :

« . . . . وكانت الأرض قد حرثت . وكان العاملون على قدم الاستعداد للبدء وكان على العناية التى تسهر على الشعوب كما تسهر على الأفراد أن ترسل إلى مصر باذر حب الوطنية المنتظر مصطفى كامل(١) .

والحق أن تاريخ الوعى القومى فى مصر يمكن أن يرجع على الأقل إلى بداية القرن الثامن عشر وهو القرن الذى شهد نشاط محمد على . وقد وفق هذا العاهل العظيم إلى تجنيد جيش من الفلاحين المصريين وكم كان الثوب العسكرى الذى يرتديه أولئك الفلاحون يثير فى نفوسهم العزة والاباء والشعور بالعظمة والكبرياء . ثم جاءت فتوحات ابراهيم وما أبلاه الجيش المصرى من البلاء الحسن

(١) جريدة المصرى فى ١٤ مايو سنة ١٩٥١

فى حملة الشام تزيد هذا الشعور فى نفوس المصريين قوة . وتبعث فيهم الوطنية التى لم تخف على المؤرخين الفرنسيين،فأشاروا فى كتبهم كثيراً اليها .

ثم يأتى بعد ذلك رائد النهضة الحديثة فى مصر — رفاعه رافع الطهطاوى فيكتب فى التاريخ المصرى القديم ، ويكتب فىالتربية الوطنية ، وتتردد فى كتبه معان جديدة من هذا القبيل ، ويصف لنا المواطن الصالح من هو ؟ وماذا عليهمن الواجبات التى يقوم بها لرفاهية مصر والمصريين ؟ ويبدو هذا كله جديداً كل الجدة على الناس إذ ذاك لأنها أمور لايجدون لها نظيرا من كتاباتالشيخالجبرتى على قرب العهد بينه وبين رفاعه . ثم يظهر من بعده على مبارك ، ويؤلف كتابه العظيم « الخطط التوفيقية » وتظهر فى تضاعيفه الروح المصرية ، والقوة الوطنية، ويصطنع فيه ألفاظا جديدة على المصريين ،ومنها اللفظ الذى استخدمه رفاعه وهو لفظ (مواطن) للتفريق بين المصريين وغيرهم من الأرمن والأتراك المقيمين بمصر . (١)

ثم يفد على مصر فيلسوف الشرق السيد جمال الدين الأفغانى فيهز الضمير المصرى بكلماته ، ويحيي موات الأمل بألفاظه ، ويحرك فى مصر شعوراً جديداً هو شعور الأهلين بالكرامة ، ويزرع فى قلوبهم البغض الحقيقى لكل استعمار أجنبى ، ويهيب بمصر (واسطة عقد الشرق) أن تسبق الأمم الشرقية كلها إلى النهوض ، ويبلغ من هذا كله مايريد وأكثر مما يريد .

ويغادر السيد جمال الدين الأفغانى مصر ، ولكن يترك فيها روحه متمثلة فى نفر من أعظم تلاميذه منهم الشاب السورى أديب اسحق ، والأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، والشيخ الاسرائيلى يعقوب بن صنوع ، والرجل الشعبى السيد عبد الله النديم وكثيرين غيرهم من بناة مصر الحديثة ، وهم الذين أشعلوا فيها نار الحماسة الشرقية ، وناضلوا فيها عن اللغة القومية والعادات القومية ، فزادوا بذلك أنغاماً جديدة فى طنبور الوعى القومى .

---

(١) راجع كتاب «فى أصول المسألة المصرية» صبحى حيده ص ١٧١ ومابعدها

وفى أثناء ذلك كله يظهر عرابى وشريف ورياض وغيرهم من رجال الحكم والجيش ممن برزوا من بين صفوف الشعب ، ونجحوا فى الوصول به إلى درجة أعلى فى سلم الوعى القومى . وذلك بما كانوا يقومون به بين حين وآخر من حركات يراد بها مقاومة النفوذ الأجنبى تارة ، والحصول على أمانى الشعب المصرى نفسه فى حكم دستورى صحيح وحرية سياسية حقيقية تارة ، وجنوح فى بعض الأحيان إلى معارضة الجالس على العرش نفسه فى سبيل المصلحة العامة إذا اقتضى الأمر . فهكذا فعل شريف باشا الذى كان يصدر فى إصلاحاته عن فهم صحيح للأمور ، ويذهب بالتفكير فى ذلك إلى حد المعارضة السافرة لولى الأمر ، حتى نوبار وهو من اشترى الانجليز منه السودان — يقول عنه كرومر فيما كتبه إنه أول من أدخل نظم الحكم الدستورية فى مصر . وأول من ألف وزارة مسؤوله فى عهد إسماعيل وذلك فى ١٨ أغسطس ١٨٧٨ . وكان الخديو فى هذه الحكومة لا نفوذ له .

وتأبى الأسرة الحاكمة نفسها إلا أن تأخذ فيما يأخذ فيه الشعب المصرى من أسباب الحرية الصحيحة وإصلاح نظم الحكم فى مصر . فنراها تشارك مشاركة قوية فى هذا الاتجاه الأخير ، وتنيل المصريين كثيرا من حقوقهم السياسية بالتدريج ، وتمعن فى محاباة المصريين إلى حد أنها تبذر فيهم بذور حركة انفصالية، تنفصل بها مصر عن الدولة العثمانية ، ولا تصبح مربوطة بعجلة الدولة العلية .وما كان قصد محمد على من إنشاء جيش مصرى قوامه الفلاحون المصريون إلا أن يوضح لتركيا وللعالم أجمع أن مصر قادرة على أن تحمى نفسها بنفسها متى تركت وشأنها . وكما تستطيع مصر أن تستغنى بأبنائها فى ميدان الجيش ، فكذلك تستطيع مصر أن تستغنى بأبنائها فى ميدان العلم . ومن ثم اتجه تفكير محمد على أيضاً إلى إرسال البعوث العلمية والمشاركة فى إحياء النهضة المصرية على النحو الذى أشرنا إليه فى الأجزاء السابقة من أجزاء هذه السلسلة .

وإن تنس مصر لا تنسى لسعيد أنه إنتصر للغة العربية ، وقرر أن تكون

هى وحدها اللغة الرسمية وأتى أبناؤه من بعده ، فأعانوا على إنشاء طبقة أرستقراطية فى العلم والأدب والجيش والصحافة . كان لها أثر كبير فى النهوض بوعينا القومى إلى هذا الحد .

وخليق بنا أن نذكر هنا أنه كان من دعاة الحركة الانفصالية فى مصر الأستاذ أحمد لطفى السيد (صاحب الجريدة) وأن فكرته هذه كانت معارضة لفكرة مصطفى كامل . ولكن شخصية الأخير أضفت على فكرته نوعا من الوهم المقدس (بلغة الخديوى عباس حلمى الثانى) فتشيع لها المصريون فى رد ايه .

غير أن هذا الوعى القومى كان إلى ما بعد كارثة الاحتلال البريطانى وعيا مغلفا بغلاف الدين ، أو كان أشبه شىء بصورة جميلة ذات إطار روحى جميل . وكان لذلك أسباب كثيرة : منها تعلق المصريين بالأتراك العثمانيين ونظر كل مصرى إلى نفسه حتى ذلك الحين على أنه عثمانى . ثم استمساك المصريين بالدين الاسلامى الحنيف ، وإعتقادهم أنه لا حياة لهذا الدين إلا باتحاد الأمم التى تعتنقه بعضها مع بعض .

وأخيراً يصل بنا المطاف إلى هذه الطبقة من رجالات مصر ممن عاشوا فى عصر الاحتلال البريطانى ، وأخذوا على أنفسهم مقاومة هذا الخطر الأجنبى ، ومن هؤلاء : ابراهيم المويلحى ، وعلى يوسف ، ومصطفى كامل . وقد بقيت الفكرة الاسلامية مسيطرة على هذه الطائفة ، وكان ظهورها فى ميدان الجهاد أقوى من ظهور الفكرة الوطنية الخالصة . بل إن هذه الفكرة الأخيرة لم تولد بالمعنى الصحيح إلا على يد مصطفى كامل .

وعلى ذلك فبناة الوعى القومى فى مصر كثيرون ذكرنا منهم محمد على وابراهيم وسعيد واسماعيل من أعضاء الأسرة الحاكمة ، ورفاعة الطهطاوى وعلى مبارك وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وأديب اسحق وعبد الله النديم ، من رجالات الفكر والعلم والصحافة، وعرابى وشريف ورياض من رجالات الصفوة المهذبة .

كل واحد من هؤلاء وضع بيده لبنة فى بناء الوعى القومى . وكلهم تعاونوا

علي إقامته حتى استوى له هذا العلو . غير أن الذى لا شك فيه أن الاحتلال البريطانى وما تبعه من ضيق شديد أحس به كل مصرى كان صاحب الفضل الأكبر فى بلوغ الحركة الوطنية إلى هذا الأمد .

نعم — كان الخديو توفيق يسالم العدو الأجنبى حتى إذا قبضه الله إلى رحمته وأتى بعده ابنه عباس إستأنف الجهاد والمقاومه ضد هذا العدو . ونجم عن تشاحنه مع النفوذ البريطانى أن سرى الروح الوطنى الذى أذكت ناره ظروف مختلفة أفاد منها مصطفى كامل أعظم فائدة .

واليك بعض الخطوات التى خطتها صداقة الأمير الشاب عباس حلمى بالزعيم الشاب مصطفى كامل كما تصورها لنا مذكرات أحمد شفيق باشا :

تعرف عباس حلمى بمصطفى كامل (منذ زار مدرسة الحقوق وألقى بين يديه الطالب مصطفى كامل قصيدة استقبال رحب فيها بسموه (١)

ثم اختلف الخديو عباس مع كرومر بشأن إقالة الوزارة الفهمية فثار الشباب وهاجم فريق منهم ، وعلى رأسهم مصطفى كامل الطالب بالحقوق إدارة جريدة المقطم لموقفها العدائى من الروح الوطنى الذى بثه الخديو .. (٢)

وأمعن المحتلون فى إيذاء هذا الروح الذى سرى فى صفوف المواطنين ورأوا تشكيل «محكمة مخصوصة» للحكم فيما يقع من الأهالى من الجنايات والجنح على عساكر جيش الاحتلال أو ضباطه فأحدث ظهور هذه المحكمة الغريبة ضجة كبيرة فى الأوساط الوطنية وكتبت عنه الصحف . ومما نشر فى هذا الصدد مقال لمصطفى كامل بعنوان : صواعق الاحتلال : ندد فيه بهذه السياسة الجائرة (٣)

منذ ذلك الوقت توثقت عرى المودة بين الخديو عباس والشاب الوطنى مصطفى كامل . (وكان الخديو يريد أن يحاط عرشه بسياج من الوطنية ... فقربه اليه ،

---

(١) مذكراتي فى نصف قرن لأحمد شفيق باشا — الجزء الثانى القسم الاول ص ٥٠

(٢) نفس المصدر ص ٦٢

(٣) نفس المصدر ص ١٨٩.

وساعده بالنفوذ والمال . وتعاهدا سرا على أن يعملا لخلاص البلاد من الاحتلال. فكانا يجتمعان بمسجد الشيخ التبرى بزمام سراى القبة . وقد عملا معا أعواما طويلة حتى فرقت بينهما الدسائس .(١)

وازداد الأمير إمعاناً فى سياسته الوطنية بعد حادثى الحدود وإقالة الوزارة الفهمية . « وإذ ذاك اتفق مع مصطفى كامل على تشكيل لجنة سرية من بعض الشبان الممتازين بالوطنية ممن تلقوا التعليم العالى فى مصر والخارج . فكان ذلك وتكونت من مصريين وفرنسيين . وقررت القيام بالدفاع عن مصالح مصر ضد الغاصبين ، والكتابة فى الصحف الفرنسية فى مصر وباريس بأسماء مستعارة . وكذلك بالخطب التى كان يلقيها مصطفى كامل فى مصر وأوربا والتى كانت تثير إعجاب الساسة وتشجيعهم وهكذا كان مصطفى كامل رسول الوطنية الحقة وكان يعمل بذكائه وحماسته وجرأة تثير إعجاب الجميع (٢)

ثم ما برح رجال الاحتلال الانجليزى فى طغيانهم وما فتىء الوطنيون من المصريين فى يأسهم واستسلامهم حتى حدثت الطامة الكبرى والكارثة العظمى التى صبها القدر العادل على رءوس المحتلين، وانتفع بها الشاب الغيور مصطفى كامل ونعنى بها (حادثة دنشواى) وهى الحادثة التى صورت للعالم أجمع بطش الاحتلال البريطانى ووصوله فى ميدان العسف والجور إلى درجة تأباها الانسانية ، وتنكرها أبسط قواعد المدنية . ثم هى الحادثة التى ادخرها الغيب لهذا الفتى الوطنى لتكون سبباً فى سطوع نجمه فى سماء المجد والعظمة الحقيقية . فما هى إلا جولات قصار جالها قلم هذا الشاب فى صحف أوروبا ومصر وما هى إلا طائفة من الخطب والمقالات نثرها الفتى هنا وهناك ،حتى استحالت قصة دنشواى إلى مأساة عالمية علم بها العالم المتمدن كله ، وأحالها الفتى المصرى إلى فضيحة كبرى لطخ بها جبين الدولة القائمة بالاحتلال ووسمها بميسم الوحشية والهمجية .

أجل، سمع العالم كله بنبأ هذه المأساة التى فعلها الاحتلال فى دنشواى فانحى باللائمة على الانجليز الذين انحدروا من الناحية المعنوية بعد رفعة، وذلوا أمام الرأى العام العالمى بعد عز

(١) نفس المصدر ص ١٩٠

(٢) نفس المصدر ص ١٩٠ - ١٩١

وشعروا بحرج عظيم وتعرضت الوزارة البريطانية يومئذ لطائفة من الإستجوابات البرلمانية أوقعتها فى الحرج وكان من نتيجة ذلك أن سقط كرومر الجبار عن عرشه فى مصر وبادرت حكومته فى لندن إلى استدعائه اليها .

حقاً — لقد كانت حادثة دنشواى نقطة تحـــول فى تاريخ الحركة الوطنية الناشئة ، ونقطة تحول فى تاريخ الاحتلال الأجنبى لمصر وقد أفاض المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى فى بيان النتائج التى نتجت عن هذه الحادثة ، وأضاف اليها كل فصل فى ازدياد الشعور القومى كما نسب إليها أموراً كثيرة تمس الوطن من جميع جوانبه . وذكر المؤرخ الكبير من هذه النتائج الهامة لحادثة دنشواى نتائج هى على التعاقب . (١)

الأولى — إشتداد ساعد الحركة الوطنية

الثانية — إهتمام الصحف العالمية بالمسألة الوطنية

الثالثة — تغيير سياسة الاحتلال البريطانى فى مصر

الرابعة — تأسيس الجامعة المصرية

الخامسة — تعيين سعد زغلول باشا وزيراً للمعارف العمومية

السادسة — إستقالة اللورد كرومر فى أبريل عام ١٩٠٧

السابعة — تأسيس الحزب الوطنى .

وباختصار كان نجاح مصطفى كامل فى الانتقام لكرامة مصر من الانجليز فى مأساة دنشواى هو القمة التى بلغها ذلك المجاهد الكبير . بل إن نجاحه فى القضية الوطنية الكبرى كان السبب الحقيقى فى إستحقاقه زعامة المصريين تلك الزعامة التى سلمت له حتى فارق هذه الدنيا .

وسترى فى غضون هذا البحث ، كما رأيت فى غضون البحث الذى سبقه عن على يوسف ، أن الوطنية المصرية صمدت فى بيداء الجهاد للاحتلال الانكليزى وكان هـــذا الثبات العجيب يظهر من جانب الصحافة الحرة حيناً ومن جانب الشعب المصرى حيناً آخر .

---

١ — نقلا عن جريدة — لتندار اجبسيان — مجلة العالم الاسلامي ص ١٤١

فلقد كان اللورد كرومر يمضى فى سياسته التى سماها سياسة الاصلاح ورى الأراضى ، وكان الشعب المصرى يمضى فى سخريته وتنكره لهذا الاصلاح الذى يتناول بطون المصريين ولا يتناول نفوسهم وعقولهم . وقد عبر عن ذلك حافظ إبراهيم حيث يقول مخاطبا اللورد كرومر :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت
حواشيه حتى بات ظلما مهذباً

تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى … وأن أصبح المصرى حراً منعماً
أعد عهد إسماعيل جلداً وسخرة … فانى رأيت المن أنكى وآلما
عملتم على عز الجماد وذلنا … فأغليتمو طيناً وأرخصتمو دما
إذا أخصبت أرضى وأجدب أهلها … فلا أطلعت نبتا ولا جادها السما

ومثل هذا كثير فى شعر حافظ وغيره من شعراء مصر فى ذلك الحين .

***

تلك إذن بعض الظروف التى أحاطت بالحركة الوطنية بقيادة مصطفى كامل بل تلك إذن بعض الأمور التى ينبغى ملاحظتها عند الكلام عن هذه الحركة الرائعة . والذى لاشك فيه أن صاحب الترجمة كان يدرك كل هذه الظروف إدراكا سليما ، وأنه على هذا الادراك السليم بنى سياسته الداخلية والخارجية كما ظهر أثر ذلك بوضوح تام فى كتبه وخطبه وصحفه . وباختصار كان مصطفى كامل يرمى من وراء ذلك كله إلى غرضين كبيرين .

أولا — الظفر باستقلال مصر وجلاء القوات البريطانية عنها ، والعمل على إنهاض البلاد من كبوتها ، والأخذ بيدها فى ميدان الاصلاح السياسى ، والاصلاح الثقافى ، والاصلاح الاجتماعى ، والاصلاح الاقتصادى فى نهاية الأمر.

ثانيا — السعى إلى تقوية الدولة العثمانية باعتبار أنها زعيمة العالم الاسلامى كله ، وأنها تستطيع أن تحدث التوازن بين القوى الأوروبية المختلفة ، وأنها متى قويت فقد قوى معها العالم الاسلامى .

الكتاب الثانى

فى حياة مصطفى كامل

١٨٧٤ - ١٩٠٨

وفيه فصلان

« إن من لم يقرأ من المصريين سيرة مصطفى كامل ويستوعب هذه السيرة فى نفسه جيدا يعتبر فى نظرى ناقصا فى تربيته الوطنية نقصا ليس له ما يعوضه ولا ما يبرره » .

المؤلف



مصطفى كامل

صاحب اللواء

(١٨٧٤ — ١٩٠٨)

الفصل الاول

حيـــاة مصطفى كامل

كنا فى الكتاب الذى كتبناه عن « على يوسف » أمام رجل وطنى ، وكاتب صحفى رزق هدوءا فى الطبع ، وعمقا فى أغوار النفس ، وصبرا على حمل القلم . رأيناه ملتصقا إلى مكتبه فى إدارة المؤيد لا يكاد يبرحه ، وبين يديه أوراق يكتبها لا تكاد تفارق يده . ولقد بقى الرجل على هذه الحال زهاء خمسة وعشرين عاماً جاهد فيها الاحتلال ورجال الاحتـــلال ، وساير فى أثنائها الحركة الوطنيـة وغيرها من حركات الاصلاح ، حتى بلغ فى ذلك كله ما أراد .

ونحن الآن — فى هذا الكتاب — أمام شاب نادر المثال ، كله حركة ونشاط ، لا بل إنه فى حركته التى لا تعرف الراحة فى وقت من الأوقات لكالقلب من جسم الانسـان ، إذ هو العضو الوحيد الذى تنام الأعضاء كلها ولا ينـام ، وتذوق الحواس كلها طعم الراحة ولا يذوقها فى ساعة من ليل أو نهار .

أجل — لقد كان مصطفى كامل من أمته ذلك القلب النابض على الدوام . أما نحن فلا نعرف أن رجلا فى تاريخ مصر الحـــديث حمل نفسه ـ فى سبيل وطنه ـ ما حملها ذلك الشاب ، وشق عليها بعض ما شقه ذلك الفتى الذى ظهر نجمه فى سماء العظمة مبكراً ، وأفل مبكراً .

وهكذا عاش هذا الشاب حياة إن لم تـكن طويلة كحياة غيره من النـاس ، فهى حياة عريضة إلى الحد الذى لم يبلغه واحد من الناس . ولله سر فى مجد هذا الفتى لا يعلمه أحد سواه .

***

نشأته .

ولد مصطفى كامل من أبوين كريمين بحى من أحياء القاهرة اسمه (الصليبه) وكان ميلاده فى ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ (أول رجب سنة ١٢٩١) وكان والده على أفندى محمد ضابطا ومهندسا — أدرك عهد محمد على الكبير وعمل فى بناء الكبارى والشكنات التى احتاج إليها هذا الوالى العظيم . ثم أدرك عهد عباس الأول وسعيد ، وأحيل إلى الاستيداع فى عهد اسماعيل . غير أنه لم يركن يومئذ إلى الراحة والسكون ، بل سعى حتى عين مهندسا ملكيا بوزارة الأشغال ، وبقى بها حتى أحيل إلى المعاش سنة ١٨٧٧ للميلاد .

وكان مصطفى كامل أحد أبناء سبعة وابنتين ، أنجبهم أبوه من زوجتين . كانت الأخيرة منهما هي السيدة حفيظه هانم كريمة اليوزباشى محمد أفندى فهمى . وهى والدة مصطفى كامل وتوفيت عام ١٩٠٧ فحزن عليها حزنا عظيما ، وكان يذكرها فى نفسه دائماً ، ويعترف بمالها من أثر فى تربيته وتنشئته .

ويعنينا أن نشير هنا من إخوته السبعة إلى اثنين وهما حسن واصف (باشا) وعلى فهمى (بك) . أما أولهما فكان بمنزلة أبيه وولى أمره ، وذلك عقب وفاة والده سنة ٨٨٦ وكان مصطفى إذذاك فى الثانية عشرة من عمره ، وأما الثانى — وهو على فهمى — فكانت أواصر الود بينه وبين أخيه مصطفى على أشدها وبقى الشقيقان على ذلك حتى مات مصطفى ، ودعا داعى الوفاء شقيقه عليا فكتب عنه كتاباً فى ستة أجزاء لم تزل مصدراً يعتمد عليه كل مؤرخ تحدثه نفسه بالكتابة عن هذا الرجل إلى اليوم .

وتلقى مصطفى دراسته الأولى فى مدارس ثلاث هي على التعاقب : — مدرسة والدة عباس الأول ، فدرسة السيدة زينب التابعة للأوقاف ،

بمدرسة الفرنسية .

وفى الأخيرة نال الصبى شهادة الدراسة الابتدائية عام ١٨٨٧ وهو يومئذ فى الثالثة عشرة من عمره . ثم التحق الصبى بالمدرسة الخديوية . وفى هذه المرحلة الثانية من مراحل التعليم أظهر من الجد والنشاط ما لفت إليه الأنظار . ومن ذلك أنه عمد وهو بالمدرسة الخديوية — إلى تأسيس جماعة أدبية سماها (جمعية الصليبه) قيل إنه لم يمض على تأسيسها ثلاثة أشهر حتى كانت تضم أكثر من سبعين عضواً . واتصل أمر هذا الصبى بناظر المعارف فى عصره — وهو على باشا مبارك — ورآه وأعجب به وبفصاحته ومازحه بقوله « إنك امرؤ القيس » وبشره بأنه سيكون عظيما .

ولقد كان هـذا الوزير العظيم رجلا رضى النفس ، جم التواضع ، يستقبل ضيوفه فى منزله أحسن استقبال ، لا يفرق بين كبيرهم وصغيرهم ، بل يفسح صدره للجميع على السواء . حتى أن تلاميذ المدارس كانوا لا يتهيبون الذهاب إليه فى مكتبه بالنظارة أو فى حجر استقباله بالمنزل . ومن هؤلاء التلاميذ مصطفى كامل . وقد حدث يوماً أنه رسب فى مادة من المواد هو وكثير من زملائه التلاميذ بالمدرسة فكبر عليه أن يذوق مرارة الرسوب ، وانطلق بنفسه إلى منزل الوزير ، وشكا إليه سوء نظام الامتحان ، وأنه بسبب ذلك تعرض هو وزملاؤه لهذه النتيجة . وأذن الوزير الكبير لهذا الفتى الصغير ، وأعجب به وبحديثه ، ورضخ لارادته ، فتناول النظام نفسه بالتغيير . وكان من نتيجة ذلك أن نجح مصطفى ونجح زملاؤه معه . وقد أشار الشيخ على يوسف إلى ذلك فى قوله :

« دخلت ذات ليلة على على باشا مبارك فى منزله — أوائل سنة ١٨٩٠ — وهو يومئذ ناظر للمعارف ، ومجلسه حافل بالفضلاء والأدباء ، وإذا بمصطفى كامل — وكان يومئذ — تلميذا بالمدرسة الثانوية — يجادل الباشا فى أمره ، ويقول له : إننى لا أطلب منك إلا ما وجدت أنت من مثلك

يوم كنت تلميذاً مثلي : وما يدريك ألا أكون عظيما أخدم وطنى غداً بأكثر مما تخدمه أنت اليوم ؟ قال هـذا ثم خرج غاضباً ، وكأنه ليس بتلميذ ، وكأنما الباشا الذى يخاطبه ليس وزيراً للمعارف العمومية . وبعدما خـرج ابتسم الباشا وقال : إننى أعجب كثيراً بشجاعة هـذا التلميذ ، ويلذ لى أن يتكلم أمامي كثيراً بمثـل هذه الشجاعة النفسيـة . ولذلك لم أخبره بما أمرت اليوم لأجله . وكان قد صـدر أمره بما طلب منه من قبل ، وتركه يخاطبه بمثل هذه اللهجة » .

قال السيد علي يوسف : من تلك اللحظة عرفت مصطفى كامل وكأنما عرفت رجلا لا تلميذاً فى المدرسة . (١)

وحصل الفتى على شهادة الدراسة الثانوية عام سنة ١٨٩١ فالتحق بمدرسة الحقوق . واختارها يومئـذ « لأنها مدرسة الـكتابة والخطابة ومعرفة حقـوق الأمم والأفراد » كما ذكر ذلك فى خطاب له إلى شـقيقه علي فهمي في ١٢ يوليو سنة ١٨٩١ .

وبعد سنة واحدة من التحاقه بمدرسة الحقوق شغل الفتى نفسـه كذلك بمدرسة الحقوق الفرنسية ، وجمع بين المدرستين واسـتطاع الحصول على شهادة الحقوق من كلية تولوز فى نوفمبر سنة ١٨٩٤ وعمره إذ ذاك عشرون سنة فقط .

ابصار قوة :

تلك هي مراحل التعليم الـتى مر بها مصطفى كامل ، وتلك حـدود ثقافته التى حصل عليها ، وهى ثقافة قانونية أضيف اليها مع الزمن ما أغرم به الفتى منذ نعومة أظفاره من ميل إلى الـكتابة والخطابة والأطلاع فى كل ما يتصـل بالتاريخ والأدب والسياسة .

(١)عبد الرحمن الرافعي : مصطفى كامل ص ٢٠

ولعل هـذا القدر من الثقافة كان مشتركا بين الفتى ونظرائه ممن تعلموا معه فى المدارس الثانوية ومدرسة الحقوق . ولعل ذلك بعض ما يعنيه الخديو عباس من قوله فى مصطفى كامل « وأياً ما كان الأمر فان أساس تعليمه لم يكن فى الحقيقـة عصريا مفرطا فى عصريته ، بل لعل أفـكاره كانت أقرب إلى التقليد الشرقى مما يعتقد أكثر الناس » (١)

ومن الحق أن يقال عن هذه الثقافة أيضاً أنها صادفت أرضاً خصبة فى ذهن هذا الفتى . ولـكن مها بولغ فى وصـف هذه الثقافة أو فى وصف ذكاء مصطفى كامل فالذى لا ريب فيه أن هنـاك أسـبابا أخرى أعانت على نبوغ الفتى وتفوقه على أقرانه ، وخلقت منـه شابا مستعداً للزعامة . ومن هذه الأسـباب ــ على سبيل المثال ــ ما جبل عليه الفتى من الشهامة والاستقامة ، ومن الصـدق والصراحة ، ومن الاعتزاز بالنفس والـكرامة إلى الحد الذى يعتبر شـذوذاً فى مجتمع محروم من الحرية الصحيحة كالمجتمع المصرى الذى خيم عليه الاحتلال البريطانى .

كانت نفس مصـطفى كامل من طراز خاص من النفوس يسميـه العلماء Extrovert وصاحبها رجل رحب الجوانب يتطلع دائماً إلى الخارج . ولم تـكن نفس مصطفى كامل من ذلك الطراز الذى يسميه العلماء Entrovert وصاحبها رجل ينطوى على نفسه ولا يسمح لها بأن تمتد خارجها ، ولا يحب لها أن تظهر فى المجتمعات العامة .

ومن ثم شغف الفتى منذ نعومة أظفاره بالاتصـــال بالناس فهو فى المدرسة الثانوية رئيس جماعة أدبية يخطب فيها ويكتب لها ، ولا يكتفى بنشاطه فى داخل هذه الجماعة الأدبية حتى يرى من واجبه غشيان الجميات الأمريكية أو الأوروبية التي هي من طراز جمعيته . ثم هو فى مدرســـة الحقوق ذو نشاط واسع لا حد له . فهو حينا صاحب مجلة مدرســية

«١» مذكرات الخديو عباس كما نشرت بجريدة المصرى بتاريخ ١٤ مايو سنة ١٩٥١

سيأتي الحديث عنها، وهو حينا مؤلف رواية تاريخية تمثيلية كرواية (فتح الأندلس) ، وهو حيناً ثالثا كاتب صحفي يصل الاهرام والمؤيد بمقالاته ، ويمدها بآرائه . ثم هو آخر الأمر لا يرضيه كل ذلك النشاط الواسع المدى ولا يقنع به ، حتى يرى وهو يختلف إلى النوادى العامة والخاصة . حيث يجتمع بالفضلاء والكبراء ، ويستمع إلى كلامهم وحوارهم ، ولا يتهيب من إقحام نفسه معهم في هذا الحديث أو الحوار .

ولقد بقيت هذه العادة ملازمة له حتى انتهى من مدرسة الحقوق ، وخرج إلى الحياة العامة ، وسمع بنادى (الأميرة نازلى فاضل) ونادى « لطيف باشا سليم » فطار اليهما وكان له فيهما شأن سنعرفه فيما بعد . ثم ما أن سمع بظهور السيد عبد الله النديم بعد اختفائه طويلا ، حتى خف بنفسه إلى لقاء هذا الرجل ، وقدم نفسه إليه ، وكان ذلك عام ١٨٩٢ ، وإذذاك طفق النديم يقص على هذا الطالب الصغير من أنباء الثورة العرابية مافيه عبرة لأمثاله . وتعلم الشاب من أحاديث النديم مواقع الخطأ الذى تورط فيه زعماء الثورة العرابية ، ووضع يده على مواضع الخلل في الخطة التى سارت عليها ، وعرف أن هذه الثورة العرابية ارتكبت خطأين كبيرين : —

أولهما : ـ تلك الهوة العميقة التى أحدثها زعماء الثورة بينهم وبين ولى الأمر ، وهو يومئذ الخديو توفيق .

وثانيهما : — اعتماد زعماء الثورة على قوة الجيش لا على قوة الشعب ، ونعنى بها قوة الرأى العام فى مصر .

عرف مصطفى كامل عيوب الثورة العرابية على هذا الوجه ، ووعى ذهنه هذه العيوب جيداً ، ثم آلى على نفسه بعد ذلك ألا يقع فيها مرة أخرى .

وهكذا تلقى الشاب مصطفى كامل أجل درس وأنفعه على النديم فى

التربية الوطنية . بل هكذا كان النديم استاذاً مباشراً لمصطفى كامل فى ميدان السياسة المصرية . بل هكذا أتاح اللقاء الأول بينهما أثمن الفرص لهـــذا الشاب ، فدرس على النديم كثيراً من أساليب الانجليز وحيلهم وألاعيبهم . وفهم على يديه كثيراً من دسائسهم التى مارسوها فى مصر منـذ نشبت أظفارهم فى رقبتها .

على أن الأقدار التى أعدت هذا الفتى ليكون صحفى أمته فى فترة من أدق فترات حياتها ، بل زعيم هذه الأمة فى مرحلة مبكرة من مراحل حياته سخت عليه بفرصة من أثمن الفرص التى أعانته على الوصـول إلى هذه الزعامة حتى سلمت له فى ميدان الصحافة وميدان السـياسة ـ ونعنى بهذه الفرصـة الأخيرة سياحات مصطفى كامل فى ربوع أوروبا ووقوفه على النهضـة السياسية والنهضة العلميـة والنهضة الاجتماعية فى كل بلد من بلاد أوروبا .

وكان يعتمل فى قلب هذا الفتى كلما زار بلداً من هذه البـــلاد الناهضة شعوران قويان : هما شـعور الحزن والأسى على بلده مصر ، وقد احاطت بها ظروف سياسية مؤلمة ، واحاط بها الجهل والفقر من كل ناحية ، وشـعور الغبطة والغيرة من هذه البـلاد الاوروبية التى خطت خطوات واسعة فى سبيل العلم والحكم والصناعة والتجارة والحضارة .لقد كان الفتى كلما وقعت عينـه على مظهر من مظاهر الرقى فى بلد أوروبى انتقل ذهنه بسرعة البرق إلى بلده مصر ودفعته الغـــيرة على بلاده إلى كتابة مقـال يدفع به إلى صحيفـــة الاهرام أو المؤيد أو يدفـــع به إلى صحيفة اللواء فيما بعد . وفى هذا المقال يلمس القارىء كل هـــذه المعانى التى نشير إليها ، ويدرك إلى أى مدى كان هـذا الفتى لايحب أن يضيع من حياته دقيقة واحدة لا يعود منها نفع ما على مصر .

ومعنى ذلك أنه إلى جانب التربية المدرسية والتربية المنزلية كانت ثم

أسباب أخرى أقوى منها فى تنشئة هذا الفتى ، منها نفس مصطفى كامل ، ومنها انغماسه فى المجتمع واحتكاكه بعظماء الرجال فى عصره ، ومنها رحلاته العديدة إلى البلاد الأوروبية وغيرها . ولكن ليس معنى ذلك أننا نغض من شأن التربية المنزلية أو التربية المدرسية . كلا - فحسب الأولى أنها كانت تربية صحيحة من كل جوانبها . فمن أب مستنير كان يغذى أولاده كل حين بقصص الأبطال وتواريخ العظماء ، إلى أم صالحة ذكرها ولدها بالخير ، واعترف لها بالفضل فى جميع مراحل حياته ، إلى اخوة أشقاء وغير اشقاء كان بعضهم يعطف على بعض ، وكانوا مثلا أعلى للحب . وباختصار لم تكن هذه التربية المنزلية من ذلك النوع الذى يخلق فى الأطفال عدداً من العقد النفسية تورثهم الخوف أو الجبن أو الحياء الضار أو النقمة على المجتمع .

وفى غرة شعبان سنة ١٣١٠ الموافق ١٨ فبراير سنة ١٨٩٣ ومصطفى كامل فى التاسعة عشرة من عمره أصدر « مجلة المدرسة » وقال إنها مجلة أدبية علمية تهذيبية تصدر فى غرة كل شهر عربى .

وإنه ليلفت نظر الباحث فى هذه المجلة أمور منها : —

أنها تعتبر أول مجلة مدرسية ظهرت فى مصر ، وأن صاحبها تولى تحريرها بنفسه كما تولى الانفاق عليها بنفسه ، وصرح بأنه أنشأها لخدمة الناشئين لا للشهرة أو الربح المادى ، وقد جعل شعارها الذى يكتب فى صدر كل عدد من أعدادها « حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك » .

ولعل هذه العبارة الأخيرة تكشف لنا منذ الآن عن نفس هذا الشاب . وهى نفس طيبة تعرف معنى الحب ، وتقدره حق قدره ، وتتخذه أساساً تبنى عليه الحياة

والحق أن من يعرف كيف يحب أهله وذويه ، ومن يعرف كيف يخلص لمعاشريه فى المحيط الضيق الذى يعيش فيه يستطيع فى المستقبل أن

يكون مخلصاً لمواطنيه جميعاً فى المحيط الأوسع الذى يضطرب فيه الناس جميعاً ، وهو الوطن .

* * *

هكذا كانت نشأة الرجل الذى نكتب عنه ، وهكذا كانت الظروف التى أحاطت به . وهى ظروف سعيدة فى جملتها ، ومن شأنها أن تخلق رجلا مشرق الذهن ، عظيم الأمل ، قوى الايمان ، كثير الاعتزاز بنفسه إلى الدرجة التى أشرنا اليها .

والحق — لقد رزق هذا الفتى نفسا تعاف الذل ، وتكره الضيم ، وتنفر من الدس ، وتفهم الكرامة الانسانية على أتم وجه ، وتحس إحساساً عميقاً بمعنى المساواة بين الناس ، وتجل الدين اجلالا لا حد له . ولنا حين نفيض فى الحديث عن أخلاقه أن نستعين فى ذلك بأقوال من عاشروه وعرفوه . ونستطيع أن نفهم من أقوال هؤلاء أن الفتى كان معروفا بشدة إيمانه بما يعتقد ، وقوة استمساكه بالرأى الذى يراه ، والغيرة الشديدة على الدين إلى الحد الذى بز فيه كثيراً من شيوخ الأزهر فى زمانه .

أما عزيمة هذا الفتى ـ فكانت من القوة بحيث تتحول الجبال عن مواضعها ولا يتحول ، ويتسرب اليأس إلى نفوس عظماء الرجال فى زمانه ولا يتزعزع .

ولقد سمت نفسه وهو فى السادسة عشرة من عمره إلى أن يؤلف الكتب ، ويؤسس الجمعيات ، ويلقى الخطب ، ويكتب الرسائل وينشىء مجلة ، وهو مع ذلك يطلب الحقوق فى مدرسة نهارية وأخرى ليلية ، ويناقش الخصوم ، ويفند الدعاوى ، ويجمع قلوب أهل طبقته على وحدة الهوى ، ويشتغل لتمهيد السبيل لوضع أساس هذا البناء العظيم . (١)

(١) مصطفى كامل باشا فى ٣٤ . ربيعا على فهمى — ج ٢ ـ ص ٣٨

وإذا كانت هذه عزمة الفتى فى تلك السن فما ظنك بها فيما بعد ذلك ؟ أما إيمانه برسالته فقد كان شيئاً عجيباً لا ينـ... إلا بإيمان الصفوة من الخلق ، وهم الأنبياء والرسل ، ومن خلفهم من صفوة البشر ونعنى بهم العظماء والكبراء وقادة الفكر وسادة الأمم .

وانظر إلى ما كتبه هذا الحوارى العظيم مصطفى كامل إلى أمه الروحية مدام جولييت آدم فى الثانى عشر من شهر سبتمبر سنة ١٨٩٥ وهى السنة الأولى من سنى جهاده — قال :

« إنى لا أزال صغيراً — ولكن لى أمالا كباراً . فانى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة . هم يقولون إن وطنى لا وجود له . وأنا أقول يا سيدتى إنه موجود ، وأشعر بوجوده بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه ، وسأجود فى سبيله بجميع قواى وأفديه بشبابى وأجعل له حياتى وقفاً عليه .

وحقاً لقد كانت مدام جولييت آدم خير من يقدر فى الفتى ذلك الروح الوثاب ، والقلب العامر بالايمان ، والنفس التى لا نظير لها إلا فى نفوس أمثاله من عظماء الرجال ، وانظر إلى هذه الأم الروحية كيف تصف هذا الشاب فتقول :

« . . . إنه يجاهد بكل الصور والأشكال ضد اليأس والقنوط ، وهدم عدم الاكتراث بشؤون البلاد ، وضد الوطنية الضعيفة — تلك الآفات الثلاث التى تهدد مصر كما تهدد فرنسا نفسها ، والتى هى أشد خطراً على الأمم من المغيرين عليها . (١)

وإلى القارىء وصفاً للخديو عباس تناول فيه طرفا من أخلاق هذا الفتى حيث قال :— (٢)

« كان فتى خلع عليه الشباب كل نعمة ، بما فيها نعمة الوهم المقدس ،

(١) — المصدر السابق « للرافعى » ص ٥٥

(٢) — مذكرات الخديو عباس — جريدة المصرى بتاريخ ١٤ مايو سنة ١٩٥١

وكان قد آثر الحياة الروحيــة على الحياة المادية ، وكان حديث العهــد بذلك البـلد القديم الذى لم تـكن هالات المجـد ترتفع فيـــه إلا على القبور ، وكان لايعرف شيئاً من الوضاعة والمساومات السياسية كان بسيطا ومستقيما وتحت مظهره اللطيف كانت تختبىء روح متفتحـــة لـكل الأحاسيس ، وقلب حسـاس لـكل ألوان الرقة والحنان.

وقد زانه الله بالحجى ، وكانت بلاغته واضـــحة وحارة ، وكان أسـلوبه الرشيق العامر بالصور ينتقل من البســـاطة الانجيلية إلى بلاغة الخطيب المصقع العظيم . وقد أوتى موهبــة الاقناع ، وسـحر الاشعاع الذى يؤتاه الحواريون والأنبياء ، وكـان الحب الذى يـكنه لوطنـه ينبع من حماســة لا تفقده سيطرته على عقله الخ » .

على أنه كان بالفتى ضرب من الـــكبرياء كان يرى اظهارها أحيانا. لحاجة فى نفسه .

حدثنى شقيق له قال : (١)

« زار الفقيد إنجلتره فى سنة ١٩٠٦ . وذلك عقب حادثة دنشواى المشهورة وانتصاره على الانجليز بما كتب من المقالات وألقى من الخطب ، وفى انجلترة وفد عليه سيل من مراسلى الصحف ، ومن رجال السـياسة ، وطلب رئيس الوزارة البريطانية سير « هنرى كبرمان » أن يقابله . فما كان من مصطفى كامل إلا أن حدد له موعداً لها بعد أسبوع من طلبه إياها . وطيرت وكالات الأنباء هذا النبأ ، وعجبت من اعتزاز هـــذا الشاب المصرى بنفسه ووطنه إلى حد أنه يحـــدد لرئيس الوزارة البريطانيـــة مثل هذا الموعد .

ومضى شقيق الفقيد يحدثنى كذلك عن صفة أخرى من صفاته وهى الصراحة فى الحق فقال « ذهب مصطفى كامل يوما لزيارة سعد زغـلول

(١) هو الاستاذ حسن حسنى كامل . وكان هذا الحديث بداره فى ٢٥ يناير سنة ١٩٥٢

فى منزله ، وكان عنده عدد من سراة القوم ، منهم عنانى باشا ، ومظلوم باشا ، وعبد الخالق ثروت باشا ، وحسين رشدى باشا ، واسماعيل صبرى باشا ، وفتحى زغلول باشا وغيرهم وحين دخل مصطفى كامل سلم على كل واحد منهم يداً بيد . فلما جاء دور فتحى زغلول باشا لم يشأ مصطفى كامل أن يمد له يده قائلا بهذه اللهجة القاسية :—

« إن هذه اليد أكرم من أن توضع فى يد جلاد دنشواى »

إشارة إلى ما هو معروف من أن فتحى باشا زغلول كان أحد أعضاء « المحكمة المخصوصة » التى حكمت على ضحايا الحادثة .

على أن هذا الاستعلاء أو تلك الكبرياء إنما كانت تصدر من الفتى نتيجة لمرضه ، وللثورة التى فى نفسه ، والمزاج العصبى الذى لم يفارقه إلا نادرا . ومن هنا كان مصطفى كامل كثيراً ما يبدو للناظر اليه شاباً عليلا وفى نفسه ثورة وغضب ، وفى خلقه عصيان وتمرد ، وفى رأسه نار موقدة .

ولقد عبر الخديو عباس عن ذلك حيث قال :

« . . . وقد أوشك مصطفى كامل أن يغدو ذات لحظة ضحية الزهو الذى يتربص بكل أولئك للذين يقودون الجماهير ببلاغتهم ويحسون أنها معلقة بأفكارهم »

ثم قال : كان هذا المتضرم هوى ببلاده الذى قدر له أن يموت فى زهرة العمر قبل أن يتاح له الوقت لكبح جماح حماسته بقليل من التجربة قد حصل على معظم ما تمنى من رضاء عن ذلك النجاح العجيب لرسالة الوطنية . وما من ريب فى أنه قد ثمل بعض الثمول بنجاحه . ولو أن ذلك الثمول كان قد اتحد بحكمة الشيخ على يوسف لكان ذلك قد خدم قضية البلاد فوق ما خدماها متفرقين . (١)

قيل إن مصطفى كامل وصل فى بعض رحلاته يوما إلى الآستانة ،

١ — مذكرات الخديوى عباس التى نشرت بجريدة المصرى بتاريخ ١٤ مايو سنة ١٩٥١

ودخل بنفسه على السلطان فأكرم السلطان وفادته ، وأهدى اليه هدية ثمينة وكان ذلك فى أكتوبر سنة ١٨٩٦ . ثم عرض عليه السلطان أن يمنحه بعض الأوسمة ولـكن الشاب إعتذر بلطف وأدب عن قبول شيء من ذلك خشية أن يتهمه الناس بأنه إنما يجاهد ما يجاهد فى سبيل مثل هذا الغرض . ولـكنه لما عاد إلى مصر لامه أصدقاؤه فى ذلك وقالوا له إن الناس فى الشرق يتوددون إلى أصحاب الألقاب ، ويرمقونهم دائما بعين المهابة والاجلال . ومن ثم هيأ الفتى نفسه لقبول ذلك متى عرض عليه وبالفعل سنحت له فرص منها ما كان فى سنة ١٨٩٩ حين أنعم عليه السلطان برتبة المتمايز ، فصار مصطفى بك كامل ، ومنها ما كان فى سنة ١٩٠٤ حين أنعم عليه السلطان برتبة الباشوية ، وكان الفتى يومئذ فى الثلاثين من عمره فقط .

الفصل الثانى

العقيدة السياسية لمصطفى كامل

خيم على البلاد المصرية ظلام كثيف عقب الثورة العرابية . ومرت بها موجة يأس وخضوع منذ الاحتلال البريطانى . وركن الناس فى مصر إلى حياة فقدوا فيها الأمل فى الخلاص من هذه الدولة القوية التى أذلت نفوسهم ، ونفت زعماءهم ، وحالت بين هؤلاء وبين قيادة مواطنيهم إلى الحرية .

فى مثل هذه اللحظات نرى يد التاريخ وقد وقفت وقتاً ما عن التسجيل أو الكتابة . ذلك أن حياة السكون لا يكتب التاريخ فى وصفها غير سطر واحد . وحياة الظلام لا يسجلها التاريخ إلا بكلمة واحدة . ويظل الحال على ذلك حتى تلتقل الأمة نفسها من الظلام إلى النور ، ومن السكون إلى الحركة ، ومن النوم إلى اليقظة ، ومن الذل إلى العز ، ومن الخضوع إلى التمرد ، ومن اليأس إلى الأمل ومن الضعف إلى القوة . وهنا يرفع التاريخ يده مرة أخرى ، ويتأهب لكتابة المئات من السطور فى وصف هذه الحركة التى شملت الأمة ، والأمل الذى أصبح يغمرها ، أو الجهاد الذى باتت تبذله لتحقيق هذا الأمل .

ذلك ما أحسته مصر منذ ظهر فيها الشاب مصطفى كامل بعد فترة من سكون هذه الأمة ، وانقضاء مدة طال فيها استسلام هذا الشعب الأعزل . وذلك هو الأساس الأول الذى ينبغى للمؤرخ المنصف أن يبني عليه رأيه فى مصطفى كامل وفى حركته التى قام بها .

مصادر هذه العقيدة السياسية

ولكن كيف هبط الوحى على شاب بعينه من شباب هذه الأمة ؟

وكيف تألفت له هذه العقيدة السياسية الهامة ؟ وما هي الظروف التي أعانت على تأليف هذه العقيدة التي ملأت قلبه؟

عرفنا كيف نشأ الفتى نشأة سليمة من جميع جوانبها في البيت، وفي المدرسة وفي المجتمع، وعرفنا كيف أن نفس هذا الفتى لم تكد تحفظ من الصور التي مرت بها غير صورة واحدة، هي صورة هذا الذل الذي بات عليه قومه، وصورة هذا اليأس الذي خيم على صدورهم، وأفقدهم الرجاء في الخلاص من عدوهم. ولا بد أن الفتى كان يوازن بين هذه الصورة الكئيبة المحزنة وصورة مصر الناهضة المشرقة على أيام محمد على وعباس وسعيد واسماعيل - ولا ننسى أن والد الفتى كان كثيراً ما يقص عليه وعلى أخوته أحاديث ذلك المجد الذي شهد بنفسه طرفا منه.

وهكذا كان (البيت) أول مصدر من المصادر التي استمد منها الفتى جزءا من عقيدته السياسية التي اشتهر بها.

ثم كان السيد عبد الله النديم مصدراً ثانيا من تلك المصادر، على نحو ما أشرنا إلى ذلك في فصل مضى. ثم مصدر ثالث لهذه العقيدة هو الدراسة الخاصة. تحدث علي فهمي عن شقيقه مصطفى كامل قال:—

« إنه حين استقبله في الاسكندرية عند رجوعه من تولوز بعد نيله شهادة الحقوق وجد معه ضمن متاعه صندوقين كبيرين مملوءين بالكتب القديمة والحديثة في تاريخ المسألة المصرية وسياسة الأمم. وفيها مذكرات بعضها لكبار السياسيين، وبعضها من مكتبة باريس، وبعضها من وزارة الخارجية الفرنسية. وبعد أن استقر به المقام في القاهرة وانتقل إلى منزل استأجرته العائلة كان لايفتأ يدرس الكتب والمذكرات التي أحضرها معه. وقد أكب على هذه الدراسات كأنه لا يزال في دور الدراسة، ووضع برنامجا للعمل سار عليه. فكان يعمل يوميا ثماني ساعات في مكتبه ».

ثم أخـــذت الأيام بيـد مصطفى كامل ففتحت له باب أكبر معهد سياسى فى ذلك العهـد . وهو المنتدى الذى كان يعقد فى « دار لطيف باشـا سليم الحجازى » فسـمع فى هـذا المنتدى أن مصر لاسبيل إلى جلاء الانجليز عنها بعـد أن قضى على القوة العسكرية فيهـا إلا بعمل سياسى ، وهو الدعوة لهـا فى الخارج ، والاتصال بالساسة الأوروبيين ، وقراءة ما يكتبون فى قضايا الأمم ، ومعرفة نواياهم نحو بلادنا . ففتح مصطفى كامل عينه بشدة على هذه الحقائق الغريبة التى تـكشفت لعقله ، وكأنما هو واحـد من أبطال الاقاصيص المعروفة باسم الف ليلة وليلة . فشاور مصطفى كامل حلمه الذى بقى معه إلى أن مات ، وهو أن يحيي فى مصر الهرمة مصر الفتاة » . (١)

المصريون والاحتلال

ولـكن ـ لا يفهم من ذلك أن الشعب المصرى كله كان يفكر على هذا النحو ، أو أن الصفوة من المصريين كلهم كانوا يؤثرون هذه السياسة ـ كلا ـ فالواقع أن الشعب المصرى كانت تغمره موجة اليأس التى تحدثنا عنها ، وكان غارقا فى أحزانه على الزعماء الذين غابوا عن بصره وسمعه .

ونحن حين ننظر فى حالة مصر منذ قام فيها الشاب مصطفى كامل معلنا جهاده لأول مرة فى حيـاته عام ١٨٩٥ نجد المصريين وكأنهم انقسـموا بازاء الاحتلال الاجنبى إلى هذه الفرق :

فرقة ترى الخير فى الاسـتسلام المؤقت إلى هـدا المحتل الأجنبى ريثما تحين الفرص التى تفرض عليه ترك البلاد،فيجلو عنها وكفى اللهالمؤمنين القتال.

وفرقة ترى الخير فى مصانعة العدو . فقد يدرك المرء بالحيل السياســـية مالا سبيل إلى إدراكه بالعنف والقوة المادية ·

---

١ ـ فتحي رضوان المحامى . مقال بجريدة الاهرام تحت عنوان : كفاح شعبي مرير

وفرقة ترى أن تتحين الفرص ، وتراقب الأحداث السياسية الدولية . فلعل هذه الاحداث أن تتوالى ، ولعل ميزان هذه الدول أن يميل . وهنا ترفع مصر صوتها بطلب الجلاء . وقد تجد من الدول القوية دولة تعينها على مطلبها وتساعدها على ادراكه .

وانعكست هذه الصورة كلها في ذهن الفتى ، ولا بد أنه أطال التفكير في كل واحدة منها على حدة . ولكن تفكيره هداه إلى أن اليأس في ذاته ليس خطة من الخطط التي تؤدى إلى نجاح أمة من الأمم . كما هداه إلى أن المصانعة في ذاتها لا تجدى شيئاً أمام إصرار العدو الذى فرض نفسه على البلاد .

وإذن فليس أمام الوطن إلا خطة واحدة فقط ، هى مجاهدة العدو فى داخل البلاد ، ومجاهدة هذا العدو في خارجها . وذلك هو الرأى الذى انتهى إليه الصفوة من المصريين فى نادى لطيف باشا سليم . ولئن كان أحد من هؤلاء لم يفكر بعد فى أن يخرج به إلى حيز العمل ، فان الفتى مصطفى كامل هو وحده الرجل الذى فكر جديا فى تحويل هذا الرأى إلى عقيدة سياسية وخطة وطنية .

ولكن ما هو كنه هذه العقيدة السياسية التى اعتنقها مصطفى كامل ، وهل طرأ تغيير ما على هذه العقيدة ؟ وما هى أسباب ذلك ؟

أما كنه هذه السياسة فواضح كل الوضوح من الحديث الآتى : ـ تقدم رجل أمريكى إلى مصطفى كامل يوم كان على أهبة السفر إلى أوروبا سنة ١٨٩٧ واستأذنه فى القاء هذه الأسئلة .

هل لك أن تتكرم يا سيدى فتجمل لى السبب الذى يحملك على أن تنادى بحرية مصر ؟ وإذا لم تستطع فرنسا خاصة وأوروبا عامة أن تجبر بريطانيا على الجلاء فماذا تكون خطتك وخطة مواطنيك إذ ذاك ؟ وهل لك من حاجة فى أمريكا لأقوم بها خدمة لمصر المظلومة ؟

فأجاب مصطفى كامل عن هـــذه الأسئلة الثلاثة فقال . (أما عن السؤال الاول) فلأنى مصرى صميم فقد رأيت من واجبى أن أقف قلمى ولسانى على الدفاع عن أم حنون لا حياة لنا الا بوجودها عالية الشأن ، سامية المقام ، وسأبقى إبنها البار الوفى حتى آخر نفس أردده فى هذا العالم (وأما عن سؤالك الثانى) فاننا نبنى نجاحنا فى عملنا على أمرين — الأول — خارجى وهو انتهاز الحـــوادث الدوليـــة والثانى - داخلى - وهو نشر العلوم والمعارف بين إخواننا المصريين ، والتشهير بأخطاء الاحتلال الانجليزى لنرقى بالعقول ، ونبغض الغاصبين إلى القلوب . وبذلك تقترب الأمة شيئاً فشيئاً من الوطن حتى تلتف حـوله ، وتصير وإياه جسما واحداً لا قدرة لأية طائفة من النـاس ، أو أية حكومة مها كانت قوتها على أن تعبث بكيانه ، أو تفصل أجزاءه .

(وأما عن سؤالك الأخير) فانى أشكر لك الخدمة التى عرضتها على بأمريكا . وأملى أن تحلوا تلك العقدة العتيقة التى حرمت العالم صوتكم فى المسائل الأوروبية (يقصد بذلك مبدأ منرو الذى يقضى بعدم تدخل أمريكا فى المسائل الأوروبية) حتى نسمعكم صوتنا فى دياركم بنفس النغمـة التى أسمعتم بها العالم صوتكم يوم كنتم مثلنا . ترزحون تحت النير الانجليزى . كذلك أومل ألا تشـهد السماء مرة أخرى دماء البشر تجرى فى سبيل الخلاص من ظلم بريطانيا . وأن يكون الانجليز أبقى على كرامتهم من أن تلوثها بعد تلك الأيمان والعهود الـكثيرة على أيدى بعض ساستهم الذين يريدون أن يســطر لهم التاريخ ما ليسوا أهلا لعشر معشاره » . (١)

على أن شيئاً هاما يلفت نظر المتأمل فى سياسة مصطفى كامل وهو أنه تحدث كثيراً فى صحفه عن الاسلام والمسلمين ، ولم يفتر عن هذا الحديث يوما ما . فهل مزج بين عقيدته السياسية وعقيدته الدينية ، وأصبح الدين

(١) عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل ص ٧٥

عنصراً هاما من عناصر هذه العقيدة ؟ أما الخديو عباس فيؤكد لنا فى مذكراته أن مصطفى كامل وإن تحمس تحمساً شديداً للدين إلا أنه جرد عقيدته من كل رداء دينى .

والحق أنه لولا موقف الاحتلال من الاسلام لما وجدنا مصطفى كامل يذكر المسلمين فى كلامه إلا حين تدعو الحاجة الماسة إلى ذلك ، ولولا ما كتبته الصحف الأوروبية كثيراً وبدون انقطاع عن المسلمين والاسلام لما شعر مصطفى كامل بالحاجة أيضاً إلي الرد عليها فى كل ذلك .

كان زعماء مصر فى عهد الاحتلال يدركون جيداً أن الأمة المصرية مؤلفة من عنصرين ، هما الأقباط والمسلمون ، وأنه لا حياة لهــــذه الأمة إلا باتفاقهما واتحادهما وحسن توجيههما إلى الغرض المنشود من الحركة الوطنية ، وهو غرض ذو شقين هما : —

إنقاذ البلاد من براثن الاحتلال ، وإنهاضها فى جميع مرافق الحياة ، أعنى من حيث السياسة والاقتصاد والاخلاق والاجتماع والتربية والتعليم .

معنى ذلك إذن أن مصطفى كامل كغيره من زعماء هذه الأمة لم يخلط بين عقيدته السياسية وعقيدته الدينية . وذلك بالرغم من أنه كان مضطراً إلى الاتيان فى صحفه دائماً بحديث يشتم منه أحياناً بأنه حديث طائفى أو أنه أثر من آثار التعصب الدينى .

وعلى الرغم من ذلك وجدنا من القبط فى مصر من يبعث بكتاب إلى مصطفى كامل لينشره على صفحات اللواء . (١)

وفى هذا الكتاب يلوم الكاتب القبطى صاحب اللواء على إغفاله أمر الأقباط وإنصرافه إلى الاهتمام بأمر المسلمين فى مصر والبلاد البعيدة عنها كالهند وجاوه وغيرهما . واهتم مصطفى كامل بالرد عليه فى صفحات اللواء منكراً هذه الدعوى ثم قال : —

(١) راجع العدد السابع من جريدة اللواء بتاريخ ٨ يناير سنة ١٩٠٠

(. . . . إننا — نادينا بأعلى صوت أن المسلمين والأقباط فى مصر أمة واحدة ، بل عائلة واحدة . وقلنا إن الدم الذى يجرى فى عروق أغلب مسلمى مصر هو الدم الذى يجرى فى عروق الأقباط . وإن أول واجب نحو الوطن هو الاتحاد التام بين أبنائه . . . الخ ثم قال :

وأما دفاعنا عن مسلمى البلاد الأخرى فمرده إلى أن جريمتنا الكبرى عند سواس أوروبا كوننا مسلمين ، لا أكثر ولا أقل »

إننا نكرر القول هنا بأن مصطفى كامل كان كغيره من قادة الشرق فى ذلك الوقت تهفو نفسه إلى أن تعود للاسلام عزته وقوته ، ويرجع للمسلمين مجدهم ومهابتهم . وكان يرى أنه لا سبيل إلى مقاومة هذا الغرب الطامع فى الشرق الوادع إلا بتحقيق هذا الحلم . بل كان يرى أن الاستعمار الأوروبى للشرق ليس إلا نتيجة لتفرق المسلمين وتخاذلهم ، وإغفالهم أمر العناية بقوتهم الحربية . وما دامت تركيا أقوى الدول الاسلامية من هذه الناحية فالخير كل الخير فى الانضواء تحت لوائها والاذعان لها حتى تقود هذا الشرق إلى حيث المجد وتبلغ به الحد الذى يقوى معه على مقاومة الغرب .

ونشر مصطفى كامل فى هذا المعنى بعنوان « رابطة الدين ورابطة الوطن » جاء فيه : « نجد فى مصر أمة مشتركة جزء منها هو الأقباط ، وجزء عظيم هو المسلمون وعلينا واجبان عظيمان : واجب دينى ، وواجب وطنى ، فالواجب الديني يحتم على الأقباط أن يحافظوا على عقيدتهم أشد المحافظة ، ويدافعوا عنها أقوى الدفاع . ولا ملامة عليهم إذا إنعطفوا نحو إخوانهم فى الدين والعقيدة . والواجب الدينى يحتم على المسلمين أن يرجعوا إلى مبادىء الاسلام الصحيحة ، ويعملوا بأوامر الدين الحنيفى الكريم ، ويجتنبوا نواهيه ، ويتحدوا فيما بينهم إتحاداً متيناً أكيداً ، حتى يرتفع شأنهم ، وتسمو بين الأمم مكانتهم . ولا ملامة عليهم إذا انعطفوا بكل جوارحهم نحو إخوانهم المسلمين فى سائر أقطار المعمورة .

لأن الاسلام جعل المسلمين إخوة بالرغم عن اختلاف النحل والبلاد . وإذا أضفنا إلى الرابطة الدينية اتحاد المصالح السياسية ، وإضطهاد أوروبا لنا بصفة واحدة وشكل واحد ولعلة واحدة ، ظهر لنا ضرورة إجتماع كلمة المسلمين ، وعرف الناس جميعا لماذا تنادى (بالاتحاد الاسلامى) ثم قال :

« ألا ترى أن الذين يطعنون على الاسلام يتهمونه بأنه دين التأخر والانحطاط ، وأن جميع أبنائه متأخرون منحطون ؟ أليست هذه التهمة وحدها داعية لاستنهاض همم المسلمين فى كل أنحاء الأرض ، ودعوتهم للاتحاد والاتفاق ، وترقية شؤونهم ، وإعلاء قدر الدين الكريم ؟

هذا واجبنا الديني نصرح به أمام الملأ ، ولا نخشى فى ذلك أحدا.

أما واجبنا الوطنى فهو العمل باتحاد تام بين المسلمين والأقباط وغيرهم ممن صارت مصر وطنا لهم لخدمة هذه الديار العزيزة ، والسعى وراء استقلالها وحريتها . ولم نجاهر بغير ذلك طول حياتنا . بل إننا جاهرنا بأن المسلمين والأقباط فى مصر أمة واحدة ، وأن الدم الذى يجرى فى عروق أغلب مسلمى مصر هو نفسه الدم الذى يجرى فى عروق الأقباط ، وإلى هذا تنتهى الدعوة للاتحاد الجنسى ، والاتفاق الوطنى وليس فى خدمة الاسلام أو الدعوة لاتحاد المسلمين شىء من التعصب الدينى أو من المخالفة للمبادىء الوطنية الحقيقية . بل إن التمسك بالدين يدعو للتمسك بالوطن . وحسبنا دليلا (حب الوطن — من الايمان) . (١)

* * *

مصطفى كامل والسياسة الخارجية :

ذلك كله من حيث السياسة الداخلية . أما من حيث السياسة الخارجية فقد وضع الشاب لنفسه خطة يسير عليها فى جهاده ، واعتمد فى تنفيذ هذه الخطة على وسائل ثلاث هى الخطابة والكتابة والدعاوة . كما اعتمد فى

(١) راجع العدد الثالث عشر من السنة الاولى بتاريخ ١٦ يناير سنة ١٩٠٠

الوصول إلى هدفه الأسمى من هـــذه السياسة على نواح ثلاث : أولاها ناحية الخديو عباس والثانية ناحية السلطان والثالثة ناحية فرنسا .

وكيف لا يعتمـد الفتى أولا على أمير البـــلاد وقد توثقت بينهما عرى الصداقة والوداد ، وتوسم كل من الرجلين فى صاحبه غيرة تامة على مصر وتحمساً شديداً للدفاع عن مصالحها ؟

ثم كيف لا يعتمد هذا الفتى على السلطان وقد كان يقدر فى نفسه جيداً أن مركز مصر الشرعي إلى نهاية الحرب العالميـة الكبرى كانت تحدده معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ ، وهى المعاهدة التى تعترف باســتقلال مصر بضمان من الدول الكبرى جميعها ، وبقاء العرش المصرى فى أسرة محمد على والاعتراف بسيادة الدولة العثمانية ؟

ثم كيف لا يعتمد الفتى على فرنسا ، وهى البلد الذى تعلم فيه القانون ، وظفر فيه بكثير من الاصدقاء ، وتعرف فيه على كثير من رجالات الأدب والفكر والصحافة ، واتخذ فيه لنفسه أماً روحية هى مدام جولييت آدم ، ورأى فيه كيف تكون الحرية والاخاء والمساواة ، وشـــهد فيه نظام الحكم الجمهورى الدستورى ، وقال عنه فى إحدى مقالاته :

« لا عجب إذا كانت آمالنا موجهة لفرنسا ، وهي هى التى تبرعت بدماء جنودها الأعزاء للامريكيين فى « بوك تاون » ولليونانيين فى « نافارين » وللبلجيكيين فى « انفرس » وللايطاليين فى « ماجنتا — سولفيرينو » ورحبت بالايرلنديين سنة ١٨٦٨ وأحسنت للبولونيين بعد عام سنة ١٨٣٠ . وبالجملة برهنت المرة بعد الأخرى على أنها ظهيرة الحرية ونصـــيرة الاستقلال » . (١)

ذهب مصطفى كامل فى صيف سنة ١٨٩٥ إلى فرنسا . فدعاه صاحب جريدة فرنسية تدعى « لاباترى » إلى وليمة اجتمع فيها الشاب بكثيرين

(١) الاهرام فى ٢٣ فبراير سنة ١٨٩٥ نقلا عن كتاب على فهمى ج ٣ ص ٣٩

من رجالات الأدب والصحافة والسياسة، واستمع فيها يومئذ إلى أحدهم وهو يخطب الحاضرين ويقول:

«إن مصر بلد سيء الطالع. رزق في هذا العصر المنير، عصر الحرية والمدنية باحتلال أجنبي يديره رجال لا يعرفون غير الاستبداد وحب العلو والظهور والانتقام. وقوم من مصر سواء من أبنائها أو من الداخلين عليها لم يأت التاريخ بذكر مثلهم — فهم فصلوا السودان عن مصر، ومكنوا العدو من كل شيء، وقدموا المصالح الخاصة على المصالح العامة.. الخ» إلى أن قال:

«.. فكيف تريدون أيها المصريون حرية بلادكم، وخروج الانكليز من دياركم وأنتم لم تعرفوا واجباتكم الوطنية، ولم تهدوا أوروبا إلى الحقائق. بل تركتم هذا الواجب الخطير للجرائد الانكليزية تقص علينا من أموركم ما يناقض الحقيقة، ويخالف الواقع.. فهي تقول لنا يوماً إنكم راضون بالاحتلال»

«... وتحدثنا يوماً آخر عن تعصبكم في دينكم، وكرهكم لغير أبناء جنسكم، وتذكر لنا تارة أنكم لستم أكفاء ولا يليق باوروبا أن تضع ثقتها فيكم، وطوراً آخر أن الانجليز لو تركوا دياركم لصرتم كالوحوش بل أضل سبيلا.»

«.... فهل قام فيكم وفد جاء أوروبا مناديا بالحقائق، طالبا العدل والانصاف؟ أمامكم في بعض العناصر الشرقية كالصرب والبلغار والأرمن عبرة كبرى..؟»

هذا خطؤكم في سياستكم وليس بالعسير عليكم إصلاحه. أما أنت أيها الشاب المصري (يريد مصطفى كامل) فقد أحسنت عملا إذ جئتنا اليوم تنادي باستقلال بلادك. فأمل خيراً كثيراً وأدع أبناء جلدتك إلى الانضمام إليك ليكون صوتكم عالياً يسمع في كل الأرجاء». (١)

(١) الاهرام في اول يونيو سنة ١٨٩٥ نقلا عن كتاب علي فهمي ج ٣ ص ٦٣و٦٤

وإذن فانتهاز الحوادث الأوروبية ، والدعاية العريضة للقضية المصرية ، والتودد إلى الأمة الفرنسية ، والاعتراف بسيادة الدولة العليـة هى الأسس الأربعة التى بنى عليها مصطفى كامل سياسته الخارجيـة ، وهى التى آمل من ورائها أن تجنى مصر أحسن النتائج وأطيبها ، فيجلو الانجليز عن وادى النيل ، ويترك للمصريين أن يعيشوا أحرارا فى بلادهم ، وأن يعملوا على تقدمها فى ميادين الثقافة والسياسة والتجارة والزراعة والصناعة وما أيسر أن يتخلص المصريون بعد ذلك من السيادة التركية نفسها آخر الأمر.

بقى الشاب مصطفى كامل على حبه لفرنسا وأمله فيها حـــتى أثبتت الحوادث فيما بعد أنه كان مخدوعا فى هذا الحب ، مكذوبا عليه فى هــذا الأمل . وكان من هذه الحوادث التى نشير اليها حادث فاشودة عام ١٨٩٨ ثم إتفاقيتا الحـكم الثنائى فى السودان عام ١٨٩٩ . ثم الاتفاق الودى بين فرنسا وإنجلترا عام ١٩٠٤.

ومنذ يومئذ لم يجد الشـاب بدا من أن يترك فرنسا إلى الأبد إلى غير رجعــة ، معتمداً فى جهاده المرير على وسائله الخاصة . ومن أهمها وأخطرها إيقاظ الوعى القومى فى مصر وبعث الحركة الوطنيــــة فيها وتـكوين ما يسمى فى معجم السياسة الحديث بقوة الرأى العام فى الأمة.

ثم فى عام ١٩٠٤ حدث كذلك ما لم يكن في الحسبان — حدث أن اليابان وهى دولة من الدول الشرقيـــة هزمت روسيا القيصرية هزيمة منكرة فى الباسفيك . ونظر الناس فى الشرقين الأقصى والأدنى إلى هذه الحادثة على أنها انتصار للشرق المتواضع على الغرب المتكبر.

أما فى مصر بنوع خاص فقد انتهز القادة وذوو الرأى فرصة هــذا الانتصار الـكبير الذى أحرزه اليابانيون على الروس فـكتبوا فصولا طويلة فى هذا المعنى ، وهى فصـول تفيض كلها حماسة للدولة المنتصرة وشماتة بالدولة المنهزمة . وعاد ذلك المجهود الذى بذله الـكتاب فى مصر على أهلها

بتقوية الروح المعنوية ، وإحياء الكرامة الشرقية .

وفى يونيه من نفس هذا العام ظهر كتاب (الشمس المشرقة) لمصطفى كامل وصف فيه الكاتب عظمة اليابان ووحدتها وصدق وطنيتها وانتصارها نتيجة لجميع هذه العوامل . وكان قصده من ذلك إذكاء الروح المعنوية التى أشرنا اليها وإعادة الشعور بالحياة إلى شعوب الشرق كافة وإلى مصر منها بنوع خاص .

* * *

مصطفى كامل والخديو عباس

وقد تعرضت سياسته الداخلية هي الأخرى لشيء من التطور الذى أصاب ناحية هامة من نواحى هـذه السياسة ونعنى بها ناحية العلاقة بين الزعيم الشاب والخديو عباس الثانى. ونحن نعرف أن الصلة بينهما كانت على أتمها وأوكدها ، وأن الزعيم الشاب انتفع بالدروس التى تلقاها عن النديم فوضع نصب عينه أمر تقوية الروابط بين الشعب وولى الأمر . وبقى الحال على ذلك حتى جاءت سنة ١٩٠٤ وهي السنة التى عقدفيها الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا . إذذاك إنهار الروح المعنوى فى مصر واستيأس الناس جميعاً من الخلاص من براثن الغرب . وإذذاك أيضا رأينا (عباسا) وقد أنهكه الصراع السياسى ، وبدا للناس كما لو كان وحشا قلمت أظفاره ، أو نسراً هيض جناحه ، أو سبعاً خلعت أنيابه .

وعلى حين غرة غـير الخديو عباس من خطته ، وانحرف عن مسلكه وبدت منه تصرفات دلت على هذا التغيير والانحراف. من ذلك أنه اشترك فى الاحتفال بعيد الملكة فيكتوريا ، وشوهد فى عرض الجيش الانجليزى فى ميدان عابدين إحتفالا بهذه الذكرى . وقد إستاء الوطنيون – وفيهم مصطفى كامل – وإهتاجوا لهذا التصرف ، ونظروا إليه على أنه أساءة لشعورهم الوطنى ، وجرح لكرامتهم القومية . من هذا العمل وأمثاله

من الأعمال التى صدرت عن الخديو عباس الثانى رأى مصطفى كامل رأياً جديداً فى الحركة الوطنية ، وهو استقلال هذه الحركة عن الخديو نفسه وبعدم إعتمادها عليه بأية صورة ، بل وجد فى هذه الخطة الأخيرة قوة للحركة ، وتعظيما لشأنها ، وإجلالا لها فى نظر الدول الأوروبية التى فهمت أن الحركة الوطنية ليست من وحى الشعب بل من وحى ولى الأمر .

وإذ ذاك بادر الزعيم الشاب مصطفى كامل بكتابة خطاب إلى الخديو عباس جاء فيه :

مولاى

تشرفت فى ديفون بالمثول بين يدى سموكم يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٩٠٤ ، ورفعت إلى مقامكم السامى أن الحالة السياسية الحاضرة تقضى على بأن أكون بعيداً عن فخامتكم ، وأن أتحمل وحدى مسؤولية الخطة التى أتبعها نحو الاحتلال والمحتلين ، ومنعاً لتكدير خاطركم ، ودفعا لما عساه يقع من الخلاف والنزاع .

وقد رأيت يا مولاى بعد التفكير أنه صار من المحتم على القيام بهذا الواجب ، وأنه أول عمل يلزمنى تأديته عقب عودتى إلى الوطن لأن الانجليز أظهروا فى خلال السنوات الاخيرة من التضييق على جنابكم العالى مايجعل وجود رجل ينتقد سياستهم فى الصباح والمساء بجانب سموكم داعيا لاعتدائهم على حقوق ذاتكم السنية ، وحجة لتدخل جديد غير محمود .

وإنى بعد أن رأيت احتجاجهم على جنابكم الرفيع بمناسبة المقابلة التى تفضلت جلالة ملكة البرتغال بمنحى إياها ، ومعارضتهم العنيفة لفخامتكم بسبب الاستقبال الودى الذى نالته (مدام جوليت آدم) من لدنكم ، وتصريحهم بأن انجلترة لا تسمح لجنابكم العالى باكرام من يعاديها وادعاءهم بأن كل ما يكتب أو يقال ضدهم موعز به من سموكم ، أعد نفسى مقصراً تقصيراً حقيقيا فى تأدية الواجب نحو مقامكم الرفيع إذا أبقيت صلتى

بسموكم على حالها ، وفضلت نعمة التقرب منكم على القيام بواجب تدعو إليه الوطنية والسياسة . (١)

مصطفى كامل والحزب الوطنى:

ومضى الشاب يجاهد فى تحقيق هذه السياسة بشطريها فى الداخل والخارج ، مستهينا فى سبيل ذلك بكل ما لقيه من المتاعب والمصاعب. وانتهى به المطاف بعد حادثة دنشواى المشهورة إلى تأليف الحزب الوطنى . وهو الحزب الذى تبلورت فيه هذه السياسة واتخذت شكلها النهائى، ثم هو الحزب الذى توج به الفتى جهاده السياسى .

ولا بأس هنا من تتبع فكرة الحزب الوطنى منذ نشأتها إلى أن أخرجها مصطفى كامل إلى حيز الوجود فنقول :

« إن فكرة الحزب قديمة فى مصر . بل ربما كانت سابقة لحياة مصطفى كامل نفسه بعشرات السنين .

فلقد سمع الناس كلمة (الحزب الوطني) لأول مرة فى مصر ، وذلك فى النصف الثانى من القرن الماضى . وربما كان ذلك بالضبط قبل الثورة العرابية بقليل . أعنى سنة ١٨٧٨ أى فى وزارة رياض باشا . ففى تلك السنة تم تأليف هيئة شعبية باسم الجمعية الوطنية أو (الحزب الوطنى) وكان من أعضاء هذه الهيئة يومئذ شريف باشا ، وشاهين باشا ، وعمر لطفى باشا ، وراغب باشا ، وسلطان باشا . وكانت هذه الهيئة فى حقيقة الأمر صدى لظهور المعارضة فى مجلس النواب المصرى . (٢)

كتب أديب اسحق فى جريدة مصر القاهرة التى أنشأها فى باريس سنة ١٨٧٩ مقالا بعنوان (الحزب الوطنى فى مصر) قال :

« نعم إن الأمة المصرية فريقان ، يعرف أحدهما بالوطنى ، والآخر بما لا نجد

(١) عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل ص ٢٨٤

(٢) راجع ادب المقالة الصحفية فى مصر للمؤلف جزء ١ ص ١٦-١٧

لتعريفه حداً . فانه ليس بالغريب فيوصف بالأجنبي ، ولا بالفاتح الدخيل فيعرف بذلك . وإنما هو مصرى وليس بمصرى ، ووطنى وليس بوطنى . بل القول فيه ماجاء (بمصر الفتاة) على حين صدورها مفوضاً تحرير جانبها العربى إلى هذا العاجز (يريد نفسه) وهو تعريف الحزب الوطنى بالاستقلاليين ، والآخر بالتدخليين . فالتدخليون هم الأفراد المتهالكون على تدخل الأجنبى فى أمور بلادهم ، يتوسلون بذلك للرياسة والولاية ، ويسترضون الدخيل بما يغضب الحق والوطن ، ويبيعون ديارهم بما يطمعون فيه من باطل المقام وزائل الحكام . وهم الآن أصحاب الأمر،لهم الملك وللاجنبى الحكم ، ولهم القشور وللدخيل اللباب . . . . والاستقلاليون هم الفئة المجتمعة ، والجمع الكثير . يرومون حفظ الحقوق الوطنية ، وكف يد الأجنبى عن استقلالهم . . . . وبعبارة إجمالية يريدون أن تكون مصر للمصريين . وهم الآن حلفاء الصبر ، يبعد نبهاؤهم ، ويعنت وجهاؤهم ، ويقيمهم اللؤماء هدفاً لسهام الانتقام . وقد عنى التدخليون بتشويه محاسن الفرقة الوطنية (يريد الحزب الوطنى) بما ينشرون فى صحفهم ، وما يستكتبون فى صحف الأجنبى من الكلام المفترى ، منقلبين فى ذلك تقلب الأفعى ، متلونين تلون الحرباء . فتارة يسمونهم بحزب الترك القدماء ، وطوراً بحزب التعصب الدينى ، وآونة يرمونهم بالنفرة عن كل نجاح وصلاح . ومرة يتهمونه بعداوة الأجنبى عن دينهم على أى مشرب كان . وقد آن أن نضع لهذه الأراجيف حداً ، وأن نرد كيد اللؤماء فى نحورهم . فالحزب الوطنى غير متعصب إلا فى وطنيته ، والحزب الوطنى غير معاد إلا للخائنين . »

قد يفهم من هذا الحديث أن كلمة « الحزب الوطنى » إنما كانت تطلق على الأحرار الذين كانوا يهدفون إلى إستقلال مصر ، ويحاولون الظفر بحريتها . وقد كان هؤلاء الأحرار يجتمعون حيناً بدار سلطان باشا ، وحيناً آخر بدار لطيف باشا سليم ، وحيناً ثالثاً بدار الأميرة نازلى فاضل ، وحيناً

رابعاً بدار السيـــد توفيق البكرى نقيب الاشراف ، وحيناً خامساً بدار راغب پاشا وهكذا .

والذى لا ريب فيه أن مصطفى كامل كان يختلف فى حيـاته كما قلنا إلى بعض هـذه الدور ، وأنه التقط فيما التقط منها فـكرة الحزب الوطنى. وبقيت هذه الفكرة تسكن عقله حتى جاءت سنة ١٩٠٠ ففـكر فى إخراج فـكرته إلى حيز الوجود . وكتب فى ذلك مقالا بجريدة اللواء فى ٢ يوليه سنة ١٩٠٠ عنوانه (حزب وطنى حر فى مصر) وكان يومئذ فى بودابست عاصمة المجر — جاء فيه :

« إن تاريخ هـذا الوطن المجرى هو أكبر مدرسة لرجل مثلى وهب حياته لخدمة وطنه وإعلاء شأنه إلى أن قال : —

« هل يسمح لى الزمان بأن أرى فى مصر هـذا الحزب الوطنى الحر الشريف المبادىء ، المتحـد الأعضـــاء ، الناهض بالامة إلى مرامى النجاح والفلاح. إنى أعرف أن اليائسين سيقولون إن تأسيس حزب محال ولـكنى اذا كنت لا أيأس من خلاص بلادى فمحال على أن أيأس من تحقيـق هذا الأمر الجليل »

غير أن فـكرة الحزب الوطنى بقيت حلماً من الأحـلام لم يتحقق لمصطفى كامل إلا فى عام سنة ١٩٠٧ . أعنى بعد حادثة دنشواى واسـتعداد الأمة إستعداداً كاملا لتقبل هـذه الفـكرة التى توج بها الزعيم الشـاب جهاده فى سبيل وطنه .

وفى الثانى والعشرين من شهر اكتوبر سـنة ١٩٠٧ ألقى الزعيم الشـاب أطول خطبة سـياسية له ، وكان ذلك فى مسرح زيزينيا بالأسـكندرية . واجتمع لسماعه عدد من الأهالى لا يقل عن سـبعة آلاف وكانت هـذه الخطبة بمنزلة إعـلان لانشـاء الحزب الوطنى الذى عرف يومئذ (بحزب الجلاء) . وقد اجتمع أعضاؤه لأول مرة فى السابع والعشرين من شهر

ديسمبر عام ١٩٠٧ . وخطب مصطفى كامل فى هـذا الاجتماع خطبة أخرى أعلن فيها مبادىء الحزب الوطنى وتتلخص فيما يلى : —

أولا — الاستقلال التام لمصر مع سودانها وملحقاتها غير مشوب بأى احتلال أو حماية أو شبه سيادة أجنبية أو أى قيد يقيد هذا الاستقلال.

ثانياً—إيجاد حكومة دستورية فى البلاد بحيث تـكون الهيئة الحاكمة مسئولة أمام مجلس نيابى تام السلطة كمجالس النواب فى أوروبا .

ثالثا — إحترام المعاهدات الدولية والاتفاقات المالية التى إرتبطت بها الحـكومة المصرية لسداد الديون .

رابعا — إنتقاد الأعمال الضارة بـكل صراحة والاعـــتراف بالاعمال النافعة والتشجيع عليها وارشاد الحـكومة إلى خــــير الأمــة ورغائبها والاصلاحات اللازمة لها .

خامسا — العمل لنشر التعليم فى أنحاء الديار على أساس وطنى صحيح بحيث ينال الفقراء النصيب الأوفر منــه ، ومحاربة الخزعبـلات والترهات : ونشر المبادىء الدينية السلمية الداعية للرقى ، وحث الأغنياء والقادرين على بذل كل المساعدات لنشر التعليم بتأسيس الـكليات فى البـلاد وإرسـال الارساليات لاوروبا وفتح المدارس الليلية للصناع والعمال.

سادسا — ترقية الزراعة والصناعة والتجارة وكل فروع الحياة ،والعمل والجد وراء نيل الامة استقلالها العلمى والاقتصادى .

سابعا — إرشاد الاهالى بكافة الوسـائل الممكنة إلى حقائق الاحوال وبث الشعور الوطنى فيهم ودعوتهم للاتحاد والائتلاف وتمـكين المحبـــة بين عنصرى الأمة المسلمين والاقباط وتنبيهم إلى واجباتهم نحو بلادهم .

ثامنا — مساعدة كل مشروع يعود على القطر بالنجاح والاجتهاد فى تحسين الأحوال الصحية حـتى يزداد عدد السكان فتزداد الامــة قوة على قوتها

تاسعا — تقوية روابط المحبة والصفاء بين الوطنيين والأجانب وازالة سوء التفاهم بينهم إذا وجد .

عاشراً — إنماء علائق المحبة والثقة بين مصر ودول أوروبا ، ونفى كل تهمة عن مصر ، والعمل لايجاد أنصار لها فى كل أنحاء العالم حتى تكون لها قوة أدبية سامية تساعدها على اعتراف الغير بحقوقها الشرعية والتغلب على المساعى التى تعمل ضدها ويراد بها إخفاء الحقيقة . (١)

حزب الاصلاح وحزب الامة :

وإلى جانب الحزب الوطنى نشأ حزبان آخران هما : ـ

حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية : وهو حزب الأعيان وكبار الشخصيات التى كانت تأتمر بأمر الشيخ على يوسف وكان ينظر إلى هذا الحزب على أنه حزب الخديو .

وحزب الأمة : وكانت نشأته تتصل بوجود الانجليز . وإن كان أنصار هذا الحزب قد ورثوا عن الحركة الوطنية التى سبقت الاحتلال البريطانى جفاءها للجالس على العرش ونزعتها الأصلاحية التى افتتن بها عدد لا بأس به من الملاك الزراعيين من ناحية ، وبعض المفكرين المجددين من ناحية ثانية . كما كان أعضاء هذا الحزب يهدفون إلى إصلاح المشاكل الاجتماعية فى البلاد . وهو إصلاح كان يؤمن به المحتلون ، ويرون أنه ينبغى أن يكون جزءا من سياستهم فى مصر . وتوالت الأيام ، وتغيرت معها الظروف والأحوال ، فاصبح أعضاء حزب الأمة يميلون إلى انتقاد السلطة المحتلة . واستحال حزب الأمة مع الزمن أيضاً إلى حزب الوفد . وكان ذلك عقب الحرب العظمى وزعيم هذا الحزب الجديد هو سعد زغلول . وينفرد هذا الزعيم دون عامة كبار الساسة فى مصر فى القرن العشرين بنشأته المصرية ،

(١) خطاب بطل الوطنية المرحوم مصطفى كامل باشا ى ٧٥٦٧ دار الكتب .

ومروره بجميع أطوار الحياة المصرية بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين . . . . . ووفد من بيئة الدستور العرابي إلى بيئة المتصلين بالانجليز ، فاختلف معنى الوطنية عنده عما كان عند مصطفى كامل . فهو لم يكن لديه الحس المرهف ، والجرح الدامى ، والتقزز المتصل الذى كونته لدى مصطفى كامل بنيته العليلة ، وقرب عهده بالعدوان الانجليزى ، واتصاله المباشر بالغرب . . . الخ

كانت الوطنية عند سعد مجموعة صفات اخلاقية – إن صح هذا التعبير – صقلتها الجبلة الريفية ، والتربية الاسلامية ، والثقة بالنفس ، وهى ثقة عززتها بعد ذلك الانتصارات الشعبية الساحقة ، فهو بلا شك أقوى من استطاع هز ضمير المصريين والشرقيين على وجه العموم فى الصدر الأول من القرن العشرين . (١)

مصطفى كامل الداعية

مهما يكن من شيء فان أهميـــة مصطفى كامل ترجع فى تاريخ مصر الحديث إلى أمرين :

أولهما — أنه أول داعية حقيقى لما يسمى « بالقضية المصرية » . فقد روج لها ترويجاً واسع المدى حتى آمن الكثيرون من المصريين وغير المصريين بها ، ولولا جهود هذا الفتى لما أوشك أن يعلم بقضيتنا أحد ، أو يؤمن بعدالتها أحد .

ومن الانصاف هنا أن نذكر جهود السيد علي يوسف فى مؤيده . ولكن هذا الصحفى الخطير كان له طريق فى الترويج لهذه القضية المصرية غـــير الطريق الذى سلكه مصطفى كامل . كان أولهما أدنى إلى الرزانة والهدوء . وكان الثانى أقرب إلى الثورة والتهييج . ولعل القضية الوطنية فى حقيقة الأمر كانت بحاجة إلى جهود من هذا النوع .

ثانيهما —أن مصطفى كامل يعتبر بحق باعث الحركة الوطنية فى مصر .

(١) فى أصول المسألة المصرية : صبحى حيده ص١٩٠—١٩٧

فقد رأيت أن هذه الحركة كانت أول أمرها أقوالا تذاع هنا وهناك ، وأفكاراً تنبت فى هذا المجتمع أو ذاك . وبقيت الحركة الوطنية فى مصر على هذا الوجه ، لا نظام لها ، ولا قائد يقودها ، وليس لها من يخرجها من حيز القول إلى حيز العمل ، حتى جاء مصطفى كامل ، فأنس من نفسه قدرة على قيادتها ، والعناية بها . وما زال بالظروف التى أحاطت بها حتى وقعت الحادثة التى أظهرته ورفعته وأهلته لقيادة الشعب المصرى كله فى ذلك الوقت ، ولمنى بها حادثة دنشواى .

بدأ مصطفى كامل كفاحه السياسى داعية للقضية المصرية على النحو الذى سنشير اليه بعد قليل . وكان حريصاً فى أثناء ذلك على مناقشة الساسة الاوروبيين ممن لهم صلة بهذه القضية .

« وهذا كله منح مصطفى كامل حاسة سياسية يفهم بها أن أهم سلاح يشهره فى وجه أعداء بلاده هو الدعاية . وقد فهم مع ذلك أيضاً أن عالمية القضية المصرية ، ودولية أساسها تقتضيه أن يضع لها قالباً دولياً . ولذلك سبق مصطفى كامل العقلية الدولية التى انتهت إلى تقرير أن المعاهدات الثنائية تؤدى إلى انقسام الأمم إلى معسكرات . لأن كل دولتين ترتبطان بمعاهدة إنما تثيران بهذه المعاهدة مخاوف دولة ثالثة ، فتضطر إلى ارتباطها بدولة رابعة ، وهكذا دواليك . كما سبق مصطفى كامل الأمم المتحدة إلى القول بأن كل معاهدة بين قوتين غير متكافئتين هى عقد باطل ، لأنه مشوب باكراه ضمنى أو صريح . لذلك كانت الرسالة السياسية الأولى التى بدأ بها مصطفى كامل آثاره القلمية بحثا فى مخاطر الاحتلال البريطانى ، لا على مصر وحدها ، بل على فرنسا وبقية العالم الأوروبى . وقد فتحت هذه الرسالة قلب مدام جوليت آدم . ففهمت فى التو أن مصطفى كامل عنصر جديد من عناصر الحياة الدولية ، وأن فى التفريط فيه تفريطا فى أمر يهم بلادها وينفعها . وعلى هدي هذا الدستور الذى رسمه مصطفى

كامل لنفسه أصبح يوزع وقته بين عواصم أوروبا الخ.(١)

وهكذا اشتغل مصطفى كامل بمناقشة كبار الساسة الاوروبيين ، حتى وصلت القضية المصرية إلى كل سمع ، وفهمها كل عقل ، وآمن بها أكثر الناس فى الشرق وفى الغرب .

أنظر إلى ما جاء فى كتاب لمصطفى كامل نشره بجريدة المؤيد فى صيف عام سنة ١٨٩٥ حيث قال :

« إن عقلاء الانجليز شعروا بخطر احتلال مصر على دولتهم . ولا ينقصهم غير معرفة إحساسات الأمة المصرية وحقيقة آلامها وآمالها حتى يقيموا القيامة على حكومتهم ، ويسألوها الجلاء عن وادى النيل . فأجل عمل يأتيه المصريون اليوم هو نشر الحقائق فى أوروبا بأكثر اللغات انتشاراً — — خصوصاً اللغتين الانجليزية والفرنسية — حتى يتيسر لنا خدمة الوطن العزيز الذى فى خدمته خدمة الحق ، وفى نصرته نصرة الفضيلة والحقيقة والسعادة القومية .

ولقد آلى الشاب على نفسه القيام بهذا العمل من أجل مصر ، فبدأ كفاحه السياسى برحلة إلى فرنسا فى مايو سنة ١٨٩٥ ، وهو يومئذ فى الحادية والعشرين من عمره فقط ! ولكن صغر سنه لم يقف حجر عثرة دون قيامه بالمهمة الكبيرة التى ندب نفسه لها .

لفت الشاب إليه أنظار العالمين الشرقى والغربى فنشرت له جريدة (الجورنال) الفرنسية حديثاً سياسياً عن قضية مصر ، وعلقت صحيفة (الا كلير) الفرنسية على هذا الحديث بقولها : — « لا بد أن سيكون لمصطفى كامل المصرى دور مهم فى المسألة المصرية . لأن أسلوبه السياسى قائم على الصراحة والحق . فهو يذكر بشجاعة وجلاء تلك المظالم الواقعة على المصريين من جراء الاحتلال الانجليزى الذى كلما مرت عليه السنون

(١) فتحى رضوان المحامى . مقال بالاهرام بعنوان : مصطفى كامل كفاح شعبي رفيع ومر يربتاريخ ١٠ فبراير سنة ١٩٥٠

تجسمت فيه ضروب الاعتداء على حقوق الناس »

ثم لم يكتف الشاب بذلك ، بل وضع فى باريس أولى رسائله السياسية التى كان لها صدى بعيد فى أذهان كبار الساسة فى الدول الاوروبية ، وهي الرسالة التى عنوانها (فى أخطار الاحتلال البريطانى) وفيها أوضح الكاتب للعالم الأوروبى كيف أن الاحتلال البريطانى خطر لا على مصر وحدها ، بل على الدول الأوروبية نفسها . وبهذه الطريقة استمال إليه عقول القراء فى أوروبا . وشرح لهم بعد ذلك ما سماه بالمسألة المصرية ، وسرد لهم تاريخها ، وأوضح لهم وقائعها ، وكشف لهم القناع عن خبث السياسة الانجليزية ونواياها فى الشرق العربى ، وقدم الرسالة إلى مدام جولييت آدم فقرأتها ، وأظهرت إعجابها بما جاء فيها ، وعلقت عليها بكلمة ثناء فى جريدة (البتى مرسيلييه) الفرنسية وذلك فى ١٧ سبتمبر سنة ١٧٩٥

وتحدثت هذه السيدة عن مصطفى كامل بعد رؤيتها إياه فقالت :

« . . . ومن عهد تلك المقابلة أخذت أؤدى له وظيفة الأم ، فعرفته بجميع الرجال الأكابر الذين يعنيهم شأن مصر ، وأوليته من حب الأم جميع منازل أبنائى المتقدمين عليه مثل : بيير لوتى ، والكولونيل مارشان ، وأرنست جوديه . وصنعت له كذلك علاقات نفيسة بالصحافة الفرنسية ، تلك العلاقات التى عرف كيف يستخدمها بأحسن سياسة فى دعواه الشريفة . وأمكنه فيما بعد أن يستفيد من هذا المركز بكل مهارة فى جميع البلدان الأخرى . حتى فى انجلتره نفسها ! !

وفكر الفتى وهو فى باريس فى جهد يبذله للقضية المصرية من نوع جديد . فكتب خطاباً إلى (غلادستون) شيخ الأحرار الانجليز يذكره فيه بالوعود التى قطعتها إنجلترة على نفسها بالجلاء العاجل عن مصر .

ورد عليه غلادسون بقوله :

سيدى العزيز :

إنى أستحسن ما فهمته من إحساساتكم نحو بلادكم باعتبار كونكم

مصرياً ، ولـكنى مجرد بالمرة من كل سلطة .

أما أرائى فانها لم تتغير قط . وهى أنه يجب علينا دائماً أن نترك مصر بعد أن نتمم فيها بكل شرف ، ولفائدة مصر نفسها العمل الذى من أجله دخلناها .

وإن زمن الجلاء على ما أعلم قد وافى منـذ سـنتين . ولما كنت فى منصبى أخيراً ، رجوت مساعدة الحكومات الأخرى توسلا إلى تسوية هذه المســألة المهمة . . . . وقد جاهرت بكل تصريحاتى فى مجلس النواب سنة ١٨٩٣ ، ولم يبق عندى شىء أضيفه اليها . وقد كنت مستعداً لعمل كل ماهو حسن فى سبيل إعطاء آرائى تأثيرها . إلا أننى تركت المنصب كلية . ولست الآن إلا أحد أبناء بلادى الخصوصيين وإنى أتشرف بأن أكون لك الخاضع الصادق (غلادستون ـ إمضاء)

رويدك أيها الفتى المصرى الغيور . إن الانجليز قوم لا تتغير سـياستهم على مدى الأزمان والدهور ! سـأل عضو فى مجلس العموم المسـتر تشرشل عن وعود الحرية التى بذلها للأمم الصغيرة فى أثناء الحـرب ماذا ينوى أن يفعل بها ، وقد تم للحلفاء النصر على أعــدائهم ، فأجابه السياسى العجوز فى غـير حياء ولا خجل : إن المثل العليـا شىء ولـكن تحقيقها شىء آخر ، ونحن نستطيع أن نبذل الوعود كما نشاء ولـكننا لا نستطيع فيما بعد أن نفى بها . »

وأخيراً وبعد أن رحل مصطفى كامل فى هذه المدة إلى النمسـا وأقام بفينا ، والتقى بكبار الصحفيين والسـياسيين عاد الفتى إلى مصر فى ينـاير سنة ١٨٩٦ ولقيه جمع غفير من مواطنيه بالاسكندرية ، بخطب فيهم أول خطبة له فى السياسة وذلك فى الثالث من شهر مارس سنة ١٨٩٦ .

فقدم له أهل الثغر هدية ثمينة ، هى وسام من الفضة رسم على أحد وجهيه صورة السيف المصرى ومســلة الثغر وكتب على الوجه الآخر هذه الجملة :

« برهان الاخلاص من أهالى الاسكندرية للوطنى الغيور مصطفى كامل » .

* * *

على هذا النحو سار مصطفى كامل فى جهاده فلا يكاد يستقر به المقام فى مصر حتى يعود سريعاً إلى أوروبا حيث يقوم بالترويج لقضية الوطن بكل الوسائل .

على أن الفتى لايعود إلى وطنه ليستريح من عناء العمل المتواصل الذى قام به فى ربوع أوروبا ، ولكن ليستأنف هذا العمل نفسه من جديد . فلا راحة ، ولا هدوء ، ولا استجمام ، ولا استقرار ، ولا فترة من الزمن تمر به بين عمل وعمل .

فنى مصر كان هذا الشاب الذى لا يعترف بأن فى معجم اللغة كلمة (يأس) أو كلمة (تعب) حريصا على دعوة كبار الساسة فى أوروبا ليزوروا مصر ، ويشهدوا بأعينهم ما وقع عليها من ظلم ، ويلمسوا بأنفسهم مايحسه جميع المصريين نحو الانجليز من البغض ، ومن هؤلاء الذين قبلوا دعوته يومئذ نائب فرنسى كبير اشتهر بدفاعه عن القضية المصرية وتحيزه لها . واسم هذا النائب (مسيو دولنكل) . وقد حضر بالفعل إلى مصر فى ٢١ مارس سنة ١٨٩٥ ، واحتفى به مصطفى كامل وكثير من المصريين احتفاءاً كبيراً ، وأقاموا له الولائم والحفلات طيلة عشرين يوما ، هى المدة التى أقامها النائب الفرنسى فى مصر .

وفى وقت قصير ذاع اسم هذا الفتى المصرى فى العالم الشرقى ، وفى العالمين الأوروبى والأمريكى حتى أخذ يخطب وده الأحرار فى جميع هذه البلاد ، وطفقوا يدعونه لزيارة بلادهم وكان من هؤلاء على سبيل المثال النائب الايطالى المشهور (كانى فورشلا) وقد كتب إلى مصطفى كامل فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٦ معجبا ببطولته وداعيا إياه لزيارة إيطاليا .

مصطفى كامل واعتزازه بمصريته:

العجيب فى أمر هـــذا الفتى المصرى أنه كان من أدوات كفاحه كلمة (مصرى) . وقد أخذ يعتز بمصريته هـذه اعتزازاً شحن به الغيظ فى قلوب الانجليز ، وأصبح شوكة فى جنوبهم ، وشجى فى حـــلوقهم ، وظلاماً فى أعينهم ، ووقراً فى مسامعهم ، حتى لقـد راح رجال الاستعمار يدعون بأن مصطفى كامل ليس من صميم المصريين ، وكتب بعضهم إلى (شيونفرت) الرحالة الألمانى المشهور يقول « إن الذين يطالبون بحقوق مصر ، وفى مقـــدمتهم مصطفى كامل — ليسوا من صميم المصريين » وما كاد يتصل هذا النبـأ بمسامع مصطفى حتى بادر من فوره بالرد على هذا الصحفى بقوله : (١)

فيينا فى ٥ أكتوبر سنة ١٨٩٧

ياجناب المدير

« إسمح لى أن أرد على ما كتبه مسيو (شيونفرت) فى جريدتـــكم ونشرتموه فى عدد ٧ سبتمبر الجارى فى شأن الوطنية المصرية .

يدعى مسيو (شيونفرت) أن المصريين القـــائمين بالدعوة إلى الوطنية هم من أصل أجنبى — وليس لهم بالفلاحين أدنى علاقة . وقد تـكرم حضرته بأن عدنى من رجال الفئة المترفعة عن الأمة ، البعيـــدة الأصل عنها . أى ممن لا يجرى فى عروقهم الدم المصرى الحقيقى . وهى دعوى باطلة كل البطلان لأن المصريين القائمين بالدعوة الوطنية ، العاملين ضد الاحتـلال الانجليزى ، الساعين فى تحرير وطنهـــم مصريون من سلالة المصريين الحقيقيين ، وأغلبهم من أبناء الفلاحين . أما أنا فأفخر وأتشرف بأنى ابن ضابط منهم آباؤه فلاحون مصريون . فيظهر إذن جلياً أننا

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل ص ٩١

لسنا من تلك الفئة البعيدة الأصـــل عن الفلاحين لأنهم إما إخـوانتا وإما أباؤنا .

أما اكتتابنا للجيش العثمانى فما هو إلا ثمرة وطنية يانعـة صادقة . نعم هو ثمرة الوطنية الحقـة . لأننا نعلم علم اليقـين أن انجلتره لا ترمى بدسائسها ضد تركيا إلا إلى مصر . وإننا بسرورنا وباحتفالاتنا بالانتصارات التركية . نسر ونحتفل بهزيمة السياسة الانجليزية — أى بأجمل وأبهى شيء يتمناه كل مصرى وطنى على الدوام . الخ

وقد علقت الجريدة على كتاب مصطفى كامل هذا بقولها « إن على الكتاب طابع الحق والاخلاص ونحن لا نشك في أن المسيو (شيونفرت) قد اقتنع بما فيـــه . ولذلك نرجو من قرائنا أن يمحوا كل ما علق بأذهانهم من كتابه . فان هذا الرد صادر من صاحب الدار ، وهو أدرى بما فيها ، وعلى الأخص ما يخصه منها »

وبعد ، فنحن لا نستطيع السـير مع مصطفى كامل فى كل رحلة من رحلاته الكثيرة إلى أوروبا ، كما لا نستـــطيع أن نـكون معه فى كل مقابلة من مقابلاته العديده لساستها ، وأحاديثه الخطـيرة وخطبه الهامة فى محافلها ومجامعها . فقد ظل يقوم بكل هذه الأعمال الجسام منذ أعلن الجهاد الوطنى العام سنة ١٨٩٥ إلى أن توفاه الله برحمته سنة ١٩٠٨ .

وهناك من الباحثين من تتبعوا نشاط هذا الزعيم سنة بعد سنة، بل شهراً بشهر ومن هؤلاء شقيقه على فهمى ، ومنهم الأستاذ عبد الرحمن الرافعى . فليرجع اليها من أراد .

أما نحن فليس من وكدنا فى هذا البحث أن نصنع صنيعها وننهج نهجها ، لأن لنا غرضا غير الغرض الذى هدفا إليـــه . وهذا الغرض هو الكلام عن جانب واحـــد من جوانب ذلك الفتى الفرد ، وهو الجانب الصحفى البحت .

الـكتاب الثالث

مصطفى كامل والصحافة

وفيه سبعة فصـــول

« إذا كانت الصحـــافة فى كل بلاد العالم شـديدة التأثير ، عظيمة الفائدة ، فإنها يجب أن تـكون فى مصر أشد تأثيرا وأكبر نفعا . لأن الأمم الحية غنية عن إرشاد الصحف فى كثير من الشؤون . . . . أما فى مصر وبقية بلاد الشرق فوظيفتها أن تـكون المهذبة المؤدبة ، المنشطة المشجعة ، القائمة مقام المجالس النيابية حتى تترقى الأمة وتنال كل حقوقها »

مصطفى كامل

الفصل الاول

قبل اللـــواء

كان مصطفى كامل صحفيا بطبعه . يدلنا على ذلك أنه كان أول طالب في مدرسة الحقوق ، فكر في إصدار مجلة شهرية وجعل شعارها قول الحكيم الذى يقول « حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك ».

وقد أصدر الطالب الشاب أول عدد من أعداد مجلته يوم السبت غرة شعبان سنة ١٣١٠ (الموافق ١٨ فبراير سنة ١٨٩٣) وقال إنها مجلة أدبية تهذيبية وطنية علمية . وكان يتولى تحريرها كلها بنفسه أول الأمر . ثم تطوع كثير من الكتاب للتحرير معه فيها بعد ذلك ، وكان يطبعها في مطبعة المحروسة . « وهناك تعرف بالكاتب الشهير السيد عبد الله النديم الذى كان يطبع مجلته الشهيرة (الاستاذ) كذلك » . (١)

وبلغ عدد المشتركين في هذه المجلة مائتين وأربعين مشتركا في أقل من ثمانية أشهر . واشتركت فيها نظارة المعارف بخمسين نسخة . وكانت تصدر عشرة أشهر في السنة ، وتحتجب شهرين فقط . وكانت الموضوعات التي تنشر في هذه المجلة بين وطنية وعلمية واجتماعية . وذلك فضلا عن الأناشيد الحماسية والملح والمحاورات الأدبية والفكاهية ونحو ذلك . ولم يتجاوز ما صدر من أعداد هذه المجلة تسعة أعداد . جاء في أول عدد منها قوله :

« . . . وبعد فلما كانت عموم الجرائد على اختلاف مشاربها وتنوع

(١) مصطفى كامل في ٣٤ ربيعا ـ علي فهمى ـ الجزء الأول ص ١٨٤

مذاهبها لا تفيد إلا الآباء دون الأبناء فى تثقيف عقولهم وتنمية أفكارهم أمر من أهم الأمور الشريفة ، وغاية نوالها من أكبر المزايا المنيفة لأنهم عماد دولة مستقبل الزمان ، ومتى صلح المبدأ صلحت الغاية فى كل آن . (من يزرع الشوك لا يجنى به عنبا) رأيت أن أهدى أبناء جلدتى وصغار بلدتى جريدة على الأخص تهذيبية ، لما فى ذلك من النفع والسداد والهداية إلى سبيل الرشاد الخ

ولسنا نعترض هنا على عبارة الطالب الشاب إلا من وجهين :

أولها — كثرة الجمل الاعتراضية التى وقعت بين قوله (فلما كانت عموم الجرائد) إلى قوله (رأيت أن أهدى أبناء جلدتى الخ)

وثانيها — قلق هذه الجملة فى موضعها من العبارة كلها ونعنى بها قوله — (أمر من أهم الأمور الشريفة ومن أكبر المزايا المنيفة) . وأخشى أن يكون ذلك بسبب خطأ مطبعى .

أما القصد من الصحيفة فما أنبله ، وأما الغاية منها فما أشرفها ، وأما ما تدل عليه من نجابة الفتى وحسن تقديره لما يهم وطنه وقومه فشىء يستحق الاعجاب والتقدير .

ولنستعرض مع القارىء طائفة من العنوانات التى اتخذها الفتى لمقالاته فى مجلة المدرسة . ومنها نستطيع أن نعرف صورة عن الجو الذى كان يسبح فيه هذا القلم الغض ، والعقل الذى لم ينضج بعد . ومع ذلك راضه الفتى على كل ذلك الجهد . ومن هذه العنوانات على سبيل المثال : لماذا أنشئت المدرسة ؟ — شرف الأستاذ ومجد التلميذ — فيما يجب أن تتبع فى مطالعة الدروس — محاورة بين الأستاذ والتلميذ . (١) ـ مكارم الأخلاق الخ

واشتملت مجلة المدرسة كذلك على إعلانات عن بعض كتب للشاب

---

(١) كان من موضوعات هذه المحاورة (هل للمرأة أن تعمل فى مصالح الحكومة ؟) وقد مال الشاب مصطفى كامل بالطبع الي عدم جواز ذلك ؛

مصطفى كامل كان يعتزم تأليفها . ومنها كتاب (الجواهر السنية فى نظام الهيئة الاجتماعية) . وقد بدأ المحرر الشاب يمد قراءه بخلاصة لبعض فصوله.

وكان مصطفى كامل يشجع التلاميذ للاشتراك فى تحرير المجلة ، ويغريهم بالجوائز . ومن ذلك أنه قال مرة تحت عنوان (محاورة بين الأستاذ والتلميذ »

من يضع لنا من تلاميذ المدارس الابتدائية المشتركين فى جريدتنا هذه المحاورة فى قالب مقالة تقع لدينا موقع الاستحسان- نرسل اليه مكافأة نفيسة جداً . وإذا تعددت الرسائل على شرط ألا تتأخر عن الثامن عشر من هذا الشهر يخصص ثلاث مكافآت لثلاثة من أوائل المجيدين .

ثم أتى المحرر على هذه المحاورة التى طلب إلى تلاميذ المدارس تحويلها إلى مقال يصلح لنشره بالمجلة .

وتشتمل المجلة أيضاً على طائفة من الطرائف العلمية والنوادر الأدبية والملح الفكاهية . مثل قوله تحت عنوان :

(أغرب الجرائد) : يوجد بأمريكا بعض جرائد تطبع على قماش بحيث أنها تصلح بعد القراءة لأن تكون منديلا ، ونوع آخر تعهدت إدارته أن ترسل الطبيب والدواء لمن يمرض من مشتركيها ، كما أنها تدفع مصاريف دفنه إن مات الخ . ومثل قوله تحت عنوان (أبسط وسيلة لقطع الثلج) هى أن يوضع سن إبرة على النقطة المراد قطع الثلج فيها . ثم يضرب بيد مدية على رأس الأبرة . ومثل قوله (زهر مثلث الألوان) لونه فى الصباح أبيض ، فى الظهر أحمر ، وفى المساء أزرق . ولا تشم له رائحة إلا وقت الظهر عندما يكون أحمر . ومثل هذه الطرائف والملح كثير .

وكانت المجلة تحتوى كذلك على قدر لا بأس به من الأسئلة التى يطلب إلى القراء الاجابة عنها فى عدد ، ثم يمدهم المحرر بهذه الاجابة فى العدد الذى يليه .

ويظفر القارئ، لهذه المجلة أحيانا ببضع مقالات تنبئ عما يدخره المستقبل من ألوان الجهاد الذى فرضه هذا الشاب على نفسه منذ نشأته. ولعل من أهم هذه المقالات واحدة له بعنوان (الصناعة والصناع) . وأخرى بعنوان : (نور الاسلام فى الآفاق) : (١) وقد جاء فى هذه الاخيرة قوله :

« قد يخطىء أعداء هذا الدين الخطأ الجم عندما يقولون إنه إذا كانت مبادئه حقيقة فلم لم ترتفع للمسلمين فى هذه الأيام كلمة ؟ ولم سبقهم الأفرنج إلى التقدم ؟ ويضيفون على ذلك أن العرب لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بقوتهم وشجاعتهم لا بنور دينهم وعظم علومهم الخ »

أما الأناشيد الوطنية فقد دعا إلى نظمها من شاء من الأدباء ، وقال إنه يستطيع بعد بضعة أشهر أن يجمعها فى كتاب يكون قاعدة أساسية لتهذيب الأبناء . ونظم الشاب مصطفى كامل نفسه نشيداً منها ، وهو قوله :

هلموا يا بنى الأوطان طرا ∴ لنرجع مجدنا ونعز مصرا
هلموا كونوا فى القطر حقا ∴ نسيناه فضاع بذاك قدرا
فعار أن نعيش بغير مجد ∴ ونبصر فى السما شمسا وبدرا
فسيروا نحو هذا القصد حتى ∴ تنادوا أجمعين بعز مصرا

ومن هذه الأناشيد :

أهل المودة والسنن ∴ هيا لكى نعلى الوطن
ونعيد مجداً قد دفن ∴ ونفوز بالنصر المبين
أنتم بنوه فمالكم ∴ لا ترفعوا (٢) ما قد هدم
وعزيز مصر إمامكم ∴ عباسنا الحصن الحصين

(١) العدد السادس من مجلة المدرسة - أنظر كتاب على فهمى المتقدم الذكر ج ١ ص ٢٧٢
(٢) كذا فى النشيد وصحتها ترفعون وبالأخير يختل الوزن

وهى أناشيد حاول فيها الفتى أن يعبر عن آماله الوطنية ، وقدر من المعانى الحماسية . فعجز قلمه الغض عن تحقيق ذلك القدر .

مصطفى كامل فى جريدة الأهرام

سنحت للفتى الصحفى فرصة أخرى يروض فيها قلمه على المهمة الخطيرة التى تنتظره .

وفى هذه الفرصة الثانية استطاع الفتى أن يتصل بجريدة الأهرام ، فأفسحت له صدرها وخصصت له غرفة من غرف دارها ، فكتب الفتى بين عامى ١٨٩٣ ، ١٨٩٥ أكثر من عشرين مقالة .

ولا بد لنا من التعرض لهذه المقالات أولا من حيث الموضوع وثانيا من حيث الأسلوب .

كانت أولى مقالاته بجريدة الأهرام فى العدد رقم (٤٥٤٥) وذلك يوم السبت ١١ فبراير سنة ١٨٩٣ وعنوانها (نصيحة وطنى) .

وكانت الثانية بجريدة الاهرام بالعدد رقم (٤٥٥٠) تحت عنوان (الحق يعلو ولا يعلى عليه) .

والثالثة بعدد الأهرام الصادر يوم الجمعة ٢٤ فبراير تحت عنوان :

التربية وتعميم التعليم

أشار الكاتب فى هذا المقال الأخير إلى الدور الذى لعبه الشرق منذ القدم فى ميدان العلم حتى جاء الاسلام فأعان على نشره بين جميع الطبقات . ثم طرأ على هذا الشرق ما طرأ عليه من عوارض المرض ومن أهمها قصر العلم على طائفة قليلة من طوائف الشعب . ونام الشرق برهة نهض فى أثنائها الغرب ، فبنى مدنيته على أسس ، منها انتشار العلم ، ومنها حرية الصحف . فأصبحت الجرائد لدى الشعوب المتمدنة من أهم ما تدعو إليه الحاجة وتدور عليه رحى السياسة .

ثم اتجه المحرر فى مقاله هـذا إلى السلطان عبد الحميد فقال « وإنا ليسرنا معاشر العثمانيين ما نراه من جلالة مولانا أمير المؤمنين الذى أحيا فى قلوب الأمة الضعيفـة الأمل، وأعاد للشرقيين أيام الخلفاء الأول ، من الاهتمام بهذين الأمرين العظيمين ، وأخصهما تعميم التعليم وتوجيـه العناية الفائقة بانشاء المدارس »

وفى الثامن من شهر مارس سـنة ١٨٩٣ بعث إلى جريدة الأهرام بمقال عنوانه : ــ

الأعمال بمقاصدها

بدأه بقوله : لست والله ممن يقول كلمـة يريد بها جزاء من زيد أو تقربا من عمرو . بل هو الحق يضيق به الصدر فيعلنه اللسان . وهو ولئن سر قوما فانه يسيء آخرين . لكن لا سـكوت مع الحجة ، ولا عى مع البرهان . فاننا معاشر المصريين قد مضى علينا سنون عشر لم نسمع فيها سوى كلمة « الصبر » ولم نستفد من المحتلين إلا المن علينا « بالاصلاح ». وهو وإن حصل فى بعض الشؤون فانما ضرره لا يوازى ما يستفيد منـه المصلحون الخ »

ثم ضرب الكاتب المثل هنا بالاصلاح الذى زعم المحتلون أنهم قاموا به فى ناحيتين وهما : (ناحية البوليس) . . . فشرعوا فى عزل من أرادوا من ضباطه الوطنيين واستبدالهم بضباط من الانكليز يجهلون أحوال البلاد وعوائد الأهليين . . . . (١)

وتدرجوا من ذلك إلى جعله (أى البوليس) إدارة مستقلة خارجة عن سلطة المديرين وضمها لادارة الربط والضبط التى أصبحت فى أيديهم.

(١) فى هذه العبارة خطأ من ناحية الأسلوب تصحيحه كما يلى : فشرعوا فى عزل من أرادوا من ضباطه الوطنيين واستبدلوا بهم ضباطا من الانكليز الخ . ذلك أن البـاء للترك كما يقول النحويون (المؤلف)

آلة صماء تديرها يد الأغراض كيف تشاء . (والثانية الجندية) فقد اشترطوا إدخال بعض الضباط الانكليز فيها . . . إلا أنهم تعدوا قاعدة الانصاف فى هذا الأمر ، حيث رأوا أنه مع وجود احتلالهم العسكرى لا لزوم لوجود عسكرى مصرى يقوده ضباط وطنيون صادقون . . فجعلوا يولون على قيادة الفرق من أبناء جلدتهم الضباط الكبار لتكون الجندية طوع أمرهم . . .

ثم لم يكفهم ذلك حتى اشرأبوا إلى (الحربية) فأتاحت لهم الظروف أن تولوا أمرها وجعلوها انكليزية محضة . ثم ناطوا القيادة العامة (السردارية) ومعاونيها برجال منهم . .

ثم أنحى الكاتب باللائمة على الاحتلال فى مصر في تلك المهزلة التى مثلها على مسرح السودان ، فسلخه عن مصر بطريقة خفية . وقال : إن فعلته هذه كبيرة لا تغتفر فى جانب الانسانية ، وجريرة لا أظهر عيباً من صدورها من أمة الحرية . فان السودان لم يلتحم بهذا القطر إلا بدماء رجاله ، ولم يخضع للراية العثمانية إلا بهمة أبطاله وبذل أمواله !

ثم حاول الكاتب الشاب فى هذا المقال أن يحارب اليأس الذى زرعه المحتلون في قلوب المصريين وأن يتخذ من الثقة المتبادلة بينهم ومن أميرهم العباس سلاحا من أسلحة هذه الحرب .

وهكذا فضح الكاتب رجال الاحتلال وكشف عن مبلغ كذبهم فى دعواهم أن مهمتهم الأولى فى مصر هى إعداد المصريين للحكم الذاتى .

وفى الرابع من ابريل سنة ١٨٩٣ نشرت الأهرام لهذا الشاب مقالا بعنوان :

الجامعة

دعا فيه إلى الاتحاد والألفة بين عناصر الامة. وقال بعد مقدمة طويلة :

من نظر فى تاريخ البشر لا يجد أمـة عظيمة قامت على الارض ثم تطرق اليها الضعف والاضمحلال إلا بعلة تفريق أجزائها الملتئمة ، وانفصال أعضائها الملتحمة . .. وأن الأمة التى لا تتماسك أجزاؤها ولا تتلاحم أعضاؤها لا تعيش طويلا ولا تبقى إلا قليلا . وما بقاء عقـد تناثرت حباته ؟ إلى آخر ما قال .

ثم فى العشرين من شهر ابريل سـنة ١٨٩٣ نشرت له الأهرام مقالا بعنوان :

المعلمون والتعليم فى مصر

كان الدافع له على كتابته فيها يذكر لنا شقيقه على فهمى (١) أنه كان كثيراً ما يقول :

إن أكبر أمانى أن تكون لى مدرسة أعلم فيها الناشئين لأن المجلة لا تكفى وحدها لتهذيبهم .

ودعا فى هذا المقال إلى زيادة العناية بأمر إعداد المعلم ، ولو دعا ذلك إلى زيادة مدرسة أو مدرستين على مدرستى المعلمين الحاليتين ، وهما دار العلوم ، ومدرسة المعلمين التوفيقيـة . كما دعا الحكومة إلى زيادة رواتب المعلمين الوطنيين بالنسبة لرواتب المعلمين الانكليز . وإلا تسرب اليأس إلى نفوسهم وضنوا على التعليم بجهودهم . وتوجه الكاتب بندائه إلى (المباس) أن يحقق للامة هذا الرجاء ، ويسدى اليها هذه المنه .

ثم احتاج الكاتب الشاب إلى السفر إلى أوربا للدعوة بين ربوعها للقضية المصرية . وإنه لعلى ظهر الباخرة التى تغادر به أرض الوطن وإذ بقلب هذا الفتى يزدحم بشتى المشاعر الوطنية. وإذا بطائف من الحنين إلى مصر يمس هذا القلب الكبير ، ولكن كما تمس النار جسما من الحديد ،

(١) كتابه المعروف جزء ٣ ص ٣١ .

فترفع من درجة حرارته بحيث لا تستطيع أن تلمسه حتى بأطراف اليد .

وهنا بث الكاتب الشاب أشواقه ولوعته جريدة الأهرام التى نشرت له بعددها الصادر فى ١٤ يوليه سنة ١٨٩٤ مقالة تحت عنوان

— البحر —

وهى مقالة أدبية أكثر منها سياسية . بدأها الكاتب بتسعة أبيات شعرية وهى :

أودع أوطاناً يسوء وداعها * وأترك أمصاراً يسر لقاؤها
وأركب بحراً بره موطن الندى * وأمته عم البلاد سخاؤها
يذكرنى منه الصفاء مراتعاً * بها نفس ذى الآمال تم صفاؤها
ألا أيها البحر العظيم بنا اتئد * فمصر تجلى للعيون بهاؤها
تمهل فمصر موطن العز والندى * ومصر أخا النعماء جم هناؤها
بلادى حماك الله من كل غادر * وأبقاك للدنيا فأنت سناؤها
أغادر منك الثغر والقلب شيق * وعينى يجارى هاطل الغيث ماؤها
فرفقاً بمن فى البر والبحر مخلص * يرى مصرى شمساً لايحاكى ضياؤها
عليك سلامى يا ديار تحية * تدوم وأشواقى إليك انتهاؤها

ثم قال :

لا بدع إذا كانت الاسكندرية بجميل منظرها وجليل مظهرها تستوقف الأبصار عند مغادرتها ، وتخطف الأبصار ساعة الخروج من بوغازها . لاسيما أنظارنا أبناء النيل حيث تسلب عقولنا ، وتخلب مداركنا عند مشاهدة ديارنا الزاهية ، وربوعنا الباهية تغيب عن أعيننا شيئاً فشيئاً حتى تختفى تحت حجاب من الماء سميك ، وينعدم وجودها من بين الصور العينية بعد أن كانت واقعة تحت المرأى لايحجبها عن العيون حجاب . لعمرى إن اختفاءها مما يدعو لسكب الدمع وضياع الرشد . وباختفائها تختفى عنا

أوطان يعز علينا فراقها . فيها نشأنا وفيها ظهرنا وبخيرها تمتعنا واليها ترجع آمالنا . . .

ثم طفق يصف البحر وجلاله ، والباخرة وركابها (ويسميها الجزيرة المتحركة) والموج وهياجه ، والريح واضطرابها ، والجو وتقلبه . كما وصف الدوار الذى أصاب الركاب ، والجزر التى مروا بها كجزيرة كريد ، والمضايق التى مر بها كذلك كضيق مسينا . ثم يتحدث عن عظمة البحر لأبيض المتوسط وعن أهميته فيقول : وإذا كان شاعر فرنسا الشهير لامارتين ، يسمى البحار مقلة الطبيعة لأنها من وجهها كالعين من وجه الانسان ، فلا شك أن البحر الأبيض المتوسط أحق من سواه بأن يكون سواد هذه المقلة العظمى ، لأنه أعظم البحار أهمية وأكبرها فائدة ونفعاً لما له من الأيادى البيضاء على بنى الانسان : فهو رائد التجارة ، وقائد الأمم لطريق الحضارة ، وأصل شجرة التمدن التى يتكرم باهداء ثمرتها النضرة للبلدان التى يختارها حسبما يرى عند أفراد الأمم من نشاط وغيرة . اذكر ذلك وآسف شديد الأسف من أن هذا البحر الغزير الخيرات صاحب القوة والملك الكبير غضب على وطننا العزيز غضباً طويلا ، فلم يعترف لأبنائه بفضل ، ولم يشهد لهم بكمال حتى يهبنا الحرية الحقيقية ، والمدنية الصادقة ، ويعيد لنا ما مات فى سالف الأوقات من المجد الكبير والمقام الخطير . ولعلنا ننظر لهذا الداء بعين الاعتبار فنداويه باتحادنا . ولاشك أن الاتحاد مصدر القوة وعنوان الاستقلال الخ .

ثم فى العددين الصادرين فى ٢٠ ، ٢١ يولية سنة ١٨٩٤ نشرت له الأهرام مقالا بعنوان :

معرض ليون

وصف فيه هذا المعرض الفرنسى الذى عرضت فيه فرنسا أحسن نتاجها ونتاج مستعمراتها . ثم عقب الكاتب على ذلك بقوله :

« ويحق لأبناء فرنسا عند زيارة هذا المعرض الاستعمارى أن يظهروا فخارهم بأوطانهم . ولا غرو إن ازدادت محبتهم لبلادهم برؤية أملاكهم ومستعمراتهم . فهم يرون فيه حقيقة قوتهم ، وكبير فتوحاتهم وعظيم انتصاراتهم . كما أنه يحق للشرقى عند رؤية هذا المعرض أن يبكى بلاده وأوطانه ، ويندب قومه وعشيرته ، ويأسف على بلاد ضاعت من يد أبنائها بالحقد والحسد ، وذهبت غنيمة الغريب بسبب الفشل وحب الذات المستحكم بين أهلها ، القائم بقيام الليل والنهار بين أفرادها . أقول ذلك ولا أنكر على القارىء الكريم أسفى وحزنى عند رؤية هذا المعرض الاستعمارى وإن كنت رأيت منه معرضاً جميلا جليلا حقيقاً بالرؤية والزيارة .

وكما أن أبناء فرنسا يفرحون برؤيته ، وأبناء الشرق يحزنون لرؤيته فلا عجب إذا اشتركت الفلاسفة مع أبناء الشرق فى حزنهم وأسفهم . فهم يرون دائما فى الفتوح جريمة لاتغتفر وفى الاستعمار إثما يبقى مابقيت الساعات والأيام .

وفى يوم ٣١ يولية ، ٣ أغسطس سنة ١٨٩٤ نشرت له الأهرام رسالة عنوانها

بلجيكا وعاصمتها

وصف فيها هذه البلاد وأشار إلى قصة كفاحها الذى ظفرت فى نهايته بالاستقلال عن هولانده منذ سنة ١٨٣٠

« ومن يوم أن تم لها هذا الظفر العظيم ابتدأ البلجيكيون فى تنظيم بلادهم كما تهوى نفوسهم . وقد تم لهم ذلك حتى أصبحت كل مدينة من مدائنهم قرة النواظر ومسرة الخواطر . وأخصها بالذكر مدينة بروكسل » الخ.

أجل — استهوى جمال هذه المدينة قلب الشاب مصطفى كامل . ولكن ذلك لم ينسه قط جمال وطنه مصر . ثم قال :

وقد علمت بعد الخبرة أن رقى القوم هنا مسبب عن صفتين لازمتين

لكل أمة تريد أن تنهض بنفسها إلى سلم الرقى وهما : حب الاطلاع ، والاعتماد على النفس . (١)

وتابع الكاتب الشاب كتاباته في وصف معارض أوربا . ومنها معرض (أنفرس) والكاتب يتخذ من كل ذلك العبر ، ولا يفتأ يذكر مصر فيرجو لها الخير ، ويبصرها بما عليه القوم فى أوربا من تقدم علمى وصناعى ويهيب بأمته أن تبلغ بأبنائها هذا القدر من الرقى .

الحق لقد تعلم مصطفى كامل من رحلاته إلى أوربا أموراً كثيرة ، وأفاد فوائد جمة . وكان قلبه يزدحم فى كل مرة بأفكار شتى وآمال عراض وغيرة شديدة على مصر بل على الشرق كله .وقد كان لايمثلة فى جميع المعارض العالمية إلا قهوات الرقص . كأن الشرق — فيما يقول الكاتب — لم يشتهر فى نظر الأوربيين إلا بذلك.

وبقى الكاتب يمد جريدة الأهرام بمثل هذه الرسائل .

ثم أمد الكاتب جريدة الأهرام بمقال تاريخى بعنوانه (ووترلو والمذبحة البشرية) أشاد فيه بذكر نابليون العظيم ، وذلك بمناسبة زيارته لتلك القرية التى منى فيها البطل الفرنسى بالهزيمة الأخيرة .

وفى باريس أدرك الكاتب عيد جلوس السلطان عبد الحميد فقام على تنظيم احتفال كبير بهذا العيد ،كان أول احتفال من نوعه أقيم فى مدينة النور ، وبعث إلى جريدة الأهرام برسالة يصف فيها هذا الاحتفال العظيم ، فنشرت الأهرام له هذه الرسالة فى الثامن من شهر سبتمبر سنة ١٨٩٤ تحت عنوان :

الاحتفال بعيد جلوس السلطان

وهى حفلة اشترك فى إقامتها جميع المصريين بباريس وحضرها المسيو (دولونكل) النائب الفرنسى الشهير ، والمسيو (ميلفو) أحد النواب السابقين،

(١) مصطفى كامل باشا فى ٣٤ ربيعا — على فهمى — جزء ٢ ص ٩٨

واستمع الحضور إلى خطابة الخطباء وهم يثنون على السلطان عبد الحميد، ويشيدون بالعلاقة الطيبة بين مصر والدولة العلية. وجاء دور مصطفى كامل فقدمه أحد الصحفيين الفرنسيين على أنه مصطفى كامل المصرى صاحب (جريدة المدرسة) فقام وألقى خطابا بالفرنسية شكر فيه الحاضرين. وبعد برهة طويلة قام وألقى خطاباً باللغة العربية هتف فى غضونه بحياة السلطان وحياة العباس وحياة مصر. ثم لم يكفه ذلك حتى صاغ هذا الهتاف شعراً لا حاجة بنا إلى ذكره.

ثم بعث الكاتب الشاب بطائفة من المقالات إلى جريدة الأهرام فنشرت أولاها فى الثالث والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٨٩٤ تحت عنوان

مُنام يجاهرون بعكس ما يضمرون

انتقد فيها سياسة الاحتلال الانجليزى وذكر أن الانجليز دخلوا مصر قائلين:

« إنا دعاة الصدق، نصراء الشرف. دخلنا مصر لتأييد سلطة أبنائها وإصلاح شؤونها، وإعادتها إلى ما كانت عليه قبل الاضطراب. ثم أثبتوا فى تاريخ احتلالهم أكبر إثبات أنهم عاملون على تقويض السلطة الخديوية وتقليل نفوذها وخراب البلاد وإفقار العباد .. كأن الدولة العباسية (يريد مصر) مقاطعة من مقاطعات اسكتلندا أو ارلندا. هذا أميرنا — أبو أميرنا (يريد توفيق) عليه من الرحمن الرحمة والرضوان ظن بكم خيراً، وسالمكم فى أكثر الأمور فقابلتم بعد موته ثقته بكم ومسالمته لكم بقولكم عنه:

« إن اللورد كرومر تنازل له عن الامضاء على الأوامر العلية فكان يضع إمضاءه بدل امضاء حضرة اللورد! ... »

بل قولوا لنا بحق مجدكم يا أدعياء الحرية وزعماء المدنية هل أعدتم الوطن العزيز إلى ما كان عليه قبل الثورة بسلخ السودان عنه وتركه غنيمة باردة

لكم ولصنائعكم من بعدكم . فلا تركتمونا نسترجعه ولا صنتم حياءكم ، بل كنتم أول الطامعين فيه المقتدرين عليه .

ماذا كان منكم بعد أن أجبتم إلى طلبكم بسلخ السودان ؟

كان منكم أن كنتم أول المنتهكين لحرمته باستيلائكم على أوغندا ثم احتلال وادلاى ، وأخيراً بالهدية الثمينة التى قدمتموها فى الصيف الماضى إلى صديقتكم إيطاليا (يعنى بها كسلا) .

وهكذا مضى الكاتب فى لهجته العنيفة التى نازل بها الاحتلال حتى قال :

لنسلم لكم أنكم أصلحتم الشؤون ، وأيدتم السلطة الخديوية فما لكم لا تخرجون ؟

أظنكم تجيبونا على ذلك بأنكم إلى الآن لم تتموا ما تكلفتم به . . . إذا كان قولكم حقاً فلتضربوا لنا ميعاداً للانجلاء . . . وبذلك تبرهنون للعالم أجمع أنكم حريصون أكمل الحرص على مجدكم وشرفكم . وإلا فيؤخذ عليكم أن تكونوا أبناء التاميز دعاة الصدق ونصراء الشرف وتجاهرون بضد ما تضمرون .

لم نر مصطفى كامل اهتاج فى كتابته إلى الآن قدر ما اهتاج فى كتابة هذا المقال . وما ذلك بطبيعة الحال إلا لأنه يمس موضوعا حساسا هو موضوع الاحتلال . وأى أمر فى العالم كان يستطيع أن يحرك هذا الشاب قدر ما يحركه هذا الأمر ؟

كان مصطفى كامل يكتب مقالاته هذه بلغة الشباب وحماسة الشباب وحرارة الشباب على حين كان كتاب آخرون كالسيد على يوسف لا يتكلف فى صحافته ضد الاحتلال البريطانى هذه اللغة ، ولا يصل فيها إلى هذه الدرجة من الحدة والانفعال ، ولا تحس فى كتابته بعض ما تحسه فى كتابة هذا الشاب .

ومع هـــذا وذاك فقد كان هذا الشاب هادئاً أو كالهادئ، إلى الوقت الذى كتب فيه مقاله الأخير بعنوان

منام تجاهرون بغير ما تضمرون

ومنذ يومئذ وبركان الثورة فى نفس هـذا الفتى قد انفجر انفجاراً هائلا وقذف الاحتلال البريطانى بمقذوفاته المؤذية .

ومنذ ذلك التاريخ والفتى فى الحادية والعشرين فقط من عمره بدأت عنايته بالقضية المصرية تقوى وتشتد. وكان يستعين فى ذلك بما حصل عليه من الـكتب السياسية التى تبحث فى هذا الشأن وما أتيح له أن يقتنيه من المذكرات الخطية وغير الخطية من بعض رجال السياسة الذين كاتبهم أو حادثهم فى هذا الصدد . (١)

نعم منذ ذلك التاريخ أخذ مقياس الحرارة فى كتابة الشاب يرتفع . وكان الرجل أصيب منذ يومئذ بحمى السياسة التى أصبحت بعد قليـل من الزمن داء عضالا يرعى فى جسده ويمزق عصبه وينزف من دمه .

وأقبلت ســـنة ١٨٩٥ فطلع الشاب على قرائه بمقال نشرته الأهرام بعددها الصادر فى اليوم الرابع من يناير تحت عنوان :

الوعود الصريحة

بدأه بقوله :

ذكرت الانـكليز فى رســـالتى الأولى بأشهر سيئاتهم الاحتلالية . وأذكرهم اليوم بشرف الوعود وأثمن العهود التى قالوها ضمانة للانجـلاء ، آتيا بها وعدا بعد وعد ، وعهدا بعد عهد ، عسى تنفـع الذكرى ، ويعلم السادة الأحرار أنهم بمحافظتهم على هـــذا الاحتلال الثقيل قد وطئوا بأقدامهم وداسوا بأرجلهم أعز شىء يتباهون به ويفتخرون به ــ وأعنى

(١) مصطفى كامل باشا في ٣٤ ربيعا جزء ٣ ص ٧٦

بذلك الشرف البريطانى الجليل الشأن الرفيع البنيان .

ثم أخذ الكاتب يحصى وعود الشرف التى قطعتها انجلترة على نفسها فبلغت ثمانية عشر وعدا . أولها وعد اللورد غرانفيل فى ٤ نوفبر سنة ١٨٨١ أى قبيل أن تظهر للثورة العرابية نار ويقام للاحتلال منار . وآخرها وعد المستر (مورلى) لمجلس العموم فى ٨ فبراير سنة ١٨٩٢ وفيه يقول « إن رأيه بشأن مصر هو عين رأى أسلافه وإنه لايرى غير الجلاء »

ثم وجه الحديث إلى السادة المحتلين قائلا لهم بعد كل ذلك « هذه وعودكم الشريفة الصريحة التى لا تستطيعون نكرانها . . . . فهل لكم أن تحترموا شرفكم العزيز ، وتنجلوا عن الديار بسلام ؟ أم عزمتم العزم الأخير على استخدام ذلك الشرف فى اغتيال البلاد كما يشير به عليكم الخونة الأشرار ؟ » .

لقد دل هذا المقال على الخطة التى وضعها الشاب منذ يومئذ لمقاومة الاحتلال الانجليزى . وهى خطة تقوم من جانبه أولا على الدراسة ، ثم على الدعاية ، ثم على إيقاظ الشعور القومى فى مصر .

وفى الفصل الذى كتبناه بعنوان (مصطفى كامل الداعية) وقفنا على الحديث الخطير الذى دار بينه وبين شقيق اللورد كروم فى مصر ، ونعنى به(الميرالاى بارنج) . وقد نشرته له الأهرام فى عددها الصادر يوم الاثنين الثامن والعشرين من شهر يناير سنة ١٨٩٥ ولا حاجة بنا إلى إعادته .

وقد ردت المقطم (لسان حال الاحتلال الانجليزى فى مصر) على هذا الحدث العظيم فى تاريخ السياسة المصرية بمقال لها صدر فى اليوم الثانى مباشرة تحت عنوان « حديث خرافة »

فما كان من الكاتب الشاب إلا أن بعث بخطاب إلى صاحب الأهرام بشارة تقلا باشا نشرته هذه الجريدة فى عددها الصادر يوم الاثنين

٤ فبراير سنة ١٨٩٥ ردا على ترهات المقطم فطالب هذه الجريدة بأن ترجع فى تكذيبها إلى (بارنج) شقيق كرومر، فان وافقها على هذا التكذيب فليس بد للكاتب يومئذ من أن يذكر (بارنج) هذا بالمكان والزمان اللذين اجتمعا فيها، ثم بالحديث الذى دار بينهما على أن بذيل كل منهما ذلك بامضائه ليتحمل تبعة الصدق والكذب.

منذ ذلك اليوم كثر أعداء هذا الشاب. وكان من ألد أعدائه صنائع الاحتلال الذين اضطر الشاب إلى محاربتهم محاربة سافرة. من ذلك أنه فى الثالث والعشرين من فبراير سنة ١٨٩٥ بعث إلى جريدة الأهرام بمقال تحت عنوان:

التشهير بالباطل

رد فيها على جرائد الاحتلال التى لم تستطع أن تخفى غيظها من الشباب الذين لم يكن لهم ذنب غير أنهم احتفلوا مرة بعيد جلالة السلطان، وزاروا مرة أخرى جناب المسيو فور رئيس الجمهورية الفرنسية. قال المحرر الشاب:

فماذا افترى إذن مصريو باريس حتى اهتزت الدنيا، وقام الانكليز وقعدوا، وأرغوا وأزبدوا، طالبين من مريض الوزارة عقابهم أشد العقاب تعذيباً لهم، وعبرة لغيرهم، مما حرك الشيخ العليل إلى إصدار أمره إلى صديقه أرتين باشا بتحقيق هذا الأمر وتقرير العقاب الصارم.

وماذا أتى إخواننا المصريون ضد الانكليز حتى يطالب السير بالمر إلغاء الارسالية المصرية بأسرها وجعلها أثراً بعد عين. ثم يعود فيطلب إلغاءها ومعاقبة المسببين لزيارة المسيو فور عندما علم (ويالعجب وطول الخجل) أن حضرات الأجلاء (أعضاء البعثة المصرية من الأرمن (يتعلمون فى الارسالية على نفقة حكومتنا السنية! وأى حكمة وراء قول المقطم

لسان حال معتمد الدولة البريطانيـة فى مصر : بأن المصريين لو كانوا على رأى الجرائد العربية الفرنسوية ـ يريد بذلك على ما أظن المؤيد الأغر والأهرام الزاهرة ـ لاستعمل الانـكليز معهم الشدة والقسوة بدل الملاطفة واللين . مع علم السادة المحتلين جميعاً بأن الأمة المصرية بأسرها على رأى هاتين الجريدتين الصادقتين .

يظهر لى أن الحـكمة هى الوعيـد والتهديد . ودليل ذلك قوله إن نابليون كان يعامل المصريين بالشدة كأنه يريد المقارنة بين عنصرين يفصلها قرن طويل ، وبين فريقين جاء أحدهما فاتحا والآخر قاصدا الاحتلال المؤقت والجلاء السريع .

ولـكن ليهدأ المحتلون بالا ويسكنوا خاطرا . فلقد علم المصريون كل ما يضمره لهم أبناء التاميز ولا يزيدهم الوعيد إلا ثباتا فى العمل وقوة فى الوطنية الخ .

هـكذا مضى المجاهد العظيم مصطفى كامل يقاوم المحتلين ، ويسخر من تهديدهم ووعيدهم ، ويستصغر جهودهم فى سبيل إرهاب الأمة المصرية . حتى إذا ضاق اللورد كرومر ذرعا بهذه المقاومة لم يجد بدا من استصدار أمر عال بتأسيس ما سماه (المحـكمة المخصوصة) لمحاكمة المعتدين من الأهالى على جنود الانجليز وضباطهم . ويومذاك ثارت ثائرة الشاب الأبى مصطفى كامل وبعث إلى جريدة الأهرام فى الرابع من شهر مارس سـنة ١٨٩٥ بهذا المقال الذى كان شديد الوقع على رجال الاحتلال البريطانى فى ذلك الوقت ، وعنوان المقال :

صواعق الاحتلال

بدأه بقوله :

يا لله من صواعق تصب علينا بغير حسـاب ، ومصائب نرمى بها بلا

أسباب ، وبلايا تتدارك علينا تدارك السحاب ، ورزايا تتصدع بها القلوب والألباب حتى أصبحنا نتقلب بين أنياب هذا الشر وأظفار ذلك السوء ولا نعرف من الأيام غير ظلماتها ، ولا من الحوادث إلا مزعجاتها . كل ذلك على أيدى فئة جاءت البلاد بحجة الاصلاح .

وإذا سألتها ما هذه الصواعق التى تصبينها علينا قالت إنما هى أدوية أدواتكم ومراهم جروحكم فتقبلوها بالصبر والسكون وإلا وضعت لكم السم فى الشراب ، كأنما نحن أطفال صغار لا ينفعنا إلا التهديد والارهاب.

وإذا ناديناها : لبي نداء هذا الشرف البريطانى الرفيع الذى يسألك الجلاء عن الديار وترك البلاد لأبنائها يسوسون أمورهم بأنفسهم ، قالت :

ما أقل اعترافكم معشر المصريين بالخير وأولاكم بالسوء . أترغبون فى خروج الانكليز من بلادكم وتكفرون بنعمة وجودهم بينكم واحتلالهم أرضكم ؟ فلأرسلن عليكم الصواعق تأتيكم من حيث لا تشعرون ، ولأرمينكم بالمصائب تهز قلوبكم هزا ، وتدك وجداناتكم دكا ، حتى إذا علمتم بطش الانكليز وقوة البريطان أخلدتم إلى السكون وجنحتم إلى عدم المطالبة بالجلاء ، لتتم علينا نعمة الحكم عليكم والسيطرة على بلادكم .

ولسنا نستشهد على صحة هذا القول بحادث من حوادث الماضى . بل نستشهد بحادث اليوم الذى جاء ضربة قاسية على النفوس ، وصاعقة شديدة الوقع على الرءوس . أعنى به حادث المحكمة العرفية الاستبدادية التى أنشئت لمعاقبة كل من تعدى على جنود الاحتلال عقابا لا يدخل تحت قانون ما .

تأسست بعد أن أرغت جرائد لندرة وأزبدت ، وأرعدت وأبرقت ، ووجهت إلى سدة الأمير طعن وبذاء ، مما قابلناه تلك الساعة بقول الشاعر

وإذا أتتك مذمتى من ناقص ∴ فهى الشهادة لى بأنى كامل

تأسست هذه المحكمة على شكل يكفى وحده لأن يبرهن للعالم بأسره أن الانكليز لا يعرفون القانون رسما .

وهل سمعتم يا قوم بمحكمة تحكم بما يشاء هواها ؟ محكمة تحكم بصلم الأذن ، وجدع الأنف ، وسلخ الجلد ، وبالجلد والضرب ؟

وهل رأيتم يا قوم فى التاريخ أن أمة تحاكم على غير قانون ودستور ؟

أجيبونا يا معشر المشرعين . واسمعونا كلمة الحق أيها المنصفون . فقد بلغ السيل الزبى . نعم نعم أنتم تريدون أيها المحتلون بهذه المحكمة عقاب كل مصرى أمين يعرف أنكم خصوم بلاده ، وتقصدون بها إهانة الوطنيين بسجنهم السنين الطوال . إن لم نقل باعدام كثيرين منهم .

نعم نعم ـ أنتم تريدون بهذه المحكمة وضع الأساس الصالح لهدم المحاكم الأهلية وإبدالها بمحاكم استبدادية تحكم بنفس القانون الذى تحكم به محكمتكم الجديدة .

نعم نعم ـ أنتم تريدون ذلك وتبذلون الجهد الجهيد فى سبيل الوصول إليه . وإلا فأى تعصب دينى فى البــلاد حملكم (أيها العادلون) على تأسيس هذه المحكمة التى تؤاخذون على تأسيسها كل المؤاخذة ... وأى داع حملكم اليوم على المطالبة بهذا الحق الذى تقولون عنه بعد أن سكتم عن المطالبة به ثلاث عشرة سنة . . . لا خلاف فى أنكم ترغبون قتل العواطف الشريفة الحية ، وتودون من صميم الفؤاد إخماد أنفاس كل كاتب وكل معارض : ولنا فى الغاء مدرسة دار العلوم دليل آخر على ذلك . فلقد أردتم أن يكون هذا الشهر شهر النصر لكم والخذلان لنا . فأرسلتم علينا من سماء عدالتكم الصواعق تباعا ، حتى عسر علينا إحصاؤها . بل بتنا نقول (كل البلايا فى ظل المحكمة المخصوصة) فانا لله وإنا إليه راجعون . »

ثم فى الخامس والعشرين من شهر مايو سنة ١٨٩٥ نشرت الأهرام لمصطفى كامل مقالا بعنوان

الشرق الاقصى

تحدث فيه الكاتب إلى قرائه عن الحرب الصينية اليابانيه وصلة ذلك بالمسألة المصرية. وكانت انجلترة تقف موقف العزلة من هذه الحرب بينما كانت فرنسا والمانيا وروسيا شديدة الاهتمام بها. قال مصطفى كامل:—

« ولا أرانى مخطئا إذا قلت إن مسألة الشرق الأقصى خدمت مصر خدمة جليلة بأن وجهت إليها الأنظار أكثر من ذى قبل. فليست الجرائد الفرنسوية وحدها هى التى تطالب اليوم بالجلاء عن وادى النيل، ولكن الجرائد الروسية والألمانية صارت أشد لهجة وأعظم غيرة منها »

ثم أتى الكاتب الشاب بعبارة لبعض الصحف الأوروبية جاء فيها:

« إن انكلترة تهددنا باقفال قناة السويس إذا أتينا بأى عمل حربى ضد مصالحها فى الشرق الأقصى. فعلى الدول الثلاث المتحدة حل مسألة مصر بأول فرصة حتى لا يصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة انكليزية »

ثم قال:

« ولا مراء فى أنه إذا دام الحال على هـــذا المنوال وظلت خطة الدول الثلاث بلا تغير نجت مصر من مخالب الأسد الذى يحاول افتراسها، وتحققت أمانى محبى مصر والمنصفين فى قولهم « مصر للمصريين »

ثم فى أول يونيه سنة ١٨٩٥ نشرت الأهرام لهذا المجاهد العظيم مقالا تحت عنوان:

من أين يأتى الخطر

وفى هـــذا المقال لخص الكاتب خطابا سياسيا خطيراً ألقاه بعض

الفرنسيين فى حفلة دعى اليها الشاب مصطفى كامل . ومن هذه الخطبة قوله :ــ

إنى لم أكن أعلم شيئا من حوادث مصر ، غير أن الانكليز فيها يريدون ابتلاعها . وسياستهم على شواطىء النيل كسياستهم فى كل بلد آخر تتلخص فى الافقار والاستعباد والتخريب . ولكنى اندهشت أعظم دهشة عندما قرأت فى الجرائد خبر تأسيس محكمة مخصوصة تقبض بيدها على السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية . وزادت دهشتى لما علمت أن الذى قرر هذه البدعة الكبرى هو مجلس النظار المصرى المركب على ما أعلم من نظار مصريى الجنسية ! ومن ذلك اليوم درست المسألة دراسة مجتهد حتى وقفت على ما جريات الأحوال وعموميات الأشياء . وخلاصة ما استنتجته أيها السادة هو أن مصر بلد سيء الطالع ، رزق فى هذا العصر المنير عصر الحرية والمدنية باحتلال أجنبى يديره رجال لا يعرفون غير الاستبداد وحب العلو والظهور والانتقام ، وقوم من مصر سواء من أبنائها أو من الداخلين عليها لم يأت التاريخ بذكر مثلهم . فهم فصلوا السودان عن مصر ، ومكنوا العدو من كل شيء . ولقد كان نابليون يقول : لو كان عدد الخونة فى فرنسا نصف ما هو عليه اليوم لكانت هذه الدولة سيدة العالم . وأنا اليوم أقول : لو كان عدد الوطنيين الصادقين فى مصر بقدر عدد المارقين والدخلاء فيها لكانت نجت من عهد بعيد . فالبلاء كل البلاء فى تعيين الضعفاء والبسطاء فى المناصب الرفيعة وإبعاد الصادقين الأكفاء من المصالح والادارات . والمصيبة كل المصيبة فى وجود بعض مصريين لا يفهمون معنى حب الوطن ، وآخرين لا يدرون ــ وهم مصريون ــ أن مصر بوضعها الطبيعى لا بد أن تكون حرة مستقلة .

فكيف تريدون أيها المصريون حرية بلادكم وخروج الانكليز من دياركم وأنتم لم تعرفوا واجباتكم الوطنية ، ولم تهدوا أوربا إلى الحقائق ؟

بل تركتم هذا الواجب الخطير إلى الجرائد الانكليزية تقص علينا من أموركم ما يناقض الحقيقـــة ويخالف الواقع . فهى تقول لنا يوما إنكم راضون بالاحتلال ، تدخلون فى بابه أفواجا أفواجا . وتحدثنا يوما آخر عن تعصبكم فى دينكم ، وكرهكم لغير أبناء جنسكم . وتذكر لنا تارة أنكم لستم أكفاء ، ولا يليق بأوربا أن تضع ثقتها فيكم . وطوراً آخر أن الانكليز لو تركوا دياركم لصرتم كالوحوش بل أضل سبيلا ، وضاعت مصالح الماليين ونزلت القراطيس المصرية بعد أن تحسنت وصعدت .

فهل قام منكم وفد جاء أوربا مناديا بالحقائق ، طالبا العدل والانصاف ؟ أمالكم فى بعض العناصر الشرقيـــة كالصرب والبلغار وغيرهم عبرة كبرى ؟

واذكروا الآن الأرمن الذين لا يغضون لحظة عن تأسيس الجمعيات وإلقاء الخطب . على أنهم ما عرفوا من قبـــل معنى الاستقلال ، وما ذاقوا للآن حلاوة الوحدة فى العمل ، وعدم تسلط اليد الأجنبية على بلادهم كما ذقتم أنتم حلاوة ذلك فى عهد الأسرة الخديوية الكريمة . وفضلا عن ذلك فانهم ليس لهم حق يخول لهم نيـــل مطالبهم . أما أنتم فحقوقكم أكبر الحقوق . وليس لكم سبيل إلى استرجاعها غير نشر الحقائق فى أوربا والاستعانة بها .

هذا خطؤكم فى سياستكم وليس بالعسير عليكم إصلاحه .

أما أنت أيها الشاب المصرى فقد أحسنت عملا إذ جئتنا اليوم تنادى باستقلال بلادك . فأمل خيرا كثيرا وادع أبناء جلدتك إلى الانضمام اليك ليكون صوتكم عاليا يسمع فى كل الأرجاء .

وعقب الكاتب الشاب على هذه الخطبة بعد ذلك بما شاء له أن يعقب وذكر المصريين بأن الخطر يأتيهم من طوائف ثلاث : طائفة الدخلاء ، وطائفة الضعفاء ممن يلون الحكم فى مصر ، وطائفة اليائسين الذين ينسون أن الأمم

الأخرى كانت أتعس منا حظا ومع ذلك جاهدت وثابرت حتى نالت حريتها .

ثم ضرب المثل بالولايات المتحدة وايطاليا واليونان . ثم قال : « وأنتم أيها المواطنون الأعزاء لا تحتاجون لكثير من العناء فى إنقاذ الوطن العزيز إذ أن ذلك من صالح أوروبا . ولا مراء فى أن الدول التى حزرت سويسرا وبلجيكا لها فى تحرير مصر فوائد أكبر من فوائدها فى هاتين الدولتين . . . . ألا فاجمعوا كلمتكم أبناء الوطن العزيز ، واخلصوا النية فى خدمة مصر ؛ والقوا وراء ظهوركم الشقاق والنفاق ، واختاروا سبيل الخلاص سبيلكم حتى يشهد لكم العالمون بالكفاءة والاستعداد وحب الوطن . وتروا بعين البهجة والرضاء بعد زمن يسير « مصر للمصريين »

وثارت ثائرة الاحتلال ، وتعددت صحفه أطوارها ، واشتد أوارها ، واندفعت تحرق الوطنيين بنارها ، وخاصة بعد أن قام المجاهد الشاب بهذه الحركة المعروفة التى قدم فيها لمجلس النواب الفرنسى لوحة الفن المعروفة وعريضته المشهورة . وأخذت صحف الاحتلال تسب هذا الشاب وتطعن فيه وفى نواياه وأخلاقه . فاضطر الشاب من جانبه إلى الرد عليها فى مقال بعث به إلى الأهرام فنشر فى الخامس من شهر يوليو سنة ١٨٩٥ بعنوان

كلمة الى المرتشين

بدأه بقوله :

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى * فلا زال غضبانا على لئامها

عذرا أيها الأصدقاء الأوفياء إذا قصرت عن القيام بواجب شكركم على دفاعكم عني أمام طغمة المارقين الذين أقل صفاتهم أن لا وطن لهم ولا خلاق . فإنى أترك الوطنية الحقة تشكركم أجل الشكر ، وأدع المحامد تحمدكم على رفيع إحساساتكم وجليل شيمكم ، واستمحيكم العفو إذا

خصصت رسالتى هذه للرد على هؤلاء الخوارج بلسان التاريخ . فان فيه ولا مراء أقوى ساعد على خدمة بلادى العزيزة وتحرير أوطانى المحبوبة .

يلومنى الخصوم على الدفاع عن حقوق ضائعة وحرية مسلوبة ، ويصفون شريف الفعال (بأعمال الصغار) ونعم هذا الوصف . وما الذ مثل هذا اللوم على أذنى . إنه لعمرو الحق ألذ من تغريد الطيور .

أبلغتم أيها الخوارج من التدليس هذا المبلغ ؟ حتى اعتبرتم الفضائل نقائص الخ ، فانى وإن أكن فى أزهر سن الشباب لست ممن يميلون مع الأهواء ، ويقضون الساعات والأيام فى الملاهى والملذات . بل أنا ممن لا تحلو الحياة فى عيونهم ما دام الوطن على خطر ، والأمة على شفير هار . أفاخركم أيها الطاعنون أمام العالم أجمع بأنى وهبت حياتى لأمتى وبلادى . وبدأت أعمالى بعد سن الدراسة بمطالبة أوربا العادلة حقا وإنصافا . أفاخركم ساخرا من طعنكم وقدحكم بأنى أقتفى أثر رجال شرفهم التاريخ لما شرفوا بلادهم ، وأعزتهم أوطانهم لما أعزوها وأعلوا شأنها . . . .

. . . . ألا فانتظروا الحوادث ، واهزأوا ظاهرا وموتوا باطنا مما نحن فاعلون . .

وختم مقاله هذا أيضاً بقول الشاعر

وإذا أتتك مذمتى من ناقص * فهى الشهادة لى بانى (كامل)

* * *

هكذا كانت هذه السنوات الثلاث التى كاتب فيها الشاب مصطفى كامل جريدة الأهرام من أخصب سنوات عمره نتاجا وأصدقها جهادا . راض فيها الشاب قلمه على الكتابة الصحفية الصحيحة . . وما زلنا نتتبع مقالاته فى هذه الجريدة فنراه يرتفع قليلا قليلا من حيث درجة الحماسة حتى يصل إلى قرب نهايته عندما طفق يخوض فى سياسة الاحتلال ونقد هذه السياسة . وإذ ذاك وجدنا لعبارته انطلاقا كبيرا ، وانسيابا عظيما ، واتساعا

فسيحا ، وطواعية تدعو إلى الاعجاب . كل ذلك فى سهولة لفظ ، وتدفق شعور، وعذوبة معنى ، وعدول تام عن الكلمات الغريبة ، ومعرفة تامة بالألفاظ التى توحى إلى القراء بأسمى المعانى وأشرفها فى الحقيقة .

وتتلخص السمات التى يتسم بها مصطفى كامل فى هذه المرحلة الثانية من مراحله الصحفية ، وهى المرحلة التى قضاها فى جريدة الأهرام فيما يلى :

أولا — تشبه الكاتب بالقدماء فى الميل أحيانا إلى الاستشهاد بالشعر. وهو ميل أصيل فى كثير من أدباء العربية لم يزل يستأثر بنفوس كبارهم وأعيانهم إلى اليوم . ونرى مصطفى كامل فى مقالته التى عنونها (البحر) وهى مقالة أدبية أكثر منها سياسية يستشهد فى مطلعها بتسعة أبيات دفعة واحدة ربما كانت من نظمه .

بل إن الكاتب الشاب يحاول فى بعض كتاباته الأدبية أحياناً أن يتشبه بالقرآن الكريم فى أسلوبه ، أو بعبارة أدق يصطنع بعض ألفاظه ، كما فى قوله فى نفس المقالة السابقة يصف ركاب الباخرة متأثرين بدوار البحر :

إن رأيتهم حسبتهم سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكنهم فى بحار الدوار تائهون ، لا حراك بهم ولا هم يفقهون .

على أنه من الحق أن يقال إن مصطفى كامل لم يسرف لا فى استخدامه لألفاظ القرآن ولا فى استشهاده بالاشعار. لانه قلما كان يحسن شيئاً من ذلك لضعف موهبته الأدبية من حيث هى .

ثانياً — على أن عبارة هذا الكاتب الشاب أخذت تميل شيئاً فشيئاً إلى السعة والانطلاق .

وبلغ هذا الانطلاق غايته فى المقالات الحماسية التى كانت من آخر ما كتب الفتى في جريدة الأهرام . أعنى منذ المقالة التى عنوانها « حتام تجاهرون بغير ما تضمرون » . وترى فى المقالات التى تليها سهولة فى اللفظ ،

وتدفقاً فى الكتابة، وانسياباً فى العاطفة، وطواعية فى التعبير. وما زال هذا القلم تشتد قوته، وتعظم سيطرته حتى بلغ الغاية من ذلك فى مقالته « الوعود الصريحة »، و « صواعق الاحتلال »

ثالثاً — منذ بدأ الفتى يخوض بقلمه فى ميدان السياسة، وذلك فى أواخر عام ١٨٩٤ ترك عادة قديمة كانت عنده، وهى العناية بكتابة المقدمات الطويلة فى صدر كل مقال. وذلك بالطبع لأن أذهان القراء لا تحتاج إلى مثل ذلك عند قراءة المقالات السياسية.

أما المقالات التى تشبه البحوث الأدبية والاجتماعية فقد تحتاج الى هذه المقدمات.

رابعاً — كان مصطفى كامل يغلب على مزاجه الجد، ولا تعرف نفسه الضحك أو الهزل. ومن أجل ذلك جاءت سخرية هذا الكاتب الجاد سخرية حزينة لايشعر معها القارئ بانفراج شفة الكاتب عن ابتسامة خفيفة أو عريضة.

وانظر اليه يسخر من أحد مكاتبى جريدة التيمس وقد كتب رداً على حديث مصطفى كامل مع الكولونيل بارنج حيث قال:

« لو كان عندنا ذلك الكاتب المصرى لعاقبناه بما يستحق » فعقب عليه مصطفى كامل بقوله. كأنه يريد وضع مادة جديدة فى قانون المطبوعات يقول فيها.

« كل مصرى نقل إلى الجرائد حديثا جرى له مع سيد من الانكليز يعاقب بالطرد أو الأشغال الشاقة ».

ثم انظر إليه كذلك كيف يسخر سخرية حزينة أيضا من رجال الاحتلال فى مقاله المعروف « صواعق الاحتلال » فيقول:

فاذا ناديناها: لبى نداء الشرف البريطانى الرفيع الذى يسألك الجلاء عن الديار، وترك البلاد لأبنائها قالت: —

« ما أقل اعترافكم معشر المصريين بالخير وأولاكم بالسوء . أترغبون في خروج الانجليز من بلادكم ، وتكفرون بنعمة وجودهم بينكم واحتلالهم أرضكم الخ » .

لا شك أن السخرية الحزينة لا تصدر في الأعم الأغلب إلا عن رجل عصبي المزاج ، سريع الانفعال . وقد كان مصطفى كامل ذلك الرجل العليل من كثرة العمل ، المحطم الأعصاب من طول الجهاد . وهذا فضلا عن كونه شابا حمل نفسه عبء البلاد كلها قبل أن تتقدم به السن ، ويقوى له كاهل يتحمل كل هذا الجهد .

خامسا — ميل هذا الكاتب الوطني إلى صوغ الآراء الوطنية في قالب حكمة جامعة أو جملة رائعة يسهل حفظها والاستشهاد بها كما في قوله :ـ

« من نظر في تاريخ البشر لا يجد أمة عظيمة قامت على الأرض ثم تطرق إليها الضعف والاضمحلال إلا بعلة تفريق أجزائها الملتئمة ، وانفصال أعضائها الملتحمة » .

وقوله :

إن الأمة التي لا تتماسك أجزاؤها ، ولا تتلاحم أعضاؤها ، لا تعيش طويلا ولا تبقى إلا قليلا . وما بقاء عقد تناثرت حباته ؟ الخ

ولكن من الحق أن يقال إن ورود هذه الحكم الجامعة ، والعبارات الرائعة ، كان قليلا في هذه المرحلة من مراحل الكتابة الصحفية عند مصطفى كامل . وإنما كثرت هذه الحكم بعد ذلك كثرة هائلة في خطب الشاب المجاهد ، وفي مقالاته التي كتبها في المرحلة الأخيرة من مراحل حياته الصحفية ، ونعني بها مرحلة (اللواء) .

سادساً ميل الكاتب إلى اصطناع الأسلوب الخطابي . وقد بدأنا نعرف له هذا الميل منذ خوضه في الميدان السياسي . فاذ ذاك مال هذا الكاتب إلى تكرار عبارات بعينها على قاعدة من يقولون (من كرر فقد

قرر) ومال إلى استخدام ضمير الخطاب كأنما يتحدث إلى حفل جامع من الناس حاضرين أمامه .

ومن سمات الأسلوب الخطابى فى عبارته هذه كذلك اصطناعه أسلوب الاستفهام عقب كل تقرير فى كلامه . واصطناعه القسم من مثل (لعمرو الحق) و (لعمرو الانسانية) و (لعمرو الله) الخ

* * *

و (بعد) فقد كانت لهـذا الأسلوب الذى كتب به الرجل مقالاته فى الأهرام بعض هنات منها على سبيل المثال :

الخطأ فى استخدام (باء البدل) كما فى قوله فى مهاجمة المحكمة المخصوصة

نعم نعم تريدون بهذه المحكمة وضع الأساس الصالح لهدم المحاكم الأهلية وإبدالها بمحاكم استبدادية . والصحيح (وابدال المحاكم الاستبدادية بها) وذلك ان (الباء) كما يقول النحاة للترك . فالمتروك فى العبارة هو ما اقترن بها . والمطلوب منها ما لم يقترن بها . قال تعالى

(أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير)

وقوله « فشرعوا فى عزل من أرادوا من الضباط الوطنيين ، واستبدالهم بضباط الانكليز . » والصحيح (واستبدال ضباط الانكليز بهم)

ومنها الخطأ فى استخدام لفظ (بعض) والأصل فى الأسلوب العربى أن يتكرر هـذا اللفظ مرتين . ولـكن مصطفى كامل وغيره من كتاب العصر كانوا لا يعقلون ذلك .

وكان هذا الـكاتب الشاب يخطىء كغيره من الـكتاب فى لفظ (مسرح) فيـكتبه مرسح ، ونحو ذلك .

وكثيراً ما لاحظنا فى أسلوب مصطفى كامل حين استخدامه الجمل الشرطية أنه يميل إلى جعل الشرط ماضيا والجواب مضارعا ، حـتى لقد أصبح ذلك سمة من سمات الـكتابة عنده ، مع أن الأصح هو جعل الشرط والجواب

ماضيين كما فى قوله تعـالى (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا) .

لقد سميت هذه الاخطاء (هنات) وهى فى الحقيقة لا تعدو أن تـكون كذلك . فما أهونها بالقياس إلى مزايا الأسلوب عند هذا الـكاتب الناشىء الذى كان يعالج بقلمه أدق القضايا السـياسية والاجتماعية كما رأينا .

الفصل الخامس

نشـأة اللـواء

كانت هناك صحف وطنية لها شأنها ولها مكانتها حينما فكر مصطفى كامل فى إنشاء « اللواء » . وأهم تلك الصحف الوطنية اثنتان هما « المؤيد » و « الأهرام » . وكانت « الأهرام » أسـبوعية كما كانت أقدم فى تاريخها من « المؤيد » . إلا أن هـــذه الجريدة الأخيرة كانت أعظم خطراً وأجل شأناً وأبعد صوتاً من بقية الجرائد المصرية الأخرى ومنها جريدة«الأهرام» وذلك فضلا عن أن المؤيد كانت جريدة يومية ، وأنها نشأت فى ظروف خاصة أضفت عليها أهمية خاصة . ومن تلك الظروف أن الوطنيين فى مصر لم تـكن لهم إلى ذلك الوقت صحيفة يومية تعبر عن رأيهم، وتـكون لسان حالهم ، على حين كان لرجال الاحتـلال فى مصر جريدة كبيرة ، هى جريدة « المقطم »

من أجل ذلك قلنا فى كتابنا عن على يوسف « وهكذا ظهرت جريدة المؤيد فى الوقت الصحيح ، واختار لهـا القدر الرجل الصحيح ، واتخذت لنفسها إذذاك المنهج الصحيح) . (١)

كانت الصحف الوطنية المصرية تفسح صدورها لمصطفى كامل يجول فى صفحاتها بقلمه متى شاء ويشارك فى توجيه الرأى العام فى مصر كيفما شاء .

غير أن الفتى المصرى بالرغم من مشاكله الـكثيرة ، وأسفاره العديدة ، وأعبائه الثقيلة ، لم يقنع بذلك حتى فـكر فى أن يتخذ لنفسه صحيفة بل

(١) الجزء الرابع من أدب المقالة الصحفيه ص ٧٧ للمؤلف

صحفاً كثيرة يكتب فيها ما تمليه عليه قريحته الوقادة ، وقلبه الكبير، ونفسه الطموح إلى مجد الوطن وإعلاء كلمته والظفر بحريته .

ولعل أهم ما يلفت النظر فى صحافة الاحتلال بوجه عام أنها استكملت أسباب النضج ، وأصبحت خليقة بأن تسمى صحافة رأى ، وأنه قد غلب على أصحابها شعور عام بأن الصحافة فى ذاتها أشد لزوما لمصر ما دامت فى بداية الشوط من غيرها من الأمم الاوربيـة التى أتم أكثرها بالفعل هذا الشوط .

ولقد جاء تفكير مصطفى كامل فى إنشاء «اللواء» متأخراً بعض الشىء ، لأنه ظهر على مسرح السـياسة المصرية منذ عام ١٨٩٠ ولم يخرج لواءه للناس إلا فى سنة ١٩٠٠ ، ولذلك التأخير أسباب تتصل بظروف هذا الفتى الغيور . ولعل من أهم هذه الأسباب — فيما نعلم — أن مصطفى بقى يعتمد فى المراحل الأولى من جهاده على وسيلة فعالة ، هى وسيلة (الدعاوة) . وقد تحدثنا عن أهمية هذه الوسيلة ، ونوهنا بالشهرة التى عادت عليه وعلى مصر من ورائها كطريقة من طرق الاذاعة . ولكن بالرغم من عظم الجهد الذى بذله الرجل فى هذا السبيل فانه صدم صدمة قوية فى حادث فاشـودة عام ١٨٩٨ ، وهو الحادث الذى كشف عن ضعف فرنسا أمام انجلتره ، وجعـل الوطنيين فى مصر يدركون خطأ الاعتماد على تلك الدولة المستضعفة .

وازداد المصريون يأساً من العون الذى ينتظرونه من الدول الأجنبية ، وفقدوا أملهم فى عدالتها وقدرتها على الوقوف فى وجه الانجليز ، وذلك منذ رأوا جمود تلك الدول أمام مأساة أخرى ، هى مأساة البوير عام ١٩٠٠ وتركها إياهم أمام طغيان الانجليز ، وتوحشهم فى حرب دارت بينهم وبين البوير فى الترنسفال .

وإلى الأسباب المتقدمة كلها ، يضيف بعض العارفين بسير الحوادث المصرية فى تلك الفترة ، زعمهم بأن جريدة المؤيد أبدت نوعا من الفتور فى الترحيب

بالمقالات السياسية التى يكتبها مصطفى كامل بين الحين والحين .

إذ ذاك لم ير الزعيم الشاب بداً من التفكير فى إنشاء جريدة يومية تظهر باسمه ، وتعبر عن رأيه ، وتحارب جيوش اليأس التى طوقت الشعب المصرى بأسره . فأعد العدة لهذه الجريدة فى عام ١٨٩٩ ، وأصدر العدد الأول عام ١٩٠٠ ، وكان هذا العمل فى الواقع أجل الأعمال التى قام بها مصطفى كامل فى حياته كلها ، حتى لقد أطلق الأستاذ الرافعى عليه اسم (الجهاد الأكبر) ومن يومئذ وجريدة اللواء علم على الصحافة المصرية ، ورمز للحركة الوطنية :

وبقيت اللواء تحمل علم الجهاد فى مصر إلى أن فارق الفتى المصرى هذه الدنيا . واستمرت تحمله بعد وفاته إلى أن قضت الظروف عليها بعد أن أتمت رسالتها الكبرى بنجاح تام.

وأما صاحب اللواء — وقد أصبح يعرف بهذا الاسم منذ ظهرت جريدته تلك — فقد كان أول من ألف الشركات الكبرى للصحافة فى مصر ، وأول من عنى بوصف الحفلات الكبرى بالبرق وتقول « الاكسبريس » فى عدد من أعدادها التى صدرت فى أكتوبر سنة ١٩١٥ : إن موارد اللواء تقدر بثمانية وثمانين ألفا من الجنيهات . وهو تقدير يجعلها أغنى الصحف المصرية بعد جريدتى الأهرام والمقطم .

مهما يكن من شيء ، فحينما كانت فكرة إنشاء اللواء تداعب خيال هذا الشاب ، وتأخذ بمجامع قلبه بعث إلى مدام جولييت آدم يزف اليها هذه البشرى فردت عليه هذه السيدة بخطاب جاء فيه :

صديقى الشاب :

أسمح لى أن أعرب لك عن الدعوات الصادقة التى أرفعها إلى السماء

(١) فى أول يناير سنة ١٩٠٠ تلقى مصطفى كامل من مدام جولييت آدم الكاتبة الفرنسية الشهيرة هذا الخطاب .وقد أورده أحمد شفيق باشا فى كتابه « مذكراتى فى نصف قرن ص ٣٢٠ من القسم الأول الجزء الثانى .

ليهبك الله من لدنه صحة ومجدا ، وقوة فى جهادك الشريف ضـــد أعداء بلادك . وإنى منشرحة الصدر جداً لما علمته منْ إنك ستنشىء جريدة سياسية (اللواء) لأن ذخائر الخطابة والصحافة لازمة لـكل المجاهدين فى ميادين السياسة .

وإنى أهنئك أصدق تهنئة على نجاحك الخطابى . ولست بحاجة لأن أعرفك رأيى فى أعمالك الوطنية فأنت عالم بها علم اليقين . ولو استطعت أنْ أشرح لك أفكارى بشأن بلادك البديعة لوجدت فيها ما يملأ فؤادك أملا وثقة فى المستقبل . فقد كانت مصر آفة الدول الطاغية . وأثبت التاريخ أنها لم تبتلع الفاتحين لها ، بل قذفت بهم إلى خارجها . ويظهر لى أنها محروسة بأرواح أبنائها القـــدماء ، وأن فى أرض بلادكم سراً جعلها ويجعلها مقدسة عند الناس أجمعين .

إنـكم معاشر المصريين لو أردتم أن تـكون مصر من أكبر الأمم وأعظمها لـكانت كما تشاءون .

ألف تحية وألف سلام للواء الرسول . وليكن لواءك عامل التقريب بين أبناء الدين المحمدى الصحيح وأبناء الدين المسيحى الصحيح . وماذلك بعسير فان هذا التقريب يكون أكبر خطوة فى تاريخ الانسانية والتمدن

جولييت آدم

* * *

وصدر العدد الأول من اللواء يوم الثلاثاء غرة رمضان المعظم سنـة ١٣١٧ وهو الموافق ٢ من يناير سنة ١٩٠٠ وذلك فى ورقتين من قطـع أقل من طول الجرائد العـــادية فى أيامنا هذه وكتبت فى صدرها هذه العنوانات :

اللـــواء

جريدة يومية سياسية لصاحبها مصطفى كامل بك

اشتراك اللواء

ص

١٠٠ عن سنة داخل القطر

٦٠ « ستة أشهر « «

٣٠ « ثلاثة « « «

مكاتبات اللواء وجميع الرسائل
يجب أن تكون خالصة أجرة البريد
باسم صاحب اللواء

إدارة الجريدة بشارع فهمى رقم ١٣ بجوار محطة باب اللوق

ثم جاءت كلمة الافتتاح ، وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن جعل لواء الوطن أشرف لواء ، وصلاة وسلاماً على نبيه خير الرسل والأنبياء . (أما بعد) فقد علم أبناء الوطن أنى وقفت نفسى من زمن بعيد لخدمة الوطن العزيز ، وإعلاء شأن الملة السمحاء بقدر طاقتى الضعيفة . وإنى ممن يعتقدون إعتقاداً صحيحاً أن الوطن دونه الأنفس والأموال ، وأن أشرف يوم فى حياة الانسان هو يوم يموت فيه لأجل بلاده وفى سبيل سعادتها . وقد بذلت قصارى الجهد فى رفع لواء الوطنية ، وجمع كلمة الأمة المصرية ، وإحياء الشريعة الاسلامية . وما وجدته من التعضيد فى كل أعمالى ، وما تحققته من أميال مصر العزيزة سهل لى إظهار جريدة (اللواء) التى أؤمل أن تكون إن شاء الله تعالى لواء حقيقياً لبنى الوطن الصادقين ، وراية للمجاهدين فى سبيل تقدم مصر والمصريين ، وعلماً لخدمة الاسلام والمسلمين . وجعلت أول عدد يصدر منها مقروناً بهلال شهر الصيام المبارك تيمنا بشهر رمضان ، الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان . ولما كان اللواء فى كل أمة حية هو شارة الوطن والوطنية ، ومثل أسمى العواطف الانسانية ، حيث يرى الانسان

به الأمة والوطن والعقيدة مجتمعة ، وكان مقامه عند الأمم الحية المقام الأول ، ومكانته فى نفوس الشعوب المكانة الشماء ، اليه ينتهى الشرف كل الشرف فى صفوف الجيوش . وبه يسمع الجندى إذا نظر اليه فى (ميدان) القتال طبول النصر والظفر إذا ارتفع لواؤها وسمت رايتها . ويجل كل إنسان راية وطنه ولواء بلاده أعظم إجلال ، ويحس بقوة فى الفؤاد ونشوة الدم كلما نظر إلى هذا اللواء الذى يمثل تاريخ الوطن ومجده وفخاره .

ولما نهضت مصر ، وكان من نهضة أبنائها حول لواء الوطن العزيز ، واتفاقهم على خدمته ونصرته ، أحببنا أن نسمى جريدتنا باسم اللواء أملا فى وجه الله الكريم أن يوفقها لجمع كلمة المصريين حتى يقوموا بالواجب عليهم نحو الوطن المقدس .

خطة الجريدة

أما خطة الجريدة فهى خدمة الوطن والاسلام بأشرف السبيل وأنفعها . خطة الحكمة والاعتدال ، والحكم على الأشياء حكما صادقا ، والسعى وراء الاتحاد والاتفاق بين المصريين وبعضهم من جهة ، وبين كافة المسلمين من جهة أخرى . والعمل لتربية أبناء مصر أحسن تربية وطنية ، وترقية التجارة والصناعة ، وإجلال كل من يعمل عملا مفيدا للوطن والأمة والدولة ، واجتناب الشتائم والشخصيات اجتنابا تاما .

ورغبة منا فى تقرير الحقائق ، وتعضيد العاملين والمجتهدين ، سنفتح فى جريدتنا فصلا تحت عنوان : (المنبر العام) ننشر فيه كل مايردنا من الرسائل السياسية والاقتراحات المفيدة للوطن ، والاختراعات الحديثة التى يخترعها أبناء البلاد . وبالجملة يسمح لكل مصرى صادق أن يسمع الأمة صوته . وسيكون كذلك فى الجريدة فصل عنوانه : (أوربا والاسلام) ننشر فيه كل مايكتب فى جرائد أوربا عن الاسلام والمسلمين ، وكل

ماله علاقة بذلك . وفصل عنوانه : (أخلاق وآداب) لانتقاد الأخلاق الفاسدة والحث . . . البلاد الاسلامية . وفصل عنوانه : (بريد العالمين) ننشر فيه أخبار أوروبا وأمريكا وآسيا . وفصل عنوانه (آيات الوطنية) نأتى فيه على قصص الوطنية التى من شأنها بث الروح الوطنية الطاهرة فى نفوس أبناء الوطن .

وإننا نؤمل من حضرات الكتاب الأماجد ورجال الأفكار والآراء أن يشتركوا معنا فى هذه الخدمة الشريفة . فجريدة اللواء هى جريدة الأمة كلها — لا جريدة شخص أو أشخاص.

وإنى أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا للقيام بالواجب ، ويمدنا بروح من عنده ، ويهبنا قوة وثباتاً ورشداً ، وأن يحفظ للخلافة الاسلامية صاحبها ، وللسلطنة العثمانية سيدها جلالة مولانا السلطان بن السلطان الغازى عبد الحميد خان أيده الله وأدام ملكه ، وأن يديم لمصر فى ظل جلالته عزيزها وأميرها سمو خديوينا المعظم عباس حلمى باشا إنه سميع مجيب .

غرة رمضان سنة ١٣١٧ — مصطفى كامل

* * *

فصل المحرر فى كلمته هذه منهاج الصحيفة ، وأبان عن خطتها ، وأفصح عن أغراضها المختلفة . والناظر فى عدد من أعداد اللواء يرى فى أولى صفحاتها المقال الافتتاحى وجزءاً من المادة التى عنوانها «أوروبا والاسلام» ، أما الصفحتان الثانية والثالثة فبهما فى اللواء الحوادث المحلية والتلغرافات الخارجية مستمدة من شركتى رويتر وهافاس . كما يرى فيهما القارىء أخبار التجارة ، وبريد العالمين ، وغير ذلك . وأما الصفحة الرابعة والأخيرة فكثيرا ما تشغلها الاعلانات المختلفة بصورها المتنوعة

على أن هذا النظام لم يكن متبعا على الدوام ، بل كان المحرر يدخل عليه شيئا من التعديل بين الحين والحين .

وأما أسرة التحرير فقد كانت تتألف على حيـــاة الفقيد من رجال كثيرين نذكر منهم على سبيل المثال :—

أحمد حلمى « صاحب جريدة القطر المصرى فيما بعد » .

وأمين الرافعى « صاحب جريدة الاخبار فيما بعد » .

ومأمون بيومى « من الحقوقيين المعروفين فى مصر » وتوفيق العطار « من الحقوقيين أيضاً » ومحمود سلامه ، ومحمد الكلزة ، ومصطفى نجيب « المفتش بالداخلية وصاحب كتاب حماة الاسلام وقد نشره فصولا متتابعة بجريدة اللواء »والشيخ عبد العزيز جاويش ، ومحمد بك فريد ، وعلى فهمى كامل « شقيق الفقيد » ، وغيرهم كثيرون .

وكانت اللواء تنشر لبعض الشبان من الشعراء قصائدهم الوطنيـة والاجتماعية . ومن أهم هـــؤلاء اسماعيل صبرى ، وأحمد شوقى ، وحافظ ابراهيم ، وخليل مطران ، وأحمد محرم ، والكاشف وغيرهم .

وبعد وفاة الفقيد عام ١٩٠٨ ، رأس تحرير اللواء الشيخ عبد العزيز جاويش ، وأعانه على تحرير الصحيفة كثيرون من محرريها القدماء .

واستمرت اللواء فى الظهور إلى سنة ١٩١٤ . ثم عطلت نهائيا منذ ذلك التاريخ بسبب المؤامرة التى قيل إنها دبرت لقتـــل الخديوى عباس واللورد كتشنر ومحمد باشا سعيد ، واتهم فيها الأستاذ حسن حسنى كامل « أصغر أشقاء الفقيد » برياسة هذه الجماعة التى حكم على أعضائها بالسجن لمدة خمس عشرة سنة . وكان من هؤلاء الأعضاء إمام واكد وطاهر العربى ومحمد عبد السلام وآخرون.

اللواء بين الحاكم الشرعي والحاكم الفعلي

بقيت العلاقات طيبة بين اللواء والخديوى عباس منــذ ظهورها سنة ١٩٠٠ إلى وقت حدوث الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا سنة ١٩٠٤ وفى هذه الأثناء كانت اللواء لا تدخر وسعا فى تحببها إليه وتقربها منه، وكانت حريصة دائما على تهنئته بأعياد الجلوس ، وأعياد الميلاد ، ونحو ذلك من المناسبات المختلفة . وكانت تتخذ من تلك التهانى وسيلة من وسائل توجيه الحكومة المصرية ، وبث روح الوطنية فى نفـــوس المصريين على اختلاف طبقاتهم .

وما برحت اللواء طوال حياتها تناصب الانجليز العداء ، بقدر ما تضمر لعباس الوفاء ، وتضرب فى ذلك المثل الأعلى للوطنية المصرية التى تلقت درساً نافعاً من حوادث الثورة العرابية . ومن ذلك على سبيل المثـــال ما نشرته فى ٩ يناير سنة ١٩٠١ بقلم مصطفى كامل نفسه تهنئة لعباس بعيد جلوسه ، وتعريضاً بالنظار المصريين فى نفس الوقت :

« لو نفقه نظار مصر وحكامها ما للأمير من الآمال الكبار ، وما فى أفئدة الأمــة من الحب والاخلاص لذاته ، وكانوا ممن قرأوا التاريخ ، واعتبروا بعبره ، وخدموا الأمير والبلاد بالصدق والوفاء ، ونزعوا من أنفسهم كل يأس وقنوط ، لكنا اليوم أشركناهم فى التهانى التى نزفها إلى سمو الأمير ، وفرائض الإخلاص والاجلال التى نقدمها اليه ، ولكان الوطن حياهم فى عيد الأمس بخير الشكر والأمتنان . ولكنهم أرادوا وأرادت الايام ألا نخاطب إلا الأمة والامير وأن يكونوا فى عزلة عنا وإنقطاع فى هذا الوجود . فلندعهم إذا فيما هم فيه ، ولنهنىء أميرنا الجليل بأمته العزيزة التى أحبته لصفاته العالية ، ونواياه الطـــاهرة ، وعرفت له جهاده فى سبيل حرية مصر واستقلالها ، وخيانة الدول والرجال له فى أصعب المواقف وأشد الاحوال خطرا

وإن للامير فى تهنئة الأمة السلوة الكبرى . فقد تحولت الأنظار إلى التربية والتعليم ، وفتحت المدارس فى كل صقع وبلد ، ودخل الشعب فى طريق جديد وسبيل سعيد ، من دخله فقيراً خرج منه غنياً ، ومن سلكه ذليلا اجتازه حراً .

وإذا ذكر التاريخ حكم العباس على صفحاته فانما يذكر أنه أول أمير أرشد الأمة إلى محبة الوطن ، وأوقفها على مالها من الحقوق ، وما يجب أن تكون عليه من المجد الجزيل والشرف الأثيل . وحسبه ذلك شرفا وفخارا أمام الشعوب والأمراء »

بهذه اللهجة الحلوة كانت اللواء تتحدث عن العباس ، ولكن بلهجة مؤذية خشنة كانت اللواء تخاطب جبار الاحتلال . وإليك مثلا واحداً من مئات الأمثلة على هذه الأخيرة .

نشر اللورد كرومر كتابه أو تقريره السنوى عام ١٩٠٣ فملأه ثناء على الاحتلال ، واستعرض آثاره فى غضون عشرين عاما من حياته فى مصر . فانبرت اللواء كعادتها للرد على هذا الكتاب فى مقال لها عنوانه . (بعد عشرين عاما) جاء فيه :

وقد طالعنا تقرير جنابه مطالعة باحث يطلب الحقيقة ، فوجدناه يطنب فى الثناء على الاحتلال ، كأنه بهذا المديح أو الاطراء يكتب تاريخ حياته فى هذه العشرين عاما ، ويستلفت النظر إلى عمل هو القائم به وهو المشيد لأركانه (١) .

ماذا يريد المصرى أن يعرف من تاريخ خمس قرن مضى ؟

يريد أن يعلم فى أى حال كانت بلاده ؟ ولأى غاية دخلت انكلترا الديار المصرية ؟ وماذا فعلت فيها ؟ فهل أجاب جناب اللورد فى تقريره على الأسئلة التى يسألها المصرى آنا بعد آن ، وتوردها الجرائد الحرة ؟

---

(١) راجع اللواء بتاريخ ٢٣ ابريل سنة ١٩٠٣

كلا — إنما طاف حول موضوعات راق له أن يمثلها فى أبهى الألوان ، ويزينها بأجمل الأقوال . فرمى الزمن الماضى قبل الاحتلال بكل المعايب ، وخص هذه الأعوام بالحمد والتمجيد ، وفاخر العالم بالمالية المصرية ، وأعلن عدم استعداد المصرى لاستلام أزمة بلاده ، ورغبة بعض المصريين فى ازدياد عدد الموظفين الانكليز ، ونصح الشبان المصريين الذين لم يذوقوا مرارة الحكم الغابر بالتأنى فى الحكم على الحاضر ، والاعتدال فى الثقة بمقدرتهم وكفاءتهم .

وليس هــذا كل مايريد المصريون أن يعرفوه عن حالة بلادهم . إنما يبتغى المصريون أن يعرفوا مستقبل النفوذ المصرى فى الحكومة ، ومصير التربية فى مدارسها ، وحقوقهم أمام الحكام ، والنظام الذى ستسير عليه البلاد لتوطيد أركان الأمن والعدالة فى جميع أنحائها ، ومقامهم فى السودان ، ونصيبهم من الشركة بين مصر وانكلترا .

أعلن الانكليز عند دخولهم هذه الديار أنهم يرمون إلى توطيد عرش الخديوية وتأييد الأمن ، وجعل المصريين أكفاء لادارة شؤون بلادهم الخ . فهل يستطيع جناب اللورد أن يقول إن الاحتلال هو الذى وطد عرش الخديوية المصرية ؟

إننا لا نظن أنه مهما أراد أن يشرح صدور أبناء جنسه يقدر على القول بأن عرش الخديوية وطيد الدعائم والأركان بفضل السلطة البريطانية . ولا نخاله ناسيا أو متناسيا ما جرى من النزاع الشديد بين هـذا العرش السامى وهذه السلطة .

وإذا كان أثر الانكليز فى توطيد السلطة الخديوية ما نراه من موت (الوزارة المصرية) ، وزوال وجودها الحقيقى فى أعمال الديار ، فحق على كل إنسان أن يعلن ســوء سياسة المحتلين ، ويقضى على كل دعاوى الاصلاح والتقدم . لا جرم إذا قال جناب اللورد معنا فى سره ، وان لم

يقل فى جهره إن الاحتلال قتل النفوذ المصرى فى الحكومة قتلا كاملا ، وإن الموظف المصرى مهما سمت مكانته ليس إلا آلة فى يد الانكليز ، وإن نظاما هذا شأنه لا يؤدى مطلقاً إلى إظهار كفاءة المصريين . وأنى لهم ذلك وهم بين مصرى علم قبل الاحتلال بتهمة الانكليز له بالقصور . والتقصير والجهل ، ومصرى تربى فى حجور المحتلين ، فهو يصنع كما يشاؤون ، ويعلم بغير لغة قومه ، ولا تلقى اليه مبادىء الاستقلال فى الرأى ، والشرف الذاتى ، والمطالبة بالحقوق — تلك المبادىء التى لا يكون الرجل رجلا بغيرها » الخ

وعلى هذا النحو سارت اللواء فى تأييد صاحب الحكم الشرعى فى مصر ، ومناهضة الحاكم الفعلى لها . وقد ضربنا على ذلك مثلا واحداً فقط . وسيرى القارىء أمثلة عديدة أخرى ، سيأتى ذكرها فى موضعها من هذا البحث بمشيئة الله .

* * *

وحين أثرت اللواء ، وبلغت مبلغاً عظيما من هذا الثراء ، فكر صاحبها فى تزويدها بمطبعة من المطابع الحديثة . وكان ذلك عام ١٩٠٧ .

يقول الاستاذ محمود عزمى : « وقد ظلت المطابع الصحفية فى مصر هى المطابع التى تدار باليد إلى وقت قريب . وكانت « الجريدة » لصاحبها لطفى السيد أولى الصحف التى استعملت مطبعة مزدوجة تدار بالتيار الكهربائى من نوع Duplex . وكان دخولها فى المطبعة المصرية حادثا فارقا بين عهدين . وكان ذلك سنة ١٩٠٦ . وقد كان هذا الحادث حافزاً للشيخ على يوسف على أن يدخل إلى مصر ما هو أضخم من الـ Duplex فادخل المطبعة العديدة الدورات **Rotetive**

وأقام بمناسبة ذلك احتفالا دعا اليه النظار والكبراء والعظماء . وكان ذلك سنة ١٩٠٧ . ثم كان هذا حافزا بدوره لمصطفى كامل على أن يحذو حذو الشيخ على يوسف فيجلب للواء وزميليه الفرنسى والانجليزى مطبعة

Rotetive فى آخر سنة ١٩٠٧ . ولا تزال المطبعتان قائمتين إلى الآن فى مصر بيعض العمل الصحفى الخ » (١) .

* * *

(وبعد) فهكذا كانت اللواء تدرك عظم المهمة التى ألقيت على عاتقها ، وتحس خطورة الواجب الذى عليها نحو أمتها ، وتقود الرأى العام المصرى أحسن قيادة وأحكمها ، مضارعة فى ذلك أكبر الصحف الأوروبيــــة والأمريكية فى ذلك الوقت .

« قامت فى فرنسا مناقشات حول أحسن الوسائل الدستورية لصيانة الحريات العامة ، وتدعيم الأنظمة المستقرة . فنشر (سينيوبوس) أستاذ التاريخ بالسربون مقالا فى (مجلة باريس) ســـــنة ١٨٩٥ ناقش فيها نظرية فصل السلطات كضمان للحريات ، وذكر فيه أن الجماعات قد استحالت فى القرن التاسع عشر بفضل تقدم العلوم والانتاج المادى والتربية والتعليم والصحافة استحالة سريعة لم يكن منتسكيو (صاحب نظرية فصل السلطات) يستطيع أن يحسب حسابها فيما قدره فى بحوثه من تعاليم .

وختم الأستاذ مقاله بأن تاريخ القرن التاسع عشر قد كشف عن وسيلتين فعالتين يستطيع بهما مقاومة ميول التحكم عند رجال السلطة التنفيذية .

أما الوسيلة الأولى فهى أمة ذات تربية سياسية متعودة دقة الأخبار ، ومطالبة ممثليهـــا ، مجبرة إياهم على أن يؤدوا لها حسابا عما يفعلون ، وأن يقيموا وزنا لارادتها الخ

وأما الوسيلة الثانية فصحافة نشيطة عندها علم كل شىء ، حريصة على أن تبحث وتنشر وتنقد كل أعمال الرجال الذين يتولون الحكم ، وتكون ممتعة بالاستقلال بحيث لا يمكن أن يفرض عليها الصمت ، وتكون من

(١) محمود عزمي : مبادىء الصحافة العامة ص ٥٢

الغنى ومن الكثرة بحيث لا يمكن التأثير عليها عن طريق الرشوة . ومع مثل هذه الأمة ، وبمثل هذه الصحافة تأمن الدولة جميع أصناف الاستبداد» (١)

والحق أن هذا وأكثر منه كان بعض ما أدركه صاحب اللواء حين فكر فى إنشاء جريدته لتنهض بهذا العبء الذى وضعه على كاهلها .

وكان للجريدة منذ نشأتها أهداف واضحة هي التي تحدث عنها محررها ، وفصلها فى العدد الأول من أعداد جريدته .

ونستطيع نحن أن نلخص هذه الأهداف فيما يلى :

أولها — تقوية الحركة الوطنية المصرية .

ثانيها — الدفاع عن الاسلام ضد التهم التى تكيلها لها الدول الاجنبية .

ثالثها — توجيه الرأى العام فى شؤون المجتمع المصرى .

ولقد آثرنا أن نخص كل واحد من هذه الأهداف بفصل من فصول هذا الكتاب ، وذلك قبل أن نصف الأسلوب الكتابى الذى دبج به الكاتب الشاب مقالاته القيمة المنوعة .

* * *

ولكن قبل الخوض فى هذه الأشياء يجمل بنا أن نشير إلى زميلتين عظيمتين لجريدة اللواء . إحداها فرنسيه هي (لتندار إجبسيان) والأخرى إنجليزية هى (ذى إجبسيان ستاندرد) — أصدرهما الشاب المجاهد عقب حادثة دنشواى

وقد أسس من أجل ذلك فى نوفمبر سنة ١٩٠٦ شركة مساهمة لاصدار الجريدتين تألف رأس مالها من عشرين ألف جنيه اكتتب بها كثيرون من صفوة المصريين فى ذلك الحين .

وقامت الجريدتان بالواجب الذى أنشئتا من أجله يومئذ ، وهو الدعاوة لمصر وقضيتها فى أوروبا ، وإطلاع الرأى العام الأوربى على حقيقة

(١) المصدر المتقدم ص ٥٤ـ ٥٥

الاحتلال البريطانى وعلى فضائحه أيضاً .

وكم أرغى اللورد كرومر لهاتين الجريدتين وأزبد ، وراح يزعم لأوربا كلها أن الجريدتين معاً من وحى الخديوى عباس وأنه ينفق عليهما من ماله الخاص ، ورد الزعيم الخالد مصطفى كامل على ذلك بأن نشر أسماء المساهمين فى هذا المشروع العظيم . (١)

وظهرت الجريدتان فعــــلا فى مارس ١٩٠٧ وكانت الانجليزيه تصدر فى الصباح والفرنسية تصدر فى المساء .

---

(١) راجع هذه الأسماء فى كتاب (مصطفى كامل) باعث الحركة الوطنية لعبد الرحمن الرافعى ص ٣ ٢

الفصل السادس

اللواء والاسلام والدولة العلية

فى مساء اليوم السابع والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٠٧ أقيم إحتفال بفندق الكونتنتال بالقاهرة لمرور ستمائة وثمانى سنوات على تأسيس الدولة العثمانية . وحضره كثير من أعيان المصريين وبعض الأجانب وفى مقدمتهم الكاتب الفرنسى بيير لوتى . وقام صاحب اللواء خطيباً فى هذه الحفلة فحيا الدولة العلية أجمل تحية . ووصفها بأنها حامية الاسلام وأنها دولة العفو والغفران ، ودولة الرحمة والاخاء والحرية والمساواة بين بنى الانسان . ذلك أن السلاطين العظام قد ساروا على الخطة التى رسمها لهم صاحب الشريعة الاسلامية ، وهى خطة الخلفاء الراشدين ، وخطة كبار ملوك المسلمين . فساروا فى أعظم طريق ، وهذبوا أحسن شعب ، وسجلوا أجمل تاريخ .

ثم قال : نسمع الناس فى كل يوم يقولون إن بلاد الدولة العلية بلاد عظيمة فيها المناجم ، وفيها الخصب ، وفيها العقول القوية ، والنفوس العالية السامية . فما هو السبب الذى أوقف سيرها ؟

وقد أجاب دولة البرنس حيدر باشا فاضل على هذا السؤال بقوله الآن « إن السبب فى ذلك الوقوف هو الشقاق والافتراق . فاليوم الذى نسود فيه جميعاً هو اليوم الذى يكون فيه السورى والكردى والتركى والألبانى والأناضولى متضامنين متكاتفين مدافعين عن أمتهم إلى آخر نفس من حياتهم ، ليكن الدين للاتفاق لا للشقاق ، وليكن سبباً للتقدم لا للتأخر .

ولكن إذا كان كل فرد من أفراد الأمة العثمانية يقول (نفسى ولو كان بعدى الطوفان) أو يقول (أنا روسى السياسة أو فرنسوى

السياسة أو انجليزى السياسة ، ولا يقول إننى عثمانى السياسة فلا أمل إذن فى الارتقاء ، لأن هذا الارتقاء لا يكون إلا بإيجاد الوحدة العثمانية الخ » .

ثم قال الخطيب : لا بد أنكم جميعاً سمعتم فى الشتاء والصيف والخريف والربيع المنتقدين علينا يقولون :

ما بال المصريين يحبون الأمة التركية ، ويتفانون فى تعشقها ، ولا يألون جهداً فى إعلان ذلك الحب؟

فنحن الآن نجيب على هذا السؤال فنقول :

إننا نحب الدولة العثمانية لأننا قبل كل شيء نريد أن نرى أمة شرقية قوية تصدر منها الأنوار إلى كل أمة شرقية . نحبها لأننا بصفتنا مسلمين نرى أنها تحمى المسلمين فى الشرق ، وتحفظ البلاد الطاهرة المقدسة . فمملكة الخلافة الاسلامية هي فى الحقيقة مملكتنا ، وقبلتنا التى اليها نلجأ ونحوها نتجه . وإذا قصرنا فى واجب نحوها نكون بلا ريب قصرنا فى أعظم واجب . نحب الدولة العلية لأنها يوم رأت محمد على والعلماء فى مصر يطلبون أميراً يحكمهم باستقلال احترمت تلك الدولة شعورهم ، وقدرت حبهم للاستقلال حق قدره ، ومنحت الشعب المصرى إستقلالا لا يزال هو مطمحنا إلى الآن . ولا يوجد فى مصر أيها السادة رجل يود أن يبيع استقلال بلاده ، تلك البلاد العزيزة التى تضم عظام أجداده وآبائه . ويستحيل علينا أن يطلب واحد منا مالكا أجنبياً عنا . فنحن لانود إلا أن نكون قوة محالفة للدولة العلية تنصرها وتنصرنا . ونعتز بها وتعتز بنا .

ثم ختم الخطيب كلمته بالهتاف عاليا : لتحى الدولة العليــة ، ولتحى مصر . وردد الحاضرون هتافه .(١)

معنى ذلك أن مصطفى كامل ومعــه الكثرة الساحقة من الوطنيــين المستنيرين فى مصر إلى ذلك الوقت كانوا يعلنون ميلهم إلى تركيا لأمرين :

(١) مجلة العالم الاسلامي العدد ٩٢ السنة الثانية ـ يناير سنة ١٩٠٧

الأول — نظرهم إلى الدولة العلية على أنها زعيمة الاسلام ، وحامية المسلمين ضد الدول الأوربيـة التى كانت لم تزل إلى ذلك الوقت تنظر إلى المسلمين جميعاً فى مشارق الأرض ومغاربها نظرة صليبية .

والثانى — اعترافهم بالجميل الذى أسدته تركيا إلى الأمة المصرية حين منحتها استقلالها ، ووافقت على الأمير الذى اختارته بنفسها وهو محمد على .

وقد لا يعنينا الأمر الثانى من هذين الأمرين بقدر ما يعنينا الأمر الأول . وهو نظر المصريين إلى الدولة العلية على أنها زعيمة العالم الاسلامى ولا بد لهذا العالم من قوة يواجه بها زحف الدول الاوروبية المسيحية ، وتوغلها فى البلاد الاسلامية .

والحافظون للتاريخ يعرفون أن هذه الدول الأوروبية كانت منذ دخولها، فى الشرق تحسب حسابا عظيما لهذه الحركات الاسلامية التى يقوم بها هذا الشرق ، والتى قد تؤدى يوماً ما إلى نشوب حرب صليبية تزيد من مشاكل أوربا ، وتضع العراقيـل فى طريقها إلى تنفيذ خطتها الاستعمارية . وذلك هو السبب فى أنه كثيراً ما أوجس السياسيون الأوروبيون خيفـة من حركة (الجامعة الاسلامية) أو تظاهروا على أقل تقدير بالخوف من تلك الحركة . فمنهم من كان يؤكد حدوثها ، ويفسر كل حادثة تحدث فى البلاد الاسلامية على أنها تمهيد لها ونذير بنشوبها . ومن هؤلاء اللورد كرومر نفسه فى كثير من تقاريره وأحاديثه .

ومن السياسيين من كانوا يرون أن الدول الاسلامية أضعف من أن تقوم بحركة (جماعية) . وكان هؤلاء السياسيون يدركون الهدف الأول لكل حركة من تلك الحركات الاسلامية فى كل بلد من البلاد الشرقية . ويرون أن هذا الهدف بعيد فى جوهره عن فكرة الجامعة الاسلامية ، متصل كل الاتصال بحاجة من حاجات هـذا البلد الشرقى أو ذاك من بلاد الجامعة الاسلامية . وكثيرا ما صدرت جريدة اللواء أو جريدة المؤيد وفى فاتحة

كل منها مقالة من هذا الطراز ترجمت من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية .

وإلى القارىء نبذة صغيرة من مقال نشرته جريدة التريبيون الانجليزية بعنوان (أوربا والاسلام) ، (وذلك في عـددها الصادر في ٢ يناير ١٩٠٧) وقامت مجلة العالم الاسلامي بترجمته إلى العربية . (١)

استعرضت هذه الجريدة الانجليزية حركات المسلمين في مراكش ومصر والهند وايران ، ثم قالت :

فني مراكش أصبح المراكشيون مقتنعين تمام الاقتناع بعجزهم عن مقاومة أوربا ذات الجيوش المسلحة المنظمة ، لأنهم لا يجدون وراءهم قوة تشد أررهم ، وتسند ظهرهم ، وتقوى شأنهم . وعلى ذلك فالظن بامكان حدوث حركة إسلامية في مراكش ظن بعيد عن الاحتمال . وجدير بمن يتمسك به أن يرمى بالجنون والطيش . ولو أن بعض ما يقال عن الجامعة الاسلامية كان حقا لاستدعى سير السفن الفرنساوية الأسبانية إلى مراكش هياج العالم الاسلامي كله ، ونهضة المسلمين عن بكرة أبيهم للدفاع عن إحدى ممالكهم ، ولقام السنوسى يدعو المسلمين إلى الجهاد الخ .

وقد دل عدم حدوث شيء من هذا على أن تلك النهضة ـ وإن كانت موجودة في الأقطار الاسلامية ـ فليست بحال من الأحوال موجهة ضد المسيحيين ، وليست حركة تعصب مطلقاً .

أما مصر ففيها حركة وطنية ـ ولـكن هذه الحركة لا عـــلاقة لها بالدين ، وإن كان المصريون مسلمين ، ذلك أن الأمة المصرية نهضت للمطالبة بدستور ومجلس نيابي (كما يقول رجالها المعتدلون) وبوفاء وعود المستر غلادستون (كما يقول رجالها الأشد غيرة وتحمسا) .

وأما في الهند فالحركة عبارة عن نهوض المسلمين لتأليف جمعية أو اتحاد يحث بعضهم بعضاً على الائتلاف وتحسين حال التعليم . وقد يشتم من خطتهم

---

(١) المصدر المتقدم

الميل لمقاومة حركة الهندوس المتطرفين . وقد دل برنامج هذا الاتحاد على أن أعضاءه متفانون فى الطاعة لانجلتره ، وأن إخلاصهم وإعتدالهم يعادلان هياج الهندوس وتطرفهم .

وأما فى ايران فالحركة الدستورية قد ازدهرت قوتها فى هذه الأيام الأخيرة . ولكن لايمكن أن تكون لها بالحركتين المصرية والهندية أدنى علاقة لسبب بسيط جداً ، وهو أن دين العجم يخالف دين المسلمين الأصليين مخالفة ظاهرة . (١)

ولسنا نرى فى هذه الحركات كلها شراً موجها نحو المسيحية ، فضلا عن خلوها بالمرة من روح التعصب المذموم .

إن نهضة تلك الأمم ترمى إلى تفسير القرآن بحيث يفهمه الكل والمسلمون فى الحقيقة الآن يعملون ما كان يعمله المسيحيون للتوفيق بين العلم والدين . وبالجملة فهذه الحركة التى نراها الآن حركة سلمية ، غرضها مسالمة التعاليم الغربية التى هجمت على مصر هجمة واحدة . وغرضها تنقية دين الاسلام مما علق به فى الماضى ، مما كان سبباً فى اتهام أهله بالتعصب وبغض الغير . فاذا قيل لنا إن الوطنيين المصريين متعصبون فيكفينا أن نذكر أنهم الآن يجمعون مالا لتأسيس جامعة حرة تسير على خطة جامعة عليكرة الهندية . وهذه الجامعة سوف تحارب التعاليم المتأخرة التى تخرج من تأثير الجامعة المصرية القديمة المسماة (بالأزهر) .

وربما كانت الحركة المصرية حركة سياسية محضة ، لأننا لما دخلنا مصر وجدناها فى يد حكومة دستورية ، ولا يزال تأثير هذه الحكومة الدستورية إلى الآن ظاهراً للعيان . ولكن المصريين الوطنيين يطالبون بالمطالب التعليمية نفسها ، ويحاربون المسلمين من ذوى الأفكار القديمة التى عرضتهم للفشل ولمزاحمة الأجانب المتعلمين ، كالسوريين واليونانيين .

---

(١) ردت مجلة العالم العربي على ذلك بعبارة كتبتها بين قوسين وهى (هذا غير صحيح فكلنا مسلمون)

وقد يمكن أن يقال إن إختلافهم مع وكلائنا سبب إتحادهم مؤقتاً مع تركيا . وقد يمكن أن يقال إنهم بمحاربتهم لأجل تحقيق أفكارهم الوطنية اضطروا كما اضطر من يماثلهم إلى التطرف والحدة . ومع هذا وذاك فان نفوسهم نفوس أحرار . ويستحقون مد يد التعضيد والانعطاف ، كما مدت فرنسا يدها لأمثالهم من المسلمين فى تونس » « انتهى المقال »

قرأ مصطفى كامل كل ذلك ، وفكر تفكيراً عميقاً فى كل ذلك ، ثم كتب يقول :

« الخلافة الاسلامية هى لكل مسلم السلطة العالية التى يستمد منها القوة والنور والهداية ، والحصن الحصين الذى يصان به الاسلام ، ويعتز بين المسلمون ، والقائم بأمرها ، والعامل لاعلاء شأنها ، فيجب أن يكون موضع إجلال كل مسلم . ويجب مساعدته وتعضيده بالنفس والنفيس ليتم له الغرض الشريف الذى يعمل لتحقيقه ويسعى لبلوغه . وقد أدرك الأوروبيون قوة الخلافة الاسلامية ومعنى سلطتها على المسلمين فسعوا لحل عقدها ، وتقويض أركانها ، وتدمير بنائها ليسهل لهم استعباد أبناء الدين الاسلامى الكريم ، وإمتلاك بلاده وربوعه ، والاسترسال فى الاعتداء على الدولة العلية . الخ »

ومصطفى كامل هو القائل فى كتابه (المسألة الشرقية) : (١)

« والحقيقة أن بقاء الدولة العلية ضرورى للنوع البشرى ، وإن فى بقاء سلطانها سلامة أمم الغرب وأمم الشرق » ثم هو القائل :

« ولقد أحس الكثيرون فى أوربا من رجال السياسة ومن رجال الأقلام أن بقاء الدولة العلية أمر لازم للتوازن العام ، وأن زوالها — لا قدر الله — يكون مجلبة للأخطار أكبر الأخطار ، وأن هدم هذه

---

(١) المسألة الشرقية ـ الجزء السابع من كتاب مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعا ـ لمؤلفه على فهمى ص ١٦

المملكة القائمة بأمر الاسلام يكون داعية لثورة عامة من المسلمين، وحروب دموية لا تعد بعدها الحروب الصليبية إلا معارك صبيانية »

ومع هذا وذاك فقد كان هناك رأى آخر مخالف لرأى صاحب اللواء فى هذه المسألة . وكان القائل بهذا الرأى هو الأستاذ احمد لطفى السيد صاحب « الجريدة » . لسان حال حزب الأمة . وكان من رأى ذلك الحزب أن مصر لا ينبغى لها أن تربط نفسها بعجلة الأمبراطورية العثمانية، وأن من الخير لها أن تستقل بنفسها عن تلك الأمبراطورية . ولكن يظهر أن هذه الفكرة كانت مبكرة ، وأن صاحبها الأستاذ احمد لطفى السيد كان سابقا للوقت الذى ظهرت فيه بزمن غير يسير . ومن ثم كان الرأى العام المصرى أميل إلى رأى صاحب اللواء منه إلى رأى صاحب الجريدة ؛ وإن ظهر فيما بعد أن الأخير كان صائب النظر فيما ذهب اليه . ولا يتسع المجال هنا للموازنة التامة بين هذين الرأيين ، ومقارنة ذلك بالظروف المحيطة بهما . فمكان ذلك الجزء السادس من كتابنا إن شاء الله .

* * *

هكذا نرى أن كثرة المصريين أخذوا يغلفون الشعور الوطنى بغلاف إسلامي . وذلك منذ عهدهم بالأفغانى وعرابى ومحمد عبده ورشيد رضا ثم منذ عهدهم بابراهيم المويلحى وعلى يوسف ومصطفى كامل . وكان كل واحد من هؤلاء يتجه فى حركته الاصلاحية التى قام بها إتجاها إسلاميا لا شك فيه . كما كان كل واحد من هؤلاء يرى فى إحياء الاسلام الوسيلة الوحيدة للنهوض بجميع الشعوب الضعيفة التى تعتنق هذه العقيدة .

أجل كانت (حركة إحياء الاسلام) غالبة فى أول الأمر على (حركة الوعى القومى) وذلك فى كل بلد من البلاد الشرقية الاسلامية ومنها مصر . ولكن بقى المصريون على هذه الحال حتى جاء مصطفى كامل وأمال

بكلتا يديه قصبة الميزان ، فرجحت كفة الوعى القومي على كفة الوعى الاسلامى . ولعل ذلك بعض ما عناه الخديوى عباس حيث قال :

« كان مصطفى كامل قد جرد وطنيته من كل رداء دينى . ولكن ظل متدينا ومتعلقا بروح القرآن . أما على يوسف فانه برغم ثقافته الدينية البحته قد عرف كيف يتخلص من الطابع الاسلامى الذى بقى عند مصطفى كامل . ومع أن الأخير تربى فى أوربا فقد كان يستخدم النظريات الأوروبية كوسيلة ، ولكنه لا يعتبرها غاية فى ذاتها » . (١)

ونحن نرى أن مصطفى كامل مزج — فيما نرى — عقيدته الوطنية بعقيدته الدينية مزجا ليس إلى إنكاره من سبيل . وقد أوضحنا ذلك فى فصل عنوانه « العقيدة السياسية عند مصطفى كامل » . ومن هنا جاءت عناية الرجل بالاسلام والمسلمين كما جاء اهتمامه بالدولة العلية على أنها حامية هذا الدين .

وهنا يجدر بنا أيضا أن نجيب عن سؤال يتردد فى أذهان المهتمين بسيرة هذا الزعيم . وهذا السؤال هو :

ألم يكن فى وسع مصطفى كامل أن يتخلى عن فكرة السيادة العثمانية تخليا تاما ، ويدعو إلى استقلال مصر استقلالا كاملا ؟

أجاب الأستاذ عبد الرحمن الرافعى عن هذا السؤال فى فصل كتبه تحت عنوان (٢) (مصطفى كامل وتركيا) . ويمكن تلخيص هذا الفصل فى النقط التالية:

أولا — أن مركز مصر الشرعى إلى الحرب العظمى سنة ١٩١٤ . كانت تحدده معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ . وأهم أحكام هذه المعاهدة الاعتراف باستقلال مصر المكفول من الدول ، وضمان عرش مصر فى أسرة محمد على وبقاء السيادة العثمانية عليها . وحين وقع الاحتلال البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢ عصف بالاستقلال الذى تعترف به هذه المعاهدة ، ونزل بها إلى مرتبة

(١) مذكرات الخديوى عباس كما نشرت بجريدة المصرى بتاريخ ١٤ مايو سنة ١٩٥١
(٢) هو الفصل الثامن عشر من كتاب مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ٢٩٠

المستعمرات التى للحاكم العام البريطانى مطلق التصرف فيها . وعلى هـــذا فالتمسك بهذه المعاهدة هو السبيل الوحيد لمطالبة الانجليز بالجلاء ، وعدم التمسك بها يجعل الانجليز فى حل من فرض حمايتهم على مصر .

ثانيا — أنه حين قام مصطفى كامل يدعو دعوته الوطنيـــة كان عليه أن يكافح فى جبهة واحدة ضد انجلترا ، لا فى جبهتين ضدها وضد الدولة العثمانية فى وقت معا . أى أن عدم التعرض للسيادة العثمانيـة وقتئذ كان هو الخطة الحكيمة لمن أراد مناهضة الاحتـــلال البريطانى والعمل فى سبيل الجلاء والاستقلال الحقيقى . أما التخلص من السيادة التركية فانه يكون بعد ذلك أمرا فى غاية السهولة . فلقد سقطت هذه السيادة من تلقاء نفسها فعلا عقب الحرب العظمى وقبول تركيـــا مبادىء الرئيس ولسن سنة ١٩١٨ .

ثالثا — أن للمسألة المصرية شكلا دوليا لا يمكن إغفاله بحال ما . وكل إنسان له إلمام بسيط بالسياسة والتاريخ يعلم أن مسألة مصر كانت دائما دوليـة ، لأن مركز مصر يقضى على الدول بالاهتمام بها . وقد أخذت الدول تطلب إلى المانيـــا أن تغير خطتها حيال المسألة المصرية ، وتدعوها إلى الاهتمام بها بدلا من إهمالها . وذلك لأهميـة قناة السويس ، وما يكون للدولة التى تضع يدها عليها من النفوذ والقوة . ومن ثم بنيت سياسة مصطفى كامل على ترقب الحوادث الدوليـة ، وضرب بعضها ببعض لترجح القضية المصرية من وراء ذلك .

رابعا — أن فى وسع تركيا — لو أرادت — أن تعقـد مع انجلتره اتفاقا وديا كالاتفاق الذى عقد سـنة ١٩٠٤ بين فرنسا وانجلتره . ويومئذ تزداد المسألة المصرية تعقدا ، ويصعب حلها مدة كبيرة جدا من الزمن .

وعلى ذلك جرت سياسة الزعيم الشـاب مصطفى كامل ، وعنه صدرت جميع مقالاته وخطبه وأحاديثه ، ورسالاته ومذكراته .

من ذلك على سبيل المثال ما كتبه الرجل فى اللواء بتاريخ (٦ اكتوبر سنة ١٩٠٦) ردا على جريدة أوروبية حيث قال :

« لقد أخطأ المحرر كثيرا بقوله إننا نريد حرية مصر لاعادتها إلى حكم الأتراك . فقد صرحنا ألوف المرات بأننا نريد مصر للمصريين ، وبأن انعطافنا أو نفورنا من دولة لا يؤثر شيئا على هذا المبدأ الرئيسى لحياتنا أو أفعالنا . ولست أجد لافحام خصومى غير طرح هذا السؤال البسيط : ماذا يكون مصير البلاد المصرية لو تنازلت تركيا عن حقوقها لانجلتره ؟ أو تعاهدت معها على ذلك بمعاهدة شبيهة بالمعاهدة الفرنسية الانجليزية ؟ . . وإذا كانت الدول العظمى قد اتبعت الآن سياسة التحالف ، فمن ينكر على مصر المظلومة المهضومة إتباع هذه الخطة ؟ »

وكثيراً ما صرح مصطفى كامل أن سياسته تقوم على محاسنة الدولة العلية ، وعلى التحالف معها لا لشىء إلا لأن فى ذلك الضمان الوحيد من الوقوع فى الكوارث التى تسببها ألاعيب الانجليز من وراء (الكواليس) كما يقول رجال المسرح الحديث .

وقد أوضح الرجل طرفا بسيطا من هذه الألاعيب الانجليزية الخطيرة فى حديث له مع مراسل جريدة النيويورك هيرالد الأمريكية (١) حيث قال :

« إن سياسة مصر نحو الدولة العثمانية — وهى السياسة التى يجرى عليها الوطنيون الصادقون — هى سياسة حسن التقرب منها ، وتوطيد العلاقات الحسنة معها . والتاريخ يعلمنا ألا نتبع حيالها غير هذه السياسة ، لأنه إذا كان الانجليز قد احتلوا مصر فالسبب فى ذلك ولا شك هو النفور والخصام اللذان كانا مستحكمين قبل الاحتلال بين السلطان والخديو السابق توفيق باشا . وقد نجح الانجليز فى التفريق بينهما باتباع سياسة ذات وجهين . فأفهموا السلطان وقتئذ أن خديو مصر عدو له يعمل

---

(١) نفس المصدر المتقدم ص ٧٠ ، ص ٢٩٣

لاسقاطه عن عرش الخلافة ليجلس هو عليه ، كما سعى لذلك من قبل جده الأكبر محمد على . وأفهموا المرحوم توفيق باشا من جهة أخرى أن السلطان يعمل ضده ، ويسعى لخلعه عن كرسى الخديوية ليعيد مصر ولاية عثمانية . فلما قامت الحركة العرابية رأى الانجليز من تمام المهارة وتوسيعا لهوة الشقاق أن يبرهنوا للخديو على كراهية السلطان له . فسعوا عند السلطان — سعى الصديق حتى حملوه على تقليد عرابى الوسام العثمانى الأول . وكان عرابى يدعى يومئذ بأنه المدافع عن حقوق السلطان فى مصر وقد أوغر هذا الأمر صدر الخديو توفيق ، وألقاه فى أحضان الانجليز . وها هم الانجليز الآن يعملون جهد استطاعتهم للتفريق بين الخديو والسلطان ولكن ما نعهده فى أميرنا الحالى عباس الثانى من التبصر والحكمة والوطنية يحقق لنا أنه يعمل دائماً لتأييد سياسة المحاسنة والتقرب من الدولة العثمانية ، وهى السياسة التى فى اتباعها سلامة الكرسى الخديوى وسلامة الوطن المصرى . »

ومع هذا وذاك فلا يبعد فى نظرنا أن يكون الشاب مصطفى كامل فى أولى سنى جهاده مؤمنا بالسيادة العثمانية . ثم عدل بعد ذلك عن هذه السياسة حين ظهر له خطؤها أولا وأنها لا تتفق والرأى العام الذى أصبح له وجود ما بعد ذلك . يدلنا على هذا قول الخديو عباس فى مذكراته :

« وقد انزلق مصطفى كامل فى أثناء قيامه بدعايته إلى إدراك خاطىء للوطنية المصرية . وكان التقرب الذى ينشده مع تركيا يتخذ صورة أقرب إلى التنازل منها إلى الأمل . ولكنه عندما وجد من يفهمه ذلك استبدل بسياسته التى كانت تركية الطابع إلى حد كبير إدراكا وطنيا سليما . وقد تطور ببراعة فائقة جعلت تلاميذه يتبعونه دون أن يفطنوا إلى الخطأ الأول (١) » .

---

(١) راجع جريدة المصري بتاريخ ١٤ مايو سنة ١٩٥١

يجمل بنا بعد كل ذلك أن نلقى نظرة عامة فى أعداد اللواء لنعرف الحيز الذى شغله الاسلام بهذا المعنى من صفحاتها ، ونرى الطريقة التى عرض بها صاحب اللواء أفكاره الاسلامية فيها ، ثم نتبع هذا كله بمقال أو اثنين على سبيل المثال .

أما عن هذا الحيز الذى شغلته المقالات الاسلامية فى صحيفة اللواء فان نظرة عجلى إلى أعدادها فى السنوات الثمانى الأولى من حياة الرجل تدلنا بوضوح على أن المقالات ذات الطابع الاسلامى كانت هى السائدة على الصحيفة فى العامين الأولين من حياتها على الأقل . ثم أخذت هذه المقالات تقل شيئا فشيئا ، وتزداد عناية الصحيفة بالمقالات الوطنية والاجتماعية شيئا فشيئا ، حتى كانت السنة الأخيرة من حياة اللواء على عهد مؤسسها مصطفى كامل فوجدنا أن النسبة بين الاسلاميات من جهة والوطنيات من جهة ثانية كالنسبة بين عشر مقالات للنوع الأول ومائة مقال للنوع الثانى

ففى السنة الأولى نجد مقالات

سلامة الدولة العثمانية — اتحاد كلمة المسلمين — مصلحة الدولة العلية — أوروبا والاسلام — من الرجل العليل — ناموس الترقى فى الاسلام — كيف يقوى الاسلام من ضعفه — كلمات فى سبيل الاسلام — كيف يحيا الاسلام — كيف قامت الدولة العلية — المدنية الغربية والاسلام — سلامة الاسلام — مسألة بلغاريا — قوة الخلافة الاسلامية — أخبار مؤتمر اسلامى — أعداء الاسلام — فرنسا والاسلام — مصر والاسلام — كيف كانت حالة العالم لو لم يفتحه المسلمون — السر فى بقاء الدولة العلية الى ما شاء الله — الأسلام والتعصب عدوان — من الجانى على الاسلام والمسلمين — بم نقيم البرهان على سمو الاسلام — شكوى المسلمين فى البوسنه والهرسك — مسلمو البوسنه والهرسك — دعوة عامة إلى المسلمين — الحركة الاسلامية الموهومة — كلمات فى سبيل الاسلام — عيد الخلافة والاسلام — قوة الخليقة بين المسلمين — الاسلام أمس واليوم —

مصر والدولة العلية — الخلافة والاسلام — هل ينشط الاسلام — بقاء الدنيا موقوف على بقاء الدولة العليــة — تأثير الأراجيف على عقول المسلمين — كيف يحيا الاسلام — الروح الجديدة فى الاسلام — أوروبا وتهمة التعصب الدينى — المسلمون والاسلام — سياسة فرنسا فى الجزائر — العروة الوثقى — الاسلام والامير عبدالرحمن — الدين والجامعة — كيف تغلب الغرب على الشرق — المسلمون فى الصين .

ثم فى السنة الثانية نجد مقالات :—

الدولة العلية ومسلمو الصين ـ أوروبا والاسلام ـ المسلمون فى جاوة ـ شـكوى المسلمين فى تونس ـ السلطنة والدين والاستعمار ـ المسألة الصينية والاسلام ـ الاسلام فى افريقيا ـ الاسلام دين التسليم ـ شـكوى إلى أمير المؤمنين ـ الحالة فى البلقان ـ حديث مع أمير الجبل الأسود ـ الاسلام فى الصين ـ المرأة المسلمة ـ مصلحة الاسلام ـ حركة علميــــة بين المسلمين ـ مقابر المسلمين ـ يقظة أفـكار المسلمين ـ تأثير الخــــلافة على المسلمين ـ المسلمون فى الجزائر — تأثير دعوته صلى الله عليه وسلم — مسألة اليوم فى الدولة العلية — أثبات ضعف الحكومات الاسلامية — تأثير الدين على الأخلاق المحالفات الأوروبية فى البلقان — دعوا تركيا والاسلام — ماذا يؤمل الاسلام — التبشير والاســلام — الارشاد للدين (كلمة لمشيخة الأزهر) — الروسية والدولة العلية — الخلاف بين الباب العالى وفرنسا — تركيا وفرنسا وجلالة السلطان — بين المسلمين — أوروبا والاسلام — مستقبل الاسلام — حالة المسلمين المسلمون فى الصين — القضاء والقدر — اوروبا والاسلام — هل ينشط الاسلام مستقبل الاسلام .

وفى السنة الثالثة من حياة اللواء نجد مقالات : —

مصالح الدولة والاسلام — الانشاء والخطابة فى الاسلام — إلى بنى الاسلام مستقبل الاسلام — المسلمون فى البوسنة — رجوع أوروبا إلى الاسلام —

نابليون والاسلام — الوطنية العثمانية — الاسلام بالسلطان— الجناب العالى والاسلام—التحالف الثلاثى والحالة فى البلقان — الاتحاد الاسلامى—مسألة الخلافة—مسلمو البوسنة والهرسك — سلامة الدولة العلية— شكوى مسلمى كريد ـ انجلتره والاسلام—الشيخ سنوسى بالدين سخيا—المسلمون فى زنجبار —المسلمون فى الروسيا—غاية أوروبا من الاسلام—الدولة العلية وبلغاريا — فرنسا والاسلام— اعتراف مسلم — أوروبا والاسلام — المسلمون والاسلام ـ أوروبا والاسلام .

وفى السنة الرابعة : —

رجوع أوروبا إلى مبادىء الاسلام — الانجليز والاسلام — الانجليز وجهود المبعوثين المسيحيين—الدين والسياسة — حقوق المسلمين فى مصر — مولد النبي عليه الصلاة والسلام — مسلمو الجزائر — ما معنى التعصب — العلم والاسلام—قوة الخليفة—الاسلام والاستقلال—كيف ترفع راية الاسلام— عيد الاسلام والمسلمين — بين أمريكا ودولة الاسلام — الجامعة الاسلامية — اوروباوالاسلام—غاية اوروبا من الاسلام—سفينة الإسلام—الوحدة الاسلامية— تعصب الصليب ضد الهلال—الاسلام . الاسلام— اضطهاد الصليب للهلال — مصلحة الأسلام— مسألة مراكش— انجلتره والاسلام— استيلاء الانجليز على بلاد النيجر الشمالية الاسلامية — (أيها الحكام سارعوا الى رد هذا الاعتداء عن الاسلام) — فظائع هولندة ضد المسلمين — هولنده والمسلمون.

هـذا — وقد امتازت تلك السنة من حياة اللواء بكثرة الكتابة فى المسألة المقدونية ، وهى فرع من فروع المسـألة الشرقية ، حتى بلغ عدد المقالات التى كتبت فى هذا الموضوع أكثر من خمسين مقالة فلا حاجة بنا إلى ذكر عنواناتها .

وفى السنة الخامسة : —

الاسلام : ماضيه وحاضره— انعطاف المسلمين نحو الدولة العلية — استبداد

النمسا بمسلمي البوسنة والهرسك — لكم دينكم ولي دين — رفع دفاع المؤيد (عن مجلة بشائر الاسلام الطاعنة على دين الاسلام) — الحروب الحاضرة والاسلام — المسلمون في روسيا — المراكش في أمان — مسلم صيني — فوضى المبشرين — نجوى المسلمين لأمير المؤمنين — ارزاء المسلمين — المسألة المراكشية — مستقبل الاسلام في العالم — المجاهرة بالالحاد (ونكران الأديان) — ثلاثون عاما في الاسلام — طريق من الورد وطريق من الشوك : أيهما تسلك الدولة العلية — الأسطول الأسلامي — مصر والشرق والاسلام — مستقبل المسلمين — الخلافة والمسلمون — لاعانة الاسطول الاسلامي — مصر والاسلام واليابان — الخلافة والانجليز — المسلمون في روسيا

وفي السنة السادسة : —

ممالك الاسلام — فرنسا في مراكش — اللغة العربية ودولة الاسلام — المسلمون في روسيا — فرنسا والاسلام — الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية — مستقبل مراكش — الاسلام والاتحاد — المسلمون يأكل بعضهم بعضا — الغربيون والممالك الاسلامية — المسلمون في تركستان — بين مسلمي الهند — الأزهر والاسلام — مسلمو الصين — الشعور الاسلامي حيال عيد الجلوس السلطاني — رأي المسلمين في المسألة المراكشية — مسلمو الصين — أنفع سياسات المسلمين — الأسلام في اليابان — السياسة الفرنساوية والعالم الاسلامي — الامبراطور غليوم والاسلام — التنصر بالقوة — أوروبا والدولة العلية — لماذا تناهض أوروبا الدولة العلية — اتفاق دول وأمراء الاسلام — عداوة انجلتره للاسلام — الشعور الاسلامي — الازمة المقدونية

وفي السنة السابعة : —

الشعور الاسلامي — في سبيل الاسلام — الدولة العلية وانجلتره — مسألة الخلافة العربية — المسلمون في الجزائر — المسلمون المصريون — المسلمون والاحتلال — الامبراطور غليوم والاسلام — مسلمو الهند ومسألة طورسينا —

الجامعة الاسلامية — فرنسا والاسلام — عمل إسلامى جديد — الجامعة الاسلامية — بريطانيا والاسلام — انجلتره والجامعة الاسلامية — حركة الجامعة الاسلامية فى مصر — الجامعة الاسلامية — بريطانيا العظمى والاسلام

وفى السنة الثامنة :—

الجامعة الاسلامية والمسلمون فى شمال أفريقيا — الممالك الاسلامية والدولة العلية — المانيا والاسلام — نهضة الاسلام — نظرة فى تقرير اللورد كرومر من الوجهة الدينية — الشرق فى الاسلام — الجامعة الاسلامية — يقظة الشعوب الاسلامية — أصوات مرفوعة إلى جلالة أمير المؤمنين .

* * *

تلك هى مجموعة المقالات التى نشرتها اللواء فى موضوع المسلمين والاسلام . ولا يفوتنا أن نضيف اليها تلك المقالات التى نشرتها هذه الصحيفة بعنوان (حماة الاسلام) ، وبعنوان (بم نقيم البرهان على سمو الاسلام) وهى نوع من الدفاع عن الجانب الروحى فى العقيدة الاسلامية ، وبعنوان (عيد الخلافة والاسلام) وهى مجموعة التهانى التى درجت اللواء على أن تبعث بها إلى السلطان العثمانى كل عام فى عيد ميلاده ، وبعنوان (بريد الاسلام) وفيه تعنى اللواء بأخبار المسلمين فى جميع أنحاء العالم الاسلامى.

* * *

أما الطريقة التى عرض بها صاحب اللواء كل هذه الأفكار فكثيرة. منها التقرب إلى بعض الشخصيات الأوروبية الهامة التى اشتهرت بميلها إلى الشرق والاسلام واستكتابها أحياناً فى هذه الموضوعات . ومنها الافاضة فى سير عظماء الاسلام وتناول هذه الشخصيات بالعرض والتحليل ليعرف المسلمون ماضيهم ، ويدركوا شيئاً من جوانب العظمة الحقيقية فى كل واحد من أولئك الرجال . ومن ثم مضت اللواء تنشر مقالات مستفيضة فى حياة الرسول ، وحياة الخلفاء الراشدين ، وحياة القواد العظام كخالد بن الوليد

وأبي عبيدة بن الجراح، وحياة الصالحين من الخلفاء الأمويين، فالخلفاء العباسيين. ثم جمعت هذه المقالات كلها في كتاب (حماة الاسلام). (١)

* * *

بقى أن نقرأ لصاحب اللواء بعض النماذج على سبيل المثال ومنها مقالة له بعنوان :

اتحاد كلمة المسلمين (٢)

... على أننا لو ناقشنا أوروبا الحساب لوجدناها جنت على الاسلام والمسلمين، بل جنت على العالمين أكبر الجنايات المعنوية. فمم يشتكى المسلمون؟ نشتكي معاشر المسلمين من أن أوروبا المتحضرة لا تعاملنا كما يجب أن يعامل بنو الانسان. نشتكى من أنها دخلت بلادنا بدعوى الاصلاح فأفسدت، ونشر المدنية فأعادت همجية العصور الأولى. نشتكى من أنها تكرهنا كراهية دينية شديدة، وهى المنادية بمبادىء العدل والحرية والمساواة نشتكى من أنها تقصد إبادتنا كما تباد الحيوانات الضارة، وكما أبيد الهنود فى أمريكا وهم أصحاب البلاد الأولون. نشتكى من كل أعمال التمدن والمدنية، وبودنا لو كنا غير شاكين. هذا مانشتكى منه فمم تشتكى أوروبا؟

أتشتكى من أننا سلمنا إليها بلادنا، ووثقنا بأقوالها ووعودها. أتشتكى من أنها سادت علينا بارادتنا، وهضمت حقوقنا، واستنزفت أموالنا، وضيقت علينا فى حياتنا؟ أتشتكى من أننا نحسن للمحسنين فى الشرق، ونعدهم إخوانا لنا؟ أتشتكى من اعتدالنا وتسامحنا وهى معنا ظالمة قاهرة. هذه مصر أعز بلاد الاسلام على المسلمين، وأرقاها فى المعارف

(١) صاحب هذه المقالات هو أحمد بك نجيب

(٢) اللواء : العدد الخامس فى ٧-١-١٩٠٠

والآداب قد سارت فى طريق المدنية الغربية، ووثقت بالأوروبيين أكبر ثقة، وعين أمراؤها من بنى الغرب حكاما وسواسا، وفتحوا أبوابها وأبواب السودان لكافة الأوروبيين بما فيهم المبعوثون الدينيون..

فماذا كانت نتائج هذه الخطة ؟ وماذا جنت مصر من ثقتها بالغرب وأهله ؟. كانت نتيجة خطتها وثقتها بالغرب وأهله أنها صارت فى قبضة الاحتلال البريطانى ضائعة الحقوق، باكية مجدها الشامخ واستقلالها المحبوب .

فيا كتاب أوروبا وسواسها : قبل أن تحملوا على الدولة العلية وتسموها دولة الهمجية والتعصب إسألوا أنفسكم بالله عليكم : هل يلاقى المسلمون الذين تحت حكم دولكم من الرعاية عشر معشار ما يلاقيه المسيحيون تحت حكم الدولة العلية ؟ وهل تعتبر أوروبا المسلمين الخاضعين لها كأبنائها اقتداء بالدولة العلية مع رعاياها المسيحيين ؟ إذا كان الجواب على هذه الأسئلة بالسلب فما بالكم يا كتاب المدنية الغربية تزيدون المسلمين بلاء على بلائهم ؟ وما بالكم لا تعرفون للحقيقة مقاما ؟ ولا تدركون للفضيلة الصحيحة إحتراما ؟ اللهم إن كل المسلمين فى كل أنحاء الأرض متألمون لما أصابهم، آسفون على ضياع إستقلالهم، ساعون فى تحسين أحوالهم. ولكن أى خطر على أوروبا من ذلك ؟ نحن نصرح فى كل كتاباتنا وخطبنا وأعمالنا بأن الاعتدال أول مبدأ للمسلمين، وأن الهيجان والاضطراب والفتنة أشد خطرا على سلامتهم من كل الأخطار .

* * *

وإلى القارىء نموذجا آخر من مقالات صاحب اللواء فى موضوع الاسلام بعنوان :

اوربا والاسلام

أو

كيف تغلب الغرب على الشرق ؟ (١)

« إذا وقف الشرقيون امام التاريخ وتمثلوه شيخاً كبيراً هرما حكيما لبيبا خبيرا بالأمم وحياتها وسبب مجدها وعلة شقائها ، وسألوه هذا السؤال : كيف تغلب الغرب على الشرق ؟ لأجابهم ولا محالة : تغلب الغرب على الشرق بخيانة أبناء الشرق . نعم لا تلوموا أيها الشرقيون الغربيين إلا بعد أن تلوموا أنفسكم ، ولا تسخطوا على المسيطرين من الأجانب عليكم إلا بعد أن تسخطوا على حكامكم والخائنين منكم . فداء الشرق خيانة رجاله ، وقادة زمامه . ودواؤه عدم استسلام أممه لمن يلقى بهم فى هاوية الدمار والفناء ويحكم فيهم الأجانب والأعداء .

قرأ القراء بمزيد الأسف رسالة ذلك المسلم الفاضل الذى أراد أن يشرح لهم آلام الشعب الاسلامى فى « البوسنه والهرسك » وأجمعوا جميعاً على ان آلام المسلمين واحدة ، سواء كانوا فى مشارق الأرض أو فى مغاربها ، وأيقنوا ان علة العناء والبلاء متحدة ، الا وهى خيانة الرؤساء والكبراء ! ترى العلماء وهم الذين كان يجب أن يكونوا ورثة الأنبياء صلاحا وتقوى وايمانا أصبحوا آلات لحكام النمسا ضد أبناء دينهم المسلمين . فيهم استطاعت الحكومة النمساوية أن تخرب مدارس المسلمين ، وتقلب التعليم الاسلامى ، وتقطع الصلات والعلائق بين الأهالى وجلالة متبوعهم الأعظم . والكبراء هم قادة الأمة فى كل بلد أصبحوا كذلك فى البوسنه والهرسك عمالا للنمساويين ضد دينهم ووطنهم وقومهم . فبأى وجه نلوم الغربيين والداء منا ، والبلاء مدبر بأيدينا ، ونحن علة الشقاء ؟ ماذا نقول للغرب إذا

(١) اللواء (الخميس ١٣ ديسمبر سنة ١٩٠٠)

قال لنا ساسته وحكامه : إنما نحن قبضنا على أزمة دياركم بارادة كبرائكم وعظائكم وأصحاب الشأن منكم ؟ نعم إن الغرب بالغ فى الاحتيال ، ولكن اللوم الأكبر على الذين قبلوا أن يكونوا مخدوعين خائنين خادمين لاهوائهم الذاتية بدلا من أن يكونوا خادمين لأوطانهم وديارهم !

هذه مصر زهرة الأسلام وكوكبه الوضاء كيف تغلبت انكلترا عليها ؟ وكيف تمكنت سطوتها فى إدارتها ؟ وبم تمت لها الكلمة فى أرض الفراعنة ومهد العلوم والعرفان ؟ لم تتغلب إنجلتره علينا وتتمكن سطوتها فينا ، وتتم كلمتها فى بلادنا إلا بمعونة الخائنين منا ، المستسلمين لها الجاهلين لحقوق البلاد ومصالحها ، الذين باعوا ويبيعون دينهم ويبيعون وطنهم وشرفهم بثمن بخس دراهم معدودة ينقدونها فى آخر كل شهر .

عرف الغربيون خبايا الأمور فى الشرق ،وا كتشفوا ما استتر فى الضمائر ، وأيقنوا ان للخيانة فى بلادنا أنصارا كبارا فعمدوا اليهم واتخذوهم أصدقاء أصفياء ، واستعملوهم آلات قاطعات لتدمير الاستقلال الوطنى ، وهدم المجد الأهلى فأفلحوا ، وكيف لا يفلحون والأمة تحسب هؤلاء الخونة قادة لها ، بهم تقتدى ، وحكاما مرشدين بهم تسترشد وتستنير .

وأذكر انى لم اقرأ فى حياتى كتابا اثر على فؤادى واستبكانى على حال الاسلام والمسلمين مثل كتاب ألفه رجل فرنساوى كان دخل بحيلة على المرحوم (عبد القادر) بطل الجزائر الشهير ، وتمكن من التقرب منه حتى سهل لقومه الفرنساويين التغلب على الجزائريين، والانتصار على قائدهم الهمام . قال ذلك الكاتب فى كتابه بعد كلام طويل عن طرق استعباد الغرب للشرق ، واخضاع أوربا للمسلمين ما معناه :

« إن السبب الأكبر فى قيام الجزائر ضدنا واستمرار جهاد أبطالها لانقاذ بلادهم من أيدينا هو أننا عندما دخلناها هدمنا حكومتها الأهلية ، ووقفنا أمام العرب موقف الأعداء . الألداء على أننا لو كنا سلكنا مسلك

الرشد والحكمة ، وأبقينا الحكومة الجزائرية واستعملناها آلة لنا ، وستاراً نختفي وراءه لكنا أخضعنا البلاد بواسطتها في أقرب زمن ، وحقنا دماء جنودنا الاشداء . وقد تنبه حكامنا لهذه الحكمة الساطعة فعملوا بها في الديار التونسية ، وأبقوا حكومة الباى وعضدوها بالقوة واختفوا وراءها يحركونها كما يريدون ، والأمة تظن أنهم ليسوا إلا ضيوفا ، وإن الأمر كل الأمر بيد الباى ورجال حكومته ، حتى مضت الأيام والسنون وتمكنا من البلاد ورسخت أقدامنا فيها بدون أن نسفك دم أحد من جنودنا . فخير وسيلة لاستعباد الاسلام واخضاع المسلمين هي أن تحفظ الدول الأوربية شكل الحكومات الأسلامية وتختار لها رجالا أدنياء النفوس ضعاف الهمم فاقدي الشعور يخدمونها في أغراضها ، ويكونون آلاتها ضد أممهم ! ! ! »

وهذا كلام حققته الحوادث وأيدته الأيام ، ونصيحة عملت بها أوربا فافلحت وفازت على المسلمين بفضل الخونة منهم المتربعين في الوظائف السامية المقيمين في القصور العالية الفخيمة ! فليسخط المسلم على أخيه الخائن قبل أن يسخط على الاجنبي ، وليعمل بحوله وقوته على ابادة هذا النوع المدمر للمجموع ، الهادم للاستقلال ، المتاجر بالأرواح والنفوس والأعراض والثروة والحياة ، وليعلم أن يوما تتخلص فيه بلاد الاسلام من الخونة الأدنياء هو يوم تفوز فيه على أعدائها ، وتسترجع مجدها وعزها ، وتعيد ما كان لها من قوة وشأن وسلطان » مصطفى كامل

* * *

وفي الدفاع عن الاسلام وحضه على تحصيل العلوم الحديثة كتب صاحب اللواء يقول

العلم والاسلام

٢٢ يوليه سنة ١٩٠٣

لا يجد المسلم فى حكم الغرب على المسلمين والاسلام شيئاً يوجعه ويؤلمه مثل رمى ديننا الكريم بالابتعاد عن العلوم والمعارف ، وعدم دعوة أبنائه إلى اكتشاف ما انطوى عليه هذا العالم ، وإظهار ما خلق الرحمن للانسان فى أجل مظاهره وأجمل مناظره ، واستخدام الطبيعة وكنوزها العديدة فى سعادته وزخرفة الحياة الدنيا . ونراه على الدوام عاجزاً عن إقناع الغربيين بالدليل المحسوس بأن هذا الدين دين رقى وكمال وحضارة عالية ومدنية سامية وسعى وراء العلم أنى كان ، لأنهم يحاجونه بقولهم « وإذا كان كذلك فما بالنا نرى المسلمين فى تأخر واضمحلال فى كل بلاد الأرض ؟ » . . .

يحار الانسان حقيقة فى سكوت هؤلاء المتعلمين الذين يشكون ويألمون ويبصرون ويحكمون ويقارنون بين ما نحن فيه وما هم عليه وبين ما نحن سائرون إليه وما هم وراءه يسعون ، ثم تراهم لا حراك بهم ولا همة تدفعهم لعمل يرفع شأن أوطانهم . ونحن وغيرنا نعذر الجهلاء لأنهم لا يدرون للعلم مزية ، ولا لانفاق المال فى سبيل الوطن معنى.ولكن ما عذر المتعلمين المهذبين ، والغرب ينهب الزمان نهبا وراء المجد والثروة . وهما لا يأتيان فى هذا العصر بغير استعباد الأمم التى عادت العلم فعاداها الاستقلال .

نرى الغربيين ينتفعون بكل شىء فى بلادهم وهى دون بلادنا فيما وهبه لها الخالق من نعم وخيرات طبيعية . فهذا نهر « الرون » اتخذ منه السويسريون بقوة العلم قوة كهربائية تنير مدينة جنيف ونواحيها وتنقل الماء العذب إلى مسافات بعيدة . والمتفرج على الآلات الضخمة التى تعمل هناك ليلا ونهاراً لخلق الكهرباء من الماء ، وتقدر قوتها بستة آلاف حصان ، يندهش من هذه

المقدرة الهائلة ، ويظن أن الانسان فى هذه البلاد غير الانسان عندنا ، ويتحسر على شلالات النيل وقوتها الضائعة ، والبسفور وتياره العظيم ، ويندب دياراً يميت الجهل ، أهلها ويحل فيها الفقر والشقاء محل السعادة والرخاء .

ومضى الكاتب فى سوق الأمثلة حتى قال :

تعودنا معاشر الشرقيين أن نلوم حكوماتنا فى كافة الظروف والأحوال . وإنى لا أبرئها من وصمات ومعائب ونقائص ، ولكن الانصاف يقضى علينا أن نقول إننا لانفضلها . لأن الحكومة التركية مثلا منحت بعض أبنائها امتيازات باستخراج معادن مهمة فى بلادها ، فأسرعوا ببيعها للأجانب ، ولم نر واحداً منهم اهتم بانشاء شركة ذات أسهم لاستخراج المعدن الذى تنازلت الحكومة عنه ، وحصر فائدته ومكاسبه بينه وبين بنى جنسه .

وعندى أن علة العلل وداء الأدواء هو عدم تربيتنا من الصغر على حب الاجتماع . وإرشادنا بالتاريخ وحججه الدامغة إلى أن الدين الاسلامي يبعث فى النفوس الحمية والاقدام . ويحبب إليها السعى وراء العيش والجد والاعتماد على العلم والمعرفة .

لعمرى ان مصدر هذه البلايا التى نسبح الآن فى بحارها هو استبداد الحكام والامراء السالفين ، وقعود العلماء عن مقاومتهم ، وردهم إلى العدل والحكم بين الناس بالشريعة المطهرة والخضوع أمام الحق ، حتى ماتت الفضائل ، وتجردت النفوس عن حب المعالى ، وتخلت عن صفات الرجولة والهمة وانقلب نظام العمران فصار الحاكم مالكا لمحكوميه ، والأمة متاعا يتجر فيه .

أى ديناميت فى العالم مدمر للأمم والدول مثل سدل حجاب كثيف على أعين الجماهير ، ومطاردة العلم وإحلال الجهالة محل أنوار العرفان ؟ أى

خلل فى طريق إحياء أمة مثل الفصل بين علمائها والعلوم العصرية ، وإقامة سد منيع بين الناشئة العاملة والعلوم الدينية ؟

نرى العلماء نابغين فى علوم الدين ، ورجال الناشئة نابغين فى علوم الدنيا . كأن هذه العلوم لا ترتبط بتلك . على حين أن كل قسم لا يصلح وحده ولا يفيد فائدته إلا بالاتحاد مع الآخر . وفى هذا التفريق تدمير لقوة العلم والدين معا . إذ كيف لا يخجل العالم إذا سئل عن تلك القوة الباهرة ـ قوة الكهرباء التى تسير القطارات وتنير المدائن وتستخدم فى شفاء الامراض وكان جاهلا ، ولا يخجل رجل من الناشئة سواء كان طبيباً أو مهندساً إذا سئل عن أمر من أمور دينية وكان جاهلا ؟

لا نزاع فى أن هذه الطريقة العوجاء طريقة الفصل بين علوم الدين والعلوم العصرية ضرراً على حياة الأمة الاسلامية فى الحال والاستقبال وخطرا يهددها على الدوام . والرجل الذى يوفق لانشاء كلية عالية للجمع بين هذه العلوم يخرج للاسلام رجالا هم منقذوه ورافعو لوائه بلا جدال . . . ثم قال .

لا حياة للمسلمين والاسلام فى هذا المعترك المخيف ولا سبيل لوقوفهم أمام هذا السيل الجارف سيل الغرب وأهله إلا بالعلم . فليتنبه إلى هذه الحقيقة الراغبون فى الخروج من الأسر والاستعباد والاضمحلال المشين وليعلموا أن إيجاد النظامات الجديدة الحية أسهل وأيسر من تقويم النظامات المختلة المتداعية ، وأن البناء الذى يجتمع فيه المسلمون ليعيشوا عيش الأحرار السعداء الأقوياء لا يكون أساسه سوى العقيدة ودعائمه غير العلم الصحيح . وإن الابتعاد عن هذه الحقيقة إضاعة للوقت النفيس ومجلبة لعار فوق عار ومدعاة لزيادة استخفاف الغربيين بالمسلمين والاسلام !

* * *

وأخيراً نختم هذا الفصل بنموذج من إسلاميات صاحب اللواء بعنوان :

مستقبل الاسلام

إذا كان علماء الغرب وساسته يشتغلون بمستقبل الاسلام . فمن أقدس الفروض على عقلاء المسلمين أن يشتغلوا به ألف مرة . فقد بلغ السيل الزبى وحطت المصائب بكلكلها على بنى الاسلام حتى صرنا عبيدا للغربيين يتصرفون في أملاكنا وحريتنا وناموسنا وعوائدنا كما يحبون ويرضون . وفازوا هم فى التوازن بين الشرق والغرب بالكفة الراجحة . ونلنا نحن الخيبة المشينة والفشل الفاضح ولم يبق شك فى أنه من العار الجسيم أن يتلهى عظماء المسلمين وأغنياؤهم عن البحث فى مثل هذا الموضوع الخطر بل الدواء الشافى لأمراض العالم الاسلامى . على حين أن أعداءهم أنفسهم سألوا ويتساءلون ماذا يصيب الاسلام فى مستقبل الأيام ؟ أيسترجع مجده القديم ويسترد حياته الأولى ؟ وهل فى الامكان اتحاد المسلمين وجمع كلمتهم ؟ فهم كما رأينا متفرقون منقسمون على بعضهم متباغضون .

وقف اللورد كيرزن حاكم الهند العام فى العام الماضى خطيبا فى حفلة حافلة بأعيان المسلمين فقال : لو كنت أميراً من أمرائكم أو غنياً من أغنيائكم لما أضعت لحظة واحدة من حياتى فى غير بث العلوم والمعارف ونشر النور بين أهل دينى ، ولما أنفقت شيئا من مالى فى غير هذا السبيل .

ووقف الكونت دى بولوف الوزير الاكبر لألمانيا فى هذه الأيام خطيباً فى مجلس الرشستاغ فقال :

إن التاريخ لم يورد لنا اجتماع دول كبرى متمدنة قوية واسعة السلطان فى زمان واحد كاجتماع الدول الأوروبية الآن ووقوفها أمام بعضها البعض وتنافسها فى امتلاك المعمورة واقتسام أراضيها .

أراد الأول أن يشير إلى أن مستقبل الاسلام مرتبط بالتربية والتعليم وأن المسلمين إذا لم يستطيعوا استرداد قوتهم الماضية فانهم بالتقدم فى العلوم العصرية ومباراة الأمم الأخرى فى ميادين المعرفة يستطيعون أن يحفظوا كرامتهم مع الدول المتسلطة عليهم ويضطروها إلى احترامهم، ومنحهم ما يطلبون من الحقوق.

وأشار الثانى من حيث لا يريد إلى أن الاسلام فى حرب مع دول عدة لا مع دولة واحدة. وأن بلاده الواسعة الشاسعة صارت مطمحا لأنظار كافة الدول الغربية. وأنهن يتنافسن أشد التنافس لامتلاكها وإستعباد أهلها. وهو إيضاح لما نحن فيه من الأخطار ولما يتهددنا فى القريب العاجل.

مستقبل الاسلام فى أيدى المسلمين أولا وفى أيدى رجال الدولة العلية ثانيا. إذا عمل المسلمون للنهوض، وسعوا فى طريق الجد والحياة الحقة، وفهموا معنى دينهم، وعرفوا ما فيه من حث على الاتحاد والاتفاق والجد والاجتهاد، وطلب العلم من أطراف الأرض وسائر جهاتها، والتنقيب عن أسرار المخلوقات والاستعداد لطوارىء الزمان، وهجمات العدو الفائز، واستفادوا من اختلاطهم بالغربيين معرفة الصناعات على اختلافها والاحاطة بالاختراعات الحديثة على تنوعها وتعددها نالوا — ولو بعد حين — شيئا عظيماً من العز المفقود والسؤدد المسلوب، واستردوا من عظمته السالفة ما يقدرون أن يظهروا به أمام العالمين بمظهر الأمم الراقية المجدة الجديرة بالاحترام والاكرام.

أما الدولة العلية فقد أجمع الباحثون فى حالها ومستقبلها على أنها لا ترد إعتداء الغرب وأهله وتوقف تياره المتدفق، وتجعل لنفسها بين دوله مقاماً جديداً وشأنا عظيما إلا إذا انتظمت ماليتها وقويت بحريتها وعمت العدالة فى أنحائها. وهى مطالب ثلاثة يحق لمن يحققها أن يفاخر المتقدمين

والمتأخرين ، ويقول لهم أجمعين : لم يخدم الاسلام والمسلمين أحد منكم مثلي إذ بالمال تستطيع الدولة تنظيم كل مختل ، وتقويم كل معوج ، وتقوى على الاصـلاحات المرغوبة . ولا ينتظر تنظيم المالية إلا إذا خفضت المرتبات تخفيضا كبيرا ، وهو الأمر الذى شرع فيه دولة الصدر الجديد ورفت من المصالح والادارات عدداً من الموظفين غير قليل . إذ لا يدخل الانسان فى نظارة من النظارات بالاستانة إلا ويرى فيها عمالا بغير عدد عينهم الناظر مراعاة لخاطر زيد وإكراما لصـــديق أو عظيم وأغلب هؤلاء الموظفين- لايحضرون إلا فى أول الشهر لقبض رواتبهم . وهو خلل هائل تجب إزالته قياما بحقوق الدولة وتحقيقا لرغائب جلالة السلطان . ولا نخال سعيداً باشا إلا مهتما. به بعد أن يتمم إصلاحه الأول ، وهو تخفيض المرتبات .

ومن أهم الأسـباب فى زيادة الثروة وانتظام مالية الدولة عدم منح امتيازات المعادن والسكك الحديدية وغيرها للأجانب ، فان تمـكنهم من الدولة وازدياد نفوذهم فيها خطران عظيمان . ولا يجب أن يغتر رجال الدولة بزيادة إيرادات الجمارك بسبب المعـــادن ومد السكك الحديدية وغيرها للأجانب . فان تمـكنهم من الدولة وازدياد نفوذهم فيها خطران عظيمان . ولا يجب أن يغـــتر رجال الدولة بزيادة ايرادات الجمارك بسبب المعادن ومد السكك الحديدية فان هـــذه الزيادة إن أفادت الحـكومة بعض الفائدة لا تعادل الضرر العظيم الذى يعود على الدولة وأهلها من امتداد نفوذ الألمان والفرنساويين والروس وغيرهم فى بلادها .

وعندى أنه خير للدولة أن تؤجل مد السـكك الحديدية وإستخراج المعادن المدفونة فى أراضيها حـتى تستطيع هى أو يستطيع أهلها القيام بذلك من أن تمـكن الأجنبى من بلادها ، وتزيد من نفوذه وسـلطانه . ولا ريب فى أن أنشاء اسطول تركي فخيم يملأ البحار هيبـة ودويا من

أحب الأمور إلى كل مسلم غيور ، فضلا عن أن الحاجة إليـه أصبحت بادية للعيان ظاهرة لـكل إنسان . وحسبنا مسألة طرابلس الغرب ، ومشكلة الـكويت واحتياج الدولة فيها إلى مراكب حربية تحمل الجنود وتحمى الثغور . ولا نزاع في أن إنشاء أسطول يفى بالحاجة يحتاج إلى مال كثير وزمن طويل . والمـال غير ميسور الآن . وإن كان الزمن فى بعض الفرص أغلى منه قيمة وأندر منه وجودا . ولا سبيل إلى وجود المال بغير توفير وتدبير وإقتصاد كبير وخطة ثابتة تسير الدولة عليها فى ماليتها عدة سنين. وإذا كان تدبير المال وإنشـاء الأسطول من أهم المعدات للنهوض ورفع المصائب عن المسلمين والاسلام ، فان تخريج رجال أكفاء قادرين على تعميم العدالة فى أنحاء المملـكة أمر ينادى به كل مسـلم ويتمناه كل عثمانى . ويرى كل عاقل أن حياة الدولة فى الداخل لا تقوم إلا عليه وهو لا يكون إلا بتقوية تعليم المبادىء الدينية فى المدارس العثمانية حتى تتشبع النفوس بالفضائل الصحيحة السـليمة وبتدريس التاريخ بطريقة كاملة شـاملة وافية بالمرام وشرح الحـروب التى وقعت بين تركيا ودول أوربا شرحا يملأ القلوب حمية ووطنيـة ويعرف منه الطلاب حقيقة واجباتهم نحو بلادهم حتى يعلموا أنهم إنما يربون ليكونوا سدا فى وجه الغرب وحمى للوطن والملة والدين . وقصارى القول أن مستقبل الاسـلام لا يكون كما يشتهى عقلاء المسلمين إلا إذا قاموا بنهضة قوية واسـتمروا بلا ملل ولا جزع فى سبيل إحياء أبناء دينهم ونشر الحقائق الاسـلامية والعلوم العصرية بينهم ، وبعث الله من رجال تركيا من يصـدق الخدمة لجلالة المتبوع الأعظم ويساعده على إيجاد المال والأسطول والرجال .وإلا فليبك الباكون على دين حكمنا الأجنبى فى بلاده وأهله ، وهو دين التمدن الصحيح والحضارة العالمية والتقدم والعمران

* * *

والقارىء لهذا المقال الأخير يشعر بأن صاحبه صحفي هادىء أكثر منه خطيبا يستفز السامعين فى جمع حافل . فهو يأتى بأقوال الساسة الأجانب ويناقشهم ، ويستنبط منهم العبرة تلو الأخرى ، ويسوق كل ذلك مساقا جميلا وحزينا فى وقت معا . والكاتب هنا يربط مستقبل الاسلام بأمرين لا ثالث لهما : هما المسلمون أنفسهم من جهة ، والدولة العثمانية المهيمنة على أمورهم من جهة ثانية . والعلة بادية على كليهما . ودواؤهما بسيط فى نظر الكاتب . لأنه ينحصر كله فى كلمة واحدة هى (النهوض للاصلاح) وما أيسر هذا الاصلاح لمن أراده لو صدقت نيته وصحت عزيمته .

ثم إنه نبه المسلمين والدولة العلية إلى استغلال الأوروبيين لموارد هذه الدولة التى منحتهم كثيراً من الامتيازات التى منها مد السكك الحديدية والسيطرة على المناجم المعدنية ، وذلك فى مقابل ايرادات جمركية لا قيمة لها .

وفى ختام المقال دعا الدولة العلية إلى إنشاء أسطول كبير يكون مظهراً لعزتها وحافظا لكرامتها ، وذائداً عن دولها ضد كل اعتداء أجنبى . هكذا جاء هذا المقال برنامج إصلاح كبير لو قام بتحقيقه المسلمون وولاة أمورهم من سلاطين العثمانيين لأفادوا منه الشىء الكثير

وقد ربط الرجل بين الاسلام والدولة العلية ربطا شديدا ولم يستطع مطلقا أن يتصور أن فى استطاعة الأمم الاستغناء عن هذه الخلافة . وأن الأصل فى هذه الخلافة أنها ليست ملكا عضوضا . ولا شك أن الرجل كان فى كل هذه الأفكار متأثراً بالرأى العام بين المسلمين جميعا فى ذلك الوقت . ولقد بقى العامة فى مصر الى وقت قريب يعتقدون أن زمانا يخلو من خليفة لهو زمان سوء ، وأن الخلافة لازمة للاسلام لزوما تاما . ولولا سقوط الخلافة العثمانيــة على يد مصطفى كمال (أتاتورك) لبقى هذا الاعتقاد سائداً إلى اليوم .

وقد كنا نود أن نتبع ذلك بطائفة أخرى من المقالات التى كتبها

الرجل فى هذا المعنى . ولكن المجال لا يتسع لشىء من ذلك . فعلى الناشئة التى تحرص على معرفة تاريخ بلادها أن تستقى هذا التاريخ من مصادره الصحيحة وأن ترجع بنفسها إلى صحيفة اللواء وغيرها من الصحف التى عاشت معها ، فثم تجد ما يسد حاجتها ، وثم ترى من الآراء النافعة والأفكار السديدة ما تكبر به هذه الصحيفة فى نظره وتعظم فى خاطره .

* * *

ولا ننس مع ذلك ما كان يكتبه مصطفى كامل بين حين وآخر من المقالات الطويلة فى الصحف الأوروبية على اختلافها مدافعا فيها عن الاسلام داحضا فيها حجج الأوروبيين الذين رموا الدين الاسلامىَ نفسه بشق التهم العريضة

ولمن أراد من القراء أن يطلع على نموذج لهذا النوع من المقالات فانا نحيله إلى مقال على سبيل المثال كتبه مصطفى كامل إلى جريدة الفيجارو الفرنسية بعنوان : أوربا والاسلام :

وهو مقال طويل عاد الكاتب فترجمه بنفسه إلى اللغة العربية ونشر الترجمة بصحيفة اللواء بتاريخ (٢٢ سبتمبر سنة ١٩٠٣) فالتمسه هناك :

* * *

(وبعد) فان من يقرأ المقالات الكثيرة التى هاجم بها الأوروبيون والأمريكيون الاسلام ويقرأ الردود الكثيرة التى ردت بها الصحافة المصرية على تلك الصحف الأوروبية والامريكية يخرج بهاتين النتيجتين الهامتين :

الأولى : أن الصحافة المصرية أبلت بلاء حسنا فى مجاهدة الأوروبيين وحملت الكثيرين منهم على الاعتراف بفضل الاسلام فى خلق الشعوب القوية ، وأنه لا عبرة هنا بضعف الأمم الاسلامية فى الوقت الحاضر ،فسيدور الفلك دورته وتعود للمسلمين قوتهم يوما ما

والثانية : أن كتاب مصر فى عهد الاحتلال — وقبل أن تسقط

الخلافة العثمانية وتزول من الوجود كانوا محقين إلى حد ما فى دعوتهم إلى ائتلاف الأمم الاسلامية ليتكون من هـذا الائتلاف ما يسمى بالـكتلة الاسـلامية . ولا بأس عندهم من أن تـكون تركيا زعيمة هذا الحلف أو الـكتلة . والـكتاب المصريون لهم عذرهم الواضح فى تطلعهم إلى تحقيق هذه الأمنية ، لأنهم يرون فى تحقيقهـا على هذا الوجه استعادة لمجد الاسـلام ، وتمـكينا له من أن يأخذ لنفسه فرصة جديدة لقيادة العالم المتمدن، كتلك الفرص القديمـة التى أتيحت له من قبل وقاد فيها هذا العالم قيادة حسنة إلى الحضارة .

سيقول المعارضون لهذه الفـكرة بل هى خيانة للقومية المصرية وضياع للشخصية الوطنيـة وذهاب بالـكرامة السياسية وما إلى ذلك كله من شتى التهم والأقوال ؟ ولـكنى أقول لهم إن فى يد المؤرخ العدل مقياسا يقيس به أفـكار الشعوب والأفراد . وهذا المقياس هو قدرة المؤرخ دائماً على أن يحيط نفسـه بالظروف التى أحاطت بتلك الشعوب والأفراد حين يتحدث عنها أو يحكم لها أو عليها . وهـو إن فعل غير ذلك أساء إلى عدالة التاريخ وهضم حق الفرد أو الأمة.

الفصل السابع

اللواء والحركة الوطنيـة

لا نعرف أن مصر رزقت رجلا أحبها وغار على مصلحتها كما أحبها هذا الفتى وغار على كل ما له مساس بها. ونحن حين نتحـدث عن اللواء والحركة الوطنية فانما نتحدث عن أهم جانب من جوانب هـذه الصحيفة الشعبية، ونشيد بأكبر دور لعبته على مسرح الحياة المصرية. إذ الواقع أن اللواء أوشكت فى وقت من الأوقات أن تـكون المتنفس الوحيد لهذا الشعب المغلوب على أمره. وكان لها الأثر البعيد فى إحياء النفوس بعـد موتها، وإنهاض الهمم بعد ركودها، واسترداد الـكرامة المصرية بعد ضياعها على يد الاحتلال البريطانى

والحق أنه كان لصحيفة اللواء من اسمها هذا أوفى نصيب، فقـــد ظلت فى يد صـــاحبها بمنزلة الراية الـكبرى يلتف حولها دعاة الحرية والـكرامة، أو العالم الرفيع يقف إلى جانبه المجاهدون من المواطنين، فيزدادون حماسة فى الدفاع عن وطنهم، وثباتاً فى ميدان الـكفاح من أجل هذا الوطن.

ثم إن جريدة اللواء كانت فوق هذا كله مدرسة يتلقى فيها الشعب المصرى على اختلاف طبقاته دروساً فى التربية الوطنية، ويستمعون فيها إلى أساتذة أمناء على تربية الشبيبة المصرية وإننا إذ لنتصور مصر خالية فى ذلك الوقت من صحيفة «المؤيد» ونتصورها خالية كذلك من صحيفة «اللواء» يتجلى لنا وجه مصر أغبر اللون أصـفره من الحياء والخجل،

بل من الحزن والكدر ، بل من الشعور بالخزى والعار ، ومن الذل والمهانة . وذلك ما لم يسجله التاريخ علينا بحمد الله ، لأن روح المقاومة الهادئة التى بدت من جانب صاحب « المؤيد » ، وروح المقاومة العنيفة العارمة التى بدت من جانب صاحب « اللواء » هما اللتان أمسكتا يد التاريخ عن كتابة هـــذه الصحيفة المخزية المؤلمة . وليس العيب أن تبتلى الأمة بالفقر أو المرض ، أو يسومها حاكمها الذل والخسف ، ولكن العيب كل العيب أن تقف هـذه الأمة مكتوفة اليد أمام هـذه الأعداء كلها ، أو ترضى لنفسها العيش فى جحيم هذه الشرور جميعها . على أن المقاومة فى ذاتها عنوان الحياة ، والجهاد فى ذاته أشرف عمل فى الوجود والشعور بكمال الانسانية لا يبلغ أوجه فى أمة أو فى فرد إلا فى أحد هذين الموطنين .

وهـــذه هي اللواء تصبح منذ ظهورها على مسرح الحياة المصرية مرآة صافية تسجل فيها حوادث هذه الأمة مقرونة بشعورها تجاه تلك الحوادث ، كما يسجل فيها كل ما يتصل بالحركة الوطنية أو يمس الكرامة المصرية .

فاذا ملأت الغيرة قلب رجل كعباس حلمى الثانى وراح يدعو قومه إلى الجهاد فى سبيل الوطن راحت اللواء من جانبها تحيي هذه الروح العالية فى الأمير ، وتؤكد له أن الأمة كلها معه ، وأنها تقدر له كلمته التى قالها بأعلى صوته :

« إننى أفضل أن أموت عن أن أفقد حقوقى وحقوق بلادى »

وإذا أتى كرومر وقال « إن مقاومة عباس للاحتلال الانجليزى لا تمثل رأى الشعب المصرى وأصحاب الجلاليب الزرقاء ، وإنما تمثل رغبة الخديو الشخصية فى فرض سلطة مطلقة على المصريين » نهضت اللواء ترد كيد الجبار فى نحره ، وتفرد لتفنيد دعواه الزائفة وزعمه الباطل مقالا فى عددها الواحد والثلاثين جاء فيه :

« خير لنا أن نظلم أنفسنا بأنفسنا بدون تدخل الغير من أن نرى إهانة الاحتلال الأجنبي ملتصقة بنا فى الصباح وفى المساء »

ثم تهيب اللواء بالمصريين قائلة لهم :

« ولكن أكبر علة لمصائب هذه الديار الأسيفة ولنجاح الانجليز فيها هي سكوت المصريين عن حقوقهم وركونهم إلى السكون التام الذى يعتبر فى نظر السياسيين والحكماء موتا معنويا دونه الموت الحقيقى. » ثم تقول:

« وقد جاهر سمو أميرنا المعظم بمبادئه الوطنية ، ونادي الشعب بالمطالبة بحقوقه والمدافعة عن حريته واستقلاله . فماذا كان منا ؟ إعجاب بعمل الأمير وحب لذاته الكريمة . ولكن هل إلى هذا يقف همنا ؟ ليعلم الانجليز أن الشعب ذو شعور وإحساس ، وليجد سمو الأمير قوة من أمته تعضده وتشجعه على التمسك بحقوقه وحقوقها الخ »

ثم إذا دب اليأس والخور فى قلوب المصريين لا سيما بعد حادثة فاشودة واتفاقية السودان راحت اللواء تنفخ فيهم من روحها ، فتطرد اليأس عن القلوب ، وتبعث الأمل فيها من جديد .

وإذا تطرق اليأس حتى إلى أفئدة الخاصة من الوزراء والحكام ، كما حدث لرياض باشا أنحت اللواء عليهم باللائمة ، وأمطرتهم وابلا من ضرباتها ، وشاركت جريدة المؤيد فى تلك الحملات الصحفية التى حملتها على رياض ، وغيره من دعاة الهزيمة والتردد .

وإذا اتفقت الدول على شر أرادته بمصر والمصريين جاءت اللواء تنبه على هذا الشر وتدعو المصريين جميعاً إلى لزوم الحذر حتى يزول الخطر .

وإذا أقبل المحتلون يمارسون ألاعيبهم السياسية المعروفة ، ويحاولون خداع المصريين وصرفهم عن آمالهم المنشودة طلعت اللواء بمقالاتها المنيفة فكشفت عن هذه الألاعيب الخطيرة ، وفتحت أعين المصريين على نوايا الانجليز القريبة والبعيدة .

وحين جاء اليوم الذى تم فيه الاتفاق الودى بين دولتين من دول الاستعمار الأوربى، هما انجلتره وفرنسا وذلك عام ١٩٠٤ وانقطع رجاء الناس جميعاً فى مصر فى التخلص من براثن المحتل ضاعفت اللواء من جهودها، وتأهبت للهجوم على العدو منددة بهذا الاتفاق الودى، مدركة يومئذ أن واجبها أصبح أثقل من ذى قبل، وأنها أصبحت تمثل آخر خيط من خيوط الأمل المصرى. فاذا انقطع هذا الخيط فقد تم القضاء على مصر

وكم كان العمل شاقا والطريق وعرا والموت يبدو أشباحا تتراقص أمام العيون فى ذلك الحين. ولكن اللواء أحسنت تقدير ذلك، وعملت على علاجه، واستطاعت أن تصون للحركة الوطنية حياتها وتحتفظ بالبقية الباقية من روح كفاحها. وما زالت بهذه الحركة المباركة حتى نهضت من كبوتها، وقامت من كسرتها وأزاحت عن نفسها كل شعور بالضعف أو الخور، واستبدلت به شعوراً بالقوة والظفر.

وفى مايو سنة ١٩٠٦ كانت حادثة (العقبة) وخلاصتها أن تركيا ومصر تنازعتا على موقع (طابة) على بعد ثمانية أميال غربى العقبة. وكان قصد تركيا من ذلك إثارة (المسألة المصرية) من جديد. ولكن انجلتره وقفت إلى جانب مصر، وتظاهرت بحمايتها للحدود المصرية. فثار لذلك الشعب المصرى وأعلنت اللواء سخطها واستنكارها لموقف انجلتره، وطالبت الانجليز بالجلاء عن البلاد. ولولا أن الاتفاق الودى جرى بين فرنسا وانجلتره عام ١٩٠٤ كما قدمنا لكانت هذه الأزمة كافية لاثارة المسألة المصرية من جديد كما رغبت تركيا فى ذلك. ولولا اللواء ونضوج الحركة الوطنية على يد مصطفى كامل لكان من الجائز أن تقبل مصر على نفسها وقوف انجلتره منها موقف المدافع عنها المعلن لحمايتها. ولكن اللواء صانت كرامة المصريين أيضاً فى هذه المحنة، وأضافت بذلك يدا جديدة من أياديها على الحركة الوطنية.

وأخيراً يأتى دور « دنشــــواى » أو دور الحادثة المشؤومة على الاحتلال البريطانى ورجاله فى مصر . وهى الحادثة التى كان لها من الآثار ما تحدثنا عنه من قبل . ثم هى الحادثة التى انتهت بسقوط جبار الاحتلال (كرومر) عن عرشه فى مصر . وهنا تم لصاحب اللواء أكبر انتصار فى تلك الموقعة الفاصلة التى دارت بينه وبين ذلك الجبار .

هـكذا كان تسجيل الحوادث الوطنية تسجيلا دقيقاً من جهـة ، والوقوف بالمرصاد للاحتلال البريطانى ومعارضـته بقوة لا هوادة فيها من جهة ثانية ، وتذكير المصريين بين حين وحين بكل حادثة من الحوادث التاريخية التى كان لها مساس قوى بمصر والسودان من جهـة ثالثة ، واليقظة التامة المستمرة لحوادث السياسة العالمية — أو بالأحرى للجزء المتصل منها بالقضية المصرية — من جهة رابعة . نقول هكذا كانت هـذه الأمور الأربعة وأشباهها من أهم الوسائل التى اتخذها صاحب اللواء لبعث الروح الوطنى فى مصر ، ولولا هذه الجهود التى بذلتها اللواء لتعرض هذا الروح الوطني للضعف المفضى إلى الموت .

على أن صاحب اللواء كانت له طرق أخرى كذلك ترمي إلى بعث الروح الوطنى فى الأمة . ومن أهم الطرق التى تجب الاشارة اليها ثلاث :

أولاها سرد تاريخ الأمم الحية والاشــــادة بمواقفها العظيمة فى ميـدان الجهاد من أجل الوطن والأمة ، وذلك على نحو ما كان يفعل صحفى قديم كأديب اسحاق وغيره فى أوائل النهضة.

والثـانية — العناية بسير العظماء الذين أبلوا بلاء حسنا فى بناء مجد مصر خاصة ، وكانت لهم مشاركة قوية فى إقامة هذا البناء

والثالثة — التعليم والدعوة الى تأسيس المدارس على نفقة الأهالى .

ومن الأمثلة على الأولى مقالة نشرتها اللواء (فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٠٢) بعنوان

(الحوادث عبر)

كنت اقرأ البارحة فى كتاب قيم فصولا شتى من التاريخ وحوادثه فاذا بى أمام رجل مثله اليونانيون القدماء لأبنائهم ليعرفوا مقام الوطن والوطنية . رجل نفته بلاده واضطهده أهله وقومه ، واتهموه بالتهم الشنيعة والفظائع الجمة ، ورموه بكل ما يرمى به الخونة المارقون . فما سكن ببلاد الأجانب واختلط بأهلها وعرف لسانها حتى أنقذ وطنه من حرب كانت تدبر ضده وأخرجه من مشاكل كان يستحيل على أمهر الساسة أن يفك عقدتها . فتذكرت قول الشاعر :

بلادى وأن جارت على عزيزة * وأهلى وأن ضنوا على كرام

وقلت حياكم الله يا شعراء العرب ما تركتم معنى من المعانى السامية إلا ملأتم به أشعاركم ، وقدمتموه للأعقاب من بعدكم ثم انتقلت من سيرة ذلك اليونانى الكريم حتى وقع نظرى على قصة (انيبال) بطل قرطاجنة الشهير ، حيث كان يجمع أطفال بلاده ويعلمهم نشيداً وطنياً يتعهدون فيه بخدمة قرطاجنة وإعلاء شأنها وسحق أعدائها ، ومحو كل كاره لها على وجه الأرض إلخ .

* * *

ثم من الأمثلة على الطريقة الثانية ، وهى العناية بسير العظماء من المصريين والاشادة بذكرهم وإعلاء شأنهم ما فكر فيه صاحب اللواء يومئذ من الاحتفال بالعيد المئوى لتولية محمد على عرش مصر برضى من أهلها وسعى منهم فى سبيل الوصول إلى هذه الغاية . ولقد جاء هذا الاحتفال من العظمة والجلال بحيث هز شعور المصريين جميعاً ، وسما بنفوسهم جميعاً ، وكان لفتة وطنية قوية لها خطرها ومغزاها يومذاك .

وبمناسبة الحديث عن سير العظماء المصريين نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نأخذ على مصطفى كامل أنه شوه كثيرا من سمعة عرابى ، ونظر

اليه على إنه خائن لبلاده، وعبرت مقالاته تحت عنوان (عرابى أمام التاريخ) عن هذا المعنى فى صراحة تامة .

* * *

ومن الأمثلة على الطريقة الثالثة من الطرق التى اعتمد عليها صاحب اللواء فى تربية الروح الوطنية فى نفوس الناشئة المصرية وهى طريقة التربية والتعليم ما قام به صاحب اللواء فى ذلك الحين من إنشاء مدرسة سميت باسمه، وبلغ عدد تلاميذها مائتين وسبعين تلميذاً . وكان على إتصال دائم بهذه المدرسة، لا يدع فرصة تمر دون أن يقف فى تلاميذها خطيباً يلقى عليهم دروساً فى الوطنية الصحيحة . وهكذا استحقت هذه الجهود كلها إعجاب الوطنيين جميعاً والأوروبيين جميعاً ، وأصبح بها الرجل موضوع حديث هؤلاء وهؤلاء واولئك .

* * *

تلك نظرة عامة فى المجال الوطنى الذى سبحت فيه جريدة اللواء.

والآن يجدر بنا أن ننظر نظرة إحصائية إلى بعض ما نشرته اللواء من مقالات فى هذه الناحية . وسنكتفى بذكر العناوين الهامة لهذه المقالات الوطنية سنة بعد سنة . حتى إذا فرغنا من ذلك عدنا إلى بعض الحوادث الكبيرة ، فنظرنا فيما قالته اللواء فى كل حادثة منها ،وأتينا بطائفة يسيرة من النماذج على سبيل المثال.

* * *

ففى السنة الأولى من حياة اللواء كانت المعانى الاسلامية غالبة على تلك الصحيفة اليومية بحيث تضاءلت إلى جانبها نوعا ما جميع الأغراض الأخرى كالغرض الوطنى والغرض الاجتماعى وغيرهما .

ثم فى السنة الثانية من حياة اللواء وثبت الصحيفة وثبة ظاهرة فى الميدان الوطنى، وزادت عنايتها بالوطنيات زيادة فاقت الاسلاميات ، وكذلك

الشأن فيما يتصل بالفصول الاجتماعية التى نشرتها فى تلك السنة أيضا . ومن يومئذ والاهتمام بالمقالات الوطنية والاجتماعية يتزايد فى اللواء عاما بعد عام، حتى كان العام الخامس من حياة اللواء وهو العام الذى شهـد الاتفاق الودى بين انجلترة وفرنسا، ثم العام السابع من حياة هـذه الصحيفة وهو العام الذى شهد حادثة دنشواى فضوعفت عناية اللواء بالوطنيات، ولوحظت هذه الزيادة بوضوح تام فى الـكم تارة، وفى الـكيف تارة أخرى، وفيهما فى أكثر الأحيان .

ثم تأتى السنة الثامنــة من حياة اللواء وهى السنة التى شهدت انتصار الوطنيين انتصاراً حاسماً على اللورد كرومر، وانتهت بسقوطه ورجوعه إلى بلاده . وفى هذه السنة طغت المقالات الوطنية طغياناً تاماً،وقلت الاسلاميات إلى حد كبير من حيث العدد، وإن بقيت على حالها من القوة والتدفق .

وإلى القارىء بعض العنوانات التى إتخذتها المقالات الوطنية فى كل سنة من تلك السنوات الثمان .

ففى(السنة الأولى)نجد عنوانات منها : كيف يحيا الوطن العزيز — الأمة والأمير — سياسة الشرف والاباء — أعمال انجلتره فى مصر — يوم ١٩ يناير (يريد إتفاقية السودان سنة ١٨٩٩) — كلمات فى سبيــل السودان — لمن يعمـل الانـكليز فى مصر — حياة الشعب بالشعب — واجبات الوزراء أمام الأمة والأمير — الدين والوطنية عند الأمم الحية — السلطة الشرعية فى مصر — إلى أبناء وطنى — حقوق الشعب وواجباته — بماذا يلام الشعب المصرى — أين الشرف البريطانى — كيف تتحقق الآمال — لماذا لا نعمل — التضامن الوطنى — التضامن والاخاء — السياسة الانجليزية فى السودان — مسئولية فاشودة — مقام المصرى فى بلاده — الوطنية وأسلحتها — بم نصير رجالا ؟ — الخ

وفى (السنة الثانية) نرى عنوانات منها :

عظماؤهم وعظماؤنا — حاربوهم بالاعراض — نوايا المحتلين نحو مصر — متى تحل المسألة المصرية — عرابى أمام التاريخ — عرابى بين المصريين — عرابى وعظماء الرجال — عودة عرابى — عرابى والانجليز — الاستقلال أم الاحتلال — الشبيبة المصرية — اللورد كرومر والمستر دنلوب وضياع الأمة بينهما — حقوق الأمة فى مصر — الجندية فى مصر — فاشودة والمسألة المصرية — مصر والسودان — الشعور الحى — العيد المئينى لمؤسس العائلة الخديوية — هل فى مصر دستور — العيد المئينى لمحمد على — ذكرى الرجال فى مصر الخ.

وفى (السنة الثالثة) نقرأ مقالات منها.

الحوادث عبر — مستقبل الأمة — كفاءة المصرى — صوت العظام أو عرابى أمام قتلى التل الكبير — تنبهوا يا رقود — الاحتلال والمغرورون به — حقوق الأمة فى مصر — إلى أى مآل نسوق أبناءنا — انكلتره والاستعمار — قيمة الفرد الواحد فى الأمة الحية — قوة العقيدة — الدفاع عن الشرف — المنفعة والدستور خصمان — انكلتره فى مصر — بعد عشرين عاما — إلى أين يسوقنا الاحتلال؟ عمل محمد على وواجبات المصريين نحو وطنهم — أقطاب الوطنية الخ.

وفى (السنة الرابعة) نجد فصولا منها:

دستور أم استبداد — الشعب المصرى — صنائع الاحتلال — حقوق الأهالى — نصيحة الدخلاء لشبان مصر الأذكياء — إلى أين المصير (أو الاحتلال والمصريون) — نوايا الانجليز — حاجة مصر إلى مجلس نيابى — بلادى بلادى — ارتقاء الشعور الوطنى فى حكم مولانا العباس — افلاس الاحتلال — الجهاد فى سبيل الوطن مع الجهاد فى سبيل الله — الامتيازات الأجنبية فى مصر: أما آن وضع حد لها؟ الخ.

وفى (السنة الخامسة): نرى مقالات منها:

إنشاء مجلس نيابى — مصر بين انكلتره وفرنسا — المسألة المصرية — تهنئة غريبة — كيف تحيا الشعوب — الأمم بالرجال والرجال بالأعمال — إذا تركنا السودان فهو لايتركنا — خطبة رياض — الوزير المنتحر — انفجار العواطف — رأى اللورد ملنر فى رياض باشا — إهانة الأمة من رياض — الخطبة الرياضية — رياض باشا والاحتلال — إن البلاء موكل بالمنطق — خطبة فى الموقف السياسى لمصر وواجبات المصريين — حزب المعارضة (إلى جناب اللورد كرومر) — المصرى هنا وهناك — نحن وهم — الاستبداد فى صورتيه — البلاد بكبار الرجال — المجلس النيابى — لا ناصر لرجل خذلته أمة — من فضيحة إلى فضيحة — حديث مع صاحب اللواء (حول الاتفاق الودى) — كيف تعتز الامم — حقوق البلاد — أحرصوا على البقية — حرب الدستور — مجلس الشورى والاحتلال — من الرجل المظيم ؟ — من الكاره للسودان ؟ — مصر فى عام (مقال فى الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلتره) ـ خطبة رياض وتقرير كرومر .

وفى السنة السادسة :

كلية محمد على — مجلس الشورى — المصريون والمحتلون — أمنية الجميع — الامتيازات الأجنبية — ارتفع الستار فاذا أنتم فاعلون — أمة لا تموت — الجهاد فى طلب الاستقلال — الوزراء المصريون — إلى سمو الخديو المعظم — كونوا عبيدا — سر الانتصار — معاملة الانكليز للمواطنين المصريين — عبرة مؤثرة — الرجال والمبادىء — التمرين على الاستعباد — لو كنت أميرا — صداقة انكلترا — بين مصر والسودان — قوة الرأي العام — الأعمال النافعة وحاجة الأمة إليها — محمد على والانكليز — المصريون والمحتلون — اسماعيل والانكليز — المصريون والانكليز — المصريون والنزلاء — الوطنية الحقة

وفى السنة السابعة :

مصر فى عام — المبادىء والغايات — استعداد الأمة للترقى — رأى فى سياسة الاحتلال — تحرير مصر — خطبة لصاحب اللواء — المهاجرة إلى السودان (إسمعوا أيها المصريون) — قضية السودان بين الربح والخسران — المصريون والانكليز — رئيس النظار والاحتلال — صوت الطلبة — أمة تستعد — الراية المصرية (عـــبرة لمصر والمصريين) — أكبر أمانى مصر (إنشاء مجلس نيابى) — حقوق الأمير — كلمات لأعداء مصر — الافتراء على المصريين — ما هذه المغالطة ؟ — مركز الانكليز فى مصر — معركة دنشواى — المحكمة المخصوصة فى قضية دنشواى (عدد من المقالات) حادثة دنشواى — يا دافع البلاء — الانكليز فى مصر — اللورد كرومر وعقول المصريين — احتجاج وطنى على وجود المحكمة المخصوصة — تنفيذ الأحكام فى مصر — إلى الأمة الانجليزية والعالم المتمدن — إرفعوا أصواتكم — مسألة دنشواى فى مجلس العموم — مسألة دنشواى فى البرلمان الانكليزى — أربعة من الانجليز حول لفظة واحدة (مصر للمصريين) — أيها المخلصون لمصر — مصر للمصريين (إيضاح واجب) — المطالبة بالحقوق — الوطنية المصرية الجديدة — فظائع العدالة فى مصر — المستر بلنت ومصر — الحركة الوطنية فى مصر — إجلال الوطنية — الحزب الوطنى فى مصر .

فى السنة الثامنة :

لا يعرف الوطن من لا وطن له — يا حضرات أعضاء الجمعية العمومية — ماذا تريد الأمة — التيمس ومصر — المصريون والنزلاء — الشقيقان المؤتلفان (المسلمون والأقباط) — مصر والأحرار الانجليز — لينصروا الاحتلال ويؤيدوه — عواطفنا نحو الأوربيين — الحياة الحرة — مصر للمصريين — اللورد كرومر والحركة الوطنيـة المصرية — مستقبل الحركة الوطنية (ردا على تقرير اللورد كرومر) — مصر وسياسة الأحرار الانكليز — نهضة مصر ومطالبها — حقوق الأهالى — فى سبيل بلادى — المطالبـة

بالحقوق — قوة هائلة يجمعها اللورد كرومر ضد المصريين — حفلة الأوبرة — أعمال محمد على باشا الكبير — حياة الأمة بنفسها — العالم ناظر إلينا فلنسر دائماً إلى الأمام — مشكل الوطنية (من كتاب همومى وجهادى لمدام جوليبت آدم) — ذكرى دنشواى (إحدى عشرة مقالة: ابتداء من ٢٣ ـ ٦ ـ ١٩٠٧ إلى ٤ ـ ٧ ـ ١٩٠٧) ـ يوم ٤ يوليه — حان زمن الجلاء — ألا ينبغى أن نعد من الآن عدتنا؟ (أربع مقالات متوالية) ـ أبطال الوطنية — مطالب المصريين وأمانيهم تنحصر فى الاستقلال وإدارة شؤونهم بأنفسهم — بلادى بلادى — مصر والاستقلال — الفرق بين الوطنيين — الاستقلال — نحن وحدنا — أعداء الحقيقة — الشعور الوطني — الحقيقة المرة — حب الوطن من الايمان — لو لم أولد مصريا لتمنيت أن أكون مصريا ـ مسجونو دنشواى ـ الوطنية المصرية ـ لم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ ـ هكذا فلتكن الوطنية ـ مصر والاستقلال ـ الحزب الوطنى ـ مصر فى عام ٠

* * *

لم يبق إلا أن نسوق للقارىء طائفة من النماذج الصحفية التى كتبها مصطفى كامل. وهنا نحار حيرة كبيرة فيما نأتى به من هذه النماذج وما نذر منها. والحق أن جميع ما كتب مصطفى كامل يدل دلالة قوية على شخصيته، وينادى بوطنيته، ويصلح أن يكون نموذجا لكتابته. وقد كان مصطفى كامل ـ كما كان السيد على يوسف ـ صاحب فكرة يصدر عنها، ورأى سياسى يدافع عنه، وحزب يتحدث باسمه. وكان صاحب الصحيفة إلي ذلك العصر ملتصقا بصحيفته ليل نهار؛ لا يبرحها إلا إلى عمل يتصل بها، ولا يترك لغيره كتابة ما يتبقى من صفحاتها إلا بعد أن يطمئن كل الاطمئنان إلى أنه عبر عن رأيه أولا، وشرح فكرته للقراء شرحا وافيا. وذلك كله بالطبع مخالف لما يحدث من أصحاب الجرائد اليومية، وزعماء

الأحزاب السياسية فى وقتنا الحاضر، فانهم لا يكلفون أنفسهم بعض هذا الجهد، ولا يحاولون أن يقدموا لصحفهم وأحزابهم مثل هذه التضحية .

أجل - يحار الباحث حيرة كبيرة حين يريد أن يقدم للقارىء طائفة من المقالات الصحفية لصاحب اللواء على سبيل المثال . ومع ذلك فنحن مضطرون هنا إلى الاكتفاء بهذه الصفحات الآتية :ــ

النماذج

منذ العدد الثانى من السنة الأولى من حياة اللواء حرص مصطفى كامل على محاربة اليأس فى الأمة فنشر مقالا بعنوان :

كيف يحيا الوطن العزيز

(بتاريخ ٣ يناير سنة ١٩٠٠)

جاء فيه :

لم يأت على مصر حين من الدهر اشتغل فيه أبناؤها بحالها ومستقبلها مثل هذه السنين التى توالت فيها المصائب، وتعاقبت النوائب وعرفنا حقيقة المصائب الانجليزية ضدنا وضد الوطن العزيز .

وقد ذهب أبناء الوطن فى أمر مستقبله مذاهب شــــتى . فأصحاب العقائد الصحيحة والمبادىء القوية يؤملون له مستقبلا سعيداً وحياة طيبة؛ لأنهم يرون أن الأمة المصرية هى أكثر الأمم استعدادا للتقدم والرقى ، وأن اليأس من المستقبل يأس من قدرة الخالق سبحانه وتعـالى . ويرى غيرهم أن مصر قضى عليها إلى الأبد، وأن أبناءها ليسوا كغيرهم ...

واختلاف الآراء بين المصريين فى هـذه المسألة الجوهرية الحية هو داء من أكبر أدواء مصر التى يجب العمل لشفاء الأمة المصرية منها. فان اليائسين من الله ومن الأمة تراهم لا يهتمون أبدا بأمر من أمور الوطن ،

بل يسخرون من كل العاملين على إحيائه وإعلاء شأنه. فهم فضلا عن تقصيرهم فى خدمة الوطن التقصير الجسيم يعملون على تثبيط الهمم، وإفقاد العزائم، وقتل العواطف الحية، وإنتشار كلمات «موت المصريين» و «جبن المصريين» و «عدم فلاح المصريين» على الألسن؛ وهى أضر على مصر والمصريين من كل المصائب والبلايا. فاعتقاد الأمة فى نفسها أنها لا تصلح، وأنها لا تعرف معنى الوطن والوطنية آفة دونها كل الآفات، وبلية تسهل بجانبها البلايا.

على أننا لو تصفحنا تاريخ مصر نجد أن أبناءها قاموا بأعظم الأعمال، وبرهنوا على استعدادهم التام لكل تقدم وفلاح، وأظهروا فى ظروف كثيرة من الشجاعة ما حفظه لهم التاريخ فى صحائفه البيضاء. فكيف يدعى البعض مع ذلك أنهم أمة ميتة لا حرارة بها، وأنه يستحيل أن يوجد بينهم شعور وطنى صادق؟ أو ليس من الدلائل الكبرى على حياة المصريين ووطنيتهم أن يوجد بينهم من يعرف حب الوطن بعد أن أثختهم الحوادث، ودكت بنيان استقلالهم؟ من فى أمم العالم يستطيع أن يحمل ما حملت مصر من المظالم والدواهى ثم يبقى عنده شعور وطنى كما نراه ويراه الناس جميعا عند المصريين؟

نعم إن الأمة المصرية نهضت نهضتها السالفة بهمة قائد عظيم أو أمير عالى الفكر، ولم تنهض من نفسها بدون حكومة تديرها كما فعلت أغلب الأمم الأوروبية. ولكن ذلك لا يقضى على المصريين أمام العقلاء. فالأمم تحيا بأبنائها، وكل أمة تقبل النصح والارشاد هى أمة سائرة فى طريق التقدم والسعادة والحرية. ولا يستطيع أحد أن ينكر اليوم أن المصريين أدركوا أن الوطن وطنهم، والبلاد بلادهم، وأن الناس سواء أمام الوطن فى الحقوق والواجبات. وهو شعور ينمو يوما بعد يوم نموا ظاهرا..

وإنى لأعجب ممن ييأسون من قدرة الله ورحمته، ويتناسون التاريخ

وأمثاله الكبار . فهل أراهم التاريخ أمة دامت على حالة أو دولة بقيت بنظام ثابت ؟ وهل خلدت الدول التى حكمت مصر قبل دولة بريطانيا ؟ كلا ثم كلا ! إن دوام الحال من المحال ، ولا معنى لليأس مع الحياة . وهذه انكلترا نفسها كان يخيل للعالمين فى العام الماضى وقت حادثة فاشودة أنها لا تغلب ولا تهزم أبدا ، وأن دول أوروبا كلها ألعوبة فى يدها . فقضت إرادة الرحمن ألا يحول الحول حتى تقوم الحرب بينها وبين أمة الترنسفال ، وهى كما يعلم الناس أصغر شعوب العالم ، وعدد سكانها لا يتجاوز عدد سكان أصغر المدائن فى انكلترا . وتنتصر عليها جيوش البوير المرة بعد المرة « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة باذن الله » . فهل بعد هذا دليل على أن اليأس من المستقبل جنون فى جنون ، وأن المستقبل بيد الخالق يدبره كيف يشاء ؟ ...

فالعواطف الوطنية فى الأمة المصرية قوية ، والأمل فى المستقبل عظيم . وما على المصريين الراغبين فى إحياء بلادهم وخدمتها الخدمة الواجبة إلا أن يحاربوا اليأس ، ويقضوا على المطاعن الفاسدة التى يوجهها هؤلاء ضد الأمة المصرية العزيزة . والاخلاص فى محبة الوطن والثبات فى خدمته كفيلان بالنجاح الخ .

* * *

من هذا القبيل كثير جدا من مقالات مصطفى كامل كتبها فى الظروف التى استبد فيها اليأس بقلوب الأمة ، وظهر التراجع والتخاذل عند كثير من قادة الرأى فيها . ولعل من اروع هذه المقالات واحدة له بعنوان (بلادى بلادى) نشرتها اللواء بتاريخ ٤ أغسطس سنة ١٩٠٣) قال فى نهايتها :

لقد كنت أعرف أن لكل تجارة سوقا . ولكنى لم أكن أدرى أن لبيع الأوطان سوقا . فليبع بلاده من شاء التنازل عن الشرف والناموس .

أما أنا فسأستمر بمشيئة الله طول حياتي – ولو بقيت وحيدا أخطب في الصحراء وأكتب على صفحات الماء – ذلك الذى عرف فيه المصريون

الخادم الأمين للوطن العزيز : مصطفى كامل

ثم ما كاد يأتي يوم ١٩ يناير وهو اليوم الذى أبرمت في مثله من عام ١٨٩٩ إتفاقية السودان المعروفة حتى بادرت اللواء الى نشر مقال ذكرت فيه المصريين بذلك اليوم المشئوم، واتخذت لهذا المقال عنوانا هو :

يوم ١٩ يناير

(بتاريخ ٢٠ يناير سنة ١٩٠٠)

ومما جاء فيه :

. . . وإن أكبر أيام الشقاء في تاريخ مصر، وأسوأ تذكار يهيج في نفوس المصريين الأحرار الآلام والأشجان هو يوم ١٩ يناير – يوم تذكار اتفاقية السودان – ذلك اليوم المشئوم الذى أعلنت فيه الحكومة الخديوية للأمة المصرية وللعالم كله أن السودان صار مستعمرة انجليزية بالفعل، وأن المشاق الهائلة والأتعاب الجسيمة والأموال الباهظة والدماء الطاهرة التي صرفت في سبيل استرداده قدمت هدية من مصر للدولة البريطانية . فما أعظمك يا مصر كرما وأكبرك بلاء وهما . أجل – كان الأمس (١) تذكار المصيبة الكبرى والداهية الدهماء التي أنزلها وزراء مصر وساسة البريطان على أمتنا الأسيفة من سماء عدالتهم وإنصافهم. فان كان لكم معاشر المصريين شعور وإحساس فتذكروا هذه الحادثة تذكر الأحياء، واعتقدوا أن حقوقكم في السودان مقدسة، وأن كل المعاهدات والاتفاقات لا تميت هذه الحقوق أبداً . وعلموا أبناءكم صغارا معنى هذه الحقوق المقدسة ليطالبوا بها كبارا أو يحافظوا عليها إن استرجعتموها أنتم .

(١) صحتها أمس بدون ال، لان المقصود بها (البارحة) . واما (الامس) بأل فيطلق على أي يوم مضى .

تذكروا معاشر المصريين أن أرض السودان رويت بدمائكم، وصرفت فيها أموالكم، وسلبتكم أشد الرجال وأعز الأبناء.

تذكروا معاشر المصريين أن مصر لا حياة لها بغير السودان، وأن القابض على منابع النيل قابض على أرواحكم.

تذكروا يا معاشر المصريين أن ضياع السودان ضياع لمصر، وأنكم بغير السودان فاقدون الحياة. تذكروا معاشر المصريين أن اتفاقية السودان مخالفة لدستور البلاد وفرامانات جلالة السلطان الأعظم ومعاهدات الدول الأوروبية. تذكروا معاشر المصريين أن فرنسا لم تنس الألزاس واللورين إلى اليوم، وقد مضى على انفصالها ثلاثون عاما. وما حاجة فرنسا اليها كحاجة مصر إلى السودان الخ

* * *

وحدث أن زار اللورد كروم السودان واجتمع هنالك بالموظفين والأعيان وألقى فيهم خطبة أثنى فيها على الموظفين الانكليز، وعلى نشاط الارساليات المسيحية التى جاءت للتبشير بين القبائل الوثنية السودانية، ثم انتقل إلى الحديث عن تعليم السودانيين، ومحاولة إلحاقهم بوظائف الحكومة فقال:

« أما فى السودان فالهيئة الحاكمة الآن هيئة أجنبية. إذ لا يخفى أن المصرى أجنبى عن السودان كالانجليزى سواء بسواء. وكلا الشعبين البريطانى والمصرى يخدم السودان خدمة جليلة ».

ونشرت اللواء هذه الخطبة فى عددها الصادر فى أول فبراير سنة ١٩٠٣ وساءها أن ينعت اللورد كروم المصريين بأنهم كالانجليز أجانب عن السودان فنشرت مقالا بعنوان:

غريب فى بلاده

جاء فيه :

لم يقرأ أحد من المصريين العارفين لحقوق بلادهم وتاريخها ، المطلعين على ما يجرى بين الأمم من التزاحم على السلطة والنفوذ ، والعناية بتقديس ميراث الآباء والأجداد خطاب اللورد كرومر حتى قال ما قلناه من أنه سخر فيه من عواطف المصريين وحق مصر وكرامة المسلمين ، وأنه جاء مؤيداً لما قلناه على رؤوس الأشهاد من سنوات مضت من أن الانجليز لا يرومون من احتلال مصر إلا إضاعة كل حق ثابت لها ، واستخدامها ضد مصالحها .

ولو كانت الظروف السياسية اليوم كما كانت فى أول عهد الاحتلال لكنا سمعنا اللورد يملأ الأرض تأكيدا بأن مصر صاحبة الحق الشرعى فى كل ناحية من نواحيها ، وأن المصرى لا ينازع فى السيادة على بلاده . ولكننا الآن فى زمن كشف فيه المحتلون الستار ، ورفعوا الغطاء وأسمعوا الملأ أنهم هنا وهناك بقوة الاغتصاب ، وأن مصر آلة فى أيديهم ضد نفسها . والمصريون بين مستعبد خاضع لارادتهم ، ومتفرج لا يبدى حراكا . وأى سخرية من حق المصرى أعظم من كون اللورد يعلن أمام أبناء جنسه ويقول القــول ليبلغ مسامع الأمم كلها إن المصرى كالانجليزى غريب فى السودان ، غريب فى بلاده . غريب فى تلك الأرض التى امتلأت جهاتها من عظام آبائه ، وشربت أرضها دماء إخوته وأهله وذويه . غريب فى مهد النيل ، غريب بين قومه . غريب فى السودان بعد ذلك الجهاد المشهود والمال الممدود ، والدم الطاهر الذى أهرق فى ســبيل حقوق مصر والمصريين . غريب فى بلاد قال عنها غلادستون « إن المصرى بما أنفق فى السودان من مال ودماء مالك له ، ولو فصلت زوابع السياسة بينه وبين مصر » .

فاسمعوا معاشر المخدوعين والضالين أقوال اللورد ممثل الاحتلال وكبير المحتلين فى مصر . اسمعوه يقول ، وللبيب أن يفهم مرمى أقواله إن مصر انفقت وستنفق على السودان عاما بعد عام حتى ينتظم أمره ويسعد حاله ويصير جنة دانية القطوف ، ثم يطرد منه كل مصرى ، ويستقل به الانكليزى دون سواه .

قال اللورد كرومر إن المموِّلين المصريين تعهدوا بدفع مبلغ ٣٥٠٠٠٠ جنيه سنويا مساعدة للسودان . ثم أراد أن يشكر مصر على هذه المنفعة فألقى على أبنائها الموظفين فى السودان تهمة الشك والريب فى استقامتهم وحسن سلوكهم ، وهددهم بالمساس بحقوق الجناب العالى الخديوى إذا خالفوا إرادة الانكليز وساروا على غير رغبتهم . وبديهى أنه ليس بعزيز على المحتلين أن يخلقوا من الحوادث البسيطة أسبابا كبارا لتأييد هذه التهمة وإبعاد كل مصرى عن السودان متى جاء الوقت المناسب وتم لهم ما يريدون .

وما قصد اللورد من المساس بحقوق الجناب العالى الخديوى إلا حرمان المصريين من التمتع بنعم السودان وخيراته والاستفادة بتلك الشركة المشؤومة بين مصر وانكلتره .

وإذا كانت ظروف السياسة وحالة البلاد قضت على المصريين أن يقفوا موقف المتفرجين على مصائب بلادهم وشقاء أوطانهم ؛ فليكونوا فى هذا الموقف ذوى قلوب تشعر وتتألم ، وأفئدة تحس وتتوجع ، وعيون تبصر وتذرف الدموع ، لأن المصيبة كل المصيبة أن تصب البلايا على بلاد أهلها فى لهو لا يشعرون ولا يتحركون الخ .

* * *

ولعل من هذا القبيل ما قيل من أنه احتفل بمد الخط الحديدى بين الخرطوم وبور سودان ، وقام الانكليز بالقسط الأوفر من هذا الحفل الكبير ، ولكن المصريين لاحظوا يومئذ أن الخديو عباس لم يحضر بنفسه

هذا الاحتفال، ولا أناب عنه أحداً فى الحضور، ولا حضر كذلك أحد من الوزراء المصريين. فساء ذلك صاحب اللواء وكتب مقالا بعنوان (مصر والسودان) (١) لسنا بحاجة الى اثباته كله أو بعضه.

* * *

قلنا إن من وسائل اللواء فى إذكاء الروح الوطنى فى المصريين الاهتمام بذكرى العظماء والاشادة بحسن بلائهم فى خدمة الوطن. ومن ذلك عناية صاحب اللواء بالدعوة إلى الاحتفال بالعيد المئوى لتولى محمد على حكم مصر. قال فى هذا الصدد تحت عنوان:

العيد المئينى لمؤسس العائلة الخديوية

جاء فيه:

خير الأعياد عند الأمم عيد يذكرها بانتقالها من الظلمات إلى النور، وخروجها من الجهالة إلى العلم والحضارة، وارتقائها فى سبيل الحياة العالية، وارتباطها بعائلة مالكة أجلستها على العرش بارادتها، وصالحتها للنهوض إلى ذرى العلياء، ونوال المنن والنعماء، واعتمدت عليها فى إرشادها إلى واجباتها وحقوقها والمقاصد السامية التى يجب أن ترمى اليها»

وبعد أن أشاد الكاتب بتاريخ محمد على وما قام به من جلائل الأعمال دعا إلى الاحتفال المئينى لولايته قائلا:

«وهذا التذكار السامى يوافق ميعاده يوم ١٣ صفر سنة ١٣٢٠. أى لم يبق على حلوله إلا خمسة عشر شهراً، فليفكر المفكرون فيما يجب على هذه الأمة عمله إعترافا بفضل محييها، وإجلالا للوطن الذى نهض فى عهده نهضته الكبرى، ووثب بين الأوطان وثبة الأسد القاهر. فخير ما يحيي الوطنية فى النفوس، ويجمع جموع هذا الشعب العظيم الأسيف ذكرى العظمة الأهلية والمجد الوطنى. ولمثل هذا فليعمل العاملون ويتنافس المتنافسون» الخ

(١) بتاريخ ٢٨ يناير سنة ١٩٠٦

وقد نجحت الفكرة نجاحاً رائعاً ، وألقى مصطفى كامل بمسرح زيزنيا بالاسكندرية خطبة كبرى يوم ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ وهو يوم التذكار المئيني لولاية محمد على . وكان موضوع الخطبة (عمل محمد على وواجبات المصريين نحو وطنهم) ضمنها ما عمله الرجل لاحياء مصر ، وقارن بين مجدها فى عهده ، وما صارت إليه من الذل والمهانة فى عهد الاحتلال ، وناشد المصريين أن يهبوا لاحياء مجد مصر واستقلالها ودستورها . وقد كان الاقبال على سماع الخطيب عظيماً إذ حضر الاجتماع ثلاثة آلاف ونيف من وجوه البلاد وأعيانها وفضلائها وموظفيها وشبابها . وهرع إليه كثيرون من مختلف الأقاليم حتى من أسوان . وقوبلت الخطبة فى معظم مواضعها بالتصفيق والاستحسان ، وبخاصة عندما ذكر الخطيب ضرورة إنشاء مجلس نيابى لمراقبة تصرفات الحكومة وتقييد أعمالها

* * *

ثم تأتى الكارثة العظمى كارثة الاتفاق الودى بين انجلتره وفرنسا سنة ١٩٠٤ وينظر الناس فى مصر إلى هذا الاتفاق على أنه ضربة قوية صوبها الاستعمار الأوروبى إلى قلب الحركة الوطنية . ولكن اللواء لا يصيبها الذهول الذى أصاب عامة المصريين ، بل سرعان ما تغير خطتها وتطرح فرنسا وغيرها من الدول وراء ظهرها ، وتتجه بكل قوتها إلى الشعب المصرى ، فتعتمد عليه فى بقاء هذه الحركة ، كما تعتمد عليه فى تحقيق آمال المصريين من وراء هذه الحركة. وتتربص اللواء بدعاة الهزيمة فى الأمة ، وتقف لهم موقف الرقيب العتيد الذي يحصى عليهم حركاتهم وسكناتهم ، ويسجل عليهم أقوالهم ، ويلومهم على كل كلمة يراد بها بث الشعور بالهزيمة . من ذلك أن صحيفة من الصحف المصريه هنأت الانجليز بعقد هذا الاتفاق الودى بين انجلتره وفرنسا ، فانبرت اللواء لهذه الصحيفة ، وردت عليها رداً فيه كل معانى السخرية فى مقال بعنوان :

تهنئة غريبة

(بتاريخ الاثنين ١٨ ابريل سنة ١٩٠٤)

جاء فيه :

قامت إحدى صحفنا المصرية التي شيد المصريون بناءها بأيديهم لاعتقادهم أنها كانت الناطقة بلسانهم، المعربة عما في خواطرهم، المدافعة عن حقوقهم، المذكرة كبارهم وصغارهم بأن الاستقلال يجب أن يكون على الدوام نصب أعينهم . قامت هذه الجريدة تهنىء انكلترا على فوزها العظيم في المخابرات التي تمت بينها وبين فرنسا بموافقة هذه الدولة على الاحتلال، وتعهدها بعدم المطالبة بالجلاء . وما معنى هذه التهنئة في هذا المقام إلا القول لانكلتره « هنيئاً لك بتأييد كلمتك في مصر وإتساع نطاق حكمك وسيادتك علينا معشر المصريين ! » وما عهدنا من قبل مأكولا يهنىء آكلا بوقوعه في قبضته واستعداده للقضاء عليه، وما عهدنا شعبا يفرح بنصرة عدوه عليه ويهنئه بفوزه في سياسة امتلاكه والتحكم فيه . فما هذا الشعور؟ وما معنى هذه السياسة؟ وهل يرجو صاحبها خدمة أمته بقتل عواطفها، وتدريبها على عدوها المستحكم فيها، المتصرف في شئونها تصرف المالك فيما يملك ؟

أنظر أيها الكاتب إلى الشعوب التي أصابها ما أصاب شعبك تجد البولوني وقد مزق وطنه وعلت فيه كلمة دول ثلاث يجد ويعمل مفكرا كل يوم وكل لحظة في بولونيا . يذكر تاريخها ويبكي أيامها الخالية، ويربي إبنه على حبها والتمسك بحقوقها . والفنلندي وقد لبس هو وبقية أفراد أمته ثياب الحداد يوم قررت الروسيا ضم جيش فنلندا لجيشها ومحو بقية استقلال هذه الامة . والايرلندي وقد عارض انكلترا في ضغطها على بلاده وسلبها لحقوقه، واستمر يعارض ويجاهد حتى حملها على تجريد اللوردات من أملاكهم بثمن بخس، ورد الأراضي الايرلندية إلى أصحابها الأصليين .

وأنظر إلى غيرهم وغيرهم لتعلم أن الأمم كبيرة كانت أو صغيرة، حاكمة أو محكومة، لا تسمو فيها الاخلاق والصفات وينشأ بينها رجال الفكر العالى والعمل الكبير إلا بالشعور الوطنى. فكل عامل على إطفاء ناره محارب لأمته وقومه وذويه. وكل داع اليه مجد فى سبيل الحياة القومية الصحيحة والرقي الخالد الخ

* * *

ولقد سبق أن ذكرنا أن صاحب اللواء بلغت به الغيرة الوطنية حداً فقد بسببه كثيرا من أصدقائه وأعوانه فى جهاده. ومن هؤلاء الاصدقاء على سبيل المثال: سعد زغلول. وقد بقيت الصداقة بينه وبين صاحب اللواء على أتمها وأخلصها إلى أن جاء يوم تولى فيه زغلول نظارة المعارف العمومية، وأحس مصطفى كامل فى صاحبه أول الأمر بعض الميل إلى رجال الاحتلال، فحاسبه حسابا عسيرا على ذلك، وكتب فى هذا المعنى مقالات من أهمها هاتان المقالتان على سبيل المثال. أما الأولى فبعنوان:

لا يعرف الوطن من لا وطن له

(١٢ فبراير سنة ١٩٠٧)

لم يصرح فيها باسم سعد زغلول وإنما ساق الكلام. سوقا عاماً حيث قال:

يظن بعض الجهلاء ويتوهم الدخلاء أن انتقاد الكبراء والطعن على المقصرين والخائنين من العظماء وأصحاب المراكز السامية جريمة على الوطن وبنيه، وأن الوطنية الحقة تقضى على صاحبها بأن يستر عيوبهم ويقيل نقائصهم.. فيقول أولئك الضالون والمضلون: ما بال صاحب اللواء يمزق (المجد الكاذب) لبعض كبراء مصر من أبناء جنسه ودينه؟ أهذه هى الوطنية؟ كيف يدعى كفاءة المصريين لحكم أنفسهم بأنفسهم، ويقضى بقلمه على أفراد من عظماء المصريين؟ الى آخر ما جاء فى هذه المقالة

وأما المقالة الثانية من المقالات التى هاجم فيها سعد زغلول ففيهاصرح باسمه ووجه الخطاب اليه حيث قال بعنوان :

الحقيقة المرة

(بتاريخ ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٠٧)

يتوجع سعادة ناظر المعارف لأنى إنتقده وأريد تقـويمه وأدله إلى طريق الشرف الحقيق لا الشرف الموهوم . وما هو بأكبر من سيدنا عمر ، وما أنا بأحقر من راعى الابل .

فأسمع يا سعادة الناظر الحقيقة المرة : —

إنك كنت قبل تعيينك وزيراً تشكو مما نشكو منه ، وتتألم لما نتألم منه ، بل سبقتنا فى الشكوى والتألم والانتقاد والسخط عقب حادثة دنشواى . وسمعنا منك من الطعن على الاحتلال وسياسته ما لم نسمعه من إنسان . وكنت تقول إنك تنوى بيع كل أملاكك ومبارحة هذا القطر ، لأنك سئمت المعيشة فى بلاد أحكامها ما نرى . فما ارتقيت الوزارة حتى تغيرت مرة واحدة ، وصرت « احتلاليا أحمر » . ولعلك لا تجهل أننا ممن يقولون بأنه لا يمكن للمصرى أن يكون احتلاليا ويبقي مصريا . وبعبارة أوضح أن خدمة الاحتلال ومصر معا — ما دامت سياسة الاحتلال هي هى — أمر مستحيل . وتعرف كذلك رأينا فى زملائك في الوزارة . وقرأت مرارا فى اللواء حكمنا عليهم

ولذلك قلنا لك عند تعيينك ناظرا للمعارف إن أمامك سبلا ثلاثة . فاما أن تكون وزيراً حقيقياً ، أو ترى الأمر محالا فتستقيل . وفى كلتا الحالتين تكون قد خدمت البلاد . وإما أن ترضخ للاحتلال فلا تجد منا إلا نفوراً وعداء .

ولعلك لا تنكر أمام ضميرك أنك اخترت الطريق الثالث ، وأنك جاريت

المحتلين بما لم يكن ينتظر منك . فتركت الجامعة ، وسألك اللواء يومئـذ « كيف يهتم المستشار فى الاستئناف بمشروع علمى ولا يهتم به ناظر المعارف ؟ » . وقمت مدافعا عن دنلوب وسياسته فى المعـارف ، فصرحت بسرورك وارتياحك من حالة المعارف فى جريدة الأهرام الغراء ، وخطبت خطبتك المشهورة فى الجمعية العمومية ، فقلت ضد ما نعلم من اعتقادك ، وجرحت الأمة كلها ، وأبيت أن تمد الجمعية بالعمل لجعل التعليم باللغـة العربية . وصرت ترى فى اللورد كرومر سيد البشر ، فلا تقبل طعنا فيه ولا انتقادا عليه . ورأى كل أصدقائك هذا الانقلاب فى طباعك ، وبالغت فى الأمر ، فلم تلتفت إلى عواطف أمتك ، بل جعلت كل عنايتك موجهة لنفسك ومصلحتها ، فقلت عن اللورد كرومر إن له فى قلبك « مكانة عالية من الاحترام » بعد أن سب الاسلام والمسلمين ، ولقب المصريين بالعميان ، وحكم عليهم بالمذلة والهوان إلى آخر الزمان . (١)

وكان الذوق يقضى ألا تقول عن اللورد كرومر هذا القول بعـد طعنه القبيح فى سمو الأمير .

قد يرضى البعض منك أن تعمل الجزئيات والصغائر ، فتعين هذا وترقى ذاك مما يتركه لك الانـكليز . ولـكننا نحن كنا نريد سعدا أكبر ممن نرى : أتعرف ماذا كنا نرجو منك ؟

كنا نرجو أن تضع خطة إصلاح للمعارف شاملة لتعميم التعليم الابتدائى ، وجعله مجانيا ، ولانشاء مدارس تجهيزية فى أنحاء القطر ، وجعل التعليم باللغة العربية ، والاستعانة بالأساتذة الا كفاء الذين لبوا نداءك وطلبوا خـدمة بلادهم فتركت دنلوب يمزق هذه الطلبات وما حركت ساكنا ، ومكافأة الذين يؤلفون الـكتب النافعة للتعليم وإرسال الارساليات فى كل أنحاء أوربا .

---

(١) راجع خطبة اللورد كرومر ورد السيدعلى يوسف عليها وذلك فى الجزء الرابع من كتابنا هذا ص ١٧٣ ـ ١٧٥ ، ص ٢٣٧ ـ ٢٥٠

فاذا قبل الاحتلال خطتك كنت الوزير الذى يشار اليه بالبنان . ونحن نعتقد أنه كان مضطرا لقبولها للظروف الاستثنائية التى تعينت فيها . وإن رفضها إستقلت وأعلنت للأمة أسباب إستقالتك ، وبرهنت للملأ كله أن فى المصريين من يضحون بالمناصب حبا فى الوطن ومصالحه .

ولكنك وجدت « محالا » اتباع هذه الخطة . فوجدنا « محالا » قبول ما عملت والتمدح بما أتيت . لأن مبدأنا الذى نعرفه يقضى كما قدمنا باساءة الظن إلى آخر حد بمن يجاري المحتلين ضد مصالح الأمة .

يدفعك الغضب إلى القول بأنى لا أحب أن أرى فى البــلاد عاملا يذكر بحبها والسعى لخيرها غيرى . فهل هذا اعتقادك الصحيح إذا سكن غضبك ورجعت إلى نفسك ؟ أهــذا ما كنت تقوله بأعلى صوتك قبل تعيينك وزيراً بساعة واحدة ؟ وكيف دافعت فى اللواء عن المرحوم المنشاوى باشا وأطريته ووقفت ثنائى عليه لما وهب هباته الجسيمة للتعليم بعد أن كنت ألد خصومه ؟ وكيف مدحت كل خادم لهذه البلاد قام بالواجب خير قيام ؟ ولماذا كنت أرى فيك المستشار العادل والقاضى المتمسك بالحق ولا أرى فيك اليوم الوزير الذى تريد أن تمثله للامة بغير حق ؟

فلا يدهشنك منى أن أكون اليوم على خلاف معك فانى عدو لكل صديق للاحتلال ما دامت سياسة الاحتــلال هى هى . ولا تهمنى الصغائر ، بل أطلب الكرامة والوطنية الحقة قبل كل شىء ، فهما الجوهر وما عداهما العرض . ولعلك لا ترى اليوم ما أرى ، ولكن سعد بك زغلول كان يرى هذا الرأى من قبل .

فاسمح لى أن أكون معه ولا أكون مع الوزير .

* * *

ثم يأتى يوم دنشواى وما أدراك ما يوم دنشواي ، فقد صال فيــه

الرجل وجال ، ولم تكفه يومئذ صحيفة اللواء الوطنية ، وزميلتاها الفرنسية والانجليزية ، بل سافر إلى أوروبا وأخذ يكتب المقالات المثيرة فى الصحف الكبرى ، وذلك فضلا عن الأحاديث الكثيرة التى سعت إلى أخذها منه بعض هذه الصحف ، والخطب الطويلة التى ألقاها الرجل فى كبريات المدن الأوروبيه ، وبحسبنا هنا أن نشير إلى مقالة واحدة نختم بها هذا الفصل. ويحسن بنا أن نورد هذا النموذج الاخير كما ورد فى الصحف ، وهو كالآتى :

الى الامة الانكليزية والعالم المتمدن

(بتاريخ ١٨ يوليه سنة ١٩٠٦)

وافتنا الأنباء التلغرافية فى الأسبوع الماضى منبئة بأن صاحب اللواء كتب فى جريدة « الفيجارو » الشهيرة مقالة ضافية عن مسألة دنشواي وتهمة التعصب الدينى المزعوم . وقد دوت فى أوربا دويا عظيما وتناقلتها الجرائد الخطيرة على اختلاف لغاتها ، واهتم بها الساسة الانكليز بنوع خاص .

وقد جاءتنا « الفيجارو » الصادرة فى يوم ١١ الجاري — وهو يوم تذكار ضرب الاسكندرية — وفى صدرها هذه المقالة الكبرى. وكانت الفيجارو قبل ذلك بأيام وافقت على خطبة السير ادوارد جراى فى البرلمان الانكليزي ، فلم يكن فى استطاعتها الرجوع عما قررته . ولذلك تركت مسؤولية المقالة التى نحن بصددها لصاحب اللواء .

وحسبنا أنها نشرتها بكل عناية واهتمام . وقالت إنها « بليغة مؤثرة » . وأذاعتها فى أنحاء العالم ، فكأن كل الجرائد الخطيرة نشرتها لا جريدة واحدة .

وإلى القراء ترجمتها بالحرف الواحد :

« لقـــد حدثت حادثة مؤلمة فى قرية من قرى الدلتا بمصر تدعى دنشواى ، تحركت بسببها عواطف الانسانية فى العـالم كله . وقام أحـرار الفكر مستقلو الأخلاق والأطوار فى انـكلترا رافعين أصواتهم سائلين عما إذا كان يوافق كرامة الدولة البريطانية وشرفها ومصلحتها أن تسمع بأن يرتكب باسمها أمر ظالم قاس كهذا .

وإنه لمن الواجب على الذين يشفقون حقيقة بالانسانية والعدالة أن يدرسوا هذه المسألة ويحكموا عليها . وهى المسألة الشاغلة لأمة بأسرها .

فقد ترك ضباط من الانـكليز فى يوم من أيام يونيه الماضى معسكرهم بالقرب من دنشواى بمديرية المنوفية وقصدوا إلى صيد الحمام فى الأملاك الخصوصية للأهالى .

فأنذر شيخ فلاح المترجم المرافق لهم بأن الأهالى استاءوا فى العام الماضى من صـيد الضباط الانـكليز لحمامهم ، وأنهم ربما زادوا من غضبهم وسخطهم لو عادوا إلى الصيد .

ورغماً عن هذا الانذار فأن الضباط أخذوا يصطادون ، وأطلقت العيارات النارية ، وجرحت امرأة وحرق غيط . فاجتمع الفلاحون من كل مكان ووقعت مشاجرة بينهم وبين الانـكليز ، جرح هؤلاء فيها ثلاثة من المصريين ، وجرح المصريون ثلاثة من الضباط الانـكليز . وقد تخلص أحد المجروحين وهو الـكبتن « بول » من المعركة ، وقطع بكل سرعة مسافة خمسة كيلومترات حيث كانت حرارة الشمس بالغة ٤٢ درجة ، وسقط بعد ذلك ميتا بضربة الشمس . ثم ما علم العساكر الانـكليز بما وقع لضباطهم حتى هجموا على قرية مجاورة لدنشواى ، وقتلوا فلاحا بدق رأسه .

هذه هى الوقائع . ولـكن ما علمها أصحاب الأمر من الانـكليز حتى فقدوا الرشد ، وثاروا من قيام المصريين بالمدافعة عن أنفسهم وعن أملاكهم . وبدلا من أن يعتبروا الحادثة بسكون جأش كـكل المشاجرات والمعارك ،

بالغوا فيها وجسموها ، وأعلنت الصحف المخلصة للاحتلال قبل المحاكمة بأن العقوبات والعبرة التى ستضرب للناس ستكون هائلة . فلم تكن العدالة هى المنشودة فى المسألة ، بل الانتقام الفظيع !

ونشرت نظارة الداخلية بأمر المستر متشل المستشار الانكليزى قبل المحاكمة بأسبوع مذكرة رسمية أثقلت فيها كواهل المتهمين بالتهم ، وقصدت صراحة إلى التأثير على المحكمة والرأى العام . وبلغ من احتقار إحدى الجرائد القائمة فى خدمة الاحتلال للعدالة أنها نشرت خبر إرسال المشانق إلى دنشواى .

وقد راع الشعب كله ذلك ، فأخذ يتساءل عن الحكم الذى ينتظر صدوره بعد مظاهرة كهذه .

وقد اجتمعت المحكمة فى هذه الظروف يوم ٢٤ يونيه وأى محكمة ! محكمة استثنائية لا دستور لها ولا قانون يربطها . لقضاتها أن يحكموا بكل العقوبات التى تخطر على البال :

محكمة الأغلبية فيها انكليز ، ولا تستأنف أحكامها ولا تقبل العفو ! وإن الدكريتو الذى صدر بتشكيلها فى عام ١٨٩٥ بناء على طلب اللورد كرومر وضغطه — ذلك الضغط الذى لا يسمح للحكومة الخديوية مطلقا باظهار أقل مقاومة — ذلك الدكريتو يحمل قراءه على الظن بأن الجيش الانكليزى الذى ألقت اليه انكلترا أمر تأييد الأمن فى مصر فى خطر مستمر جعله فى حاجة لمحكمة كهذه أو لآلة إرهاب ؟

وقد قضت هذه المحكمة ثلاثة أيام فى نظر القضية . وتبين أن الضباط الانكليز هم الذين هيجوا الفلاحين بصيدهم فى أملاكهم ، وبجرحهم إحدى نسائهم ، وأن الفلاحين هجموا على الانكليز بصفتهم صيادين يختلسون الصيد لا بصفتهم ضباطا بريطانيين . وأعترف أمام المحكمة أطباء انكليز منهم الدكتور نولن الطبيب الشرعى للمحاكم بأن الكابتن بول مات بضربة

الشمس ، وأن جراحه لم تكن كافية وحدها لاحداث الموت .

ولم تترك المحكمة إلا ثلاثين دقيقة لأكثر من خمسين متهما ليقولوا ما عندهم . وأبت سماع أقوال أحد من رجال البوليس أكد أن الضباط الانكليز أطلقوا أعيرة نارية على الأهالى . وبنت حكمها على تأكيدات الضباط الذين كانوا السبب فى المعركة .

وفى يوم ٢٧ يونيه صدر الحكم بشنق أربعة من المصريين ، وبالاشغال الشاقة المؤبدة على اثنين ، وبالأشغال الشاقة لمدة ١٥ عاما على واحد ، وبها لمدة سبع سنوات على ستة ، وبالحبس مدة عام مع الجلد على ثلاثة . وبالجلد على خمسة . وقد جلد كل واحد من هؤلاء خمسين جلدة بكرباج له خمسة ذيول !

وقررت المحكمة فى حكمها تنفيذ الحكم فى اليوم التالى بحيث لم ينقض إلا خمسة عشر يوما بين الواقعة وتنفيذ الحكم .

ففى الساعة الرابعة بعد نصف الليل من يوم الأربعاء ٢٧ يونيه جيء بالأربعة المحكوم عليهم بالشنق والثمانية المحكوم عليهم بالجلد من شبين الكوم مديرية المنوفية إلى قرية الشهداء التى تبعد أربعة كيلو مترات عن دنشواى ولبثوا هناك تسع ساعات ينتظرون الانتقام المريع .

وفى الساعة الأولى بعد ظهر يوم الخميس ٢٨ يونيه جيء بهم إلى دنشواى . وكان أصحاب الأمر من الانكليز صمموا على تنفيذ الحكم فى محل الواقعة وفى الساعة التى وقعت فيها !

وقد نصبت المشانق وآلات الجلد والتعذيب فى وسط دائرة مساحتها ٢١٠٠ متر . وأحاطت عساكر (الدراغون) الانكليزية بالمحكوم عليهم . والتفت السوارى المصرية حول الانكليز . وتولى المستر متشل ومدير المنوفية أمر التنفيذ . وقد تقدم إليهما ابن أول محكوم عليهم بالشنق سائلا مقابلة والده

لأخذ وصاياه الأخيرة فرفضا قبول هـذا الرجاء الذى هو أعز ما يرجوه إنسان !

وفى منتصف الساعة الثانية امتطت الجنود الانـكليزية خيولها ، وأشهرت سيوفها ، وبدىء بعد ذلك بدقيقة فى الشنق . فشنق رجل ، ولبث أعضاء عائلته وأقاربه وكل أهالى القرية وهم على بعـد يملأون الفضاء بصراخهم الممزق للقلوب . وجلد اثنان أمام الجثة !

وتـكرر هذا المنظر ثلاث مرات !!!

واستمر ساعـة من الزمن منظر وحشى مهيج للعواطف ذرف فيـه بعض الحاضرين من الأوروبيين دموع الحنان والنفور مما رأى . وذهب كل واحد منهم وهو يكرر كلمة أحد المشنوقين :

« لعنة الله على الظالمين ! لعنة الله على الظالمين ! »

إن يوم ٢٨ يونيه من عام ١٩٠٦ سيبقى ذكره فى التاريخ شؤما ونحسا . وهو خليق بأن يذكر فى عداد أيام التناهى فى الهمجية والوحشية .

وقد عمت مصر كلها عواطف الانفعال والسخط عنـد انتشار أخبار تنفيذ الحـكم فى دنشواى . وقد كان يستحيل على أعداء انكلتره الوصول إلى هذه النتيجة بعد جهاد خمسين عاما . ومن العجيب أن يكون الموجدون لها هم عمال الانـكليز !

وقد انشأ الشعراء المصريون على حـكم دنشواى أشعاراً تخلد ذكرى المناظر الـتى أهينت فيها المدنية والانسانية بأقسى الصور المهيجة للضمائر والنفوس .

وإنى جئت اليوم أسأل الأمة الانـكلزية نفسها والعالم المتمدن عما إذا كان يصح التسامح فى إغفال مبادىء العدالة وشرائع الانسانية إلى هذا الحد ؟

جئت أسأل الانـكليز الغيورين على سمعة بلادهم وكرامتها أن يقولوا

لنا عما إذا كانوا يرون مد النفوذ الأدبي والمادى لانكلترا فى مصر بالظلم والعسف والهمجية ؟

جئت أسأل الذين يرفعون أصواتهم عالية ذاكرين الانسانية ، مالئين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط — إذا حدثت فظائع فى بلاد أخرى دون فظيعة دنشواى ألف مرة — أن يثبتوا صدقهم وإخلاصهم بالاحتجاج بكل قوة وشدة على عمل فظيع يكفى وحده لأن يسقط إلى الأبد المدنية الأوروبية فى أعين الشعوب الشرقية .

جئت أسأل الأمة الانكليزية إذا كان يليق بها أن تترك الممثلين لها يلجأون بعد احتلال دام أربعة وعشرين عاما إلى قوانين استثنائية ، ووسائل همجية ، بل وأكثر من همجية ليحكموا مصر ويعلموا المصريين ما هى كرامة الانسان . .

إنى أعجب فى إخلاص وشكر واعتراف بالجميل بالنواب والكتاب الانكليز الذين نادوا بأعلى صوت معلنين مزيد غضبهم من الرواية المحزنة الشنيعة التى مثلت فى مصر .

ولكن لما رأى السير ادوارد جراى أن الرأى العام أنقاد لهم ، وأنه قضى على سياسة اللورد كرومر حين وقف فى مجلس العموم وتكلم عن التعصب الاسلامى المزعوم فى مصر ، وسأل النواب بكل رجاء وإلحاح أن لايشتغلوا بمسائل مصر حتى لا يضعفوا سلطة الحكومة المصرية ، أو بعبارة أخرى يضعفوا اللورد كرومر القادر فيها على كل شىء أمام خطر صرح علنا بأنه موهوم .

إن هذا الخطر ليس فى أيدى أصحاب الأمر من الانكليز إلا وسيلة لتبرير الفظيعة الحديثة وفظائع أخرى فى المستقبل القريب .

على أنه لا وجود لهذ الخطر . وما القصد من تلك الفظائع إلا إحداثه .

وإنى أؤكد بحق أقدس شىء فى الدنيا أنه لا وجود للتعصب الدينى

فى مصر. نعم — إن الاسلام سائد فيها، لأنه دين الأغلبية العظمى . ولكن الاسلام شىء والتعصب شىء آخر .

إن السير ادوارد جراى انخدع فى هذه المسألة . وإنى أرجوه أن يفكر لحظة فيما يأتى :

هل لو كان فى مصر تعصب حقيقة أكانت تستطيع إنكلترة أن تحاكم ٥٢ مسلما أمام محكمة استثنائية، مؤلفة من أربعة قضاة مسيحيين وواحد مسلم !

هل تنفيذ الحكم فى دنشواى بتلك الصورة الهمجية لم يكن كافيا وحده لاشعال نار التعصب المدمرة الصاعقة لو كان هناك تعصب حقيقة ؟

ولماذا لم يحدث ذلك التعصب الذى تكلم عنه السير ادوارد جراى معارك كمعركة دنشواى فى أثناء مسألة (طابة) حين كانت الأغلبية الكبرى من المصريين فى جانب تركيا مع أن الجنود الانكليزية كانت تمر دائما فى كل جهة بكل أمان واطمئنان ؟

لقد أثبتت المرافعات فى قضية دنشواى بكل إفاضة وبيان أنه لادخل للاسلام فيها، فان الضباط الانكليز وجدوا من بعض الفلاحين المسلمين مساعدة وتعضيدا .

إنه يحق للمصريين أن يطلبوا تحقيقا دقيقا كاملا فى المسألة . وإن مصر على بعد يومين من أوروبا . فليأت اليها الانكليز المحبون للعدالة والراغبون فى عدم ثلم الشرف البريطانى . ليذهبوا إلى المدائن والقرى، وليروا بأعينهم كيف يعيش المسيحيون من كل جنس مع الفلاحين وكافة المصريين، وليقتنعوا بأنفسهم أن الشعب المصرى ليس متعصبا أبداً، ولكنه ينشد العدالة والمساواة، ويطلب أن يعامل كشعب لا كقطيع من الأغنام . وهو يعمل لنجاح هذا المطلب بكل وسيلة .

أجل — إن الشعب المصرى شاعر الآن بكرامته . وذلك أمر لا يمكن

إنكاره اليوم . وهو يطلب معاملة أبنائه أسوة بالأجانب وهو طلب غير مبالغ فيه أبداً.

ولقد تكلم السير ادوارد جراى عن حماية الأوروبيين ضد المصريين. ولكن هل له أن يبين لنا الخطر المهدد للأوروبيين القاطنين بمصر ؟ ألا يعيشون فى أتم صفاء مع المصريين ؟ ألا تحميهم الامتيازات الاجنبية ؟

ولكن من يحمى المصريين ؟ ألا نرى فى بعض الأحيان مجرمين من الأجانب يحتج النزلاء جميعا على جرائمهم يقتلون ويجرحون المصريين ، ثم يفلتون من أيدى المحاكم المصرية ؟ وأى عقاب ستعاقب به الجنود الانكليزية التى قتلت الفلاح على مقربة من دنشواى ، والضباط الذين جرحوا امرأة وثلاثة رجال ؟

إن اللورد كرومر دافع عن نفسه فى تقريره الأخير ضد الذين يطعنون فى السلطة المطلقة التى يتصرف بها فى أمور مصر قائلا إن البرلمان والرأى العام فى انكلترة يراقبان أعماله كما أن الصحافة المصرية تراقبها أيضا .

ولكنها مراقبة باطلة لأنه ما اشتغل البرلمان بمسائل مصر ، واحتج على أعمال وحشية كهذه حتى قال اللورد كرومر للسير ادوارد جراى بأن التعصب مخيف على شواطىء نهر النيل ، وإنه يجب على البرلمان ملازمة الصمت . وبذلك لا يوجد مانع يمنع اللورد كرومر من حكم مصر بأشد القوانين مخالفة للعدل والانصاف .

ولذلك يقضى شرف الأمة الانجليزية عليها بأن تزن الأقوال الرسمية وأقوالنا ، وتقوم باجراء تحقيق دقيق ودراسة القضية التى أمامها الآن بكل استقلال .

لقد قضى اللورد كرومر الأعوام الطوال وهو يؤكد بأن الأمراء والكبراء فى مصر هم وحدهم المبغضون للاحتلال ؛ لأنه سلبهم سلطتهم ؛ بخلاف الفلاحين فانهم يحبونه حبا جما ، ويدعون بدوام العصر الحاضر .

وبناء على ذلك فانه إذا لم يعتد فلاحو دنشواى على الضباط الانكليز إلا لأنهم رأوا إحدى نسائهم مجروحة ، فالحكم والتنفيذ يكونان قد بلغا أقصى درجات البشاعة ، ويحق للعالم كله أن يقابلها بمزيد السخط . وإذا كان الأمر بالعكس وأتى الفلاحون ذلك طوعا لعاطفة حقد دينى أو وطنى فيتحتم على اللورد كرومر أن يتعرف بأنهم يمقتون الاحتلال ، وأن إدارة جنابه أدت إلى فشل ليس له مثيل . ويحق عندئذ للمستر (ويلون) أن يقول مؤكدا « إن خطة السير ادوار هى أتعس شرح لمركز انكلترا وسياستها فى مصر » .

على أن كافة الذين يقطنون مصر ويحبون الصدق والحقيقة يعترفون بأن حادثة دنشواى لم تكن مطلقا ثمرة حركة عدائية ضد الأوروبيين ، وأن المصريين هم أكثر أمم الارض إعتدالا وتسامحا .

إن الخطة الوطنية التى يجرى عليها أصحاب النفوذ والتأثير على الرأى العام فى مصر واضحة جلية . فنحن نريد بفضل التعليم ونور التقدم إنهاض شعبنا ، وتعريفه حقوقه وواجباته ، وإرشاده إلى المقام اللائق به فى العالم . وإننا أدركنا من أكثر من قرن إنه لا يمكن للأمم أن تعيش عيشة كرامة إذا لم تسلك طريق المدنية الغربية . ونحن أول شعب شرقى صافح أوروبا . وإننا مستمرون على السير فى الطريق الذى سلكناه .وإننا بالتعليم والتقدم والاعتدال والفكر الحر الراقى ننال أحترام العالموحرية مصر .

ومقصدنا الذى نرمى إليه هو استقلال وطننا . ومحال أن يوجد شىء ينسينا ذلك المقصد .

وإن إنعطافنا نحو الشعوب الاسلامية الأخرى طبيعى ولا تعصب فيه . وإنه لا يوجد مسلم متنور واحد يظن لحظة واحدة أن من الممكن إجماع الشعوب الاسلامية فى عصبة واحدة ضد أوربا . والذين يقولون ذلك إما جاهلون أو راغبون فى إيجاد هاوية بين العالم الأوروبى والمسلمين .

ولا سبيل لنهضة الشعوب الاسلامية بغير حياة إسلامية جديدة تستمد قوتها من العالم والفكر الواسع الراقى.

وإن لمصر مكانا خاصا بها فى الشرق .فهى التى وهبت العالم قناة السويس، وفتحت السودان للمدنية ، وجعلت فيها طبقة راقية الفكر . وتقدم الأمة بالأمة يمشى فيها سريعا . ومن المستحيل أن تحكم مصر — وهذا حالها — كما تحكم بلاد بعيدة مختبئة فى أعماق أفريقيا وليس بينها وبين أوربا اتصال .

ألم ير الناس الانكليز ينفعلون ويتهيجون ضـــــد ما يجرى فى جهات الكنغو وغيرها من البلاد ؟ فكيف يسمحون بحدوث أفظع الجرائم فى مصر ؟

إن من الواجب على أوربا كلها أن تهتم بمصر . فان مصالحها فيها جسيمة ، والكثيرون من رعاياها جمعوا ثروات كبيرة بها .

وإن القوانين الاستثنائية والاعتساف لا يؤديان إلا إلى تهييج الشعب المصرى ، وخلق عواطف عنده مخالفة بالمرة لعواطفه الحالية .

وإننا إنما نطالب بالعدالة والمساواة والحرية . ونطلب دستورا ينقذنا من السلطة المطلقة . ولا شك أنه لا يمكن للعالم المتمدن وللرجال المحبين للحرية والعدالة فى انكلترا إلا أن يكونوا معنا ، ويطلبوا مثلنا أن لا تكون مصر التى وهبت العالم أجل وأرقى مدنية أرضا تمرح الهمجية فيها ، بل بلاداً تستطيع المدنية والعدالة أن تبلغا فيها من الخصوبة والنمو مبلغ خصوبة أرضها المباركة !

مصطفى كامل

* * *

(وبعد) فربما أطلنا على القارىء بكثرة النماذج التى عرضناها فى هذا الفصل . عذرنا فى ذلك أننا أردنا أن نعرض عليه صورة واضحة من هذا القلم الذى وقفه صاحبه على الدفاع عن الوطن وكرامة الوطن .

ومع هذا وذاك فاتنا لم نستطع أن نفى الرجل حقه من الوصف، ولا استطعنا أن نقدم النماذج الكافية للبرهنة على بلائه فى ميدان الوطن والوطنية

* * *

واختار الله صاحب هـــذا القلم إلى جواره فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ فمضت اللواء فى جهادها مستعينة فى ذلك بالحزب الوطنى ورجاله . وقد نجح الحزب الوطن نجاحا تاما فى القضاء على الخلافات المذهبية فى مصر، ثم نجح الحزب وصحيفته نجاحا تاما وفى أمور ثلاثة أخرى :

أولها — المطالبة بالدستور . فلم يزل بولاة الأمور حتى شهدت مصر اجتماع مجلس الشورى فى ٣١ اكتوبر سنة ١٩٠٨ . وفيه أثيرت مسألة المطالبة بإنشاء مجلس نيابى على وجه السرعة ، بشرط أن يكون كأحدث المجالس النيابية فى أوربا .

وثانيها — اشتداد الحملة على بطرس غالى باشا الذى تولى الوزارة بعد مصطفى فهمى باشا . وقد أساءت هذه الحملة أيضا إلى الخديو نفسه . ثم ازداد اللواء حدة منذ تولى الشيخ عبد العزيز جاويش تحريره إبتـــداء من (٣ مايو سنة ١٩٠٨) فحمل على الحكومة المصرية بصفة عامة، وعلى دنلوب المستشار الانجليزى لوزارة المعارف بصفة خاصة ، وانتقد خطة الحـــكم المصرى فى السودان بوجه أخص . واضطرت الحكومة المصرية أمام هذه الحدة البالغة من جانب الشيخ جاويش أن تقرر العودة إلى قانون المطبوعات الصادر فى سنة ١٨٨٢ وإعادته فعلا فى ٢٩ مارس سنة ١٩٠٩ ولكن هذا القانون كان كعود الثقاب أحـــدث الحرائق الهائلة فى الأوساط الوطنية والصحفية ، وراحت الصحف المصرية وعلى رأسها اللواء تشن الغارات المتوالية على الحكومة بسببه .

وأخيرا سجلت اللواء لنفسها نصراً كبيراً على الحكومة فى الأمر الثالث والأخير وهو .

ثالثها — رفض المشروع الذى كان يهدف إلى مد إمتياز قناة السويس . غير أنه فى أثناء مناقشة المشروع حدث أن محمد ابراهيم الوردانى إلى إغتيال

بطرس باشا غالى . وكان يومئذ رئيس الحكومة المصرية . وقتل فعلا فى ١٠ فبراير سنة ١٩١٠ . وكان من أثر هذا الحادث أن صدرت ثلاثة قوانين ضيقت من حرية الصحافة . غير إنه بالرغم من صدور هذه القوانين مضت اللواء قدما فى معارضة الاحتلال والحكومة فى وقت معاً. فنشرت مقالا بعنوان « الزراعة والصناعة فى عهد الاحتلال بين مصر والهند » أورت فيه إحصائية دقيقة توضح البون الشاسع بين عهدين، هما عهد ما قبل الاحتلال وعهد ما بعده. فقامت الحكومة من جانبها بانذار اللواء ، فهاجت معظم الصحف على هذا الانذار ، وهاجمته واستمرت اللواء فى كفاحها الموفق ونضالها المجيد حتى وقع خلاف بين ورثة مصطفى كامل والحزب الوطنى ، وانتهى الأمر بالحجز على مطابع الصحيفة ، نخسرت الحركة الوطنية خسرانا عظيما .

وعلى أثر مقال حاد لمحمد بك فريد فى موضوع صندوق التوفير والنقابات الزراعية عطلت اللواء ، واختفت من ميدان السياسة ، بعد أن أبلت فى ميدان الحركة الوطنية من البلاء الحسن ما لم تبلغه صحيفة أخرى من الصحف فى مصر .

الفصل الثامن

اللـــواء والمجتمع المصرى

نتصفح جريدة اللواء فى السنوات الثمانى الأولى من حياتها كذلك فنجد لهـا عناية تامه بالمجتمع المصرى من جميع جوانبـه . ولا غرابة فى ذلك فقد كان صاحب اللواء رجلا كثير الأسفار ، وكانت له عـين يفتحها على وجوه التقدم فى البلاد الأوروبية التى يختلف اليها ، وكان له ذهن يعى كل ذلك ، وقلب فياض الاحساس ينبض بالغيرة على مصر ويتمنى على الدهر أن يراها بلغت ما بلغته أوروبا .

على أن صاحب اللواء كان لا ينسى فى أثناء ذلك أن لمصر شخصية خاصة ، وأن لهذه الشخصية طابعاً خاصاً . ومن ثم كان الرجل ملهما فى كل ما اتجه اليه من إصلاح إجتماعى . وكأن إصلاحه مطابقا فى أكثره للطابع الذى تمتاز به هذه الشخصية المصرية . ومن ثم كتب له النجاح فى هذا الميدان الاجتماعى كما كتب له فى غيره من الميادين الاخرى .

ولنا أن نسرع هنا فنقول إن أكبر مسألة عنيت بها اللواء فى عصر مصطفى كامل هى مسألة التعليم ، وأن أكبر موضوع عنى به صاحب اللواء من موضوعات التعليم إنما هو موضوع اللغة العربية باعتبارها اللغة القومية للامة المصرية . ومن أجل ذلك دافع الرجل عنها أصدق دفاع ، وجرى فى ذلك على طريقة أستاذه النديم وطريقة الشيخ محمد عبده . ثم أضاف صاحب اللواء إلى كل ذلك دفاعه الحار عن مدرسى اللغة العربية . فقد أدرك يومئذ أن المحتل حين أراد شراً بالعربيـة هبط بمدرسيها إلى مستوى أقـل من

مستوى زملائهم ممن يشتغلون بتدريس المواد الأخرى . ومتى هان مدرسو اللغة القومية على أنفسهم فقد هانت هذه اللغة معهم ، واستخف الناشئة بها وبهم .

وكان من مظاهر العناية التامة من جانب اللواء بأمور التعليم أن تصدت هذه الصحيفة لنقد ناظر المعارف المصرى سعد زغلول ، ونقد المستشار الانجليزى لهذه النظارة ، وهو المستر دنلوب ، ونقد كثيرين من موظفى هذه النظارة بعد ذلك .

وأن قارىء المقالات العديدة التى نشرتها اللواء فى موضوع التعليم ليحس برغبة ملحة فى أعماق مصطفى كامل فى أن يبنى التعليم المصرى على أساس من القومية المصرية ، وأن تعدل نظارة المعارف عن سياستها التعليمية التى هى من وضع رجال الاحتلال .

على أن صاحب اللواء لم يكن ينهج فى ذلك خطة صاحب المؤيد فى الاعتراف ببعض حسنات عهد الاحتلال ، وذكر شىء من مآثره على التعليم . فقد اعترف صاحب المؤيد للاحتلال الانجليزى بأنه أصلح مايسمى (بالتعليم الأولى فى مصر) وهذا حق فقدنظم الكتاتيب ، وعمل على إنشاء المدارس التى تخرج (المعلم الأولى) ليحل محل الشيخ القديم الذى كان يقوم على تعليم الصبية القرآن الكريم ؛ وهو شخصية معروفة فى تاريخنا المصرى باسم « سيدنا » .

غير أن مصطفى كامل — بدافع عن حماسته ووطنيته — لم يكن من خطته الاعتراف ولو بالقدر الضئيل من الفضل لرجال الاحتلال على التعليم . وهذا أمر إن أجازته الوطنية المصرية ودعت إليه الحركة القومية فإن البحث العلمى لا يرضى به ، بل يؤثر عليه أسلوب السيد على يوسف فى إنتقاد الانجليز ، وهو أسلوب يقوم على ذكر حسناتهم ، كما يقوم على نقد عيوبهم على أن كلا من الرجلين (على يوسف ومصطفى كامل) كان يكمل صاحبه

من هذه الناحية — وأعنى بها ناحية النقد الموجه إلى سياسة التعليم، كما كان يكمله فى غير ذلك من وجوه الاصلاح الأخري .

وإن ننس لا ننسى لصاحب اللواء أنه كان من أول الداعين فى مصر لعقد مؤتمرات التربية . وقد أعد عدته فعلا لواحد من هـذه المؤتمرات تم انعقاده فى نوفمبر سنة ١٩٠٧ .

على أن هذه الجهود المثمرة من جانب اللواء كانت تؤازرها جهود أخرى قيمـة من جانب الصحافة المصرية ، ومن جانب الجمعية العمومية وكبار الشخصيات الوطنية والشرقية . ومن هؤلاء على سبيل المثال : محمد كرد على — وقد دعا إلى إنشاء المجمع العلمى ، وفريد وجدى — وقد دعا إلى إنشاء مدرسة للعـلوم العالية لطلبة العلم الدينى الاسلامي ، ويوسف البستانى — وقد دعا إلى تأليف جمعية لترقية اللغة العربية . ويطيب لنا أن نعيد هنا ما ذكرناه فى الجزء الخاص بالسيد على يوسف من إنه كافح فى الجمعية العمومية من أجل اللغة العربية . وما زال على يوسف بصديقه سعد زغلول إذ ذاك حتى أقنعه بضرورة جعل التعليم فى المدارس المصرية بهذه اللغة .

* * *

وهكذا كانت مسألة التعليم من أهم المسائل التى عنيت بها جريدة اللواء كما رأينا وتأتى بعد ذلك فى الأهمية مسألة التجارة والصناعة القومية . فقـد عنيت بهما جريدة اللواء ، وطفقت تشجع المصريين على اقتحام هذه الميادين. وأعان على ذلك ماقلناه من أن صاحب اللواء كان كثير السفر إلى البلاد الأجنبية ، كثير الغشيان لمعارضها ومصانعها ومحافلها فـكانت الغـيرة تدب فى قلبـه دائماً على مصر ، وكان الأسى يملأ نفسه على تأخرها . وكان يدرك بثاقب بصره يومئذ أنه إذا أريد بمصر أن تنهض نهضة تبلغ بها شأو الأمم الأخرى فلا سبيل إلى ذلك إلا بالصناعة . فالانقلاب الصـناعى هو الذى قضى على طبقة الملاك الزراعيين فى أوروبا ، وهو الذى غير وجه الحياة فى ذلك الجزء

من الدنيا ، وهو الذى قاد تلك البلاد إلى ميادين جديدة للعلم والحضارة فأن أرادت مصر أن تصل إلى شىء من ذلك فعليها (بالتصليح) الذى تستبدل به حياة بحياة ، ونظاما من نظم المجتمع بآخر ، وطريقة فى سياسة العيش بأخرى .

* * *

وتأتى بعد ذلك عناية اللواء بموضوع الجيش المصرى ، والجندية المصرية ، وموضوع البوليس المصرى ، والأمن العام فى الأقاليم ، وموضوع النوادى العامة وحق المجتمعات الراقية فى إنشائها وإدارتها . وكان من أظهر النوادى المصرية فى ذلك الوقت (نادى المدارس العليا)

كانت اللواء تفهم أن هذه الأمور كلها بأيدى الانجليز ، وأن هؤلاء كان لا يعنيهم الاصلاح الحقيقى قدر ما تعنيهم المحافظة على هيبة الاحتلال البريطانى ومكانته فى نفوس المصريين ولذلك وجدت هذه الصحيفة مشقة كبيرة فى هذا السبيل ، ولكنها طفقت تجاهد فى ذلك جهاداً طويلا حتى كتب لها الفوز فى نهاية الشوط .

نعم إن اللواء كان عليها أن تقف للاحتلال بالمرصاد . وقد زعم رجاله فى مصر يومئذ أنهم إنما أتوا إلى مصر ليأخذوا بيدها فى سبيل الاصلاح المادى والاصلاح المعنوى . فشرعت اللواء تراقب أعمالهم باهتمام ، وتحاسبهم حسابا عسيراً على هذه الأعمال ، وتفسر حركاتهم بما ينبىء عن يقظة هذه الصحيفة وحسن فهمها لألاعيب الانجليز . وسترى من النماذج الصحفية التى نوردها فى هذا الفصل مايدلنا على ان اللواء كانت — بدافع من حرصها على المصلحة الوطنية — أميل إلى سوء الظن بتلك السياسة البريطانية فى معظم الأحيان

ولعل أخطر ماكان المحتلون يرموننا به من التهم طعنهم فى كفاءة المصرى لادارة بلاده . وهنا انبرت اللواء لهؤلاء فردت عليهم وذادت عن كرامة المصريين ، وحمت ظهورهم من سوء معاملة المحتلين ، وسخرت من تفضيل

الموظفين البريطانيين الذين كانوا يتكبرون على شيوخ مصر وأعيانها فى ذلك الحين .

ومن المسائل التى شغلت بال الرأى العام فى المجتمع المصرى يومئذ مسألة (السفور والحجاب) ومسألة (تعليم المرأة) . أما الشق الأول من هذه القضية — ونعنى به السفور والحجاب — فقد كان لجريدة اللواء رأى صريح فيها . وخلاصة هذا الرأى أن المرأة المصرية لا ينبغى لها أن تذهب فى محاكاة المرأة الأوروبية إلى حد تقليدها فى ترك الحجاب جملة واحدة . ومن ثم أخذ كثيرون من محررى هذه الصحيفة يهاجمون السفور مهاجمة شديدة ، وعارض الكثيرون منهم آراء قاسم أمين فى هذا السبيل . على حين انتصرت (الجريدة) لصاحبها الاستاذ أحمد لطفى السيد — وهى لسان حزب الأمة — لآراء محرر المرأة . وبقى الرأى العام فى مصر مشغولا بهذه المسألة إلى يومنا هذا .

وأما الشق الثانى من هذه القضية — وهو تعليم المرأة — فقد أجمعت عليه آراء الأمة ، ولا نعرف أن صحيفة من الصحف شذت عن هذا الاجماع بحال ما . وهنا يجدر بنا أن نذكر أن رفاعة رافع الطهطاوى كان أول من دعا إلى تعليم المرأة ، وأعد لذلك العدة . وبفضله احتلت هذه الفكرة مكانها اللائق بها فى برامج التعليم المصرى منذ ذلك الوقت . ولقد دأب اللورد كرومر على إيذاء المسلمين فى شعورهم . وكان فيما أورده فى ذلك أنه راح يبكى فى تقاريره حظ الزوجة المسلمة ويقول : ما أشقاها حالا ، وما أكثرها عذابا الخ . فأخذ صاحب اللواء على عاتقه الرد على كرومر فى هذه المسألة الأخيرة . وقد أراد صاحب اللواء أن يكون رده على اللورد بجريدة (لتندار إجبسيان) المعروفة . ومما جاء فى رده يومئذ قوله :

.. وإنه ليطول بنا البحث فى المقارنة بين مركز المرأة فى الحياة الاجتماعية الشرقية ومركزها فى الحياة الاجتماعية الغربية . ولكن يستحيل

على مثل اللورد كرومر —وهو من رجال السياسة والاجتماع — أن يجهل ما عليه الكثيرات من الفتيات الغربيات فى المدن الأوروبية الكبرى شظفا فى العيش ، وعناء فى الكد والسعى ، وشقاء ما مثله شقاء . بل مثله لا يجهل أن الرق هو استعباد من بعض الوجوه ؛ ولكن هؤلاء الفتيات قد استعبدن من كل وجه .

وغريب أن يعيش اللورد كرومر طول حياته السياسية فى الشرق وهو يجهل ما فى الشريعة الاسلامية من أوامر الرفق بالنساء والدفاع عن ذمارهن ، وتوفير أسباب الهناء لهن . يعانى الرجل أشد المتاعب طول نهاره سعياً على رزقه ورزق أهله ، فلا يخطر بباله مطلقاً أن يشرك زوجته معه فى عمله ، وأن يعطيها قسطها من تعبه . بل هو يرى فى مثل هذا العمل حطا من كرامته ونقصا فى شهامته . أما الغربى فيرهق امرأته عسراً . بل لقد يستريح هو وزوجته تفنى فى العمل إجهاداً .

ومن يدرى لعل العلم والمدنية يتفقان غدا على تخطئة المدنية الأوروبية الحاضرة فى إنهاك النساء بالعمل . وهن إنما خلقن ليربين النسل فى هدوء البيت وسلامه . وهذا هو رأى (شوبنهاور) أعظم علماء الاجتماع بلا خلاف . ولعله يكون غدا رأى جميع العلماء . (انتهى المقال)

* * *

على أن للمجتمع المصرى كما للمجتمعات الأخري آفات كثيرة ومعايب شتى . والمصلحون فى كل زمان يبذلون الجهد فى محاربة هذه الآفات ، ومكافحة هذه المعايب . ومن الحق أن يقال هنا كذلك إن المصلحين الاجتماعيين فى هذه الناحية عيال على رجلين من رجالات مصر ، هما السيد عبد الله النديم والشيخ محمد عبده . فلقد كان هذان الرجلان العظيمان أول رائدين من رواد هذا الميدان ، وأعظم فارسين من فرسانه . والذى لا ريب فيه أن أصحاب الصحف منذ يومئذ أخذوا يتابعون السير فى هذا الشوط حتى

كان عهد الصحافة المصرية بالمويلحى الكبير والمويلحى الصغير والسيد على يوسف ومصطفى كامل، فوجدنا هذا الرعيل من الصحفيين يهتمون اهتماماً زائداً بموضوع العادات المصرية والأخلاق المصرية، فيستقبحون منها ما قبح، ويستحسنون منها ما حسن، ويقومون فى أثناء ذلك بالواجب الذي أملاه عليهم الضمير الصحفى.

على أن صحفيي عهد الاحتلال — وفيهم مصطفى كامل — كانوا يتبعون كذلك نفس الخطة التى أتبعها المصلحون من قبل فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. ونحن نعلم أن أولئك المصلحين من أمثال محمد عبده والنديم كانوا كثيراً ما يكتبون عن الشرق والغرب. ويوازنون بين المدنية الشرقية والغربية، يرمون من وراء ذلك إلى نقد المصريين من الناحية الاجتماعية والعقلية والخلقية والحضرية، وينبهون القارىء المصري بشدة إلى أن الفرق بعيد جداً بين الحضارة فى لبها والحضارة فى قشورها. وأن الخطأ كل الخطأ إنما هو فى الأخذ بقشور الحضارة دون اللباب، أو بعبارة أخرى الاكتفاء بمصطلح الحضارة أو عنونها دون الكتاب!

من أجل ذلك حاربت اللواء كثيراً من عادات المصريين الضارة فى الأفراح والمآتم، وعاداتهم الضارة فى الخمر والميسر وتعاطى المواد المخدرة ونحو ذلك، وعاداتهم الضارة فى المضاربات والرشوة والمحاباة والعزوف التام عن الهجرة الخ

بل إن صاحب اللواء ذهب فى نقده الاجتماعى إلى حد أنه عاب على الأمراء المصريين الذين ينفقون أموالهم فى أوروبا، وإذا دعاهم داعى الوطن إلى شىء من البذل بخلوا بعشر هذه الأموال الطائلة على الأمة التى هم منها! (١)

وأكثر من هذا وأشد إمعاناً منه فى تربية الشعب المصرى وتدريبه

(١) راجع فى ذلك مقالا بعنوان (بين الشاطئين) ١٣ يوليو سنة ١٩٠٣

على احترام نفسه أمام الحكام ما نشره فى اللواء بعنوان « حكام الريف » من مقال نصح فيه الموظفين المصريين فى الريف ألا يبالغوا فى إحاطة أنفسهم بمظاهر الاجلال والعظمة ، فأن ذلك مما يبعث فى قلوب العامة رهبة شديدة من الحاكم تميت فيه قوة الدفاع عن الحق والمطالبة بالواجب ! (١)

* * *

وأخيراً وجدنا لجريدة اللواء اهتماماً خاصاً بالقضايا الفردية فى المجتمع المصرى . وأهم هذه القضايا ما كان له علاقة واضحة برجال الاحتلال ، أو كانوا يقحمون أنفسهم فيه إقحاما لغاية من غاياتهم المعروفة فى تلك الفترة .

ومن هذه القضايا على سبيل المثال :

قضية المنشاوى باشا ، وقضية الزوجية وغيرها . أما قضية الزوجية فخاصة بالسيد على يوسف . وقد أشرنا إليها فى الجزء الرابع من أجزاء الكاتب .(٢)

ونضيف هنا أن مشاركة اللواء فى التعليق على هذه القضية كان ذا وجهين :

أولهما — النزاع الصحفى الذى كان مستمراً فى كثير من الأوقات بين صحيفتى المؤيد واللواء .

وثانيهما — الكيد للاحتلال البريطانى الذى أراد أن يقف فى صف السيد على يوسف فى هذه القضية الشخصية لينصره على الشعب المصرى ، وعلى الحكومة المصرية . وبذلك يكسب الاحتلال إلى صفوفه رجلا ذا نفوذ كبير كالسيد على يوسف . ولكن إرادة الشعب المصرى ممثلة فى القضاء المصرى عكست على الانجليز أغراضهم ، وطاحت بآمالهم ، واستطاعت أن ترد السيد على يوسف الي صفوف الشعب الذى علم زعيمه درساً بقى يذكره طول العمر .

---

(١) اللواء في ١٠ اغسطس سنة ١٩٠٢

(٢) راجع الفصل الثالث ص ١١٠ — ١٢١

وأما قضيــــة المنشاوى باشا فخلاصتها (١) : أنه سرق من مزارع سمو الخديو (بالرجدية غربية) ثوران فى يوم ٢٢ مارس . فاهتمت المديرية بالأمر ولـكنها لم توفق للعثور عليهما . وعندئذ تقدم المنشاوى إلى الخاصـــة وعرض عليها معاونته في العمل لاعادة الثورين . فقبل طلبه . وقد توصـل بعد البحث إلى معرفة السارقين واسترد الثورين . وقبض المأمور على اثنين من بلدة (شـــبراقاص) انحصرت فيهما التهمة . فتسلمتهما النيابة للتحقيق ، وأودعا ســـجن المركز . وبعد يومين أخذهما المأمور إلى القرشية بلدة المنشاوى باشا بناء على طلب منه ، بعد أن أفهم المأمور أن وجودهما بداره يفيد القضية ، ويعاون فى الـكشف عن خباياها . ثم أعيدا إلى السجن ولما ذهب رئيس النيـابة لسؤالهما ثانية قررا أنهما عذبا بالضرب فى دار المنشاوى باشا . فأحيلا إلى الـكشف الطبي ، ووجدت بهما آثار الضرب . وتقرر لأحدهما علاج خمسة عشر يوماً ، وللآخر عشرة أيام . فأخذت النيابة فى تحقيق هذه الواقعة الجديدة . وذهب النائب العام والمســـتر ويلسن مفتش الداخلية إلى طنطا للاشراف على التحقيق .

وفى ٢٩ مارس قرر المنشاوى والمأمور وعدة شـــهود أن المتهمين لم يضربا فى داره . ولـكن التحقيق انتهى بالقبض على المنشـــاوى باشا والمأمور ، كما أوقف سعد الدين باشا مدير الغربية وأحيل إلى مجلس تأديب .

« وقد علمت أن وفـــداً من الـكبراء حضر إلى السراى لرجاء سمو الخديوى فى الافراج عن الباشـا نظراً لمـكانته . ولـكن جنابه رأى أن يأخذ التحقيق مجراه » .

وفى ١٤ ابريل رفع المنشاوي باشا إلى الخديو برقية بأنه بريء من

---

(١) كما وردت فى كتاب : مذكراتى فى نصف قرن لأحمد شفيق باشا ـــ القسم الأول ـــ الجزء الثانى ـــ ص ٣٩٠ حوادث سنة ١٩٠٢

تهمة التعذيب ، وبرجاء اهتمام سموه بالأمر. فأوفد إليه أحد رجال السراي لتحقيق شكواه . ولكن سموه كان يعرف أن المنشاوي باشا إنما يعامل هذه المعاملة نظراً لصلته بالسراى الخديوية ، وأن هذه المسألة موجهة للخديو فى شخص المنشاوي باشا . ولم يكن الخديو يريد الاصطدام بالانجليز فى مسألة قانونية .

وقدم المحامى عن المنشاوى باشا تقريراً إلى اللورد كرومر طالباً فيه نفى موكله من مصر ، إذ أنه يفضل النفى على حالة الاذلال التى يلاقيها فى السجن . وانه يعامل معاملة سياسية لا قانونية . فأجاب اللورد كرومر بأن ذلك خارج عن حدود اختصاصه وأن المسألة داخلية بحتة .

وقدم المنشاوي باشا وشركاؤه إلى المحكمة . فأصدرت حكمها فى ٢٥ ابريل بحبس المنشاوي باشا ثلاثة شهور ، والمأمور شهرين ونصفا ، وخادمين من خدام المنشاوى باشا نفذا أمر التعذيب شهرين (انتهى كلام أحمد شفيق)

لهتم رجال الاحتلال بهذه القضية الفردية لأغراض سياسية ، منها حرصهم على أن يظهروا للجمهور المصري ولأوروبا بمظهر الحكم العدل الذى لا تأخذه فى الحق لومة لائم . ومنها حرصهم على أن يظهروا كذلك بمظهر المدافع القوى عن الديمقراطية التى تنكر الرق وتستهجن كل ما يقترن به من أمر التعذيب بغير حق ، ونحو ذلك .

غير أن وراء هذا الاهتمام أموراً لا تخفى على ذهن القارىء .

منها محاربة الانجليز للخديو فى شخص المنشاوى باشا ، كما صرح سموه بذلك .

ومنها إذلال الكرامة المصرية فى أشخاص كبار المصريين تحت ستار المساواة التامة فى القانون . وقد كان ذلك دأب المحتلين . وكان أكثرهم من الشبان المتغطرسين الذين جلبهم اللورد كرومر من انجلتره . ولقد دعا ذلك كلا من السيد على يوسف ومصطفى كامل إلى الكتابة مراراً فى صحفهما ، والى الشكوى من

هذه الغطرسة التى يتكلفها شبان الانجليز من الرؤساء لأغراض خبيثة ، من أهمها إفهام المصريين أنهم ليسوا أهلا للحكم الذاتى ، وأنهم خليقون بهذه الوصاية الانجليزية التى يقوم بها الاحتلال الانجليزى ، وذلك حتى يبلغوا بالمصريين مرحلة الرشد السياسى والرشد الاجتماعى والرشد الثقافى .

شعرت اللواء بكل ذلك ، وأحس صاحبها بأكثر من ذلك . فاندفع يذود عن كرامة المصريين ، ويكشف فى صحيفته عن نوايا المحتلين . فكتب كثيراً فى هذا المعنى ، وختم فصوله الكثيرة بمقال له بعنوان : (إفلاس الاحتلال) ستأتى الاشارة إليه .

* * *

وكان للاحتلال البريطانى فى مصر موقف شبيه بهذا الموقف المتقدم فى مسألة من مسائل المجتمع المصرى ، هى (مسألة الحج) .

فقد انتشر الوباء فى مصر فى سنة من السنين ، فأوعز الانجليز إلى الحكومة المصرية ، فأصدرت أمراً بمنع الحج فى تلك السنة . ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد لقلنا أن للانجليز الحق فى إصدار هذا الأمر . ولكن الأمر تعدى ذلك إلى محاولة الانجليز فرض ضريبة على المصريين يؤدونها عند قيامهم بالحج . ونظر الرأى العام فى مصر إلى هذه الضريبة على أنها نوع من الاذلال للمصريين ، وعلى أنها حيلة من الحيل التى يعمد إليها الاحتلال الانجليزى ليحرم المسلمين من أداء فريضة من أهم فرائض الدين . ومن ثم أفسحت اللواء صدرها لعشرات من المقالات التى كتبت فى هذا المعنى ، حتى لقد أصبح لمسألة الحج معنى جديد فهمه اللورد كرومر فيما بعد . فقد فهم أن كثرة إلحاح الكتاب فى هذا الموضوع قد أصبح مظهراً قويا من مظاهر قوة الرأى العام فى مصر . ثم أشارت اللواء إلى هذا المعنى فى كثير من مقالاتها بعنوان (حقوق الأهالى) وعنوان (الحج وسكوت الأمة) وعنوان (معنى احتجاج الأمة) ونحو ذلك .

وكان لصحيفة اللواء موقف كهذا الموقف فى مسألة (سكة حديد الحجاز) وذلك حين أوحى الانجليز إلى المصريين بالامتناع عن الاشتراك بأموالهم فى هذا المشروع . فحذرت اللواء المصريين من ذلك الصنيع . ودل هذا العمل وغيره من الأعمال المماثلة له فى ذلك الوقت على قوة الرأى العام المصرى ، وعلى بغضه لكل ما يتصل بسياسة الانجليز فى مصر .

ثم أن الاحتلال الانجليزى فى عهد اللورد كرومر كان يمارس لعبة خطيرة كل الخطورة . وجاء خلف اللورد كرومر فى مصر — وهو السير الدن غورست — فمضى فى هذه اللعبة الخطيرة إلى آخر الشوط . ونعنى بهذه اللعبة محاولة الانجليز التفريق بين عنصرى الأمة ، وهما المسلمون والقبط . واتخذ هذا التفريق فى بعض مراحله مظهرا من مظاهر المنافسة الجادة فى ميدان الوظائف الحكومية . وكانت مصلحة السكة الحديدية ميدانا خطيرا لهذه المنافسة . وذلك منذ أوحى إلى القائمين بأمر هذه المصلحة أن يؤثروا فيها الأقباط على المسلمين ، وأن يعتمد ولاة الأمور فى ذلك على أوهى الحجج .

وبالفعل سارت هذه المصلحة من مصالح الحكومة المصرية على هذه الخطة الظالمة . وأحدث ذلك فى نفوس المصريين شعورا بالحرج ، ووجدوا فيه تحديا لشعورهم الدينى ولكرامتهم القومية . وحمل ذلك اللواء على كتابة المقالات الكثيرة فى هذا المعنى . وهى مقالات تلطف فيها الكتاب المسلمون ، وحملوا أنفسهم على الأدب فى كتابتها ، وضمنوها إحصائيات كثيرة لعدد المسلمين من المصريين بالنسبة لعدد الاقباط منهم ، ولعدد المتعلمين من هؤلاء وهؤلاء . وقد أشرنا إلى محنة قاسية كهذه المحنة عند الكلام عن السيد على يوسف ، وذلك فى فصل من فصول الكتاب بعنوان على يوسف والمؤتمر المصرى.(١)

---

(١) هو الفصل السابع ص ١٩١ ، كتاب أدب المقالة الصحفية فى مصر الجزء الرابع .

ثم أسرف الكتاب المسلمون وانزلق بعضهم إلى الشتائم التى أصابت إخوانهم القبط عن قصد . أو غير قصد . وكان فى وسع الانجليز أن يطفئوا هذه النار الملتهبة ولكنهم بدلا من أن يفعلوا ذلك رموا فى النار حطبا وصبوا عليها زيتاً . وطفقت اللواء تطفىء من هذه النـــار حينا ، وتشعل بعض أجزائها حينا آخر . فمرة تنشر مقالا بعنوان (الجامعة الوطنية) . وأخرى تنشر مقالا بعنوان (المسلمون والأقباط) — كلمة إلى من يجيدون سماعها) ، إلى أن مات مصطفى كامل ، وخلفه الشيخ عبد العزيز جاويش فى تحرير اللواء ، فوصل بهذه الفتنة إلى أقصاها ، وأخذ الامر حده . ثم جاءت الثورة المصرية عام ١٩١٩ فألفت بين عنصرى الأمة ، ووحدت بينهما . وما زال الأمر على هذه الحال الطيبة إلى اليوم .

* * *

ذلك إذن هو المجال الذى كانت تسبح فيه اللواء منذ أخذت على عاتقها الاهتمام بأمر المجتمع المصرى فى تلك الفترة .

وإذ قد فرغنا من هذا الاطار العام للمقالات الاجتماعية التى نشرتها اللواء فخليق بنا بعد ذلك أن نقدم للقارىء إحصاء مجملا لأهم هذه المقالات فى السنوات الثمان الأولى من حياة اللواء ، أعنى إلى أن حال المـوت بين مصطفى كامل وصحيفته .

ففى السنة الأولى من حياة اللواء نجد عنوانات :

الحج الشريف — احترام الأديان فى مصر — واجبات الوزراء أمام الأمة الأمير — التربية الجنسية — ما هى التربية — اللغة والأمة — حقوق الجيش — بماذا يلام الشعب المصرى — المدارس الأهلية — التقليد — الحجاب الحجاب — أينهض المصريون — الحرية الشخصية فى مصر — حالة الكتاتيب أمس واليوم — لماذا لا نعمل — الحكومة والصحافة فى مصر — كيف تكتسب الفضيلة — المضاربات وعبرتها — مظاهر المدنية الحقة — الحكومة والشركات — فضل الشرق

على الغرب ـ علة الشرق ـ كلمات فى الخطابة والخطباء ـ الوطنى والأجنبى فى بلادنا ـ أمنية الفلاح ـ بم نصير رجالا ـ مصير الصناعة ـ كتابنا وكتابهم ـ الخطر العظيم على الشبيبة المصرية ـ الصنائع فى مصر ـ الجيش المصرى ـ كيف تغلب الغرب على الشرق ـ الجهاد العلمى .

وفى السنة الثانية :

الأمة والأمير — مقارنة بين مدنيتين — المرأة الجـــديدة — تحرير المرأة — المرأة الجديدة فى باريس — الصـناعة فى مصر — المرأة المسلمة — التربية والتعليم — مصائب الشرق — الاحسان فى الاحسان — حركة علمية بين المسـلمين — يقظة أفكار المسلمين — الاتجار فى الزواج — حق الانتخاب فى مصر — المديرون — الداء الأجنبى — أصل تأخرنا — عظماؤنا وعظماؤهم ـ حاربوهم بالاعراض ـ تماسة الفـلاح ـ الحجاب الحجاب ـ رجاء المنوفية فى مديرها الجديد ـ الحجاب ـ عوائد الأمة فى أفراحها ـ أأفراح أم خراب وأتراح ـ الحكومة والميسر ـ حياة الأمم بحياة لغاتها ـ حالة المتعلمين فى مصر — سلطة العمد فى البلاد — تأثير الدين على الاخلاق — محاربة الخمر — الاجهاز على لغـــة البلاد — المرأة والحجاب - - الرتب والنياشين — الجهاد فى سبيل العلم — هل للنساء أن يشاركن الرجال فى الأعمال — منزلة الصحف وما يجب أن تـكون — أحوال الفلاح — الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما — نظارة المعارف — الجندية فى مصر — التربية والتعليم — البوليس — إحدى نتائج المدنية الغربية — ثمن النصيحة فى مصر — المصريون والنزلاء — الحرية الشخصية والحرية العمومية — سكرتارية المعارف — مدرسة محمد على (دعوة واجبـــة الاجابة) — الوظائف والموظفون — لا يعرف الصحة إلا من مرض — الترقى بالدين والترقى بالوسائل المادية — القضاء والقدر — حقوق البلاد على أهلها .

وفى السنة الثالثة :

كفاءة المصرى — ما هى الواسطة التى توصلنا إلى السؤدد والمجد — إلى أين نسوق أبناءنا — الميراث المقدس (يريد اللغة العربية) — الفضيلة والرذيلة فى مصر — الجيش المصرى — همجية المتمدنين — الحرية الشخصية — نحن أحق بصحفنا — السراة عنوان الامة — قواد الجيوش وقواد الأفكار — قوة العقيدة — طنطا وما فيها — لامساواة فى مصر — مسألة المنشاوى باشا (٥ مقالات) — إلى رجال العدالة — الف خطوة إلى الوراء — مناهضة المديرين وماذا يجب عليهم — كلمة عن نظار الأوقاف الأهلية — قضية المنشاوى باشا — هل على جمر أم بميت غمر — فئة أخرى تموت جوعا — لا قانون إذا كان العقاب غاية الحكومة — الحكم فى قضية المنشاوى باشا — كيف يخلف الولد أباه — ماذا يعوز مصر — خطوة كبرى إلى الأمام (أو روح جديدة فى مصر) — الأصل فى تزويرات الفيوم — السر فى تقدم الانجليز — نظارة الزراعة المصرية — امتحان الشهادة الابتدائية — شوارع المدينة — التعليم أيها الشاكون — المربيات المربيات — المتاجرة بأوراق اليانصيب — سخرية الغرب من الشرق — الجرائم فى مصر — هذه شدتكم ألا تذكرونها يوم رخائكم (كلمة فى الاقتصاد) — الصيدليات والصيادلة فى مصر — التمثيل — الوباء والحج — الخطابة فى المدارس — حكام الريف — البوليس البوليس — رأى على المرأة المصرية — الكوليرا — الكتابة والكاتب — كفاءة المصرى — حقوق النواب فى مصر — الأمن والعدالة فى مصر — المجالس الحسبية — المتحف المصرى — مسألة الحج — فوائد الصوم الصحية — كلمة إلى القائمين بمهمة التعليم — إحتكار الحج (أو المتاجرة بفرائض الاسلام) — مهرجان العلم (أو المؤتمر الوطنى) .

وفى السنة الرابعة :

مياه الشرب — دستور أم استبداد (أو دفاع اللواء عن اللغة العربية وعن التعليم بها) — الحج الحج — مسألة المجلس البلدى — الانقلاب فى التعليم — مسألة الحج (أى الحكومتين الانكليزية أم المصرية) — الوقت والنظام — الحج الحج — الحج فى الاسلام — مابعد هذه النهضة — التعليم فى مصر وشعور الأمة بضرورته — الزراعة فى مصر — ٢٧ حاجا — الجمعية الزراعية الخديوية — الغرباء فى مصر — القضاء المصرى ومجلس النظار — آفات التقاضي — حاجة الشرق إلى تقليد الغرب — التعليم الأهلى ووجوب الاهتمام به — الضباط المصريون (قسمة ضيزى بينهم) — الاصلاح وخطة الدولة — تعليم القرآن الكريم — التعليم فى مصر — الامن فى الأقاليم — الاصلاح والقلاقل — مصر والزراعة — صفحة الامن — المجالس الحسبية والأوصياء — اللورد كرومر والحج — عمران العاصمة — الأمن فى الأقاليم — الاحتلال والتعليم (مدهشات اللورد كرومر) — الضربات الثلاث على مصر والمصريين (الحشيش والمقامرة والمهاجرة) — مريوط وعمرانها الحج والحجاج — (ماذا عملت الحكومة) — إذا اشتد البياض صار برصاً ، وإن اشتدت المحاباة صارت تعصبا — المساجد والنساء — السكة الحديد كلها عجائب وغرائب — العلم والعلماء فى الاسكندرية — المحسوبية والاحتلال (علاقتها بالسكة الحديدية) — امتحان شهادة الدراسة الابتدائية — المسلم فى السكة الحديدية — المسلمون والأقباط (كلمة يحبون سماعها) — خطباء المساجد كيف تترقي الأمة — الازهر الشريف وعلومه — جناية البوليس على الآداب — شكاوى المسلمين من الأقباط — اللغة العربية وأنصارها — المدارس والمعارف فى مصر — الحركة الفكرية فى مصر — الثروة المصرية — داء الجدرى وداء الجهل .

وفى السنة الخامسة :

آفات التقاضى فى المحاكم الأهلية — تلافى الطاعون ومايخشاه

الزارعون — محاباة الحكومة للشركات — الصحافة فى مصر — كرة القدم فى مصر — العـــدل والمحاكم — الشرق ماضيه وحاضره — متى يستتب الأمن فى مديرية البحيرة — الكلمة الأولى لرجال المحاكم الشرعية — الكلمة الثانية لرجال الحكومة بشأن المحاكم الشرعية — نظارة المالية — افتتاح المعرض الزراعى المصرى لعام ١٩٠٤ — الاحتفال بالعلم : مدرسة مصطفى كامل — مالية مصر — تلاميذ الصنائع والمهندسخانة — التعليم والتربية — الجيل فى مصر — المجمع العلمى المصرى — همجية المتمدنين — مجلس الأوقاف الأعلى — الاعتداء على الأديان فى مصر — ثروة المحاكم وفقر القضاة — فوضى المبشرين — استقلال القضاة — رد على رأى اللورد كرومر — تقتير وأمن ضدان لايجتمعان — أين جمعية الرفق بالحيوان لترى مايحل بالانسان — الفضيلة الأولى بين الأمم — مستقبل صغار المســتخدمين ـ شرف الجندية ومجد الأمم ـ الحكومة والشركات ـ استقلال القضاء ـ الامتحانات العمومية ـ البلاد فى الصيف ـ أهم موارد الثروة ـ الجزاء من جنس العمل (أو قضية صاحب المؤيد) ـ المجاهرة بالالحاد ـ المعارف ومدرسة المعلمين ـ الشعب والأوقاف والحكومة ـ محاسبة نظار الأوقاف ـ استقلال الموظفين ـ الحج والحكومة ـ رخص لاغلاء ـ حرية الموظفين والاهالى ـ اللغة العربية والاحتلال : تقرير عظيم الأهمية (وهو تقرير قدمه حسن باشا عبد الرازق نائب المنيا إلى مجلس شورى القوانين حول مشروع المحاكم الجنائية) — من الرجل العظيم ؟

وفى السنة السادسة :

تربية البنات ـ مجلس الشورى ـ الأهالى والأموال الأميرية ـ اللغة العربية ودول الاسلام ـ هل تعمل الحكومة فى مصر لخير الشعب ؟ كلا ـ الوزراء المصريون — همجية المتمـــدنين — المشروع القطنى (بين الأمـة والحكومة — سلوك وزارة المعارف وغلاء التعليم — زراعة الدخان فى القطر المصرى —موقف المصريين بين العلم والسياسة —خطاب إلى حضرات

القضاة فى المحاكم الجنائية الجديدة — أهذا برهانكم يا أنصـــار غلاء التعليم — الشركات فى مصر — الازهر — معاملة الانكليز للموظفين المصريين — التعليم واللورد كرومر — قضية الفقراء (العـلم يتألم والشبيبة تتأوه). بيضة الديك فى نظارة المعارف — تجارنا الوطنيون — مصائب الحجاج ومن أين جاءت — الواقفون والعلماء — مؤتمر المستشرقين — الحكومة وأموال الفقراء — الحكم فى قضية آل رفاعة — مذكرة المعارف لمجلس النظار بتحوير نظام الدراسة الثانوية — الأمة المصرية وشيء من صفاتها — الصحة فى العاصمة — المحاباة داء قاتل — ولاة الامور ورجال الاصلاح — التربية قبل العلم — الاقبال على التعليم — مبدأ حركة فكرية فى مصر والهند — المعرض الزراعى بالمنصورة وتشريف الجناب العالى لافتتاحه — محاربة العلم فى مصر — تقدم الجهاد الفردى فى مصر — تعميم نشر التعليم — الصــحافة والأمن العام — الغلاء والمستخدمون .

وفى السنة السابعة

قضية تتجدد (ما بين الأغنياء والفقراء كل آن) — استعداد الأمة للترقى — المهاجرة إلى السودان — رفاهية مصر وتحريرها — المعارف والتعليم ومغالطة الصحف فى البحث — زمن الشدة على الفقراء — مسألة الطلبة — العدل لمن ادخرتموه إن كنتم عادلين — النساء عندهم والرجال عندنا — الجمعية الخيرية الاسلامية — مسألة التعليم — المجلس التشريعى الجـــديد (أو مشروع اللورد كرومر) — التعليم العالى بمصر — الأزهر والأزهريون — انظروا للأمن العام — الصحافة المصرية فى نظر اللورد كرومر — المجاهرة بالرأى الصحيح — فظائع العدالة فى مصر — كلية عليكرة — ماذا يفيد المال والعلم ضائع — حاجة مصر لترقية الصناعة (وأثرها فى المعرض الزراعى) — آمال البلاد فى ناظر المعارف الجديد — تحرير المرأة وتحرير الرجل — ماذا يريدون من أوقاف المسلمين — نهضة الأمة وحياتها (حديث عن التعليم) —

حياة الصحف بحياة الأمة — البورصة جحيم الطامعين .

وفى السنة الثامنة :

مشروع الجامعة المصرية ومن أين جاءه الفتور — ياولاة الأمور (لفتة إلى الصناعة المصرية) — كتاب جديد عن الشرق والشرقيين — الأهالى يخاطبون النواب فليخاطب النواب الحكام — الرشوة الرشوة وماذا يعمل المديرون — النهضة الوطنية ومسألة التعليم — نظارة المعارف العمومية ـ على باشا مبارك والتعليم بالمدارس الأميرية ـ المصريون والنزلاء ـ الشبيبتان المؤتلفتان (المسلمون والأقباط) ـ سياسة على باشا مبارك فى التعليم ـ مغالطة سعد زغلول : بقلم فقيد الوطن على باشا مبارك ـ رأى على باشا مبارك فى تعليم اللغات الأجنبية ـ اللغة العربية والتعليم ـ خمسة وعشرون عاما فى وادى النيل (أيهما محى مصر وموجدها : محمد على الكبير أم اللورد كرومر ؟) ـ الجنسية المصرية ـ الرق فى الاسلام ـ مسألة اليوم (المدرسون الوطنيون) ـ يا نظارة المعارف ـ حديث لناظر المعارف ـ القرعة ومشايخ الحارات ـ علم الاقتصاد السياسى ـ المحاكم القنصلية ـ علماؤنا وعلماؤنا ـ الصحف والأحزاب ـ أخلاق وآداب أم جرائم (مستشفى القصر العينى) — أمة عطشى فكيف لها الورود ـ كتاب المسيو لامبير (فى أحوال المعارف المصرية) — تعليقات على كتاب الأستاذ لامبير (أكثر من عشر مقالات) — توطيد الأمن ـ الارساليات العلمية ـ تعليم البنات ـ تعليم المرأة ـ المرأة اليابانية ـ المحاضرات العلمية ونادى المدارس العليا .

* * *

وإذ فرغنا كذلك من هذا الاحصاء العام فانه يجدر بنا أن نعرض على القارىء موجزا صغيرا لبعض النماذج الصحفية التى نشرتها اللواء فى هذا المجال .

الميراث المقدس (أو اللغة العربية)

(بتاريخ ٢ فبراير سنة ١٩٠٢)

ومما جاء فيه :

إذا نازعنا الغربيون فى كل أمر من أمور الحياة جاءونا كل يوم باختراع جديد ، واكتشاف مفيد ، وقضوا علينا بسوء التدبير فى سياسة الممالك ، وقصر اليد عن مطاولتهم فى إعـــلان شأنها ، ورفعة قدرها ، فإنهم لا يستطيعون أبد الدهر أن يحولونا عن احترام ذلك الميراث المقدس الذى يعتبر المساس به مساسا بالشرف والعرض والناموس ، ألا وهو اللسان !

ألا إنه هو الدرع التى يتقى بها كل خطب ، ونحفظ بها العقيـدة فى الفؤاد ، والدين من خطر الضياع . اللسان هو خزانة التاريخ الملى ، والشرف الأهلى ، ومستودع أسرار حكمة المتقدمين والمتأخرين . والمطالب بمحوه وتغييره بغيره إنما يطلب قلب كيان هيئتنا الاجتماعية ، وتدمير أركان ديننا ، والاستسلام الأبدى للغرب وسلطانه

ومن المسائل مايصح النظر فيه ، والمناقشة والمجادلة بشأنه ، ومنها ما يكون الأخذ والرد فيه ابتعادا عن محجة الرشد والصواب ، وتشويشا للافكار بلا باعث ، وضياعاً لنفس الوقت ، وما أحوجنا معاشر المسلمين اليه !

فمن يقترح على الناطقين بالضاد هجرة اللغة العربية الفصحى ، واستعمال اللغة العامية فى الكتابة والخطاب بدلها كمن يقول لنا معاشر المسلمين :

« اتركوا دينكم ولا تحفلوا بنبيكم » أو كمن يقول للمصريين .

« إنما مصر ليست وطنا لـــكم ، بل وطن للعالم أجمع » . ومثل هذا المقترح لا يصح مقابلته بغير السخرية والاستهزاء . ومن التساهل الكبير أن يناقشه الانسان فى رأيه ، ويبحث عما فيه من خطأ أو صواب إذ كله خطأ فى خطأ ، وهذيان فى هذيان

نرى المستشرقين إذا تعلموا اللغة العربية الفصحى ، وأحاطوا بآدابها ،

ووقفوا على أسرارها يعترفون جهارا بأنها أسمى اللغات وأرقاها وأغناها وأجدرها بأن تكون آلة التمدن وواسطة الترقي بين الشعوب . فكيف لا يكون حكم أبنائها عليها ، وهم الناشئون في مهدها ، المستمدون منها كل حكمة وكل علم ؟ وكيف نقبل أو نصدق أنها عسيرة على بنيها ، والغربي يتعلمها وينبغ فيها ، ويقرأ العلوم القديمة والحديثة ، والآداب العربية بها

إذا كنا نجد من الفائدة الاعتبار بنيات الانكليز وغيرهم من الأوروبيين نحو المسلمين بمثل اقتراحهم هذا ، فان لحوادث كلها تصيح بأعلى أصواتها : « حذار معاشر المسلمين حذار ، فلو استطاع الغرب لمحا دينكم وقرآنكم واللغة التي نزل بها ، لتزول آثار عظمتكم المنبهة لكم ، الموقظة لهمتكم ، الداعية لاجتماعكم واتحادكم ونهوضكم بعد طول رقادكم » . ومن السذاجة أن نعجب إذا سمعنا آنا بعد آن « كاتبا » من الانكليز أو « مهندسا » منهم ينصحنا بتبديل لغتنا ، أو « مبشرا » من المبعوثين يعظنا بترك ديننا ، أو رأينا « مؤدبا » يهتك الأعراض ، ويطأ الناموس بغير حياء فأنما الغربيون مهاجمون ونحن المدافعون . لهم أن يسعوا في قلب كل أمر ، والمساس بكل شيء مقدس ، وعلينا أن نجاهد لصيانة الدين واللغة والوطن ـ هذه القوى التي لا حياة لشعب بدونها ، ولا أمل في ارتقائه بغيرها .

أمامنا شعبان هضمت حقوقها ، وتحكم الأجنبي في بلادها ، وتولى أمرها غير أهلها . وهما لا يزالان متمسكين باللغة الأهلية أشد التمسك ؛ يفضلان كل سوء على ضياعها ، ويعدان الموت في سبيل المحافظة عليها حياة دونها كل حياة ، وهما الشعبان : البولوني ، والملطي .

سمع العالم كله ضجة أولئك الأطفال الصغار الذين حاول الألمان محو لغتهم البولونية ، وتعويدهم على تلاوة الأناشيد الدينية باللغة الألمانية . وأعجب الغربيون والشرقيون بتلك الحمية التي أبدوها ، وذلك العزم الشديد الذي ظهروا به في سبيل حياة لغتهم ، والمحافظة على ذلك الميراث المقدس الذي

يتعزى به البولونيون كلما ذكروا ضياع بلادهم وتمزيقها ، وتحكم الروسى والألمانى والنمساوى فيها . ورأى العالم كذلك نهضة المالطيين ، ونخوتهم فى رفض قبول اللغة الانكليزية ، واجتماعاتهم المتكررة ، واحتجاجاتهم المتعددة التى حملت « شمبرلن » على الرضوخ لمطالبهم ، والانصياع أمام رغائبهم ، وهو هو الوزير العنيد الذى كان سبباً فى إهراق الدماء ، وجلب الخراب والشقاء على إفريقية الجنوبية ، وداعية ذلك البلاء الذى يئن منه العالمون فى سائر البلدان والأنحاء .

فدعوة الناطقين بالضاد إلى ترك لغة آبائهم وأجدادهم ، ولسان نبيهم وقرآنهم فى هذا الوقت الذى رأوا فيه دفاع الأمم حتى المقهورة منها عن لغاتها هى مسبة كبرى ، وإهانة عظمى ، واستخفاف بدرجة عقولهم لا يجدر بهم مقابلتها بغير الاحتقار والازدراء ، حتى يعلم « ريلمور » ومن على شاكلته أننا أرشد من أن نتبع رأيه ، ونغتر بفكره ، واننا كأبناء جنسه نعرف أن لدينا « ميراثا مقدسا » الموت أحب إلينا من أن يمس بسوء أو أذى ، أو يحاول الاعتداء عليه إنسان ، (انتهى المقال)

وللقارىء المستزيد أن يرجع كذلك إلى الخطبة القيمة التى ألقاها مصطفى كامل فى حفلة افتتاح مدرسته ، وذلك فى أول مارس سنة ١٩٠٢ ومنها قوله :

«.. فالاحتلال يريد أن يعمل بأبناء المصريين ما عمل فرعون بأبناء الاسرائيليين حذراً من ظهور « موسى المجهول » . غير أن فرعون ذبحهم بسكين ماضية أسالت دماءهم فى لحظة واحدة ، والاحتلال يريد أن يبقى عليهم ليتسنى للجهل أن يفعل بهم فى سنوات مافعلته سكين فرعون فى لحظات . ونتيجة العملين إعدام . ولكن أحدهما مادى والثانى معنوى ».

* * *

وكان من الأهداف الاجتماعية لجريدة اللواء دعوة المصريين الى العناية بشؤون الزراعة والصناعة والتجارة . ومن ذلك مقال نشرته اللواء بعنوان :

نظارة زراعة مصرية

(١٧ يونيه سنة ١٩٠٢)

ومما جاء فيه :

لو جاء غريب هذا القطر، واستطلع أحواله العامة لرأى فيه كثيراً من الغرائب، ولكان أغربها لديه أن يعلم بوجود وزارة « للحربية وللبحرية » بعد أن باد الاسطول قديما، واصبح الجيش لهذه الأيام فى حكم الملغى، ثم لا يرى أثراً لديوان زراعة يرجع إليه فى أمر من الأمور المتعلقة بأعظم مورد للرزق فى هذه البلاد.

ولقد طالما سألت الجرائد على اختلاف نزعاتها واصبغاتها إنشاء ذلك الديوان، فلم تجبها الحكومة إلى دعوتها، وكانت تعتذر عن هذا التقصير بعذرين يكفى ذكرهما للدلالة على التمحل فيهما : فأما الأول فهو أن الحكومة لا تستطيع أن تتولى كل شىء فى البلاد، وإلا لم يبق عمل للأهلين سوى أن يجبى لهم ويأكلوا منبسطين على وساد الراحة، وهو نقيض ما تحتاج اليه الأمم-ولاسيما الناشئة - من الجد والاستنباط والاتكال على نفسها فى شؤونها المعاشية.

وأما الثانى فهو أنه لا يتسنى للحكومة إيجاد مال تنشىء به نظارة جديدة، لما هو معلوم من كثرة ما تقتضيه من النفقات، وأن الذى يبذل سنويا فى سبيل الرى والصرف، وفى سبيل مدرسة الزراعة وجمعيتها وتجاربها مغن عن المزيد. (الى آخر المقال).

* * *

ثم طفقت اللواء تفند هذين الرأيين لتقنع الحكومة بوجوب النظر فى إنشاء هذه النظارة. ولا نرى حاجة الى المضى فى هذا الموضوع من موضوعات الاصلاح. بل نرى الانتقال منه إلى موضوع آخر شغل الرأى العام، وعنيت به اللواء عناية تامة، وهو موضوع (الحج). وقدكتبت فيه اللواء مقالات عدة، يحار الباحث حين يختار واحدة بعينها. منهاواحدة بعنوان :

الحج وسكوت الأمة

(٢٨ ديسمبر سنة ١٩٠٢)

ومما جاء فيه :

لما اشتعلت نيران الفتنة العرابية،وعمت أنحاء الارض أخبارها ، واهتمت الدول بالأمر قام « غمبتا » خطيب فرنسا الكبير، ورجل سياستها يومئذ وقال فى مجلس النواب الفرنساوى بأعلى صوته : « إنكم بسياستكم الخرقاء ستوقعون مصر فى قبضة انكلترا . وإن هذه الدولة اعتادت فى سياستها أن تختبر الأمم التى ترغب فى السيادة عليها ، والكلمة النافذة فيها . فان وجدتها ذات رأى قوى ، وإرادة ثابتة منحتها الحقوق العامة ، وسهلت لها السبل للترقى ، وأحسنت إليها ليدوم حكمها عليها ، ولا تقوم الثورات فى وجهها . و إن رأت فيها خمولا واستسلاما عاملتها بيد من حديد ، وأذلتها وجرت على أهوائها كما تشاء . وعندى أنها ستبلغ فى مصر غايتها من سياسة العنف والقوة ؛ لأن أمتها مستسلمة . ولو أن ظاهر الحوادث العرابية يحاول الادلال على غير ذلك »

وهذه السياسة التى قال عنها غمبتا جرت وتجرى عليها انكلترا من أيام استقلال الولايات المتحدة إلى اليوم ؛ لأنها تعلمت من حوادث ذلك الاستقلال درساً مفيداً ، وأدركت أن مقاومة الأمم الحية الراغبة فى الرقى وخيمة العاقبة فى كل حال . فنحت كندا واوستراليا غاية الحقوق الأهلية ، وتركت أهاليها يحكمون أنفسهم بأنفسهم . وبلغ من استقلالهم الداخلى فى أمورهم أنهم يقررون الرسوم على البضائع الانكليزية أسوة بالدول الأجنبية . ولا نزاع فى أن مصير العناصر المختلفة بجنوب أفريقية هو الاتحاد تحت الراية البريطانية ، والتمتع بالاستقلال الداخلى ؛ لما هو مشهور عن هذه

العناصر من الشجاعة والاقدام ، والمطالبة بالحق ، وعـــدم الرضوخ للضيم والهوان .

وقد اختبرت انكلترا الأمة المصرية فى عواطفها الوطنيـــة ، فدمرت ما شاءت ، وغيرت ، وبدلت . واستخدمت جيشها وأبطال رجالها فى تأسيس المستعمرة البريطانية فى السودان . فماذا وجدت ؟ وجدت وزراء يوافقون ويهنئون ، وأمة تنظر إلى وزرائها قائلة : « ماذا عملتم وماذا تعملون ؟ »

وها هم الآن يصوبون السهام إلى فؤاد الأمة ، ويحاربونها فى عقيدتها ، ويصادرونها فى دينها ، فماذا قالت ؟ ومتى تقول ؟ أخذت الأمة تتساءل عن مصدر هذا البلاء ، وأصل ذاك الشقاء وتنادى : ألا من مدافع عن الدين ! ألا من مرشد لليقين ! وما أدركت أنها هى التى يجب عليها أن تدافع وترشد وتحتج وتقاوم وتطالب بالحق الصراح !

يقول الانكليز فى نواديهم ومجامعهم إن الوزراء المسلمين هم أول الموافقين على « ضريبة الحج » وأن الأمة بسكوتها أعلنت موافقتها ، وأن أصحاب الصحف ورجال مجلس الشـــورى لا يمثلون إلا أنفسهم الخ وهم لا يلامون فى هـذا القول . لأنهم إنما يختبرون الأمة . فان وجدوها ذات شعور حى رضخوا لارادتها ، وامتثلوا لرغبتها . وإن رأوا منها استنامة تحكموا فيها ونفذوا رغائبهم . فماذا تنتظر الأمة ؟ هل تؤمل قيام وزرائها المسلمين بالدفاع عن حقوقها ومطالبها ، وهم الذين أيدوا كل مطلب للاحتلال ، وتربعوا فى المناصب ليكونوا كذلك ؟

هـــل نسى المصريون أن بلادهم هى طريق الحرمين ، وأقرب ممالك الاسـلام للحجاز ، وأنهم أبناء أولئك الكرام الذين مهدوا طريق الحج ، وفتحوه تحت لواء « محمد على » بعد أن لبث مقفلا ثمانية أعوام ؟ هل جهلوا أن أبعد الشعوب الاسلامية عن الحجاز أصبح الآن أسعد منهم حظا ، وأقرب منهم إلى الحج سبيلا ؟ كيف لا تمطر على دوائر الحكومة

الاحتجاجات ، والاعتراضات ، والرسائل من كل جانب ؛ وقد رأى المصريون عن بكرة أبيهم أن الانكليز رجعوا إلى الوراء فى مسألة المحاكم الشرعية ، وعدلوا عن مسعاهم أمام هياج الأمة والحاحها فى احترام رغائبها ؟ ماذا يخشى الناس والحكومة تدعى أنها دستورية ، والانكليز يقولون باحترام الرأى العام والجمهور ؟

أين أولئك العلماء الأعلام ، والحكماء ، والفلاسفة الذين إذا قرأوا كلمة ضد الدين ، أو سمعوا صوت طاعن عليه جردوا الأقلام لرفع راية الاسلام ؟ أين هم ليؤدوا اليوم عملا أجل وأعظم وأنفع وأسد ؟ أين هم ليكونوا زعماء الأمة فى مطالبها ، ومرشديها إلى إبطال « ضريبة الحج » بقوة الاعتراض ، ومناقشة الحكومة الحساب ؟ أين هم ليقولوا للانكليز على رؤوس الاشهاد إن بلاداً تركت فيها الحرية التامة للمبشرين من القسس والرهبان لا يقضى فيها على حرية المسلمين فى السفر إلى وطن نبيهم الكريم ؟

أين هم وقد منع الحج فعلا وإن لم يمنع قولا . أين هم ليدفعوا هذه النازلة ، وهم الذين يطالبون الصغير والكبير باحترامهم وإجلالهم ، وهم العالمون أن الاحترام والاجلال لم يخلقا إلا لرجال الأعمال وصفوة الرجال ؟ أين هم ليعلموا هذه الأمة أنها لا تموت إلا بسكوتها واستسلامها ، ولا تحيا إلا بالعمل والجهاد فى مصلحة الدين والبلاد ، لتسلك أحب السبيلين إليها ، فتريح العالم من وجودها ، أو تعيش مرفوعة الشأن والذكر بين الناس .

* * *

ثم فى الفتنة التى حدثت بين عنصرى الأمة المصرية ، وأفضت إلى إيثار القبط فى مصر بوظائف السكة الحديدية ، نشرت اللواء مقالات شتى ؛ منها على سبيل المثال مقال بعنوان :

المسلمون والاقباط

(كلمة يحبون سماعها)

(بتاريخ ١١ يوليو سنة ١٩٠٣)

ومما جاء فيه :

تحاشينا فى كل ما كتبناه عن موضوع اختلال السكة الحديدية ، وهى المصلحة التى ساد فيها الغرض والمحاباة بقدر ازدياد عدد الأقباط أن نقول شيئاً عن الفرق الذاتى بين القبطى والمسلم . لأننا لا نريد أن نزحزح الأول عن وظيفته ، ونحل الثانى محله بلا سبب ، بل نريد أن الذين يتقدمون من الفريقين لنيل بعض الوظائف يكونون متساوين فى الرفض والقبول ، متى تساوت معارفهم ، بغير تعصب لواحد دون واحد ، ولا تميز زيد على عمرو ، فيما عدا المعلومات التى تحتاجها الوظيفة المرغوب التعيين فيها .

ولكن يظهر أن مناظرينا غير ميالين إلى الجهر بهذا المبدأ الحق ، ويحبون أن يسمعوا كلمة كنا نتمنى عدم قولها ، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه . ونحن لا يضرنا أن نجيبهم إلى سؤالهم المتكرر ، ونقول كلمة كجملة معترضة فى الموضوع . أى أننا نقولها مع الاستمرار فى نشر فضائح السكة الحديدية .

وهذه الكلمة هى : أيكون المسلم أقل ذكاء من القبطى ، وأدنى مقدرة على تأدية الأعمال ؟ أم يفوقه ؟ أم كلاهما متساويان ؟ وهل المتعلمون من المسلمين أقل من أمثالهم الأقباط حتى نشأ عن ذلك كثرة عدد المستخدمين من الأخيرين فى مثل مصلحة السكة الحديدية ؟

هذه هى الكلمة التى لم نرد التصريح بها زمناً . ولكن الذين يعملون على الحط من كرامة المسلم ، ورميه بقلة النبوغ هم العلة فى تصريحنا بها اليوم ، ليعلموا أنهم إذا استمروا على مهاترتهم كان نصيبهم الفشل فى هذه النقطة كفشلهم فى النقطة الأخرى (الى آخر ما قال)

كان المقال السابق لكاتب غير مصطفى كامل ثم لم يكتف صاحب اللواء بالمقالات التى كتبها المحررون فى جريدته على كثرتها وغزارة مادتها حتى كتب بنفسه مقالا عنوانه :

ياليتنا كنا متعصبين

(بتاريخ ٧ اكتوبر سنة ١٩٠٣)

ومما جاء فيه :

لو كان يعلم ذلك الذى أفتى السلطان سليم بما سينال قومه ، وأمته ودولته من جراء فتواه بعدم توحيد الدين فى المملكة العثمانية لكان فضل أكبر بلايا الحياة على النطق بتلك الفتوى التى أوقعت الاسلام فى مهواة الخطر العظيم ، والشر الجسيم . فان المتأمل فى تاريخ الدولة يجدها لاقت بسبب تركها الحرية الدينية والسياسية للشعوب المسيحية التى وقعت تحت حكمها الشدائد والأهوال ، وأضاعت ثمرات فتوحاتها الباهرة ، وانتصاراتها العديدة بتمسكها بالتسامح والاعتدال .

وقد شعر الأتراك وكافة المسلمين بنتائج تلك السياسة التى مها أعجب بها مؤرخ عادل ومحب الحرية فلا ينكر أحد ضررها على المملكة ، ومخالفتها لمبادىء الاستعمار . ومن يقارن بينها وبين خطة العرب فى البلاد التى فتحوها يجد خطأ العثمانيين السالفين كبيراً . لأن العرب غرسوا لغتهم ودينهم فى كل بلد دخلوه بمهارة مدهشة ، ولسان حالهم يقول « حسبنا هذا الفتح الخالد الذى يستوى معه دوام ملكنا وزواله ! » ووضعوا بهذه الوسيلة أمتن أساس لقيام حكومات إسلامية أخرى بعد حكومتهم .

تقرأ كل يوم فى صحف الغرب أن الحكومة الفرنساوية تزداد شدة فى إضطهاد الجمعيات الدينية ، رغبة منها فى توحيد التربية الأهلية ، وتوجيه أميال الناشئة إلى غرض واحد ، وتقوية العقيدة الوطنية فى حاضر الأمة

ومستقبلها . فماذا يقول السادة المتمدنون إذا نهضت الدولة العلية غداً بمثل هذا المطلب ، وأصدرت أمرها بإبطال المدارس الأجنبية فى بلادها ، وإرغام أبناء كافة الأجناس على الدخول فى مدارسها ، وتلقى العلوم والآداب على أساتذتها ؟ هل ترضى الدول المتمدنة بهذا العمل الذى هو حق طبيعى للدولة العلية ؟

لا ريب ولا نزاع فى أنها ترفضه حمراء ، وتقيم الأرض وتقعدها منعاً لوقوعه ، ومقاومة فى سبيل تنفيذه .

وهل يدرى المسلمون مهمة تلك المدارس المسيحية المنتشرة فى أنحاء المملكة العثمانية ؟ إنها كلها ترمى إلى بذر بذور عداوة الترك والاسلام فى قلوب الأطفال ، حتى إذا صاروا رجالا كانوا ألد أعدائنا . وبهذه المدارس — لا بغيرها — ثارت اليونان والصرب ورومانيا وبلغاريا والجبل الأسود . وبها ثار الأرمن ، ويثور المقدونيون فى هذه الأيام . وما على الجاهل بهذه الحقيقة إلا أن يقرأ ما نشرته جريدة « الفيجارو » فى الأسبوع الماضى نقلا عن مؤلف انكليزى تحت عنوان « أمريكا فى الاستانة » حيث أبانت أن كلية « روبرتس » التى يراها كل من قطع البوسفور شاهقة البناء فوق « روملى حصار » هى التى أعدت لبلغاريا كبار ثوارها ، وهى التى ربت أبناءها على كراهة المسلمين ، وعرفتهم أساليب الخروج عليهم . وأفهمتهم حقوق الصليب وواجباته ضد الهلال !

وبديهى أنه إذا كانت أمريكا — وهى أبعد الدول عنا — تعمل هذا ضدنا ، فأن غيرها يقوم بأضعاف أضعاف ذلك .

وغنى عن البيان أن الدولة لا تستطيع فى مركزها الحالى ، وتألب الدول المسيحية عليها أن تقفل المدارس الأجنبية الموزعة فى بلادها . ولكنها تستطيع أن تنافسها فى استمالة الناشئين المسيحيين الى مدارسها ، حتى تربيهم تربية عثمانية صحيحة ، وتبث لغتها واخلاقها وأميالها بينهم على قدر الامكان .

إذ كيف يقبل أن جانباً عظيما من رعاياها لا يتكلمون لغتها — كما هو الواقع فى مقدونيا — على حين أن الصرب والبلغار ورومانيا تمد ميزانيات مخصوصة لنشر لغاتها، وتأييدها فى الولايات المقدونية . وبذلك التساهل الكبير الذى اتبعته الدولة، وظنها الخير والاعتراف بالجميل للمسيحيين صار فريق منهم أمة فى الأمة، وجسما غريبا فى الدولة . ولا سبيل لمقاومة الأميال الشريرة، والنوايا العدوانية إلا بالتربية التى تؤدى حتما إلى اندماج العناصر، وتحويل أميالها . والوسائل لادراك ذلك عديدة . وإنه من العار الكبير علينا أن نرى الأجانب ينفقون القناطير المقنطرة من الذهب لسلبنا رعايانا وبلادنا، ونبقى لاهين عن مداواة هذا الداء، ومقاومة ذلك التيار المخيف — تيار الزوال والفناء !

وكما أن استمالة العثمانيين المسيحيين، وتربيتهم تربية عثمانية أمر واجب، فان للخلافة وظيفة سامية إذا قصرت فيها قطعت أوصال الاسلام وبددت قواه الباقية؛ وهى جمع كلمة المسلمين . ولا يكون ذلك إلا بجعل اللغة العربية فى مدارس الدولة ذات الشأن الأول؛ أسوة باللغة التركية نفسها، وبارسال الوفود من المتعلمين إلى البلاد العربية لتقوى ملكة اللغة عندهم، كما تفعل كافة الدول الأوروبية، حتى لا يرى المسلم نفسه فى دار الخلافة غريباً من أى وجه كان، ويندفع تيار الحركة الفكرية، والنهضة الاسلامية التى عمت روحها بلاد المسلمين بقوة وافية، وبأس شديد .

وكم من مرة شعرنا بخجل شديد عندما رأينا أنفسنا مضطرين لمخاطبة إخواننا الأتراك بلغة أجنبية . فخليق بهم أن يتعلموا العربية قراءة وكتابة وتكلما؛ لأنهم رأس الاسلام، وقادته، وحماته؛ ولأن الجزء الأكبر من المملكة عربى، والعربية لغة الدين المبين .

وليس فى تعلم العربية وحده سر الوصول إلى الاتحاد الاسلامى المرغوب، وتقوية الخلافة وإعلاء شأنها به . ولكن بلوغ هذه الغاية السامية يتطلب

أيضا تلقين الناشئين حقائق التاريخ ، وإيقافهم على ماضيهم الفخيم ، وأعمال آبائهم الغزاة الفاتحين ، وإيضاح قيمة ذلك الميراث الفريد الذى آل اليهم ميراث كله شرف فاخر ، ومجد باهر ، وعز يأخذ بالأبصار عظمة وجلالا . وجهاد مستمر متواصل فى سبيل الاسلام ، وإرشادهم إلى حالة البلاد الاسلامية ، وأسباب تحكم الأوروبيين فيها ، حتى يدركوا بهذه الدروس علل الانحطاط ، ويبصروا سبل التقدم والارتقاء ، ويحافظوا بما آتاهم الله من عقول رشيدة ، وملكات مختلفة على الدولة وأملاكها الباقية ، ويكونوا « متعصبين » فى أرقى معانى التعصب ، ويقولوا غير خائفين لومة لائم :

نعم نحن متعصبون للوطن والدين. نعم نحن متعصبون للحياة العالية والشرف الرفيع . نعم نحن متعصبون ضد كل عدو للدولة والملة . نعم نحن متعصبون ضد كل دخيل بيننا أو خارج علينا . ونعم التعصب تعصب المتبصرين المخلصين فى خدمة الأوطان .

بهذا ـ لا بسواه ـ تبلغ الدولة غايتها، وتحارب أعداءها بالسلاح الذى حاربوها به السنين والأجيال ، وتحقق رغائب المسلمين فى الحال والاستقبال . ولعمرى إن الساعة الحاضرة فى تاريخ الاسلام ، ودولة آل عثمان لساعة إنذار وإخطار . والأمل وطيد فى أن القائمين بأمور الدولة يسمعون صوت الزمان والمكان ، ويعدون للمستقبل ما أهمله السالفون للحال ، ويدركون أن مسألة التربية وتأثيرها على حياة الامم هى أهم المسائل التى يجب عليهم النظر فيها ، وأنه إذا كانت فرنسا وإنكلترا اهتمتا بها مرة ، يتحتم عليهم الاهتمام بها ألف مرة ، لكى نبرأ من ذلك الداء العضال ، ويحيا بيننا عصر الآمال والأعمال !

* * *

أما القضايا الفردية كقضية المنشاوى باشا وغيرها من القضايا التى أشرنا اليها فكانت توحى كذلك إلى صاحب اللواء بشتى الأفكار التى سجلها فى صحيفته ؛ ومن ذلك مقالة له استعرض فيها بعض اعمال الاحتلال وبعد فراغه من ذلك عرض لقضية المنشاوى . والمقالة بعنوان :

أفلاس الاحتلال

(بتاريخ ١٦ نوفبر سنة ١٩٠٣)

ومما جاء فيها :

لو كانت الدول التى تتهم تركيا بالتقصير فى إصلاح أحوال مقدونيا ، وهى لم تقم بأمر التنظيات الجديدة إلا من بضعة أشهر قضت معظم أيامها فى مقاومة الثوار ، وحفظ الأمن والأرواح تنظر إلى مصر وأحوالها وارتباك أمورها ، لأعلنت افلاس الاحتلال والمحتلين ، ونادت على رؤوس الاشهاد ، بأن قد مضى على هؤلاء المسيطرين واحد وعشرون عاما ،وهم أصحاب الكلمة النافذة فى طول البلاد وعرضها ، والقول المسموع ، والأمر الذى لا يرد ، فأين نحن اليوم ؟ وإلى أى درجة وصلنا فى سلم الارتقاء ؟

نحن اليوم نرى المحتلين يتساءلون عن القوانين والنظامات التى تلائم البلاد وأهلها ، كأنهم يؤسسون لها حكومة جديدة ، ويهدمون ما بنوه بالأمس ، ويرفعون ما وضعوه قبلا ، ويثبتون بهذا الاضطراب الغريب عجزهم عن معرفة مصالح القطر الحقيقية ، أو تعمدهم تأييد الفوضى ، ونشر أعلامها على هذه الديار الأسيفة .

أنظر إلى المعارف وهى التى تعد مستقبل الوطن وتربى ، زهرة شبيبته ما أكبر تعاستها ، وما أكثر المضحكات المبكيات فى أمورها ! وهل بعد انحلال مدارسها العالية ، واختلال طرق سيرها يؤمل المصريون منها خيرا لهم ولأعقابهم من بعدهم ؟

وماذا يجد الانسان فى الادارة والقضاء ، وهما ركنا العدالة والأمن العام ؟ يجد سقما عضالا ، وداء عياء . يجد التنازع شديداً ، والخطر كبيرا ، وأساة هذا الشعب جاهلين بالعلة . وهل يجود الجاهل بالداء بالنافع من الدواء ؟

يرى الباحث فى تاريخ الاحتلال أن عميده انتصر للنيابة على الادارة

حينا من الدهر طويلا ، ثم مال للبوليس والادارة بكل قواه ، حتى خيف على القضاء ، وحقوق الناس من الضياع . ولم يلبث أن أخذ بناصر النائب العمومى ، وجعله مشرفا حتى على المستشار القضائى . وها هو اليوم يضرب النيابة ورئيسها بتلك اليد التى طالما أيدتها وأيدته الضربة القاضية . ولا لوم على أحد إذا عير المحتلين بأنهم أجهل أهل الأرض بأخلاق المصريين ، معرفة النافع لهم من القوانين والنظامات ، لأنهم أنفسهم لا ينكرون ارتباكهم فى هذه الأيام ، وحيرتهم الشديدة فى الوقوف على الرأى المفيد ، والفكر السديد.

ولا يخطئ المنصف إذا وجد الشبه عظيما بين البورصة ، وإدارة الحكومة المصرية . فان نفوذ كبار الموظفين الانكليز يعلو ويهبط بسرعة مدهشة ، وفى أزمان متقاربة . فقد كان المستر « كوربيت » أقوى عمال الاحتلال كلمة ، وأرفعهم شأنا ، وأوسعهم سلطة ، وأكبرهم نفوذا . فأصبح اليوم آخر من يسمع له رأى . ويقول مستشار الداخلية القول فيرجعه إلى الوراء ، ويشكو إختلال الأمن ، فتلقى المسئولية على النيابة ورئيسها . وها هو يسمع وينظر ، ويعارض ، ولكن الزمن عنيد عبوس ، لا يرد له أيام سيطرته وبطشه إلا بعد حين . ولا نقول باستحالة رجوعها ، لأن إدارة حكومتنا أشبه بالبورصة من جميع الوجوه .

وقد كان المحتلون يصفقون طربا أيام قضية المنشاوى باشا ، ويقولون : لقد أدخلنا فى مصر المدنية العاليه ، وأيدنا أركان المساواة بين أهلها ، فصار القوى الغني الشديد البطش يساق إلى السجون ، إذا إعتدى على الفقير الضعيف العديم النصير . ونسمعهم اليوم يأسفون على تهورهم فى هذه القضيــة ، وتحريضهم الأشقياء ، والمفسدين على التوسع فى الأذى ، والاضرار ، وعدم المبالاة.

وعندى أن هذه الأدوار المختلفة ، والأدواء المتنوعة دالة كلها على شدة حاجة البلاد إلى مجلس نيابى تكون له السلطة التشريعية الكبرى فلا يسن قانون بغير إرادته ، ولا تحرر مادة إلا بمشيئته ، ولا يزعزع نظام

بغير أمره ، ولا تعلو كلمة على كلمته . وإلا فان بقاء السلطة المطلقة فى يد رجل واحد — سواء كان مصريا أو أجنبيا — يضر بالبلاد كثيرا ، ويجر عليها الوبال. فالمجلس النيابى هو الأساس الوحيد للنظامات السليمة . ولا سلامة لبناء الحكومة بغير ذلك الأساس (الى آخر ما قال).

* * *

وكما كان على اللواء أن ترد على رجال الاحتلال فى شتى التهم التى يكيلونها ضد الاسلام ، وكما كان على اللواء أن تدفع الأباطيل التى كان هؤلاء يرمون بها القضية الوطنية ، والكرامة المصرية فى أكثر الأحيان ، فكذلك كان على اللواء أن ترد على الكذب الذى اشتملت عليه تقارير اللورد كرومر ، والدعاوى العريضة التى ادعاها فى ميدان الاصلاح . فكثيرا ما ملأ اللورد أشداقه بهذه الاصلاحات ، وكثيرا ما زعم للعالم المتمدن أنه أحيا مصر من الموات . ولكن الوطنيين فى مصر كانوا يتعقبون هذه الدعاوى والمزاعم بالمناقشة تارة ، والتكذيب أخرى . وكان الأدب المصرى — كالصحافة المصرية — لا يدع فرصة تمر دون أن يرد على مثل هذه المزاعم . وهذا هو شاعرنا الاجتماعى الكبير حافظ ابراهيم ينكر على اللورد كرومر كل شيء ، حتى امتنانه على مصر باصلاحاته التى أدخلها على الرى الذى أخصب الأرض ، فيقول :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت	حواشيه حتى بات ظلما منظما
تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى	وأن أصبح المصرى حرا منعما
أعد عهد اسماعيل جلداً وسخرة	فانى رأيت المن أنكى وآلما
عملتم على عز الجماد وذلنا	فأغليتمو طينا وأرخصتمو دما
إذا أخصبت أرض وأقفر أهلها	فلا أطلعت نبتا ولا جادها السما

أجل — لقد اخصبت أرض مصر بفضل هذا الري ، ولـكن أهلها مفتقرون من العلم والثقافة ، مفتقرون إلى عز الحرية والاســـتقلال . وهيهات لمثل اللورد كرومر وأشياعه أن يأذنوا لمصرى بأن يأخـــذ نصيبه من هـذا الخصب المعنوى!

أما صاحب اللواء فـكان يصنع صنيع صاحب المؤيد دائماً ، فلا يكاد اللورد كرومر ينتهى من نشر تقرير من تقاريره التى يكتبها عن مصر فى كل عام ، حتى يتصدى له من ساعته ، ويكتب رده على التقرير فى صحيفته ولـكنه لا يصطنع فيه الهدوء الذى اصطنعه السيد على يوسف فى مؤيده ، وانما يجرى مصطفى كامل فى هذا وفى غيره على سجيته ، فيخرج الرد صورة من تحمسه وشجاعته وصراحته . ومن الردود التى كتبها مصطفى كامل — ولعله أدناها إلى القصد والاعتدال — رد كتبه بعنوان :

صنائع الاحتلال

(بتاريخ ٢٦ ابريل سنة ١٩٠٣)

ومما جاء فيه :

إهتم جناب اللورد كرومر فى تقريره بذكر الرشوة ، ووصفها فى السنين السابقة لعهد الاحتـلال ، وقارن بين الماضى والحال مقارنة معجب بعمله ، ساخر من سياسة المتقدمين . فقال أنصار الاحتلال ما أجمل هذا البيان ، وتنبه المصريون إلى النظر فى طريقة انتقاء الموظفين ، وترقيتهم فى العهـد الحاضر .

وإنه لا يدهشنا أن يكون جناب اللورد ممن تشمئز نفوسهم من ذكر الرشوة ، ويرونها آفة الآفات ، ويميلون بكل جوارحهم لمحو وجودها وآثارها . لأن كل رجل يعرف للشرف معنى ينفر منها . ولـكن النظام الذى سار

عليه الاحتلال فى تفضيل موظف على آخر ليس أشرف من الرشوة التى كانت سائدة من نحو ثلاثين عاما ، ولا أفيد لمصالح البلاد .

لأنه إذا كان من السهل تشويه الماضى ، ولتهام كافة رجاله بالفساد واختلال الأخلاق والمبادىء ، مع أنه لا يزال بين ظهرانينا شيوخ هم التاريخ الحى ، تدلك أحوالهم وسيرهم على الفضيلة الراسخة فى نفوسهم ، والاستقامة التى اتخذوها رائداً لهم طول حياتهم فى خدمة هذا الوطن العزيز ، فان من أسهل الأمور وأيسرها أن نذكر جناب اللورد — إن كان ناسيا — أو نظهر له — إن كان غير عالم — عيوب النظام الذى وضعه المحتلون ، وقضوا له به على المبادىء الحرة ، والأخلاق العالية ، والنفوس الكريمة شر قضاء . إذ لمن كانت رعاية الاحتلال وعنايته وحمايته ؟

كانت لكل منافق أو خائن لبلاده . كانت لكل دساس مفسد حرم لذة العلم والكفاءة ، فلم ير للترقى سلما سوى المناداة بفائدة الاحتلال . كانت لكل مدمن على شرب الخمور ، محالف للفساد والسلوك المشين . كانت لهؤلاء جميعاً . ولا عبرة بغيرهم من الفضلاء الذين تعب الاحتلال فى تحويلهم . ولسنا فيما تقدم مبالغين .

هذه أقاليم القطر لا يزال يتردد فيها صدى تلك الليالى التى كان يحييها بعض المديرين إكراما للمفتشين الانكليز ، ويقول لسان حالها « إلى مثل هذا انتهى فساد الأخلاق والتهتك والفجور ! » فهل قتل الفضيلة على هذه الصورة أقل خطراً على الأمة من الرشوة ؟ وهل المدير الذى يرتبط برئيسه الانكليزى بمثل هذه الصلة لا يقدم على كل مفسدة ، ويستحل الحرام ، ويبذر بذور الدناءة والانحطاط بين الأهالى والموظفين ؟ وهل غاب عن جناب اللورد أن كثيرين من هذا « الطراز الاحتلالى » فازوا بأسمى الوظائف ، ونالوا منتهى الاكرام ؟ وأن بين المديرين الحاليين من كوفىء وسلمت إليه أزمة إقليم لأنه كان جاسوسا على رئيسه ؟

وبماذا يسمى جناب اللورد الخطة التى جرى عليها الاحتلال مع

الوزراء المصريين ؟ إن الناس جميعاً يعلمون أن الوزير هو الرئيس الأعلى لوزارته ، المسؤول عن كل صغيرة وكبيرة فيها ، المراقب لجميع أعمالها وعمالها ، المطالب أمام الملك والشعب باصلاح المختل ، وتقويم المعوج وإظهار محاسن سياسته . فما شأن الوزير المصري الآن ؟ هل هو ذلك العامل ذو النفوذ العظيم والمسئولية الكبرى ؟ كلا . إنما له من الوزارة إسمها ، ومن الرئاسة « قاعتها » . ولمستشاره أو لوكيله الانكليزى كل السلطة والعمل فلأى عمل يدفع له مرتب فى آخر الشهر ؟ وبأى حق يؤخذ من مال الأمة أجر لعامل لا يؤدى وظيفته الحقيقية ؟ أليس هو مأجوراً على أن لا يعمل ؟؟ أو ليس هذا النظام أضر على كل أمة من داء الرشوة ؟

إننا لا نشك ولا نرتاب لحظة واحدة فى أن جناب اللورد أعدى أعداء الرشوة والفساد . ولكن الأميال الشخصية شيء ، والسياسة شيء آخر . فكما أن جنابه يضطر فى أغلب الظروف - إن لم يكن فيها كلها - أن يعلن كراهته للوطنيين الأحرار ، مع احترامه لهم أمام ضميره ، وإعجابه بهم فى سره وبين خاصته فان السياسة قضت على المحتلين أن يعتمدوا فى تنفيذ مآربهم على المسالمين والمستسلمين والخائنين والمنافقين وفاقدى الشعور والاحساس . ولولا مقتضيات هذه السياسة ومطالبها لما كان صنائع الاحتلال من نرى ، ولما عادى المحتلون كل مصرى حر الضمير غيور على بلاده ، ولما اتبعوا فى تثقيف الناشئة هـــذه الخطة المعلومة التى لا تربى وطنية ولا إقداما .

إنما تعرف أخلاق الرجال ، ويظهر شرف نفوسهم بمقدار حبهم لوطنهم وإخلاصهم فى خدمته . فلو أراد جناب اللورد أن تكون الحكومة مؤلفة من رجال نزيهين أمناء أكفاء لوجب عليه أن يختبر شعورهم قبل كل شيء . لأن الوطنية حليفة الفضائل ، ومحال أن تقوى على هذا التحالف مصلحة ، أو يضعفه غرض من الأغراض.

نعم — إنه لا يروق للمحتلين أن يكون كبراء الحكومة ، وقادة أزمتها ميالين للجلاء والاستقلال ، مبغضين للاحتلال والمحتلين . ولكن أمثال هؤلاء هم الرجال الذين ترقى البلاد بهم ،وتسمو على غيرها بهممهم ، ويزول منها كل داء عضال بفضل عزمهم وإخلاصهم . ومحال أن يزول على أيدى غيرهم الفساد والاحتلال ، ويتم شيء من الاصلاح المرغوب ! (الى آخر ماقال)

ثم من هذا القبيل ما نشرته اللواء أيضاً بعنوان :

واضعو القانون فى مصر

(بتاريخ ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٠٣)

لم تذكر الصحف فى عصر من العصور ، ولا فى مملكة من الممالك كلمة « الدستور » كما ذكرها المحتلون وأنصارهم فى مصر فى هذا الزمان . فلا يجرى أمر مخالف لسياستهم ، أو مناف للقانون بعيد عن مطالبهم إلا وتسمعهم ينادون : « إن هذا الأمر لا يصح وقوعه فى بلاد يسود فيها الدستور ، وتخفق أعلامه فوق الرؤس »

وقد قضينا السنين الطوال نبحث عن ذلك الدستور لنراه ، ونبتهج بحكمه وسلطانه ، ونقدم إليه الاعظام المفروض على محبى الحرية لحاميها. ولبثنا الأعوام نترقب ظهور أعلامه وراياته لنقول مع القائلين إن مصر بلاد الحرية والمساواة والاخاء ، فأضعنا الوقت سدى ، وذهب انتظارنا على غير جدوى . إذ قامت الدلائل والبراهين مثبتة نفور الدستور من مصر ، ومخالفة نظاماتها وصورة الحكم فيها لمبادئه السامية وقواعده المتينة .

وآخر هذه الدلائل ما شاع وذاع فى أنحاء القطر من أن أربعة من المحتلين يعقدون الاجتماعات العدة تحت مباشره عميد الاحتلال لقلب النظامات القضائية التى مضى عليها واحد وعشرون عاما .

ومن هم واضعو القانون ؟ هم المستر مكاريث مستشار الحقانية . وغاية ما يعلمه المصريون عنه أنه شاب ترفع عن مخالطة أهل البلاد ، وتعالى على كبرائها الأمجاد ، واكتفى بعلمه ومنصبه . ولعله لا يدرى من أخلاقنا إلا ما قرأه فى كتب سياح الانكليز . والمستر متشل مستشار الداخلية الذى لا تكفى معرفته بالقوانين العسكرية لأن يكون شارعا ، ولا علمه باللغة العربية ليكون خبيراً بحاجات البلاد . وها هو يلقى المسئولية فى اختلال الأمن على القضاء ، قائلا إن القضاة يبطئون فى الأحكام ، ويبرئون الكثيرين من المجرمين الطغام . والمستر كوربيت النائب العمومى الذى شب معلما للانكليزية ، وألهمه الاحتلال التشريع ، فصار بفضله قاضيا ، ثم نائبا عموميا عن أمير البلاد ، بعد أن أسند هذا المنصب بالتعاقب لفاضلين من صفوة المصريين بلغت النيابة فى أيامهما غاية الكمال ، ثم صارت فى زمنه مثالا للاعتلال والاختلال . والمستر برونيت الذى بلغ علمه بأخلاق البلاد وأحوال أهلها أنه قال للجنة مجلس الشورى عندما عارضته فى باب الفسق ومخالفة أحكامه لأخلاق المصريين وشريعتهم « إن مصر ليست بلاداً شرقية بل يجب أن تعتبروها غربية ! »

هؤلاء هم واضعو القانون فى مصر ، أى النائبون عن هيئة نيابية تمثل الأمة ، ويتكون أعضاؤها من نخبة من الأهالى العارفين بحاجات الأمة ومطالبها ، والأدوية النافعة لأدوائها .

هؤلاء هم واضعو الدستور الموهوم الذى تقوم عليه العدالة والحرية فى البلاد المتمدنة . فما أعجب حال مصر فى عهد الاحتلال ! (الى آخر هذه المقالة التى انتهت بقوله) : —

فما أكبرها فرية على الحقيقة والدستور ؟ وما أصدق القائلين من بنى مصر ومنصفيها إن المستبدين السابقين كانوا يستبدون باسم الاستبداد ، وإن مستبدى الاحتلال يستبدون باسم الحرية ، على وجوههم براقع نسجتها المدنية الكاذبة التى ضاع بسببها هذا الوطن الأسيف .

الفصل التاسع

اسلوب مصطفى كامل

كنا فى تلك الفترة من حياة مصر، وهى الفترة التى سميناها (عهد الاحتلال) أمام ثلاثة من أشهر الكتاب، وهم: ابراهيم المويلحى، وعلي يوسف، ومصطفى كامل.

أما أولهم فهو أديب هذه الحلبة، رزقه الله موهبة الأدب، فأصبح لا يصدر إلا عن هذه الموهبة فى كل ما كتبه فى جريدته مصباح الشرق.

ومن ثم جاء أسلوبه رفيعا، يرضى أذواق الخاصة من الأدباء، وعشاق الترسل، ويروعهم بما فيه من فن وزخرف، ويعيد إلى أذهانهم ذكرى النثر العربى فى أزهى عصوره، وأحفلها بالمظهر الخارجى للعبارة. ومن أجل ذلك أيضاً جاءت صحافة هذا الرجل أدباً فى أكثرها. ومنذ أخرج للناس جريدة (مصباح الشرق) وهم مفتونون بأسلوبها، معجبون ببعض الوسائل الأدبية التى اصطنعها صاحبها فى الوصول إلى أغراضه، ومن أهمها القصص.

وأما ثانيهم — على يوسف — فهو سياسي هذه الحلبة، أوتى ذوقا سياسيا بفطرته، ثم كشف له فى نفسه عن كل هذه الكنوز، وذلك منذ أصدر للناس جريدة (المؤيد) فكانت برهانا ساطعا على هذه المواهب التى ربما كان يجهلها فى نفسه، لولا ظهور جريدة المؤيد التي أظهرت له وللناس هذه الموهبة.

وأما ثالثهم — مصطفى كامل — فهو خطيب هذه الحلبة، لا بقدرته

البيانية التى يزعم كثير من الناس أنها لا تضارع ، ولكن بحماسته العاطفية التى أزعم أنا للناس أنها لا تبارى .

ومعنى ذلك باختصار أن أهم ما يلفت نظر الباحث فى أسلوب مصطفى كامل إنما هو التدفق الشعورى ، أو الطابع الحماسى الذى طبعت به كتابته ، وخطابته ، وصحافته فى وقت معاً .

وإذا كان الأدب فى ذاته معنى أو فكرة ، وشعوراً ، أو عاطفة ، وخيالا أو صورة ، وصياغة أو أسلوبا ، وما الأخير إلا وعاء تصب فيه كل هذه العناصر السابقة ، فمن الحق أن نحكم لصاحب اللواء بتفوقه على غيره من الكتاب تفوقا عظيما فى العنصر الثانى من هذه العناصر الأدبية المتقدمة ، ونعنى به عنصر الشعور أو العاطفة . ولكن ما رأينا فى العناصر الثلاثة الباقية ؟ .

أما العنصر الأول وهو عنصر المعنى أو الفكرة ، فلا نقول فيه أن صاحب اللواء كان مساويا لرصفائه من رجال القلم والصحافة فى عهده ، وأن جواده كان محاذيا لجيادهم ، بل نقول ان صاحب اللواء كان يبز هؤلاء الرصفاء ، وإنه حاول أن يسبقهم بأشواط بعيدة. وبنوع خاص حين يكون صاحب اللواء ممتلئاً بالأفكار السياسية الكثيرة التى قرأ عنها فى الصحف والمجلات ، بل فى الكتب والرسائل والمذكرات الهامة لبعض الساسة الأوروبيين . والذى نستطيع أن نؤكده فى هذا المجال أن صاحب اللواء كان يبدو أكثر من رصفائه اطلاعا ، وأكثر منهم معرفة بكبار الشخصيات المشهورة فى عالم السياسة ، وأكثر منهم أسفارا فى مختلف أنحاء العالم . وقد أكسبه كل ذلك مادة غنية من المعانى ، ورصيداً عظيما من الأفكار كان يستقى منه فى صحافته كلما أراد ذلك .

وأما العنصران الباقيان من عناصر الأدب ، وهما الخيـــال أو الصورة ، والأسلوب أو الصياغة فلنا فيهما رأى خاص نلخصه فيما يلى :

عرضنا لكثير مما كتبه صاحب اللواء فى شتى الصحف والكتب ، كما قرأنا غير يسير من خطبه وأحاديثه فلفت نظرنا فى كل ذلك أن مصطفى كامل كان لا يعنى بالخيال أو الصورة ، وكان لا يتوخى درجة عالية من جمال العبارة ، وذلك كما يتوخاها الأديب الذى يرى الجمال غاية فى ذاته ، وغرضا يسعى إليه .

وآية ذلك أن القارىء لمصطفى كامل قلما يعثر فى طريق قراءته بتشبيه جميل ، أو خيال بعيد ، أو بصورة رائعة ، أو استعارة رائقة ، أو نحو ذلك مما يزين به الكتاب الأدباء كتبهم وصحفهم وأحاديثهم . وهذا كله من حيث الخيال أو الصورة.

وأما من حيث الأسلوب فما لا ريب فيه أن مصطفى كامل كتب جميع مقالاته بعبارة عربية سليمة فى جملتها . ولكن عباراته هذه لم تبلغ بعد من الرقى مبلغاً عظيما يلفت نظر جملتها الناقد الأدبى أو الباحث الفنى ، ويسترعى أذهان الأدباء من القراء خاصة والأدباء يتلمسون الجمال الحقيقى فى العبارة ويتتبعون البراعة الفنية الصحيحة فى الصياغة . فاذا ظفروا بشىء من ذلك تهافتوا عليه ، وصغت قلوبهم نحوه ، وبادروا إلى حفظه كما يحفظون الشعر أو الحكمة أو المثل .

ولكن لا ينبغى أن ننسى مع ذلك أنه كان لأسلوب مصطفى كامل روعة فى نفوس قارئيه وسامعيه ، وأن هذه الروعة جاءته من الظرف الذى كتب فيه . فقد كان لكل كلمة من كلمات هذا الزعيم الخالد جو مناسب لا تفهم إلا فيه ، ولا يدرك أحد قيمتها إلا به . ومن هنا جاء سحر الرجل ، وجاء عظم تأثيره فى نفوس الخاصة والعامة .

صحيح ما يقال من أن لمصطفى كامل بعض الكلمات الرائعة والعبارات الحماسية الخالدة . ولكن ذلك فى مجموعه قليل ، ولا يجوز أن يبنى عليه الناقد حكما فى أسلوبه الكتابى .

وعلى هذا القياس يكون صاحب اللواء متفوقا على أقرانه فى عنصرين ، ومتخلفا أو كالمتخلف عنهم فى عنصرين آخرين . وأنت ترى مع ذلك أننا نزن النتاج الصحفى لصاحب اللواء بميزان الأدب . ولكن أيحق لنا أن نفعل ذلك ، وقد سبق لنا القول فى بعض الكتب إن الأدب شىء ، والصحافة شىء آخر ؟ ألم نقل إن الصحفى يهدف إلى غير ما يهدف اليه الأديب ؟ ألم نقل إن الصياغة الفنية للأدب الخالص يجب أن ترتفع عن الصياغة الفنية للصحافة الخالصة ؟

بلى — قلنا ذلك ، ونحن عند رأينا فى كل ذلك . وإذن فلا مناص لنا من الحكم لمصطفى كامل بأن أسلوبه الصحفى كان يلائم الصحافة ، لولا ما قد غلب على أسلوبه هذا من طابع الخطابة . وهل كان يسع الرجل أن يتخلى عن أسلوبه الخطابى مهما كانت الدواعى إلى ذلك ؟ كلا :

اجل — كان اسلوب مصطفى كامل ألصق بالخطابة منه بالكتابة . وأنا وإن كنت ممن لا يرون بأسا من تداخل الفنون الأدبية بعضها فى بعض ، وأخذ بعضها من بعض ، إلا أننى ممن يرون فى الوقت نفسه أن لكل فن من هذه الفنون الأدبية خصائص يستقل بها ، وسمات يعرف من خلالها . وليس من العسير على أهل البصر بالكلام أن يتعرفوا على هذه الخصائص والسمات ، وأن يبنوا على ذلك رأيهم فى الأثر الأدبى ومن حيث هو . فللكاتب الصحفى أن يستعير فى اسلوبه شيئاً من ملامح الخطابة ، كالاشارة أو الخطاب أو تكرار عبارة بعينها مرات كثيرة ، ونحو ذلك . ولكن عليه ألا يسرف فى هذا الأخذ والاستعارة . فاذا فعل ذلك فهو خطيب يكتب خطبته على الورق ، وليس بكاتب صحفى إلا من قبيل التجوز والتساهل . !

إذا صح هذا — وهو عندى صحيح إلى درجة كبيرة — فمعناه فى صراحة وجلاء أن مصطفى كامل يعتبر فى نظر الناقد والباحث خطيبا من النوع الممتاز — لا جدال فى ذلك — ولكنه لا يعتبر فى الوقت نفسه كاتبا صحفيا من النوع الممتاز — وان غضب بعض الناس من ذلك .

والحق أن قراء صـــاحب اللواء إنما كانوا يقرأون دائماً لمصطفى كامل الخطيب ، لا لمصطفى كامل الـكاتب أو الأديب . !

* * *

وثم مقياس آخر تقيس به الأدب بوجه عام وبهذا المقياس يمكن أن يقال : إن عناصر الجودة فى الأدب ثلاثة هى :القوة والحق والجمال ونحن حين نزن بهذا الميزان الاخير جميع الآثار الصحفية لمصطفى كامل نرى أن فى جانبه منها عنصرين منها ؛ هما عنصرا القوة والحق .

أما القوة فمصدرها عنده الحماسة ، وسمو العاطفة . وأما الحق فمصدره فى أسلوبه صدق الدعوة التى دعا إليها ، والغرض الذى هدف إليه ، والحركة التى قام بها ، والايمان الذى ملأ نفســـه ، وغمر قلبه ، وسما به إلى منزلة أوشكت أن تقرب من منازل الأنبياء والقديسين والشهداء .

بل إن سمو العاطفــة عند مصطفى كامل إنما يرجع إلى ما فطر عليه من الحب لمصر ، والغيرة الشديدة على خير مصر . والذى لا يماري فيه أحـد أن مصر لم تعرف رجـلا أحبها بكل جوارحه كما أحبها ذلك الرجـل . وان قارىء هذا الفتى ليشعر أنه إنما يقرأ ذوب قلبه ، وعصارة كل قطرة من قطرات دمه . وحسبك أنه القائل : « لو لم أولد مصريا لتمنيت أن أكون مصريا » . وحسبك أيضا أنه كان يكتب على ظهر (اللعب) التى يلعب بها أطفال المدرسة التى سميت باسمه مثل هذه العبارات :

الوطن عزيز ، الوطن جميل ، لا شرف بغير الوطن ، ونحو ذلك . (١)

وكم من المعانى الوطنية اسـتخدمها مصطفى كامل ، وكم من العبـارات الحماسية جرى قلمه بها فى الصحف ، ولسانه بها فى المحافل . وهذه ناحية من الفضل ينبغى أن تذكر له دائماً بالتقدير والتبجيل .

وعلى هذا فلا يبقى من تلك العناصر الثلاثة السابقه غير عنصر الجمال . وهو

(١) راجع اللواء في أول مارس سنة ١٩٠٢

العنصر الذى لم يفرغ له الرجل، ولا كانت الصحافة من جهة، ولا شغله الدائم بالقضية المصرية من جهة ثانية يتيحان له وقتاً لتوفيره، أو النظر إليه .

والخلاصة أن الفكرة التى تألفت لنا عن أسلوب مصطفى كامل أنه (أسلوب خطابى) قبل كل شيء . وإذا قلنا (خطابى) فمعنى ذلك أنه اسلوب متوسط التعبير، فلا هو بالأنيق الممتاز بجماله، ولا هو بالأسلوب الهابط إلى درجة تقرب من أسلوب الحديث العادى .

ونحن إذ نقف فى الحكم على أسلوب الرجل عند هذا الحد لا نريد أن نبخسه حقه من الفضل . فاننا لو نظرنا فى صحافته من ناحية الأسلوب وحدها استطعنا أن نقول باختصار : إن صحافة مصطفى كامل تدلنا دائماً على رجل واحد هو مصطفى كامل . ومعنى ذلك فى عرف النقاد المحدثين أن فى كتابة صاحب اللواء قدراً من (الأصالة الحقيقية) يرتفع بها أسلوبه إلى درجة عالية، ويزداد بها فى الميزان الأدبى زيادة واضحة .

وقليلا ما يطالب الزعماء والقادة ومن إليهم من أهل اللسن والخطابة بأن يعنوا عناية كبيرة بالخيال أو الصورة، لأنهم قوم مشغولون دائماً بالمعانى يشرحونها للأشياع والمريدين، وبالعواطف ينقلونها فى حرارة كبيرة إلى قلوب الجماهير . وقصاراهم أن يؤمن الناس بدعواهم . وهم يلحون فى ذلك حتى لا يتركوا مجالا لفكرة تتسرب إليهم غير أفكارهم، أو دعوة مخالفة لدعاواهم . وقليلون جداً من أولئك الزعماء والقادة وأصحاب اللسن والخطابة من يعتمدون فى كل ذلك على الصور أو الأخيلة .

اجل — إن بين الأديب والخطيب أو صاحب الدعوة فرقا كبيراً من هذه الناحية . فالأديب يؤلف الصور البيانية، ويأتى بالعبارات الطلية، ويتخذ من هذا كله دليلا على صدق فكرته أو صحة قضيته . أما الخطيب أو الدعية فيعتمد على الحوادث الجارية، والحقائق التاريخية الواضحة، ويتخذ

منها دليلا على صحة رأيه ، وسلامة قوله. والصورة البيانية تصلح دائما للايضاح ولكن لا تصلح أبداً للقياس. أما الحوادث والحقائق ونحوها فهى مادة الاستدلال الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . والصورة البيانية عند النقاد هى الصدق المغنى ، ولكنها عند غيرهم من الناس لا صلة لها بالواقع ، ولا ينبغى أن يعتمد عليها فى الاحتجاج .

* * *

ومهما يكن من شيء فالناظر فى أسلوب صاحب اللواء يلمح به طائفة من الخصائص منها :

أولا ـ شيوع اللهجة الخطابية . وقد تحدثنا الآن عنها . ولكنا نزيد على هذا الحديث أن الخطابة فى أسلوب مصطفى كامل أوضح منها فى أسلوب المويلحى وعلى يوسف وغيرهما من رجال المدرسة الصحفية التى سميناها (مدرسة عهد الاحتلال) . ثم أن هذه اللهجة الخطابية التى غلبت على أسلوب مصطفى كامل تمتاز بالحماسة والتدفق ، وهما الصفتان اللتان من أجلهما صارت مقالات صاحب اللواء أدخل فى باب الخطب منها فى باب الترسل الأدبى أو الترسل الصحفى الممتاز .

انظر إليه حين يقول فى المقال الذى عنوانه (١٩ ينساير) وهو يوم اتفاق السودان . وقد سبقت الاشارة إلى هذا المقال فى فصل بعنوان (اللواء والحركة الوطنية) :

تذكروا يا معاشر المصريين أن أخوانكم فى الوطن والدين أهرقت دماؤهم العزيزة فى سبيل استرداد السودان .

تذكروا يا معاشر المصريين أن أرض السودان رويت بدمائكم ، وصرفت فيها أموالكم ، وسلبتكم أشد الرجال وأعز الأبناء .

تذكروا يا معاشر المصريين أن مصر لا حياة لها بغير السودان ، وأن القابض على منابع النيل قابض على أرواحكم .

تذكروا يا معاشر المصريين أن ضياع السودان ضياع لمصر ، وأنكم بغير السودان فاقدون الحياة .

تذكروا يا معاشر المصريين أن اتفاقية السودان حالفة لدستور البلاد، وفرامانات جلالة السلطان الأعظم، ومعاهدات الدول الأوروبية.

تذكروا يا معاشر المصريين أن فرنسا لم تنس الألزاس واللورين إلى اليوم، وقد مضى على انفصالها ثلاثون عاما. وما حاجة فرنسا إليهما كحاجة مصر إلى السودان الخ»

ثانيا - ومن هذه الخصائص التي يمتاز بها أسلوب الرجل جنوحه إلى إحداث الموازنات في الأفكار والمعاني، واعتماده على ذلك لاحداث التأثير المطلوب في نفس القارئ. ففي مقالة له بعنوان (اتحاد كلمة المسلمين) بتاريخ ٧ يناير سنة ١٩٠٠ كتب يقول:

... على أننا لو ناقشنا أوروبا الحساب لوجدناها جنت على الاسلام والمسلمين، بل جنت على العالمين أكبر الجنايات المعنوية. فم يشتكي المسلمون؟

نشتكي معاشر المسلمين من أن أوروبا المتمدنة لا تعاملنا كما يجب أن يعامل بنو الانسان. نشتكي من أنها دخلت بلادنا بدعوى الاصلاح فأفسدت، ونشر المدنية فأعادت همجية العصور الأولى.

نشتكي من أنها تكرهنا كراهية دينية شديدة، وهي المنادية بمبادئ العدل والحرية والمساواة. نشتكي من أنها تقصد إبادتنا كما تباد الحيوانات الضارة، وكما أبيد السود من أمريكا، وهم أصحاب البلاد الأولون.

نشتكي من كل أعمال التمدن والمدنية. وبودنا لو كنا غير شاكين.

هذا مانشتكي منه. فم تشتكي أوروبا؟

أتشتكي من أننا سلمنا إليها بلادنا، ووثقنا بأقوالها ووعودها؟

أتشتكي من أنها سادت عليها بارادتها، وهضمت حقوقنا، واستنزفت أموالنا، وضيقت علينا في حياتنا؟

أتشتكي من أننا نحسن للمسيحيين في الشرق، ونعدهم إخوانا لنا؟

أتشتكي من اعتدالنا وتسامحنا، وهي معنا ظالمة قاهرة؟

ثم قال :

فيا كتاب أوروبا وسواسها قبل أن تحكموا على الدولة العلية ، وتسموها دولة الهمجية والتعصب اسألوا أنفسكم بالله عليكم هل يلاقى المسلمون الذين تحت حكم دولكم من الرعاية عشر ما يلاقيه المسيحيون تحت حكم الدولة العلية ؟ وهل تعتبر أوروبا المسلمين الخاضعين لها كأبنائها اقتداء بالدولة العلية مع رعاياها المسيحيين ؟

إذا كان الجواب على هذه الأسئلة بالسلب فما بالكم يا كتاب المدنية الغربية تزيدون المسلمين بلاء على بلائهم ؟ وما بالكم لا تعرفون للحقيقة مقاما ؟ ولا تدركون للفضيلة الصحيحة احتراما ؟

اللهم إن كل المسلمين فى كل أنحاء الأرض متألمون لما أصابهم ، آسفون على ضياع استقلالهم ، ساعون فى تحسين أحوالهم . ولكن أى خطر على أوروبا من ذلك ؟

نحن نصرح فى كل كتاباتنا وخطبنا وأعمالنا بأن الاعتدال أول مبدأ للمسلمين ، وأن الهيجان والاضطراب خطر أشد على سلامتهم من كل الأخطار .

ثالثا — ومن تلك الخصائص التى تصف لنا أسلوب الرجل إسهابه النسبى فى العبارة . ونقول النسبى لأننا نقيس الكتابة عند صاحب اللواء بالكتابة عند صاحب المؤيد . وقد كان السيد على يوسف يمتاز بصفة ظاهرة فى أسلوبة ظهورا تاما . وهذه الصفة هى ما سميناه (بمساواة اللفظ للمعنى) . ومن ثم جاء أسلوبه أميل إلى الاقتصاد فى الألفاظ والعبارات ، وأعانه على ذلك أنه لم يكن خطيباً ، ولا كاتبا له صلة صحيحة بالخطابة .

أما مصطفى كامل فقد كان على عكس ذلك مفتونا بالخطابة . وكانت له صفاتها . وكان عنده استعداد كبير لها . ومن صفات الخطيب الميل قليلا أو

كثيراً إلى الاسراف فى اللفظ ، وإلى تكرار العبارات ، وإلى طول النفس في الكلام ، ونحو ذلك .

ومن هنا جاءت مقالات صاحب اللواء أطول فى بعض الاحيان من مقالات صاحب المؤيد . تقرأ للأخير فلا تكاد تفتح فمك بالقراءة ، وتقرأ لمصطفى كامل فتميل ميلا عظيما إلى أن تحرك فمك بالقراءة . ومعنى ذلك عند النقاد المحدثين أن أولهما كاتب له أصالته فى الكتابة . وأما الثانى فخطيب له أصالته فى الخطابة . وكلاهما صحفى ناجح ، لا موضع للشك فى هذه الدعوى .

كلاهما كان يرد على جبار الاحتلال كلما كتب تقريرا ، ونشرت الصحف له هذا التقرير . ولكن رد أولهما — وهو على يوسف — كان أدنى إلى الايجاز والمنطق على السواء . وكان رد ثانيهما أدنى إلى الاسهاب وإثارة العواطف . وأعتقد أن القارىء فى غنى عن أن آتى له بمثال على هذا الاسهاب الذى اشتهر به مصطفى كامل بالنسبة إلى على يوسف .

رابعا ـ ولعل من أوضح الخصائص الفنية لمصطفى كامل سخريته الجادة ، أو الحزينة ، ونعنى بها ما كان يظهره صاحب اللواء أحيانا من التهكم المرير بالمحتلين حينا ، والمصريين أنفسهم فى بعض الأحيان . وهو تهكم لم يصدر قط عن نفس مرحة ، ولا قلب يغمره الفرح . وإنما كان يصدر دائما عن نفس حزينة ، وصدر مشحون بالغيظ والألم من أجل هذه الحالة التى أصبحت عليها مصر ، ومن أجل الاحتلال الذى قبض بكلتا يديه على رقبة مصر . ومن ثم كان لصاحب اللواء العذر كل العذر فيما امتلأ به فؤاده من هم ، وما أحس به من كرب . فاذا أضفنا إلى ذلك أن نفس الرجل كانت تميل بطبعها إلى الجد والحزن لم نعجب من أن اللواء لم تنفرج قط عن ابتسامة أمل ، ولا نبضت طول حياتها بشىء من السرور أو الفرح . ولهذا كان مصطفى لا يعرف الضحك ، ولا يحسن السخرية التى تأتى من شعور صاحبها بعلو منزلته على من يسخر بهم ، أو يحس قارئها بابتسامة صفراء

مرسومة على الورق !

أجل من الكتاب الساخرين من يحسن « التنكيت » و « التبكيت » معا كما فعل ذلك السيد عبد الله النديم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ومنهم من لا يحسن إلا (التبكيت) فقط أو (التنكيت) فقط . وصاحب اللواء كان يحسن أولها ولا يحسن ثانيهما . ومعنى ذلك أن سخرية مصطفى كامل حينا تكون ضربا من الغضب أو الهياج ، وحينا تكون لونا من الرثاء أو الاشفاق ، وحينا تكون نوعا من الحزن أو البكاء وليست شيئا غير ذلك .

خامسا — على أن شيئا هاما يلفت النظر كذلك فى أسلوب مصطفى كامل ، وهو أنه قليل الأخذ من معين الأدب الخالص ، زاهد فى كلام الأدباء والشعراء والفلاسفة ، من العرب أو غيرهم على السواء .

فلم نر صاحب اللواء يعنى بالاقتباس من غيره إلا فى حالة واحدة ، هى اقتباس الأقوال المتصلة بالساسة . وهنا نجد الرجل يستعير من كبار الساسة ، ويبنى على ما يستعيره من كلامهم ، ويعقب على هذا الكلام ، وينظر إلى العبارة المقتبسة فى هذه الحالة كما ينظر المحامى الى وثيقة من الوثائق التى يعتمد عليها فى أثناء النظر فى قضية من القضايا .

أجل — كان مصطفى كامل قليل الأخذ من معين الأدب الخالص . ومن شأن الأديب الذى يزهد فى هذا المعين أن يقوم بنفسه ، وأن يتخذ له أسلوبا عصريا بحتا يشتقه من نفسه . وقد رأينا رجلا كالسيد على يوسف يحاول بين حين وآخر أن يكون عصريا فى أسلوبه بهذا المعنى . أما مصطفى كامل فانه حتى فى هذه الناحية أيضاً — كان قليلا ما تعجبه الأساليب العصرية ، والعبارات المتداولة على ألسن المصريين ، فيأتى بها فى تضاعيف كلامه فى الصحف أو الخطب . ولا تكاد ذاكرتى تعى لمصطفى كامل من أمثال هذه الأساليب العصرية ، أو الجمل المتداولة على ألسن المصريين — بغض النظر عن مقدار عربيتها — أكثر من قوله :

« لم تملأ الدنيا بذكرهم، ويعم الأرض ومن عليها مديحهم، والأطراء عليهم وتشيد لهم الأمم العلالى والقصور من الحب والاعجاب والثناء. إلا لأنهم رفعوا لواء الوطن الخ » . وهو جزء من مقال له عنوانه (البوير والدخلاء) لا بأس من أن نأتى به هنا كاملا .

وهذا المقال . وان لم يكن من المقالات المشهورة لمصطفى كامل، إلا انه يصف أسلوبه، ويترجم عن طريقته . ولأمر ما أتينا به فى هذا المكان، وهو بعنوان :

البوير والدخلاء (١)

ما هذه الضجة الهائلة التى وصل صداها إلى جبـــال آسيا، وقرى البوسفور ؟ ما هذا الاعجاب العام والتحدث بشمائل البوير ؟ ما هذه العناية (بديلارى) و (دى ويت) (وبوتا) ؟ ماذا أقام هؤلاء القوم من بنيان، وشيدوا من دول حتى صار لهم فى العالم كله هذا المقام وذلك الاحترام؟

لم تملأ الدنيا بذكرهم، ويعم الأرض ومن عليها مديحهم، والاطراء عليهم، وتشيد لهم الأمم العلالى والقصور من الحب والاعجاب والثناء إلا لأنهم رفعوا لواء الوطنية، وأعلوا منارها، وألقوا على الشعوب أفضل الدروس فى الاقدام، وعلمت الأمم الحاضرة والآتية كيف تكون الهمة والشهامة والاستهانة بالحياة فى سبيل أقدس ما أهدى الرحمن للانسان : الوطن العزيز!

ولكن ما هذا القول، وفى مصر رجال محنكون، وفلاسفة مطلعون ينادون بأن الفضيلة فى خيانة الأوطان، والشرف فى عبادة الاجنبى والمحتل، والمجد فى قتل عواطف الأمة وتمزيقها . فهل لنا أن نصدق الأمم والدول والممالك والساسة والكتاب والشعراء ونكذب طغمة الدخلاء ؟

---

(١) كتبه مصطفى كامل وهو بالاستانة وبعث به الى اللواء فنشرته فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠٢

كيف نمجد الوطنيـة مع ممجديها من سادة أوروبا وقادة أزمتها ، ولا نحقرها مع صنائع الاحتلال فى مصر ، وآلات الفساد والاختلاق بها ؟ كيف نترك تصفيق الأمم وتهليلها (لديلارى) و (دى ويت) و (بوتا) يخترق قلوبنا، ويلعب بأفئدتنا ، أو (بارين) وأمثاله من أنصار الخيانة حكموا على أبطال البوير وأشباههم بالجنون ، وقضوا على المتقدمين والمتأخرين من خدمـة لأوطان وحملة رايتها بضعف العقل وموت الارادة .

لا محل للسؤال والحيرة . فقد سمع المصريون صوتين فى ، الآفاق صوت البوير والوطنيين من أمثالهم ينادون :

« إنمـا الوطن آية الله الكبري ونعمتـه العظمى . وفى كل ذرة من ذرات ترابه شىء من عظام الآباء والأجـداد ، وأثر من الآثار المقدسـة التى يهين الانسان أشرف شىء فى وجوده وفى الوجود بالاستهانة بها

إنما الوطن مهد الانسان ولحده . وجنته فى الدنيا وغاية سعوده ، وأبوه وأمه وولى نعمته وأمره ، ومسدى الخير لذريته وسلالته من بعده ، وموزع الشرف والرفعة بين قومه ، وحامل مجد آبائه وناقل ميراثهم اليه .

إنما الوطن خالد باق . ونحن نمر أمامه ونقيد فى سجله ما لنا من حسنات وسيئات . فويل ثم ويل لمن كثرت سيئاته وتعددت على الوطن جناياته .

وما جناية الجنايات عليـه إلا الاعتماد على الدخيل ، والثقة بأقواله ، وقبول سم مقاله غذاء للعقول والنفوس !

إنما الوطن يحتاج فى سـلامته إلى اجتماع كلمة الأمـة ومعرفتها لتمييز عنصرها على غيره ، وتمسكها بسلامة لغتها التى سماها (دى ويت) « الحارس الوحيـد للجنسية » والعلم بأن الدخيل فى الأمة ديناميت يبيدها ، ويمزق شملها ، ويقطع أوصالها ، ويهدم بنيانها ، ويجعل عزها ذلا ، ونعيمها شقاء وبلاء .

إنما الوطن ببنيه وأبناؤه به . فلا يرتفع للمرء شأن مهما كانت معارفه إذا كان وطنه ذليلا مهانا . ولا ينخفض للانسان مقام مهما سفلت أخلاقه

وقلت معارفه إذا كان وطنه عزيزاً مهابا ! »

كما سمع المصريون كذلك صوت الدخلاء يناديهم :

« لا وطن ولا وطنيين ! إنما مصر لمن ينهبها ويخدم المحتل فيها ، وما الشهامة والهمة وعلو النفس والاباء إلا أخلاق همجية لا محل لها فى بلاد دخل فيها التمدن وارتفعت فوقها راية الحرية

وما أنتم معاشر المصريين إلا قوم متأخرون فى الحضارة ، فاستمعوا لأقوالنا نحن معاشر الفلاسفة ، واعتقدوا إخلاصنا « نحن الأجانب عن جنسيتكم ودمكم ودينكم » ولا تتبعوا قوما منكم تجمعكم وإياهم جامعة « الجنسية والدين » ! النصيحة الحقة منا ، والرأى الصادق يصدر عنا نحن « الذين لم يدفن لنا أب ولا أم فى أرض مصر » والضلال كل الضلال فى اقوال أولئك « الذين ملئت البلاد بعظام آبائهم واجدادهم » ! اهتدوا بهدينا ، واقتدوا بنا نحن « الذين نسب الاسلام ونعلن بطلان مبادئه » وخالفوا أولئك الذين « يؤملون رفعة الاسلام ويحلمون بعودة مجده وسؤدده » ! أطيعونا نحن القائلين لكم « بيعوا الوطن واشتروا سلامتكم الوقتية . ضحوا المصلحة العمومية وأنقذوا المصلحة الشخصية . تمتعوا بالحياة المادية واقتلوا الحياة الأدبية . فوزوا بالنعيم الباطل وقولوا « بعدنا الطوفان ». أعبدوا المحتل الذى سلبكم استقلالكم ومجدكم وعظمتكم . وسبحوا بحمده بكرة وأصيلا ! » ودعوا أولئك المتهورين الذين يزعجونكم بقولهم « شهد دوفرين وغيره من الانكليز انفسهم بأن للمصري أن يكره المحتل مادام فى بلاده لان الاستقلال لا ثمن له . وقرر الحاضرون والمتقدمون من الفلاسفة « الصادقين » والعقلاء أن الأمة لا تكون امة إلا إذا كانت شديدة الغيرة على جنسيتها ولغتها ودينها ، شديدة النفور من الدخيل »

سمع المصريون هذين الصوتين : صوت الحياة العالية ، والشرف الصحيح ، وصوت الخيانة والموت والعار الفاضح ، ورأوا حال الأمم التى سمعت الصوت

الأول ، رأوا نعيا وملكا كبيراً ، رأوا اساطيل فى البحر ، وجيوشا فى البر . رأوا سلطة وسلطانا ، وقوة وشانا ، ورفعة للجموع والأفراد ، وراية يحمل الاجلال اينما حلت ، ويعز من بها اعتز ، ويذل من لم يؤد لها واجب الاحترام . فأى الصوتين هم سامعون ، وبأى القولين هم عاملون ؟

اللهم إن كانوا للموت طالبين ، وبالعار متعلقين ، فما هم الدخلاء أئمتهم وقادتهم المختارون . وإن كانوا من طلاب الحياة والوجود والجاه والرفعة فليسمعوا الملأ صوت احتقارهم لطغمة تنسبهم بأقوالهم ، وتطالبهم فوق ذلك بالامتثال والحمد والشكران

الآستانة فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠٢ (مصطفى كامل)

فى هذا المقال تظهر خصائص صاحب اللواء بأ كلها دفعة واحدة ففيه :

أولا — تلك اللهجة الخطابية التى تحدثنا طويلا عنها . وهى اللهجة التى تعتمد على التكرار والاستفهام والاشارة وتوجيه الخطاب إلى القراء كأنهم أمام الكاتب فى حفل عام .

ثانيا — تلك الموازنات التى أغرم صاحب اللواء بها لكي يعطى الصورة كاملة للقراء . وهو هنا يوازن بين حالة مصر وحالة البوير . ثم يوازن بين كلام الوطنيين الصادقين ، وكلام المحتلين ، وأنصار الاحتلال من المصريين .

ثالثا — تلك المعانى الوطنية التى يفتأ صاحب اللواء يأتى بها فى مقالاته ، والعواطف القومية الشريفة التى لا ينفك يبعثها بين مواطنيه .

رابعا — تلك السخرية الحزينة بل ذلك البكاء المتواصل على مصر من جهة ، وعلى الاسلام من جهة ثانية . وهو بكاء لا يصدر إلا عن نفس حز فيها الألم ، وقلب أثخنته الجراح .

خامسا — ذلك الاسهاب أو الاطناب فى العبارة . وهو إسهاب يتمشى

مع آلام الرجل ، ويسير مع أفكاره دائما . وإذا كانت آلامه كثيرة لا تنتهى وأفكاره متلاحقة لا تعرف الوقوف فمن الضرورى إذن أن تكون عباراته مسايرة لهذا الطول والامتداد فى الفكرة والعاطفة.

سادسا — ذلك الصدود الظاهر عن الصور البيانية على اختلافها ، وعن الزينة اللفظية بأنواعها ، وعن الأخذ من الأدبين القديم والحديث بفنونهما . فحسب الكاتب هنا أن تخرج عبارته وكأنها نفثة من نفثات صدره ، أو قطعة من قلبه وعقله . وما دام هو قد رضى عن قلمه على هذا النحو ، ورأى فيه أنه قد عبر عن غرضه على هذا الوجه ، فما حاجته إلى الاقتباس والاستشهاد ، وما حاجته الى التسلق على كلام الشعراء والحكماء والعلماء والفلاسفة ؟

سابعا — صفة (التوسط) فى التعبير . فليس تعبيره هذا بالأدبى الرفيع ، ولا هو بالسوقى الوضيع . ولكنه فى منزلة بين المنزلتين ، يعتمد فيه الكاتب على نفسه ، ولا يحاول الاتيان بلفظ لا يدور على الألسنة ، ولا يشق على القارىء . بل لا بأس عنـــده من أن يأتى ببعض الجمل التى تداولتها الألسن ، وظهرت أحيانا فى أثوابها العامية المألوفة ، وإن كان ذلك لا يأتى من صاحب اللواء إلا فى مرات قليلة نادرة . كتلك المرة التى قال فيها :

« لم تملأ الدنيا بذكرهم ، ويعم الأرض مديحهم ، وتشيد لهم الأمم العلالى والقصور الخ » .

والشاهد فى قوله (العلالى والقصور) فهو تركيب مألوف فى بلادنا ، معروف فى أحاديثنا العامة فى مصر . وباختصار كان مصطفى كامل شديد الاعتزاز باللغة العربية فخوراً بها مؤيداً لها . ولكنه كان أقل الثلاثة الذين تحدثنا عنهم محصولا فى هذه اللغة ، وذلك بالرغم من جنوحه إلى الاسهاب والترادف على الطريقة التى شرحنا بعضها .

ثامنا — استجابة هذا الاسلوب للعاطفة والشعور أكثر من استجابته للعقل والتفكير . وهـذا هو الفرق بينه وبين على يوسف . فاذا كان هذا اسيراً لأفكاره التى يتقيد بها ، ويخضع أسـلوبه لها ، ولا يعنيه من العبارة الصحفية مهما كان شـكلها إلا أن توضح هـذه الأفكار التى يحاول نقلها إلى جمهور القراء ، فان مصطفى كامل كان أسير عواطفه يجعل أسلوبه تابعا لها ، خادما لأغراضها ، فلا يعنيه من العبارة الصحفية مهما كان شكلها إلا أن تترجم عن هـذه العواطف التى يزدحم بها قلبه ويحاول أن يجد لها متنفسا فى المحافل أو الصحف .

(وبعد) فانما يقرأ الأدب لشىء فى بعض عناصره له جاذبيته وله قوة لمعانه وإضاءته . وقد يكون هذا الشىء صورة رائعة ، وقد يكون هذا الشىء عاطفة من العواطف الشريفة الصادقة . وقلما تجتمع للقطعة الأدبية كل هذه الأشياء دفعـة واحدة . والذين يقرأون لمصطفى كامل ينبغى لهم أن يستحضروا فى أذهانهم صورة الظروف التى ألمت به ، والجهاد المتصل الذى كان يبذله ، والنفس القلقة المعذبة التى انقطعت لعبادة الوطن ، وتوفرت على خدمته حقبة من الزمن

إذ ذاك يستطيـع القراء أن يتجاوبوا معـه دائماً ، وان يجدوا له صدى فى نفوسهم وعقولهم كلما اتصلوا به فى جريدته .

خاتمة المطاف

« . . . ومرت مصر عن بكرة أبيها أمام جثمانه.
وأقبل من القرى النائية ألوف وألوف من تلاميذه ليشيعوا النعش الذى حمل زعيمهم إلى مثواه. أولئك هم الأنصار الذين غدوا — وقد مات الزعيم — خلفاءه من بعده.

كانت روح مصطفى كامل تلهم شعبا بأسره. وقد صار هذا الشعب وارث مثله الأعلى.»

عباس حلمى الثانى

وفاة مصطفى كامل

رأينا كيف اتخذت الحركة التى قام بها هذا الزعيم الشاب شكل مقاومة عنيفة ضد سلطة أجنبية بغيضة ؛ هى سلطة الاحتلال البريطانى . ورأينا كيف وجدت هذه الحركة لنفسها سنداً قويا من ولى الأمر أولا ، ومن الشعب المصرى ذاته بعد ذلك ، وهذا هو الفرق بين حركة عرابى، وحركة مصطفى كامل .

أما الأولى — وهى حركة عرابى — فكانت تناهض النفوذ الشركسى فى الجيش ، ولكنها كانت موجهة ضد صاحب السلطان الشرعى فى مصر، ومن ثم لم تجد لها سنداً قويا من جانب الشعب المصرى ، الذى لم يشترك فى هذه الثورة بخط ما .

وأما الثانية — وهى حركة مصطفى كامل — فكانت تقوم على أساس واضح من الشعبية ، وكانت تهدف إلى غرض واضح ؛ هو مقاومة السلطات الأجنبية والأغراض الاستعمارية . ثم كانت الحركتان تشتركان بعد ذلك فى المطالبة بالدستور ، وكان لكل منهما أثر كبير فى تطور النهضة الوطنية والوعى القومى فى مصر .

ومع هذا وذاك فيأبى البحث التاريخى أحيانا الا أن ينظر الى أعمال العظماء من زاوية غير التى ينظر منها عامة الناس . ولسنا من القائلين بعصمة العظيم ، ولا ممن يتصورونه — مهما علا قدره وعظمت قيمته — رجلا لا يجوز عليه الخطأ . بل ننظر إلى هذا الخطأ أحيانا على أنه ظل لعقيدته ومبادئه ، وعمل من الأعمال التى لجأ اليها لتحقيق أهدافه ومآربه ، ومصدر من مصادر العظمة الانسانية التي لا تعرف الكمال المطلق .

وعلى هذا الأساس نريد أن نعرض لبعض الهنات التى يلصقها بعض الباحثين بالزعيم الشاب مصطفى كامل

* * *

قد يقال إن من اخطاء مصطفى كامل أنه ربط مصر بعجلة الامبراطورية العثمانية ، ونصب نفسه مدافعاً عنها مدة طويلة ، حتى لقد استنفذ ذلك من جهده وطاقته شيئاً غير قليل .

ونحن لا نعد ذلك خطأً من أخطاء مصطفى كامل · ولا نقول ذلك رغبة منا فى تبرئة ساحته فى محكمة التاريخ · وما نحن من القائلين بعصمة الرجال كما قدمنا ، ولا من الذين ينظرون إلى العظماء على أنهم أنصاف آلهة كما فعل الذين من قبلنا ، ولكنا نأخذ بوجهة نظر الرجل نفسه فى الأمر . فما العيب فى سياسة قامت على التكتل ، وهى سياسة يأخذ بها كثير من الدول إلى وقتنا هذا ؟ لقد كان مصطفى كامل كغيره من زعماء الشرق فى ذلك الوقت يحلم بوجود كتلة اسلامية كبيرة . ولا بأس عنده يومئذ من أن تكون زعامة هذه الكتلة للآستانة . وتلك سياسة رشيدة من شأنها أن تجعل للممالك الاسلامية المهضومة كلمةمسموعة فى المجامع الدولية الكبيرة . وعلى هذا فلا محل للطعن فى هذه السياسة إلا من جهة واحدة ، هى ضعف الدولة العثمانية ، وبلوغها من المرض والشيخوخة حدا لا تصلح معه لتولى هذه الزعامة الدينية أوالسياسية . وذلك ما أدركه الزعماء والقادة فى مصر فيما بعد وفى مقدمتهم احمد لطفى السيد . ومن أجله فكروا جديا فى تعديل هذه السياسة . ولم يتأخر مصطفى كامل نفسه عن غيره من القادة في هذا التعديل · كما تشهد به مذكرات الخديو عباس ، وقد قال عن هذا الزعيم الخالد إنه استبدل بسياسته التركية الطابع سياسة وطنية خالصة . وتطور بسرعة فائقة جعلت تلاميذه يتبعونه دون أن يفطنوا الى الخطأ الأول .

وقد يقال إن من اخطاء مصطفى كامل أنه تحدث كثيراً في شئون الاسلام والمسلمين في جريدة اللواء وانزلق أحياناً الى نوع من التعصب الدينى ضد القبط فى مصر ، حتى عابه الأقباط أنفسهم فى ذلك ، وأخذوا عليه اهتمامه بالمسلمين فى الصين والبوسنه والهرسك باكثر من اهتمامه بهم وهم معه فى وطن واحد هو مصر . والذين يطلعون على الصحف القبطية المصرية فى تلك الفترة ، والذين يتتبعون حركة الأقباط فى المصالح الحكومية ، وفى بعض المجتمعات الدينية وغير الدينية يلتمسون العذر لمصطفى كامل فى إفساح صحيفته لهذه المهاترات المذهبية التى تحرك لها من قبل رجل محكوم بعقله أكثر من قلبه كالسيد على يوسف .

على أن الذوق يشهد لمصطفى كامل أنه لم يسف فى حديثه عن القبط فى مصر إلى الدرجة التى هبط هؤلاء إليها .

فالحق أنه برغم ثورته وحدة مزاجه لم يكن بذيئاً فى لفظه . ولا أحس قراؤه بفحش فى عبارته ، أو هبوط فى مستوى خلقه ، أو اسفاف فى نقده . بل كان عف القلم واللسان ، نقى النفس والسريرة . وكل ما فى الأمر أن غيرته الدينية كانت كغيرته الوطنية أثراً من آثار نفس قلقه ، وإحساس مرهف ، وجسم عليل ، لم يمنحه صاحبه ما يستحق من الراحة لحظة واحدة من لحظات العمر .

وللباحثين أن يعقدوا موازنة ما بين مقالات مصطفى كامل ومقالات الصحف القبطية المصرية ، فسيجدون مصداق هذا القول ، وسيحكمون لقلم هذا الشاب المهذب بالنزاهة والأمانة والعفة والصدق والأدب فى المناظرة .

ومهما يكن من شىء فلا محل للنزاع بعد ذلك فى أن مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، وأعظم داع من دعاة القومية المصرية ، وإذا كان كل داع من الدعاة قبله أو بعده قد وضع فى بناء « القومية المصرية » لبنة واحدة فان مصطفى كامل وضع بيده لبنات متعددة . وفى ذلك

ما يدل دلالة واضحة على عمق إحساسه بالوطنية التى لا تقيم وزنا للخلافات المذهبية أو الفوارق الدينية .

ومعنى ذلك أنه لا محل هنا مطلقاً لهـذه التهمة من التهم التى وجهت الى باعث نهضتنا الأخيرة . ثم ألا يكفى ان تعلم أن زعماءنا المصريين تعرضوا جميعاً لتهمة الموالاة للانجليز ، وهى تهمة يبرأ منها كل زعيم منهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، ونجا الزعيم الشاب مصطفى كامل وحده من هذه التهمة ، ولم يستطع أحد من أعدائه أن يرميه بها يوما ما ؟

وقد يقال إن من اخطاء مصطفى كامل إنه دعا إلى حجاب المرأة ولم يدع إلى السفور الذى دعا إليه قاسم أمين ومن آمنوا معه بهذه الدعوة .

ولسنا نرى فى ذلك عيباً من عيوب مصطفى كامل، فبحسبه أنه كان يدعو الى تعليم المرأة ، والى الأخـذ بيدها الى المدنيـة الصحيحة والرقى الصحيح .

لقـــد شهد هذا الشاب الذي يمتلىء بالغيرة كيف شقى المجتمع الاوروبى بسبب سفور المرأة ، وكيف حرمت البيوت الأوروبيـة أنس الأسرة . وكيف نشأ الأطفال الاوروبيون فى غير حجور أمهاتهم وآبائهم واخواتهم فأبت عليه نفسه أن تـكون المرأة المصرية معذبة محرومة كالمرأة الأوروبية ، وراح يلح فى أن تصان فى البيت كريمة معززة ، ولـكن بعد أن تأخذ حقها كاملا من التربية والتعليم فى المدرسة ، لأنه يعلم علم اليقين أن العمل الأسمى للأم فى كل بلد هو أن تصنع الرجل للأمة . وتلك وجهة نظر لها احترامها إلى اليوم .

تلك مجموعة الأخطاء التى أخذها بعض النـــاس على مصطفى كامل . وربما كان من أخطرها الخطأ الأول ، وقد وضحنا وجهـة نظر الرجل فى ذلك ، وإن قلنا من قبل ما معناه : إنه كما أخطأ الـكثيرون من الأوروبيين فى النظر الى النهضة الفـكرية التى شملت جميـع البلاد الاسلامية الشرقيـة

على أنها نهضة صليبية ، فكذلك أخطأ مصطفى كامل من جانبه فى فهم السياسة الأوروبية على أنها سياسة مسيحية ، وفهم السياسة العثمانية على أنها سياسة إسلامية .

ولمصطفى كامل كما قلنا غيرة دينية لا تقل بحال ما عن غيرته الوطنية فأحب أن ينقل هذه العواطف كلها إلى نفوس المصريين ، وأخذ يدعوهم الى التمسك بالدين ، وذكر لهم فيما ذكر يومئذ أن الأوربيين بلغوا ما بلغوه من التقدم العظيم بسبب الدين ، متغافلا عما أشرنا إليه فى إحدى المقدمات التى بدأنا بها هذا الحديث من أن أوروبا كانت فى ذلك الحين قد بدأت تؤمن إيمانا كاملا بالعلم والحضارة الحديثة ، ويقل إيمانها فى الوقت نفسه بالدين وبالعقيدة ، وذلك منذ نشر دارون وأمثاله من العلماء كتبهم المعروفة فى أصل الأجناس البشرية ، وعلم طبقات الأرض ، وما اليها .

ولئن أصر بعض الناس على أنه كان لمصطفى كامل أخطاء فان مرد هذا كله إلى شبابه وحاجته الى ذخيرة أخرى من التجارب التى هى كل ما يمكن ان تمنحه الكهولة أو الشيخوخة لبعض الرجال ممن رزقوا سعادة العمر ، وصحة الجسد ، وسلامة الاعصاب من المرض . ولا غرابة فى ذلك فقد تطلع الشاب الى زعامة أمته وهو فى العشرين . ولو تأخر الزمن قليلا بهذا الرجل حتى يصل الى سن النضوج لكان لنا منه زعيم لم ير العالم مثله فى صدق عقيدة أو إصابة رأى أو بعد نظر أو نفاذ بصيرة ، بل زعيم لا يقل فى خطورته وعظيم نفعه لأمته عن بسمارك .

أجل — لقد كان للسياسة الأوروبية أسرار لا تعرف بالقراءة قدر ما تعرف بالتجربة . والتجربة لا توهب عفواً أو فى لحظة واحدة . وإنما هى بنت الزمن وربيبة المحن . فلو أن القدر المحتوم أمهل هذا الزعيم ، ومد فى أجله الى حين لاستطاع أن يصل بأمته الى أعلى من الدرجة التى سمت اليها أية أمة من الأمم .

ولكن الأجل قطع على مصر هذا الأمل ، وحرمها ذلك الرجل الذى قلما تجود بمثله الأمم فى أزهى عصورها ، وأحفلها بالعظمة والجلال .

كان مصطفى كامل قائد حركة خطيرة من حركات المقاومة الشديدة ضد الاستعمار . والمقاومة فى كل زمان ومكان هى مبعث القوة ، ومثار النشاط ، ومقياس العزة والاباء ، ودليل الشهامة والبطولة ، وعنوان الحياة . وقد تمثلت هذه المعانى كلها فى مصر فى الفترة التى كانت القيادة فيها لهذا الفتى الشهم الذى رفع صوته عالياً فى المطالبة بحقوق بلاده ، حتى وصل صوته إلى أقصى الأرض .

والحق أن مصر تدين لهذا الفتى بكل ما أصابها من تقدم منذ العشر الاواخر من القرن التاسع عشر الى يومنا هذا .

ألم يكن أول من دعا الى إنشاء الجامعة ؟

ألم يكن أقوى من دافع عن اللغة العربية بحرارة بالغة ؟

ألم يكن أشد مواطنيه محاربة للظلم ، وكراهية للاستعباد الذى كان عليه القوم ؟

ألم يكن هازم الجبروت البريطانى فى مصر ؟

ألم يكن أخطر من هز الضمير الأوروبى لصالح القضية المصرية ؟

الم يكن اعظم من طالب بالدستور والحياة النيابية ؟

الم يكن اكبر من نجح فى إعداد المصريين وتدريبهم على الحكم الذاتى الصحيح ؟

أما أسلوبه فى الكتابة فقد فرغنا من أنه أدنى إلى الخطابة منه الى الصحافة. ولم نعد الحق — فيما نعتقد — حين دمغنا صحافته فى اللواء بهذه الصفة

أجل — لقد مخض القدر الحكيم رجال مصر فى هذا العصر فكان هذا الفتى زبدة العقل المصرى، والنفس المصرية ، والقلب المصرى ، وكان عنوان أمته فى كل جانب من هذه الجوانب المتقدمة .

فاذا كان الوفاء طبيعة فينا نحن المصريين فعلينا ان نذكر هـذا الزعيم الباسل كلما جد على حضارتنا جديد ، وكلما ربحنا شيئاً فى ميادين التقدم السياسى أو العلمى ،أو الأدبى، او الخلقى، او الاجتماعى، او الاقتصادى .

أجل — ينبغى ان نذكر مصطفى كامل كلما أصبنا قدراً من النصر فى واحد من تلك الميادين ، وينبغى أن نذكر له سهره على تربية هـذا الجيل الذى غدا — وقد مات الزعيم — خلفا له من بعده . فكما يقول الخديو عباس إن روح مصطفى كامل تلهم شعبا بأسره وقد أصبح هـــذا الشعب وارث مثله الأعلى .

* * *

ألح المرض على الزعيم الشاب قبل وفاته بثلاثة أشهر ولـكن ذلك لم يمنعه من المضى فى عمله « ولما حان موعد اجتماع الجمعية التأسيسية للحزب الوطنى يوم ٢٧ ديسمبر سـنة ١٩٠٧ ترك سرير مرضه ،ونزل إلى ساحة اللواء حيث اجتمعت الجمعيـة العمومية ، والقى خطبة رائعـة ، حتى ذهل السامعون لبلاغته ، وبراعة إلقائه ، وقوة جنانه مع ما كان باديا عليـه من الضعف . وكانت هذه آخر خطبـــة ألقاها رحمه الله . ثم اشتد به المرض عقب الاجتماع ، وعاد إلى غرفته مريضا ولم يغادرها . وقد بلغه فى صباح اليوم التالى للاجتماع نبأ وفاة صـديقه ونصـيره الـكبير لطيف باشا سليم أحد مؤسسى الحزب الوطنى ، وأحد أعلام الحركة الوطنية ، فجزع لوفاته جزعا شديدا وازداد ما به من مرض حزنا على صديقه المظيم . وكان وهو على سرير المرض — لا يدع العمـل والتفـكير . فقد أرسل وهو طريح الفراش قبل وفاته بخمسة أيام احتجاجا برقيا قويا ضد تصريحات فاه بها السـير إدوارد جراى فى مجلس العموم البريطانى ، اتهم فيهـا المصريين بعدم الـكفاءة للحكم الذاتى ، ورد عليه بأن مصر تماثل فى الاستعداد للحكم

الذاتى كثيرا من الأمم الاوروبية ، وأن مصر ستظل تجاهد فى سبيل حريتها واستقلالها حتى تنالها . (١)

* * *

وفى يوم الاثنين الثامن من المحرم سنة ١٣٢٦— والعاشر من شهر فبراير سنة ١٩٠٨ اسلم الفقيد روحه إلى بارئها وروع المصريون لهذا النبأ الذى صك مسامعهم ، واضطربت له مشاعرهم ، واجتمعت الألوف المؤلفة منهم للسير فى جنازته التى وصفها قاسم أمين بقوله :

« هذه هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق : المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى ، والمرة الثانية يوم الاحتفال بجنازة صاحب اللواء » .

ووصل الجثمان الطاهر إلى مقره الأخير فوقف الشاعر إسماعيل صبرى أمام النعش . وحاول أن يلقى قصيدة فى رثائه . ولم يكد يلقى البيت الأول فيها وهو :

أداعى الأسى فى مصر ويحك داعيا ... هددت القوى إذ قمت بالأمس داعيا

حتى غلبه البكاء ، وبدا عليه التأثر ، ولم يستطع أن يتم قصيدته . ومما جاء فى هذه القصيدة قوله :

الا عللانى بالتعازى وأقنعا ... فؤادى أن يرضى بهن تعازيا
والا أعينانى على النوح والبكا ... فشأنكما شأنى وما بكما بيا
وما نافعى أن تبكيا غير أننى ... أحب دموع البر والمرء وافيا

* * *

أيا مصطفى بالله نومك رابنا ... أمثلك يرضى أن ينام اللياليا
تكلم فان القوم حولك أطرقوا ... وقل يا خطيب الحى رأيك عاليا
لقد أوشكت من طول صمت وهجرة ... تخالك أعواد المنابر فانيا .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : ص ٢٢٥

وتبكيك لولا أن فيها بقيـــة   تعللها من ذلك الصوت داويا
فهل ألفت ما بين جفنيك والكرى   مخالفـــة ام قد أمنت الأعاديا

ثم قام الشاعر الكبير حافظ ابراهيم ، فألقى فى رثاء الفقيد قصـــيدة رائعة منها :

أيا قبر هـــذا الضيف آمال أمة   فكبر وهلل والق ضيفك جاثيا
عزيز علينا ان نرى فيك مصطفى   شهيد العلا فى زهرة العمر زاويا
أيا قبر لو أنا فقدناه وحـــده   لكان التأسى من جوى الحزن شافيا
ولكنا فقدنا كل شيء بفقـــده   وهيهات أن يأتى به الدهر ثانيا
فيا ســـائلي أين المروءة والوفا   وأين الحجا والرأى ويحك ها هيا
هنيئاً لهم فليأمنوا كل صـــائح   فقد أسكت الصوت الذى كان عاليا
شـــهيد العلا لا زال صوتك بيننا   يرن كما قد كان بالأمس داويا
يهيب بنا : هـــذا بناء أقمتـــه   فلا تهدموا بالله ما كنت بانيا
يصيح بنا : لا تشعروا الناس أننى   قضيت وأن الحى قد بات خاليا
أجل أيها الداعى الى الخـــير إننا   على العهد ما دمنا فنم أنت هانيا
بناؤك محفوظ وطيفـــك ماثل   وصوتك مسموع وإن كنت نائيا
عهدناك لا تبكى وتنكر أن يرى   أخو البأس فى بعض المواطن باكيا
فرخص لنا اليوم البـــكاء وفى غد   ترانا كما تهوى جبالا رواسيا
فيا نيل إن لم تجر بعـــد وفاته   دما أحمراً لا كنت يا نيل جاريا
ويا مصر إن لم تحفظى ذكر عهـده   إلى الحشر لا زال انحلالك باقيا
ثلاثون عاما بل ثلاثون درة   بجيد الليالى ســـاطعات زواهيا
ستشهد فى التاريخ أنك لم تكن   فتى مفردا بل كنت جيشا مغازيا

وكان أحمد شوقى كذلك من أسبق الشعراء إلى رثاء الفقيد . فقـــد نشرت له قصيدة رائعة بعد وفاة الزعيم بثلاثة عشر يوما . وهي قصيـدة مشهورة منها قوله .

المشرقان عليك ينتحبان — قاصيهما فى مأتم والدانى
يا خادم الاسلام أجر مجاهد — فى الله من خلد ومن رضوان
لما نعيت إلى الحجاز مشى الأسى — فى الزائرين وروع الحرمان

جار التراب وانت اكرم راحل — ماذا لقيت من الوجود الفاني
أبكي صباك ولا أعاتب من جنى — هذا عليه كرامة للجانى
يتساءلون أبا لسلال قضيت أم — بالقلب أم هل مت بالسرطان
الله يشهد أن موتك بالحجا — والجد والاقدام والعرفان

إن كان للأخلاق ركن قائم — فى هذه الدنيا فأنت البانى
المجد والشرف الرفيع صحيفة — جعلت لها الاخلاق كالعنوان
واحب من طول الحياة بذلة — قصر يريك تقاصر الأقران
دقات قلب المرء قائلة له — إن الحياة دقائق وثوانى
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها — فالذكر للانسان عمر ثان

يا طاهر الغدوات والروحات والـ — خطوات والاسرار والاعلان
هل قام قبلك فى المدائن فاتح — غاز بغير مهند وسنان
يدعو إلى العلم الشريف وعنده — أن العلوم دعائم العمران

شقت لمنظرك الجيوب عقائل — وبكتك بالدمع الهتون غوانى
والخلق حولك خاشعون كعهدهم — إذ ينصتون لخطبه وبيان
فلو ان أوطانا تصور هيكلا — دفنوك بين جوانح الاوطان
أو كان يحمل فى الجوارح ميت — حملوك فى الأسماع والأجفان
أو صيغ من غر الفضائل والعلا — كفن لبست أحاسن الأكفان
أو كان للذكر الحكيم بقية — لم تأت بعد رثيت فى القرآن

* * *

ثم أتت حفلة التأبين الكبرى — يوم الأربعين — فقام الحزب الوطنى

على تنظيم هذه الحفلة . وقد حدد لها موعد الساعة الثالثة من ظهر يوم الجمعة الثانى من شهر مارس سنة ١٩٠٨ . فاحتشدت جموع لا حصر لها من الطلبة ، ومن الشعب على اختلاف طبقاته . وسار الجميع فى موكب رهيب وخلف هذه الجموع سارت عربة الفقيد مجللة بالسواد وليس فيها راكب علامة على فقد صاحبها . وبدأ سير الموكب من الساعة الواحدة بعد الظهر ، وانتهى فى الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والأربعين . وبدىء الاحتفال بتلاوة ما تيسر من آى الذكر الحكيم ، ثم صعد إلى منبر الخطابة محمد بك فريد فألقى خطبة طويلة بدأها بقوله : —

إخوانى الأعزاء .

إن اجتماعكم هذا لأكبر دليل وأسطع برهان على أن رئيسنا المرحوم مصطفى باشا كامل لم يمت . نعم لم يمت من جمعت كلمته هذه الألوف المؤلفة من الناس ، بل هذه الملايين العديدة من الخلائق ، بعد أن كنت لا ترى اثنين يتفقان على عمل ما ؛ حتى ضرب بتخاذلنا المثل ، وقالوا إن المصريين اتفقوا على الا يتفقوا .

إخوانى الأعزاء .

. . . . إن أحسن تأبين لفقيدنا المرحوم هو أن نسير فى الطريق الذى رسمه ومهده لنا . وإن نضم صفوفنا . ونسير كرجل واحد إلى فتح قلعة الحرية ، وامتلاك أبراجها ، وتحصينها بالنظام النيابى الدستورى حتى لا يمكن إخراجنا منها ثانياً . إن أحسن تأبين لفقيدنا العزيز ترتاح إليه روحه الشريفة الطاهرة هو أن نبرهن للعالم اجمع . أن مصطفى كامل لم يمت وأن روحه اتحدت بروح كل فرد منا ؛ فأصبحنا كلنا مصطفى كامل ونكون بذلك قد حققنا ما كتبه لى « وبعد موتى يكون على روحى واجب الاستمرار ، وواجب دعوة الأحياء إلى العمل . . الخ .

ثم نهض شاعرنا الكبير حافظ ابراهيم فألقى فى تأبين الفقيد قصيدة أخرى أولها :

نثروا عليك نوادى الأزهار وأتيت أنثر بينهم أشعارى
زين الشباب وزين طلاب العلا هل أنت بالمهج الحزينة دارى
غادرتنا والحادثات بمرصد والعيش عيش مذلة وإسار
ما كان أحوجنا إليك إذا عدا عاد وصاح الصائحون بدار
أين الخطيب وأين خلاب النهى طال انتظار السمع والابصار
بالله مالك لا تجيب منادنا ماذا أصابك يا أبا المغوار
قم واع ما خطت يمين «كروس» جهلا بدين الواحد القهار
قد كنت تغضب للكنانة كلما همت وهم رجاؤها بعثار
غضب التقى لربه وكتابه أو غضبة الفاروق للمختار
قد ضاق جسمك عن مداك فلم تطق صبرا عليك وأنت شعلة نار
أودى به ذاك الجهاد وهده عزم يهد جلائل الاخطار
لعبت يمينك باليراع فأعجزت لعب الفوارس بالقنا الخطار
وجريت للعلياء تبغى شأوها فجرئ القضاء وانت فى المضمار
أو كلما هز الرجاء مهندا بدرت عليه غوائل الاقدار ؟
شاهدت يوم الحشر يوم وفاته وعلمت فيه مراتب الأقدار
تسعون الفا حول نعشك خشع يمشون تحت لوائك السيار
آنا يوالون الضجيج كأنهم ركب الحجيج بكعبة الزوار
وتخالهم آنا لفرط خشوعهم عند المصلى ينصتون لقارى

وقد ألقى الشاعر الكبير خليل مطران قصيدة طويلة أربت على مائة وثلاثين بيتاً منها .

أعلى مكانتك الاله وشرفا فانعم بطيب جواره يا مصطفى
اليوم فزت بأجر ما أسلفته خيرا وكل واجد ما أسلفا .
وجزيت من فانى الوجود بخالد ومن الأسى الماضى بمقتبل الصفا

من يبرىء الاسلام من تهم العدا ويرد نقد الناقدين مزيفا
قف ايها الناعى عليـــه جهوده فلقد تجاوزت المدي متفلسفا
إن يعتر الشمس الـكسوف هنيهة أيـكون منقصة لها أن تـكسفا

مصر العزيزة قد ذكرت لها اسمها وأرى ترابك من حنين قد هفا !
وكأننى بالقـبر أصبـح منبرا وكأنى بك موشك أن تهتفا
مصر التى أحببتها الحب الذى بلغ الفداء نزاهة وتعففا
حتى مضيت كما ابتغيت مؤلفا من شملها ما لم يكن ليؤلفا
كهواك للأوطان فليكن الهوى لا مفترى فيه ولا متـكلفا
فارقد رقادك إن ربك قد محا بك ذنب مصر كما رجوت وقد عفا

هذا قليل من كثير مما رثى به الخطباء والشعراء الزعيم الخالد مصطفى كامل . ولو ذهبنا نتتبع هذه المراثى التى نشرتها الصحف الوطنية ، والصحف الأجنبية لا تسع أمامنا مجال القول .

عوض الله البلاد عن هذه الخسارة الـكبيرة خير العوض ، وهدى أبناءها وقادتها وكبراءها سواء السبيل .

عبد اللطيف حمزه

تم بحمد الله الجزء الخامس
من كتاب ادب المقالة الصحفية فى مصر
ويليه بمشيئة الله تعالى
الجزء السادس وعنوانه
احمـــــد لطفى السيد
(صاحب الجريدة)

أدب المقالة الصحفية في مصر

الجزء السادس

أحمد لطفي السيد

في الجريدة

إهـــداء

إلى فيلسوف هذه الأمة ..

إلى معلم هذا الجيل والجيل الذى قبله . .

إلى أبى الجامعة المصرية ..

إلى الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد

أقدم كتابى هـذا مع تحية الإعجاب الصادق والتقـدير البالغ من ابن مخلص وتلميذ وفىّ ؟

عبد اللطيف حمزه

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف

أردت — وأنا أقدم للقراء هذا الجزء السادس من كتابى « أدب المقالة الصحفية فى مصر » — أن أبدأ ذلك بحديث جرى بين الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد وبينى ، هذه خلاصته :

فى السادس والعشرين من شهر يولية سنة ١٩٥٢ كان الجيش المصرى الباسل فى ثورته البيضاء على الملك فاروق قد تم له أهبته لمواجهة الموقف . وقبل ظهر ذلك اليوم التاريخى العظيم اجتمع باللواء محمد نجيب كل من السادة : أحمد لطفى السيد وبهى الدين بركات وحسين هيكل وأحمد خشبة وأحمد عبد الغفار وعبد السلام الشاذلى ورشوان محفوظ ومحمود محمد محمود وعلى عبد الرازق وغيرهم . وقالوا يومئذ للقائد الكبير :

لقد جئنا لنؤيدك ، فسر فى طريقك على بركة الله .

فما كان جواب القائد إلا أن قال لهم :

ما هذه الثورة التى نقوم بها إلا نتيجة عملكم وثمرة جهودكم ؟ ثم تركوه وانصرفوا .

يريد القائد الكبير أن يقول لهم : إنما ثورات الأمم نهاية لتطورات خلقية واقتصادية واجتماعية وفكرية الخ .

وفى الساعة السادسة تماما من مساء ذلك اليوم تحركت الباخرة التى أقلت الملك فاروق إلى إيطاليا بعد تنازله عن العرش بإرادة الشعب .

سألت الأستاذ لطفى السيد بعد هذا الحادث بأكثر من سنة كاملة عن شعوره نحو هذه الحركة الموفقة فأجاب قائلا :

أما أنا فيكفينى أنه منذ أكثر من ألفين وخمسمائة سنة — أى منذ الحكم الفارسى لمصر على يد قمبيز إلى اليوم — ومصر لم تحكم بأبنائها الحقيقيين كما تحكم بقية الشعوب الأخرى . غير أن من عادة الشعوب أنها تمل بسرعة كبيرة ، وأنا أرى أن الوقت الذى مضى على هذه الحركة حتى الآن ليس كافياً لكى يشعر الشعب المصرى بنتائجها الطيبة . ثم مضى الأستاذ لطفى يقول :

نعم — تقدمنا نحن المصريين بخطوات شيطان فى شتى مرافق الحياة ، ومع هذا فقد عجب الناس فى هذه الأيام كيف كان الملك فاروق يقبل الرشوة ، ويمنح بها الوظائف الكبيرة فى الدولة . وعندى أنه لا حق لهم فى هذه الدهشة ، فمصر محكومة بغير أهلها منذ القدم ، ونحن حين نُسقط من تاريخها الحديث فترة الاحتلال الانجليزى البغيض نعود بها إلى عهد إسماعيل فنرى أنه كان يمد يده لأخذ الرشوة من المصريين لتعيين بعضهم مديرين أو مفتشين . ثم جاء فاروق فعمل عمل جده وعادت مصر سيرتها الأولى .

قلت : أيسمح لى الأستاذ الكبير أن أوجه اليه بعض العتب فى الانحراف الذى بدا من سلوك الملك السابق ، فإن العلماء والكتاب فى كل أمة هم الأوصياء الروحيون عليها وعلى عرش الملكية فيها .

فأجاب الأستاذ الفيلسوف :

أصبت فى هذا السؤال الذى تلقيه الآن . فاسمع ما أقول :

على أثر تولى الملك فاروق سلطته الشرعية بعد بلوغه سن الرشد جاءنى رسول من القصر الملكى يقول : إن القصر قد اتجه إلىّ لكى أكون معلماً للملك الشاب ورائداً له ، فقلت للرسول : إننى بارتياح عظيم أقبل هذه المهمة لكن بشرطين هما : أن أستقيل من جميع الوظائف الحكومية وألا أعود اليها ، وأن أكون حراً فى لقاء الملك فى الزمن الذى أختاره والموضع الذى يروقنى .

وبعد شهرين كاملين عاد إلى الرسول يقول إن السراى عدلت عن هذه

الفكرة . ومنذ يومئذ والملك الشاب فى يد شرذمة من الناس أصبح الشعب كله يعلم عنهم الشىء الكثير !

ثم ختم الأستاذ حديثه بقوله :

على أننى أميل دائماً إلى التفاؤل كما تعلم . ويقينى أننا إذا سرنا على هذا النحو فى هذا العهد فلن يمضى جيلان آخران حتى تصبح الأمة المصرية — من حيث أساليب الحكم — مساوية تماما لبقية الأمم الراقية فى أمريكا وأوروبا.

* * *

ذلك لطفى السيد ، الذى يعتبر الأب الروحى لهذه الأمة المصرية ، تعهدها بقلبه وعقله ، ووقف على خدمتها قلبه وجهده ، وكان له فى تربيتها أسلوب عرف به . غير أنه إذا ذكر ذاكر أمامه تعليم الفتاة بنوع خاص رأيت ابتسامة عريضة علت فمه ثم قال : إن أكبر ما أفخر به حقاً هو تعليم الفتاة المصرية ، فقد وصلنا إلى ذلك فى غفلة من الحكومة ومن الأمة ، ثم مضى على التحاق الفتاة المصرية بالجامعة إحدى عشرة سنة ، حتى انتبه الشعب لهذه الظاهرة ، وثارت الثائرة وانضم إلى الشعب فى ثورته كل من محمد على وعمر طوسون من أمراء البيت المالك إذ ذاك ، وسألانى فى ذلك فقلت لهما : إنكما أيها الأميران — وأنا معكما أيضاً — من رجال المدرسة القديمة ، فإذا أكرهنا أبناءنا وبناتنا على سلوكنا أغلقنا دونهم باب التقدم والترقى ، على أن هذا الذى نجازف به حادث فعلا منذ إحدى عشرة سنة !

* * *

هكذا توفرت لدىَّ الدوافع التى حفزتنى إلى الكتابة عن لطفى السيد : وأولها ما ذكرت من أنه أبو الجامعة المصرية التى أنا منها ، وآخرها رغبتى فى إتمام العمل الذى بدأته وقطعت فيه شوطاً . وهذا العمل هو التاريخ للمقالة الصحفية ، بل التاريخ للعقل المصرى والقومية المصرية .

* * *

على أنى رأيت الناس يقولون « المعاصرة حجاب » ؛ يعنون بذلك أن المؤرخ لايحق له أن يكتب عن عظيم من عظماء قومه فى العلم أو الأدب أو الحرب أو السياسة ممن يعيشون معه فى عصر واحد ، وذلك خشية التأثر بهم أو الخوف من سلطانهم إلى الدرجة التى تؤذى العلم وتضر بالحق وتطعن فى براءة التاريخ .

وهذا رأى له حظ من الخطأ وحظ من الصواب ، وإن كان الصواب فيه أكبر من الخطأ على كل حال . غير أن صاحب الترجمة إذا كان كلطفى السيد رجلا فرغ من أداء واجبه الوطنى على أحسن وجه ، وامتد به الأجل السعيد إلى أن أصبح يمثل فى أمته كبير أسرة يراقب عملها ، ويبارك جهودها ، ويسعد برؤية الثمرة التى عكف على غرسها وإنمائها — أقول إذا كان صاحب الترجمة رجلا كهذا الرجل - زال بذلك الخوف مما للمعاصرة من آثار سيئة ونتائج مجحفة .

وكم يكون المؤرخ سعيداً فى الحقيقة حين يكتب عن شخصية يراها بعينه ويسمعها بأذنه ، ويعرفها بنفسه لحماً ودماً ، ويرجع إليها إذا أشكل عليه الأمر ، وينظر إليها دائماً نظره إلى الوثائق الحية التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

الحق أن الشعور بهذه السعادة الحقيقية ليغمرنى منذ بدأت أخط السطور الأولى من هذا الكتاب ، ثم زاد فى نفسى هذا الشعور زيادة بالغة حين رأيت — وأنا رجل جامعى — أننى أؤرخ كما قلت لأبى الجامعة فى مصر ، ولقائد من قادة الحركة الفكرية فيها ولأستاذ الجيل الذى تخرجت أنا على يديه ، فماذا يبقى من السعادة بعد ذلك ؟ أى بعد أن شعرت بأنى بعملى هذا إنما أسد جزءاً يسيراً مما للجامعة علىَّ من دين ، وإننى لأضرع إلى الله القدير أن يمد فى أجل معلم الجيل حتى يخرج هذا السفر الصغير إلى الوجود ، ويخرج عشرات من أمثاله كذلك ، وتقوم هذه الأسفار كلها مقام جزء بسيط من المكافأة المعنوية التى يستحقها لطفى السيد !

وأخرى شعرت بها ، وهى أن على أساتذة الجامعة واجباً علمياً ووطنياً، فى وقت معاً وهو تبصير الشبيبة المصرية بهذا البناء الشامخ والصرح الممرد، وهما بناء الحرية وصرح القومية المصرية ، ليعرفوا انهما ليسا عمل اليوم ولا ثمرة أمس . ولكنهما زبدة الأحقاب التى مرت على مصر . ونتيجة الجهود المضنية التى بذلها السابقون الأولون من قادتها منذ وضع كل منهم بيده لبنة أو اثنتين، ثم ترك لمن بعده من الزعماء والقادة أن يضعوا بقية اللبنات الأخرى.

شعرت أن على أساتذة الجامعة أن يبصروا الشباب المصرى بذلك ، كما شعرت أن أولى الشباب الطامحين بهذه التبصرة هم أولئك الذين أعدوا أنفسهم لخدمة الوطن إما عن طريق السياسة ، أو طريق الصحافة ، أو طريق الإصلاح الاجتماعى ، أو طريق الإرشاد القومى ونحو ذلك .

* * *

والحق أن الصحافة الأهلية منذ نمت وتكاملت على أيدى كتابها من رجال المدرستين الثانية والثالثة فى مصر كانت صحافة «مقال» أكثر منها صحافة «خبر». ومعنى ذلك أن المقالة فى أية صورة من صورها بقيت هى اللون السائد للصحفة الأهلية ، بل الغاية الأولى والأخيرة من إصدارها وانتشارها ، وذلك عكس ما هو حادث الآن ، فإن صحافتنا الحاضرة إنما تقوم على «الخبر» ، وإن كانت عنايتها به وبالمقال نوشك إلى يومنا هذا أن تكون متعادلة ، وإذا كان لطفى السيد من كتاب هذه المدرسة الثالثة — كما ذهبنا فى هذا البحث — وكانت المقالة فى أيامه تستأثر باهتمام الصحف إلى هذا الحد ، فمعنى ذلك أن هذا الكاتب إنما كان يمثل القمة التى سمت إليها المقالة الصحفية فى أوائل القرن الذى نعيش فيه .

* * *

على أنى أحب أن يكون مفهوماً أننى قصرت عنايتى فى بحثى هذا على «لطفى السيد كاتب الجريدة» ، أما لطفى السيد بعد الجريدة فلم أتصل به إلا لماماً ، وفى أوقات قليلة ... ، وأنا أعرف أنه كان لهذا الرجل جهود

مشكورة فى نواح كثيرة : فى السياسة تارة ، والعلم والفلسفة تارة ، والصحافة نفسها فى نهاية الأمر . بل كانت له مشاركة كبيرة فى توجيه الأمة المصرية فى ظروف شتى ، منذ كان وزيراً فى وزارات محمد محمود وحسين سرى وغيرهما إلا أن هذه الجهود الكثيرة المنوعة من جانب الأستاذ لطفى السيد لم تكن داخلة فى نطاق بحثى ، ولا كان تصويرها أو نقدها من وكدى . فتركت كل ذلك لغيرى من الباحثين والمؤلفين بعدى . فلعلهم يوفونه مايستحق من البحث إن شاء الله .

* * *

(وبعد) فقد كان لكل كاتب حر ظهر فى مصر مريد يعجب بآثاره ، ويعنى بجمع مقالاته ! فكان لأديب اسحق أخوه عونى ، وكان للسيد عبد الله النديم صديقه أحمد سمير ، وكان للشيخ محمد عبده تلميذه رشيد رضا . وقيض الله لكل من على يوسف ومصطفى كامل من جمع لها بعض آثارهما . أ ... لطفى السيد فقد قام له بهذا الواجب الأستاذ الأديب اسماعيل مظهر ، وقد رجع إلى «الجريدة» فوقع منها على كنوز عظيمة جمعها فى كتب ثلاثة وهى : كتاب المنتخبات ، وكتاب التأملات ، وكتاب بعنوان صفحات مطوية ، وإنى لأشكره ، إذ أفادتنى فائدة ليس إلى إنكارها من سبيل ووفرت علىّ من الزمن والجهد شيئا غير قليل والله ولى التوفيق ؟

مصر الجديدة فى فبراير ١٩٥٤ — عبد اللطيف حمزة

المدخـــــل

وبه ثلاث مقدمات

المقدمة الأولى

الجامعة المصرية والجامعة الاسلامية

تقاس أقدار الرجال في كل أمة من الأمم بمقدار مايستطيعون تحويلها من طور إلى طور ، ومن عقيــدة إلى عقيدة ، ومن حالة أدبية أو مادية إلى حالة أخرى .

والأستاذ لطفى السيد من أولئك الرجال القليلين الذين انتقلوا بمصر من طور إلى آخر ، ومن حالة إلى أخرى ، وذلك فى ميدان السياسة ، وميدان الفكر ، وميـدان الاجتماع . فمن حقه على مصر أن تعرف له بلاءه الحق فى كل ميدان من هذه الثلاثة على حدة .

أما فى الميدان السياسى فقد جاء لطفى السيد بفكرة « الجامعة المصرية » لتحل محل فكرة أخرى، هى فكرة الجامعة العثمانية أو الاسلامية Panslamism التى عاشت مصر لها ، ورأت فيها عزها ومجدها، بل عز الاسلام ومجده كذلك .

أجل ، بقيت مصر عثمانيــة النزعة طيلة القرن التاسع عشر ، وسنوات قليلة من حياة القرن العشرين وكان الدعاة لهذه الفكرة كثيرين ، فمن الشعراء الذين دعوا إليها الشيخ على أبو النصر ، وعبـد الله فكرى ، ثم أحمد شوقى وحافظ ابراهيم ، واسماعيل صبرى . وأحمد نسيم وغيرهم .

ومن الكتاب والصحفيين والمؤرخين أديب اسحق ، وعبد الله النـديم وابراهيم المويلحى، السيد توفيق البكرى ، والسيد على يوسف وسليم تقلا وولى الدين يكن ورشيد رضا وجورجى زيدان وغيرهم. والذى لاريب فيه أن زعيم هذه الدعوة هو السيد جمــال الدين الأفغانى الذى قال عنه جورجى زيدان فى كتابه « أشهر مشاهير الشرق » : إن الغرض الذى كان يصوب نحوه أعماله

والمحور الذى كانت تدور عليه آمال له توحيد كلمة الاسلام وجمع شتات المسلمين فى صورة دولة إسلامية فى ظل الخلافة العظمى[1].

وبقيت هذه الفكرة آخذة بمجامع القلوب ، مالئة فراغ العقول سواء فى ذلك المصريون وغير المصريين من أبناء الأقطار العربية الإسلامية ، ونذكر من غير المصريين على سبيل المثال :

فرح أنطون — وقد أصدر فى الاسكندرية فى عام ١٨٩٧ مجلة بعنوان « الجامعة العثمانية » ، وفارس الشدياق ، والشيخ ناصيف اليازجى وعبد الحميد الرافعى[2] الخ .

ثم كان من آخر الدعاة لها فى مصر زعيمها الشاب «مصطفى كامل ». غير أنه من الحق أن يقال هنا إن النزعة العثمانية كانت تسير جنبا إلى جنب فى كل خطة من خطط هذا الزعيم مع النزعة المصرية ، بل أدنى من ذلك إلى الحق أن يقال إن مصطفى كامل كان يقدم النزعة القومية على النزعة العثمانية ، أو بعبارة أخرى ، كان يرى فى هذه الأخيرة سبباً من أسباب قوة الأولى .

والذى لاشك فيه أيضاً أن حياة هذا الزعيم الشاب — مصطفى كامل — مكافحاً فى الميدان السياسى وإن كانت مع الأسف حياة قصيرة المدى — إلا انها فى الحقيقة لم تكن إلا تجارب سياسية قاسية تعرض فيها الزعيم الشاب للخطأ والصواب ، وكان فيها ذلك الشاب لايتوخى غير مصلحة مصر ، ولا يتقد حماسة وغيرة إلا عليها وحدها قبل أى شىء آخر .

فلقد كان مصطفى كامل على خطأ حين اعتمد على فرنسا ، ثم أصبح على صواب حين نفض يده منها ، وكان مصطفى كامل على خطأ حين اعتمد على عباس حلمى الثانى فى بقاء الحركة الوطنية ، ثم أصبح على صواب حين أعفى عباساً من أعباء هذه الحركة. ولكن مصطفى كامل لم يكن على هذه الدرجة من الخطأ.

---

(١) أشهر مشاهير الشرق جزء ٢ ص ٦١

(٢) الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الجديد : لأنيس المقدسى ص ٢٠

حين أعتمد على تركيا ، لأن وجهة نظره إذ ذاك كانت لهـا وجاهتها ، وكان لها حظها من سلامة النية ، وصدق الطوية، وتوخى المصلحة القومية آخر الأمر.

ولو امتـد الأجل بمصطفى كامل لعدل عن خطته مع تركيا كما عدل عن خطته مع فرنسا ، وكما عدل عن خطته مع عباس . ذلك أن أحداً لا يرتاب فى وطنية مصطفى كامل ، ولا محل للشك فى غيرته على الحركة الوطنية ، وهو الذى بعثها ، وعلى الوعى القومى ، وهو من بناة دعائمه ، وعلى الأمانى المصرية وكان أكثر الناس تدفقاً فى التعبير عنها وحرصاً على رؤيتها حقيقة واقعة :

مهما يكن من شىء فقد انتفع من هـــذه التجارب السياسية التى مارسها مصطفى كامل أكثر من جاء بعده من قادة الرأى فى مصر ، وكان أولهم وأعظمهم وأقدرهم على التعبير عنها صاحب هذه الترجمة، فقد جاء يبشر برأى جديد اقتنع به الشعب المصرى فى ذلك الحين وهو هذا الرأى الذى سنشرحه فى هذه المقدمة. وهنا يجب أن نقول أن لطفى السيد بهـذا الاتجاه الجديد يعتبر البطل الحقيق لـما يسمى فى التاريخ الحديث « بالقومية المصرية » وإن سـبقه أبطال كثيرون أشدنا بهم ، ووصفنا عملهم ، وكان آخرهم ــ كما قلنا ــ صاحب اللواء [1] ورئيس الحزب الوطنى .

فكر الأستاذ لطفى السيد طويلا فى أوضاع مصر السياسية . وخرج من تفكيره هذا بعقيدة جديدة تخالف عقيدة الشاب مصطفى كامل وخلاصتها :

أن علينا نحن المصريين أن نترك فرنسا وانكلترا والدولة العلية ولا نعير سياسة الخلاف ولا سياسة الوفاق أية أهمية ، وعلينا أن نعتمد على أنفسنا فقط فى الحصول على حقنا فى الدستور وحقنا فى الحرية .

«لا بد لنا من ذلك، ومن عزة تربأ بنا أن نطلب من غيرنا أن يأتى ليحرر نفوسنا من الرق ، وقلوبنا من عبادة القوى ــ كأننا ــ كما ظنوا خطأ بنا ــ نبتغى أن يأتينا الاستقلال ونحن نيام» [2] .

---

(١) أدب المقالة الصحفية فى مصر : الجزء الخامس ، ص ٢٩ — ٣٧

(٢) الجريدة ، عدد ١٦٦٨ بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٩١٢

وقد اتجه صاحب الجريدة يومئذ هذا الاتجاه لأمور منها :

أولا : أن خطأ كبيراً وقع فيه اللورد كرومر ، وهو محاولته الذاتية لجعل الجنسية المصرية جنسية دولية ، وقد روج لفكرته هذه بين صفوة المصريين ، وكاد ينجح فى تنفيذها بينهم ، لولا أن الحركة الوطنية والنزعة القومية كانتا قد بلغتا أوجهما ، وجاء لطفى السيد فاتخذ من هذه المحاولة الطائشة من جانب اللورد كرومر سبباً من أسباب الدعوة الى الجامعة المصرية ، وعاملا من عوامل بلوغها الحد الذى حكم على فكرة اللورد كرومر بالموت .

ثانياً : أن فرنسا منذ دخلت مراكش وانكلترا منذ احتلت مصر وايطاليا منذ أغارت على طرابلس حملت ألمانيا على الظهور على مسرح السياسة الشرقية تطالب بالعوض الاستعمارى لتمحو عن شرفها عار الرضى والسكوت أمام الجشع الأوربى .

ومنذ ذلك الوقت تنبه قادة الرأى فى مصر إلى تلك الخطط الاستعمارية التى أريد تنفيذها فى الشرق ، فشجع ذلك احمد لطفى السيد على الأخذ بناصر القومية المصرية ، والترويج لفكرة اعتماد المصريين على أنفسهم فى سبيل الظفر بالحرية ، ثم إن هذه الفكرة قد صادفت هوى من نفوس الانجليز الذين كان يعنيهم انفصال المصريين عن تركيا كيما يتاح لهم فرصة السيطرة النهائية على مصر ، حتى حمل ذلك إلى الظن بأن فكرة الجامعة المصرية كفكرة إلغاء الامتيازات الأجنبية ، كلتيهما من وحى الانجليز لمصلحتهم الذاتية فى مصر ، وهى المصلحة التى تحقق لهم جزء كبير منها بالاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ (١) .

ثالثا : إن حادثا بسيطا عجل بالتفكير على هذا النحو الجديد ودعا صاحب الترجمة إلى الأخذ بهذه الفكرة الجديدة .

ويتلخص هذا الحادث فى أن بعض المصريين اشتغلوا بتأليف جمعيات

---

(١) راجع الجزء الرابع من (أدب المقالة الصحفية فى مصر) للمؤلف ص ٦١.

اكتتاب لإعانة البحرية العثمانيـــة وإنشاء أسطول جديد لها . فثارت ثائرة الجريدة وعلق صاحبها على ذلك بقوله فى مقال له بعنوان

عليكم أنفسكم (١)

جاء فيه :

« . . . . أما قيمة المساعدة فإنها يستحيل أن تزيد على آلاف من الجنيهات لاتنفع البحرية العثمانية فى شىء ، ولكنها تنفع الاقليم الذى تجمع منه فى بناء مدرسة أو ملجأ أو تأسيس معمل زراعى كيميائى لتخفيف مصائب الزراعة المصرية . . . وأما مصدر هـذا الإحساس فى نفوس المصريين — إن كان الغرض منه الدفاع عن الأمة العثمانية وتقويتها فإن تقوية مصر والدفاع عنها أوجب على المصريين من كل واجب غيره ، وإن كان الغرض منـــه إيلام الانكليز ، فأن الذى يؤلمهم ليس هذا ، بل الذى يؤلمهم حقيقة — إذا كانوا يرمون فى سياستهم إلى استعمار بلادنا على الرغم من وعودهم — هو قيام مثل هذه الجمعيات لنشر المعارف ونشر الأخبار الصحيحة فى الأمة .

وإن من غير الصواب أن يعمل بعضنا لفناء شخصية المصرى فى شخصية العثمانى ، لأن هـذا الرأى مع بعده عن الصواب لا يتفق مطلقاً مع مصلحة مصر ، ولا يتفق كذلك مع اعتبار مصر إقليما ممتازاً مستقلا كالبلقان مثلا .

... وبدلا من أن نطوح بشعور الأمة ونذهب به كل مذهب ، وبدلا من أن تكون فى مصر آلات لجمعية الاتحاد والترقى التى تسعى لخير بلادها دون غيرها ، والتى صرحت من أول يوم أن مصر ليست داخلة فى بروجرام أعمالها — بدلا من ذلك كله يجب على الكاتبين أن ينتهزوا الفرصة لينشروا فى الأمة عقيدة الاستقلال ...

فمتى نصرف عنايتنا كلها إلى بلدنا ؟ ومتى نقتنع أننا مصريون قبل كل شىء ؟ »

منذ يومئذ ولطفى السيد يشرح للمصريين معنى «القومية المصرية» ويوضح لهم قيمة هذه الفكرة ، ويبين لهم واجب الوطنى نحو وطنه .

---

(١) الجريدة عدد (٧٦) بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٩٠٩ .

ومن ذلك أيضاً ما كتبه بعنوان :

غرض الأمة هو الاستقلال [1]

وقد جاء فيه :

« إن أول معنى للقومية المصرية هو تحديد الوطنية المصرية » (نريد الوطن المصرى) والاحتفاظ بها والغيره عليها غيرة التركى على وطنه، والانكليزى على قوميته — لا أن نجعل أنفسنا وبلادنا على المشاع وسط ما يسمى « بالجامعة الاسلامية » تلك الجامعة التى يوسع بعضهم معناها فيدخل فيه أن مصر وطن لكل مسلم .

« أما لو كان معنى الجامعة قاصراً على وجوب ائتلاف بين أمة وجارتها على المعاونة المتبادلة على الارتقاء فذلك حسن مفهوم ، بشرط أن يكون العقد متبادل المنفعة لا قاصرها على أحد الطرفين دون الآخر ، أعنى أن يكون أحدهما خادماً دائماً ويكون الثانى مخدوما دائما .

« ويجب ألا نقع فى حبائل ذلك الوهم القديم الذى كان يراود أدمغتنا الوقت بعد الوقت ، إذ كان يزين لنا مرة أن فرنسا ستحرر بلادنا ، ومرة أن الدولة العلية ستقوى ، ويحقنا عليها تسفك دماء أبطالها لتخرج الانكليز من بلادنا . ثم هى بعد ذلك تتركنا لأنفسنا أحراراً نتصرف كما نشاء .

« إن من الواجب أن نبعد بالأمة عن هذه الخيالات الكاذبة ، ونوجهها إلى أن تنمى فى نفسها عقيدة الاستقلال الخ » .

يقول الأستاذ اسماعيل مظهر [2] :

« فى العصر الذى ارتمت فيه السياسة المصرية فى أحضان فرنسا وتركيا تستنجد الأولى وتستعديها على انجلترة مستغلة ما بينهما من حزازات ومنافسة وتتعلق بخيط العنكبوت من علاقتنا بالعثمانيين مستغلين سيادتهم الاسمية على

---

(١) الجريدة ، عدد ١٦١٧ بتاريخ ٢ ديسمبر سنة ١٩١٢

(٢) التأملات ، ص ٤

مصر . نادى لطفى السيد بالاستقلال محققاً بذلك الفكرة الوطنية الصحيحة التى قامت عليها الحركة العرابية . وإنى لأذكر أن أستاذنا ذكر فى مقال له أن مصر تطلب الاستقلال التام ، فاستعدى عليه السيد على يوسف صاحب المؤيد ورئيس ب الاصلاح — وهو إذ ذاك حزب السراى — النيابة لتجره إلى موقف الاتهام ، ذلك بأن الاستقلال التام فى ذلك العصر كان جريمة تستحق الجزاء » !

* * *

وأما مزاعم كرومر فيما يتصل بدولية الجنسيه المصرية فقد دحضها الأستاذ لطفى السيد بمقالات أخرى منها مقال له بعنوان :

الاضطراب فى الرأى العام[1]

رد فيه على الآخذين من المصريين بفكرة اللورد فقال :

«ولكن كثيراً منهم لا يقيم وزناً للقومية المصرية فى تربية الشعور المصرى يقول إن مصر ليست وطناً للمصريين فقط . بل هى وطن لكل مسلم يحل فى أرضها ، سواء أكان عثمانياً أم فرنسياً أم انكليزياً أم صينياً أم يابانياً . وعلى ذلك تكون القومية المصرية أو الجنسية المصرية منعدمة . ومتى انعدمت القومية كيف يفهم الاستقلال ؟ وأدنى مراتب الاستقلال الاختصاص بالحقوق الوطنية فى مسطح من الأرض محدود بحدود جغرافية معينة ، إلا أن تقولوا معى إن صاحب هذا الرأى يريد الغرض ولا يريد المقدمة ، يطلب الاستقلال ويهيء شعور الأمة إلى نقيضه . أو ليس هذا المذهب يجرّ حتما إلى القول بأن الاستقلال هو غير الاستقلال ؟ أو أن استقلال المصريين بمصر معناه ملكية مصر على الشيوع لجميع مسلمى الكرة الأرضية ؟»

بهذه المقالات وأمثالها نجح لطفى السيد فى تكوين رأى عام فى مصر يؤمن

---

(١) الجريدة ، عدد ١٦٦٦ بتاريخ أول سبتمبر سنة ١٩١٢

بفكرة « الجامعة المصرية » ، ويرى فيها السبيل الوحيد للظفر بالأماني الدستورية للأمة المصرية .

وبهذه المقالات وأشباهها استطاع لطفي السيد أن يفهم الشبيبة معنى القومية ، وأن يكشف لهم عن مرامى السلطة الإنجليزية الحقيقية ، وأن يرسم لهم طريق الاستقلال الصحيح ويوضح لهم بجلاء أن المرحلة الأولى من مراحل هذا الطريق هى مرحلة التربية والتعليم ، وهما السبيل إلى الإيمان السليم بالفكرة القائلة بأن « مصر للمصريين » . وبذلك عرف المصريون بلادهم ، وحددوا هدفهم ، وكافحوا عن بصيرة وعقيدة فى سبيل الظفر بهذه الأهداف[1] .

* * *

على أن هذه النزعة الجديدة التى دعت إليها الجريدة تركت فى العقل المصرى أثراً غير الآثار التى أشرنا إليها . ذلك أن كثيراً من المصريين أخذوا منذ ذلك الحين يفخرون بفرعونيتهم فخرهم بعربيتهم . بل حدث فى بعض الأحيان أن زادت النعرة الأولى فى نفوسهم على الثانية . ولقد شجعهم على ذلك ما بلغه علم الآثار المصرية القديمة من الدرجة الكبيرة التى عرف بها العالم المتمدن حضارة الفراعنة .

ومن ذلك ما كتبه لطفي السيد بعنوان :

الآثار القديمة[2]

جاء فيه :

« من المحقق أن المصرى تأخذه هزة الارتياح ، ويلعب به شعور العزة

---

(١) للباحث أن يرجع فى هذا المعنى إلى مقالات لطفي السيد التى نشرها بالجريدة فى الأعداد ٤٥٤ — ٧٦٠ — ١٥٦٣ — ١٥٧٥ — ١٦٦٥ — ١٦٦٦ — ١٦٦٧ — ١٦٦٨ — ١٦٦٩ — وغيرها .

(٢) الجريدة فى ٨ ديسمبر سنة ١٩١٢ — والتأملات ص ١٣ .

أمام عظمة المصريين القدماء . ويكون حظه من شعور الفخر أكثر من ذلك لو أنه عالم بالحوادث المصرية المكتوبة على حيطان المعابد والمحاريب وواجهات القبور وقارئ ترجمة تلك النقوش فى أشعار المسيو ماسبيرو وماريت ونافيل ، ومحاضرات كمال بك إذ يعلم ان مصر كانت من العزة فى ذلك الزمن الغابر على قدر أن الملك يصل إليه سفراء الممالك الأخرى راكعين ساجدين يرغمون أنوفهم بالتراب ، ويجأرون له بالدعاء ، يقطع أصواتهم خوف الملك وجلالته .

وأن المصريين لم يكونوا ـ على مايصفهم الأجانب ـ مخلدين إلى السكينة ، كارهين السياحة والتنقل ، قانعين من الرزق بما تحت متناول اليد . بل كانوا أمة جد واستعمار ، تجرى فى استعمارها على أحدث الطرق الأوربية الآن إذ يخرج المرسلون إلى الأقطار المختلفة فى أفريقيا ، يجوسون خلالها حاملين إلى أهله العطر ذا الرائحة النفاذة ، والأقمشة الزاهية الألوان ، وغير ذلك مما يحمله الأوربيون فى هذا العصر إلى سكان تلك الأقطار الشاسعة فى إفريقية. ولم تكن أغراض المصريين من فن السياحة قاصرة على الربح التجارى ، بل كان أولئك السياح يكسبون بلادهم نفس الفوائد التى جلبتها انجلترة من وراء الشركة التجارية الانجليزية فى بلاد الهند قبل فتحها ، وسياحات سسيل رود ، وما كسبته فرنسا من بعثاتها فى الكونغو والسودان . إذ كان السياح المصريون يدعون لاستماع أخبار مصر والمصريين ودينهم ولغتهم ، ويبثون عظمة ملكهم وثروة بلادهم حتى يصوروا مصر فى أذهان القبائل بصورة القوية الظاهرة ، التى لايعجزها تحقيق شىء مما تريده . فإذا رجع أولئك المرسلون إلى مصر وصفوا تلك البلاد ، وأفاضوا للحكومة بكل ماوصلوا إليه من المعلومات ، فتسير الجنود المصرية على أثر ذلك تفتح البلاد النائية التى صار فتحها بفضل معلومات السياح المصريين أمراً هيناً .

ولقد كان المصريون أسمح الأمم فى استعمارهم ، لأنهم كانوا يسيرون فيه

على مذهب اللامركزية ، يحفظون على الأمة المغلوبة دينها وعادتها وشكل حكومتها ، ويتركونها حرة فى بلادها مقابل الاعتراف بالسيادة المصرية .

ولا شك أن علم المصرى بهذه الحقائق المسطورة فى نحو القرن الخامس والثلاثين قبل الميلاد يخرج من نفسه القنوط من ارتقاء مصر ويجعل آراء الذين يظنون بمصر عدم الاستعداد الطبيعى للاستقلال والسيادة من السخافة بمكان » .

بهذه الطرق وأمثالها راح الكاتب يحرك فى نفوس قرائه من المصريين شعوراً كاملا بالشخصية المصرية ، كما راح يغذى فيهم هذا الشعور الكامل بالقومية ، ويصله بتلك القرون العتيقة فى ضمير التاريخ . وفى ذلك يقول : « فنحن فراعنة مصر ، ونحن عرب مصر ، ونحن مماليك مصر وأتراكها ، نحن المصريون دائماً . فما نحن تحت حكم العائلة الخديوية إلا نحن تحت حكم العائلة الفرعونية ، أو تحت حكم من قبلها أيضاً بشىء من التطور الزمنى قضى به التغير العالمى المستمر حافظين الكثير مما ورثناه من آبائنا الأقربين والأبعدين. كل هذه المشخصات القومية — المادية والمعنوية ، الوراثية والكسبية — من شأنها أن تجعل بيننا رابطة الجنسية أقوى منها فى أكثر الأمم . وأنها لكذلك لولا مايراه النزر اليسير من حب الانتساب الى العرب دون الفراعنة ، أو الفراعنة دون العرب ، أو الترك دون الشراكسة ، أو الشراكس دون العرب ، من غير أن يعرفوا أن العوامل الموضعية — عوامل الأقليم والقرابة والنسب — هى أم هؤلاء المصريين على السواء ؛ الأبيض منهم والقمحى ، والأشقر والأسمر . كل أولئك أبناء مصر ، منافعها فى جيوبهم ، وهمومها على مناكبهم ، لأنهم جميعاً هم المصريون[١] » .

---

(١) الجريدة فى ٢ يناير سنة ١٩١٣ — والتأملات ص ٦١ — ٦٢

ثم قال فى موضع آخر :

« كذلك نحن المصريين نحب بلادنا ولا نقبل مطلقاً أن ننتسب إلى وطن غير مصر مهما كانت أصولنا حجازية أو بربرية أو تركية أو شركسية أو سورية أو رومية . . . . ومصر بلد طيب ولد التمدن مرتين . وله من الثروة الطبيعية والشرف القديم ما يكفل له الرقى . . . الخ[1] .

وأخيراً انظر إلى الكاتب الفيلسوف كيف يفلسف الرأى القائل بالجامعة الاسلامية ويجرى فى تعليله على نسق عقلى وتاريخى حيث يقول :

« كان من السلف من يقول بأن أرض الاسلام وطن لكل المسلمين . تلك قاعدة استعمارية ينفع التحدى بها كل أمة مستعمرة تطمع فى توسيع أملاكها ، ونشر نفوذها كل يوم فيما حولها من البلاد . تلك قاعدة تتمشى بغاية السهولة مع العنصر القوى الذى يفتح البلاد باسم الدين ، ويحب أن يكون أفراده كاسبين جميع الحقوق الوطنية فى أى قطر من الأقطار المفتوحة ، ليصل بذلك إلى توحيد العناصر المختلفة فى البلاد المختلفة ، حتى لاتنقض أمة من الأمم المفتوحة عهدها ، ولا تتبرم بالسلطة العليا ، ولا تتطلع إلى الاستقلال بسيادتها على نفسها .

أما الآن وقد أصبحت أقطار الشرق غرضا لاستعمار الغرب ، وانقطع أمل هذه الأمم الشرقية فى الاستعمار . ووقفت أطماعهم عند حد المدافعة لاالمهاجمة، والاحتفاظ بسلامة كل أمة فى بلادها من أن تمحى جنسيتها ، ويفنى وجودها فإن أكبر مطمع لكل أمة شرقية هو الاستقلال .

أما الآن والحال كذلك فقد أصبحت هذه القاعدة لا حق لها من البقاء ، لأنها لا تتمشى مع الحال الراهنة للأمم الاسلامية وأطماعها فلم يبق إلا أن يحل محل هذه القاعدة المذهب الوحيد المتفق مع أطماع كل أمة شرقية لها

(١) الجريدة فى ٩ يناير سنة ١٩١٣ — التاملات ص ٦٦

وطن محدود . وذلك المذهب هو مذهب الوطنية . . .

لا يفهم مما أقول أننا ندعو إلى التفريق بين العناصر المؤلفة لكتلة السكان المصريين بل على الضد من ذلك — ندعو للجامعة المصرية كما دعونا لها من قبل . ندعو للذين يتبرمون بالجنسية المصرية التى كسبوها بالاقامة فى مصر ألا يفروا بأحاديثهم وبأعمالهم من الانتساب إلى هذه الجنسية الشريفة . يقيمون بأجسامهم فى مصر ، وعقولهم وقلوبهم تتجه غالباً خارج حدودها إلى الأوطان التى ضنت عليهم بخيرها ولفظتهم من أرضها . ندعوهم أنهم ما داموا مصريين أن يقطعوا ميولهم عما عدا مصر . لأن الوطنية — وهى حب الوطن — لا تقبل الشرك ، ولأن الرقى المصرى محتاج لعقولهم الراجحة وسواعدهم القوية . . . الخ[1] » .

---

(٢) الجريدة فى ١٦ يناير سنة ١٩١٣ — التأملات ص٦٨ — ٧٠

المقدمة الثانية

مذهب الحريين

Liberalism

. . . وهـذه أخرى من جولات للأستاذ لطفي السيد لا تقل أهمية عن الأولى وهي جولته في ميدان « الحرية » .

وبهذه الجولة كتب الرجل أقيم فصل يمكن أن يقرأه مؤرخو الصحافة المصرية إلى يومنا هذا . وبهذا الفصل ينظر التاريخ الحديث إلى لطفي السيد على أنه خير من علم الشعب المصري معاني الحرية ، كما ينظر إلى صحيفته كذلك على أنها المدرسة التي تلقى فيها الجيل الماضي دروساً عظيمة الفائدة في هـذا الباب . ومن مجموع هذه الدروس التي سنشير إلى شيء منها استقام للطفي السيد مذهب أطلق عليه اسم « مذهب الحريين » Liberalism نسبة إلى (الحرية) . ومن معانيها هنا التسامح ، واطمأن الكاتب إلى هذه التسمية مؤثراً لها على غيرها من التسميات الأخرى ، كقولنا مثلا « أنصار الحرية » و « مذهب الأحرار » ونحو ذلك . . .

« ومذهب الحريين يقضي في أصله بألا يسمح للمجموع في البـلاد الحرة ، أو للحكومة في بلاد مصر خاصة أن تضحي بحرية الأفراد لحرية المجموع ، أو الحكومة في التصرف في الشئون العـامة . وهذا المذهب يقضي في أصل وضعـه بألا يكون للحكومة سلطان إلا على ما ولتها الضرورة إياه ، وهو ثلاث ولايات :

ولاية البوليس ، وولاية القضاء ، وولاية الدفاع عن الوطن .

« وأما فيما عدا ذلك من المرافق والمنافع فالولاية فيه للأفراد والمجاميع الحرة . إذ الحكومة بأصل نظامها — مهما كان شكلها ليس لوجودها علة إلا

الضرورة . فيجب أن يقف سلطانها داخل حدود الضرورة ، ولا يتعداها إلى غيرها من سلطة الأفراد فى دائرة أعمالهم . لأن كل حق تضيفه الحكومة إلى ذاتها إنما تأخذه من حقوق الأفراد . وكل سلطة تسندها إلى نفسها إنما تضغط بها على حرية الأفراد[1] » .

ولقد كان الهدف الأول من أهداف هذا المذهب هو ترويض الأمة المصرية على عادة الاعتماد على نفسها ، وذلك بدلا من الاعتماد على الحكومة فى كل أمر من أمورها . بعد أن « دلتنا المشاهدات العامة على أن الحكم الماضى قد جعلنا عيالا على الحكومة . . . حتى فى حماية الفضائل الشخصية . نطلب منها كل شيء ولا نطلب من أنفسنا شيئاً[2] » .

ومن ثم دعا الكاتب أمته وحكومته إلى تشجيع الرأى القائل بإنشاء بنك مصر ، وإلى الرأى القائل بإنشاء النقابات الزراعية . وهى الحجر الأول فى النظام الاقتصادى المصرى ، وهما فى الوقت نفسه من أفضل أنواع التربية الاقتصادية . حتى تم للمصريين بالفعل الظفر بهما .

استقام لصاحب الجريدة هذا المذهب ، ثم طفق يدعو إليه ويبشر به ، ويوجه الحديث فيه إلى فئة بعينها من فئات الأمة هم نوابها فى الجمعية التشريعية. وما دامت مصر حديثة عهد إلى ذلك الوقت بالنظام النيابى فعلى قادة الرأى فيها أن يتولوا بأنفسهم إرشاد نوابها وولاة الأمر فيها إلى الأفكار المفيدة التى يحتاجون اليها فى العهد الجديد . ولا شك أن من أخلقها بالتعليم والتلقى فكرة الحرية التى لا يفهمها المصريون حق الفهم لطول الزمن الذى خضعوا فيه للحكومات المستبدة .

وكم كان لطفى السيد لبقاً فى هذه الدروس التى ألقاها على نواب الأمة ، وكم كانت دروسه ملمة بأطراف هذه الفكرة ، وكم كان دقيقاً فى التعبير عنها ،

---

(١) الجريدة — عدد ٢٠٥٨ بتاريخ ٢٠ ديسمبر سنة ١٩١٣ ، والمنتخبات جزء ثان ص ٦٥

(٢) الجريدة — فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩١٣ ، والتأملات صفحات ٨٤ ، ٩٠ ، ١٠٦ ، ١٠٨ .

بحيث لا يفهم من معنى الحرية أنها الفوضى . بل يفهم منها أنها القيد النافع للأفراد والجماعات والحكومة .

انظر اليه حيث يقول :

« تدور أفكار الناس وأعمالهم على أصل واحد هو المنفعة . . . ومنفعة الناس دائرة مع مذهب الحرية وجوداً وعدما. ومذهب الحرية يحمي الحكومة الاستبدادية من شر نفسها وسوء نتائج استبدادها . ومذهب الحرية يكفل الانتفاع لكل فرد فى الأمة. ومذهب الحرية مذهب مؤلف من طبائع الإنسان. فهو أحسن ضمان للحكومة وللأمة فى وقت واحد . أما المذاهب الأخرى فالاعتماد فيها على القوة والإكراه . وهيهات أن يحب المرء الحكومة « بالنبوت»[1] .

ولم يغب عن ذهن الكاتب أثناء شرحه لمذهب الحرية أنها تختلف باختلاف الأوطان . فهى فى مصر غيرها فى انكلترة وغيرها فى فرنسا وغيرها فى أمريكا ولذا يقول :

«ولسنا من فرط الادعاء بحيث نطلب تقليد انجلترة دفعة واحدة من غير أن يكون لنا مالها فى تاريخ الحرية »[2]

ومن ثم لم يعجب من أن النواب المصريين فى الجمعية التشريعية قرروا يوماً ما أن مصر لا تستحق الحرية الشخصية التى أنعم الله بها على جميع مخلوقاته. ثم عادوا فندموا على هذا القرار أشد الندم ، وعرفوا أنهم كانوا يخشون فيه بطش كرومر ولا يخشون فيه سخط الأمة التى هم منها .

وقد رثى الكاتب للنواب المصريين فى خشيتهم بطش كرومر والحكومة المصرية ، وشعر فى أعماق نفسه أن عليه واجباً وطنياً هاماً ، هو إرشادهم وتوجيههم إلى الأفكار الصحيحة ، وقدر فى نفسه أيضاً حالة المصريين من حيث كونهم حديثى عهد بهذه النعمة ، فعاد يقول :

---

(١) الجريدة — العدد ٢٠٦٨ بتاريخ ١٩١٣/١٢/٣١ ، والمنتخبات جزء ثان س ٩١

(٢) الجريدة — عدد ٢٠٦٩ بتاريخ أول يناير سنة ١٩٠٤

« ونحن لانستطيع أن نطلب اليوم أن تكون حدود الحرية عندنا هي حدودها في أمريكا وانكلترة وفرنسا ، ولو أردنا ذلك لما أردنا شططاً. ولكن إن لم نستطع ما نريد فلنرد ما نستطيع »[1] .

ثم وجه الحديث للحكومة التي وافقت على القرار الذي سبق ذكره بدعوى أنها حكومة أبوية قائلا لها :

« إن الحكومة الأبوية معناها حكومة الخمول لأنها تسهل للفرد أن ينام على فراش الكسل ويتركها تعمل ما تريد »[2]

٭ ٭ ٭

ولكن ماهي أنواع الحريات التي دعا اليها لطفي السيد؟ وكيف السبيل اليها؟

كتب الرجل اثنتي عشرة مقالة حول معنى الحرية ، والحرية ومذاهب الحكم ، والحرية والأحزاب ، والحرية وحقوق الكافة وسلطة التشريع ، ثم حرية التعليم ، وحرية القضاء ، وحرية الصحافة ، وحرية الخطابة ، وحرية الاجتماع ، وفي أن مذهب الحرية مفيد للأفراد والأمة .. الخ[3] .

علق الكاتب في هذه المقالات على نتيجة انتخابات الجمعية التشريعية، برغم أنها جمعية استشارية . ثم أحس أن الذين نجحوا في تلك الانتخابات كان بعضهم من المدرسة القديمة وبعضهم من المدرسة الحديثة ، وأن عليه أن يرسم لهم طريقة يجرون عليها في توجيه الحكومة . وأساس هذه الطريقة عنده هو الحرية :

« لأنها مناط التكاليف وقاعدة الفضيلة. وحريتنا في مصر ناقصة بالقانون وناقصة بالعمل . ناقصة بالقانون بما تصدره الحكومة من تشريع كقانون المطبوعات وغيره ، وناقصة بالعمل لأنه لم يبق للمصري في بلاده غير الحرية

---

(١) نفس العدد المتقدم .

(٢) الجريدة — عدد ٢٦٠٩

(٣) الجريدة — الأعداد : ٢٠٥٦ — ٥٧ — ٥٨ — ٥٩ — ٦١ — ٦٢ — ٦٣ — ٦٤ — ٦٥ — ٦٦ — ٦٨ — ٦٩ . والمنتخبات جـ ٢ ص ٥٧ — ٩٥ .

الحيوانية الصرفة». فعلى النواب المصريين أن يظفروا لمواطنيهم بهذه النعمة. «فإنه لن يصيبنا من إصلاح الأطيان وإقامة الجسور وحفر المصارف — لن يصيبنا من ذلك خير بقدر ما يصيبنا من ضرر الضغط على الحرية».

ثم طفق الكاتب يعلم النواب المصريين كيف يكون لكل واحد منهم رأيه الذى يعبر عن سياسة الحزب الذى ينتمى اليه، ولو كان مخالفا لرأيه الخاص، فتلك هى الحياة النيابية الصحيحة. وراح الكاتب يعد هذا يفصل القول فى أنواع الحريات على النحو الآتى:

أما حرية «التعليم» فيجب أن تكون فى كل دولة تابعة لسياستها «فالأستاذ التركى يضع همه فى تكوين إنسان يألف الظلم يقع منه على غيره. ويرضاه إن وقع من غيره عليه. أما الأستاذ الفرنساوى فهمه أن يصور تلميذه على صورته ينفر غالباً من الملوكية ويرى الجمهورية واسطة السعادة القومية. وقد يعلمه الأستاذ أن يكره المانيا أيضا ... ويقول كرومر وكيرزون وغيرهما. أن الشرق لا يصح أن يتوسع فى تعليمه إلى غايات التعليم الأوربى. بل لا بد من الوقوف به عند حد معين.

... لهذه الاعتبارات نقترح أن تنزل الحكومة عن التعليم إلى الأمة، وتشجع الجامعة المصرية ... وذلك لأن التعليم الحر أنفع من التعليم الحكومى ... الخ».

وأما «حرية القضاء» فقد لفت الكاتب نظر النواب إلى مبدأ فصل السلطات وقال إن السلطة القضائية لم تفصل بعد السلطات الأخرى. فالقضاة تابعون للحكومة. ولا يوجد قاض زاهد فى الترقية أو الشهرة أو زيادة الراتب الشهرى. والنظام القضائى فى أمريكا أحسن النظم لأن القاضى ينتخب من قبل الأمة. وفى مصر نظام شديد الخطورة على القضاء، وهو أن الوزراء كثيراً ما يختارون من القضاة، أو من الموظفين على العموم. وهذا النظام الذى يفسح مجال الأطماع أمام القاضى من شأنه أن يأكل من حريته واستقلاله .. الخ

ثم فى كلام الكاتب عن « حرية الصحافة » ذهب إلى أن الصحافة حسنة من حسنات المدنية الحديثة ، وأنها أشملها نفعاً ، وأفعلها أثراً فى رقى الأمم . وهى الآلة الوحيدة التى تمكن النـاس من الموازنة بين ماضيهم وحاضرهم . والرأى العـام مستحيل الوجود بغير الصحافة . والصحافة أقوى حكومة ؛ لأنها حكومة تسوق الناس لابعصا الحاكم ولـكن بقوة الاعتقاد . والصحافة إنما تستمد قوتها من استعداد الشعب ولاخطر من حريتها إذا كان الشعب غير مستعد للنهوض معها إلى حيث تريد . وإذا كانت الحكومة عَـرَضاً من أعراض الأمة — وهى حكومة القوة والجبروت — فإن الصحافة — وهى حكومة الاعتقاد — عرض أشد ارتباطا بالأمة . وليس فى استطاعة الأعراض أن تغير عناصر الجواهر التى تقوم بها . فالصحافة — وهى المرآة الصادقة — إنما تطلع الناس بعضهم على آراء بعض ، وتقرب مسافة الخلف بين المختلفين فى التربية فى الشعب الواحد . وتلك وظيفة بريئة لاخطر منها . والصحـافة هى الحرية الشخصية تطورت حتى صارت نظاماً اجتماعياً ضرورياً للجمعيات الحديثة . . . الخ .

وفى « حرية الخطابة » أو الكلام قال الكاتب أنها ألزم للفرد من حرية الـكتابة . وما هى للمجموع بأقل لزوماً من حرية الصحافة . وليس كل انسان كاتباً بالفعل . ولا كل موضوع محلا للـكتابة ، ولا كل ظرف موافقا لها . . فمن منع انسانا حرية القول فكأنما منع الإنسانية جمعاء . فإن قول الحقيقة ليس مجرد حق للفرد له اتيانه وله تركه . بل هو أيضا واجب عليـه للجمعية التى يعيش فيها . وقيمة الحقيقـــة أن تقال لا أن تعلم . والساكت عن الحق شيطان أخرس . ولقد كانت الخطابة فى المدنيات الأولى قائمة مقام الصحافة فى مدنيتنا الحالية . وان كان ذلك لم يقلل فى شىء من أهمية الخطابة . . الخ .

وفى « حرية الاجتماع » ذهب الكاتب الى أنها أصل فى تكوين الجمعيات العامة ، والجمعيات العامة قوة عظيمـة تقاس بها درجات الأمم . ولا يعرف

التاريخ أن حكومة استبدادية حمت تأليف الجمعيات وشجعتها ولو كانت دينية، إلا إذا كان الغرض من تشجيعها هو ضمها إليها . وحرية الاجتماع أكثر خطراً على الظلم من كل حرية سواها . لأن الجمعية أكثر من الفرد قوة ، وأطول عمراً ، وأشمل تأثيراً ، وأعسر على عواصف الحوادث منقلباً . . الخ .

والكاتب فى كل مرة يناشد النواب المصريين أن يحافظوا على الحرية التى يدعو إليها . ويحضهم على أن يرعوا هذه الأمانة التى فى أعناقهم للأمة، ويحذرهم الوقوع فيما وقعوا فيه من قبل ؛ حين قرروا — وفرحت الحكومة المصرية يومئذ بما قرروا — أن الأمة المصرية ليست بعد أهلا للحرية الإنسانية . كل ذلك فى رفق ولين من جانب هذا الكاتب الفيلسوف ، وفى عطف وتقدير لحالة المصريين الذين طال خضوعهم لحكومات مستبدة .

* * *

والحق أن مصر — ذلك البلد الذى ولد الحضارة الإنسانية مرتين — رزقت منـــذ الاحتلال البريطانى بكثير من الكتاب والشعراء والخطباء والمفكرين ممن تغنوا بالحرية ، فأحسنوا الغناء ، وبذلوا نفوسهم وأموالهم فى سبيلها فأحسنوا الفداء . ومع ذلك لانظن أن أحداً من هؤلاء وهؤلاء كتب للناس ما كتبه لطفى السيد على صفحات الجريدة حيث قال :

« الحرية هى الغذاء الضرورى لحياتنا . ولو كنا نعيش بالخبز والماء لكانت عيشتنا راضية وفوق الراضية ولكن غذاءنا الحقيقى الذى به نحيا ، ومن أجله نحب الحياة ليس هو شبع البطون الجائعة . بل هو إرضاء العقول والقلوب . وعقولنا وقلوبنا لاترضى إلا بالحرية . وإنا إذا طلبنا الحرية لانطلب بها شيئاً كثيراً — إنما نطلب ألا نموت — ولايوجد مخلوق أقنع من الذى لايطلب الا الحياة ووسائل الحياة . كما أنه لاأحد أقل كرماً من ذلك الذى يضن على الموجود الحى بأن يستوفى قسطه من الحياة . . أعجب من

الذى يظن الحيـاة شيئاً والحرية شيئاً آخر . ولا يريد أن يقتنع بأن الحرية هى المقوم الأول للحياة ، ولا حياة إلا بالحرية .

غير أن الحرية الطبيعية لا فائدة منها إذا تعطلت من آثارها . فالذى سجن ، والذى منع الكلام ، والذى منع الكتابة — كل أولئك يحفظون حريتهم فى نفوسهم . ولكنهم فقدوا الانتفاع بها — أى فقدوا بذلك الحرية المدنية . وإنما يكون المرء حراً بمقدار ما لديه من وسائل استعمال هذه الحرية . فالحرية الناقصة حياة ناقصة . وفقدان الحرية هو الموت ، لأن الحرية هى الحياة .

يقولون إن بعض الناس خلق للسيادة أبداً . وبعضهم خلق للعبودية أبداً . ولا نزال نرى هذا خطأ يتردد فى آراء الساسة المستعمرين على صورة أقل شناعة .

وبعبارة أكثر ائتلافاً مع مدنيتنا الحديثة — يضعون أصابعهم فى أعينهم ؛ إذ تكون النتيجة المنطقية النهائية لهذه المقدمات السابقة هى هـذه الجزئية : بعض الإنسان لا إنسان . كذبت فلسفتهم وصدق الذى يشعر به كل إنسان منا فى نفسه من الميل إلى الرقى فى كل شىء ، وإلى الحرية قبل كل شىء »[1] .

أجل — كان لطفى السيد من عشاق الحرية . بل كان معلم الحرية ، يحب أن يراها فى كل طبقة ، وفى كل حزب ، وفى كل عمل ، وفى كل مهنة من المهن العامة . وإن أحق الناس فى نظره بالحرية هم العلماء . ومن ثم عاب عليهم اعتمادهم اعتماداً تاماً على أوروبا ، وحضهم على الابتكار والثقة فى أنفسهم . كما عاب على الصحفيين والأدباء التفاف كل طائفة منهم حول سلطان معين ، فصاح فيهم قائلا :

« أناشدكم الله — ما حاجة كاتب القرن العشرين فى أن يكون لقلمه سيد ، لا يخط إلا ما يرضيه . وهو يسود الطروس مناديا بالحرية الشخصية مدللا على وجوب استعمال الحرية الفعلية والشجاعة الأدبيـة . والأمة المقصومة العرى أحوج — أيها الكتاب — إلى أقلامكم من خدمة السلطان »[2] .

---

(١) مجلة المصور فى ١٧ نوفبر سنة ١٩٥٠

(٢) مقال بعنوان « الحق الصراح » . الجريدة بتاريخ ١٤ مايو سنة ١٩٠٧ .

المقدمة الثالثة

مذهب التعقيل

إن أردت أن تدرس الفكر المصرى الحديث فى أى ميدان من ميادينه فلا بد لك من العناية بأمور كثيرة تنير لك طريق الدرس الصحيح ، وتهديك إلى معرفة الظروف التى أحاطت بهذا الفكر من جميع نواحيه. وهى ظروف لا نتصورها منفصلة بعضها عن بعض ، بقدر ما نتصورها متداخلة بعضها فى بعض . إذ الهدف الذى رمت اليه واحد ، والثمرة التى تصبو اليها واحدة ؛ وهى اليقظة المصرية فى سبيل الظفر بالاستقلال والدستور والحرية ، وفى سبيل اللحاق بالأمم الأجنبية التى سبقت مصر فى مضمار الحضارة والرقى .

والحق أن هذا النشاط الفكرى الحديث قد اتخذ له أشكالا متباينة ، أو قل مر بأدوار متعددة ، هى تلك التى تنير لنا طريق الدرس أو البحث ، ويمكن أن نشير منها بإيجاز إلى مايلى :

أولا — (دور التنوير) : ونعنى به الحركة التى سارت فى مراحل معروفة أشرنا اليها فى مقدمة الجزء الثالث من أجزاء كتابنا (أدب المقالة الصحفية فى مصر) : فمرحلة تقترن بمجىء الحملة الفرنسية ، وأخرى بظهور محمد على والبعثات العلمية ، وثالثة بظهور الرعيل الأول ، فالثانى ، فالثالث من كتاب المقالة الصحفية وهكذا . ولعلّ المرحلة الأخيرة من مراحل هذا التنوير هى تلك التى اقترنت بإنشاء الجامعة المصرية ، وقد كانت الجامعة فى حقيقتها استجابة لرغبة الشعب قبل أن تكون عملا من أعمال الحاكم الذى تولى أمر هذا الشعب .

ثانيا – (دور الدستور) – وفى سبيله قام المصريون بنشاط كبير وذلك منذ إعلان الدستور العثمانى فى عهد السلطان عبد الحميد ؛ وهو الاعلان الذى ترتب عليه إنشاء مجلس النواب المصرى فى عهد اسماعيل سنة ١٧٧٦ .

وبقى المصريون على ذلك حتى قاموا بأخطر ثورة مصرية من أجل الدستور ، هى ثورة عرابى سنة ١٨٨٢ ؛ وهى ثورة دستورية فى جوهرها ومن ثمارها صدور دستور جديد كان فى حقيقته تعديلا لدستور سنة ١٧٧٦ ، وكان تثبيتاً لحق النواب المصريين فى محاسبة الوزراء وغيرها من المسائل الدستورية .

ثالثاً – (دور المقاومة) – وقد سارت هذه المقاومة فى مرحلتين هامتين هما : المرحلة التى حاول المصريون فيها التخلص من الحكم التركى العثمانى ، والمرحلة التى حاولوا فيها التخلص من الاحتلال البريطانى . ومن أجل هذا الأخير قام المصريون بجهود كثيرة ، وبذلوا محاولات عديدة ، وما زالوا يحاولون إلى اليوم .

رابعاً : (دور الشعور بالقومية) وهو الشعور الذى أعان على تفتيت الامبراطورية العثمانية وتقويض دعائمها ، وذهاب هيبتها . والأصل فيه هو رغبة الشعوب الإسلامية فى الانفصال التام عن عجلة الامبراطورية العثمانية ، والاندفاع فى تيار القومية . ونحن نعلم أنه اشترك فى بناء صرح القومية المصرية كثيرون من أبناء مصر – حكاما ومحكومين – وقد أشرنا اليهم إشارة موجزة فى مقدمة الجزء الخامس من كتابنا (أدب المقالة الصحفية فى مصر) وهو الجزء الذى تكلمنا فيه عن مصطفى كامل فى صحيفة اللواء وأشرنا فيه إلى الحركة الوطنية منذ نشأتها إلى عهد هذا الزعيم الشاب .

ولعل ثورة المصريين سنة ١٩١٩ كانت أعنف مظهر من مظاهر الوعى القومى الذى نتحدث عنه .

خامسا : (دور الجامعة المصرية بعد الجامعة الإسلامية) وقد شرحنا ذلك فى مقدمة من مقدمات هذا البحث الذى بين يديك .

سادسا : (دور التعقيل) — وهو الدور الذى تنهض هذه المقدمة الثالثة ببحثه ، ومعرفة القدر الذى تم منه على يد صاحب الترجمة .

* * *

عندى أن القصد من حركة التعقيل إنما هو إعادة النظر فى الإصلاح المصرى على أساس جديد، هو العقل من جهة،والمنفعة الذاتية لمصر وحدها من جهة ثانية .

ومن الحق ان يقال إن هذه الحركة إنما جاءت صدى لهاتين الظاهرتين الكبيرتين ، أو الفكرتين العظيمتين ؛ وهما فكرة الحضارة الأوروبية من جهة ، وفكرة الجامعة الاسلامية من جهة ثانية ، وذلك بعد أن تركت كل من هاتين الفكرتين آثاراً عميقة فى الرأى العام المصرى ، والحياة العامة المصرية . وأمضى المصريون زمانا طويلا فى الشك من أمرهما — أو على الأصح — انقسم المصريون من أجلهما فريقين : فريق يؤمن بهما ، وفريق لا يطمئن اليهما بحال ما . فكان طبيعياً بعد ذلك أن يحتكم الناس إلى العقل ؛ وأن يستوحوا النفع الذاتى لمصر .

وقد بلغت هذه الحركة أوجها فى شطر من شطريها — وهو الشطر الخاص بفكرة الجامعة المصرية — على يد لطفى السيد

أما الحضارة الأوروبية الحديثة فكان المصريون لا يزالون ينظرون إليها بعين الريبة . إلا أن لطفى السيد كان مذهبه واضحاً فى ذلك كل الوضوح، وهو أنه لا ضير على مصر من أن تنتفع بالجانب الحسن من هذه الحضارة ، وتترك الجانب القبيح منها . وربما كان لطفى السيد فى هذا الشطر الثانى من القضية مسايراً كل المسايرة لأفكار الجيل الجديد من أجيال الأمة المصرية . ذلك أن المصريين أصبحوا عازمين على مصالحة الحضارة الأوربية بعد أن تبين لهم أنها ليست شراً كلها ، ولا عبثا كلها ، كما كانوا يفهمون ذلك على يد النديم ، والمويلحى الكبير وغيرهما من الكتاب والمصلحين. ولينا على تصميم المصريين

على هذه المصالحة شاهد من شواهد الأدب لا يقبل فى نظرنا شكا ولا يستحق عندنا طعناً . وهذا الشاهد هو «حديث عيسى بن هشام» لمحمد المويلحى . فقد تنكرت هذه القصة المصرية للحضارة الأوربيـة ، وراحت تصف شرورها ، وتسخر من تقليد المصريين لها تقليداً أعمى . وظهرت الطبعات الثلاث الأولى لهذه القصة وهى تحمل هذا المعنى ، ثم فى الطبعة الرابعة وذلك عام ١٩٢٧ وجدنا المؤلف أضاف إلى القصة ما سماه (بالرحلة الثانية) . وفيها انتقل ببطل القصة إلى فرنسا ، حيث شاهد هـذا البطل ورفيقه الفيلسوف الشرقى معالم الحضارة الأوروبية ، وفتح عينه على محاسنها ، ثم عاد البطل إلى مصر ، فدعا بدعوتها ، وحض المصريين على الأخذ بها . وفى هذه التكملة القصصية الأخيرة ما يدل دلالة صريحة على تأثر المؤلف بالحركة التى نشير اليها ، وهى الحركة التى جعلت المصريين يعيدون النظر فى المدنية الغربية ، على أساس مخالف للأساس الأول ، وهو أساس المنفعة الذاتية . ومن الجائز أن يكون على مبارك فى قصته المشهورة (علم الدين) هو أول من بدأ هذا التفكير . ثم تبعه فى ذلك كثيرون ، آخرهم محمد المويلحى

* * *

مهما يكن من شىء فنحن ننظر فى المدرسة الصحفية الثالثة فى مصر (وهى المدرسة التى ينتمى اليها لطفى السيد ــ نجد أنها تمتاز عن سابقتيها بأمور أربعة هى : التعقيل ، والتجديد فى الأساليب ، وهضم الثقافة الأوروبية بعد إذ تم نقل الكثير منها على يد المدرسة الأولى ، وتقبل الحضارة الغربية بقصد الانتفاع بها والاستزادة منها . ولم نلبث أن رأينا هذه الحضارة الأوروبية والثقافة الغربية مصدر من مصادر الوحى عند رجال هـذه المدرسة الثالثة بالدرجة التى كانت عليها الثقافة الإسلامية الخالصة عند أفراد المدرسة الثانية كمحمد عبده والنديم والمويلحى الكبير . وحتى على يوسف زعيم هذه المدرسة الثالثة التى نتكلم عنها ــ وهو أقل تلاميذها صلة بالثقافة الأوروبية ــ كان على رغم أزهريته يحب الثقافة الأوربية ويعنى بها وبآثارها المختلفة . وخاصة ما كان منها متصلا بالسياسة.

والذى يعنينا الآن هو النظر فى الأمر الأول من تلك الأمور الأربعة المتقدمة ، وهو (التعقيل) ، كيف اهتدى اليه صاحب الترجمة ، أو كيف اتخذه مذهباً يدعو اليه أمته ؟

فى اعتقادى أن مذهب التعقيل عند لطفى السيد إنما يرجع إلى أسباب كثيرة ، منها ثقافته ، ومنها نفسه وطبيعته ، ومنها التجارب السياسية والمحن القومية التى مرت بها مصر . وحسبى أن أنوه هنا بالسبب الأول منها لأهميته، فإن كل سبب من الأسباب الأخرى لايحتاج إلى توضيح لبيان قيمته ، أو التدليل على صحته .

والحق أن فى تاريخ هذا الرجل ما يدل دلالة صريحة على أن له عناية كبيرة بثقافات ثلاث : هى الثقافة الاسلامية المعروفة ، والثقافة اليونانية القديمة ، والثقافة الأوروبية الحديثة .

أما الثقافة الاسلامية ، فقد اتصل اتصالا قوياً بها ، وذلك عن طريق الفلاسفة المسلمين فى أشهر كتبهم . وأما الثقافة اليونانية فقد فتن فتنة عظيمة بها ، وكان أكبر إعجابه بأرسطو ، وقد ترجم من آثاره خمسة كتب وهى : كتاب الطبيعة ، وكتاب الكون والفساد ، وكتابان فى الأخلاق بعنوان إلى (نيقوماخوس) وكتاب السياسة — نقلها كلها عن سانت هيلير ، وإن قيل فى هذا الأخير إنه ليس بثقة !

وأما الثقافة الأوروبية فقد لقيت هى الأخرى هوىً من نفس كاتبنا . فأقبل عليها واغترف بكلتا يديه منها ، وقضى فى تحصيلها معظم أوقات الفراغ . سمعته مرة يقول :

«على قدر إعجابى بأرسطو من الفلاسفة الأقدمين كنت أعجب (بكانت) الألمانى ، وفولتير ، ورسو ، من الكتاب الفرنسيين ، وستيورت مل (صاحب مذهب المنفعة) . على أن فولتير هو الذى أخذ من وقتى أكبر نصيب ، لأننى قرأت له بإمعان كتابه : (Dictionaire philosophique) وكان ذلك بين عامى

١٩٠٠ و ١٩٠٥ . أما دارون ، وتولوستوى فقرأتهما فى عهد الطلب . وأما الفلاسفة الآخرون من أمثال : نانث ، وسينيك ، وسبنسر ، وجوستاف لوبون فقرأت لهم وقت اشتغالى بالنيابة،وذلك كله قبل اشتغالى بالصحافة» .

على أن لطفى السيد ما كان يحب لنفسه مع ذلك أنه يكون عبداً لواحد من أولئك الفلاسفة . بل كان يقرأ لهم ، ويعمل عقله فى آثارهم ، ويتبع ذلك بنقد لتلك الآراء والأفكار متى دعا الحال إلى شيء من ذلك .

على هذا النسق التقت فى ذهن كاتبنا ثقافات ثلاث : هى الثقافة اليونانية الخالصة والثقافة الإسلامية الخالصة ، والثقافة الأوروبية الخالصة.وامتزجت هذه الثقافات الثلاث بعضها ببعض فى عقله امتزاجا قوياً ، ظهر أثره قوياً كذلك فى كل ما كتب على صفحات (الجريدة) .

ثم إن لطفى السيد كان يجرّ أمته دائماً إلى المثل الأعلى فى الحكومة ، والاجتماع ، وفى التربية والتعليم ، والأخلاق الخ . ولكنه كان فى الوقت نفسه من أكثر كتاب زمانه تقيداً بالواقع الملموس فى الحياة المصرية ذاتها ؛ يدركه إدراكا جيداً ، ويحسه إحساساً جيداً ، ويحسن الملاءمة بينه وبين المثل الأعلى الذى ساق اليه أمته ، ويخرج من هذه الملاءمة أو الموازنة بالرأى الراجح ، والفكرة الناضجة يقدمها لأولى الأمر حيناً ، وللشعب المصرى نفسه حيناً آخر ؛ فإذا هو رأى يمكن تنفيذه ، ويسهل العمل به .

معنى ذلك باختصار أنه كما امتزجت فى ذهنه الثقافات الثلاث التى تكلمنا عنها فكذلك امتزجت فى ذهنه المثالية بالواقعية . فأخرج لنا هذا المزاج أفكاراً نافعة فى سياسة مصر الحكومية ، وسياستها الاجتماعية ، وسياستها نحو التربية والتعليم .

سألته يوماً عن هذه الواقعية التى امتزجت فى نفسه بالمثالية أهى طبيعه له فطره الله عليها منذ نشأته ؟ أم هى ثمرة تجاربه وثقافته ؟ فأجاب بقوله : قد

يكون هذا ، وقد يكون ذاك : إن كل ما أستطيع قوله هنا هو أنني ملأت وقت فراغي كله بالقراءة في كتب الفلاسفة » .

قلت : ليس شك في أن كتابة المرء وافد عقله ، وصورة من خلقه نفسه ، وأثر من آثار قراءته » .

قال : هو ذاك .

وقد رأينا كيف كان لطفي السيد من أكبر رواد الحرية على النحو الذي تشرحه المقدمة الثانية من مقدمات هذا البحث . وها نحن نرى في هذه المقدمة الثالثة كيف أن لطفي السيد أكبر رائد من رواد حركة التعقيل في مصر :

فلئن كان رفاعة الطهطاوي هو البطل الحقيقي لحركة التنوير ، وكان أحمد عرابي هو البطل الحقيقي لحركة الدستور ، وكان مصطفى كامل هو البطل الحقيقي للحركة الوطنية ، وهكذا ، فالذي لا شك فيه أن لطفي السيد هو البطل الحقيقي للحركتين اللتين أشرنا اليهما حتى الآن وهما : « حركة الجامعة المصرية أولا ، وحركة التعقيل المصري بعد ذلك » .

قد يجوز لنا أن ننظر إلى رجال آخرين سبقوا لطفي السيد في حركة التعقيل . ومنهم على سبيل التمثيل محمد عبده في الميدان الديني، وعبدالله النديم وعلى مبارك في الميدان الاجتماعي الخ . ولكن يخيل الينا أن أحداً من هؤلاء لم يستطع هذا الاتجاه أن يتخذ في نفسه وعقله صورة (مذهب معين) كما كان الشأن مع لطفي السيد .

وهكذا أصبح (التعقيل) طابعاً خاصاً بهذا الرجل يوشك أن يميزه عن غيره من كتاب الصحف الذين ظهروا قبله . بل إن لطفي السيد الفيلسوف أصبح بهذا التعقيل رائداً وأستاذاً لجميع الكتاب الذين أتوا بعده — فإليه فيما نرى — يرجع الفضل كل الفضل فيما امتازت به الحركة الأدبية والفكرية في مصر — وذلك في النصف الأول من القرن العشرين — من ميل حقيقي إلى

التعقيل ، وإيثار لجانب التفكير ، وبعد عن مسايرة العواطف التي انغمس فيها شاب غيور جم العواطف والشعور كمصطفى كامل .

وهكذا كانت الفلسفة سبباً من أسباب هذا المذهب الذي امتاز به لطفي السيد . ثم هكذا كانت الفلسفة اليونانية — بوجه خاص — عنصراً هاماً من عناصر الثقافة التي عرف بها في عصره . والباحثون متفقون على أن الفلسفة اليونانية تمتاز بالتفكير العقلي المنظم ، وأنها بلغت ذروتها من هذه الناحية على يد أرسطو . وقد أشرنا إلى جهود لطفي السيد في ترجمة الكتب المنسوبة إلى ذلك الفيلسوف اليوناني القديم . ومهما قيل في هذه الترجمة ، ومهما قيل في الأصل الفرنسي الذي اعتمدت عليه هذه الترجمة ، وبالرغم من أن هذه الترجمة نفسها لم تظهر إلى الوجود إلا بعد اختفاء (الجريدة) في سبتمبر سنة ١٩١٤ ، فالذي لا شك فيه أن لطفي السيد كان على اتصال دائم بفلسفة أرسطو ، وأنه أحسن الاتصال بها ، وأنه توج هذا الاتصال القديم بعمل جليل ، هو قيامه بنقل هذه الكتب المنسوبة إلى أرسطو من الفرنسية إلى العربية .

وليس شك في أنه كان لهذا الاتصال المستمر بأرسطو من جانب لطفي السيد أكبر الأثر في مذهب التعقيل الذي نادى به .

ولا يصح بعد هذا وذاك أن تقلل من شأن الأسباب الأخرى التي أفضت إلى مذهب التعقيل عند لطفي السيد . ومن أهمها التجارب السياسية التي مرت بها الأمة المصرية ، واعتقاد هذه الأمة أخيراً أن الخطأ كل الخطأ هو في ارتباطها بعجلة الامبراطورية العثمانية . وذلك ما يعرفه كل من كان له اتصال بالتاريخ الحديث . ومن ثم اقتصرت عنايتنا هنا على السبب الأول فقط ، هو السبب الذي يتصل بثقافة لطفي السيد .

وأكبر الظن عندي أن هذه هي المرة الأولى لاتصال المصريين المحدثين بالفلسفة اليونانية القديمة . فلا تكاد ذاكرتي تعي اسم رجل من رجالات مصر في

القرن التاسع عشر اتجه من تلقاء نفسه ، أو بدافع من أساتذته هذا الاتجاه ، أو عنى بأفلاطون وأرسطو وغيرهما من فلاسفة اليونان مثل هذه العناية . إلا أن يكون ذلك عن طريق الفلسفة الإسلامية التى درست أرسطو دراسة قوية . ومع ذلك فإنى أشك حتى فى وجود رجل من رجالات مصر عرف الفلسفة اليونانية عن طريق الفلسفة الاسلامية ، وتوفر على فهمها وتحصيلها على هذا النحو .

ثم إن هذه الفلسفة اليونانية القديمة كانت من مقومات النهضة الأوروبية الحديثة . وقد نادت هذه النهضة بحرية العقل ، وأثمرت هذه الحركة نوعين من الفلسفة فى ذلك الوقت : هما الفلسفة التجريبية والفلسفة العقلية .

وفى هذا الجو الفلسفى البحت ولدت المقالة الأدبية الأوربية . وكان ميلادها على يد (مونتانى) فى فرنسا ، (وبيكون) فى انجلترة . وهما فيلسوفان عقليان ، ومن أجلهما انشعبت المقالة الصحفية شعبتين هما : شعبة المقالة الذاتية كما يمثلها (مونتانى) ، وشعبة المقالة الموضوعية كما يمثلها (بيكون) . ولكل منهما تلاميذ وأتباع فى كل من انجلترة وفرنسا .

أفتثمر الثقافة اليونانية هذه النتائج كلها ، ولا يكون لها أثر واضح فى عقول كتابنا ؟

إن تعقيل الفكر ، وتعقيل البحث ، وتعقيل الأدب ، وتعقيل النهضة المصرية من جميع جوانبها إنما ظهر ظهوراً لا يقبل الشك منذ تأثير كتابنا ، وقادة الفكر فينا بهذه الثقافة اليونانية القديمة . إما بطريقة مباشرة كما يفعل الدارس لأرسطو ، أو المترجم لأرسطو ، أو بطريقة غير مباشرة كما يفعل الدارس للفلسفة الأوربية الحديثة ، أو الدارس للفلسفة الإسلامية المعروفة ، أو المترجم لبعض آثارهما .

ومهما يكن من شيء فتلك هي الطريقة التي سلكها لطفي السيد في تثقيف نفسه ، وتلك هي الآداب التي ملأ بها فراغ وقته . وذلك فضلا عن العلوم التي أوجبتها عليه المهنة — وأعني بها مهنة المحاماة . فقد تخرج الكاتب في مدرسة الحقوق ، واشتغل بدراسة القانون ، وقرأ كثيراً في كتب الأدب والتاريخ ثم اشتغل أخيراً بالصحافة ، بعد أن أعدّ نفسه لها ذلك الاعداد ، وتزود نفسه بتلك القوة وذلك العتاد .

الفصل الأول

حياة لطفى السيد

أحسنت دار الهلال حين حملت الأستاذ لطفى السيد على كتابة بعض مذكرات له نشرت فى مجلة المصور ، وبها وصف لبعض الحوادث السياسية التى شهدها بنفسه ، أو كان له فيها مشاركة واضحة[1] .

* * *

وقد استهل الأستاذ لطفى السيد هذه المذكرات بقوله :

« نشأت فى أسرة مصرية صميمة لا تعرف لها وطناً إلا الوطن المصرى . ولا تعتز إلا بالمصرية ، ولا تنتمى إلا إلى مصر — ذلك البلد الطيب الذى نشأ التمدن فيه منذ أقدم العصور وله من الثروة الطبيعية والشرف القديم ما يكفل له الرقى والمجد .

وقد ولدت فى ١٥ يناير سنة ١٨٧٢ بقرية « برقين » من أعمال مركز السنبلاوين بمديرية الدقهلية . وهى قرية صغيرة كان تعدادها فى ذلك الحين يبلغ مائة نفس . وقد تضاعف سكانها فأصبح عددهم الآن نحو ألفين نفس . وقد اعتادوا أن ينطقوا القاف « جافاً » والجيم « جيما معطشة » كسائر أهالى مركز السنبلاوين .

وما زالت هذه اللهجة تغلب على فى حديثى إلى يومنا هذا .

---

(١) مجلة المصور فى أربعة عشر عددا من أعدادها ابتداء من العدد رقم ١٣٥١ بتاريخ أول سبتمبر سنة ١٩٥٠ إلى العدد ١٣٧٠ بتاريخ أول ديسمبر ١٩٥٠ .

« وكان والدى» السيد باشا أبو على « عمدة هذه القرية » . وقد كان يجيد حفظ القرآن الكريم وعرف بشخصيته المهيبة وقوة شكيمته ، وعدالة فى معاملته ، وعطف على أهل قريتـــه وغيرهم ، وأذكر أنه ما قسا يوماً علىَّ ولا وجه إلى كلمة نابية ، أو عبارة تؤلم النفس . بل كان — طيب الله ثراه — عطوفاً حكيماً فى تربية أبنائه . يعنى بالقدوة الحسنة وحسن التوجيه والارشاد .

«ولما بلغت الرابعة من عمرى أدخلنى كتاب القرية وكانت صاحبته سيدة تدعى « الشيخة فاطمة » . فمكثت فيه ست سنوات تعلمت فيها القراءة والكتابة . وحفظت القرآن كله .

وكنت أجلس مع زملائى على الحصير ، ونصنع الحبر بأيدينا . وإلى هذه السيدة يرجع الفضل فى تنشئتى الأولى فى تلك السنين .

«وكنت فى العاشرة حين أتممت حفظ القرآن فى هذا الكتاب. فاشترى لى والدى مهرة من بادية الشام لم تألف رؤية قطار السكة الحديدية . فكنت أركبها للنزهة ، ولقضاء بعض الأعمال . وقد نصحنى والدى بالابتعاد عن السكة الحديدية حتى لا يمسنى مكروه . وذات يوم امتطيت المهرة ، وذهبت إلى عزبة لنا فى«طرابلس الغرب»وفاتنى أن أعمل بنصيحة والدى، فسرت بها على طريق السكة الحديدية . وبينما أنا سائر بها فاجأنى القطار فوثبت من فوقها وتركتها وحدها فجرت مسرعة حتى عادت إلى برقين . فذعر أهلى ، وهاجت القرية ، وظن الجميع أنى أصبت بمكروه، وما كاد القطار يقترب منهم حتى رأوا السائق يشير اليهم بمنديل أبيض . فاطمأن بالهم .

«ثم جىء بى إلى والدى وأنا خائف أترقب . ولكنه كعادته معى — رحمه الله — ربت على كتفى قائلا :

لا تخالف أمرى يا ولدى ولا تسر مرة أخرى على السكة الحديد

«فأثر ذلك فى نفسى وازددت إعجاباً به وحباً له .

وبعد أن أتممت حفظ القرآن الكريم رغب والدى فى أن يبعثنى للدراسة فى الأزهر . وصادف فى ذلك الوقت أن جاء يتغدى عندنا ابراهيم باشا أدهم — مدير الدقهلية سابقاً — فدخلت لتحيته . فسأل والدى : إلى أين يبعث بى للدراسة؟ فأجاب: إلى الأزهر الشريف إن شاء الله . فأشار عليه أن يبعث بى إلى مدرسة المنصورة الابتدائية . وكانت إذ ذاك المدرسة الحكومية الوحيدة فى الدقهلية كلها . وقد كان المرحوم أمين سامى باشا ناظراً لها . وكان معروفا بالدقة والنظام والشدة وعدم التسامح فى أى تقصير يبدو من أحد التلاميذ . ومع ذلك كنا نحبه ونحترمه ونشعر بأبوته الرحيمة . وكان بالمدرسة قسم داخلى ، فالتحقت بالسنة الثانية بامتحان . لأنى كنت — عدا حفظى القرآن الكريم — أعرف قوعد الحساب الأربعة و«سورة الفدان» من صراف بلدنا المعلم حنين . . . . وكانت سنة ١٨٨٢ حينما التحقت بمدرسة المنصورة الابتدائية . ولما اختلطت بزملائى التلاميذ شعرت بعد أيام بشىء من القلق، لأنهم كانوا يضحكون منى حينما كنت أنطق القاف جافا كأهل بلدتى. هذا إلى أن الضرب والحبس فى « الزنزانة » كان من أنواع العقاب فى هذه المدرسة .

«وكانت روح الجندية هى السائدة على نظام المدارس فى ذلك الحين وكنا نخرج كل يوم جمعة « طوابير » تطوف فى شوارع المدينة ، ثم نعود إلى « عنابرنا » .

« ولكن حبب إلى البقاء فى هذه المدرسة أستاذ اللغة العربية بها « سيد أفندى محمد » . وكان مشهوداً له بالقدرة والتفوق فى تربيته وتعليمه . وكان تلاميذه أقوى زملائهم فى اللغة العربية . وعلى يديه نبغ كثيرون .

أمضيت ثلاث سنوات فى مدرسة المنصورة الابتدائية وأتممت تعليمى الابتدائى سنة ١٨٨٥ .

ثم اضطررت للسفر إلى مصر لألتحق بالمدرسة الخديوية . وقد أصبت نعمة كبرى فى هذه المدرسة بصحبة صديق وأخى عبد العزيز فهمى من أول

يوم التقيت به فى عنبر المدرسة ، وذلك فى مناقشة أثيرت بيننا وبين الطلبة فى النحو ، فاتفق رأيه ورأيي ضد الآخرين . ومن تلك الليلة صرنا صديقين حميمين . . . ولما انتظمنا بالمدرسة رتبونا بالطول : فقصار القامة فى السنة الأولى والأطول فى السنة الثانية وهكذا وكان وزير المعارف يومئذ عبد الرحمن رشدى باشا ، ووكيلها يعقوب أرتين باشا ، وناظر المدرسة صادق بك شنن . وكان هذا الناظر معروفاً بحبه لأهل البيت ، وإذا وبخ أحداً قال له : يا يزيد ! . . . وقد بقيت فى المدرسة الخديوية إلى أن حصلت على البكالوريا سنة ١٨٨٩ . وكان نظام الشهادات العامة قد وضع قبل ذلك بعام وكانت مدرسة الخديوية فى سراى مصطفى باشا بدرب الجماميز هى مدرسة الترجمة والمهندسخانة ووزارة المعارف . وكان طلبة المهندسخانة يختلفون عنا بزيهم العسكرى الكامل ، ويحملون إلى جانبهم سيوفاً . فكانوا يشيعون بمنظرهم الرهبة فى نفوس الطلبة الآخرين ، وبخاصة الغرباء .

« وكان مما يخيفنى بالقاهرة حوادث « الفتوات » فى ذلك الزمان فقد كان فى كل حارة عصابة على رأسها «فتوة» . وكثيراً ما كانت تحدث معارك دامية بين هذه العصابات وقد امتدت عدوى الفتوة إلى الطلبة أنفسهم ، حتى ظهر بيننا طالب فتوة يدعى «منصور» كان يعلم زملاءه التحطيب. ولهذا كنت أوثر البقاء فى المدرسة أيام العطلة الأسبوعية .

«وقد مكثت فى أول عهدى بالمدرسة ثلاثة أشهر لا أخرج من الخديوية قرأت فيها كتاب «أصل الانسان» لداروين، وقد ترجمه المرحوم شبلى شميل. وحفظت كثيراً من المعلقات وأشعارا لبعض كبار الشعراء .

وكان من مدرسى اللغة العربية فى هذه المدرسة الشيخ حسين والى والشيخ محمد حسنين البولاقى والد المرحوم أحمد حسنين باشا . وكنا وقتئذ نقرأ كتاباً مطولا فى النحو لمؤلف يدعى الشيخ محمود العالم .

« وكانت مدرسة الخديوية تجرى كل شهر اختباراً لتلاميذها ، فرغب تلاميذ البكالوريا أن تعفيهم المدرسة من الاختبارات الشخصية لينصرفوا إلى المذاكرة للامتحان العام . وأجمع رأيهم على أن يطلبوا إلى وزير المعارف على باشا مبارك إعفاءهم منها . واختارونى للذهاب لمقابلته . فذهبت اليه . وكان من عادته أن يضع سبورة فى مكتبه لاختبار كل من يتقدم اليه من الطلبة فى حاجة يريدها ، ولا يجيبه إلى حاجته إلا إذا أجاب إجابة صحيحة فيما يختبره فيه من المسائل الرياضية أو العلمية . فلما مثلت بين يديه طلب منى أقف أمام السبورة لأبرهن على النظرية الهندسية التى حاصلها «أن مربع وتر المثلث القائم الزواية يساوى مجموع مربعى الضلعين الآخرين » فأثبتها أمامه فأجابنى إلى الرغبة التى أوفدنى اليه زملائى من أجلها . ..

« وقد كنت فى التعليم الثانوى متوسطا . فلم أكن من المتفوقين ولا من المتأخرين. غير أنى كنت متفوقا فى العلوم العربية والرياضيات، حتى لفت ذلك صابر باشا صبرى وأحمد كمال بك فى اللجنة الشفوية لامتحان الرياضة فى البكالوريا فنصحانى أن أدخل المهندسخانة . فأجبتهما إلى ذلك غير أنى قرأت فى الأجازة أن المهندسخانة تقبل ساقطى البكالويا فلم أجد من كرامتى أن التحق بهذه المدرسة ! فالتحقت بمدرسة الحقوق سنة ١٨٨٩ . وكانت هذه المدرسة وقتذاك يمكن أن تسمى «كلية حقوق» ، و «كلية آداب» معا . فقد كان الطلبة يدرسون فيها إلى جانب العلوم الثانوية علوما أدبية كآداب اللغة العربية وقواعد النحو والصرف والبيان والمعانى والبديع والعروض والقوافى وتفسير القرآن الكريم وآداب البحث والمناظرة والمنطق . وكانت مدة الدراسة فيها خمس سنوات . وكان وكيلها عمر لطفى بك . وكان من مدرسيها الشيخ حسونة النواوى وحفنى بك ناصف وسلطان بك محمد وأساتذة أوروبيون .

« وكنت فى ذلك الحين أسكن فى حارة «عمر شاه» التى يسكنها الشيخ حسونة

النواوى . وكنت أتردد على منزله ، وكثيراً مايبعث إلى لأقرأ له درس الفقه الذى كان يلقيه بالأزهر فى بكرة الغد .

« وفى مدرسة الحقوق عرفنى الشيخ محمد عبده والشيخ حسن الطويل وكانا مع الشيخ عبد الكريم سلمان فى لجنة امتحان العلوم العربية . وأذكر فى امتحان السنة الثالثة أنه طلب منا أن نكتب فى موضوع : حق الحكومة فى معاقبة الجانى . فتناولت الموضوع فى جميع كتب المذاهب الأربعة التى كتبها علماء الجنايات فى شروحهم على قانون العقوبات . ثم نقضت كل مذهب منها ، وخلصت فى النهاية إلى أن الحكومة ليس لها حق معاقبة الجانى . لأن كل حكومة نشأت بالقوة ، والقوة لا تعطى الحق ، وإنما الذى يعطى الحق هو العقد فقط . وليس هناك أى عقد بين أية حكومة وبين الأمة ولما خرجت من الامتحان وذكرت ذلك لزميلى محمود عبد الغفار أسف جداً لما فعلت . وقال لى : يالطفى أنا مش عارف فلسفتك دى حاتودينا فين ؟

« وقد ألقى فى روعى أنى أخطأت فى هذا العمل ، وأنى سآخذ صفراً على هذا الجواب . ولكن حينما دخلت الامتحان الشفهى وجلست أمام اللجنة قال لى الشيخ محمد عبده :

« إنى أهنئك بما كتبت ، وقد أعطيناك أعلى درجة لا على ثورتك على الحكومات ، ولكن على الإنشاء » .

« وأظن أن هذه الكلمات هى التى شجعتنى على أن أنشىء فيما بعد « مجلة التشريع » بالاشتراك مع المغفور لهم : اسماعيل صدقى ، واسماعيل الحكيم ، وعبد الهادى الجندى ، وعبد الخالق ثروت ، ومحمود عبد الغفار .

« ولقد هويت منذ كنت طالباً فى الحقوق الكتابة فى الصحف ، فعاونت فى جريدة المؤيد بترجمة تلغرافاتها الخارجية عند ما كان الأستاذ محمد مسعود بك مريضا [1] .

---

(١) وشارك لطفى السيد فى مساجلات لغوية نشرت على صفحات المقطم ودارت بين الشيخ حمزة فتح الله والشيخ الشنقيطى والشيخ حسن الطويل وانتصر المترجم له لهذا الأخير .

لطفى فى الآستانة :

«وفى صيف ١٨٩٣ سافرت إلى استانبول ، وأنا طالب بالحقوق. فالتقيت بزميلى وصديقى اسماعيل صدقى . وكان الخديو عباس حلمى الثانى يزور وقتئذ العاصمة العثمانية ، فكنا فيها نحن الاثنين كأنما نمثل الطلبة المصريين فى الاحتفال بالخديو .

«ومررت بإحدى مقاهى الآستانة ، فلقيت فيها بعض المصريين ، ومنهم سعد زغلول والشيخ على يوسف وحفنى ناصف ، وقد تأهبوا لزيارة السيد جمال الدين الأفغانى ، فصحبتهم إلى منزله . وكنت أعرف طرفا من حياته ، ولكنى لم أكن قد اجتمعت به من قبل ...

ولما ذهبت اليه مع إخوانى لقيته رجلا مهيب الطلعة قوى الشخصية : ربعة ، ممتلىء البنية أسود العينين نافذ اللحظ مسترسل الشعر جذاب المنظر ، يلبس عمامة وجبة وسراويل على زى علماء الآستانة ، ... وفى اليوم التالى ذكرت لسعد زغلول رغبتى فى التلمذة على السيد جمال الدين .. فأجاب سعد : اذهب اليه واطلب منه ذلك . فقصدت اليه . وما كدت أقبل عليه حتى قام يحيينى كالمعتاد فقلت له : أنا لست زائراً ولكنى تلميذ ، فسر رحمه الله بذلك وأخذ علىّ عهداً بأن ألازمه طول إقامتى بالآستانة وقد فعلت

« وأهم ما أظن أنى انتفعت به من السيد جمال الدين فى تلك المدة أنه وسع فى نفسى آفاق التفكير ، وهدانى إلى أن المرء لا يستطيع أن يربى نفسه إلا إذا حاسبها آخر كل يوم على ما قدمت من عمل ، وما لفظت من قول ، وما خطر لها من خاطر ... الخ » .

* * *

لطفى فى الوظائف الحكومية :

أتم الفتى دراسته القانونية سنة ١٨٩٤ . وعين كاتبا فى النيابة بالقاهرة بمرتب قدره خمسة جنيهات مصرية ، ثم سكرتيراً للنائب العمومى وهو يومئذ

(حسن باشا عاسم) ثم منتدباً للنيابة ببنى سويف حيث التقى بصديقه عبد العزيز فهمى وكيل النيابة. وهناك وفى تلك المدينة طفق الرجلان يفكران طويلا فى حالة مصر . وانتهى بهما التفكير إلى إنشاء « جمعية سرية » غرضها تحرير البلاد من الاحتلال البريطانى . وكان من أعضاء هذه الجمعية : أحمد طلعت ، وحامد رضوان ، ومحمد بدر الدين ، والدكتور عبد الحليم حلمى . وكلهم من رجال القضاء . ثم انضم اليهم على بهجت (العالم الأثرى) ، ومحمد عبد اللطيف وكان صيدلياً .

أحمد لطفى والحزب الوطنى :

وفى ذات يوم كان لطفى بالقاهرة فلقيه مصطفى كامل وقال له : « إن الخديو عباس يعلم كل شىء عن الجمعية السرية وأغراضها أيضا . وأظن أنه لاتنافى بينها وبين أن تشترك معنا فى تأليف حزب وطنى تحت رياسة الخديو » فوافق لطفى على ذلك ، واستأذن له مصطفى كامل فى مقابلة الخديو ، وتحدثا معاً فى أغراض الحزب الذى يراد تأليفه ، وطلب منه الخديو السفر إلى سويسرا لكى يكتسب الجنسية السويسرية. لأنها لاتكلف الراغب فيها إلا إقامة سنة واحدة ؛ ثم يعود إلى مصر ليحرر جريدة تقاوم الاحتلال البريطانى ، فلا يستطيع الاحتلال أن يحول دون ذلك .

واجتمع لطفى السيد ومصطفى كامل وغيرهما بمنزل محمد فريد . وتم تأليف الحزب الوطنى كجمعية سرية رئيسها الخديو وأعضاؤها مصطفى كامل ولطفى السيد ومحمد فريد وسعيد الشيمى ياور الخديو ، ومحمد عثمان (والد أمين عثمان باشا) ولبيب محرم (شقيق المهندس عثمان محرم) .

قال صاحب الترجمة : ومن طريف ما يذكر عن هذا الحزب أن الخديو كان اسمه بيننا «الشيخ» ومصطفى كامل «أبو الفداء» وأنا «أبو مسلم» .

لطفى فى جنيف :

ثم سافر لطفى إلى سويسرا مزوداً بتوصيات من صديقه على بهجت لبعض



المستشرقين الأثريين فى مدينة جنيف . وجاء اليه فى الفندق بعد خمسة عشر يوما من وصوله إلى جنيف أحد أولئك العلماء واسمه (مسيو نافيل) وجرى بينهما حديث طويل ، قال العالم الأثرى فى نهايته لصاحب الترجمة :

« لا تظن أن أوربا تساعدكم على انجلترة فإنى أرى أنه لا يحرر المصريين غير المصريين » !

وفى صيف عام ١٨٩٧ حضر إلى جنيف كل من الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين. وكان قاسم يومئذ يؤلف كتابه (تحرير المرأة) فقرأ فصولا منه على أصدقائه ، ثم سافر مع سعد إلى باريس. وبقى الشيخ محمد عبده مع صاحبيه. وكانت جامعة جنيف قد أعدت فصلا صيفياً لدراسة الآداب والفلسفة للحائزين على درجة الليسانس . وعلم الشيخ محمد عبده بذلك . فرغب إلى لطفى السيد أن يقدمه إلى مدير المعهد باعتباره قاضيا فى الاستئناف ومديراً للأزهر وتمكن الشيخ بذلك من الاشتراك فى هذه الدراسة . « وصار تلميذاً بعمامته وقفطانه الذى كان يفتن النساء . وذات يوم كنا فى درس من دروس أدب اللغة الفرنسية يقوم على قصة لفكتور هجو . فطلب منا الأستاذ أن نبدى رأينا فيها وفى كاتبها . وأمهلنا فى ذلك أسبوعا . وفى اليوم المحدد قال كل منا — رجال ونساء — ما فتح الله به عليه . وخرجنا فرأيت الشيخ يترقرق الدمع فى عينيه ويقول : « يالطفى عندكم معلمون وليس عندنا معلمون »[1] .

لطفى يعود إلى مصر :

ثم عاد لطفى إلى مصر ووجد الخديو غاضباً عليه لاتصاله بالشيخ محمد عبده . ومع هذا قدم اليه لطفى تقريراً دون فيه أبحاثه السياسية . وتتلخص يومئذ فى أن مصر لايمكن أن تستقل إلا بمجهود أبنائها، وأن المصلحة الوطنية تقضى بأن يرأس الخديو حركة شاملة للتعليم العام الخ .

ورجع لطفى بعد ذلك إلى نيابة الفيوم فنيابة ميت غمر فنيابة المنيا. وفى سنة ١٩٠٥

(١) الفلسفة فى الأزهر — كلمة للمترجم — راجع المنتخبات ج ٢ ص ٥٢

استقال من النيابة لخلاف فى الرأى القانونى بينه وبين النائب العمومى (كوربيت بك) . وكان الأستاذ عبد العزيز فهمى قد استقال أيضا من الأوقاف واشتغل بالمحاماة . فعرض على صاحب الترجمة أن يشتغل معه بها ففعل . ولم يزل مشتغلا بالمحاماة إلى أن تركها واشتغل بالتحرير فى « الجريدة » .

لطفى السيد وحزب الأمة :

بعد ظهور (الجريدة) ببضعة أشهر تألف « حزب الأمة » وكان أسبق الأحزاب المصرية كلها إلى الظهور فى هذه الأمة ، وكان ذلك فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٠٧ . وأعلن الحزب برنامجه السياسى وفى رأسه المطالبة بالاستقلال التام وبالدستور، وأقل درجات هذا الأخير توسيع اختصاص مجلس شورى القوانين ومجالس المديريات تدرجا لإيجاد مجلس نيابى تتمثل فيه سلطة الشعب على الوجه الأكمل .

وقد اختير محمود سليمان باشا رئيساً للحزب ، وحسن عبد الرازق باشا الكبير وعلى شعراوى باشا وكيلين له. واختير صاحب الترجمة سكرتيراً عاما للحزب . وخطب حسن باشا عبد الرازق يومئذ خطبة حسنة فى موضوع الحالة السياسية والاجتماعية . وشرح حاجة مصر إلى الأحزاب ، السياسة وهى حاجة سبق أن قال بها الشيخ محمد عبده ، وبقيت الفكرة تنتقل فى الرؤوس حتى تم تكوين حزب الأمة على النحو المتقدم. وكان بذلك أول حزب ظهر على مسرح السياسة المصرية ـــ كما قلنا ـــ ودخل فيه الأعيان والكبراء أفواجا وبلغ عدد الأعضاء ٧٥٠ عضواً .

ثم قام بعد ذلك صاحب المؤيد فأعلن عن تأليف حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية ثم تلاه مصطفى كامل بإعلانه تأليف الحزب الوطنى . وبذلك تمت عدة الأحزاب فى مصر ثلاثة، كان لكل واحد منها طريقته الخاصة فى الوصول إلى أهداف الوطن العليا .

ويخيل إلى من يتتبع تاريخ حزب الأمة أنه كان يتألف منذ نشأته من

فريقين أو مذهبين : فريق الأغنياء من أصحاب المصالح الحقيقية فى مصر ــ أو بلغة العصر الحاضر ــ من أصحاب الاقطاعيات . وفريق المفكرين والمثقفين من ذوى الرأى والعلم فى البلاد ــ ومن هذا الفريق الأخير الاستاذ احمد لطفى السيد .

أما الفريق الأول فكان يميل إلى الأخذ بأسباب اللين ، ويرى فى المطالبة بالدستور مايضمن اشتراك الحزب فى الحكم من جهة ، ويؤدى إلى الظفر بالاستقلال التام من جهة ثانية . وأما الفريق الثانى فكان لايميل إلى المبالغة فى مسالمة القوم ومن ثم ألح فى طلب الدستور ، ودأب على المطالبة بالاستقلال التام ، وإن كان يؤمن فى الوقت نفسه بفكرة التدرج ، أو الظفر بمطالب الأمة جزءاً جزءاً . ولكن ليس معنى ذلك مطلقا أن أحداً من رجال حزب الأمة ــ مهما كان مذهبه ــ عرف عنه أنه مالأ المحتل ، أو تقرب اليه على حساب الشعب ، أو انخدع بإظهار الانجليز الرضى عن هذا الحزب ، وذلك بسبب ماعنده من الآراء التى تتصف بالاتزان والتعقل . ومن هذه الآراء فكرته عن الجامعة المصرية بدل الجامعة العثمانية ، ثم إيمانه بفكرة التدرج فى تحقيق مطالب الأمة المصرية ونحو ذلك .

أما الخطبة التى خطبها يومئذ بنادى حزب الأمة[1] حسن عبد الرازق باشا نائبا عن محمود سليمان باشا فقد بدأها بقوله :

« إذا كان حل المسألة المصرية أو استقلال مصر أمراً أوروبيا محضا ــ كما قال لورد كرومر ــ فلا شك عندى فى أن جميع الأعمال التحضيرية التى تؤدى حتما إلى الاستقلال هى بين المصريين ، ومن أعمالهم الذاتية التى لا دخل لأوروبا فيها . المصريون هم الذين يقومون بتعليم أنفسهم ، وترقية أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ثم لا يكون من عمل أوروبا بعد إلا الاعتراف لهم بالاستقلال . . . فعمل أوروبا لنا لا يمكن أن ينتظر مطلقا

(١) لسراى البارودى شارع غيط ،عده بجوار باب الخلق

(٢) راجع الخطبة بالجريدة عدد ٣٦٢ بتاريخ ١٧ مايو ١٩٠٨ . وصفحات مطوية ص ٧

قبل أن نفرغ نحن من القيام بواجبنا الوطنى الأقدس ؛ الذى هو استجماع لكل الأسباب المؤدية للاستقلال » .

ثم أفاض الخطيب فى بيان الحالة السياسية ، والرأى العام والجرائد ، والنظامات القائمة ، والحالة الاجتماعية ، والحالة الاقتصادية . وقال إنه ينبغى لنا « أن نسير فى ترقية الحالة الاجتماعية والاقتصادية بنفس الحدة ، وبمقدار الخطى التى نخطوها فى مطالبنا السياسية . ولا ييئسنا ما نشاهده من تصرف الإنكليز — ذلك التصرف المبنى فى ذاته على قاعدة إن الحق للقوة . وإن كان لا يجرؤ أحد من ساسة القرن العشرين أن يعضد هذه النظرية التى ظهر فسادها » .

والخطبة التى ألقيت يومئذ تقع فى خمسين صفحة وتعتبر برنامجا مسهبا للخطة التى وضعها حزب الأمة ، ومن ثم تناولت موضوعات كثيرة ومسائل شتى « منها نظام الإدارة، ونظام القضاء ، وسياسة الوفاق ، وفكرة الحكومة الشخصية ، وعلاقة مصر بالدستور العثمانى ، ومقاومة الحكومة لطلب الدستور ، وأهلية مصر للحكم النيابى ، والحريات العامة والخاصة .

ولخص الخطيب كلامه فى هذه الخطبة فى غرضين هما » :

أولا — إن الحكومة النيابية هى الحكومة الوحيدة اللازمة لترقية الأمة . وأن الأمة تعضد مجلس شورى القوانين فى طلب الدستور .

ثانيا — إن الحكومة بمقاومتها للحركة الدستورية ، وتعديها على الحرية الشخصية تتجاوز حدود القانون ، وحدود رضاء الأمة . ولذلك يجب الاحتجاج عليها . فهل أنتم لطلب الشورى معضدون ، وعلى تصرفات الحكومة محتجون ؟

وعلى هذا النهج سارت « الجريدة » التى ترك تحريرها للطفى السيد . فهدفت هذه الصحيفة إلى الدعوة بجميع الأعمال المؤدية إلى الاستقلال . ودأبت على المطالبة لمصر بحياة دستورية صحيحة . ودارت مقالاتها منذ بدايتها إلى نهايتها حول هذا الهدف .

لطفي السيد وامتياز قناة السويس :

غضب حزب الأمة كما غضبت الأحزاب المصرية الاخرى من الحكومة المصرية لموقفها من قانون المطبوعات ، وموقفها من امتياز قناة السويس . أما قانون المطبوعات فقد بحثته الحكومة المصرية من جديد فى سنة ١٩٠٩ . ومن أجله فكر لطفي السيد فى السفر إلى لندن ومقابلة السير ادوارد جراى وزير الخارجية الانكليزية . ولكن الوزير أحاله إلى وكيل الوزارة — مستر ماليت — فأخذ المذكرة التى كتبها لطفى فى ذلك ووعده خيراً !

وأما مد امتياز قناة السويس فقد كان ذلك فى سنة ١٩٠٩ . وقد أرادت الشركة مده أربعين سنة أخرى وذلك فى مقابل أربعة ملايين من الجنيهات . وكان سير الدون عورست وبطرس غالى يعضدان الفكرة . فتحدث لطفى السيد فى أمرها مع رشدى وسعد زغلول . فأحالاه على بطرس غالى وعلى المستشار المالى ، فبدأ بالأخير ، وطلب منه أن يعرض الأمر على الجمعية العمومية ، فلم يوافقه على طلبه . فتركه وذهب إلى رئيس الوزراء بطرس غالى وفاوضه ، فى الأمر باسم حزب الأمة .

فأجابه الرئيس بقوله :

يا لطفى — أما تنزل من السحاب لتكون معنا على الأرض !

حينئذ لم يجد الرجل بدأ من الالتجاء إلى الصحافة . فكتب مقالات فى الجريدة . وهاج الرأى العام المصرى لهذه المقالات ، واضطرت شركة القناة أن تشترط أخذ الرأى فى الجمعية العمومية . فعرض الموضوع عليها فقررت رفضه رفضاً تاماً .

لطفى وفكرة الجامعة المصرية بدل الجامعة العثمانية

شرحنا فكرة الجامعة المصرية من قبل . ونشير هنا مرة أخرى إلى الظروف التى اقترنت بهذه الفكرة فنقول :

فى عام ١٩١١ نشبت الحرب التركية الإيطالية فى ليبيا ،وأغارت ايطاليا على طرابلس . فرأى لطفى السيد أن الفرصة سانحة لتحقيق ما كان يفكر فيه من أن مصر يجب أن تكون للمصريين ، وأن سيادة تركيا لا تجلب لمصر منفعة ، ولا تدفع عنها مضره .

ثم جاءه خطاب من تاجر بدمياط لا يعرفه وفيه يقول التاجر إن الطليان احتجزوا له سفينة محملة بالأرز فى عرض البحر ، لأنها تحمل العلم التركى الذى هو علم مصر .

فذهب لطفى إلى حسين رشدى — وزير الخارجية يومئذ — وأطلعه على الخطاب ، وطلب اليه التوسط للافراج عن السفينة . ففعل وأفرج عنها

ثم فى عام ١٩١٢ ذهب لطفى مرة أخرى إلى حسين رشدى وطلب اليه أن يبدل بالعلم العثمانى علماً مصرياً يرفعه المصريون على بواخرهم . فقال له بعض الحاضرين : إن هذا العمل سابق لأوانه . ثم رجع لطفى إلى رشدى مرة أخرى يطلب اليه أن تعلن مصر استقلالها عن الدولة العثمانية . وتنصيب الخديو ملكا عليها . وسر الخديو لذلك بمقدار ما غضب له اللورد كتشنر . صرح هذا الأخير بأن انجلتره لا تريد ذلك اعتقاداً منها أن فى هذا العمل مضايقة لتركيا . فذهب لطفى بنفسه إلى كتشنر وحادثه فى الأمر فأجابه كتشنر قائلا :

«لقدبسطنا يدنا لتركيا فبصقت عليها،وولت وجهها شطر المانيا . ولو أنها كانت قبلت مودتنا لتغير الموقف كثيراً . ومع هذا فإنى لا أجد الوقت مناسبا لقبول فكرتك التى تدعو إليها» .

رجع لطفى بعد ذلك إلى رشدى وكان يعلم أنه قابل الخديو، فقال له : إن الخديو يرى أن يؤلف وفداً من عدلى باشا، وسعد باشا، ومنك للسعى لتحقيق هذه الفكرة مباشرة مع الحكومة الانكليزية والرأى العام الانجليزى .

وفى هذه الأثناء كان الأمير عمر طوسون وبعض الكبراء والأعيان

يقومون بجمع تبرعات لمساعدة تركيا فى الحرب بينها وبين ايطاليا . وكانت الصحف المصرية — عدا الجريدة — تشجع هذه الحركة . فانتهز الكاتب هذه الفرصة أيضا ، ولفت الرأى العام المصرى إلى هذا الخطأ ، وجاءت مقالاته كالقذيفة التى طاحت بالفكرة العثمانية كما رأينا .

لطفى والحرب العالمية الكبرى :

وقع مايخشاه العالم بأسره ، وأعلنت الحرب العالمية الكبرى سنة ١٩١٤ . وتبع ذلك اعلان الأحكام العرفية فى مصر من جانب انجلتره . فخف لطفى لمقابلة حسين رشدى رئيس الوزراء يومئذ وقال له :

أتدخل الحرب مجانا ياباشا ؟ إذا كانت انجلترة تريد أن تجرنا معها إلى هذه الحرب فلتعترف أولا باستقلال بلادنا ! !

فأجاب رشدى : من رأيى أنه لم يحن وقت ذلك بعد !

ولم يقنع لطفى بهذه الاجابة ؛ حتى سعى فى تأليف وفد منه ومن رشدى وعدلى . وقابل الجميع (سير ونجت) وعرضوا عليه الأمر . وبعدلأى وعدهم هذا بأنه سيعمل على اثارة المسألة عند الحكومة البريطانية .

ثم ما زال الرجل يعد لطفى واخوانه ، ويمنيهم ، ويعبث بوعوده ومواثيقه حتى يئسوا منه جميعا ، وبلغ هذا اليأس بصاحب الترجمة أن قال : « سأكسر قلمى وأذهب إلى بلدى وأعتزل السياسة » وبالفعل قدم لطفى استقالته من رياسة الجريدة لرئيسها محمود سليمان باشا وسافر إلى قريته (برقين) وكان هذا آخر عهده بالصحافة المصرية .

قال صاحب الترجمة أيضاً :

« وما كادت تمضى على اقامتى فى (برقين) مدة طويلة حتى أعلن عزل الخديو عباس ، وأعلنت الحماية على مصر ونصب الأمير حسين كامل سلطاناً عليها .

وشاع بعد ذلك فى الهيئات السياسية فى مصر أن تركيا حكمت بالاعدام

على السلطان حسين وأعضاء وزارة رشدى باشا باعتبار أنهم قبلوا الحماية ، وحكمت عليّ أنا أيضاً باعتبار أنى قمت بحركة الجامعة المصرية سنة ١٩١١ .

لطفى يعود إلى الوظائف الحكومية:

وفى سنة ١٩١٥ كان لطفى فى القاهرة حين جاءه أبوه من برقين مذعوراً وهو يقول : « إنه قد أشيع عندنا أن سعد زغلول قبض عليه وأنا أخشى أن يكون قد قبض عليك أيضاً » . ثم ذهبا معاً إلى منزل على شعراوى فقال للطفى السيد : «إن السلطان حسين يرغب فى أن تدخل وظائف الحكومة» . فتنفس الوالد الصعداء وحث ولده على قبول الدخول فى الحكومة ، حتى لا يقبض عليه الانجليز . فقبل لطفى ذلك ارضاء لوالده ، وعين رئيساً لنيابة بنى سويف . ثم أوصى السلطان بتعيينه مديراً لدار الكتب المصرية خلفاً للدكتور شاده المدير الألمانى لها قبل ذلك .

وفى دار الكتب كان له متسع من الوقت لأن يترجم مؤلفات أرسطو ولأن يدعو من يثق بهم لترجمة بعض الكتب الأخرى . لأن النهضة العلمية والأدبية يجب أن تقوم فى مبدأ أمرها على الترجمة .

لطفى وثورة سنة ١٩١٩ :

منذ أعلن ويلسون رئيس جمهورية الولايات المتحدة المبادىء الأربعة عشر التى نصت فى جملتها على أن كل أمة مهما صغرت لها الحق فى اختيار مصيرها وتقرير الحكم الذى ترضاه بمحض إرادتها — طفق سعد زغلول ولطفى السيد وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى ومحمد محمود يفكرون فى كيفية الاستفادة من هذه المبادىء .

وفى نوفمبر سنة ١٩١٨ استقال لطفى السيد من دار الكتب ليشترك فى تأليف (الوفد المصرى) الذى تولى قيادة البلاد فى تلك الفترة .

وانتهى الأمر بنفى الزعماء إلى مالطة وهم : سعد زغلول ، ومحمد محمود ، واسماعيل صدقى ، وحمد الباسل . فاندلعت نار الثورة المصرية، واضطربت

أحوال الأمة. حتى لقد ألفت فى مديرية المنيا جمهورية برياسة الطبيب محمود عبد الرازق بك . وقطعت أسلاك البرق والسكة الحديدية .

وكذلك قيل عن تأليف جمهوريات فى بعض مديريات الوجه البحرى وكان لطفى السيد يعنى بكتابة يوميات دقيقة عن الوفد المصرى والثورة . ثم أشيع أن السلطة العسكرية الانجليزية ستفتش بيوت أعضاء الوفد الباقين ، وتقبض عليهم لتقتلهم بالرصاص فى اليوم التالى . وما كاد الخبر يصل إلى سمع الأستاذ لطفى السيد حتى خف إلى منزله بالمطرية ، وأحرق كل أوراقه السياسية التى لم تخل صحيفة منها من ذكر رشدى وعدلى وثروت — أحرقها يومئذ خوفاً على هؤلاء أن يصيبهم ما سيصيبه من الموت رمياً بالرصاص كما توقع .

وبقى لطفى ينتظر تفتيش منزله ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث فى تلك الفترة ، ثم اشترك أعضاء الوفد الباقين فى كتابة تقرير عن الثورة المصرية رفعوه إلى الماريشال اللنبى . وعلى أثر وصول التقرير استدعى الماريشال لطفى وصحبه وناقشهم واقتنع بحجتهم . فصدر الأمر بالافراج عن الزعماء المنفيين . وأبيح لأعضاء الوفد الباقين السفر إلى انجلترة على باخرة عسكرية انجليزية ذهبت بهم إلى مالطة ، واصطحبوا زملاءهم سعداً وصدقى ومحمد محمود وحمد الباسل . حتى إذ ما وصلوا مرسيليا جاءهم البرق بأن مستر ويلسون رئيس الولايات المتحدة قد وافق على الحماية الانجليزية على مصر ! !

« فكانت صدمة قوية من هذا الذى نادى بحرية الشعوب وأعلن مبادئه الحرة التى قوبلت فى العالم أجمع بالغبطة والاعجاب ، وبخاصة عند الشعوب المهضومة . »

ومع ذلك فقد ذهب الوفد إلى باريس وتقدم لمؤتمر السلام .

ولكن المؤتمر أغلق دونه الأبواب !

لطفى والجامعة :

وقع الخلاف بعد ذلك بين سعد زغلول وعدلى يكن على رياسة المفاوضات وانتقل الأمر إلى خصومة كان مظهرها التلاحى بينهما فرأى لطفى يومئذ أن يعتزل السياسة . ثم عرض عليه الرجوع إلى دار الكتب المصرية . فرجع اليها وأخذ يشتغل بها وبالجامعة المصرية القديمة التى كان وكيلا لها كما كان حسين رشدى رئيسها . وفى سنة ١٩٢٢ وضع لطفى منهاجا لهذه الجامعة باعتبارها كلية للآداب ، وقابل الملك فؤاد بشأنها ، وطلب منه أن تعتبر الحكومة شهادتها كشهادة المدارس العليا . فكان جواب الملك فؤاد :

«إن الحكومة عازمة على إنشاء جامعة. فيمكن اعتبار الجامعة القديمة كلية آداب فيها » .

وعلى ذلك دعى مجلس ادارة الجامعة القديمة للانعقاد فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٢٣ لتسليم الجامعة إلى وزارة المعارف . وكتب لطفى بذلك عقداً أمضاه أحمد زكى أبو السعود باشا وزير المعارف فى ذلك الحين ؛ وحسين رشدى رئيس الجامعة . ومنذ ذلك الحين أصبحت الجامعة المصرية القديمة التى أنشئت سنة ١٩٠٨ جامعة حكومية .

قال الأستاذ لطفى السيد :

«وعنيت بأن أذكر فى شروط هذا العقد بأن يكون الدكتور طه حسين أستاذاً فى الجامعة الجديدة » .

وبقى لطفى بدار الكتب المصرية إلى سنة ١٩٢٥ حين صدر مرسوم بتعيينه مديراً للجامعة الجديدة

لطفى السيد ورسالة الجامعة :

منذ ذلك الوقت والجامعة المصرية مصدر اشعاع كبير يشع منه التضامن القومى فى شتى الميادين . ومنذ يومئذ والجامعة المصرية صاحبة الأثر الكبير فى التطور الاجتماعى الذى أصاب المصريين . بل منذ يومئذ وللجامعة المصرية

رسالة ذات أهداف كثيرة : منها تربية الأجيال المتعاقبة تربية تهيء للبلاد قادتها فى جميع المرافق الحيوية .

ومنها تشجيع البحوث الأدبية والعلمية ، ونشر الثقافة الأدبية والعلمية فى جميع الطبقات سواء أكان ذلك بإباحة الانتساب للجامعة بمعاهدها المختلفة من غير قيد ولا شرط ، أم بالقاء المحاضرات العامة فى كل وقت ، أم بنشر الكتب والمؤلفات فى كل مادة .

أما التطور الاجتماعى فتسعى إليه الجامعة بكل ما فى وسعها من ضروب التجديد فى اللغة نثرها وشعرها ، والتجديد فى نظرة الناس إلى الفنون الجميلة ، والبحث فى وجوه ترقيتها وشيوعها . ومنها الموسيقى والغناء لما لها من الأثر الطيب فى الأخلاق .

وفى غفلة من الرجعيين والمحافظين فيها على العرف والتقاليد قبلت الجامعة الجديدة الفتيات المصريات طالبات فيها مع الطلبة . وحرص لطفى ومؤيدوه على ألا تثار هذه المسألة فى الصحف أو الخطب حتى يضعوا الحكومة والرأى العام المصرى أمام الأمر الواقع[1] .

لطفى السيد وزيراً للمعارف العمومية :

أسند الملك فؤاد إلى محمد محمود باشا أمر تأليف الوزارة فى يونيه سنة ١٩٢٨ فدعا لطفى السيد للاشتراك معه فاعتذر له مؤثرا العمل كمدير للجامعة بعيداً عن السياسة ومشاكلها . فألح عليه محمد محمود فقبل أن يكون وزيرا للمعارف العمومية . وهى الوزارة التى تتفق وميوله الشخصية وما يهدف إليه من خدمة الأمة عن طريق العلم والتربية .

(١) هكذا مرت الجامعة المصرية — كما قال ذلك لطفى السيد فى خطبة الاحتفال بوضع الحجر الأساس فى ٧ فبراير سنة ١٩٢٨ بثلاثة أدوار هى : دور الدعاية ، ودور التنفيذ ، ودور التمام . بدأ الأول فى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦ حين استمعت لجنة من صفوة المصريين فى منزل سعد زغلول وتعاهدوا على الدعوة لانشاء الجامعة . وبدأ الدور الثانى بمحاضرات ثقافية عامة كان الأمير فؤاد رئيس الجامعة يشرف عليها يوميا . وبارسال البعوث الى أوربا وقد بلغ عدد المبعوثين أربعة وعشرين . وأما دور التمام فكان بنقل الجامعة القديمة إلى الجامعة الجديدة .

غير أن وزارة محمد محمود لم تلبث أن استقالت فى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٢٩ بعد عودة رئيسها من مفاوضاته بلندن مع مستر هندرسون . فاعتكف لطفى فى بيته بين أوراقه وكتبه .

لطفى يعود لإدارة الجامعة :

وفى أوائل سنة ١٩٣٠ استدعى للعودة مديراً للجامعة المصرية . فارتاح لاستئنافه العمل بها . وحرص لطفى السيد منذ توليه إدارة الجامعة على أن يكون استقلالها محل الاحترام والتقديس .

« ولكن حدث فى مارس سنة ١٩٣٢ أن وزارة المعارف اعتدت على هذا الاستقلال ، فنقلت الدكتور طه حسين من عمادته لكلية الآداب إلى إحدى الوظائف بالديوان دون أخذ رأى الجامعة متجاوزة فى ذلك حدود التقاليد الجامعية ولا أقول القانون » .

فغضب لطفى لهذا الاعتداء وخف لمقابلة رئيس الوزراء — وهو يومئذ اسماعيل صدقى باشا — وشرح له الموقف وقال له : « إن الجامعة لا تستغنى عن طه حسين » .

واقترح عليه تفاديا للضرر واحتراماً لرأى وزير المعارف — حلمى عيسى باشا — أن يعود طه حسين أستاذا بكلية الآداب لاعميدا لها . فوافقه الرئيس على ذلك .

ولكن شاع فى اليوم الثانى أن الوزارة رفضت اقتراح لطفى السيد فكف عن الذهاب إلى الجامعة وحرر استقالته منها . وكان ذلك فى ٩ مارس سنة ١٩٣٢ وبقى لطفى بعيداً عن الجامعة حتى أبريل سنة ١٩٣٥ حين كان نجيب الهلالى وزيرا للمعارف العمومية فى وزارة نسيم باشا الثانية . فطلب من لطفى أن يعود إلى الجامعة فاشترط تعديل القانون الجامعى بحيث ينص على أنه لاينقل أستاذ فيها إلا بعد موافقة مجلس الجامعة .

وظل لطفى السيد مديرا للجامعة حتى أوائل سنة ١٩٣٧ حين اشتد الخصام

بين طلبة الجامعة على المسائل الحزبية ، لأن الأحزاب كانت تتصل بهم اتصالا يضر بالاخاء الجامعي ، وتسقط فيه قيمة الشمائل الجامعية . فطلب لطفى من وزارة الداخلية تعيين (كونستبلات) لحفظ النظام ، لأن البوليس لايجوزله دخول الحرم الجامعي . ولما لم يجب إلى طلبه إستقال للمرة الثانية . وبعد ثلاثة أشهر أى فى ٣١ ديسمبر من تلك السنة تألفت وزارة محمد محمود باشا الكبرى فكان لطفى السيد وزير دولة . ثم أجريت الانتخابات وكلف محمد محمود باشا تأليف الوزارة للمرة الثانية فكان لطفى كذلك وزير دولة ثم وزيرا للداخلية . ثم ترك الوزارة ليفسح الطريق للسعديين وكان يرى أن المصلحة السياسية يومئذ تقضى باشتراكهم فى الوزارة .

وبعد ذلك بقليل اتصل به الدكتور حسين هيكل وزير المعارف وطلب إليه الرجوع إلى الجامعة فاعتذر ثم ألح عليه مراراً فقبل بشرط واحد فقط هو أن يبتعد رجال الحكومة عن الاتصال بالطلبة فى الجامعة لأن اتصالهم بهم كان يفضى دائما إلى فقدان الإخاء الجامعي بينهم . وبقى فى الجامعة إلى سنة ١٩٤١ حين عرض عليه حسين سرى رئيس الوزارة أن يكون عضوا فى مجلس الشيوخ فقبل ذلك ليستمتع بالراحة بعض الشيء من أعباء الجامعة بعد أن خدمها فى عهدها القديم والجديد زمناً طويلا .

لطفى ومجمع اللغة العربية

نعود بالقارىء إلى سنة ١٩١٦ حين اجتمع لطفى السيد وعدلى يكن وحسين رشدى ويعقوب صروف واسماعيل عاصم المحامى وتحدثوا فى ضرورة إيجاد مجمع للغة العربية لا يكون تابعاً لوزارة المعارف العمومية . ويكون مقره مؤقتاً بدار الكتب المصرية . ثم اجتمع لطفى مرة أخرى بحفنى ناصف وعاطف بركات واشترك الثلاثة فى وضع قانون المجمع وتركوا رياسته للشيخ محمد أبى الفضل الجيزاوى شيخ الأزهر . واقترحوا من أعضائه : الشيخ عبدالرحمن قراعة والشيخ محمد بخيت والشيخ السكندرى وحفنى ناصف وحلمى عيسى (باشا) .

ومن ألطف ما يذكره لطفى السيد عن هذا المجمع أنهم مكثوا سنة كاملة يتناقشون فى جواز التعريب . ثم انطوى هذا المجمع الأول ولم يعمر طويلا — إلى أن بعث من جديد . . . . ولم يزل لطفى مديراً لهذه المؤسسة العلمية الكبيرة إلى اليوم .

الرجال الذين عرفهم لطفى :

رزق لطفى حاسة تمتاز بالدقة فى تقدير الصداقة أو الأصدقاء . وكان له بصر بنفوسهم وطباعهم ، وبمقدار ماينفعون الأمة بمواهبهم وآرائهم وتجاربهم فى الحياة .

أضف إلى ذلك أن الرجل كان رئيساً لتحرير «الجريدة» . وسنرى أنها كانت الصحيفة المصرية الأولى فى فترة من فترات التاريخ المصرى الحديث ، هى الفترة التى وقعت بعدها الحرب العظمى سنة ١٩١٤ . ولرئيس التحرير فى الأمم الراقية مكانة ممتازة بين سادة هذه الأمم وكبرائها وساستها . وآية ذلك أنك لا تعرف فى انجلترة إلا ثلاثة رجال ، وهم رئيس الوزراء ، ورئيس البنك الأهلى ، ورئيس تحرير التيمس .

ولطفى السيد من أولئك الرجال الذين كانوا يدركوا هذا المعنى ادراكا عميقاً ، وكان يزن الرجال من أمثاله وزناً دقيقاً كما رأينا .

عرف لطفى كثيرين منهم السيد جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده ، ومصطفى كامل، ومحمد فريد ، وحسن عاصم، وقاسم أمين ، وفتحى زغلول وسعد زغلول ، ورشدى ، وعدلى، وثروت ، ومحمد محمود ، وعبد العزيز فهمى وغيرهم.

ولكن حين جلس إلى نفسه منذ أعوام قليلة عاودته ذكرى تلك الصداقات القديمة نخص خمسة رجال بالكتابة عنهم فى المذكرات وهم حسن عاصم ، ومصطفى كامل ، وقاسم أمين ، وفتحى زغلول ، وعبد العزيز فهمى .

قال فى حسن عاصم :

عرفته رئيسا (يوم كان يشغل وظيفة أفوكاتو عمومى) وعرفته صديقا

ثم عرفته مستشارا ثم سر تشريفاتى الخديو عباس حلمى الثانى . ثم رئيسا للديوان الخديوى . فما وجدت رجلا أظهر ثباتا على المبادىء ، وأقوى تمسكا بنهج الاستقامة من هـذا الرجل . فمن عرفه عرف خلقا صريحا لا يتلون ، وسيراً قويما لا يعوج ، ومبادىء راسخة لا تتغير . حتى لقد كان يرميه بعضهم بالتطرف وشدة التمسك بالحق ، ويعدون ذلك عليه جفاء فى الأخلاق ، وما به جفاء . ولـكن الطاعة للمبدأ كالطاعة لقائد الجيش فى ميدان القتال .

ومما يدل على ما كان له من علو فى النفس ، وقوة فى الخلق أنه كان فى فترة ما بين الفصل من عمله وعدم الفصـل فوضع مشروعا يقضى بنقل نحو خمسة وثلاثين كاتبـا باليومية من محكمة الاستئناف التى غصت بالـكتبة إلى المحاكم الابتدائية التى كانت فى أشد الحاجة إلى الموظفين فدخل عليه باشكاتب المحكمة بخطاب نقل هذا الجم الفقير من الموظفين وقال : مالك ولهذا العمل والأمر بفصلك تحت الختم ؟ فأجاب : إنى لا أشتغل إلا للأمة . وما دمت فى وظيفتى ولم يصدر أمر فصلى فلا مندوحة لى عن القيام بواجبى[1] » .

وقال عن (مصطفى كامل) :

كان شعاره الوطنية ، ووسيلته الوطنية ، وكتابته الوطنية ، وحيـــاته الوطنية ، حتى لبسها ولبسته فصار بينهما التلازم الذهنى والعرفى فاذا ذكرت مصطفى كامل بخير فإنما تطرى الوطنية . وإذا قلت الوطنية فإن أول ما يتمثل فى خيالك شخص مصطفى كامل . كأنما هو الوطنية والوطنية هو .

ولقد تمثل ذلك يوم وفاته فى هـذه المظاهرة التى لم نعرف لهـا فى ذلك الزمان مثيلا . فقد اشترك جميع أفراد الأمة فى أمر واحد ، على رأى واحد ، بصورة واحدة مع اختلافهم فيما عداه . فدل هذا على أن الشعور الذى قادهم لبس مذهبا سياسياً بل هو أعلى من ذلك هو التضامن القومى والجامعة الوطنيه .

---

(١) المصور فى ٢٩ سبتمبر ١٩٥٠

وكتب عن (قاسم أمين) :

فسرد تاريخ حياته ثم قال : « من يلم بهذا التاريخ المختصر لحياة قاسم يجده تاريخا عاديا غير مملوء بالعواصف التى تلازم عادة حياة كبار الرجال ، فيستفيدون منها قوة وشجاعة ، ويتعلمون من تجاربها ما يجعلهم يفوقون غيرهم فى سلامة الحكم على الحوادث . وعلى الرغم من ذلك فان نفسه كانت مستعدة لأن تتعلم من الملاحظة الذاتية والتجارب . فان قاسما قال :

« أقل مراتب العلم ما تعلمه الانسان من الكتب والأساتذة ، وأعظمها ما تعلمه من تجاربه الشخصية فى الأشياء والناس . . .

ولقد بحث قاسم فى المسائل الاجتماعية على العموم ، فكان رأيه فيها أنها خاضعة دائماً لقوانين الطبيعة ، قوانين التحليل والتركيب ، والنمو التدريجى والانتقال ، وبحث فى المسألة الاجتماعية فى مصر على الخصوص ، فوجد أن حلها متوقف على نظام العائلة المصرية .

ووجد أن المرأة هى الأساس الأول لبناء العائلة . فأخذ يفكر كيف يرقى المرأة المصرية وأطال فى ذلك التفكير » الخ .

وقال عن (فتحى زغلول) :

أرى من الوفاء لمبادىء الحرية وخادميها أن أذكر فى هذه الصفحات صديقاً عظيماً عمل على نشر هذه المبادىء ؛ هو المرحوم محمد فتحى زغلول باشا . فقد نظر نظرة صادقة إلى حال الأمة المصرية وحكومتها ، فرأى أنها أحوج ماتكون إلى معرفة المثل الأعلى الذى تبغى الوصول إليه من نظمها السياسية والاجتماعية ، حتى تتحد أطماعها الوطنية على طريقة عامة واضحة . ورأى فوق ذلك أن أول خطوة يخطوها المصلحون العلماء هى نقل العلم إلى أوطانهم بالترجمة . إن هذه الطريقة هى ألف باء النهضة العلمية فى كل أمة وفى كل زمان.

وفى سنة ١٨٨٨ أخذ يترجم كتاب (العقد الاجتماعى) لجان جاك روسو فلم يتمه . ولكنه ترجم بعد ذلك (أصول الشرائع) لبنتام و (خواطر

وسوانح فى الإسلام) للكونت هنرى دى كاتزى ، و (سر تقدم الإنجليز السكسون) لريمون ديمولان . و (روح الاجتماع) و (سر تطور الأمم) لجوستاف لوبون . وقد نشرت هذه الكتب كلها . وله فوق ذلك كتاب (بورجار) فى الاقتصاد السياسى ، و (تمدن العرب) لجوستاف لوبون أيضاً و (جمهورية أفلاطون) ، و (الفرد ضد المملكة) لسبنسر . وهذه الكتب الأربعة لم تطبع . . ومترجمات فتحى زغلول تقرأ فيها المعانى والأغراض كأنك تقرأ مؤلفها من غير فرق ، وكان غرضه منها نشر مبادىء الحرية ، حرية الفرد ، وحرية الأمة، وتنبيه أطماع الأفراد والأمة جميعاً إلى اتخاذ مثل أعلى ليكون قبلة لهم فى آمالهم الوطنية . .

وأن توفيق فتحى زغلول فى اختيار مترجماته يدل على أنه كان يعتنق مذهب الديمقراطيين ، سواء كان ذلك فى التربية والتعليم ، أم فى الأصول الاجتماعية والسياسية بل الاقتصادية أيضاً . لأنه لو كان اشتراكياً فى الاقتصاد لما عمد إلى ترجمة بورجار فى الاقتصاد السياسى؛ بل يكون قد عمد إلى ترجمة أحد الاقتصاديين الاشتراكيين مثل (جيد)[1]

(اختيار الرجل وافد من عقله) إذا صدق ذلك على ترجمات فتحى زغلول فإنه يصدق أيضاً على كتابات لطفى السيد . فقد اختار أن يكتب عن حسن عاصم لقوته فى الحق ، وقاسم أمين لميله إلى التجديد ، ولأنه رسم الطرق المؤدية إلى تطور الأمة ، ومصطفى كامل لأنه نبى الوطنية ، وفتحى زغلول لأنه كان رجل تقدم تطورى لا رجل ثورة . وكل هؤلاء الرجال ليسوا من أرباب المناصب ولكنهم من أصحاب المذاهب . وكاتبنا الفيلسوف إنما يقدر هذا الصنف الممتاز وحده من الرجال ممن يرون أن حياة الفرد إنما تقدر بما يتم فيها من عمل صالح .

---

(١) المصور فى ٣ نوفبر ١٩٥٠

وأما (عبد العزيز فهمى)[1] وكان من ألصق الناس به فكتب عنه فى الجريدة يقول:

« قد يجد المرء ذو الطعم على نفسه غضاضة أن يعلن عن صديقه فضائله الشخصيته أو محامده العامة . لأن هذا يمسه عن قريب ، وينعكس لمعابة عليه على كل حال . فاوشك بالكاتب عن ذاته أو صديقه أن يبتسم له القارىء فيقول : مادح نفسه يقرئك السلام !.

غير أن للواجب مازق تلجىء إليها ضرورة القيام به . وعلى الصحفى ألا يدع صغيرة ولا كبيرة من الحوادث النافعة فى التنبيه على خلق كريم أو الدلالة على مشاعر عاليات ، لتتم للناس القدوة الحسنة ، وليكون آية للأعقاب يهتدون بها ، وتسكن أنفسهم إلى إيثار المنافع العامة على المنافع الشخصية — عليها جميعاً حتى على الصحة التى هى أنفس متاع فى الحياة . بهذه المثابة يجب علينا الحرص فى مسألة الأستاذ عبد العزيز — تلك المسألة التى اشتغل بها الرأى العام منذ أسبوع .. اللهم لك الحمد والمنة على أن جعلتنا نسمع بآذاننا ، ونرى بأعيننا أن يقف الرأى العام لعبد العزيز موقف الذى يعتقد أن هذا الرجل الحر ليس له التصرف فى نفسه وملكاته ، بل هى وقف على خدمة الأمة فيما تشاء الأمة . غبطة تسيل لها الدموع الباردة فرحاً بأن زمن الهدم قد تولى — لارده الله — وقد جاء بدله زمن بناء الرجال إلخ .

ثم شرح الكاتب الظرف الذى حمله على كتابة هذا المقال ، ويتلخص فى أن الحكومة طلبت إليه أن يقبل القضاء فى محكمة الاستئناف ، ويترك الجمعية التشريعية .. فثار لذلك الرأى العام . « حتى قال لى يوماً كبير الحربين : تلك جناية على الجمعية تبوء أنت بشطر من المسؤولية عليها . وإذا كان هذا هو رأى سعد زغلول ، فما عسى أن يكون رأى الباقين ؟ وماذا عساك تسأل عما ورد علينا من الاحتجاجات من قبل الشبيبة المتعلمة فى القاهرة ، ومن أعماق القرى والكفور ؟ . »

---

(١) الجريدة فى ١٥ إبريل ١٩١٤

إن عبد العزيز بتواضعه المشهور لعله لم يقدر ضرورة بقائه فى الجمعية بالقياس الذى قدره به جميع أعضائها والرأى العام . إنه رجل قانون طلب إليه خدمة القانون بمحكمة الاستئناف ، فكان حاله كالجندى طلب منه أن يحمل سلاحه محل جندى آخر فى ميدان الجهاد . . شغل بشغل، وخدمة للحق هنا وهناك . خدمة للأمة فى الحالين . فما يكون من التفضيل فى نظره إلا اعتبارات شخصية . وليس لديه من طمع إلا العفاف بالكفاف . فلا مفضل إلا مايتفق مع مزاجه ويتمشى مع حال صحته . ولقد علم أصحابه أن طبيبه نصحه غير مرة بعدم استمراره فى الجمعية التشريعية . . قالها وقوله حجة فكان ذلك هو المرجح عند الأستاذ عبد العزيز واخصائه . فلما رأى أن الأمة التى أنابته تحرص على نيابته ، وأصحابه فى المجلس يحرصون على الاحتفاظ به بينهم قال : وصحتى أيضاً فداء .

* * *

أخلاق لطفى السيد :

تلك حياة رجل من رجالات مصر أنعم الله به عليها . فكان عقلها المفكر ، ورأسها المدبر ، ومثلها الأعلى فى سعة الأفق ومتانة الخلق . كان أبوه من باشوات الريف ، فنشأ فى بيت نعمة وثروة ، بعيداً فى أول أمره عن زحمة الحياة إذ عاش فى قرية لا يزيد عدد سكانها فى طفولته عن المائة . فلم يكن عجيبا أن ينشأ الفتى رضىّ النفس ، سليم القلب ، رقيق الجانب ، وديعا ، ظريفا ، مؤثرا للمسالمة والمحاسنة ، يألف الناس ، ويألفه الناس ، يرى (الفتوة) الحقيقية هى فتوة الفعل ، والكمال الحقيقى هو كمال الروح . ولعل أهم ما يميز الفتى منذ نشأته صفات ثلاث : صراحة صادرة عن شعور بالكرامة ، وتقدير دقيق للأصدقاء والصداقة ، وسمو حقيقى فى الإدراك والعواطف .

أما الصراحة فلازمة له ملازمة تامة فى جميع مراحل حياته إلى أن إشتغل بالصحافة . ومن ثم كان الفرق بعيدا بينه وبين رجل كالشيخ على يوسف ،

كان لمكره ودهائه معروفاً بين رصفائه وزملائه باسم (ثعبان الصحافة) . غير أن الفرق بين لطفى السيد ومصطفى كامل جاء من خلاف آخر . فقد كان مصطفى كامل ثائراً ، يحمل نفسه وصدره ودمه وأعصابه ما لا تطيق . بينما كان لطفى مسالما مؤثرا للموادعة واللين ، وللرفق فى معالجة الأمور .

وأما تقدير لطفى للأصدقاء والصداقة فقد بلغ من ذلك حظاً يعز على الكثيرين حيث يقول :

« صديقى الذى أذكره كلما لمعت أمام عينى لامعة من السعادة . أذكره كلما طابت نفسى ، ورضيت بمركزها الخاص والعام فى الحياة ، أذكره كلما نعمت بشىء من نعيم الحياة . أذكره عند الضائقة النفسية . أذكره عند الشدة الخاصة والعامة . أذكره عند الرجاء وعند اليأس . أذكره عفوا لا عن طريق التفكير ، بل كأنه لازم من لوازم النفس ، وأعتقد أنه كذلك ... الخ[1] .

وأما سعة عقله ، وسمو عاطفته ففيما ترك لنا من آثار أكبر دليل عليهما.

غير أنه كلما اتسعت ثقافة الرجل اتسع أفقه ، وضعفت مع ذلك إرادته نوعاًما . ومن هنا كان الفرق عظيما بين الفيلسوف والقائد العسكرى . أما القائد فاذا عرضت له مشكلة من المشاكل لم يجد أمامه إلا حلا واحدا . وأما الفيلسوف فإن عقله يهديه إلى حلول كثيرة فى وقت واحد ، يحار بينها ، ويفقد جزءا عظيما من عزيمته بسببها . ومن أجل ذلك ما برح الناس يفكرون دائما فى هذه المشكلة ، وهى هل يصلح المجتمع إذا ولى الفلاسفة أمره ؛ أى إذا أصبحوا حكاما حقيقيين للشعب ؟

وصاحب الترجمة قد عاشر كثيرا من زعماء هذه الأمة ، وكان عنصراً هاما من عناصر الأحداث السياسية الهامة ، وكان خليقا بأن يكون القائد الأول للثورة المصرية الكبرى فى سنة ١٩١٩ . ولكن قائد تلك الثورة ؛ وهو صديقه (سعد زغلول) كان أكثر منه صلاحية : وكل ميسر لما خلق له ،

---

(١) الجريدة فى ٢٥ أكتوبر ١٩١٠

وسبحان من قسم المواهب بين عباده ، وخالف بينهم فى الطباع الانسانية فرجل كلف بالكفاح ؛ يرى فى الصلابة والاصرار طريقا إلى النجاح ،وآخر يرى فى الملاينة والمصابرة وسيلة من وسائل الظفر بأمانى البلاد .

على أن لطفى إن فاته ن يكون الزعيم الأول للثورة المصرية ، فلم يزل إلى يومنا هذا الزعيم الروحى الأول لهذه الأمة . جاهد جهاده من أجلها غير ناظر لنوازع الشهرة الكاذبة ، ولا لبريق المناصب العالية .

وحين اختلف الاحزاب من حوله أبت عليه نفسه الطاهرة ، وأخلاقه الشريفة أن يغمس يده فى آثام الحزبية ، أو يناله شىء من مساوئها المتعددة . فآثر اعتزال السياسة — كما رأينا — لا ليضن على قومه ووطنه بقلبه وعقله وقلمه . ولكن ليقدم لهذا الوطن خدمات من نوع آخر .

الحق أن الدين الذى له فى عنق مصر لا يقل فى نظرنا عن الدين الذى لأمثاله من زعماء مصر ممن اشرنا إليهم فى كتبنا ، او اشاد بهم غيرنا . فالله يحفظه ويمد فى أجله السعيد .

لقد أطلت فى الحديث عن حياة لطفى السيد ، لأن حياته فى الواقع حياة مصر فى تلك الفتره ، ولأنى استغنيت بهذا الحديث عن الكتابة فى الحالة السياسية أو الحالة الفكرية أو الحالة الاجتماعية وحركة الأحزاب المصرية . ولولا ذلك لوجدت من واجبى أن أخص كلا من هذه الجوانب الأربعة بفصل من فصول هذا الكتاب .

الفصل الثاني

لطفي السيد والجريدة

اختلفت الحكومتان التركية والمصرية حول مشكلة « العقبة » كل تدعيها لنفسها وترى أنها أحق بها من الأخرى. ووقف الثعلب البريطاني بينهما للصيد في الماء العكر، فانتصر لمصر ضد تركيا. ولكن الصحف الوطنية المصرية تنبهت لهذه الخدعة السياسية، ونصرت الأتراك على الانجليز في هذه المشكلة، كما فعلت من بعد في مشكلة (فاشودة) التي انحاز فيها المصريون لفرنسا ضد انجلترة. وهذا معنى لا يمكن تفسيره إلا بأن البلاد ثقل عليها الاحتلال، فأصبحت تبغضه وتبغض معه كل ما يأتي به، ولو كان فيه الخير لمصر.

وشاع خبر العقبة في جميع الأوساط المصرية، وأصبح حديث الخاصة والعامة. وأنشأ المفكرون في الأمة يفكرون كعادتهم في الحالة السياسية. أما لطفي السيد فبعد أن تحدث طويلا مع أصدقائه في هذه المسألة خرج بنتيجة واحدة؛ هي أنه لا بد لهم من « إنشاء جريدة مصرية تنطق بلسان مصر مصر وحدها دون أن يكون لها ميل خاص إلى تركيا أو إلى إحدى السلطتين الشرعية والفعلية في البلاد ». وقد رأى أن تكون هذه الجريدة ملكا لشركة من أعيان البلاد أصحاب المصالح الحقيقية فيها؛ وهم الذين وصفهم اللورد كرومر وغيره من الانجليز بأنهم راضون عن الاحتلال، ساكتون عن حقوق مصر. وأن الحركة المعارضة للاحتلال إنما يقوم بها من ليس لهم مصالح حقيقية في البلاد كالشبان الأفندية والباشوات الأتراك ونحوهم.

يقول لطفي السيد:

« لهذا الغرض دعوت في الكونتنتال أصدقاءنا محمد محمود، وعمر سلطان،

وأحمد حجازى ، ومحمود عبدالغفار . وتحادثنا فى الأمر ، ولاحظنا فى حديثنا وأبحاثنا أن الأمل الذى كان المصريون يعقدونه على فرنسا فى المساعدة على زوال الاحتلال قد تبدد وانتهى أمره بالاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترة فى أبريل سنة ١٩٠٤ . وأنه لا يمكن الاعتماد على أية دولة أخرى فى المسألة المصرية » .

وفى منزل محمد محمود باشا اجتمع أولئك الأصدقاء مرة أخرى وألّفوا بينهم شركة تسمى شركة (الجريدة) ، وانتخبوا لطفى السيد مديراً ورئيساً لتحريرها ، وذلك لمدة عشر سنوات ، براتب شهرى قدره خمسون جنيها مصريا . وكان لنبأ هذا الراتب الشهرى دهشة كبيرة فى المجتمع المصرى الذى بدا ينظر باحترام كبير إلى مهنة الصحفى ؛ بعد أن كان لا ينظر إليها هذه النظرة !

يقول الأستاذ لطفى فى مذكراته :

« وعلى أثر تأليف هذه الشركة أخذت الجرائد المتصلة بالخديو تتهمنا بأننا متصلون بالانجليز ، وأننا نمالئهم ضد الخديو . وقد كان لهم عذر فى هذا الاتهام ؛ لأنه كان بين شركائنا فى الجريدة — عدا الأعيان — طائفة من كبار الموظفين المصريين فى الوقت الذى سيطر فيه الانجليز على الحكومة . ومن هؤلاء أحمد فتحى زغلول (باشا) رئيس محكمة مصر ، وأحمد عفيفى (باشا) المستشار بالاستئناف ، وعبد الخالق ثروت (باشا) عضو لجنة المراقبة وصاحب الأثر الكبير فى وزارة العدل إلخ » .

نعم — كانت الحاجة ماسة إلى ظهور الجريدة كما قلنا . وكان من رأى الصفوة المهذبة فى الأمة — وفيهم الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٩٠٥ — أنه مادامت هناك صحف تنصر الخديو كصحيفة المؤيد ، وأخرى تنصر المعتمد البريطانى كصحيفة المقطم ، فلا بد من ظهور صحيفة تحاسب الجهتين معا وتنصر الأمه . وإذ ذاك دعت الضرورة إلى تأليف (حزب الأمة) من جهة ، وإلى إصدار (الجريدة) من جهة ثانية . ثم سرعان ما حيكت المؤامرات التى

أشرنا إليها ، واندس الواشون إلى الخديو بتلك التهمة ، وبقى الخديو مصدقا لها حتى بعث مرة إلى لطفى السيد يدعوه لزيارته فى قصره . فاعتذر لطفى على ذلك بقوله :

« إننى لا أرى من حق الكاتب أن يزور السلطان فى بيته ! » .

فما كان من الخديو إلا أن زار والد الأستاذ لطفى فى قريته (برقين) . ثم أمر بعد ذلك أن يشخص إليه الكاتب فى (عابدين) وخصص موعدا لذلك هو فى العاشرة صباحا من كل يوم جمعة . ومع هذا وذاك فما غير الكاتب من سياسة (الجريدة) ، ولا بدل من خطتها .

* * *

وصدر العدد الأول من (الجريدة) فى ٩ مارس سنة ١٩٠٧ — أعنى فى اليوم التاسع من خروج اللورد كرومر من الديار المصرية — وبه مقال افتتاحى هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الجريدة

ما الجريدة إلا صحيفة مصرية شعارها الاعتدال الصريح . ومراميها إرشاد الأمة المصرية إلى أسباب الرقى الصحيح ، والحض على الأخذ بها وإخلاص النصح للحكومة والأمة . بتبيين ما هو خير وأولى . تنقد أعمال الفرد وأعمال الحكومة بحرية تامة ، أساسها حسن الظن من غير تعرض للموظفين والأفراد فى أشخاصهم أو أعمالهم التى لا مساس لها بجسم الكل الذى لا ينقسم ؛ وهو الأمة .

ولقد اختلف القوم فى أمر الجريدة منذ وضع مشروعها . وقدر بعضهم لها مذهبا ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم

لكان خيراً لهم ، وأجدر بحفظ الكرامة لكبراء رجال وطنهم ، وأدنى إلى عدم الفت فى أعضاد الجامعة الوطنية . ولكنهم لايصبرون .

ولو وقف الأمر عند غير العالمين لهان . ولكن بعض الكتاب أبى إلا أن يتنقص الجريدة قبل ظهورها ، فخلق لها نسبا لا تعرفه . إذ يقول إنها متحيزة إلى طرف دون آخر . على أنها من كل ذلك براء .

ومهما يكن من الأمر فإنا نمر بتلك المغامز مرا ؛ إذ لانقصد درء شبهة ، ولا أن نقف بأحد موقفاً أظهَرُنا فيه على صاحبه أخسَرُنا لوقته . وكل فى حل بما قال :

هنيئا مريئا غير داء مخامر (١)

« لا يكون أهل الوطن الواحد أمة إلا إذا ضاقت دائرة الفروق بين أفرادها ، واتسعت دائرة المشابهات بينهم . وإن أظهر المشابهات فى حال الأمة السياسى هو التشابه فى الرأى بين الأفراد . وهذا ما يسمونه بالرأى العام .

وعلى هذا تكون الصحافة هى الآلة الكبرى للارشاد والرقابة تتبعها فى فى طورهما الاجتماعى ، وتترقى برقى الأمة حتى تنتقل — كغالب الأعمال العامة — من يد الفرد الذى قد يعرض له الميل أو الوهن إلى أيدى الجماعات . لأن الجمع المتضامنين أحكم من الفرد أمراً ، وأثبت رأياً ، وآمن هوى ، وأعسر على عواصف الحوادث متقلبا .

« وأن أولى الجماعات بواجبات الخدمة القومية ، ومراقبة الأحوال العامة ، وأقدرها على العمل لتكوين الرأى العام جماعة أولى الرأى . وهم الذين نبهوا ذكرا بعلو النسب أو بالعلم أو الفضل . كل أولئك إذا انصرفوا عن الاشتغال بحاجات الأمة من نشر التعليم العام والعمل لترقية الصناعة والزراعة والتجارة

---

(١) تكملة البيت (لعزة من أعراضنا ما استحلت)

والأخذ بنصيب من الرقابة العامة وقفت الأمة عن التدرج فى مراقى المدنية الصحيحة ؛ خصوصا فى حالها النظامى ، وصار الأمر فيها مفوضاً إلى رغائب الحكام يميلون بها إلى حيث يشاءون .

« وما كان أعضاء شركة « الجريدة » المصرية لينشئوهـا إلا لتحقيق هذه المبادىء الراسخة . ولأنهم كثيرو العلاقات بالحكومة بسبب مراكزهم واشتراكهم معها فى كثير من الأعمال العامة ، ولأن أمثالهم لا يجتمعون لعمل ذى أثر سياسى إلا أحاطت بهم الشكوك رأوا أن يكاشفوا الحكومة فى أمر المشروع دفعاً لتلك الشكوك المحتملة ، وأخذاً بأقوم الطرق إلى نيل ما عساهم يطلبونه من تقويم معوج أو إصلاح خطأ . لأن الحكومة قد تجيب الطلب بما يهون عليها إذا اقتنعت بأنها لمصلحة الأمة .

«وإن أسهل سبل الاقناع وأكثرها للوصول إلى الغرض هو سبيل المحاسنة التى لا تجر إلى ترك حق ، أو تزيين باطل . وهى أجلى مظاهر الاعتدال الذى يجب أن يكون دعامة العلاقات بين أمة وبين حكومة ؛ كلتاهما فى طور التكون لئلا يقع بينهما من الجفاء ما يحجب الحكومة عن الوقوف على موطن المصلحة وآمال الأمة ، ويحجب الأمة عن الاطلاع على مقاصد الحكومة ، فتعطل بذلك أسباب الرقى التى يتوقف حلها على اشتراك الطرفين .

أما خطة الجريدة فإنها مرسومة بأدق مما ذكرنا بياناً فى المادة الثالثة من قانون الشركة ونصها :ـــ

« الجريدة مصرية بحته . غرضها الدفاع عن الصوالح المصرية على اختلاف أنواعها وارشاد الأمة بأسرها إلى منافعها الحيوية الصحيحة ، ونشر ما فيه فائدة مادية أو أدبية ، ونقد كل عمل له مساس من أى جهة كانت بتلك المنافع والصوالح ، سواء كان ذلك العمل عاماً أو خاصاً ، مهما كان مصدره ، ومهما كانت صفة القائم أو الآمر به ، وبيان صالح ذلك العمل من فاسده ، وقول

الحق فى الحالتين ، حتى يتكون بهذا رأى عام على أساس متين من صدق النظر وحسن التفكير : يقول قوله بلسانها ، ولا تنطق هى إلاّ عنه . فيتأيد حينئذ جانب المنفعة للأمة كلها ، ويصل هذا الصوت الصادر من نظر مجرد عن كل غرض إلى الهيئة الحاكمة ، فيحل محل الثقة فيها ، وتتضافر الهيئتان على خدمة تلك الصوالح والمنافع ، لا فرق فى ذلك بين الأديان ، ولا تمييز بين الأجناس . هذا مع نبذ الشخصيات ، وعدم الخوض فى المنازعات الدينية المحضة ، وألا تستأجر فى غرض ، وألا تستخدم لأحد ، مع التزام الاعتدال فى جميع الأحوال » .

وليحيط القراء علماً بجميع ما يتعلق بمشروع الجريدة ، ولكى لا نضطر إلى العودة إليه ننشر لهم أسماء أعضاء الجريدة المصرية وهم :
(ثم ذكر الأسماء وعددهم مائة[1]) .

والله المسئول أن يثبت أقدامنا فى طريق الحق ، وأن يلهمنا الصواب فيما نحاول من الخدمة العامة . إنه الهادى المعين ».

احمد لطفى السيد

يقول لطفى السيد فى مذكراته :

« وكان من عادتى أن أكتب افتتاحيات الجريدة ولم يمض على صدورها غير أيام حتى انتهت مهمة اللورد كرومر فى مصر . وخطب خطبته المشهورة فى دار الأوبرا ، وعلقت الجريدة عليها تعليقاً لا يقل عنفاً عن الجرائد المتصلة بالخديو عباس ، وسارت فى طريقها وعلى مبادئها ؛ تنقد أعمال السلطة

(١) منهم على سبيل المثال :
ابراهيم بك رمزى — واحمد فتحى بك زغلول — والسيد محمد خشبه بك — وحسن بك صبرى — وحمد بك الباسل — وراغب بك عطية — وسليمان بك أباظه — وعبد الخالق بك ثروت — وعبدالعزيز بك فهمى — وعلى شعراوى باشا — وعمر بك سلطان — والحفنى بك الطرزى — وعلوى بك الجزار — ومحمد محب باشا — ومحمود بك عبد الغفار — ومصطفى بك رشيد — مصطفى بك كامل الغمراوى .

الفعلية التى كانت للانجليز ، كما تنقد أعمال السلطة الشرعية — سلطة سمو الخديو » .

وإذ ذاك فقط آمن الناس أن « الجريدة » ظهرت لتسد حاجة البلاد الماسة إلى هذه الغاية الشريفة . وأحست الأمة المصرية احساساً عميقاً بأنه لا معنى فى الحقيقة لأن يكون للسلطة الشرعية صحفها التى من أولها (المؤيد)، وأن تكون للسلطة الفعلية صحفها التى من أخطرها (المقطم) ثم لا يكون للشعب المصرى الواقع بينهما صحيفة تنطق باسمه وتدافع عنه ، وتضع فى الوقت نفسه حداً للتلاعب من جانب إحدى هاتين السلطتين ضد الأخرى .

أسرة الجريدة

أما أسرة الجريدة فكانت تتألف من كتاب ومترجمين نذكر منهم الأساتذة :

يوسف البستانى ، ونجيب شاهين (وهما للترجمة البرقيات الأجنبية وكتابة المقالات السياسية) ، وعبد الحميد الزهراوى ، ورشيد رضا ، وعبد القادر حمزة ، ومحمد السباعى ، وعبد الحميد حمدى ، وابراهيم رمزى ، وأحمد زكى ، وعبد الرحمن شكرى ، وعبد السلام ذهنى لكتابة المقالات الاجتماعية ، والعلمية ، والأدبية ونحو ذلك .

وكان يتصل بالجريدة من آن لآخر عدد من شباب مصر الممتازين بالثقافة العالية ومنهم على سبيل المثال :

طه حسين ، ومصطفى عبد الرازق ، ومحمد حسين هيكل ، وتوفيق دياب ، وعباس العقاد ، وغيرهم .

ومن الشعراء الناشئين أيضا :

حافظ ابراهيم، ومصطفى صادق الرافعى، ومراد فرج ، واسماعيل صبرى وعبد الحليم المصرى ، ونقولا الحداد ، ورشيد مصوبع ، ونقولا رزق الله

وغيرهم ممن سنعرض لهم مرة أخرى إن شاء الله فى الفصل الذى عنوانه (الجريدة فى الميدان الأدبى) .

* * *

فى ذلك الوقت كانت مساوىء الاحتلال البريطانى قد استشرت وتبين أثرها فى كل من الحالة الحكومية والإدارية والحالة الاجتماعية والخلقية والحالة الاقتصادية بما لايدع مجالا للشك فى أن المصريين إذا أصبحوا يرضون بهذه النتائج فقد حكموا على أنفسهم بالموت الأبدى .

(فأما الحكومة والإدارة) فقد فسدتا فساداً تاما . ألا نرى أنها كانت حكومة مزدوجة ؟ وأن السلطة فيها أصبحت موزعة بين شريكين لا توافق بينهما ؛ هما الخديو من جهة والانجليز من جهة ثانية ؟ وعلى الرغم من أن القانون الإدارى لسنة ١٨٨٣ ينص على أن الاحتلال ليس له سلطان على النظار ، وعلى أن كل سلطة توخذ من الحاكم الإدارى وتعطى للحاكم القضائى تعتبر كسباً للأمة ، وعلى أن كل توسع فى مجال الانتخابات يعتبر تقدماً نحو الحكومة الذاتية — على الرغم من كل ذلك نرى الاحتلال يعين فى كل نظارة مستشاراً انجليزياً له السلطة الحقيقية ، وللناظر السلطة الإسمية . ثم لم يقف التعدى على الأمة عند هذا الحد ، بل تعداه إلى أمور أخرى . منها فرض الرقابة الشديدة على القضاة من جانب الإداريين الذين أصبح لهم حق الإشراف على التحقيق الجنائى . كما أصبح لنظارة الحقانية الحق فى فصل قضاة الاستئناف فى المحاكم الجنائية. ومنها أى من تلك الأمور جعل انتخاب العمد بمحض إرادة الداخلية بوساطة لجنة إدارية . « وكل ذلك يظهر لنا أننا فى جميع نظاماتنا وتشريعاتنا نتقهقر إلى الوراء ، وأن العنصر الوطنى فى الحكومة ينزل عن السلطة شيئاً فشيئاً ، والعنصر الانكليزى يأخذ السلطة شيئاً فشيئاً ، والنظام البيروقراطى يميل إلى تركيز السلطة أو حصرها فى شخص الرئيس الانجليزى دون الأهلى » .

و (أما الحالة الاجتماعيـة والخلقية) فقد نالها التقهقر من نواح شتى أهمها ثلاث :

ناحية التعليم وطريقته وهدفه ، وناحية العلاقات بين الأسر التى تألف منها المجتمع المصرى ، وناحية الفضائل العامة .

وطريقة التعليم هى (الكتّاب) التى لا تنمى من الملكات إلا ملكة الحافظة . والهدف من التعليم هو إخراج القطع التى تحتاج اليها الآلة الكبرى ؛ وهى الحكومة .

وقد حمّل الأستاذ لطفى السيد الاحتلال البريطانى نتائج الفساد الذى أصاب التعليم ، والروابط العائلية ، والفضائل العامة فى الشعب المصرى (١) .

أما (الحالة الاقتصادية) فقد اعترف لطفى السيد بما لكرومر من فضل فى هذه الناحية . وذلك بإنشائه البنك الزراعى ، والبنك الأهلى ، وتشجيع المصارف والشركات الأجنبية . ولكنه رأى فى قيام الأجانب بهذه الجهود وصرف الوطنيين عنها مساساً بالاستقلال الفعلى للبلاد ؛ إذ أن المصريين إنما يشاركون فى هذه الحركة المالية كما يقول صاحب الجريدة « على الوجه الانفعالى لا على الوجه الفاعلى . يتأثرون بحركة السوق ولا يؤثرون فيها . لا يملكون التصرف فى الأمور المالية ، ولكنهم موضع التصرف فيها . كأنما أموالهم وأعمالهم ليست إلا محلا للاستغلال الأجنبى الخ »

ولو كان لأهل البلاد بنوك أهلية لما أمكن أن تغلو الشركات فى العبث بحقوق المساهمين ولما أصيبت البلاد بهذه الأزمة المالية التى طالَ أمرها »(٢) .

ثم إن الانجليز قامت قيامتهم وثارت ثائرتهم لنضوج هذا الوعى القومى وجعلوا يرمون المصريين بشتى التهم . فمرة يتهمونهم بنكران الجميل . وأخرى

(١) وذلك فى الخطب التى ألقاها فى نادى حزب الأمة ونشرت بالجريدة بتاريخ ١٧ مايو ١٩٠٨ .

(٢) من أجل هذا كان تأسيس بنك مصر أول عمل قومى لمناهضة هذه السياسة .

يدعون أن الحركة الوطنية موجهة ضد الخديو . وفى ثالثة يدعون أن التعليم أفسد الخلق الشرقى . وفى رابعة يصادرون بعض الصحف .

ومعنى هذا كله أن الانكليز أصبحوا يبالغون فى الخوف من الحركة الوطنية من ناحيـة ، ويبالغون فى إظهار احتقارهم للمصريين وقله الثقة بهم والطعن فى كفاياتهم من جهة ثانيـــة . ومن ثم نشر الاحتلال رجاله فى كل وزارة وكل إدارة . فكنت ترى فى كل محكمة قاضيـاً انكليزياً ، والمفتش فى الداخلية انكليزياً ، والحكمدار انكليزيا ، والمستشار انكليزيا ، ومفتش الرى انكليزيا ، وناظر المدرسة انكليزيا ، ومستشار المعارف انكليزيا وهكذا ...

وتكلم الناس فى كل ذلك حتى شاع أن أحد رؤساء المحاكم المصرية قال مرة لقاضيه الانكليزى «أنا فى حمايتك ياسيدى»[1] .

على أن إهانة الشرف المصرى لم يقتصر مظهرها على الأفراد أو الموظفين فى دور الحكومة . ولكنه تناول الأمة بأسرها فى ظروف كثيرة ؛ من أهمها الصرف الذى طالبت فيه الجمعية العمومية بمجلس نيابى . واتبعت ذلك بمطلب آخر أكثر تواضعا منه ؛ هو توسيع اختصاص المجالس القائمة . فرفضت الحكومة كل ذلك. وجاء رفضها بتلك الصورة إهانة لإرادة الشعب المصرى .

تلك هى الظروف التى نشأت فيها هذه الصحيفة الوطنية الجديدة ونعنى بها (الجريدة)؛ لا لتنصر السلطة الشرعية، ولا لتنصر السلطة الفعلية ، ولكن لتعبر عن رأى الأمة فى كل مطلب من مطالبها. ونستطيع أن نلخص أهداف هذه الصحيفة فيما يلى :

(أولا) نشر عقيدة الاستقلال بين أفراد الأمة المصرية ودحض الفكرة القائلة بأن مصر يمكن أن تحصل على استقلالها بمساعدة فرنسا أو تركيا. فلا سبيل إلى حرية المصريين إلا بجهود المصريين .

---

(١) أنظر صفحات مطوية ص ٢٧ .

(ثانيا) السعى لإزالة الفروق فى الرأى بين المصريين ، وإحلال التشابه فى العقيدة محل الخلاف فيها . وبعبارة أخرى تكوين ما يسمى بالرأى العام المصرى من جديد . وبذلك يتحد المصريون فى أهدافهم مهما اختلفت آراؤهم .

(ثالثا) إنماء الشخصية المصرية بقدر المستطاع ، والنظر فى الأمور السياسية من زاوية مصر وحدها ، مستقلة عن غيرها من الدول ، ومنها الدولة العثمانية نفسها .

(رابعا) توجيه النقد إلى السلطتين الشرعية والفعلية فى البلاد ، والنظر فى هذا النقد لمصلحة المصريين وحدهم من غير تحيز لأحد الجانبين السابقين فى حال اختلافهما ، أو فى حال اتفاقهما ، أو فى الحال التى يكونان عليها بين بين .

(خامسا) المطالبة بالدستور والدأب على هذه المطالبة (بعد إذ تبين للمصريين أنه يستحيل عليهم التقدم فى سبيل المدنية خطوة إلى الأمام إلا بمشاركة الأمة للحكومة فى الأعمال العامة) . ولن يكون ذلك إلا بحصول الأمة على الدستور ولو بالتدريج ، عن طريق الدفاع عن مجالس المديريات ، ومجلس شورى القوانين ، وتوسيع اختصاصهما تمهيداً للوصول إلى حياة نيابية أقرب إلى الكمال .

(سادسا) الرد على مزاعم الانجليز ، وبخاصة ما جاء منها فى تقارير كرومر وألدون غورست ودحض هذه المزاعم بمنتهى القوة ، حتى يثبت للعالم الحر أن مصر خليقة بالكمال الذى تنشده ، وأن الانجليز ظالمون فى نظرتهم للدين الإسلامى ، ظالمون فى تقديرهم للموظف المصرى والكفاية المصرية .

(سابعا) الدعوة لمذهب الحريين ليكون أساسا لتربية الأمة المصرية ، ولحرية التعليم وحرية القضاء وحرية الكلام وحرية الكتابة وحرية الاجتماع وسائر أنواع الحريات الأخرى . مع العناية الخاصة ببرامج التعليم حتى تصبح ملائمة لأغراض الأمة والجيل الجديد .

(ثامنا) النهوض بالحركة العقلية والحركة الأدبية وإفساح المجال للشبيبة

المصرية لكى تظهر مواهبها المختلفة، وتدعو كل طائفة إلى الاتجاه الجديد الذى آمنت به .

(تاسعاً) العمل على تشجيع الصناعة والتجارة والزراعة والنهوض بها جميعا حتى تبلغ الحد الذى يتفق وأطماع البلاد .

(عاشراً) العمل على تقوية الوحدة القومية مع اليقظة التامة لتوحيد عنصرى الأمة المصرية . وهما المسلمون والأقباط حتى لايجد المحتل ثغرة ينفذ منها إلى تحطيم الحركة الوطنية .

والحق — لقد كان لطفى السيد خير من يمثل هذه الأهداف ، وكان قد روض قلمه على الكتابة فى هذه المعانى حتى قبل اشتغاله بالتحرير فى الجريدة . فقد كتب لطفى السيد فى ذلك وهو طالب فى مدرسة الحقوق فى صحف المؤيد والأهرام والمقطم .

وحين أنشأ المرحوم محمد فريد مجلة (الموسوعات) اشترك معه لطفى السيد فى تحريرهذه المجله . وكان من أشهر ماكتبه مقالة له بعنوان (شخصيات الأمة) داعيا فيها إلى إصلاح الحروف العربية ، حتى يتمكن جميع الناس من قراءتها دون حاجة إلى الصرف أو النحو .

فإذا أضفنا إلى هذا وذاك ما عرفناه عن نشأة الرجل الاستقراطية ، ونشأته العلمية الأدبية ، ثم طبيعته التى تميل إلى التأمل العميق والانغماس فى المجتمع ، ثم تقديره لما للصداقة والأصدقاء من حسن الأثر فى القيام بالمشروعات النافعة للأمة — إذا فعلنا ذلك عرفنا إلى أى حد وفق أعضاء الشركة التى قامت لتأسيس الجريدة فى اختيار الرجل الكفء لهذه الرسالة .

* * *

بقى أن تعرف شيئا عن نظام هذه الصحيفة :

إذا وقع فى يدك عدد من أعداد (الجريدة) وجدته مصدرا بالتاريخ الهجرى ، والتاريخ الأوربى مكتوبين فى سطر واحد بأعلى الصفحة الأولى .

ثم وجدت تحتهما عنوان (الجريدة) بالخط الثلث. ثم على يمين العنوان لافتة صغيرة بالاشتراكات (وهى ١٢٠ قرشا عن سنة كاملة داخل القطر، ٧٥ قرشا عن ستة أشهر، ١٥٠ قرشا عن سنة خارج القطر). وفى الجهة اليمنى اسم مدير الجريدة (أحمد لطفى السيد) وباسمه ترد رسائل الصحيفة وتحت العنوان مباشرة تقرأ هذه العبارة:

«من حقق النظر، وراض نفسه على السكون إلى الحقائق — وإن آلمته فى أول صدمة — كان اغتباطه بذم الناس إياه أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه».

«ابن حزم»

أما عدد صفحات (الجريدة) فأربع، زيدت فيما بعد إلى ست، ثم عادت إلى أربع. ثم زيدت نهائيا إلى ست:

فى الأولى من صفحات العدد الأول — على سبيل المثال — نجد المقال الافتتاحى بقلم لطفى السيد. ونجد مقالا بعنوان (الوطنية فى مصر).

وفى الثانية نجد بحثا ماليا، اجتماعيا، ومقالا بعنوان — (مقابله بين أمريكا ومصر) وآخر بعنوان (غنى الطبقة الوسطى بأمريكا)، وكلمة بعنوان (ألمانيافى مؤتمر الجزيرة) أو نشر صحائف مطوية وأذاعة أسرار مكتوبة).

وفى الثالثة نجد أخبار الإسكندرية، وملاحظات تجارية.

وفى الرابعة تلغرافات عمومية (روتر وهافاس) — السفر إلى القمر فى ٩٨ ساعة للعلامة جول فرن ترجمة أحمد زكى (بك).

وأما الاعلانات فمكانها الصفحة الأخيرة.

وعلى هذا فقد كانت العناية بالمقال هى الغاية الأولى والأخيرة من هذه الصحيفة. ثم تأتى بعد ذلك العناية بالخبر. وإن كان لا يصح مطلقاً أن نقيس هذا بذاك. لأن الصحف المصرية إلى قيام الحرب العظمى كانت صحف رأى

ومقال .. ولم تكن — كما أصبح الحال بعد الحرب العظمى — صحف أخبار قبل أى اعتبار .

وإلى القارىء طائفة يسيرة من عنوانات المقالات التى كانت تنشرها الجريدة فى أعدادها الأولى على سبيل المثال :

الوطنية المصرية — مقابلة بين أمريكا ومصر — الدول العظمى وأهم ما يقال فى أحوالها — رقى الحاكمين والمحكومين (لرشيد رضا) ، الصحافة المصرية (ليوسف البستانى) — المرأة المسلمة فى روسيا — قبل الاعدام (قصة لهيجو ترجمة أحمد زكى) — الإنسان والحنين إلى الوطن — التنويم المغناطيسى والوجدان — حالة التعليم فى مصر (لمحمد السباعى) — المسلمون فى ررسا — مياه الشرب — اصلاح المحاكم الشرعية — الرياضة البدنية والعقلية — الأوقاف الخيرية الاسلامية — الشركات والمضاربات — الحرب العقلية — منافع الأوربين ومضارهم فى الشرق (لرشيد رضا) — شبابنا (خطبهم فى حديقة الأزبكية وآراؤهم فى المجلس النيابى وفى الوطنية) — الفلاح المصرى — ما للسياسة والعلم — إلى النساء (لتولستوى) — حديث ابن البلد (محادثات فى حفله عرس) — كلمة فى خطة الجريدة (العدد العشرون) — تقرير اللورد كرومر عن سنة ١٩٠٦ — إلى الشبان الراشدين — زراعة القطن المصرى واهتمام الانجليز بها — إحدى الأغانى — بماذا يكون الرجل عظيماً — مصر فى عالم السياسة — الوطنية الانكليزية (للوردملنر) — دعوة إلى أبناء اللغة العربية (ليوسف البستانى) . الخ .

وهكذا وقفت الجريدة فى مقدمة الصحف الأهلية فى البلاد ، حتى توقفت عن الاصدار . فقد كان آخر عدد لها بتاريخ ٣٠ سبتمبر سنة ١٩١٤ .

* * *

أجل — كان المقال هو الهدف الأول (للجريدة) منذ ظهورها . كما كان

المقال الهدف الأول للصحف الوطنية الآخرى ؛ كالمؤيد، واللواء ، وغيرهما وكان لهذه المقالات التى كتبها لطفى السيد بنوع خاص اتجاهات كثيرة ؛ من أهمها الاتجاهات الخمسة التالية ، وهى :—

١ — الاتجاه السياسى .

٢ — الاتجاه الاجتماعى .

٣ — اتجاه فى التربية والتعليم .

٤ — الاتجاه اللغوى .

٥ — الاتجاه الأوربى .

وللجريدة فوق هذا و ذاك بعض المساجلات التى كانت بينها وبين الصحف الوطنية تارة ، والأوربية تارة ، وصحف الوكالة البريطانية وتقاريرها وتآليفها آخر الأمر .

ولا بأس من أن نلم يسيراً بهذه المساجلات ،قبل أن نخوض فى الحديث عن كل واحد منلاتجاهات الخمسة السابقة .

الفصل الثالث

مساجلات الجريدة

لم يكن الخديو عباس راضياً عن ظهور (الجريدة) . وكان فى الوقت نفسه يتوجس من (حزب الأمة) خيفة . وكثيراً ماسأل حاشيته أن يتتبعوا أخبار هذا الحزب ويزودوه بها ، وبأنباء المتصلين به من الشخصيات الكبيرة ، كسعد زغلول ، ومحمود سليمان بالصعيد ، وآل عبد الرازق ؛ كما يؤخذ ذلك من مواضع كثيرة من مذكرات أحمد شفيق باشا .

وكانت المؤيد — وهى لسان حال الخديو — تتأثر دائماً بآرائه وأهدافه ونوازعه ، وتتوخى التعبير عن هذه الآراء والأهداف والنوازع .

وكانت اللواء تصطنع العنف والشدة فى قيادة الأمة ، وما أيسر ماكان مصطفى كامل يتهم عظماء المصريين كعرابى ، وفتحى زغلول ، وعلى يوسف بالتقصير أو الخيانة ، وذلك لأقل خطأ يبدو منهم ، أو انحراف يصدر عنهم ، أو مخالفة له فى الرأى .

من أجل هذا كان طبيعياً أن تصطدم (الجريدة) دائماً بكل من هاتين الصحيفتين السابقتين وبالوكالة البريطانية أيضا . وأهم من ذلك موقف المعارضة الشديدة من جانب (الجريدة) فى طائفة من المسائل الجوهرية . ومن أهمها مسألة الجامعة المصرية لا العثمانية ، وقد كان للجريدة فيها رأى يخالف كل جهة من الجهات السابقة كل المخالفة . فلا (اللواء) راضية — بوجه ما — عن هذه النزعة المصرية الصريحة ، ولا (المؤيد) يخفى جزعه منها وخوفه من نتائجها ، ولا الوكالة البريطانية — بطبيعة الحال — تحب أن ترى ظلا لهذه النزعة فى مجال الفكر السياسى المصرى .

من أجل ذلك وقعت (الجريدة) فى مساجلات كثيرة بينها وبين تلك الصحف . وكانت أولاها يومئذ صحيفة (المؤيد) لعلى يوسف .

ونشرت (المؤيد) طائفة من المقالات الطويلة فى هذا المعنى . وردت عليها (الجريدة) بمقالات تشبهها ، وجعلت عنوانها جميعاً « سوء نية المؤيد فى المناقشات » [1] .

وعرض كاتب من كتاب الجريدة لجميع التهم (أو الجنايات) التى أخذها المؤيد عليها : فإذا هى فضائل للجريدة لأنها تتلخص فى خمس تهم وهى :

الأولى — تريد الجريدة تقديم مصر على كل بلد من البلاد الأخرى فيما يتصل بالمصالح المصرية أو السياسة المصرية .

الثانية — تدعو الجريدة إلى كف الحكومة عن تقديم أية مساعدة مالية، مادامت مصر على حالها من الارتباك المالى ، والارتباك السياسى . إذ لايصح لنا أن نخدع أنفسنا ، ونخدع رجال المال والسياسة من الافرنج .

الثالثة — تريد الجريدة أن يكون التبرع حراً ؛ سواء كان لإعانة مصر أو الدولة العلية . وإلا ظلمنا أبناء وطننا،وانقلب التبرع ضريبة قهرية نتعهد بها.

الرابعة — تحتم الجريدة أن تكون مصر ذات حدود وتخوم معلومة ، وإلا تكون ضائعة فى العالم الإسلامى كله . كما تدعو إلى ذلك أصحاب النزعة العثمانية القديمة .

الخامسة — لاترى الجريده بأساً من مساعدة المصريين لإخوانهم الطرابلسيين ضد الطليانيين ، على ألا تأخذ هذه المساعدة شكل الجهاد الدينى ؛ لأن هذا الشكل الأخير لايتفق ومصلحة مصر فى الوقت الحاضر .

وفى إحدى المقالات السابقة التى ردت فيها (الجريدة) على صحيفة(المؤيد) قال الكاتب [2] :

---

(١) الجريدة فى ٢٦ أكتوبر ١٩١١ ، ٢٨ أكتوبر ١٩١١ الخ

(٢) الجريدة فى ٢٦ أكتوبر ١٩١١ .

« نشر المؤيد أمس مقالة ثالثة فى سبعة أنهر اتهم فيها مدير الجريدة بالجمود لأنه ينصح أمته باتباع (سياسة المنافع) . ثم تكرم عليه بدرس عال فقال :

« إن الفيلسوف الحقيق لا يجهل أن عواطف البشر أكبر قوة فى حياة هذا العالم متى كانت صحيحة . فشعور الرابطة بين الأب والابن عاطفة صحيحة تجعل أحدهما يفدى الآخر بنفسه ، ويكون عمله شريفاً . وشعور الرابطة بين الزوج والزوجة يجعل النفس الغالية فدى للعرض الغالى . ومن هذا وذاك تتركب العواطف القومية من العائلة للفخذ للقبيلة إلخ .

فمن هذا الكلام يفهم القارىء اللبيب أن المؤيد يرد على رجل يريد محض العواطف بمعناها المطلق من البشر . والحقيقة التى يفهمها كل عاقل مدرك من مقالات مدير الجريدة أنه يريد مانهض بالدول الأوروبية العظمى ، وهو ألا تكون الأعمال السياسية ألعوبة بين أيدى العواطف ؛ بدليل قوله الذى ذكره المؤيد (أعمالنا السياسية يجب أن تكون قاعدتها المنفعة ، لأننا فى زمان هو كذلك) .

فأى مدرك صحيح النية يستنتج من هذا القول أن مدير الجريدة يريد ؛ وهو أن يدوس على العواطف بمعناها المطلق ، وأن ينكر شعور الرابطة بين الأب والابن ، والزوج والزوجة) .

نعم — بل ألف نعم — إن السياسة التى يتوقف عملها على نجاح أمة عظيمة كالأمة المصرية يجب أن تكون قاعدتها المنفعة إلخ .

* * *

وقبل ذلك تعرضت (المؤيد) لنقد (الجريدة) حين غمزت هذه الأخيرة عباساً بأنه حاول (باسم الإرادات المستنيرة) أن يؤثر فى قرارات الجمعية العمومية .

وردت الجريدة على ذلك بأنها حرة فى نقد تصرفات الامير ، وتصرفات حاشيته ، وإن وجد المؤيد هذا غريباً كل الغرابة . لأن له مذهباً جديداً فى

الإسلام « يصف الامارة بالعصمة » . ثم مضى لطفى السيد يقول فى كلمته هذه بعنوان :

دفاع عن الجريدة(١)

« إن الجريدة لم تنشأ الآن تحابى السلطة الشرعية ، أو السلطة الفعلية ، ولا أن تعادى واحدة منهما ، ولا أن تنتصر لإحداهما على الأخرى . بل أنشئت لأمر أرفع من ذلك وأسمى . أنشئت لتنصر الحق الذى خذله كثير من الكتاب خدمة لأغراضهم الذاتية ، ولتبين للناس الحقيقة التى يجتهد أغلبهم فى سترها عن الأمة ، طمعاً فى نعمة تتدلى إليهم ، أو تهيباً من قوة يتوقعونها ، أو جرياً على عادة رسخت فيهم ، ولكى توضح أن هناك مصلحة يجب أن تضحى فى سبيلها كل المصالح ، ومقاما يلزم أن يكون أرفع المقامات وأقدسها ؛ وهى مصلحة الأمة ومقامها ، وأن فيها قوماً يألمون لكل تصرف يضر بهذه المصلحة ، أو يحط من ذلك المقام ، ويعملون على منعه والانتقام له منها كان مصدره بكل الوسائل الشرعية التى أباحها القانون إلخ » .

* * *

وانتهت مدة اللورد كرومر فى مصر واستعد لمغادرة البلاد فى صيف عام ١٩٠٧ . وإذ ذاك فكرت الحكومة المصرية وبعض الأعيان أيضا فى إقامة حفل لتوديعه قبل سفره . وخطب اللورد كرومر خطبته المشهورة (بدار الأوبرا) . ونشر السيد على يوسف رده المشهور عليها أيضا . وكان لطفى السيد من المؤيدين يومئذ لفكرة توديع اللورد كرومر ، فكتب فى الجريدة مقالا يرد به على المؤيد — وذلك بعنوان :

المسالمة لا المعاندة(٢)

جاء فيه :

« الانكليز بالأمس هم الانكليز اليوم وهم الانكليز غدا ... ومازال أصحاب

---

(١) الجريدة فى ٦ إبريل ١٩٠٧

(٢) الجريدة — لعدد ٤٤ بتاريخ ٣٠ إبريل ١٩٠٧ .

الحاجات يؤمون قصر الدوبارة ، ومازالت الجرائد تنشر الكتب المفتوحة والمقالات الضافية فيها مطالب الأمة لعميد الاحتلال . فلا يقع فى الوهم أن وراء الأكمة ماوراءها من تبدل الأحوال وإحياء الآمال وبروق الاستقلال.. وسياستنا مع الانكليز لا تخلو من أحد وصفين : إما سياسة عناد وعداء . وإما سياسة مسالمة لا استسلام . ولا شك أن سياسة المعاندة عقيمة[1] . إذ كيف يقبل المعاند من المعاند حسابا على أعماله ؟ بل كيف يرجو العدو من العدو أصلا صالحا له ؟ فلم تبق إذن إلا سياسة المسالمة ، والمحاسنة المقرونة بالمحاسبة . وأول مظاهرها المجاملة فى المعاملة . ومن هذا النوع يكون اهتمام العقلاء بالاحتفال بوداع اللورد كرومر » .

وبعد فقرات طوال اندفع الكاتب فى لهجة خطابية قائلا :

« رحماكم يا أرباب الأقلام — لا تغرروا بهذه الأمة التعيسة ، ولا تكونوا للزمان عونا عليها ، واخلصوا لها النصح ، وذروها فى هذه الفترة هادئة تتكون قوتها من الباقيات الصالحات ، لا من الكلمات الطائحات . واعطوا العقول حقها من حرية التفكير ، والألسن قسطها من حرية القول ، والنفوس قسطها من الجرأة . وبينوا لها الفرق بين مواطن الانتقام ، ومواطن التكريم ، وبين انتقاص الأشخاص وانتقاد الأعمال . ولا تكن الأقلام فى أيديكم كالمعاول يهدم بها بناء الأخلاق ، أو كالحجب تستتر وراءها ضياء الحق ، أو السهام تهلهل بها أغراض الأشخاص . وإلا فما بال بعض الجرائد (يريد المؤيد)[2] أخذت تشهد ببعض الكبراء الذين انضموا إلى لجنة الاحتفال . وتغمزهم كل يوم بضروب من ألفاظ السخرية غير اللائقة ؟

قال بعض علماء الاجتماع : إن الاعتراف بالجميل هو الإحساس بانتظار جميل آخر فى المستقبل . فاذا كانت الجرائد تريد من الناس ألا يحتفلوا بوداع

---

(١) صحتها عظيم لأنه يستوى فيها المؤنث والمذكر .

(٢) أدب المقالة الصحفية الجزء الرابع ص

اللورد كرومر إظهاراً لعدم رضاهم عن الإدارة الانكليزية فى عهده ، وكان الناس فى بلدنا على مذهب ذلك العالم من علماء الاجتماع ، وأنهم لا يعملون العرف لذاته بل للاتجار به . أفليس من المصلحة أن يحتفلوا باللورد لينتظروا بذلك خيراً من خلفه ؟.

استقال اللورد كرومر فكنا أول من نشر على الملأ الانتقاد المر على أعماله التى لا توافق مصلحتنا مقرونة بالاعتراف له بأعماله التى فيها صلاح لمصر . ولكن شخص اللورد كرومر والرابطة التى بين الأمة المصرية وبين أمته ، ووجوب صفاء العلاقات بين الأمتين لمصلحة الطرفين ، كل ذلك يلوى بنا عن أن تكون من المعوقين فى الاحتفال بوداعه، وإكرام ضيافته، وتشييعه بما شاءت المحاسنة القومية ، والكرامة العربية الخ » .

تلك أمثلة مع المساجلات التى وقعت بين الجريدة والمؤيد . ومع هذا بقى الصدام بينهما على هذا الوجه حتى اعتزل السيد على يوسف الصحافة والسياسة فى الظروف التى شرحناها فى الجزء الرابع من كتابنا أدب المقالة الصحفية(١)

* * *

أما « اللواء » فالاختلاف بينها وبين « الجريدة » كالاختلاف بين صاحب أولاهما وصاحب الأخرى . أولهما — وهو مصطفى كامل — يميل للمحافظة على التقاليد ؟ ويعالج الأمور بطريقة واحدة ؟ هى طريقة العاطفة . وثانيهما — وهو — لطفى السيد — يميل إلى التجديد ؟ ويعالج الأمور بطريقة واحدة هى طريقة العقل . ولو عاشت الصحيفتان معاً أكثر من ذلك لبقيت الحرب سجالا بينهما على الرغم من الصداقة التى ربطت بين الرجلين غير أن المنية عاجلت صاحب اللواء . فبقى صاحب الجريدة ينشر فى صحيفته طائفة من الآراء التى خالف فيها صاحب اللواء . وبحسبنا هنا أن نشير إشارة عابرة إلى بعض وجوه الخلاف بينهما :

---

(١) راجع الجريدة فى ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٥ من أكتوبر

من ذلك اختلافهما فى مسألة « الجامعة المصرية والجامعة الإسلامية ». وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك فى موضعه من هذا البحث.

ومن ذلك اختلافهما فى « الحجاب والسفور ». فقد كان مصطفى كامل من القائلين بحجاب المرأة المصرية. وكان لطفى يرى فى ذلك رأى صديقه قاسم أمين فى كتابه « تحرير المرأة ». وستأتى الاشارة إلى مذهب لطفى السيد فى ذلك عند الكلام عن « الجريدة والمجتمع ».

ومن ذلك أيضاً الحكم على الحوادث والرجال الذين كان لهم اثر فى توجيه السياسة المصرية. ومن أوضح الأمثلة هنا الحكم على عرابى. فقد رأى صاحب اللواء فى عرابى أنه خائن لبلاده. ورأى لطفى السيد فى هذا القائد أنه بطل من أبطال مصر، ولكن خانه الحظ:

والناس من يلق خيراً قائلون له ... ما يشتهى ولأم المخطىء الهبل

ويقيس لطفى السيد هـذا القائد بغيره من عظماء الرجال قائلا[1] « لقوا نجاحاً فعظموا؟ ولقى عرابى فشلا فصغر. وجرد؟ وأصبح متهماً بخيانة الوطن ».

ولم يكتف لطفى بذلك. بل طفق يعرض حسنات عرابى وسيئاته.

وخلص من ذلك إلى أن عرابى له حسنة كبرى؟ هى الدستور فلولا عرابى لم يكن الدستور. الدستور المصرى من عمله وصنع يده؟ وأثر من آثار جرأته طلبه عرابى لا بوصف أنه عسكرى ثائر ولكن بوصف أنه وكيل وكلته الأمة فى ذلك. فإن عريضة طلب الدستور كانت ممضاة من وجهاء الأمة ومشايخها. فعرابى حقق آمال الأمة بالدستور ولم يرتكب فى ذلك جريمة، ولم يسفك دماً. بل كانت الحركة فى حقيقتها سلاماً لا باكورة جريمة »[2] ثم قال:

---

(١) الجريدة فى ٢١ سبتمبر ١٩١١.

(٢) سبق دستور سنة ١٨٨٢ — وهو دستور الثورة العرابيـة — محاولتان هامتان تنبغى الاشارة إليهما:

« مع ذلك إذا كان عرابى فى أخريات الأمر أو فى عهد الثورة لم يحترم استقلال المجلس النيابى وضغط عليه بقوة السيف . فذلك عمل آخر يحسب عليه بعد أن يحسب له كسب الدستور » .

ثم تحدث لطفى عن سيئات عرابى فلخصها فى عدم تقديره حالة أمته من القوة والضعف تقديراً صحيحاً وذلك بالقياس إلى قوة انكلتره . ثم قال :

« الخيانة فذلك أمر لا نعرفه فى قوادنا المصريين المحسنين والمسيئين منهم على السواء . وإن كان من شأن السيئة التى ارتكبها عرابى والتى أعقبت الاحتلال البريطانى أن أكلت ثمرة الحسنة التى له ، ونعنى بها الدستور . فيصبح عرابى بعد ذلك على الأقل إنساناً لا له ولا عليه » .

* * *

وندع المؤيد واللواء جانباً ونصل إلى تقارير اللورد كرومر وكتبه . وقد عرفتنا كيف عنى السيد على يوسف من جهة والزعيم الشاب مصطفى كامل من أخرى بالرد على هذا الرجل .

كان أولهما هادئاً ولكنه كان ماكراً ، وكان الثانى ثائراً ولكنه كان كارهاً للإنجليز أكثر من صاحبه . أما لطفى السيد فكان على الدوام مفكراً ، وكان يكتب عن السياسة الانكليزية كما لو أنه يؤلف كتاباً فى الفنون السياسية . ومن ثم اصطنع لطفى السيد فى ردوده على كرومر أناة العقلاء ، وحكمة الحكماء وحلم العلماء . وجاءت مقالاته كما قلنا بحوثاً فى السياسة أكبر الظن أنها لم ترض

= الأولى : الدستور الذى ظفر به المصريون من عهد اسماعيل وأنشىء به مجلس شورى النواب سنة ١٨٧٦ وكان رأيه استشاريا محضا .

الثانية : الدستور الذى وضعته حكومة شريف سنة ١٨٧٩ وذلك على أحدث المبادىء الدستورية وقتئذ . وبه أصبح للنواب حق إقرار القوانين وإقرار الميزانية العامة ، والمسؤولية الوزارية أمام النواب الخ .

ثم أتت الثورة العرابية بعد ذلك بدستور سنة ١٨٨٢ وهو تعديل للدستور السابق وتهذيب له .

الشباب المصرى الذى ألهب عواطفه مصطفى كامل ، ولا الشيوخ المصريين الذين أثار عقولهم الشيخ على يوسف ولكنها مع هذا وذاك معبرة عن رأى فريق من المصريين لهم خطرهم وأثرهم فى الحياة المصرية ونعنى بهم « حزب الأمة » .

تعرضت الجريدة لأعمال اللورد كرومر فى مصر ؟ فقسمتها قسمين : مالية وسياسية . وأثبتت الجريدة لهذا اللورد عنايته بالرى ؟ واعترفت بفضله فى إلغاء صندوق الدين ؟ وبفضله فى رفع الربا الفاحش عن كواهل الفلاحين ؟ وبفضله كذلك فى إنشاء البنك الأهلى . والبنك الزراعى الخ . .

ثم أخذت على اللورد تقصيره فى إنماء الحرية الشخصيه للأفراد ، وإهماله حق مصر فى الدستور وفى الحصول على حكومة ذاتية ، وطعنه فى كفاءة المصريين ، واغفاله التعليم الصالح لتزويد الأمة بطائفة من المواطنين الصالحين ، وغضه النظر عن الشبان المصريين فى أعمال بلادهم . ورغبته فى محو الجنسية المصرية . وجعلها دولية . وتلك سيئات اللورد كرومر التى رجحت رجحاناً مبيناً على حسناته[1] .

وفى بداية رد من ردود صاحب الجريدة على كرومر أتى بعبارة للأستاذ (سايس) صدر بها اللورد تقريره وهى : « إن الذين قاموا فى الشرق ، وحاولوا الإختلاط بأهله . يعلمون حق العلم أنه يستحيل مطلقاً على الأوربى أن يتحد فى النظر مع الشرقى . ومن المحقق أن الأوربى يظن أول الأمر أنه هو والشرقى يتفاهمان . ولكن يأتى وقت عاجلا أو آجلا ترى الأوربى نفسه فيه يحس فجأة أن ذلك كان حلم نائم ، ويجد نفسه أمام انسان ذى ملكات عقلية غريبة عنه كل الغرابة حتى ليظنه من سكان زحل » .

---

(١) راجع مقالا بعنوان لورد كرومر أمام التاريخ الجريدة بتاريخ ١٨ إبريل ١٩٠٧ .

يعلق كاتب الجريدة على هذه العبارة فيقول :

صدق (سايس) إذا كان قوله منصرفاً إلى أن الأخوين الشرقى والغربى مختلفان فى المنظر جداً فيما يتعلق بتفضيل المنفعة المادية على المنفعة الأدبية عند الأوربى . أما الشرقى فإنه يجعل للفضائل الأدبية كالإحسان والكرم والوفاء والاخلاص الدينى المقام الأول .

ثم قال :

ولكن لايظن المطلع على تقرير اللورد كرومر أنه أراد الإشارة إلى تلك الفضائل خصوصاً أنه ليس فى مقام مدح الشرقى . إنما المطلع على هذا التقرير يرى أنه يريد بيان سلسلتين من الأفكار:

الأولى : أن عقول المصريين عقيمة غير منتجة إلى حد أنه يصعب معرفة مقاصدهم . وآمالهم السياسة . وهم لذلك يرضون عن مناهج الاحتلال ولا يرضون عن الاحتلال.

وردت الجريدة على ذلك بأنه أمر طبيعى حتى يثبت للمصريين أن للإحتلال غرضاً خفياً غير إعدا دالمصريين للحكم الذاتى .

والثانية : هى أنهم يسعون لتحقيق الجامعة الإسلامية (بابنسلامزم) .

وترد الجريدة على ذلك . بأنه ليس هناك ما يسمى (الجامعة المسيحية) فلو داعى هناك لما يسمى بالجامعة الاسلامية . ولكن السياسة تخلق ما تشاء من الأسماء . فليس لأوروبا أن تتوجس خيفة من فكرة ساذجة كهذه بعيدة عن أن تؤدى إلى اعتداء من جانب المصريين أو تسبب هلعاً للمستعمرين الأوربيين .

وهكذا تصور التقارير الكروميرية المصريين بأنهم غير قابلين للرقى ؟

---

(١) الجريدة عدد ٥٠ بتاريخ ٨ يناير ١٩٠٧

ولا يستعدون للحضارة . ليسهل بذلك الموافقة على محو الجنسية المصرية . ومن ثم قصد إلى تجسيم فكرة الجامعة الإسلامية ؟ وعزا اليها مهمة أخرى . ألصقها بالمصريين ؟ وهى تهمة التعصب الدينى .

وقد عنيت الجريدة بالرد على هذه التهمة أيضاً حيث تقول :

يقصد الأربيون بكلمة التعصب الدينى . لا الجاذبية الدينية التى توجد بين أهل دين واحد . ولكن التحرش بغير المسلمين والتربص بهم وهذا المعنى لا أهل له فى الدين الإسلامى ، كما لا أصل له فى نفوس المسلمين الذين كل جنايتهم فى نظر أوربا . أنهم أخذوا يفكرون فى ترقية عقولهم بالتعليم الخ .

وانتهز لطفى السيد فرصة ظهور كتاب لكرومر بعنوان «مصر الحديثة» فدعا الكتاب للدفاع فى الجريدة عن الاسلام ضد التهم التى رماه بها كرومر فى كتابه هذا . وجعله أقساماً ثلاثة :

قسم خاص بالاسلام .

وقسم خاص بالحالة الاجتماعية فى مصر .

وقسم خاص بسياسة الانجليز فى مصر والسودان .

فأما رد كاتبنا على القسم الأول خاصا بالإسلام فقد أظهر فيه العجب من ذلك السياسى المحنك . الذى وضع التعصب الدينى من جانبه عصابة على عينيه ؟ فتعذر عليه رؤية الاسلام على حقيقته ؟ وعجز حتى أن يبلغ فى ذلك بعض ما بلغه الكاتب الفرنسى (جان جاك روسو) حيث قال فى وصف محمد :

« إن قانون بن اسماعيل (يعنى محمدا) الذى يسير عليه نصف العالم منذ عشرة قرون ، يشف إلى الآن عن عظم واضعه . فى حين أن الفلسفة المتكبرة . أو التعصب الأعمى لا ترى فيه أكثر من أن واضعه ماكر حسن الطالع . ولكن

السياسى الحقيق . يعجب بما فى ذلك الشرع من القوة الهائلة . والملكة القادرة التى توجد دائماً فى الشروع الخالدة» .

ثم التمس الكاتب للورد عذراً فى قلة فهمه . لأنه لم يعرف عن الدين الإسلامى إلا ماشاع بين الأوزبيين . ومن ذلك — على سبيل المثال — أن جندياً فرنسياً التقى بكاتب الجريدة «أعنى لطفى السيد» فى أحد الفنادق العامة ، وتجاذبا معاً أطراف الحديث عن المسلمين بالجزائر .

فقال الجندى الفرنسى : إن المسلمين فيما بينهم يعملون بهذه القاعدة . وهى : أيما مسلم قابل غير مسلم فى مفازة ما فله حق قتله وسلبه ! ولما جادله كاتب الجريدة فى ذلك أكد له الجندى الفرنسى أن هذه آية من آيات القرآن !

بل التمس الكاتب لكرومر عذراً فى ذلك مادام أنه لم يقرأ عن الدين الإسلامى إلا ما كتبه كل من : (ستانلى لين پول) ، (ومنتسكيو) ، (وغلادستون) . « وعلم هؤلاء بالإسلام ليس إلا نتفاً يتلقونها من أفواه الجهلة ، أو من كتب الرحالة الذين يتخذون من عمل فرد من أفراد المسلمين دليلا على دينهم ؛ كما اتخذ اللورد عمل واحد من (العطاشجية) — أى عمال السكة الحديدية — بمصر دليلا على عقول الشرقيين على العموم » .

هكذا مضى لطفى السيد يفند أقوال كرومر وأقوال فلاسفة الأوربيين واحداً بعد آخر . فرماهم جميعاً بالجهل الفاضح . وسخر منهم جميعاً فى مهارة فائقة ولباقة ظاهرة . ولطف وحسن أدب . ثم ختم الكاتب مقاله بهذه العبارة : « إن صح قول هيجو : « أن اللورد عالم بالقراءة والكتابة بقوة القانون ، فإنه لا يصح أن يكون اللورد عالماً بالشريعة الإسلامية بقوة القانون أيضاً ! »

* * *

وانتهى عهد اللورد كرومر فى مصر ، وخلفه فى منصبه السير ألدون غورست . وكانت سياسته تقوم على التفرقة بين الخديوى والشعب من

جهة ، وبين الأحزاب المصرية بعضها وبعض من جهة ثانية ، وبين المسلمين والأقباط من جهة ثالثة . فأخـــذت « الجريدة » على عاتقها مساجلة هذا العميد الجديد ، ومحاربة آرائه وأفكاره . و أخذت تفضح سياسته فى مصر منذ تولى فيها منصبه .

ونحن نعلم أن لطفى أتعب نفسه فى الذود عن وحدة الأمة المصرية ، وكتب كثيراً فى صباه داعياً الى هذه الوحدة . وقال فى إحدى المرات :

« حسب المسلمين والأقباط تفرقاً — وهم جسم أمة واحدة — أنهم لا يجمعهم فى الصلاة معبد واحد ، وأنهم لا يتصاهرون » .

«فما بالنا نتصدى لتجسيم هذه الفروق التى لا تضر ، ونضيف إليها فروقاً تهدم جامعتنا القومية . »

« إن اليهودية ، والنصرانية ، والإسلام أديان توحيد . لا خوف على أمة دانت بها جميعاً إذا تأصل الاعتقاد الصحيح فى نفوس الأفراد ، وانتبذ التعصب والخلاف مكاناً قصياً . »

« على المنفعة تكونت الأمم ، وانقسمت الأوطان . فهل من يقول إن هناك قبطياً يفضل منفعة الجنسية على منفعة مصر ؟ أى على منفعته هو ؟ وهل من يقول بأن مسلماً مصرياً يفضل منفعة تركيا على منفعة مصر ؟ أى على منفعته هو ؟ ، لقد نزلت الأديان لمنفعة الناس . فلا يحل لنا أن نجعلها تناقض هذه المنفعة . بل يجب علينا أن نوفق بينهم ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . وإنا — إذا أردنا — لمستطيعون . »

. لا أريد أن أدخل فى تفاصيل تلك الحركة فإنها معروفة ولكنى أنصح الذين اكتسبت أيديهم من تبعتها — مهما حسن قصدهم — أن يستغفروا الأمة ، وأن يعملوا لتـــلافى ما عساه ينجم عن تلك الحركة . وإنهم سيعملون[1] » .

---

(١) محاضرة ألقيت فى ٣٠ اغسطس ١٩٠٨ — انظر صفحات مطويه ص ٣٣ ، ٤٣ .

الفصل الرابع

الجريدة فى الميدان السياسى

كان الدستور من أعز أمانى الأمة ، وكان الاحتلال يكره أن يرفل المصريون فى ثياب هذه النعمة .

وأعجب من هذا كله أن ولى الأمر فى مصر كان لا يتحمس — إلا مضطراً — لتحقيق الرغبة . وبقى الشعب المصرى حائراً بين هاتين السلطتين لا يدرى كيف يظفر منهما بحقه الطبيعى فى الظفر بأمنيته ، واختيار الشكل الذى يرضاه لحكومته . ومن ثم كان الدستور أول الأهداف التى من أجلها ظهرت الجريدة من جهة ، وتم تأليف حزب الأمة من جهة ثانية .

وإن كان من الحق أن يقال أن جهاد الجريدة فى هذا الميدان لم يكن بأعظم من جهاد الصحف المصرية الأخرى ؛ ومن أهمها وقتئذ صحيفتا المؤيد واللواء . غير أن صحيفة المؤيد كانت قد فترت وبدت عليها علائم الشيخوخة ، وذلك بعد مرور سنوات قليلة جداً من ظهور « الجريدة » .

ولا غرابة فى ذلك فإنها كانت لسان الخديو عباس . فكان من الطبيعى أنها تقوى بقوته وتضعف بضعفه .

وأما (اللواء) فقد بقيت تحمل عبء الحركة الوطنية . وحين دهم الموت صاحبها ، فقدت قوتها ، وتعرضت هى الأخرى للمحن التى عصفت بها .

وحين ظهرت (الجريدة) فى ٩ مارس سنة ١٩٠٧ كانت الصحيفتان السابقتان فى أوجهما . ولكنهما ما لبثتا بعد ذلك مباشرة أن انحدرتا إلى السفح الآخر من تلال العظمة ، وأفسحتا الطريق يومئذ (للجريدة) التى

حلت محلهما ، وحملت الشعلة بعـــدهما ، وبقيت تحملها إلى أن شبت نار الحرب العظمى .

المهم أنه بينما كانت اللواء تميل إلى العنف والثورة ، إذا (بالجريدة) — بتأثير كاتبها الفيلسوف — كانت على غير ذلك .

وانظر إلى لطفى السيد إذ يقول :

« إن الثورة إن خابت كان من نتيجتها زيادة القهر والاستعباد للأمة . وإن نجحت وهى تقطر دماً والأهواء والشهوات هائجة كان حظ الأمة من تلك الثورة هو الفوضى » .

ومن هنا كان لطفى ممن لا يؤمنون بالطفرة . وكان يرى أن الإصلاح التدريجى فى متناول كل أمة ، وأنه فضلا عن ذلك مأمون المغبة . وربما كان هذا كله أثراً من آثار (الواقعية) التى سيطرت على تفكير هذا الرجل ، وعنها صدر فى جميع أعماله وآرائه المختلفة .

مهما يكن من شىء فإن مسألة الدستور وشكل الحكومة المصرية هما المشكلتان اللتان شغلتا حيزاً كبيراً من صفحات (الجريدة) فى السنوات السبع التى عاشتها .

كان لطفى السيد يحاضر الناس فى مقر حزب الأمة يوما. فأوضح للسامعين هذه المسألة، وهى أن المصريين منذ ظهور الدستور العثمانى سنة ١٨٧٧ انتبهوا إلى حقهم فى الدستور ، وأن الثورة العرابية إنما كانت ثورة دستورية ، وأن المجالس النيابية فى مصر كانت لا تقوم بواجبها لأمور ، منها حداثة عهدها بالسياسة (حينا) ، والخلاف الشديد الذى كان بين عابدين وقصر الدوبارة (حينا آخر) والدسائس الكثيرة التى ما فتىء يدبرها الاحتلال البريطانى (حينا ثالثا) وسوء القصد الذى كان يشوب ولاة الأمر فى مصر منذ دأبت على السعى فى الحصول على هذا الحق آخر الأمر. كما يظهر ذلك فى

حديث للخديو عباس مع الكاتب المعروف بالمستر ديسى، وفيه يصرح الخديو «بأن الأمة المصرية كبقية الشعوب الشرقية لا تقدر إلا الحكم الشخصى».

ولكن الرأى العام المصرى هاج لهذا التصريح فبادر الخديو بالاعتذار عنه على لسان بعض رجال الحاشية . ثم زاد الطين بلة أن السير غورست طفق يضرب على هذه النغمة ، ومضى يقول « إن المصريين ليسوا أهلا للدستور فى الوقت الحاضر » . ومنذ ذلك الحين أخذ الانجليز يفكرون فى أمر يصرفون به المصريين عن التفكير فى حركتهم . فأخرجوا من حقيبتهم السياسية موضوع كفاءة الأمة المصرية فشغلوهم بها . وقد كانت هذه الفكرة إحدى مغالطات الاحتلال البريطانى التى أراد أن يكسب بها الوقت لا أكثر ولا أقل. فانبرى لطفى السيد فى محاضراته ومقالاته — كما فعل من قبل على يوسف ومصطفى كامل — لدحض حجج الاحتلال واحدة بعد أخرى ، وأخذ يوضح للمصريين أن حق الأمة فى الدستور كحق الفرد فى الحرية ، وحرمان الأمة المتخلفة من الدستور كحرمان الفرد من الحرية بحجة أنه زنجى ، أو أنه لا يقرأ ولا يكتب ، أو أنه لم يتخرج فى العلم على الغزالى أو ابن رشد وغيرهما . إن سلطة الأمة ليست كبقية الحقوق . فلا يجوز لها أن تتصرف فيها بأى نوع من أنواع التصرفات . ليس لها أن تتصرف فيها ولا فى بعضها بغير مقابل . لأن كل عقد من هذا القبيل باطل بطلاناً أساسيا »[1] .

هذا من حيث الدستور وحق الأمة فيه :

أما شكل الحكومة — فقد صرح الكاتب مراراً « بأن الحكومة المطلقة حكومة ضرورة . فاذا انتظمت الروابط الاجتماعية بين الأفراد حتى صار لفيفهم أمة تكون قد زالت الضرورة التى أوجدت الحكومة المطلقة ، فتزول الحكومة وراءها . . . ومهما جاز أن يكون الحاكم المطلق هو أحسن الناس فإنى أقول إن هذه الحكومة شر . لا ، لأن الحكومة النيابية هى خير واسطة

---

(١) صفحات مطوية ص ٤٤ .

لتربية الأمة فقط ، بل لأنه لا يوجد إنسان من بنى آدم مهما كان حظه من العقل والحكمة قادر أن يسوس بمفرده أمور جمعية مدنية معقدة التركيب ، فإنه معرض أن يجر على أمته أكبر المصائب التى ما كانت تقع بغير وجوده»[1].

هكذا راح لطفى السيد يندد بهذا الشكل من أشكال الحكومة ، بل أخذ يسخر منه سخرية مريرة ومن ذلك أيضا ما كتبه بعنوان :

روضوا أنفسكم على الاستقلال [2]

جاء فيه :

« لبعض الهنود تمثال يصنعه بيده. فإذا هب من نومه فى الصباح لا ينطلق إلى عمله إلا إذا قدم لذلك الآله الذى صنعه بيده آيات الحمد والشكر... فهكذا يصنع المصريون بالحكومة التى هى من صنع أيديهم ... فهل يمكن بعد هذا أن تضحك من الذى يقدس ما صنعت يداه ... ! » الى آخر ما جاء من المقال .

* * *

غير أن الصحافة المصرية فى ذلك الوقت كانت كلما ازدادت مطالبة بحق الأمة فى الحكم النيابى ، ومراقبة الحكومة ، ازداد الاحتلال إمعاناً فى حرمانها من هذه الحقوق . وبلغ من جرأة اللورد كرومر وظلمه وعسفه أن حاول إقناع المصريين والنزلاء الأجانب فى مصر بإنشاء ما سماه « بمجلس التشريع الدولى » . وقصده من ذلك أن يجعل للحقوق الاستثنائية صفة الأصلية بحيث لا يكون من السهل على حكومة مصرية إقناع الأوربيين فى مصر بالتنازل عن هذه الحقوق وبذلك يعفى النزلاء الأجانب من الضرائب، ويحاكم الوطنيون أمام محاكم (القنصولاتو) بمقتضى قانون أجنبى عن البلاد . وبهذه الطريقة يعلو مركز الأجانب فى مصر فوق مركز الوطنيين فيها ، وتخضع الأمة لقانون أجنبى تقوم على تنفيذه محاكم أجنبية، وبوليس أجنبى؛ فى حين أن مجلس شورى

(١) نفس المصدر السابق ص ٤٥ .

(٢) الجريدة عدد ٤٥٤ بتاريخ ٢ سبتمبر ١٩٠٨ .

القوانين باق على حاله من الحرمان من كل سلطة تشريعية !

« وزيد على هذه الفكرة أن المجلس التشريعي الدولي متى شب وترعرع ، وتقدم المصريون — إن قدر لهم التقدم — انقلب إلى برلمان مختلط يكون من شأنه أن يثبت بالبرهان الحسّي إثباتاً جديداً أن الأوربيين فى مصر هم أهلها الحقيقيون ، وأن المصريين فيها فضلة لاقيمة لها . على طريقة الاستعمار الأمريكانى القديم » .

ثم مضى صاحب الجريدة يقول فى سخرية :

«ولا ندرى هل يكون الأمر وقتئذ فى هذا البلد — بلد العجائب — أن يسوى بين المصرى والأوروبى فى الحقوق ، أو تنقلب الامتيازات الأجنبية من كونها امتيازات للأوروبيين إلى كونها امتيازات للمصريين البيض على المصريين السمر »

« تلك نتيجة لازمة لهذا المجلس التشريعي الذى يجعل الأجانب — على مرور الزمان — تتأصل فى نفوسهم عادة التقنين (أى عمل القوانين) والحكم على المصريين. كما تتأصل فى نفوس هؤلاء المصريين عادة الرضى بهذه القوانين التى يقال أنها محلية ، ولا يسنها إلا الأجانب . وعلى هذا فمشروع المجلس التشريعي ليس مشروعا للإصلاح السياسى ولكنه مشروع للتأخير السياسى »(١) .

إلى هذا الحد أهمل كرومر ما يسمى بالجنسية المصرية . وإلى هذا الحد عمل خلفه غورست لما سمى بدولية هذه الجنسية . فما كان أحوج مصر والمصريين فى ذلك الحين إلى مثل هذا القلم الذى حمله لطفى السيد فى وجه أولئك الطغاة الظالمين ؛ يبادلهم الحجة بأقوى منها ، والبرهان بأسطع منه ، ويخاطبهم باللغة التى يفهمونها ، وهى لغة السخرية بهم ، والنيل من خلقهم وطريقتهم فى إذلال الشعوب !

---

(١) الجريدة فى ١٤ مايو سنة ١٩٠٧ . وانظر صفحات مطوية ص ١٩٥ .

ومنذ ذلك الحين ومقالات الجريدة كالسيل المنهمر، تتدفق كلها على باب السير الدن غورست مطالبة إياه بالعدول عن فكرة سلفه من ناحية وبالمجلس النيابى من ناحية ثانية . ولذلك نراه فى إحدى هذه المقالات يقول :

المجالس النيابية

أو مطالب الأمة من السير غورست [1]

« لسنا نقول مع القائلين بطلب غير الممكن لنعطى الممكن . أننا لا نوافق الذين يقولون إن المصريين لم يبلغوا من الرقى الأدبى شيئاً يؤهلهم إلى درجة من درجات التقدم السياسى . فإن هؤلاء وهؤلاء لنا ظالمون .

« وقد يعجبنا فى الرد على منكرى تقدمنا — تذرعا لحرماننا من السلطة التشريعية — ما قاله تين فى سنة ١٨٥٣ : إن كان فى فرنسا سبعة ملايين من الخيل، فإن لهذه الخيل الحق فى التصرف فيما تملك. ومثل هذه الأمة — مهما كان مقدار انحطاطها — خير نظام للحكومة فيها هو النظام الذى يناسب درجة الأمة من التمدن » .

ثم عرض الكاتب مطالب الأمة فى هذه الناحية . وتتلخص فيما يلى :

(أولا) تعديل طريقة الانتخاب .

(ثانياً) تجديد مجلس شورى الحكومة .

(ثالثاً) توسيع اختصاص المجالس القائمة .

وفرغ الكاتب من شرح هذه المطالب الثلاثة ؛ ثم قال للسير غورست :

« إن منح الأمة سلطة التشريع الأهلى والإدارة المصرية أصبح ضرورياً تدعو اليه مصلحة (انجلترة) لكسب صداقة المصريين ، ومصلحة (الخديو) ليساعدهم على نموهم السياسى ، ومصلحة (الأمة) لتخرج من حال الوصاية . » .

« وأما من حيث (مجلس شورى القوانين) فإن مايوجد فى البلد الآن من

---

(١) الجريدة فى ١٨ مايو ١٩٠٨ . صفحات مطوية ص ١٩٧ .

شبه الدستور ، أو رائحة الدستور فإنما هو محض هبة قابلة - قانونا - للرجوع فيها . لأنه لم يقيد السلطة التشريعية التي يملكها الخديو إلا تقييداً وهمياً . فليس فيه مايدل على أن الخديو قد تنازل عن جزء من سلطته هذه للأمة» .

ثم عرض الكاتب في مقاله صورة للدستور الانجليزي وللأصول التي بني عليها وللإخلاص الذي يبديه الشعب الانجليزي للمحافظة على هذه الأصول ثم تساءل :

« فهل نحن نطالب بتوسيع اختصاص هيئاتنا النيابية على هذا النحو ؟ كلا - إنما نطلب الجزء الذي يمس حاجتنا من السلطة التشريعية وهو أن يكون رأى مجلس الشورى قطعياً في القوانين التي تطبق على المصريين وحدهم دون غيرهم » .

وذلك أضعف الايمان .

وطالبت الجريدة في تلك الآونة بحق المرأة في الانتخاب . وعجبت مع هذا من زهد النساء المصريات في هذا الحق قائلة :

« فنحن وإن كنا لانعترف بوجود نص شرعي في نصوص الشريعة الاسلامية يحرم المرأة هذا الحق ؛ إلا أن السيدات المصريات يظهر أنهن لايرين الاعتراف لأنفسهن بهذا الحق المدني ، لأنهن لم يظهرن إلى الآن رغبتهن في أن يتحللن من ربقة الاستعباد إلى الحرية المخولة لهن شرعاً بنصوص الشريعة الاسلامية . ولم يبرهن حتى الآن على حبهن للاستقلال الذاتي في القول وفي العمل[1] » .

وانتقل الكاتب بعد ذلك إلى (مجالس المديريات) فكتب عنها بعنوان (مسألة اليوم[2]) قال :

« أحق المسائل بهذا الاسم هي مسألة توسع اختصاص مجالس المديريات

---

(١) نفس المصدر المتقدم .

(٢) الجريدة في ٢٨ مايو ١٩٠٨ .

وإنه ليندر أن توجد مسألة ما يمكن أن تكون موضوع اتفاق جميع الناس على منفعتها مثل هذه المسألة . ولكن الحكومة تقولها كلمة ناعمة الملمس : إن جرى الحكومة وراء إرادة الرأى العام فى مصر مجلبة للفشل ، ومدعاة للفوضى وافلاس . وكأنى بهم يقولونها أيضاً فيما يتعلق بطلب الأمة توسيع اختصاص مجالس المديريات ويدعون وهم خمسة ستة فى مصر وفى انجلترا أنهم يعلمون مصلحة الأمة أكثر مما تعلمها هى » .

ثم قال :

«من الخطر أن تسن القوانين على غير مايقتضيه العقل . ولكن من الخيانة أن تسن قوانين على غير مايريده الرأى العام . ذلك أن الأولى تضر بسعادة الأفراد وتقدمهم، ولكن الثانية تنكر الحرية وتخنقها، بل تذهب بفكرتها التى هى الأصل الأول لكل رقى وسعادة » .

ثم لخص الكاتب مطالب الجريدة لصالح هذه المجالس فيما يلى :

أولا — جعل إدارة التعليم الأهلى بأيدى هذه المجالس . وعدم الخوف من أنه إذا أعطيت مجالس المديريات حق إدارة التعليم الابتدائى والثانوى وحق الانفاق عليها من الضريبة المقترضة أن يكون معنى ذلك إيجاد (برلمان صغير) فى كل مديرية .

ثانياً — جعل الجمعية العمومية صاحبة الحق فى التصديق على قرارات مجالس المديريات ، فيما يتصل بالضرائب الاضافية .

ثالثاً — الثقة فى أعضاء مجالس المديريات والاطمئنان إلى أنهم لن يكونوا آلة فى يد مدير المديرية . والأمل أنه لن يكون تحت عمامة الشيخ الجليل منهم مجموع أغراض صغيرة ترمى بأسرها إلى المنفعة الشخصية . وأنهم لا يأتون بمصلحة عامة إلا مسوقين لها بشىء كثير من الظهور ، وقليل من الإخلاص وحب المصلحة العامة[1] » .

---

(١) الجريدة بتاريخ ٣١ مايو ١٩٠٨ .

رابعاً — عدم التأثر بالأمثلة الفردية المأخوذة من حوادث شخصية بين عمدة ومأمور مركز ونحو ذلك .

وختم الكاتب هذا المقال بقوله :

« إن إعطاء مجالس المديريات حقوقاً ليس لمجلس الشورى نظيرها إنما هو ابتداء لتغيير صورة الحكم يستتبع حتما تغيير نظام مجلس الشورى » .

ومع هذا وذاك فقد شاع بين المصريين فى ذلك الحين أن الحكومة إنما تضع مشروع مجالس المديريات ذراً للرماد فى الأعين ، حتى تهدأ ثائرة الرأى العام فى المطالبة بالدستور والحرية . فما زال الكاتب بالحكومة يقنعها ، وبالرأى العام يهيجه . ومن ذلك قوله :

« إن الحكومة الاستبدادية الصريحة العداء للدستور إنما تستمد قوتها دائماً من ضعف الرأى العام فى الأمة . . وأن تنازل الحكومة للأمة عن حق من حقوق الحكم هو أصعب عليها من خلع الضرس . لأن آخر مايخرج من النفوس من الرذائل إنما هى رذيلة الاستبداد » .

وفى أول ديسمبر سنة ١٩٠٨ قرر النواب المصريون فى مجلس شورى القوانين باجماع الآراء المطالبة الصريحة بالمجلس النيابى . وجاء عملهم هذا رداً على الحكومة التى رفضت الجمعية العمومية من قبل نفس هذا المطلب ، ونعنى به المجلس النيابى . إذ ذاك هللت الجريدة وكبرت ، وكتبت فى هذا المعنى تقول:

« إن أول ديسمبر كان الحد الفاصل بين فناء الأمة فى شخص حكومتها وبين عصر جديد هو عصر الارتقاء السياسى الحقيق الذى فيه تعتمد الأمة على نفسها ، وتعمل لنفسها . وتعتبر أن لها وجوداً ذاتياً مستقلا تمام الاستقلال . . » إلى آخر ماقال .

* * *

وفى الميدان السياسى كان لكاتب الجريدة جهد من نوع آخر ؛ هو كفاحه باسم الأمة المصرية ضد السلطتين الفعلية والشرعية . وقد حار الشعب المصرى

بينهما كما قلنا فمرة تتفق وجهة النظر عندهما فيظهر مايسمى (بسياسة الوفاق)، ومرة يختلف فيظهر مايسمى بسياسة الخلاف وفى ثالثة يكون بينهما ما يسمى بساسة (بين بين) وهكذا. والجريدة بين السلطتين تقف دائماً فى صف الأمة. لا يعنيها أن تكون فى وقفتها هذه ضد الخديو، أو ضد الوكالة البريطانية أو ضد حزب من الأحزاب المصرية، أو صحيفة من الصحف الأهلية.

« وتبدأ سياسة الوفاق من عهد الخديو توفيق. فقد دخل الإنجليز مصر على اتفاق بينه وبينهم. فألغوا الجيش المصرى، واستبدلوا به جيشاً صغيراً، ضباطه من الانكليز. ثم محوا العلوم الحربية العالية فى المدرسة الحربية. فبدلا من أن يرقوها حتى تخرج ضباطاً كالذين يتخرجون فى مدارس انجلترة وفرنسا قصروها على تخريج ضباط بدرجة تجعل الضابط المصرى مرؤوساً دائماً. وقد دل هذا التصرف فى الجيش على أن الغرض منه إضعاف مصر لا تقويتها. وتلك إحدى نتائج سياسية الوفاق والتسليم للإنجليز بعمل مايريدون.

« لقد جاء الإنجليز مصر فوجدوا بها جيشا ثائراً ومجلس نواب. فألغوا الجيش الثائر، واستعاضوا به غيره. وألغوا كذلك مجلس النواب، وكان حقهم أن يبقوه فلم يفعلوا. بل ولم يستعيضوا به غيره... وذلك يدل أيضا على أنهم كرهوا لمصر أن تتدرج فى الحكم الدستورى.

« وإذا كان الانجليز لم يعملوا وقتئذ للانسانية، وعملوا لتقوية الحكومة بأى شكل من أشكالها فكان من مقتضى ذلك أنهم حين أضعفوا الحكومة الدستورية أن يقووا الحكومة الشخصية أى الخديوية. ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل أضعفوها هى أيضا. ومن الشواهد على ذلك أن ناظر الحقانية وقتذاك (فخرى باشا) رفع تقريراً إلى مجلس النظار باستغناء النظارة عن المستشار القضائى (مستر سكوت). فانعقد مجلس النظار وقرر عدم استمرار مستر سكوت مستشاراً فى الحقانية، وأرسل تلغرافا بذلك إلى الخديو الذى أرسل لمجلس النظار تلغرافا بالموافقة والارتياح.

« فلم يكن إلا قليل حتى أكرهه اللورد كرومر على إلغاء ذلك القرار.

ونتج عن ذلك تمكن الضعف من قلوب النظار المصريين ، وزيادة الاستسلام من جانب الخديو ، ووقعت الحكومة كلها فى يد المعتمد البريطانى يفعل بها مايشاء .. وكانت السياسة العالية تجرى على هذا النحو فى مجراها أيضا . وأكبر الأمثلة على هذه السياسة التخلى عن السودان وتركه . وكان ما كان من معارضة الرجل الكبير محمد شريف باشا . . ولكنه لما لم ينجح بل استقال وجاءت وزارة نوبار باشا فأخلت السودان !

« هكذا جردت الأمة من سلطتها والحكومة الأهلية من هيبتها . فآمن المصريون بأن الإنجليز طامعون لامصلحون . وأخذ كل موظف يحتمى برئيس انجليزى . وأخذ العمد والأعيان يستعينون فى قضاء أعمالهم التى لاتنتهى بالتقرب من الانجليز .

« فنتج عن سياسة الوفاق الأولى فتور عام فى فكرة الاستقلال ، وتراخ فى مفاصل الوطنية الصحيحة . وانصرفت النفوس عن التعلق بالخديو الذى كان ينسب كل تصرف سىء إلى الانجليز »[1] .

وانتهى عهد (سياسة الوفاق) هذه بوفاة الخديو توفيق . ثم أتى عهد (سياسة الخلاف) منذ تولية الخديو عباس حلمى الثانى . وتناولت الجريدة هذه السياسة بالنقد كما فعلت بالأولى تماما . ومن ذلك ماكتبه لطفى السيد بعنوان :

(نتائج سياسة الخلاف)[2]

فيه أثنى على عباس انكاره على الانجليز سياستهم معه ومع والده من قبل . فنبه بذلك الشعور الوطنى فى الأمة . ثم اتبع ذلك باقالة الوزارة الفهمية ، واقامة وزارة أخرى ، ومضى فى أمثال هذه التصرفات التى أفضت إلى سياسة الخلاف . ثم تجدد الوفاق أو (شبه الوفاق) بتنصيب وزاره نوبار سنة ١٨٩٤ . ولكن هذا الوفاق الأخير لم يكن مبنياً على المنفعة المتبادلة ،

---

(١) مذكرات لطفى السيد : مجلة المصور : بتاريخ ٢٢ سبتمبر ١٩٥٠ .

(٢) الجريدة فى ٥ يوليه ١٩٠٨ .

بل كان مبنيا على الاستسلام للقوة . ثم لم تلبث أن توترت العلاقات بين عباس وكرومر . وبقى الحال على ذلك حتى جاء الدون غورست . وفى عهده عادت (سياسة الوفاق) للمرة الثانية أوالثالثة ، وكان من نتائجها التدخل من جانب المعتمد البريطانى بأكثر مما كان عليه قبل ذلك . وضاق المصريون بكل ذلك ، وعبرت عنه جرائدهم ومجالسهم ، وأدركوا يومئذ أنه أصبح عليهم أن يناضلوا من أجل دستورهم سلطتين ، وأن يحاربوا فى جبهتين . وفى هذا المعنى كذلك نشرت الجريدة مقالا لها بعنوان : (الغرض من سياسة الوفاق)[1] .

جاء فيه : « نظلم أنفسنا جدا إذا نحن اعترفنا بأن الانكليز منذ سنة ١٨٨٧[2] قد عملوا فى البلاد عملا واحداً يدل على أن لهذا الاحتلال آخرا ينتهى عنده .. وقد ادعى الانجليز على المصريين أنهم يحملون على أميرهم كما يحملون الانكليز أنفسهم ليقولوا بأن الاحتلال قد عاد إلى غرضه الأول ، وهو تأمين العرش الخديوى » .

« هكذا بقيت سياسة الوفاق تنتج فى نفوس المصريين نتيجة واحدة لا تتغير أبدا ، وهى اعتقادهم بأن السلطتين الشرعية والفعلية تهدفان إلى توسيع السلطة الشرعية بعض الشىء فى مقابل أن يرضى الخديو عن تصرفات الانجليز فى مصر . فى حين أن سياسة الخلاف كانت تنيح فى نفوس المصريين نتيجة واحدة لا تتغير كذلك ، وهى اعتقادهم بأن كلتا السلطتين الشرعية والفعلية لا تريدان توسيع سلطة الأمة ، وبعبارة أخرى لا تريدان بمصر خيرا من ناحية الدستور » .

وحين استقر فى نفوس المصريين هذا المعنى أدركوا أن مؤامرة خطيرة تدبر بين عابدين وقصر الدوبارة على الدستور المصرى . فاشتدت مطالبتهم به ، وكانت للجريدة وكاتبها لطفى السيد القدح العلى فى هذه المطالبة .

---

(١) الجريدة فى ٢ يوليه ١٩٠٨ .

(٢) فيها عقدت معاهدة لتحديد شروط الجلاء كان للانجليز فيها الغنم وعلى المصريين الغرم

وفى المجال السياسى كذلك رأينا لكاتب الجريدة جهدا من نوع ثالث وجه فيه الكلام للوزراء المصريين ، كما وجه الكلام من قبل للنواب فى مجلس للشورى والجمعية العمومية ومجالس المديريات ونحوها . فأفهم الوزير يومئذ واجبه نحو أمته فى ظل الحكومة المطلقة التى هو منها . وطلب إلى الوزارة أن تقوم مقام المجالس النيابية الصحيحة ما دامت مصر محرومة منها . وفى هذا المعنى يقول :

« إن الدستور لايخلق للأمة نظاما ديموقراطياً من العدم ، ولا يهبها قدرة على مواجهة حكومتها . ولكن الدستور هو تدوين الواقع من قدرة الأمة على أمرها ، وأخذها بزمام مصالحها . الدستور لايخلق فى نفوس الأفراد والموظفين صفات الحرية والاستقلال . ولكن الدستور يحمى كل الصفات وينميها ، ولا يجعل بعد ذلك للاستبداد عليها سبيلا . الدستور لايخلق حق مراقبة الأمة على حكومتها . لأن هذا الحق طبعى صرف موجود فى طبائع الأمم وفى طبائع الحكومات . ولكن الدستور يقر هذا الحق ويجعل الحكومة تعترف به اعترافاً صريحاً . علينا أن نفهم أنه إذا أعوزنا الدستور المكتوب لايعوزنا العمل على قواعد الدستور . وإذا نقصنا أن يكون لنا نواب يسألون الوزراء عن تصرفهم فى نظاراتهم فلا نعدم أن نسألهم على صفحات جرائدنا . وكما تكون الوزارة رهينة ثقة النواب بها كذلك نسعى أن يكون الوزراء رهينة ثقة الرأى العام . ويكفى فى ذلك أن يحترم الوزراء أمتهم ، ويطأطئوا رؤوسهم أمام ارادتها . إنا إذا سرنا على هذا النحو من العمل اختصرنا الطريق إلى الدستور ، وكان أخذه من أقرب مايكون[1] » .

ثم فى مقال له بعنوان (مسئولية الوزارة[2]) قال :

« مجلس النظار جزء من الحكومة . ولكنه من الحكومة المطلقة يعتبر الممثل الأول لسلطة الأمة . وإن كان تمثيله لتلك السلطة ضعيفاً جداً . إلا

(١) الجريدة فى ٣٠ أغسطس ١٩٠٨ لعنوان : (علينا وعلى الوزراء)

(٢) الجريدة فى ١٢ نوفمبر ١٩٠٨ .

أن النظار إذا رُشدوا استخدموا هذا المركز الوطنى للقيام للأمة بما يقوم به المجلس النيابى فى كثير من الأمور » .

ثم فى مقال له بعنوان : (الوزاوة فى شهرين[1]) قال :

« قرر مجلس شورى القوانين بأن لوائح التعليم هى اللوائح التى يجب عرضها عليه . فانظر ماذا عملت الوزارة الوطنية المسئولة ؟

عوضاً عن أن تحترم رغبة المجلس ، بل تحترم رغبات الأمة فى شخصه ؛ أبلغت مجلس شورى القوانين بأنه بأنه غير محق فى طلب تلك اللوائح . ولكن الحكومة تعرض عليه اللوائح مؤقتاً مع حفظ الحق فى أنها صاحبة السلطة المطلقة فى عرضها عليه ، أو عدم عرضها مرة أخرى . . ضحك على المجلس وعلى الأمة ! »

ثم ضرب الكاتب أمثلة سبعة صارخة فى الدلالة على عدم احترام الوزراء للأمة ، مع أنهم من أبناء هذه الأمة . وراح الكاتب يعلم الوزراء كيف يحترمون أنفسهم . وباختصار طالب الكاتب الوزارة التى تأتى الحكم أن يكون لها خطة واضحة فى تحقيق مطالب البلاد ، وأن يتوخى رئيسها اختيار الوزراء القادرين على تنفيذ هذه الخطة ، وأن يسأل الوزير نفسه عند قبوله الوزارة : هل أنا قادر على ما يرد منى أم لا ؟

* * *

تلك هى الامور الثلاثة التى اشتغلت بها الجريدة فى الميدان السياسى ، أو تلك هى المعانى الثلاثة التى قامت الجريدة بتلقينها للشعب المصرى والحكومة المصرية وقتئذ . وحسبها فى الحقيقة ذلك المقدار . غير أنه كان لكاتب الجريدة بعد اختفائها جولة أخرى فى مجال الفكر السياسى دارت حول فكرتين : إحداهما قديمة وهى (فكرة الاستعمار الاوربى) ، و الاخرى حديثة ظهرت عقب الحرب العالمية الثالثة ، وهى (فكرة ميثاق الأطلنطى). وسنكتفى بالإشارة إلى الاخيرة منهما ؛ وهى فكرة ميثاق الأطلنطى :

---

(١) الجريدة فى ١٨ يناير ١٩٠٩ .

ألقى الأستاذ الفيلسوف محاضرة فى هذا المعنى عنوانها : (الأخلاق وكيف ينبغى أن تكون لتحقيق تعاون عالمى) وذلك بقاعة يورت التذكارية فى اليوم التاسع والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٤٣ جاء فيها :

« التعاون العام بين أمم العالم موجود على وجه ما . وليس خاضعا لنظام معين . غير أن هذا ليس هو التعاون الذى يقصد إليه (ميثاق الأطلنطى) . بل التعاون المقصود بهذا الميثاق هو التعاون المستمر الذى يمنع الاعتداء ويؤدى إلى السلام الدائم .

ونحن إذا رجونا الخير وقدرنا ما نحن فيه اليوم من الضرورات الاجتماعية والحرج السياسى ، وقدرنا أن العالم أصبح لا يطيق بعد الآن حروباً على غرار الحروب الحاضرة ، وقدرنا حق قدره الارتقاء الاجتماعى فى العالم . ثم قدرنا أن هذا التعاون المرجو لم يأت طفرة ، بل هو فكرة اختمرت فى ضمير العالم وتداولتها بالبحث وبالتجربة عدة أجيال ، وقدرنا أن التجربة القاسية للأخطاء الماضية ستقنع العالم فى تسديد خطاه إلى الجد متى قدرنا كل ذلك وجب أن نتقبل مشروع السلام الدائم بغاية الارتياح . فقد آن لضمير العالم أن يتنبه ويجعل الإخاء الإنسانى حقيقة واقعة بعد إن لم يكن إلى الآن إلا لفظاً ليس له ما يدل عليه .

ثم شرح المحاضر كيف أن الناس بوازع من قانون الأخلاق الذى نشأ بنشوء الدولة — أى بوازع من سلطان البوليس والقضاء تركوا عاداتهم الأولى فى العدوان والجرى على أحكام « حق الأقوى » .

أما الحكومات فلم نجد كما وجد الأفراد (محاكم) تفض النزاع بينها ولا (بوليساً) يمنع الحكومات من اعتداء بعضها على بعض ، فيبقى فيها روح الفرد الأولى — روح القبيلة وروح الاعتداء على الغير استغلاء عليه واستعباداً له ، وطمعاً فى أرضه ومرافقه . وإذن فقد ظفرنا من المدنيات القديمة بأدب للأفراد ، ولم نظفر بأدب للحكومات يمنعها من الاعتداء والطغيان .

ومن العجيب أن الفلسفة اليونانية مع أنها استوعبت بحث الأشياء الانسانية لم تتعرض — ولو عن طريق التخيل — إلى امكان القضاء على الحرب بين الأمم ، ولم تفكر فى تحقيق الأخاء الإنسانى العام . ولا فى السلام الدائم . وكذلك الفلسفة الرومانية والفلسفة العربية .

« الحرب الهية فى ذاتها لأنها قانون العالم » كذا قال بعض الصوفية .

وقال أيضاً « الحرب آلهية بنتائجها التى تغرب عن تقديرات الناس » الخ .

والذى يراه دعاة السلام أن الحرب ليست من طبع الإنسان بل هى عادة تأصلت فيه لم يتمكن من القضاء عليها كما قضى على الرق ونحوه بوسائل التربية

خطر أول خاطر فى موضوع السلام الدائم (لولسلى) وزير هنرى الرابع . ثم خطر للأب سان بيير فى أوائل القرن الثامن عشر . وفى أواخر ذلك القرن انبعث صوت الأخاء الإنسانى من جامعة (كونسبرج) حين اقترح أستاذ الفلسفة فيها (إيمانويل كانت) إنشاء حكومة أمم لمنع اعتداء بعضها على بعض !.

وبقيت هذه الفكرة خيالا يداعب الساسة لم يفكر واحد منهم فى تحقيقه . ومن هؤلاء (ميترنيخ) الذى صرح فى مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ بأن هذه الكلمات الضخمة مثل « إعادة النظام الاجتماعى » ، « تحديد المذهب السياسى لأوربا » « والسلام الدائم المؤسس على توزيع عادل للسلطان » إنما نطق بها السياسة لطمأنة الناس ، ولتفيض على المؤتمر كرمة وعظمة . لكن الغرض الحقيقى للمؤتمر هو توزيع أسلاب المقهورين على القاهرين » .

وعشية هذه الحرب الحاضرة قال المعروف « ألدس هكسلى[1] :

---

(١) الدس هكسلى هو صاحب كتاب (الغاية والوسائل) بنى فكرته فيه على تربية الجيل على صورة تتدرج بنتائجها للوصول الى الانسان المثالى أو « الانسان اللا مرتبط » وشعر الكاتب باستحالة الوصول الى ذلك فقال فى نهاية كتابه :

« لا شك أن هذه المهمة قد نفذت على وجه ناقص . على أنى لا أعبر عن محاولتى اياها . فان رسم مذهب ولو رسما جزئيا خير من العدم الكلى » .

« إن أدب السياسة الدولية هو أدب القرصان ، أدب الخداع ، ولم يتغير هنا الأدب منذ عشرين ! » بل كما قال الفيلسوف سينك :

هذا هو قانون الانسانية : كل ما هو محرم عليك إتيانه وأنت فرد مطلوب منك إتيانه وأنت مدافع عن الدولة » !

وتلقاء هذه التجارب القاسية صـــدر (ميثاق الاطلنطى) فى أغسطس سنة ١٩٤١ . وبه حق لأنصار السلام أن يشعروا بأن السياسة الدولية صادقة هذه المرة . وكفيلنا بذلك الضرورة العالمية . وكفى بالضرورة كفيلا .

ورحب الكاتب بعد ذلك بالميثاق . وهو يرجو الخير من تدخل أمريكا فى السياسـة العالمية لتنصر الشعوب الصغيرة قائلا : « إن الديموقراطيتين العظيمتين أمريكا وانجلترة هما الكفيلتان ببقاء العالم ينعم بنعمة الحرية الشخصية » .

ثم أشار المحاضر إلى الادارة التى تنفذ الميثاق فقال أنها الإدارة التى ذكرها (مستر ايدن) ، وهى إيجاد قوة تنفيذية تكل إليها الأمم تنفيذ قرارات الميثاق .

ثم عاد المحاضر فتوجس خيفة من هذه الادارة التى تمثل نظامها وقال عنها (ألدس هكسلى) :

« والعنف لا يولد إلا العنف وهذه الادارة تشبه أن تكون عصبة مؤلفة للحرب لا السلام » . إلى آخر ما قال

الاستعمار الأدبى والميثاق الاطلنطى :

واستطرد المحاضر فى فكرته فقال بعد ذلك

غير أن هذه الوسيلة لا توصل إلى الغاية إلا إذا اقترن بها أبطال الاستعمار بجميع أسمائه وألوانه ، حتى يمكن القضاء على التنافس الحاد بين الأمم الكبرى ، ويمكن أن تستل من نفوس الأمم الصغيرة تلك الأحقاد التى ولدها استعلاء قوم على قوم .

وكما أن الفلسفات القديمة لم تتعرض لفكرة السلام الدائم كذلك لم تتعرض لفكرة استنكار الإستعمار . ولعل أول من يتعرض لها من الفلاسفة هو الفيلسوف (بنتام) الذى رأى أن الاستعمار غير نافع للأمم المستعمرة ، فضلا عن كونه مفسدا لأخلاق الأمم المستعمرة . ومن أجل هذا كتب (بنتام) رسالة إلى (تاليران) عنوانها « حرروا مستعمراتكم » . ثم أتى عهد جمعية الأمم السابقة فعرض على الأمم المستعمرة فى فرض عدة أن تنزل عن مستعمراتها وتضمها تحت السيادة الدولية ، فرفضت جميعاً بلا استثناء !

بقى أن نشير إلى أن بعض الكتاب السياسيين يرون أن الاستعمار والوطنية شيئان متلازمان . ولكن من اليسير أن يحب قوم وطنهم دون أن يقترن ذلك بميل إلى الاستيلاء على غير من الأمم الضعيفة .

وقد يكون ذلك صائراً من الوطنية الجامحة . أما الوطنية العاقلة — وطنية المتقبل — فإنها لا تتنافى مع حب الانسانية جمعاء ؛ كالرجل الفاضل — مع حبه لنفسه — يسعى إلى سعادة غيره .

والنتيجة التى حرص الأستاذ على الوصول إليها هى أن التعاون العالمى ممكن متى اقترن به إلغاء الاستعمار ، وأن أدب السياسة الدولية الذى جرى عليه العرف إلى الآن بعيد عن أن يحقق التعاون العالمى المطلوب ، بل لا بد لهذا التعاون من سياسة دولية أخرى غير السياسة التى جرى عليها .

الفصل الخامس

الجريدة فى الميدان الاجتماعى

لم نر لصحيفة مصرية من الصحف حتى قيام الحرب العظمى عناية كبرى بالمجتمع المصرى ما رأينا (للجريدة) منذ قام على تحريرها لطفى السيد. فلا (مصباح الشرق) للمويلحى، ولا (المؤيد) لعلى يوسف ولا (اللواء) لمصطفى كامل قد بلغت فى هذا المجال بعض ما بلغته الجريدة فى السنوات السبع التى عاشتها.

ومصدر ذلك أن العقل الذى صدرت عنه (الجريدة) كان يميل إلى التحليل والتعليل، ويميل إلى التفكير الفلسفى المنظم.

والمجتمع فى ذاته مجال من مجالات الفلسفة والتأمل. والمجتمع فى ذاته كذلك يتألف من الأفراد الذين تتألف منهم الأسرة، ومن مجموع الأسر تتكون الأمة. ولهذه الأمة جماعة تحكمها باسمها وبرغبة منها وهى الحكومة.

وعلى هذا الأساس توجهت عناية (الجريدة) إلى الفرد رجلا كان أوامرأه، وإلى الأخلاق الشخصية للأفراد والأخلاق العامة للجماعات، ثم إلى الأسرة المصرية فى المدينة أو القرية، ثم إلى المجتمع المصرى كله لوحدة مستقلة، ثم إلى الأداة التى تتولى حكم هذا المجتمع المعقد التركيب وهو الحكومة. كما عنى الكاتب فى أثناء ذلك بالمشكلات التى تواجهها الأمة المصرية، والمعانى التى يجب أن تتعلمها حتى تضمن لنفسها الرقى المطرد.

الجريدة والموظف المصرى :

بدأت الجريدة (بالأداة الحكومية) التى هى على رأس المجتمع المصرى : فساءها أولا أنها أداة تتألف من قطع لا يقع التجانس بينها ، وفى هذا يقول كاتبها فى مقال له بعنوان :

حفت الجنة بالمكاره (١)

« كذلك حفت الحقيقة غالباً بمؤثرات تجعلها مكروهة غير سائغة ينفر منها الإنسان لأول وهلة حتى يروض نفسه على السكون إليها .

... أنظر نظرة عامة إلى أية وزارة من وزاراتنا تجد الآلات أو القطع المكونة منها تلك (الماكينة) الادارية قطعاً متنافرة بطبيعتها لا تتفق أجزاؤها فى الشبه ، ولا فى المعانى النفسية ، ولا فى تقدير قيم الحوادث التى تقع كل يوم فى جوف الإدارة المشتركة . بل نجد الانجليزى يحتقر المصرى بطبعه ، ويراه أنقص منه فى درجة الإنسانية . وترى المصرى زميل ذلك الانجليزى يضمر له السوء إذا كان ضعيفاً أو يجهر له بالعداء إذا كان قوياً . . . .

ثم قال :

« إن المصريين مصيبون جداً حين يطلبون أن تكون أجزاء الادارة الواحدة متجانسة تمام المجانسة . فإما انكليز لا مصرى بينهم ، وإما مصريون لا انكليزى بينهم . وما دام الأول غير مستطاع وجب على الحكومة أن تبدأ منذ الآن بالاكثار من عدد المصريين فى الادارة المصرية » .

ثم تحدثت الجريدة عن هذه الفكرة التى دعت الانجليزى إلى حشو الوزارات بموظفين منهم . وقالت إن الغرض الأول من تنفيذها كان هو تعليم المصريين الادارة ، وترويضهم على الحكم .

---

(١) الجريد فى ٩ يولية ١٩٠٨ .

ولكنه ثبت للناس أن أكثر هؤلاء الانجليز من الشباب الذين لا يعلمون شيئاً، ولم يظهروا فى عملهم كفاءة ما، ولم يتعلم المصريون منهم شيئاً ما، بل أخذوا يعلمونهم أموراً كثيرة يجهلونها فى الادارة.

ولكن هذه الأمراض التى أصابت الحكومة وسببت كل هذه العيوب قابلة للشفاء، وشفاؤها ينحصر فى «حرية العمل».

فكما أن الوزير يجب أن يكون هو الوزير، والمستشار هو المستشار، يجب كذلك أن يكون الرئيس هو الرئيس، والمرؤوس هو المرؤوس، والمدير هو المدير، والمفتش هو المفتش وهكذا. ولن يكون ذلك أولا إلا بحسن الانتقاء.

ثم تعرضت الجريدة إلى (خلق الموظف المصرى) وجعلت تحلله من هذه الناحية وبيان الأسباب التى من أجلها مال إلى هذا النوع أو ذاك من أنواع الخلق.

فى أخلاق الموظف المصرى (التملق والزلفى والخوف من الرؤساء) فما علة هذه الأخلاق يا ترى؟

علتها الوحيدة هى انعدام الثقة. ذلك أن الموظف المصرى (منذ تخرجه فى المدرسة واشتغاله بوظيفته وارتقائه فى المناصب إلى نهايتها، وهو لا يستطيع أن يكسب ثقة اخوانه ولا ثقة أمته. بل لا يعقب الناس على كل ترقية ينالها إلا بقولهم (فدان حظ ولا قيراط شطارة). ثم إذا خرج من وظيفته انزوى فى عقر داره فلا يرى إلا فى الأفراح والمآتم. وهكذا يموت فى نفس الموظف شعوره بالاستقلال الذاتى فى أثناء عمله[1].

ثم وصف الكاتب كيف ينزلق الموظف المصرى شيئا فشيئا إلى مهاوى الملق والزلفى وكيف يدعى مع ذلك أنه كان لا يرى ذلك رأيا لولا أن الوسط

---

(١) الجريدة فى ٢١ يناير سنة ١٩٠٩

الذى يعيش فيه قد اتجه به إلى هذه الفكرة ، والحكومة التى يعمل لها تخشى عاقبة الموظف المستقل برأيه ، لأنها حكومة مطلقة .

ولكن الكاتب يرد على هذا الموظف قائلا :

« تكرر كل يوم أن النفس الواحدة إذا علت إلى معرفة قيمة الحياة ، وصبرت على احتمال غضب الوسط وانتقاصه إياها تشعت فى الأمة بأسرها . فعلى هذا الموظف أن يتمسك بمبادئه . وإلا كان جهله خير من علمه الذى قضى فيه أكثر حياته . . الخ .

ومن خلق الموظف المصرى (عدم الشعور بالمسئولية) . ومرجع ذلك سوء فهمه للوظيفة الحكومية . وسوء فهمه كذلك للغاية منها .

فالخطأ الأول ناجم عن نظر الكثيرين إلى أن الحكومة إنما جعلت لمصلحة الحكام لا لمصلحة المحكومين . والخطأ الثانى ناجم عن نظر الكثيرين أيضا إلى الوظيفة على أنها ضرب من ضروب الامتياز أو الغنيمة . والحقيقة أن الوظيفة — مهما كان نوعها — ضريبة على الموظف وليست منحة له . فإذا عجز لأى سبب عن أن يؤدى لأمته أكثر ما يستطيع أداءه من خدمة الحق أو العدل ، وتحقيق المبادىء التى يعتقد فى صلاحها فالواجب عليه أن يستقيل من وظيفته .

ثم ضرب الكاتب فى مقاله مثلا بسعد زغلول فى نظارة المعارف ، وبسعد زغلول فى نظارة الحقانية كذلك . وقد استقال من هاتين النظارتين حين لم يتمكن من التوفيق بين آرائه وارضاء السلطة القائمة [1] .

ومن عيوب الموظف المصرى أنه (لا يفهم حدود وظيفته) .

والسبب فى ذلك أنه ينظر إليها كمورد من موارد الرزق كالتجارة أو الزراعة ونحوهما . وليست الوظيفة كما قدمت إلا نوعا من الضريبة التى

---

(١) استقالة سعد زغلول الجريدة فى ١٤ أبريل سنة ١٩١٢

يؤديها كل كفء فى الأمة . فإذا كان القاضى غنيا فليستعفف ، وإن كان فقيرا فليأخذ كفايته من بيت المال . بهذا قضت نصوص الشريعة الإسلامية . فليس من الصواب إذن أن يظن الناس أن التوظف فى الحكومة مورد رزق ثابت ، يسعى إليه المرتزق كما يسعى فى التجارة والزراعة . بل يجب على الموظف الحكومى أو الحاكم ألا يرى فى الوظيفة إلا شيئاً واحداً هو امكان القيام بها من حيث العلم اللازم لها ومن حيث الاستقلال الواجب له فى عمله .

ومن عيوب الموظف المصرى (أنه لا يفهم حدود الطاعة[1]) ، وقد كتبت الجريدة فى هذا المعنى مقالا بدأه المحرر بحوار دار بينه وبين ثلاثة أشخاص فى ثلاث صور مختلفة . أولاها كانت بينه وبين مأمور ، والثانية بينه وبين حكمدار ، والثالثة بينه وبين أحد الأعيان .

وفى الحالات الثلاث شكا الموظف المصرى من أن رئيسه الانكليزى أهانه وشتمه فغضب الموظف المصرى لذلك واشتد بكاؤه . واستمر على ذلك حتى إذا قيل له (استقل إذن من الوظيفة إيثاراً لكرامتك) ، وسكت عنه الغضب ، وصمت عن البكاء والشكوى ، وكأن شيئاً لم يكن . فإذا ناقشه أحد العقلاء فى ذلك ، وفى عدوله عن الاستقالة أو الاحتجاج على الاهانة ، أجاب بقوله :

« وماذا أعمل وحدى ، وما جدوى عملى ؟ فإذا قلت له : وما الذى يضرُك أن تكون المصرى الوحيد المحافظ على كرامته وشرفه ؟ سكت أيضاً وكف عن الشكوى ، ثم اتبع ذلك بقوله على سبيل المغالطة : إن نظام الحكومة شىء ، ولكن الذى يدخلها تجب عليه الطاعة .

والطاعة معنى له حدود معينة بالقانون الأصلى ، أو بقانون الأدب

---

(١) الجريدة فى ٣ نوفبر سنة ١٩٠٨

والعرف ولكن هذا المعنى لاحد له مطلقاً فى نفس الضعيف .

كما أن السلطة معنى لاحد له مطلقاً فى نفس القوى .

وبلادنا قد تعاقبت عليها عصور الاستبداد التى جعلت خروج معنى الطاعة عن حدوده هو القاعدة — لا الاستثناء — كما فى البلاد الحرة .

فأول ما يجب علينا فى التربية السياسية أن نلاحظ استقلال الفرد قبل استقلال الأمة . لأن استقلال الفرد فى ذاته وفى عمله لا يتوقف مطلقاً على الاستقلال العام . بدليل أنه يوجد فى كل أمة مستعبدة أفراد أحرار مستقلون .

* * *

الجريدة والمجتمع :

ولندع الأداة الحكومية التى هى رأس المجتمع إلى هذا المجتمع لنرى كيف عالج الكاتب مشكلاته الخلقية بعد أن فرغ من علاج المشاكل السياسية

ولعل أول ما عابه الكاتب على هذا المجتمع المصرى أنه مجتمع (فاقد الشخصية) . وفى هذا يقول لطفى السيد[1] :

« صاحبك الذى يجفوك — لا لأنه غضبان منك — ولكن بالوكالة عن غيره لا تلمه بل اندب شخصيته ، فإنه ميت فى ثوب حى ، ومفقود فى زى موجود . وإنما هو امرؤ إمّعة لا ينفعك تقربه منك ، ولا يضرك تخلفه عنك . لأنه فاقد الشخصية ، لا يزيد نصراء مذهب بعبثـــه قوة ، ولا عددهم واحداً .

رحمة الله على السيد جمال الدين الأفغانى . لزمته فى الآستانة شهراً وبعض شهر ، وكلما جاء الكلام عن مصر كان يقول :

ما رأيت قوماً أقل استمساكا بشخصيتهم القومية من المصريين .

صدق السيد فإن منا من لا ينفك يفخر بانتسابه إلى العرب الأولين .

(١) الجريدة فى ٢٤/١٢/١٩١٣

كأن انتسابه إلى الجنس المصرى نقص وعيب . ولا يزال بعضنا ممن دست فيه الأعراق التركية . كما أن منا من يفضل الرابطة الدينية على الروابط الجنسية والوطنية . . . الخ .

واتجه الكاتب إلى عيب آخر من أخطر عيوب المجتمع المصرى ، وهو (عبادة البسالة[1]) .

حيث قال :

« تسحر العوام قدرة بطل من أبطال الحروب فَتَعْنُو له وجوههم ، ويشعرون نحوه بشعور يفسر فى أعمالهم الظاهرة بأنه العبادة بعينها . وإنهم بذلك ليشركون بالله أرباباً جدداً من دونه وهم لا يشعرون » .

والطريف أن الكاتب إنما ضرب المثل هنا بالأغانى المصرية فى عهد الحملة الفرنسية . وعرضها على قرائه ووجد أنها مقطوعات كلها اطراء لنابليون وتودد اليه وأعجاب به وبجيشه ، واظهار للتلذذ الكاذب بفتك العساكر الفاتحة بطوائف الغزو العرب ونحوهما[2] .

ثم مضى الكاتب يقول :

« فانظر كيف أن عبارة البسالة أفسدت على العوام شعورهم الطبيعى . أفسدت عليهم حب بلادهم . أفسدت عليهم تقديرهم للحوادث الواقعة تحت نظرهم ؛ حتى سمحوا لأنفسهم أن يتغنوا بمثل هذه المقطوعات . وغنوا فى عبادة البسالة حتى نسوا أن العرب والغز اخوانهم والمدافعون عنهم وأخذوا يترنمون بذكر انهزامهم أمام الجيش الفرنسى ! !

ثم ذكر الكاتب أنه لحب البسالة فى الشعب المصرى مظاهر شتى . منها على سبيل المثال :

حب المصريين للحكومة الفردية الاستبدادية ، لأن أساسها — كما يقول

(١) الجريدة فى ٨ فبراير ١٩١١ .

(٢) راجع المنتخبات . الجزء الأول ص ٢١٨ — ٢١٩ .

علماء السياسة — هو عبادة البسالة . ومنها الذل والضعف اللذان استوليا على نفوس الشباب ؛ لأنها أثر من آثار عبادة القوة والأقوياء ؛ ومسخ الشعور الحقيقي للعبادة وتحويله من الخضوع لله المنفرد بالقوة إلى الخضوع للأشخاص وإكبار القوة الوحشية.

ثم قال :

« إن عبادة البسالة ليست فى الحقيقة إلا مرادفاً للجهل الممزوج بالذل ، أو الذل الممزوج بالخوف ، أو الخوف المصبوغ بصبغة الحب والطاعة . أى أنها رذيلة اجتماعية تفوق جميع الرذائل فى أنها ليست رذيلة بسيطة بل مركبة من جميع رذائل الذل والخوف والكذب والتملق والنفاق . . . الخ . وكل رذيلة من هذه هى على الأقل صريحة ولكن عبادة البسالة بالمعنى الذى نعنيه ليس فيها شىء من الصراحة .

لحقيق بالانسان أن يكرم بنى الانسان ، ويعطى كل امرىء حقه . ولكن لا يصح أن يصل به سوء النظر أو الغفلة إلى حد أن يتخذ إلهاً مع الله !

ومن عيوب المجتمع المصرى (الرياء) . يقول لطفى السيد[1] :

« أرأيت الذى يقول رأيه فى مسألة بعينها ، ولا يلبث أن يغيره من غير سبب إلا شغفه بإرضاء عظيم ينتظر نفعه ويخشى غضبه ، أو اتقاء لأن يعلن عنه أنه غير محب لوطنه ؟

وبالجملة نعنى ذلك الذى يتخذ رأيه قميصا وقتيا يلبسه كلما كان متفقا مع « المودة » ، ويخلعه متى جاءت « مودة جديدة » يكره معها لبس ذلك القميص القديم .

ثم قال :

« لست أنتزع من الخيال صورة هذا الذى أصفه كما يصنع الشعراء . ولكنى ناقل من الطبيعة صورة قد شاعت فى الناس شيوعا لا أظن السكوت

---

(١) الجريدة أول فبراير ١٩٠٨ .

على محاربتها إلا ضربا من السكوت عن الحق . والساكت عن الحق شيطان أخرس .

« هذه الرذيلة — رذيلة الرياء — يستخدمها بعض الناس وسيلة للنجاح فى الحياة . وهى وسيلة نافعة فى البلاد الاستبدادية التى يتوقف نجاح الفرد فيها — مهما كان كفؤاً على رضا السلطان وأعوانه . ولاشىء يرضى السلطان غير العبادة . والذى يرضى بأنه يبيع نفسه عبداً ليشترى بثمنها قوتا يعيش به استبعد كثيراً أن يكون حافظا للصورة التى خلقه الله عليها ؛ صورة الانسان ذى الشخصية ، صورة الحرية . ومامثل هذا الناجح بريائه إلا كمثل الذى ينجح فى الحصول على الثروة من طريق السرقة . فبئست الوسيلة وبئست الغاية .

« قال أرسطو : خلق بعض الناس ليكون حاكما ، وخلق بعض الناس ليكون محكوماً . ولكنا نظنه قد أخذ هذه القاعدة من ملاحظته الشخصية لبعض قومه ، ولأخلاق جيرانهم من الأسيويين . وهذه الملاحظة لاتكفى وحدها لتقرير قاعدة عامة مثل هذه القاعدة . لذلك نقول إن الله فطر الناس على فطرة واحدة ، أو متقاربة الفروق جداً . إنهم جميعاً فطروا على الحرية الشخصية ! » .

وبدا للكاتب من عيوب المجتمع المصرى (انتشار البغى) بين طبقاته . وفى ذلك يقول : [1]

« أساس البغى فى نفس الباغى قوة تخدعه . غير أن الأمثلة فى هذا العالم قد يدل ظاهرها على خلاف هذه القاعدة . وإن النظر السطحى فى هذه الأمثلة الكثيرة الوقوع بين ظهرانينا هو على ماأظن الهادم الأعظم لسياج الأخلاق الفاضلة . والمقوض لدعائم الثقة فى مبادىء الخير ، بل المزعزع فى بعض القلوب لقواعد الإيمان بالله الواحد القهار . ومتى اعتقد القاضى ذلك رأى

---

(١) الجريدة فى ١٩١١/١٢/٣٠

استقلاله الذاتى خطرا عليه . فيضحى به على مذبح القوة القاهرة ، ويصبح لايفكر إلا كما يفكر الحاكم . ولا يرى إلا بعين الحاكم ، ولا يسمع إلا بأذن الحاكم . يطيعه الطاعة العمياء — لافى حدود القانون المكتوب — بل فيما يخرج عن حدود القانون والمصلحة أيضاً . ولا شك أن هذا النظر هو الذى جعل الحكومات الاستبدادية خطراً على أخلاق المحكومين ، لأنها تورثهم دائماً طبائع الاستبداد .

« لو أمعنا النظر لوجدنا أن جزاء البغى يقع على الباغى أولا ، لأن أول عمل من أعمال البغى هو بعينه أول سبب من أسباب سقوط الباغى وتملل قوته . فإذا رأيت امرأ بغى على آخر فاحكم بأن قوته بدأت تتحلل، وسلطانه أخذ يتقلص . فإن أسباب قوة القوى رضى النفوس به ، واجتماع القلوب إلى نصرته . فما بغيه إلا هدم لقوته . لذلك قالوا : على الباغى تدور الدوائر .

ومما عابه الكاتب الفيلسوف على المجتمع المصرى كذلك (تساهله فى الحقوق العامة) . وكتب فى هذا المعنى مقالا بدأه بقوله(١) :

« لأجل خاطرك قبلت أن أعطيه صوتى . هذه الجملة هى التى يجيب بها العمدة أو العين الذى جاءه صاحب له ، عزيز عليه رده ، يرجوه فى أن يعطى صوته (لفلان بك) عند الانتخاب بمجلس المديرية . وليس فى معانى الرجاء ولا فى ألفاظه ذكر أو إشارة إلى أن المطلوب انتخاب رجل نافع يعرف أوجاع الأمة ، ويريد أن يشفيها منها . ثم إن الذى يرشح نفسه للانتخاب لايقيس قواه العقلية وقدرته العملية ليعلم إن كان انتخابه مفيداً لبلاده ، أو مضراً بها ، لاشىء من ذلك يرد على خاطر المرشح .

« — كلا — أنا لاأعطى صوتى لصاحبك لأنى وهبته لصاحبنا فلان من قبل . وأنا آسف على أنك قد جئت متأخراً . وهذا هو الجواب الذى يستعمله مندوبو الانتخاب ليردوا به جواب وسطاء الانتخاب . لم نسمع أن أحداً

---

(١) الجريدة فى أول ديسمبر سنة ١٩٠٩

من المندوبين قال للواسطة بأن الناس ائتمنونى على هذا الصوت ، فلا أخونهم فيه ، ولا أعطيه لصاحبك لأنه غير كفء للنيابة عن الأمة » .

وهكذا كان من عمل الجريدة أن تعلم الشعب المصرى كيف يهيء نفسه للحياة النيابية الصحيحة ، وكيف يروض نفسه عليها ، وكيف يعرف حقه فى المسائل العامة ، وكيف يحافظ محافظة تامة على هذه الحقوق ، ثم كيف يكون له آخر الأمر مايسمى بالرأى العام . وفى سبيل هذه الأغراض أخذ الكاتب الفيلسوف يضرب للشعب المصرى المثل بألمانيا — كيف أنها كانت تطيع الامبراطور غليوم طاعة عمياء يوم كان هذا الامبراطور لايصدر إلا عن مصلحة ألمانيا ، ولايعرف الراحة ولا الترف من أجل هذه المصلحة . ثم وجد فجأة أن الشعب الألمانى انقلب على هذا الامبراطور ، وثار عليه وزراؤه الذين عينهم بنفسه ، وكان له وحده حق هذا التعيين .

ومن الأمور التى سخر فيها الكاتب من الشعب المصرى (حبه الألقاب والنياشين) . ذلك أنه فى الحكومات التى يستبد فيها بالحكم واحد فقط لاتكون للفرد حياة ظاهرة ، ولا شرف معترف به إلا بالإضافة لشخص الحاكم . وضحك الكاتب من بعض ذوى الألقاب والأوسمة ممن ينقلب زيهم — فى يوم عيد من الأعياد — إلى زى بطل من أبطال القرون الوسطى .

« كل صدره قصب يبرق ، تعلق عليه نياشين تلمع ، ويحمل بعد ذلك سيفاً لايستطيع أن يجرده ، ولاالسيف نفسه صالح لأن يجرد »[1] .

مضى الكاتب بعد ذلك يصف حال (الأفندية) فى دور الحكومة « كيف يتصاغرون فى حضرة البك والباشا . فهو إذا سار معهم وجب أن ينتحى الأفندى إلى آخر الماشين . وإذا جلس بمجلسهم وجب عليه أن يختار لنفسه آخر كرسى على الباب . ومن أجل هذا الشرف الوهمى تهافت الناس على الرتب والنياشين . يعطونها لامكافأة على عمل من أعمال البسالة — كما

(١) الجريدة فى ٨ يونية ١٩٠٨

يكون بين جماعة العسكر — ولكن بالرجاء وبأن الواحد منهم رجل طيب وغني !

« تعمل الحكومة ذلك لتجعل الناس يهتمون دائماً برضاها عنهم . ومع أن التفاضل بين الناس يكون دائماً بالتقوى وبالمواهب الإلهية، فإن الحكومات الاستبدادية تجعل رضاها فى حكم موهبة من مواهب الله » .

* * *

الجريدة والمرأة المصرية :

لم تقف عناية الجريدة بالمجتمع المصرى عند هذا الحد . بل تجاوزته إلى أمرين آخرين منحتهما كذلك من العناية أكثر مما فعلت الصحف الأخرى . وهذان الأمران هما : حرية المرأة من جهة ، والعطف على الفلاحين والعمال من جهة ثانية . أما حرية المرأة فقد شغل موضوعها حيزاً كبيراً من صفحات التاريخ . ومن أجله تحدث لطفى كثيراً عن قاسم أمين ، وأشاد بعمله فى تحرير المرأة المصرية . ووصفه بأنه فيلسوف اجتماعى مفكر بالأصالة . وأنه بكتابيه (المرأة الحديثة) ، (تحرير المرأة) قد أنهد سجن المرأة المصرية وأضاءت لها ظلمات الحياة المنزلية والزوجية ، وأصبحت تحس بأنها أم الرجل ، فلها احترام ، وأخته فلها عطفه وحنانه ، وزوجته فلها منه محبته لذاتها ، واعتباره لمركزها . « وقد هدى قاسم لهذا الدين القيم . ولكن أكثر الناس لايشعرون » .

« أخذ قاسم على عاتقه حمل هذا العبء الثقيل — عبء السعى بالمرأة المصرية إلى نظام العائلة ، وبنظام العائلة إلى الرقى الاجتماعى المنشود ، وبهذا الأخير إلى استقلال البلاد . فما علمت امرأ يخاطر بنفسه ، ويقف حياته لإحياء أمته بهذه الشجاعة الفائقة كما فعل قاسم .

وكما يجب على محب الانسانية أن يتحفظ من أن يلد لها أولاداً مرضى ، كذلك يجب على الإنسان الذكى ألا يلد لها المعانى المريضة أو ناقصة الخلقة .

وهكذا كان قاسم من بناة الحرية الشخصية ، ومن بناة الجامعة المصرية ، وكان له فضل كبير فى الرد على الأوربيين الذين طعنوا فى الدين الإسلامى ، ومنهم الدوق داركور .

« وكان قاسم فوق هذا كله كثير الحدب على الحركة الوطنية . ينظر إليها على أنها المولود الذى خرج من دم الأمة وأعصابها فعليها إذن أن تتولاه وتحسن رعايته » [1] .

وجد لطفى السيد أن من واجبه أولا أن يثنى على صاحب الفكرة فى تحرير المرأة ، وأن ينصره على أعدائه الذين اتهموا فكرته بأنها فكرة انجليزية احتلالية كبرت كلمة تخرج من فم هذا الذى ما أراد بها وجه الله . ولكن أراد بها إبعاد يوم يجب أن يكون فيه هذا القائل المتأخر سيداً لامسوداً كما هو الآن » .

ثم بحث لطفى بعد ذلك فى نظام الأسرة المصرية ، فقال فى كلمة له بعنوان:

بناتنا وأبناؤنا [2]

« كان فى عائلة الأمس بين الرجل والمرأة شبه تام فى الجهل ، وشبه تام فى النظر إلى الحوادث وتقديرها ، وشبه تام فى فهم السعادة الزوجية . أما الآن فإن الشاب الذى أتم دراسته يتطلع إلى معاشرة زوجة تفهمه ويفهمها . ولكنه لايتزوج غالباً إلا بابنة جاهلة أو قريبة منها ، بينهما فروق عدة : فرق فى التعليم ، وفرق فى الذوق ، وفرق فى الخلق ، وفرق فى فهم السعادة الزوجية. مع أن التعليم من شأنه أن يوجد بين المتعلمين شبهاً عظيما ؛ خصوصاً إذا كانت طريقته واحدة . وإذن فلا سبيل إلى ملافاة هذا الخطر إلا بالإكثار من عدد المتعلمات من البنات . ولابد للفتاة المصرية المتعلمة من أن تكون ذات طرفين : طرف متمدن مصفى بمصفاة التمدن الحديث ، تتفق به مع زوجها الشاب المتعلم . وطرف آخر يدخل فى تركيبه مقدار كبير من عادات

---

(١) الجريدة فى ٢٥ ، ٢٦ من أبريل سنة ١٩٠٨

(٢) الجريدة فى ١١ يونيه ١٩٠٨

السيدات المصريات ، تتفق به مع أمها وحماتها وعائلة زوجها . فخير للفتاة المصرية إذن أن تتم تعليمها بالمدرسة السنية عند الإمكان من أن تتعلم فى مدرسة الراهبات . . إلخ » .

ثم ختم الكاتب مقاله بهذه العبارة :

« خلوا بين البنات وبين سعادتهن . ولاتضيقوا عليهن متسع الحياة . ولاتعبثوا بسيادتهن اتباعاً لهوى الغيرة ، وخوفاً مما لاخوف منه عليهن . فإن المرأة الفاضلة أنفع للأمة من الرجل الفاضل أضعافاً بعدد ما ترزق من الأولاد » .

ثم قال الكاتب فى كلمة له بعنوان :

لاتضيقوا عليهن (1)

« نرى كثيراً من الذين يقولون بتربية المرأة يقولون أيضاً بمنعها من التوغل فى تعلم العلوم التى يتعلمها الشبان . أليس هذا يعد ضمنا دعوة إلى عدم تربيتها ؟ .

« ونرى كثيراً من الذين يقولون بتحرير المرأة يسوؤهم مع ذلك أن يروها تخرج إلى النزهة ، أو تعدل من زيها القديم ؛ فتضيف إليه ، أو تنقص منه ما جاءت به (المودة الجديدة) النافذة المفعول على الرجال والنساء على السواء بحكم حب الجميل وعدم الصبر على لباس واحد .

وإن أول درس يجب أن يلقى على الطفلة المصرية مع الألف باء هو كونها مخلوقاً حراً وهبه الله حريته . وما وهب الله لايسترده إلا الله . . » الخ .

ثم أمعن الأستاذ لطفى السيد فى مداعبة الرجال والتحدث إليهم بلسان الوقائع الملموسة . ونقل لهم فى ذلك كلمة من كلمات (تولستوى) عن المرأة . وذلك كله فى مقال نشرته الجريدة بعنوان :

---

(1) الجريدة فى ١٣ يونيه ١٩٠٨

المرأة أيضا[٢]

جاء فيه :

إذا غصب الرجل حق المرأة فى المساواة وحقها فى الانتخاب والتوظف ، فلقد غصبته حريته ، وأقامت نفسها عليه ملكا لا يرحم عند المقدرة ، ولا يجامل عند الحاجة ، ولا يغفر عند الزلة . كأن المرأة قد اتخذت من حب الرجل لجمالها سلاحاً تنتقم به منه على ما فرط فى تقدير المساواة بينها وبينه ، وتقتص منه على فكرته السيئة فى اعتبارها موضعاً للاستمتاع فقط . فهو يتحكم فى المملكة وهى تتحكم عليه فى البيت » .

ثم أوغل لطفى فى مداعبته للرجال حيث قال :

« قلتم لليهود انزلوا عن حق الحكم ، ولا تكونوا إلا تجاراً . قالوا نعم — ولكننا بالتجارة نملككم . ونصرف الأمور بينكم . فأنتم رضيتم من السعادة بالاسم دون الفعل . كذلك قلتم للنساء لستن إلا غرضاً من أغراض حبنا للزينة والتمتع . فقلن لكم : رضينا بهذا القسم ، بل بهذا الصغار . ولكننا سنكون سيداتكم بما ملكناه من قلوبكم ، وسنذيقكم عذاب الهجر أحياناً ، ومرارة التجنى أحيانا ، ثم نسخركم كالأنعام فى هذه الزينة التى اخترتموها لنا شعاراً . لتعلموا أينا السيد وأينا المسود .

« ألا تعطون المرأة حقها فى الانتخاب ، وفى ما يساويها بالرجل ، حتى ترضى هى أيضا بأن يساويها الرجل فى الحياة الداخلية ، ولكى يخف عنه ظلمها ، ويقل منه انتقامها ؟ »

ثم ختم الكاتب مقاله بهذه العبارة :

ومع ذلك فإن نساءنا — بارك الله لهن — لم يطلبن بعد مثل هذه المطالب المقلقة للراحة العمومية ، كما هو الحال فى انجلترا . بل لا يطلبن شيئا يعز علينا منحه لهن .

---

(١) الجريدة فى ٢٦ نوفمبر ١٩٠٨

يطلبن سعادتنا الفردية ، وسعادتنا القومية . يطلبن التربية والتعليم ! »

وفى خلق المرأة وجمالها الروحى لا المادى كتب لطفى مقالات عدة . منها مقال له بعنوان :

بناتنا [1]

جاء فيه :

« يجزع الوالدان وقد رأيا ابنتهما رمدت عينها رمداً يهددها بفقد العين. يجزعان من تصور أنها سقطت من أعلى السلم ، ففقدت إحــــدى ذراعيها . يخشيان أن ينتشر (النمش) فى وجهها فيشوه جمالها . يجزعان لكل عرض يلحق بجسمها ، ويكون من شأنه تشويه أعضائها . أو تقليل مقدار جمالها ؛ فتبور فى سوق الزواج .

ليس فى ذلك عجب . ولكن العجب هو أن الوالدين يشفقان على ابنتهما من العيوب البدنية، ولا يشفقان عليها من العيوب المعنوية: عيوب النفس والعقل.

يفكر الوالدان فى المبـالغة فى تجهيز ابنتهما . فيبتدئان — من سن الطفولة — يثقبان لها أذنيها ، ثم يأخذان بعد ذلك فى أن يشتريا لها كل عام شيئاً من الحلى .

يدأب الوالدان على هذه الطريقة المضحكة لتجهيز ابنتهما للزواج . كأن الزواج قرط فى الأذن ، وخزام فى الأنف ، وأساور من الذهب المرصــع فى الســاعدين ، وخواتم تأخذ بالأبصار فى الأصابع ، وقلائد وجلاليب وفساتين . وليس الزواج بشىء من ذلك . بل الزواج امتزاج روحين امتزاجاً لامفرق له إلا الموت . ذلك بأن الأقارب لايزالون يظنون إلى الآن أن الوفاق بين الزوجين محض صدفة ، وأن المحبة توفيق من الله يأتى ببركة الوالدين ، أو بجمال العروسين . ومادام الوفاق والمحبة يأتيان بالصــدفة ،

---

(١) الجريدة فى ١٤ مارس ١٩٠٩

ولا علاقة لها بتجانس النفوس ، ولا بتثقيف العقول ، فليصرف الأبوان جهدهما فى إيجاد مالا توجده الصدفة ، وهو الجهاز .

« ألا فاصرفوا ماتصرفونه فى الحلى والعروض فى تعليم البنات ؛ فإنه الحلى الدائم فى جمال الشبوبية وفى سنى المشيب ! » .

بهذه الطرق وأمثالها دعا الكاتب إلى حرية المرأة أولا ، ومساواتها بالرجل ثانياً ، وإلى العناية بتعليمها وتهذيبها بعد ذلك . كما طالب المصريين كذلك بأن يكونوا منصفين مع أنفسهم ؛ فلا يطلبوا الحرية للأبناء فقط وأمهاتهم رقيقات راضيات بالرق . ولا ينبغى لطالب الحرية أن يحرم غيره من أفراد الأمة ؛ كالمرأة التى هى نصف المجتمع !

وبذلك اجتازت الحركة النسائية فى مصر - على يد الجريدة كاتبها — هاتين المرحلتين :

الأولى — محاولة الكتاب الناشئين وغير الناشئين معالجة موضوع المراة لأن موضوعها أهون على كل خال من الكتابة فى السياسة .

الثانية — ظهور جيل جديد من النساء شعرت فيه المرأة بوجودها الخاص وبتبعاتها العامة فى المجتمع .

وانتقل الكاتب من مشكلة المرأة فى التعليم إلى مشكلة المرأة فى الزواج . فانتقد — أولا — فوضى الزواج فى الريف المصرى . وندد بكثرة الطلاق هناك. وذم تعدد الزوجات مع عدم القدرة على العدل بينهن . والانفاق عليهن. كما ندد بالزواج من بنات فى سن التاسعة ؛ لايكون نصيب إحداهن إلا الموت العاجل عقب الزواج مباشرة . وفى هذا من البله مافيه . ووجه نظر رجال الشرع والحكومة إلى هذا العبث والفوضى . ثم شكا بطء الزواج فى الطبقة المتعلمة . وهى أمل الأمة ، والحارسة على البذور الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى يزرعها الزارعون اليوم ، ويجنيها غيرهم غداً . إلى آخر ماقال .

* * *

بقيت مسألة أخيرة من المسائل الاجتماعية التى عنيت بها الجريدة . ونعنى

بها (الاهتمام بالطبقات الفقيرة) . وخاصة طبقة الفلاحين والعمال . وهنا لفت الكاتب أنظار قرائه بقوة إلى مافى هذه الطبقات من عناصر الخير ، وماتمتاز به من طهارة الأخلاق .

وجاءت كتاباته فى هذه الموضوعات شعرية — إن صح هذا التعبير — أكثر منها واقعية . وتبعه الكتاب المحدثون فى هذه الطريقة ، واستمروا أمثله فى الضرب على هذه النغمة الجديدة ، حتى خيل إلى الباحثين أن هؤلاء الكتاب المحدثين — وفيهم لطفى السيد — إنما يحاكون أدباء الغرب فى كل ذلك . مع أن الفرق مايزال عظيما بين الفلاحين المصريين والفلاحين الأوروبيين ، وبين القرية المصرية والقرية الأوروبية ! وبين العامل المصرى والعامل الأوروبى إلخ .

ومن المقالات التى كتبها لطفى السيد فى هذا المعنى مقال له بعنوان :

الرجل الطيب[1]

بدأها بقوله .

لست فى حاجة إلى مصباح (ديوجينس) لأبحث عن الرجل ، أو عن الرجل الطيب . إنى لأراه من غير مصباح فى ذلك الرجل الفلاح ، طويل القامة ، كبير الرأس ، كثيف اللحية . يسوق المحراث طول النهار بحركة بطيئة تدل على نفس صبورة[2] ، مملوءة بالرجاء . لايروعها خوف الحوادث الجوية تذهب بما يبذر إلخ .

ثم قال .

أرى الرجل الطيب حتى فى المدينة فى شخص ذلك الصانع الذى يظل نهاره يعمل ، وروحه الموسيقية تجعله يغنى من غير ملل ولا تعب ألحاناً مضبوطة وغير مضبوطة . ولكنها تزيد فى سروره وطمأنينته إلخ .

---

(١) الجريدة فى ١٩٠٩/٢/٢٣

(٢) صحتها صبور . وهى من الصيغ التى يستوى فيها المذكر والمؤنث : المؤلف .

ثم قال .

ارى الرجل الطيب فى ذلك التاجر يمضى النهار ، ولا يحلف بالطلاق على أنه مغبون فى صفقة البيع ، ولا يجأر بصوت خبيث يستنزل غضب الله على جاره من غير سبب !

ثم قال :

«إذا كنت أرى الرجل الطيب فى كل هؤلاء ، وجب علىّ أن أترك مايفهم من نظريات (هوبس) من أن هذه الدار الدنيا دار حرب ، يجب أن تتمشى فى سياستها على نظرية حق الأقوى . بل أقول إن طبيعة الإنسان هى السلام وما بواعث الحرب إلا أمراض اجتماعية تلحق جسم الانسانية . فنظهر بهذه الدما التى تقطر على ظبا السيوف . فإذا عاد مزاج الانسانيـة إلى الاعتدال ، وأعصابها إلى السكون عادت أصولها الطيبة التى تظهر — كما وصفت — فى جميع الطبقات .

وسنعود إلى مقالات الجريدة فى وصف الريف المصرى والتغنى به ، وبحياة سكانه ، وأخلاقهم وطباعهم فى الفصل الذى عنوانه (الجريدة فى الميدان الادبى) .

* * *

على هـذا النحو رسمت الجريدة للناس المثل الأعلى فى الحياتين الخلقية والاجتماعية ، كما سبق لها أن رسمت لهم شيئاً يشبه المثل الأعلى فى الحياة السياسية خاصة . وكان صاحب الجريدة أو محررها فى كل هذه الأحوال من القائلين بأن الإنسان ذو طبيعة ، هى أدنى إلى الخير منها إلى الشر .

وأن لكل طبقة من طبقات المجتمع احترامهـا الذى ينبغى أن يرعاه لها زعماء الأمة وقادتها من ذوى الرأى . وكان لطفى يحسن دائماً أن يؤلف بين هذا المثل الأعلى من ناحية ، والواقع الذى يلمسه بيـده ، ويراه ببصره من ناحية ثانية .

الفصل السادس

الجريدة فى ميدان التربية والتعليم

ليست سعادة البلاد بوفرة ايرادها ولا بقوة حصونها
ولا بجمال مبانيها وإنما سعادتها بعدد المهذبين من أبنائها
وبعدد الرجال ذوى التربية والذكاء والأخلاق .
مارتن لوثر

... لا نعلم كذلك أن أحداً شغل نفسه بتربية هذه الأمة وعنى بالاصلاح الخلقى فيها كما فعل لطفى السيد منذ اشتغاله بالجريدة واهتمامه فيها بشؤون التعليم اهتماماً لا يقل عن اهتمامه بالسياستين الداخلية والخارجية .

فإذا قلنا عن لطفى السيد إنه مربى الجيل الجديد لم نبعد .

إذا قلنا إنه أبو الشعب المصرى الحديث لم نسرف . فإن الأثر الذى تركه فى المجتمع المصرى من هذه النواحى لا يقل بحال ما عن الأثر الذى تركه الشيخ محمد عبده فى الناحية الدينية الخالصة .

فلسفة التعليم عند لطفى السيد :

وإن نظرة واحدة إلى آراء هذا الكاتب الفيلسوف فى شئون التربية والتعليم لترينا فى وضوح أنه صدر فى آرائه المختلفة عن هذه القواعد الثلاث:

الأولى : أن الإنسان خير بطبعه كما قال جان جاك روسو وأنه قابل للتربية والتهذيب ، وأن فى استطاعة الأمة أن تقوم على إعداد أبنائها على أساس هذا الرأى .

الثانية : أن الغرض من التربية والتعليم هو الحصول على صفة التوازن الخلقى والنفسى فى الأمة وفى الفرد . فعليهما معاً أن يهتما بتنمية العقل وبتنمية الجسم بقدر واحد فيهما تقريباً .

فالأمة التى تعنى بالعلوم العقليـة وحدها مهملة ، والأمة التى بالرياضة البدنية وحدها مهملة ، والأمة التى تعنى بالفنون الجميلة وحدها مهملة، وهكذا .

الثالثة : أن الغرض من التعليم فى نظر الباحث الاجتماعى بنوع خاص هو الحصول على أكبر قدر ممكن من التشابه بين أفراد الأمة الواحدة .ذلك أن التشابه هو المصدر الحقيقى للألفة ، والألفة هى السبب الحقيقى فى التضامن والوحدة ، والتضامن هو الطريق للتقدم الذى ينشده المجتمع . وفى رأى الكاتب هنا أن الدين يمكن اتخاذه قاعدة للتربية الخلقية ، حتى لا يفقد المصرى صورته وتسيطر عليه المادية الأوربية الكاذبة . من أجل ذلك يميل الكاتب أيضا إلى توحيد برامج التعليم حتى ينتج هذه النتيجة . كما يميل إلى التقريب بين طبقات المجتمع فى الأخلاق والعادات والمشارب أملا فى الوصول إلى هذه الغاية المطلوبة . وعنده أن الأمة التى تتقارب فيها وجهات النظر من حيث التعليم والتربية،ومن حيث الرغائب والأمزجة ، ومن حيث الآمال والأمانى ، ومن حيث المثل العليا بوجه عام هى الأمة الخليقة بالمجد والعظمة ، الجديرة بأن تسبق غيرها من الأمم فى مجال التقدم والرقى .

أدرك الأستاذ لطفى السيد هذه الحقائق ادراكا خاصا ، وجعل عنايته بالأخلاق موازية لعنايته بالسياسة. بل إن الاخلاق عنده كفيلسوف كانت جزءاً هاما من السياسة .

ومن أجل هذا كتب يقول :

يأخذنا بعضهم بأننا نكتب فى التربية . يقولون إن ذلك ليس مما تعنى به جريدة سياسية ، جاعلين مقدمة حكمهم مجرى الأحوال فى باريس ، حيث لا تتعرض الصحف السياسية لأمور التربية . وقد فاتهم أن القاهرة ليست باريس . وأن جرائد الأمم الكبرى المستقلة المشتبكة المصالح بقية أمم العالم لا تنفذ حركاتها السياسية . أما نحن — وحركاتنا السياسة منقطعة لا متواصلة.

وجرائدنا السياسية لم تقض بعد همًّا من السعي في نشر مبادىء الحرية الشخصية وتقرير وسائل الحرية السياسية ، ومحاولة تقوية الرأى العام المصرى ، وإصلاح خطته القديمة في فهم الحكومة ، والبحث في مسائل رقينا إلى مصاف الأمم المستقلة — وأهمها التعليم — أما ونحن كذلك فمن موضوع جريدة تعمل في السياسة أى في تدبير الأمة أن تبحث في التربية والتعليم(۱) » .

هكذا نظرت الجريدة بعين الاعتبار إلى أهمية التربية والتعليم على أنها مهمة سياسية بحتة فعولت عليها في تدبير الأمة ، وفي السير بها إلى مصاف الأمم الكبيرة المتحضرة .

يدلنا على ذلك أيضا استشهاده في مناسبات كثيرة بقول الفيلسوف الفرنسى جوستاف لوبون حيث يقول :

« بالخلق يحكم ستون ألف انكليزى مائتين وخمسين مليونا من الهنود يساوونهم على الأقل في ذكاء العقل . وبالخلق صار الانكليز على رأس أكبر مملكة استعمارية عرفها التاريخ . وعلى الخلق — لا على العقل — تؤسس الجمعيات والديانات والممالك . » (۲)

فكيف إذن قام لطفى بهذه المهمه التى نظر إليها نظرة خاصة ، وارتفع بها إلى مستوى المشكلات القومية الهامه ؟

لاشك أن مهمته هذه كانت تنقسم في نظره قسمين : قسم يتصل بعيوب المجتمع المصرى عامة . وقسم يتصل بمناهج التعليم وطرقه خاصة . أما العيوب العامة فقد تحدثنا في الفصل السابق عن طرف بسيط منها . ونريد في هذا الفصل أن نشير — قبل البحث في آراء لطفى وأفكاره من حيث التعليم إلى طرف يسير من الملاحظات الخلقية التى لهذا الكاتب الكبير ، أو الهنات التى لا تنحط إلى مرتبة العيوب الأولى أو تعد منها ، ولكنها مع ذلك تعبب

(۱) الجريدة في ۲۸ سبتمبر ۱۹۱۲ — العدد ۱٦۸۷ والمنتخبات جـ ۲ ص ۱۳

(۲) الجريدة في ۲۸ سبتمبر ۱۹۱۲

الأمم المهذبة ، وتنقص من قيمة الأفراد الذين أوتوا حظا ما من التربية . وقد اختار الرجل لقومه منزلة أدبية رآهم خليقين بها ، جديرين بالتسامى إلى مثلها . فلم يدع موضوعا من مواضع النقد إلا نبَّه عليه الأمة ، حتى لقد نقدها فى مواضع غاية فى الدقة . ومن ذلك على سبيل المثال — إنه أخذ على المصريين سوء اختيارهم ألوان الثياب المختلفة [1] . بل أخذ عليهم سوء فهمهم للأخبار والحوادث الجارية . وذهب إلى أن للحوادث طعما ، وأن بنا — نحن المصريين — نقصا فى تذوق هذا الطعم . ودق فى الملاحظة حتى أخذ على عامة المصريين عادة من عاداتهم فى الحديث ، وهى قطعهم له أحيانا بطائفة من العبارات مثل قولهم (من غير مؤاخذة — وبلا آفية — والله يكرمك) الخ . وسمى ذلك نقصا فى ملكة النطق ، كالنقص الذى عندهم فى تذوق الأخبار والأحداث ونحو ذلك بل أخذ عليهم عادة الاهمال فى تربية الحواس . وضرب المثل هنا بسيدة فرنسية قالت (أنها قضت أربع سنوات لم تكسر فى أثنائها طبقا ، ولم تصلح فى أثنائها القلم الذى تكتب به كل يوم . على حين سيداتنا المصريات يكسرن الآنية ويقلن : « انها انكسرت وحدها . ولولا الكاسورة ما كانت الفاخورة » الخ .

هذا كله من الناحية السلبية . أما من الناحية الايجابية فقد دعا الكاتب أمته إلى التمسك بعادات جديدة تتفق والحضارة الجديدة . دعاهم إلى حب الأزهار ، وإلى حب الجمال ، وإلى غشيان الحدائق العامة . وعجب كيف أن الحكومة لاتفتح أبواب هذه الحدائق للجمهور ليغشاها بالمجان . ثم سخر من الحكومة المصرية فى ذلك سخرية لاذعة فى قوله :

« إننى أؤكد لأنصار حكومتنا الشخصية أن فتح أبواب الحديقة للفقراء لايترتب عليه الجلاء ، ولاينتج اعلان الدستور ، ولايزيد سلطة الأمة مثقال ذرة ، ولا يخولها تحقيق أمر من شأنه أن يهدد الحكومة الشخصية فى شىء

---

(١) الجريدة فى ٩ فبراير ١٩٠٨

يعز عليها . ولا يترتب عليه الا ظل من تحقيق المساواة التي يدعونها ، وراحة للفقراء الذين هم عيال الله ، ! ! [1] .

وفي الدعوة إلى حب الجمال كتب لطفي مقالا بعنوان :

أحبوا الجمال تحبوا الحياة [2]

جاء فيه :

« إنك إذقست مقدار معرفتنا الجميل بالمستوى العلمي في مصر وجدت أن القدرين ليسا متناسبين وأن عقولنا تسبق كثيرا اذواقنا فإنها تستثيرها بما تشتغل به من تحصيل العلم وتطبيقه في العمل . أما أذواقنا فتكاد تكون جامدة على الحالة التي كانت عليها في ظلمات الجهل . ذلك لأننا لم ندخل في مجموع علومنا الفنون الجميلة ، ولم نجتهد في ترقية أكثرها طبيعة وانتشارا في جميع الأزمان ؛ وهو فن الموسيقى . ثم قال :

« إن غرض الموسيقى هو تنبيه كل خاطر من خواطرك وإنماء كل عاطفة من عواطفك : تتناول إنماء الأنفة والعزة ، تنفعك حين تقدم نفسك قرباناً إلى وطنك إذا حضرك وقت الدفاع عنه . تتناول إنماء عاطفة الرحمة عند القوة ، والعفو عند المقدرة . فما بال هذا العود وتلك الكمانجة لا تفيض على النفس إلا تأثيرات متشابهة كلها في معنى الذكرى والأسف والحزن ؟ » .

تلك أمثلة من نظراته وملاحظاته على الذوق العام . أما آراؤه في التربية فكثيرة منها على سبيل المثال :

رأيه في أن التعليم حق للجميع فمنذ دعا المصلحون دعوتهم إلى التعليم وأخذوا يقنعون الأمة بفوائد التربية ، انبرى لهم المحافظون ، وروجوا في مصر شائعة مؤداها أن التعليم ينبغي أن يكون محصوراً في أبناء الطبقتين العليا والمتوسطة . أما الطبقة الدنيا من أبناء الفلاحين والعمال فليس لها أن تتعلم

---

(١) الجريدة في ٥ يونيه ١٩٠٩

(٢) « في ٣ مارس ١٩٠٩

كغيرها . فإن تعليم هؤلاء يحرم الأمة من الأيدى النافعة القادرة على خدمة الأرض .

فرد لطفى على ذلك فى مقال له بعنوان :

التعليم الأدنى[1]

جاء فيه :

فزع المتنورون والحمد لله من المناقشة فى كون التعليم واجباً أو جائزاً أو مكروهاً ، إلا أقلية لاتكاد تذكر فى جانب الإجماع . تقول تلك الأقلية قولا لايستطيع سامعه أن يمسك نفسه عن الضحك . ونحن مع هذا نسوقه للقراء حتى يموت أثره . لأن الباطل تغلبه شهرته ، كما أن الحق ينميه التصريح به .

ثم قال فى الرد على الحجة السابقة .

« حجة بالغة حد الاقناع إذا كنا نريد بالتعليم الأدنى أن نخرج مثل هذه الطبقة التى أخرجتها الكتاتيب القديمة . لكنا نريد أن نعلم فى الكتاتيب الجديدة حب العمل . . .

أما البطالة التى سمحت نفوس المتخرجين فى الكتاتيب القديمة فليس سببها القراءة والكتابة . ولكن سببها الحقيقى الامتياز الذى كسبه المتعلم على إخوته وأولاد عمه الذين لم يتعلموا مثله فى الكتاب .

من أجل هذا وجب أن نقرب مااستطعنا من التعليم الاجبارى حتى تزول بينهم الفروق، وتنمو بينهم المشابهات التى هى الركن الشديد للتضامن القومى.

* * *

مصرية التعليم عند لطفى السيد .

وربما كان من أهم آراء الكاتب الفيلسوف فى التربية والتعليم رأيه الذى دعا فيه إلى أن تحتفظ الأمة بشخصيتها فى عالم التربية والتعليم كما احتفظت بها

---

(١) الجريدة فى ٢٣ نوفمبر ١٩٠٨ .

فى عالم السياسة وعالم الأخلاق والاجتماع . ولذلك دافع دفاعاً مجيداً عن مصرية التعليم فى مقال له بعنوان :

شىء فى التعليم (١)

انتقد فيه وزارة المعارف متهماً إياها بأن كل شىء فى مدارسها غير مصرى، « حتى تاريخ مصر ، حتى الزراعة المصرية ، وآداب الجلوس ، وآداب الأكل ، وآداب المحادثة كلها غير مصرية .

ومبدأ علم الأخلاق إن كان يجرى على لسان أحد الأساتذة عفوا هو أيضاً غير مصرى . أى ليس هو مبدأ الخير أو الشر المؤدى إلى الثواب أو العقاب فى الدار الآخرة . بل ربما كان ذلك هو مبدأ اللذة والألم ، أو مبدأ حب الذات أو نحو ذلك .

وصورة الجمال التى ترتسم فى نفس المتعلم فى تلك المدارس قل أن تكون مصرية . وبناء المدرسة ونظامها قل أن يكون مصرياً . والنتيجة أن مدارس حكومتنا ليس فيها من المصرية إلا نسب التلاميذ ، وتربة الأرض القائمة عليها المدرسة » .

غير أن الكاتب الفيلسوف استثنى من المدارس المصرية جمعاء مدرسة واحدة فيها مسحة مصرية ; هى مدرسة القضاء الشرعى « وإن كان فى اسمها ما يدل على أن التعليم فيها مقصـــور على ما يلزم القاضى الشرعى . غير أن بروجرامها ، وما نعهـده فى كفاءة أساتذتها ، وما رأيناه من عادات طلابها ، وحفظهم للروح الشرقية كما حفظوا زيهم الشرقى ; كل ذلك من شأنه أن أن يخرج رجال علم مصريين » .

هكذا أبدى الكاتب اعجابه بمدرسة القضاء الشرعى ، واستثناها من الحكم الذى قضى به على المدارس المصرية وقتئذ . فقال :

فإذا أخرجت مدرسة القضاء الشرعى من بين مدارس الحكومة لأمكنك

أن تقول إن نظارة المعارف عندنا شركة تعليم أجنبية ؛ كجماعة الفرير أو الجزويت ونحوهم . وعذر حكومتنا المصرية فى ذلك أنها تعد التلاميذ لأن يكونوا موظفين للانجليز . ولكن ما عذر جمعياتنا الخيرية ؟

لقد استهانت الحكومة بالعناية بتمصير التعليم من بعد رفاعة الطهطاوى، وأبى السعود ، وعلى مبارك ، الخ .

يجب أن يكون التعليم أهلياً لا حكومياً :

وكان من رأى لطفى السيد أنه لا ينبغى للحكومة المصرية أن تحتكر التعليم بل عليها أن تتركه للأهالى والمجالس المديريات ونحوها . وقد رأينا من قبل كيف طالب لطفى السيد بأن تعطى هـــذه المجالس حق فرض الضرائب اللازمة للتعليم ؛ بشرط أن يكون التعليم فيها أهليا بالمعنى الصحيح ، غير خاضع للوائح الحكومة .

وقد هال الكاتب يومئذ أن يكون عدد السكان المصريين اثنى عشر مليونا من الأنفس ، ثم لا يكون عدد طلاب الشهادة الثانوية أكثر من أربعمائة . وإذ ذاك استشهد الكاتب بالكلمة المأثورة عن مارتن لوثر .

وفيها يقول :

ليست سعادة البلاد بوفرة ايرادهـا ، ولا بقوة حصونها ، ولا بجمال مبانيها . وإنما بسعادتها بعدد المهذبين من أبنائها ، وبعدد الرجال ذوى التربية والذكاء والأخلاق » .

ثم علق الكاتب على ذلك بقوله :

« إذا كانت سعادة الأمة متوقفة على عدد رجال الأخلاق والذكاء فيها — كما قال لوثر — فهل نحن من هذه السعادة على بابها ، أم نحن لا نزال بعيدين عنها ؟ ».

نظارة المعارف ومذاهب التربية

حرصت الجريدة — كما قدمنا — على أن تربط أمر الحرية والدستور

بأمر التربية والتعليم . وهذا الطريق — وهو طريق التعليم — وإن كان طويلا ، إلا أنه يعتـــبر قصيرا متى كان الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذا الهدف .

وقد كان لنظارة المعارف — كغيرها من النظارات — مستشارون من الانجليز — وكان هؤلاء يأخذون الأمة المصرية بالرأى القائل : « إنه يجب الحد من تربية الشرقيين ، من سكان البلاد الواقعة تحت سلطان الدول الأروبية وحصر تعليمهم فى دائرة ضيقة ؛ هى دائرة الانتفاع بالمتعلمين منهم كآلات فى إدارات الحكومة ، لاينبغى أن تصل بهم التربية إلى توفير الصفات اللازمة للحرية فى الفكر ، والاستقلال فى العمل » . وهى كلمة مشهورة لبعض الساسة الانكليز ؛ قالها على أثر حادثة قتل فيها بعض عظمائهم بيد لشاب هندى .

كانت هذه العبارات وأمثالها تخيب ظن الكتاب المصريين ، وتخيفهم وتزعجهم . ومن أجلها كانوا يراقبون نظارة المعارف مراقبة دقيقة ، ويرسمون لها الخطط التعليمية الكثيرة ، ويحضونها على العناية التامة بإعداد المعلمين الأكفاء الذين يفهمون الفرض الحقيق من التربية .

قالت الجريدة بعد ذلك .

« فإذا لم تكن نظارة المعارف مقيدة نفسها بهذه الأمور السابقة كلها ، فمن حقنا أن نبين لها آمالنا فى التربيـة . لأن الحكومة مهما كان شكلها لاتعمل إلا باسم الأمة ، ولمصلحة الأمة . وعلى طريقة ترضى الأمة » .

ومن ثم شرع الكاتب فى شرح مذاهب التربيه قائلا أنها تختلف باختلاف الفلاسفة (١) .

« فالفيلسوف الوضعى يقول لابنه . يابنى اهتد بهدى أستاذنا أوجست كونت . وعليك بعلوم الرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء والبيولوجيا والسوسيولوجيا إلخ . .

(١) الجريدة فى ١٤ يوليه ١٩١٤ — العدد ٢٢٣١

« والفيلسوف النظرى يقول لابنه . يابنى ساعد نفسك على شوقها إلى الكمال . ولا كمال فى المادة . إنما الكمال فى تصفية النفس الناطقة ، والبعد بها عن الانغماس فى شهوات هذا العالم السفلى . اقصد فى طلب الرزق . وحسبك منه الكفاف . ولا تترك فرصة الموت فى سبيل الدفاع عن مظلوم ، والقيام بحماية الوطن . فإن الموت خمر الصالحين يشربونها فتنقلهم من عالم الشرور إلى عالم النعيم .

« والفيلسوف الاقتصادى يقول لابنه : يابنى إن المثل الأعلى للرجل هو أكثر الناس انتاجاً لزيادة الثروة العامة . وماالأعمال الانسانية إلا شبكة ؛ خيوطها الأخذ والعطاء . يقول ذلك بصوت تكاد تسمع فى نبراته رنين الذهب والفضة . ذلك قانون الطبيعة . وما كان لنا أن نغير طبائع الأشياء .

« وغير هؤلاء من الفلاسفة يقول لابنه : يا بنى إن الحق هو القوة . وماالقوة إلا القدرةعلى أن تكون سالباً لامسلوباً ، وآكلا لامأكولا . وذلك هو المثل الأعلى للتربية عملا بقانون الطبيعة . . .

« عجباً للناس : ما أكثر اختلاف نظرهم إلى مايسمونه الطبيعة . كأن الطبيعة متعددة الذات بمقدار تعدد مذاهبهم وآرائهم .

« وتلك مذاهب العلماء . أما العامة فلها مذهب على قدرها ، ومقدار فهمها . وقد وضعت هذا المذهب فى صيغ معروفة . منها قولهم :

يابخت من بكانى وبكى الناس عليّه . لامن ضحكى وضحك الناس عليّه .

اكسر للبنت ضلع يطلعلها ضلعين .

العصاية من شجر الجنة .

الولد لخاله والبنت لعمتها .

اللّى ماعندُه قرش مايساوى القرش .

اللّى ماهو ديب تاكله الدياب .

« وفى ظننا أن المبادىء المختلفة لايبعد أن تكون كلها طبيعية لأن الطبيعة

إذا كانت كلا واحداً فإنها مؤلفة من عناصر متناقضة المزاج . لذلك نحاول فى مقدماتنا كلها أن نختار من المذاهب المختلفة أكثرها موافقة لنا ، وتحقيقاً للمثل الأعلى للرجل فى خيالنا المصرى » .

ثم قال :

« والخلاف ظاهر بين الفلسفة الوضعية والفلسفة النظرية . وبينهما وبين المذهب الجديد لبرجسون خلاف أيضاً . وكلما اتسع ميدان الخلاف بين هذه المذاهب الثلاثة كان توغلنا فى اللا أدرية بالنسبة للتربية على الأخص أمراً مقضياً . فإن هذه المذاهب وفروعها قد جعلت الناس فى هذا الزمن أكثر تناقضاً فى مطالبهم من التربية منهم فى الزمن السابق القريب . . . .

وهكذا نشأت فى صدور الآباء والمربين مفارقات كامنة غاية فى العجب من حيث طرق التربية ؛ سخر منها الفيلسوف الألمانى (ريشتر) . وهذه المفارقات هى السبب فى سير الآباء على نظم فى التربية يعارض بعضها بعضاً . بل ذلك هو السبب فى هذه الحيرة الاجتماعية التى لها مساس بالتربية ؛ وهى : هل الأولى أن تهدف التربية إلى توسيع دائرة المشابهات بين أفراد الأمة ، حتى يسهل بينهم الاتفاق على أمهات المسائل، وتتأكد بينهم روابط التضامن؟ أم الأولى اعتبار هذه الطريقة لاتخرج إلا أناساً كأسنان الحمار ، من قدٍّ واحد، وتنزل بالمستعد للنبوغ منهم إلى صف غير المستعد له ؟

« على أن نمط التربية يتغير فى كل جيل بتغير المذاهب الفلسفية، ومن ثم وجب علينا فى مصر أن ندرس المذاهب الثلاثة المتقدمة من مذاهب التربية. وهى المذهب الوضعى ، والمذهب النظرى ، والمذهب المادى الواقعى . وعلينا أن ندرك دئماً أن لكل أمة استعداداً خاصا لنوع خاص من التربية . وذلك تبعا للمسافة التى قطعتها فى التطور ، والعادات ، والأخلاق . على أن التربية عندنا فى مصر لاتستطيع أن يكون لها طابع خاص بها ، ولا اسم معين من أسمائها . لأن التربية عندنا فى حال انتقال واختيلر ؛ هما أظهر مالها من

الصفات المميزة . ذلك أن المثل الأعلى للرجل المتعلم فى جامع الأزهر ليس هو المثل الأعلى فى نفوس المتعلمين فى مدارس الحكومة أو التعليم الحر ، ولا هو بعينه المثل الأعلى فى نفوس متعلمى البعثات الدينية ، كالفرير ، والجيزويت ، والبروتستانت . على أن هذة الفوضى إن كانت من عملنا فعلاجها ينبغى أن يكون من عملنا كذلك . وهنا نسأل نظارة المعارف :

هل يبنى التعليم على قاعدة دينية أم دنيوية ؟

هل يتجه إلى إنماء الملكات الفردية إنماء متعادلا عند جميع أفراد الأمة ؟

هل تعطى المتعلم فكرة عن الحياة الانسانية ؟

هل التعليم عندها مهذب للنفس . أم يلقى بها فى مغاور الصدفة ؟

وبعبارة أخرى — هل وزارة المعارف وضعية أم نظرية ؟

وهل تستفيد من تجارب الأمم الأخرى ؟ ، إلى آخر ماقال(١) .

وهكذا توالت بحوث الجريدة فى موضوع التربيـة ومتعليم . وأظهرت الجريدة فى هذه البحوث على اختلافها اهتماما خاصا بتلك الأمور . وكان رائدها فى ذلك هو الأخذ بيد وزارة المعارف فى كل مشكلة من مشكلاتها ، وعرض الآراء المتضاربة فى هذه المشكلة ، وتغليب الرأى الصائب منها قدر المستطاع . ومن ذلك مانشرته الجريدة بعنوان :

المذهب العملى للتربية والتعليم(٢)

وقد جاء فيه :

« لعل أول ما تهدف إليه البيداجوجيا الحكيمة هو تنبيه العقل الإنسانى من جميع جهاته وضواحيه ، وحفظ الموازنة بين قوى الملكات المتضادة .

---

(١) الجريدة فى ١٣ يولية ١٩١٤

(١) الجريدة فى ٣٠ يوليه ١٩١٤

فلا يجوز أن تضحى العناية بالبدن للعناية بالعقل ، ولا العناية بتهذيب العقل للعناية بتهذيب . ولا أن يضحى بتنمية مشاعر الشخصية والاستقلال لتنمية فضيلة الطاعة .

« ونقول الآن بإجمال إن التعليم الأولى والتعليم الابتدائى بعيد كل منهما عن ان يقرب التلميذ من الخير ، ويبعده عن الشر ، ويجعل له فكرة خاصة فى الوجود الانسانى . وأما التعليم الثانوى — مع أنه كل شىء فى التعليم — فبرامجه أنقص ما يمكن . ومن ثم وجب أن تطول مدته إلى خمس سنين أو ست ؛ ليـــدخل على برامجه المنطق ، والأخلاق ، والمذاهب الفلسفية ، والبيولوجيا ، والتوسع فى العلوم الموجودة فعلا إلى حدٍّ يجعل المتخرج كفؤاً للتوظف فى الحكومة ، أو الاختصاص بفرع من فروع الدراسة العالية ، كالحقوق ، أو الطب ، أو الهندسة .

« أما التعليم العالى فالمسألة فيه مسألة أساتذة لا أكثر ولا أقل » .

وعاد الكاتب الفيلسوف يلخص الغرض من التربية فقال :

« عندى أن التربية فى مصر يجب أن ترمى إلى غرضين :

أولها — أن يسترد المصرى فضائله الاجتماعية التى جنى عليها الاستبداد الطويل ، بشرط أن يبقى مع ذلك مصرياً .

والثانى — أن تسلح ملكاته بالعلوم والمعارف ليكون قادراً على مزاحمة غيره فى بلاده مزاحمة القرين للقرين فى المسائل العلمية ، والعلمية ، والفنية ، والاقتصادية ، وغيرها » .

أما العلوم التى يتلقاها الشبان فى المدارس فإن الكاتب الفيلسوف ينصح بأن يكون تعلمها فى تلك المدارس مبيناً على هاتين القاعدتين :

الأولى — البعد بالتعليم — جهد المستطاع — عن الكتب أو التقدم بها ؛ حتى لا يصير التلاميذ عبيداً لهذه الكتب ، وأسرى لمؤلفيها .

الثانية — أن تكون المدرسة صورة مصغرة من المجتمع ، يتعلم الطالب

ـــ قدر طاقته ومواهبه ـ كل ما يحيط به . حتى إذا خرج من المدرسة لا يكون غريباً عن الحياة نفسها ، أو يكون محتاجاً إلى من يقوده فيها ، كما يقاد الذى لا يبصر ضوء النهار .

ثم قال الكاتب :

« وبهذه المناسبة يضحكنى أن يعيب علينا أننا نبيح للطلبة تعلم السياسة . نعم ـــ نحن من الذين يقولون إن الطالب ـــ لا التلميذ لا تكمل معلوماته إلا بتعرف المبادىء السياسية وتصورها ، من عهد أفلاطون إلى الآن[1] » .

وأخيراً حذر الكاتب من أن يكون الغرض من التعليم ـــ كما يقول أحد النظار الانجليز لمدرسة ثانوية فى مصر ـــ « إننا نعلم لتخرج موظفين للحكومة » .

وقد رأى الكاتب فى هذا التصريح الخطير ما يدله دلالة صريحة على « أن الحكومة لا تبغى من وراء التعليم أن توصل الأمة المصرية إلى استقلالها الذى ينشده لها المخلصون من أبنائها[2] .

* * *

ونترك الجريدة جانباً ، ونلقى نظرة أخرى على شىء من مجهود الأستاذ لطفى السيد فى التعليم بعد اختفاء الجريدة . والذى يعنينا من هذه الجهود هو رأيه فى رسالة الجامعة . وقد ألقى لطفى السيد فى ذلك محاضرة عامة ـــ كان لى شرف سماعها ـــ تحدث فيها عن رسالة الجامعة حديثاً لا نجد ما نختتم به هذا الفصل خيراً من أن نقتطف منه العبارة الآتية :

« الجامعة هى جماعة من العلماء أخلصوا العلم ، فوقفوا عليه ملكاتهم ووقتهم يخدمونه كما يقف الرهبان أنفسهم على عبادة الله .

---

(١) الجريدة فى ٥ سبتمبر ١٩١٢ .

(٢) الجريدة فى ١١ أبريل ١٩٠٨ ـــ بعنوان : نحن والاستقلال .

وإلى جانب أولئك العلماء شبان أذكياء سمت بهم هممهم إلى أن يقفوا شطرا من شبابهم لتثقيف عقولهم وتوسيع آفاقها بتعليم ما لم يكونوا يعلمون وتهذيب نفوسهم بتعويدها تقليد أساتذتهم فى كيفية نظرهم إلى الحياة، وترفعهم عما يتناحر العامة عليه من الشهوات . فمنهم من تطيب نفسه عن كل ما هو خارج عن هذه الدائرة فيبقى فى الجامعة أبداً . وأولئك هم علماء المستقبل وآخرون يكتفون بدرجة من العلم يخرجون بعدها من الجامعة يضربون فى الحياة الخارجية . وهؤلاء هم الرجال المثقفون الذين بمقدار عددهم يقاس مجد الأمة .

أما الغرض من التعليم الجامعى فهو تثقيف العقل لا ملء الحافظة، وتنمية ملكة البحث العلمى . ومعرفة أنهاجه وأنماطه ، وتوسيع آفاق الإدراك . فالذى يعتمد على الحفظ المجرد ، والذى يعتمد على الأستاذ يأخذ نظريته قضية مسلماً بها من غير تفكير شخصى واقناع ذاتى كلاهما ليس طالب علم فى حقيقة الأمر .

وعلى هذا الأساس أنشئت هذه الجامعة الحكومية . وعلى هذا الأساس نحن حريصون على استقلالها لا عن التأثيرات الحكومية فقط ، بل نصونها عن تأثيرات البيئات السياسية المختلفة أيضاً . وعندكم أمثلة من تاريخ الجامعات الأوروبية التى دخلتها المؤثرات السياسية فلم تنجب نوابغ ، ولم تقم بشىء من رسالتها ، وتضاءل أمرها إلى أن صارت مكاتب دعايات للقاهرين المستبدين .

وأحب أن أكرر دائماً ما ذكره أحد أساتذة الجامعة الأولين من أن بناء حى للطلبة الجامعيين أجدى على الجامعة والتربية الجامعية من بناء إحدى الكليات . كذلك لا أكتمكم أن الذين وضعوا قوانين الجامعة وهم : المرحومان ثروت باشا والأستاذ ده جوى وأنا كنا نتداول فى أن يكون بعض الطلبة أعضاء فى مجالس التأديب تدعيماً لتربيتهم الاستقلالية .

ولكننا آثرنا أن نرجىء النظر فى ذلك بضع عشرات من السنين تثبت فيها التقاليد الجامعية ، وفيها يثبت الطلبة بسلوكهم فى إدارة حيهم الجامعى ما ينبغى من الصفات للقاضى العادل .

ومن رسالة الجامعة مساعدة التطور الاجتماعى بكل ما فى وسعها من ضروب التجديد : التجديد فى اللغة ، التجديد فى النثر وفى الشعر ، التجديد فى نظرة الناس إلى الفنون الجميلة . ولا يفوتنى أن أنبه إلى أن هذه الرسالة تتناول أيضاً الموسيقى والغناء ، لما لهما من الأثر الطيب فى الأخلاق ، ولأنهما أيضاً لهو جميل لابد منه . وعلى كل أمة أن ترقى أسباب لهوها المرح كما عليها أن ترقى أسباب جدها العابس .

الفصل السابع

الجريدة فى الميدان اللغوى

رزقت العربية بالكثيرين من صفوة المصريين ممن أظهروا حبهم لها ، وافتتانهم بها ، وغيرتهم عليها . ذلك بأنهم نظروا إليها على أنها اللغة القومية ، وأول مقوم من مقومات الشخصيـــة المصرية . وفى الذى نعلمه من تاريخ الطهطاوى ، وأبى السعود ، وأديب اسحق ، ومحمد عبده ، والنديم ، والمويلحى الكبير ، والمويلحى الصغير ، وعلى يوسف ، ومصطفى كامل مايدل دلالة قاطعة على عناية المصريين بلغتهم ، وذودهم عنها ذودهم عن أوطانهم وأموالهم وأرواحهم . لأن الذود عنها ذود عن الكرامة المصرية ، والشرف القومى ، والديانة الإسلامية ، والقرآن الكريم .

وبلغ من غيرة المصريين على اللغة العربية أنهم وقفوا بالمرصاد لكل تقرير أو منشور أو خطاب صغير أو كبير صدر عن الحكومة المصرية ، أو الوكالة البريطانية . فإذا وجدوه مكتوباً بالعربية إلى جانب اللغتين الانجليزية أو الفرنسية رضوا وسكتوا . وإذا وجدوه مكتوباً باللغة الأجنبية وحدها ثاروا وسخطوا ، ونبهوا الحكومة أو الوكالة إلى خطورة هذا الخطأ الذى وقعت فيه[1] .

غير أن اللغة التى بلغت من نفوس أهلها هذا الحد ، واستأثرت من حبهم وأخلاصهم بهذا القدر كان لابد لها — لكى تصبح خليقة بتقدير أهلها — أن تخضع نفسها لقانون التطور ، وأن تبدى استعدادها للتجديد فى الألفاظ والتجديد فى الأساليب ، وأن تصبح من المرونة والطواعية الصحيحة بحيث تقبل كل تغيير ، وتواجه كل موقف ، وتسد كل حاجه ، وتتسع لكل شىء .

---

(١) راجع الجريدة فى ٢٥ يناير ، ٢٠ فبراير سنة ١٥١٢ . واقرأ مقالا بعنوان (لغتنا) معبرا عن هذا المعنى .

أدرك ذلك لطفى السيد . فراح يدعو فى صحيفته لهذه الدعوة ، ومضى يدافع عن حق اللغة فى القيام بهذه الحركة . وكان أهم ما كتبه يومئذ سبع مقالات توشك أن تكون حملة صحفية موفقة ، قام بها هذا الكاتب الغيور فى وجه القدماء والمحافظين من اللغويين . وقد راعه يومئذ أن يرى المصريين يصنعون لأنفسهم لغتين فى وقت معا : لغة للخاصة من المفكرين والمؤلفين ، ولغة لهؤلاء وللعامة معهم يتكلمون بها فى الحياة اليومية ، ويؤدون بها الأغراض العادية .

ولقد نظر الكاتب فى هذه المشكلة على ضوء الواقع الملموس ، وقدر فى نفسه الصعوبات التى يجدها المؤلفون ، والمترجمون ، والراغبون فى نقل التراث الأوربى ، والحضارة الأوربية إلى اللغة العربية . وخرج من هذا كله بنتيجة واحدة ، وهى أنه لا بد من تمصير اللغة العربية ، أو على حد تعبيره هو « لابد من إبرام الصلح بين العربية والعامية التى يتكلمها سكان القاهرة بنوع خاص » .

وهكذا جاءت فكرة الكاتب فى مجال اللغة متسقة مع أفكاره فى المجالات الأخرى . والفكرة الرئيسية التى صدر عنها فى جميع هذه المجالات المختلفة هى « المصرية » . ولقد كان يقدم هذه الفكرة بصراحة وشجاعة على فكرة « الإسلامية » . . وعلى هذا النحو أصبحت فكرة المصرية التى دعا إليها بمثابة خيط ينتظم آراءه وأفكاره من أولها إلى آخرها . وهو يكرر دائما أن كل ما كتبه فى شتى وجوه الاصلاح السياسى والاجتماعى واللغوى لم يكن شيئاً جديداً بالمعنى الصحيح ، وإنما هو تصوير دقيق للواقع المحسوس . وهذا الواقع يستحى منه الكتاب والأدباء وأهل الفكر والعلم والصحافة والسياسة. وما كان ينبغى لهم أن يفعلوا ذلك ، لأن مواجهة الواقع أيسر دائما من وضع الخطط التى بينها وبين الحقيقة فرق كبير .

ولقد كنا نحن الجامعيين قبل الآن نفهم خطأ أن لطفى السيد ممن دعوا

إلى اصطناع اللغة العامية الصرفة ، وإماتة اللغة العربية الفصيحة . فأصبحنا ندرك الآن أن صاحب هذه الفكرة كان على صواب كبير يوم نادى بها ودعا غيره من الأدباء والكتاب إلى السير فى هذا الطريق . فاستجاب له هؤلاء . ومنهم على سبيل المثال هيكل والمازنى وطه حسين والعقاد وأحمد أمين والحكيم، وإن كان طه حسين من دون هؤلاء يتأبى إلى اليوم من استعمال الألفاظ العامية، ويستعيض عن ذلك بالسهولة البالغة فى تعبيره ، حتى لقد أصبح له أثر واضح فى تقريب المسافة بين لغة التخاطب ولغة الكتابة .

ولا جدال فى أن لطفى السيد بدعوته هذه فى ميادين اللغة والسياسة والاجتماع والتربية يعتبر بحق « أبا القومية المصرية التى بلغت به وبآرائه ذروتها من الكمال الذى بدأته منذ أوائل القرن التاسع عشر، ووصلت فيه إلى ما وصلت إليه اليوم . ونعود إلى مقالات هذا الكاتب الكبير فى موضوع اللغة . وقد بدأ أحدها بقوله[1] :

« قد يبتسم قراؤنا السياسيون ابتسامة الاستغراب من خوضنا اليوم بعد اليوم فى اللغة ، واحتيالنا لتعميم العربية ، وجعلها لغة العلم ولغة الكلام بقدر الإمكان . فى حين أن الأحوال السياسية فى أوربا مضطربة ، وحركات تعبئة الجيوش باعثة على النظر فى نتائجها المخيفة. ومع ذلك فإن كلامنا عن (المصرية) وخوضنا فى اللغة العربية ووسائل رقيها ، ونشر صحيحها بين الكافة هو فى نظرنا خوض فى السياسة . ذلك لأن رقينا موقوف من بعض وجوهه على العلم — واللغة واسطته — وموقوف على الأدب — واللغة أساسه — وموقوف على حسن التفاهم بيننا — والبيان قاعدته . فما أظننا نجاوز حدود اللائق فى هذا الزمان إذا جاوزنا ما لا نستطيع تغييره من مجرى السياسة إلى ما نستطيع إصلاحه من حال اللغة » .

---

(١) الجريدة فى ٤ مايو ١٩١٣ .

قد يفهم من ذلك أن الكاتب الفيلسوف دعا إلى التقليل ما أمكن من مادة اللغة من حيث هي. كلا — فقد كان يدرك إدراكا صحيحاً أن اللغة فى ألفاظها كالشجرة فى أوراقها فإذا كان الخريف يسقط بعض هذه الأوراق لتحل محلها أوراق أخرى فى الربيع ، فكذلك الألفاظ يموت القديم منها لتأتى الألفاظ الجديدة الأخرى . ولكن هذا لا يمنع مطلقاً من الاحتفاظ بكثير من الألفاظ القديمة التى تدل على غنى اللغة واتساعها ، والكاتب الغيور يحب للعربية أن تغنى وأن تفاخر بهذا الغنى جميع اللغات .

وفى هذا المعنى يقول كاتبنا :

على ذكر شكسبير يرد على خاطرى أنى سمعت أنه استعمل من اللغة الانجليزية نحو عشرين ألف كلمة ، وأن فى بعض أساليبه خفاء على كثير من العامة . ولكنى لا أصدق أن أحداً سمع أنه رمى بالتقعر ، بحجة أنه لم يقتصر فى كتاباته على مئات الكلمات التى تكفى للتعبير عن المقاصد فى اللغة الانكليزية. وهنا يرد على خاطرى أيضاً أن أبا العلاء المعرى استعمل فى شعره وفى نثره قاموساً من الكلمات أكبر عدداً من قاموس شكسبير .

ولم يكن أبو العلاء ليكتب بلغة العلماء والشعراء الذين لا يزيد عددهم عن المئات وقتئذ . بل كان يجهد قريحته ليخرج للكافة أفكاره الحكيمة ، وما اطلع عليه من أسرار الطبيعة ... وأنه على ذلك يستحيل على رجل يذوق طعم الكلام أن يرمى أبا العلاء المعرى بالتقعر . فما بالنا فى بلدنا نجد كل يوم لهذه الكلمة رنيناً خشناً فى الآذان . بل نراها على سوء استعمالها ، وقبح مدلولها تسيل بسهولة على كثير من الألسن كلما صادف بعضهم فى الكتب أو الجرائد كلمة يظنها غريبة ، وما هى بالغريبة إلا عنده .. كأن الواحد منهم يرى أن يمحو شخصية كل كاتب ويحيلها إلى شخصية الخ [1] .

---

(١) الجريدة فى ٢١ أغسطس ١٩٠٩ .

(وبعد)فلنستعرض طائفة يسيرة من مقالات لطفى السيد فى اللغة العربية متوخين فى ذلك الايجاز قدر المستطاع .

نشر الكاتب مقالة له بعنوان :

التأليف باللغة العربية (١)

جاء فيه :

« لغتنا واسعة فى القاموس ضيقة فى الاستعمال ، مخصبـــة فى المعانى والمسميات القديمة مجدبة فى المعانى الجديدة والمصطلحات العلمية . فقد انقطع رقيها من قرون طويلة،فوقفت عند الحدالذى وصلت اليه أيام النهضة العباسية، ولا سبيل إلى إحيائها وجعلها مألوفة الاستعمال إلا أن تصير لغة العلم فى البلاد.

ولم يكن هذا الغرض هو كل السبب فى طلب العلم باللغة العربية ولكن كان السبب التالى فى الأهمية، وهو نقل العلم إلى وطننا حتى ينتج نتائجه الكبرى فى ارتقائنا إلى ما نطمع فيه من المدنية والشرف .

ثم انتقل الكاتب من ذلك إلى معالجة المشكلة التى تواجه نظارة المعارف وهى مشكلة الكتب المدرسية ، والمراجع العلمية أو المطولات فاقترح على النظارة ترجمتها ، وتوزيعها على الطلاب على ألا يكونوا عبيداً لها ، ونصح الكاتب نظارة المعارف فى شأن الكتب المدرسية بنوع خاص أن تترك المجال فيها للمدرسين عامة ، ليحدث التنافس بينهم فى الترجمة والتأليف ، لأنها إذا تدخلت وفضلت كتاباً على آخر حكمت بالرواج لهذا الكتاب ، والكساد الأبدى للكتب الأخرى .

غير أنه فى دفاع الكاتب عن العربية كان لايرى بأساً من تطعيمها بين آن وآخر بالعامية ، وفى هذا المعنى كتب يقول :

---

(١) الجريدة فى ٦ إبريل سنة ١٩١٣ .

فى اللغة ايضا (١)

« الأوتوموبيل والبسكليت والجاكتة والبنطلون والجزمة والمودة الخ كل هذه الأسماء ما ذنبها حتى تهجر فى الكتابة إلى غيرها من الألفاظ التى نحاول انتحالها مع التكلف لنعبر بها عن هذه المسميات . إننا لو أبينا ذلك لعملنا على توسيع مسافة الفرق بين لغة الكتابة ولغة الكلام . وذلك مؤخر للغة ، مؤخر للبيان والفصاحة ، مؤخر للتقدم من جميع الوجوه . وإذا كان قصدنا أن تكون ألفاظ الكتابة قاصرة على جماعة الأدباء والكتاب فالخطب هين . أما إذا كنا نكتب ليفهم الناس مانكتب فحسبنا أننا نقدم للجمهور كل يوم أفكاراً جديدة ، ومعانى صعبة التناول ، ومقاصد بعيدة المرمى فمن الظلم أن تكلفه بأن يعرف كل مسمى .

سيقال إننا فى جيل إحياء اللغة بعد موتها وهذا كلام طيب ، ولكن أمامنا عقبات لا يسهل تخطيها . فلو حاولنا التمسك بالكمال ، والتزمنا فى إحياء اللغة هذا المخرج الصعب لأضعنا الوقت. وفى لغتنا أسماء أعجمية كثيرة جداً لم يخل وجودها بالفصاحة ولا بالبلاغة . فإن بعضها قد وجد فى القرآن ، وهو المعجز بفصاحته وبلاغته إلى حد الإبداع .

أدرك العرب أن العلم ليس له وطن ولا لغة ، وأن الأسماء الرئيسية فى العلم أحسن ما تكون شيوعاً بين الأمم . ولذلك أخذوا من الأمم الأجنبية مصطلحات تلك العلوم . وفعل الأوربيون أنفسهم مثل ذلك ، حين أخذوا عن العرب أسماء بعض العلوم ، كالجبر ، والكيمياء ، وغيرهما .

إن العلم قائم على المبادلة فى المنافع . والذى لا يرى أن يأخذ الاسم الأوربى للمسمى الأوربى كالذى يرى أن من الوطنية ألا يتعلم العلوم الأوربية أو ينتفع بالمخترعات الأوروبية » .

وواصل الكاتب الكلام عن هذه الفكرة بعينها فى مقال آخر له بعنوان :

(١) الجريدة فى ٢٠ أبريل ١٩١٣

فى اللغة العربية [1]

جاء فيه :

« نحن نقبل كل عثمانى ، وأرمنى ، ويونانى فى جنسيتنا المصرية بحكم القانون مع الارتياح والسرور . ونحن نلبس أزياء (المودة) الغربية طائعين لا كارهين ، ونقبل ما يقرره العلم الأوربى إن صح الوصف ، ونستغل ما تقدمه لنا الصناعة الأوروبية من الآلات والماكينات الخ . نحن نعمل هذا كله ، ونعتبره بشير الرقى ، وطليعة الاستقلال . فما بالنا لا نعتبر لغتنا كالعلم ؛ نزيد عليها كل جديد بمقدار الحاجة إليه . نحن نعمل ذلك بالقول لا بالفعل ؛ ولكننا ننكره بالقول . ولو سألت العامة عن (التلتوار) لعرفوه وأنكروا (إفريز الطريق) و (عذاره) ونحوهما .

والأمة سائرة على هذا النمط من التطور . فهى تعرف (الكمبيالة ، ولا تعرف (الفتحة) غير خمسة ستة من الكتاب ، أو عشرين ثلاثين من المترجمين ، أو المثقفين ممن لا يريدون الاعتراف بهذه الحقيقة .

اللغة ملك الأمة . وللكتاب الحرية فى الزيادة عليها بأساليب جديدة ، وألفاظ جديدة . . .

ثم مضى الكاتب فى نقد عملى لمعاجم اللغة العربية التى يعرف الناس جميعاً أنها غنية غنى فاحشاً فى جهة ، فقيرة فقراً مدقعاً فى جهة ثانية » .

ثم فى مقال له بعنوان [2]

رقوا لغتكم

أنشأ الكاتب الفيلسوف يقول :

« يضحكنا أن يقال إننا نريد هجر الفصاحة وإماتة اللغة العربية لنأخذ بزمام لغة عامية لا تصدر عن قاعدة ، ولا تؤدى غرض البيان . ولئن آملنا

(١) الجريدة فى ٢٣ إبريل ١٩١٣ .

(٢) الجريدة فى ٢٧ أبريل ١٩١٣ .

ذلك فإنه يحزننا أن تكون الأحكام مبنية على الأشاعة . لأننا على يقين أن الذى يقرأ ما كتبناه فى اللغة العربية يستحيل عليه أن يحكم علينا بأننا نعادى فصاحة اللفظ وبلاغة الأساليب . إنما نريد بعض ما يقولون . نريد ألا ندر اللغة العامية أو لغة الشعب تموت بإبعاد عربيها وفصيحها عن عالم الكتابة والعلم . وألا ندر لغة القرآن محجوبة بين دفات الكتب ، لا ينزل منها إلى الاستعمال اليومى ما يحفظ بقاءها ويديم حياتها .

« نريد أن ترفع لغة العامة إلى الاستعمال الكتابى ، وننزل بالضرورى من لغة الكتابة إلى ميدان التخاطب والتعامل . فلا تكون النتيجة إلا أننا نكتب الكتاب مفهوماً ، ونتحدث الأحاديث عربية صحيحة !

نحن نأخذ من الواقع ، وهو يدل على أن لنا لغتين : لغة القلم ، ولغة ثانية ، هى اللغة الحية — لغة الاستعمال اليومى . فإذا استمرت الحال على ذلك كانت النتيجة أن يستحيل علينا أن نتكلم بلغتنا صحيحة ، ونتخاطب بها خالية من الركاكة فى الأسلوب ، ومن اللحن فى المقررات ، خاصتنا وعامتنا فى هذا سواء . فتبقى لغة العلم والكتابة فى بيئة محدودة لاتجاوزها إلى الطبقات الأخرى ، وتبقى لغة الكلام فى درجة انحطاطها الراهنة ، لا مطمع لها فى الارتقاء . ومع ذلك فهى لغة الأمة ، وأكبر مشخص من مشخصاتها !

« لغة الأمة يجب أن ترقى معها . وقد ترقت الأمة فى كل شىء بنسبة واحدة إلا فى لغتها ! وذلك من استبداد العلماء والكتاب علينا ، وما يظهر عليهم من الحرص على أن يختصوا بلغة الكتب ، كما اختص الكهنوت بأسرار الدين وسلطانه فى عهد آبائنا الفراعنة !

إننى أخشى أن يشتد ساعد الأمة عليكم (يخاطب العلماء والكتاب) فتلزمكم كارهين لا طائعين باتخاذ لغتها العامية المكسَّرة الملحنة لغة لكم فى الكتابة والعلم . فلا تجدون من الإذعان لإرادتها بدا . والأمة غالبة على أمرها ، ولكن أهل العلم لا يعلمون !! » .

وفى مقال له بعنوان :

إلى الأمام[1]

قال : لو كان الذين يجادلوننا فى اللغة يتنزلون إلى قراءة ما نكتب بنفس ساكنة ، وتدبر فى العواقب لاقتنعوا بأننا نريد النهوض باللغة المصرية (أو اللهجة المصرية إن شاءوا) إلى درجة اللغة الفصحى ، وشفاءها من العلل التى اعترتها فأصبحت غير صالحة برمتها للبيان فى العلم ، والأدب ، والخطابة والتمثيل .

« نقول للمترجمين خذوا ما لم تجدوا فى اللغة العربية من الأسماء التى أدخلها العوام فى اللغة حين كان علماؤها فى غفلة عنها ، وإذ تركوا بابها مفتوحاً حتى دخلت فيها أسماء ليست منها . وصقلتها الألسن واعتادتها ، فأصبح غير نافع كل مجهود يراد به نفى هذه الأسماء .

« نقول للكاتبين : لا يأنف أحدكم من استعمال الألفاظ الغربية ، والتراكيب العربية التى تلوكها ألسن العوام ، فإن العوام يملكون بالوراثة سر اللغة ، ويعرفون البيان فيها تعريفاً حيا مألوفاً . وكثير من أساليبهم حسن جميل .

« فإن لم تفعلوا — ولن تفعلوا — فعليكم مسؤولية الوثوب باللغة الفصحى . عليكم مسؤولية عدم انتشارها وما يترتب على ذلك من النتائج المخيفة ! » .

وذاعت هذه المقالات الساخرة فى الرأى العام المصرى ، وكان لها صدى كبير فى الأوساط المصرية على اختلافها فاعترض الكثيرون عليها . ونلخص ذلك فى أمرين :

(الأول) أن الاعتراف بما أدخلته الأمة من الألفاظ الأعجمية قد يكون فيه شبه تمصير للغة العربية ، وفى ذلك تعطيل لعامل من عوامل الجامعة الاسلامية وهو توحيد اللغة .

(١) الجريدة فى أول مايو ١٩١٣ .

(والثانى) أن تصحيح الألفاظ العامية المصريه ، واستعمالها فى الكتابة فيه تعطيل للغة الفصحى .

ورد الكاتب الغيور على هذين الرأيين فقال : « أما عن الاعتراض الأول فيقول :

« إننا — وإن كنا من أنصار هذه الجامعة المستحيلة بوصف كونها دينية — وما زلنا مقتنعين بأن أساس الأعمال السياسية هو الوطنية وروابط المنفعة دون غيرها ، فإننا مع ذلك لا نرى الاعتراض وجيها حتى من هذه الجهة . لأن القائلين بالجامعة الإسلامية يجب عليهم أن يقبلوا فيها الترك ، والفرس ، والهنود ، والصينيين ، والجاويين والشراكسة . وهم لا يعرفون من اللغة العربية شيئاً . ومجموع عددهم أضعاف عدد من يتكلمون العربية من المسلمين . فإذا كانت الجامعة الإسلامية وحـــدة ، وكانت اللغة داخلة فى مشخصات هذه الوحدة ، وجب أن تكون لغة هذه الوحدة هى لغة الأكثرية ، والأكثرية غير عربية . فلا أخوف على الجامعة الاسلامية الموهومة من إدخال المصطلحات العلمية فى مصر فى جسم اللغة العربية .

وأما الاعتراض الثانى — فإن الذى نقترحه ليس من شأنه أن يعطل اللغة الفصحى ، بل يزيدها فصاحة ، ويسرع فى تطورها ، ولا ينتى منها إلا استعمال ألفاظ لا حاجة لنا بها . ولا مانع يمنع من استعمالها مع ذلك فى الشعر عند تعذر الوزن أو القافية إلخ » .

* * *

تلك جهود صاحب الترجمة فى موضوع اللغة . والذى لا ريب فيه أنها جهود صادقة موفقة . وإن كان الأدباء والكتاب من حيث أساليب الكتابة نفسها ينقسمون فى كل زمان ومكان إلى قسمين ، ويتوزعون فى مجموعهم طائفتين أو مدرستين :

مدرسة يستهويها القديم ، فلا تعدل به جديداً وإن دعت إليه الضرورة ، واصطلحت على طلبه حاجات العلم والأدب والفن والسياسة والمجتمع .

ومدرسة تألف الجديد بسرعة غريبة ، فتنجذب بطبعها إليه ، وتستجيب من فورها لمطالب العصر الذى تعيش فيه . واللغة نفسها بين هذين الفريقين كالكرة التى يتقاذفها اللاعبون بينهم . والشعب من وراء هؤلاء وهؤلاء كالنظارة فى ميدان اللعب ، يصفق أكثره لفريق المجددين ، ولا يهون على نفسه مطلقاً أن يموت المحافظون إلى الأبد .

الفصل الثامن

الجريدة فى الميدان الأدبى

الأدب قسمان : إنشائى ووصفى . والإنشائى منهما قسمان : شعر ونثر . والوصفى قسمان : نقد وتاريخ . فأى هذه الألوان الأدبية المختلفة كان أشد وضوحاً فى (الجريدة) وأيها قد استأثر باهتمام أسرة التحرير فى تلك الصحيفة.

إذا ذهبت معى تتصفح أعداد (الجريدة) منذ نشأتها إلى أن وقفت عن الصدور ولاحظت أن الجانب الإنشائى من نثر وشعر كان أكثر وضوحاً من الجانب الوصفى من تاريخ ونقـــد . ولقد كانت الجريدة فى هذا مسايرة للنهضة الأدبية فى مصر فى ذلك الوقت ، مصورة لها أصدق تصوير .

غير أننا نلاحظ بعد سنوات قليلة من ظهور الجريدة أن حركة ما فى الأدب الوصفى قد بدأت تظهر ظهوراً خفيفاً ، وتقوى شيئاً فشيئاً ، وتلفت الناس إلى شىء لم يعرفوه من قبل ؛ وهو (النقد الأدبى) ، وتقدم لهم صنفاً جديداً من صنوف الثقافة ؛ هو (تاريخ الأدب) .

وإذا أمعنت معى فى هذه الظاهرة ، وفى الوقت الذى شعر الناس فيه بهذه الحركة ، علمت أن ظهورها — فى حقيقة الأمر — إنما اقترن بظهور (الجامعة القديمة) . أو — على الأصح — بعد انشائها بسنتين أو ثلاث !

فلقد فتحت الجامعة أبوابها ، وكانت الدراسات الأدبية من أهم موادها ، واحتاج الطلاب إلى كتب يقرأون فيها مادة (الأدب العربى) . فما إن أعلنت الجامعة عن رغبتها فى هذه الكتب حتى تقدم بعض العلماء بهذه الكتب . وكان من أولهم السيد مصطفى صادق الرافعى الذى قدم كتابه (تاريخ آداب العرب) ؛ فأحدث الكتاب ضجة كبيرة فى الوسط الجامعى . وكان ذلك فى فى أوائل سنة ١٩١٢

وكان أمام الجامعيين قبل ذلك الوقت مثالان واضحان من أمثلة (الدرس الأدبي) في الجامعة .

أما أحدهما — فمثال الأساتذة المصريين (كحفني ناصف) وغيره ممن لم يتثقفوا بغير الثقافة الشرقية ، ولا درسوا شيئاً من الأدب الأوروبي .

وأما الثاني — فمثال الأساتذة المستشرقين كالأستاذ (كارولو نللينو) وغيره ممن درسوا الثقافتين الشرقية والغربية . وكان لهم منهاج علمي خاص في دراسة الآداب . عرضوه على الذوق المصري منذ انشاء الجامعة . فأنكره بعض الطلاب . واستجاب له آخرون . وكان من أوائل الذين استجابوا له إذ ذاك شاب أزهري ذكي ؛ هو (طه حسين) .

وظهرت بعد ذلك كتب أخرى في (تاريخ آداب اللغة العربية) ومنها الكتاب الذي ألفه جورجي زيدان بنفس هذا العنوان . وحين أهدى المؤلف كتابه هذا لأحد الشبان المصريين إذ ذاك ؛ وهو محمد حسين هيكل كتب الشاب عنه وعن مؤلفه عدة مقالات نشرتها الجريدة . ونحا فيها الشاب منحى الثناء والتقريظ على المؤلف وعلى علمه وطريقته[1] .

منذ ذلك الوقت نشطت حركة خفيفة في مصر ؛ تتجه إلى النقد . وكان هذا الاسم نفسه غريباً على أسماع الكثيرين من المتعلمين في مصر أول الأمر ثم لم يلبثوا أن ألفوه . وفهموا الغرض منه .

* * *

ونريد أن نترك الحركة النقدية نفسها مؤقتاً . لننظر أولا في الجانب الانشائي في الجريدة ؛ ونعنى عناية خاصة بصيب لطفي السيد من هذا النشاط . وبعد الفراغ من ذلك لا بأس من العودة إلى حركة النقد .

إن نظرة فاحصة في الجانب الإنشائي البحت للمدرسة الصحفية الثانية التي انتهت بالمويلحي ؛ والجانب الإنشائي البحت للمدرسة الصحفية الثالثة التي

(١) راجع الجريدة في ١١ يوليه ، ١٣ يوليو سنة ١٩١٢

بدأت بالسيد علي يوسف ترينا بوضوح أن عناية الأولى منهما بالأسلوب كانت — ولاريب — أوضح من عناية الأخيرة منهما به . بحيث إذا أردت أن تقرأ أسلوباً بُذل فيه أكبر قدر ممكن من الأناقة الفنية . والزينة اللفظية أو المعنوية فعليك بتلاميذ المدرسة الثانية على وجه العموم . وبأديب اسحق والمويلحي على وجه الخصوص .

ولكن الأمر أصبح على عكس ذلك منذ ظهور (المؤيد) . هذا من حيث الصياغة الفنية فى ذاتها . أما من حيث الموضوعات الأدبية التى طرقتها الصحافة المصرية ، فيلوح للباحث بشكل عام أنه بينما كان الهدف الثقافى غالباً على المدرسة الصحفية الأولى ، وبينما كان الهدف الاجتماعى غالباً على المدرسة الصحفية الثانية ، إذ بالهدف السياسى أصبح غالباً على المدرسة الصحفية الثالثة، وإن بدت الأهداف الاجتماعية والأدبية فى درجة من الأهمية لاتقل كثيراً عن الهدف السياسى .

من أجل ذلك رأينا كتاب (الجريدة) يكتبون بين حين وحين مقالات فى الأدب الانشائى الخالص. وبحثنا نحن فى الموضوعات العامة لهذه المقالات فإذا أهمها ثلاثة :

الأول : موضوع الطبيعة

والثانى : موضوع الريف المصرى .

والثالث : موضوع التأملات الفكرية .

وهى تأملات فى قيمة الحياة الإنسانية ، وقيمة الجانب الروحى منها ، وقيمة الحضارة الأوربية ، وكيف يمكن الانتفاع بها ، وقيمة السعادة ، وطريق الوصول إليها إلخ .

أما (الشعراء) فقد ملأوا فراغا لا بأس من صفحات الجريدة وحرصت هذه الصحيفة على أن تكون معرضاً عاماً لتلك المقطوعات والقصائد الشعرية التى نظمها الشبان إذ ذاك من أمثال : عبد الرحمن شكرى ، وأحمد الكاشف ،

وعبد الحليم المصرى ، وأحمد زكى أبو شادى ، وأحمد شوقى ، واسمعيل صبرى ، وطه حسين ، ومصطفى صادق الرافعى ، وعبد العزيز صبرى ، وامام العبد ، وحافظ ابراهيم ، وعباس محمود العقاد ، ورمزى نظيم ، وحسين شفيق المصرى ، وعلى شوقى ، ومحمود عمار ، ومرسى شاكر الطنطاوى ، وفؤاد الخطيب ، وحسن الغاياتى ، وابراهيم شهاب الدين ، وابراهيم عبد القادر المازنى ، وأحمد نسيم ، وأحمد محرم ، ومراد فرج ، ومحمد عبد المطلب . ورشيد مصوبع ، ونقولا رزق الله ، وايليا أبو ماضى ، وغيرهم .

أما موضوعات الشعر عند هؤلاء جميعاً فأهمها ما يأتى :

أولا : وصف الطبيعة (كما فى شعر شكرى والعقاد وأبى ماضى إلخ) .

ثانياً : شعر الرثاء (كما فى شعر طه حسين فى رثاء آل عبد الرازق) .

ثالثاً : الحب (وليس كثيراً ما ظفرنا به من هذا الباب فى الحقيقة) .

رابعاً : وصف حوادث الحرب (كما فى شعر صبرى) .

خامساً : طلب الدستور (كما فى شعر طه حسين وحافظ ابراهيم) .

سادساً : شعر الخواطر والتأملات (وهو كثير عندهم جميعاً) . ومنه على سبيل المثال قول شكرى :

ولولا رجائى أن أقول مقالة　　تعود بخير أو تعين على شر
لما كان لى فى بسطة العمر رغبة　　ولم أحمد الأيام أن زيد فى عمرى(1)

سابعاً : معارضة الشعر العربى القديم (كما فعل أحمد نسيم بنظمه لامية نسيم التى أولها) :

بى فوق ما بك أيها الطلل　　لك العفاء ولى الاسقام والعلل(2)

ثامناً : ترجمة الشعر الانجليزى إلى شعر عربى . (وهذا كثير عند كل من

---

(1) الجريد فى ١٥ سبتبر ١٩١١

(2) الجريدة فى ١٨ مارس ١٩١٢

عبد الرحمن شكرى وعباس العقاد والمازنى . ومنه قصيدة للعقاد بعنوان الوردة . . ترجمها عن شعر وليم كوبر . وأولها :

أتتنى بها من خدها مثل لونها مبللة الأوراق باكية السن
جنتها لها ترب حصان تزفها إليهاوقديجنى على الورد من يجنى[1]

* * *

وأما (الكتّاب) فكثيرون نذكر منهم . عدا مدير سياسة الجريدة .

عبد الرحمن شكرى ، وعبد الحميد حمدى (صاحب جريدة السفور) ، وعبد الحميد الزهراوى ، وعبد العزيز البشرى ، ويوسف البستانى ، ومحمد السباعى ، وعبد السلام ذهنى ، وابراهيم رمزى ، ومحمد حسين هيكل ، وطه حسين ، وابراهيم المازنى ، وعزيز خانكى ، ونقولا الحداد ، وبهجت وهبى ، وعبد القادر حمزة ، وتوفيق دياب ، ومصطفى صادق الرافعى ، ومصطفى عبد الرازق ، وسلامه موسى الذى كان كتوفيق دياب يراسل الجريدة من انجلتره .

ومن الكاتبات : لبيبة هاشم (صاحبة مجلة فتاة الشرق) ، ونبوية موسى ، وباحثة البادية (بنت حفنى ناصف) .

وقد أشرنا من قبل إلى الموضوعات التى عرض فيها أولئك الكتاب ثمار أفكارهم ، وزبدة آرائهم ، وخير ما ورد على عقولهم وجاشت به صدورهم .

ولا نستطيع فى هذا الفصل أن نأتى بنماذج لهم ، ولا لبعضهم .

ومن ثم فنحن مكتفون هنا ببعض النماذج الأدبية لصاحب الترجمة ؛ وذلك فى الموضوعات التى أشرنا إليها ومنها :

---

(١) الجريدة فى ١٥ أغسطس ١٩١١

موضوع الطبيعة

وفى هذا الموضوع كتب لطفى مقالات شتى . منها — على سبيل المثال — مقال له بعنوان : (ربيع الحياة)[1] ، وآخر بعنوان (زهر الربيع)[2] .

ومن انشائه فى الأولى :

« رأيت صباح اليوم أزهار الربيع على أكمل ما تكون : إما فى أكمامها ، وآثار الصحة بادية عليها ، وإما زهية قد مزقت أكمامها وسفرت عن حجابها بين بين . لا هنّ سافرات خالعات العذار ، ولا هن متخذات شعوراً من الأكمام والأفنان . سفرن فكلهن قرة للعين ، ولذة للشم ، ومبعث لحركات العواطف . لا أعرف عن طريق اليقين الوجه فى جمال هذه الزهور . ولكنها فى الواقع جميلة . كذلك لا أعرف الصلة الخفية بين رؤية الأزهار وشمها وبين آيات الحب . جلت حكمة الله أن تتناولها عقولنا . ولكن الاستقراء دل على أن هذا النوع الإنسانى ، منذ نشأ إلى اليوم يتعشق الزهر ، ولا يطيب له مجلس لهو إلا إذا كان للزهر فيه المقام الأول ؛ منثوراً أو منظوماً ، صحباً أو أشتاتاً . بل كلنا يود أن يكون له بستان فيه زهر . ومن لم يجد هرع وقت فراغه إلى الحدائق العمومية . ومن لم يجد من الفلاحين أعجبه كثيراً أن يقيم وقت أنسه على قرب من زهر الفول . ومن لم يجد اتخذ له صورة بستان ، أو خيال بستان من الزهر فى آنية من الفخار ؛ يضع فيها القرنفل والورد فى شبابيك داره . بل أصبح من القضايا البديهية أن الدلالة الوضعية على رقى أمة عنايتها بالزهر ، واستمتاعها به إلخ » .

ومن انشاء الكاتب فى الثانية :

« ليس كل الحياة شقاء للسعى إلى مال ينفق أو يدخر ، وإلى مباراة فى رفعة المناصب . بل الحياة أيضاً استمتاع بجمال الطبيعة . فكرة خفيفة الوزن ،

---

(١) الجريدة فى ١٥ أبريل ١٩١٣

(٢) الجريدة فى ١١ أبريل ١٩١٤

تافهة القيمة عند أهل الوقار ! . فإن الحال قد تبدلت إلى صرف النظر عن جمال الطبيعة ، ونعيم الحياة الإنسانية إلى أحسن أطراف هذه الحياة: الحرص على الخدمة فى الحكومة ، والحرص على فقد الحرية فى كل شىء ؛ حتى فى الملذات البريئة ، حتى فى الاشتغال بتربية ملكة الجمال ، حتى فى العناية بغرس الأشجار ، وتوليد الأزهار ، الحرص على فقد الصراحة فى كل شىء حتى فى الأعمال الشخصية ! رب — كل ما خلقت تابع لقانون التطور ؛ حتى المعانى والأفكار . فالذين تجردوا من مزايا السلف الصالح فى علم يفيد ، وجد ممتع ، وسيرة طابت ظواهرها وبواطنها ، قد اكتفوا من أسلافهم بتقليد شىء واحد ؛ لم يقدروا إلا عليه ؛ وهو صورة ظاهرة من الإطراق ، لا فى التفكير والكون ؛ بل مظهر يقتضيه الوقار !

« ذلك جيل ذهب بأهله . ولنا جيل ناهض يحب أن يؤلف بين علمه وبين نزعات نفسه ، ويضيف إلى تثقيف عقله تهذيب مشاعره ، ويطرح جانباً كبيراً مما ورثناه من ماضينا القريب . فيعنى بمظاهر الجمال كما يعنى بزراعة القطن ، لأن الحياة ليست شقاء خالصاً . بل هى يومان : يوم للشقاء ، ويوم للنعيم .

« ها نحن أولاء أمام الربيع . أزهار تبتسم أنفاسها ، وتأخذ بأبصارنا ألوانها. وتحرك جدتها عواطف الحنان فى قلوبنا ؛ كأنها بعض أبنائنا . إن مرآها وريّاها ينقلان نفوسنا من عالم الشقاء إلى عالم النعيم ، ومن أرض الحقيقة الواقعة إلى سماء الخيال الجميل الخ .

« علموا أبناءكم حب الجمال . نمّوا فى نفوسهم ملكته ؛ ليعلموا أن الحياة ليست جحيم الهموم . ولكن لمحات من النعيم . إن حب الجمال يرفع النفس إلى لذائذ أطهر طبعاً ، وأسعد أثراً ، وأبقى فى العواطف نتيجة من كل ما عداه من لذائذ الحياة . وإن أبسط موضوع لتعرف الجمال ، والمران به : أزهار الربيع » .

وأما موضوع :

الريف المصرى

فقد كان لطفى من أسبق الكتاب المصريين فى العصر الحديث تغنياً به ، واعجاباً بمفاتنه ، ودعوة إلى احترام هذا المخلوق الضعيف ؛ وهو (الفلاح المصرى) ، والشعور بماله من فضل على الأمة المصرية .

وتلك النزعة قد استهوت نفراً غير قليل من كتابنا وكاتباتنا ، وما زالت تستهويهم إلى اليوم .

على أننا مكتفون هنا بمثل واحد من أمثلة المقالات الكثيرة التى كتبها لطفى السيد فى هذا المعنى . وهو مقال له بعنوان :

جنى القانون[1]

« ليس أجمل من العمل إلا جنى ثمراته . وما أسعد صباح الجنائين ؛ يتنادون فيجتمعون ، ويتفقد بعضهم بعضاً ثم يسيرون . يمشون فى طلعة الشمس جماعات مستبشرين : رجالا ، ونساء ، وفتياناً ، وفتيات ، وصبياناً ، وصبيات . يأخذون معهم مواشيهم ؛ تأكل تحت أعينهم من حشيش الأرض . تتبعهم كلابهم أيضا . فتكاد العائلة لا تتخلف فى البيت إلا من يصلح لهم الطعام .

« ترى الأطفال وقد خفت من الفرح جسومهم الصغيرة فهى تنط من هنا إلى هنا ، وتثب ، وتتلفت . يضحكون من لا شىء ، يغنون طربين بأنهم تركوا المألوف من تفرق العائلة بكرة النهار ؛ كل إلى عمله بعيداً عن الآخر ، تنسخ هذه العادة يوم جنى القطن . إذ يذهب جميع أفراد العائلة بجملتهم إلى

---

(١) الجريدة فى ٢ أكتوبر سنة ١٩١٣ . والتأملات ص ٢٧

المزرعة ، يتسابقون فى الجنى وتتبارى فتياتهم فى الغناء . و يتنافسهم فى إجادة النكتة الجميلة يضحك الجميع !

إن هذا المنظر الجميل لأولئك الرفقات المستبشرة لا يدع مجالا للشك فى أن جنى القطن هو موسم سعادة الزارعين .

إن لم يكن القطن جميلا عند أهل المعرفة بالجمال ، فإن جنيه من أجمل ما يكون . ومع ذلك فهو جميل . إنه نافع . وكثيراً ما يكون الشعور بالجمال غير خالص من دواعى المنفعة . كثيراً ما يكون الجميل هو النافع .

بل ذهب بعض المتعرفين جمال الأشياء إلى أن أصله فى النفس المنفعة لا غيرها ،

« على أن مزرعة القطن المحصورة فى ذلك الإطار من التيل[1] ، القائم عليها مقام السياج على البستان ليست إلا لوحة من ألوان الطبيعة الجميلة عند القلوب التى تقدر الجمال .

لو أن الجمال معروف الأوضاع ، ومحل للتدليل والبرهان ، لقلت : كيف لا يكون جميلا مجموع تلك الشجيرات مشتبكات على مسافات متساوية ، سيقانها حمراء ، وأوراقها صفر ، وخضر ، ومدهامة[2] . وعلى غصونها المترنحة أبراج القطن الأبيض .

« ولكن الجميل هو ما ترضى به النفس وتحبه كذلك . إن شئته روضاً فهو كذلك . وإن شئته غلة فهو كل ثروة البلاد . جنيه الظاهرة الاقتصادية الكبرى فى مصر . وإلى حاصلها تنسب الشدة والرخاء طول العام[3] » .

---

(١) من عادة الفلاحين أن يحيطوا مزارع القطن بالتيل ؛ ويتخذون منه حبالا اسماعيل مظهر .

(٢) خضراء تضرب الى السواد

(٣) للقارىء أن يراجع فى الجريدة مقالا بعنوان (تدين الفلاح) لمحمد حسنين سالم بتاريخ ١٦ يونية سنة ١٩٠٧ وغيرها كثير .

التأملات الفكرية

وأما التأملات فما أكثرها ، وأجملها ، وأعمقها عند لطفى السيد ، وعند الشيبة التى أعانته على كتابة الجريدة . طاف لطفى السيد فى كل مجال ، وراد بقلمه جميع الآفاق ، وجال بذهنه فى أكثر الميادين ، وكان فى كل ذلك القدوة الحسنة للكتاب الذين شاركوه ، والكتاب الذين ظهروا بعده ؛ وازداد الأدب من ذلك ثروة أدبية وفكرية لا تحد . ومن تأملاته — وما أكثرها — مقال له بعنوان « الصداقة[1] » ، وآخر بعنوان « الرجل السعيد[2] » ، وثالث بعنوان « أول العام[3] » .

أما (الصداقة) فخواطره فيها بديعة وغزيرة . وفى الذى مضى من الإشارة إلى بعضها ما يكفى للدلالة على ذلك .

وأما (السعادة) فله فيها مذهب واضح جميل : « فالرجل السعيد هو من يعرف أن يرضى بحاله . فليست السعادة هى الثروة ، ولا الاستمتاع بها . وليست هى الجاه ، ولا آثاره . وليست هى الحب ، ولا لذاته . وليست هى العلم ، ولا نوره ، ولا منافعه . وليست هى النباهة ، ولا كبرياؤها . وليست هى الخمول ، ولا انزواؤه ، وتعطيله . وليست هى الحكم ، ولا قدرته . وليست هى الجمال ، ولا شفاعته . وليست هى الظرف ، ولا خفته . وبعيد أن تكون هى العقل وحسابه ، إن لم تكن هى الخيال وأوهامه . ليست السعادة شيئاً من ذلك . ولا هى كل ذلك . بل السعادة ظن السعيد أنه سعيد !

جلت قدرة الله . إن لم نتعرف السعادة بين البؤساء ، فنحن لا نعرف لها أثراً بين الأغنياء . . إذا وجدناها من حظ الأغنياء ، فهيهات أن نجد فيها

(1) الجريدة فى ٦ يولية ١٩١٤ — والتأملات ص ٤١ .

(2) الجريدة فى ١١ يناير ١٩١٤ — والتأملات ص ٣٢

(3) الجريدة ٢٩ نوفبر ١٩١٣ — والتأملات ص ٣٠

نصيباً كبيراً للأذكياء . تؤكد أن السعادة هى إحساس الموجودات ، وليست من الأعدام . ولكن لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم »

ومن مقاله بعنوان :

أول العام

« بالناس فى الجديد رغبة ، وإليه شوق . نفرح بالعام الجديد ، والشهر الجديد . كأن حاضرنا يثقل علينا حمله . نرغب فى الفرار منه إلى غيره . أو لأن النفوس شيقة إلى معرفة ما يكنه المستقبل فى الصحائف المطوية وراء حجب الغيب . فى ظرف الزمان نستبطىء الحاضر ، ونستعجل المستقبل . وهو الذى نرجو أن يحقق فيه كل امرىء آماله وأمانيه . وما أول العام إلا باب هذه المسافة الزمنية . لذلك كان استقباله عندنا عيداً من الأعياد الخ » .

* * *

وقبل أن نترك المقالات الأدبية الخالصة نحب أن نشير منها إلى طائفة من المقالات لغير لطفى السيد من كتاب الجريدة . ومنها على سبيل المثال :
سحر الطبيعة لهيكل (١٢ ابريل ١٩١٣) ، جمال الطبيعة لعبد الرحمن شكرى (٣١ يولية ١٩٠٨) ، الله والطبيعة لمحمد السباعى (٤ مايو ١٩٠٧) ، استقبال العام الجديد بقلم الآنسة مى — نقلا عن المحروسة — (الجريدة فى ٨ يناير ١٩١٣) ، أفكار وخواطر للمازنى (٨ ، ١٤ ، ١٨ أكتوبر سنة ١٩١١) المدينتان لتوفيق دياب ، (من ٢٩ ديسمبر ١٩١٠ إلى ٢٨ يناير ١٩١١) الخ .

* * *

وفى الميدان الأدبى الخالص تنبغى الإشارة كذلك إلى بعض الآثار الأوربية الحديثة التى قام بترجمتها بعض كتاب الجريدة ، ومعهم الشبان المجددون من أمثال عبد الرحمن شكرى ، وعباس العقاد وغيرهما .

وهذه الآثار الأوربية المترجمة كثيرة فى الجريدة ومنها :

قبيل الإعدام — لفيكتور هوجو — ترجمة أحمد زكى (ابتداء من ١٠ مارس ١٩٠٧) .

إلى النساء — مقالات لتولستوى — ترجمت إلى العربية (ابتداء من ٢٥ مارس ١٩٠٧) .

شعر بيرون ، ترجمة عبد الرحمن شكرى (١٤ سبتمبر ١٩١١) .

الوردة — لوليم كوبر — ترجمة العقاد وقد سبقت الإشارة إليها .

مقياس الكتاب — للكاتب الانجليزى باخشوت — (١٢ يونية ١٩١١)

فى سبيل الحياة — لوليم هازلت — ترجمة عزالعرب على (٢ يناير ١٩١٣)

البشاشة — لصمويل سميلز — ترجمة مصطفى الصعيدى (أول مارس ١٩١٣)

قصة اليأس — لتولستوى — ترجمة محمد صبرى الملط (٢١ ابريل ١٩١٤)

إلى رجل المستقبل — لآرثر مى — ترجمة حامد محمد الصعيدى (٣ مارس ١٩١٤) .

أحزان فرتر — لجيته — ترجمة عزالعرب على (٢٩ مارس ١٩١٤) الخ.

* * *

ونعود إلى الجانب الوصفى من الأدب بنوعيه المعروفين ؛ وهما النقد والتاريخ الأدبى . وقد سبق أن أشرنا إلى أن حركة النقد اقترنت تقريباً بحركة الدرس الأدبى فى الجامعة . فقد ظهرت حاجة الطلاب إلى بعض الكتب فى تاريخ الأدب العربى . فخف بعض الكتاب إلى تقديم هذه المؤلفات التى تسد حاجة الطلاب» . وكان من أولهم فى ذلك السيد مصطفى صادق الرافعى ؛ وهو أديب معروف فى ذلك الوقت ، كانت له بعض مقالات فى الجريدة . وهو صاحب (النشيد الوطنى) الذى نشر بالجريدة (فى ١١ مارس ١٩٠٨) .

ومنذ ظهر كتاب الرافعى بعنوان (تاريخ آداب العرب) بدأت معركة حول دراسة الأدب فى الجامعة ، وكانت الجريدة مسرحا لمساجلات أدبية

عنيفة دارت بين الرافعي من جهة ، والشبان المجددين يومئذ كطه حسين ومحمد حسين هيكل من جهة ثانية .

وإذ نتصفح أعداد الجريدة إذ ذاك يتضح لنا أن هذه المعركة بدأت بمقال نشرته الجريدة فى ٤ مايو سنة ١٩١١ بإمضاء (غيور على الأدب) لام فيه الكاتب الجامعة المصرية فى انتدابها أحد المستشرقين [١] لتـــدريس تاريخ الأدب العربي.

وفى ٦ مايو سنة ١٩١١ ظهرت مقالة بالجريدة ،عنوانها (الآداب العربية بالجامعة) كتبها طه حسين ودافع فيها عن حفنى ناصف من الأساتذة المصريين، وعن المستشرق الذى كان يقوم بتدريس الأدب فى الجامعة ، ومدح طريقته وأثنى عليه وعلى منهجه .

وفى ٨ مايو سـنة ١٩١١ كتب (غيور على الأدب) [٢] مقالا مدح فيه طريقة الرافعي فى كتابه تاريخ آداب العرب وعاد إلى نقد طريقة المستشرقين فى دراسة هذا الأدب .

ودامت المساجلة بين (غيور على الأدب) من جهـة ، وطه حسين من جهة ثانية. هذا يثنى على المستشرقين ويعيب على الرافعي، وذلك يذم المستشرقين ويبالغ فى تهجين عملهم . وضاقت الجريدة بهـذه المساجلة ، واضطرت إلى إلى إقفال باب المناقشة . وما كاد طه حسين يحتج عليها فى ذلك حتى اعتذرت له الجريدة ، رفتحت صدرها من جديد للأخذ والرد فى هذا الموضوع .

وفى ٤ مارس سـنة ١٩١٤ كتب لطفى السيد نفسه مقالا حول كتاب الرافعي . فأظهر إعجابه به وبمنهاجه.ووصف المؤلف بأنه قد «ملك موضوعه ملكا تاما»، وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفا حسنا . وليس من السهل أن

---

(١) والظاهر أنة المستشرق الايطالى الاستاذ كارولو نللينو . وبقى يلقى دروسه فى الجامعة القديمة . وقد أدركته أنا أيضا فى الجامعه الحديثة وسمعت منه محاضرات فى تاريخ اليمن يظهر أنها لم تنشر الى اليوم (المؤلف) .

(٢) أكبر الظن أنه الرافعى نفسه (المؤلف) .

تجتمع له الأغراض التى بسطها فى هذا الجزء الأول من كتابه إلا بعد درس طويل وتعب ممل . وأما أسلوب الرافعى فى كتابه فإنه سليم من الشوائب الأعجمية التى تقع لنا فى كتاباتنا نحن العرب المتأخرين ، فكأنى — وأنا أقرؤه — أقرأ من قلم المبرّد فى استعماله المساواة وإلباس المعانى ألفاظا سائغة مفصلة عليها » .

ثم قال :

« والأدب ليس كما يراه أهل العجلة فى النظر آلة مجردة لسمر الأدباء ، وقصصه مقتلة جميلة للوقت الثمين . بل الواقع أن الأدب وتاريخ الادب مشخص من أقوى مشخصات الأمة . يربط ماضى أجيالها بحاضرها ، ويحدد ماهيتها ، ويميزها عما عداها. فتستمر شخصيتها ، وتتسع بذلك دائرة المشابهات بين أفرادها ، وتقوى روابط التضامن بينهم ، غير ما يكسب الباحث فى الأدب من رقة العاطفة ، وحسن الذوق ، والقدرة على جمال التعبير عما فى نفسه من العواطف والأفكار ، وحمل الناس إلى الإصغاء إليه وقبول مذهبه قبولا حسناً » .

كان ينبغى أن تكون مقالة لطفى السيد كلمة الفصل فى هذه المعركة الأدبية بين الرافعى وطه حسين . ولكن حدث غير ذلك . حدث أن دخل ميدان المعركة شبان آخرون . منهم محمد حسين هيكل الذى انحاز وقتئذ إلى جانب طه حسين وأخذ يكتب مقالات فى نقد كتاب الرافعى . وذلك منذ شهر أبريل سنة ١٩١٢ . وأعقب ذلك ظهور مقالات أخرى لطه حسين نشرها بالجريدة تحت عنوان (نحن والرافعى)[١] وقد سبقت هذه الأخيرة مقالات أخرى لهذا الشاب الجامعى بعنوان (من حين إلى حين — أو نحن والنقد) [٢].

منذ ذلك التاريخ أصبح طه حسين معروفاً فى الأوساط الأدبية بميوله

---

(١) راجع الجريدة فى ١٣ ، ١٨ ، ٢٠ يناير سنة ١٩١٣

(٢) الجريدة فى ٢٥ يناير سنة ١٩١٢

الخاصة واتخاذه وجهة النقد والتاريخ الأدبى . ومنذ ذلك التاريخ وطه حسين يكتب فى هذين الموضوعين معاً . ومما كتبه فى التاريخ الأدبى — على سبيل المثال — مقالات بعنوان (هل تسترد اللغة مجدها القديم)[1] ثم كتب مقالات أخرى بعنوان (منشأ الفتن الإسلامية) [2] ، وبعنوان (الآداب العربية فى أيام بنى العباس)[3] ، وبعنوان (فى اللغة)[4] ، وبعنوان (حياة الأدب)[5].

ولعل من أهم هذه المقالات التى كتبها طه حسين مقالة له بعنوان(الجامعة والنهضة) [6] جاء فيها : «ليس ينقصنا العلم وحده ، وإنما تنقصنا معه حرية الرأى . فإن العلم فى بلدنا كثير بالقياس إلى العصور الماضية . غير أن العادة والخلق والتربية والسياسة كلها مؤثرات منعت العقل من التفكير والبحث . فلا بد من تعويد العقول أن تبحث حرة غير مقيدة بشهادة المدرسة ، ولا منصب الحكومة ، ولا رضى العامة . والجامعة وحدها هى القادرة على كل ذلك » .

* * *

ظهر إلى كتاب الرافعى الذى مر ذكره كتابان آخران أحدهما لجورجى زيدان ، وعنوانه (تاريخ آداب اللغة العربية) ، وكتاب آخر للشيخ أحمد السكندرى المدرس بدار العلوم بعنوان (تاريخ آداب اللغة) . غير أن أحداً من هذين الكتابين لم يحدث ضجة أدبية كالتى أحدثها كتاب الرافعى من قبل فقد كان من حظ هذين المؤلفين أن استقبلها الشباب بشىء غير قليل من

(١) الجريدة فى ٥ ، ٦ ، ٧ نوفمبر سنة ١٩١١
(٢) الجريدة ٣١ أكتوبر سنة ١٩١١
(٣) الجريدة فى أول نوفمبر سنة ١٩١١
(٤) الجريدة فى ٢٦ أبريل سنة ١٩١٣ ، ١٠ مايو سنة ١٩١٤
(٥) الجريدة فى ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٢٩ يناير ٣٤ ، ٧، ٨ فبراير ، ٨ مارس سنة ١٩١٤
(٦) الجريدة فى ٢٥ يناير سنة ١٩١٤

الرضى . ومن ذلك ما كتبه محمد حسين هيكل فى تقريظ كتاب جورجى زيدان وذلك فى أعداد كثيرة من الجريدة (١) .

وتبع ذلك ظهور سلسلة أخرى من المقالات فى تقريظ هذا الكتاب بقلم (أزهرى) (٢) . ولم يكد يشذ عن هذا الاجماع غير كاتب واحد نقد كتاب جورجى زيدان فى سلسة أخرى من المقالات بتوقيع (أبو حاتم) (٣) .

أما كتاب الشيخ السكندرى فقد رزقه الله بمن أثنى عليه كذلك . فى مقالات نشرت فى الجريدة بتوقيع (أزهرى)(٤)

* * *

على أن الكتب التى ظهرت فى تاريخ الأدب لم تكن وحدها موضع النقد ومثار المساجلات الأدبية على هذا النحو . بل كانت ثم كتب أخرى فى الادب الخالص استأثرت باهتمام النقاد ، وحركت فيهم شهوة التقريظ أحياناً واللوم والتعريض أحياناً أخرى .

ومن هذه الكتب الادبية (نظرات المنفلوطى) . وقد تعرض الكثيرون لنقد هذه النظرات . وإن مال أكثرهم إلى استحسانها والاستزادة منها . ومن هؤلاء (محمد راضى) الذى كتب مقالا بعنوان فن الكتابة (٥) وآخر بعنوان : (النظرات) (٦) . وفى هذه الاخيرة يقول :

« من قرأ روايات موليير التى لا تخرج عن ذلك الأسلوب الجميل (يعنى أسلوب المنفلوطى) علم مبلغ تأثير هذا الخيال فى النفوس ، ومبلغ فائدته فى تهذيب الأخلاق وإصلاح العادات . إن الحكيم موليير درة فى

---

(١) الجريدة فى ١١ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ يوليه سنة ١٩١٢

(٢) الجريدة فى ٢ ، ١٢ ، ٢٤ مايو ، ٨ يونية سنة ١٩١٣

(٣) الجريدة فى ٧ ، ١٤ يوليه سنه ١٩١١

(٤) ٢٣ إبريل سنة ١٩١٣

(٥) ٢٣ إبريل سنة ١٩١٠

(٦) ١٢ ، ١٦ مايو سنة ١٩١٠

تاج القرن السابع عشر وشيخنا المنفلوطى درة فى تاج القرن العشرين . إلا أن خيال الأستاذ على قوته لايزال ضعيفاً بالنسبة إلى موليير الذى كان يضع الرواية من بنات أفكاره وتقوم بتمثيلها جوقته التى هو على رأسها . ولو فطن الأستاذ نفسه فى هذا السبيل وكتب كثيراً واجتهد فى قراءة أمثال هذه الأوضاع لأتى إلينا بأبدع الآيات وأكبر المعجزات ، ولوجدنا نعمى الأدب العصرى على يديه . . . ولكن قريحة واحدة كقريحة المنفلوطى لاتكفى أن تكون مطلعاً لشمس تملأ آفاق الشرق نوراً مهما كان سناها وجمالها » .

وظهر للمنفلوطى كتاب آخر بعنوان (المختارات) اختار فيه لطائفة من الشعراء القدماء ثم قدمها للقراء ليتذوقوها وتعود عليهم قراءتها بإرهاف فى الحسن وجمال فى الذوق .

غير أن المنفلوطى لم يسلم كذلك من ألسنة النقاد . وكان من أسرعهم إلى النقد طه حسين . فكتب مقالا بالجريدة نشرته فى ٢٠ ابريل ١٩١٢ بعنوان (نحن والتقريظ) جاء فيه :

« زعم صاحب المختارات فى مقدمته أن شعر الجاهليين يمثل طفولة الشعر عند العرب . ولعمرى ما أصاب الحكم . وإن قضية كهذه لتحتاج إلى اتقان العلم بتاريخ الشعر العربى . وإن بيننا وبين هذا الاتقان لأمداً لايزال بعيداً » ثم انتقد الكاتب صاحب المختارات فى أمور أخرى ، منها طريقة المنفلوطى فى تراجم الشعراء . إذ توهم أن الترجمة هى ذكر سنة الميلاد ، وسنة الوفاة ، مع شىء من المدح ، والوقوف عند هذا الحد . كما أخذ عليه كذلك غلطه فى إيراد أسماء المشهورين من رجال العلم والأدب ؛ كأبى هلال العسكرى الذى كتبه فى المختارات هكذ : (ابن هلال) . وصحح طه حسين للمنفلوطى بعد ذلك طائفة من الأخطاء التى وقعت له فى بعض نصوص الشعر القديم، وأخطأ فى فهم هذا الشعر بسبب تحريفه للنص .

* * *

على أنه كان لهذه الحركة الأدبية النقدية هدف آخر فوق ما ذكرنا . وهو هدف يتفق وروح (الجريدة) ويساير فكرتها فى النهضة . وهو فى الوقت نفسه هدف نحو تعقيل الحركة . ذلك الهدف هو الدعوة إلى تمصير الأدب . وقد دعا بهذه الدعوة المجددون من الشبيبة المصرية . وكان من أسبقهم إليها محمد حسين هيكل الذى كتب سلسلة من المقالات بعنوان (فوضى الأدب[1]) وفيها يقول :

للأدب العربى سلطان كبير على المصريين . وهى حركة مباركة لو أن الغرض منها معرفة الأدب العربى ، واحترام المصريين لأنفسهم . ولكن يجب أن يكون عندنا أدب مصرى خالص يخلق بيننا حركة مصرية صميمة ويخلق مشابهات كثيرة بين المصريين الخ ، فذلك أدعى لاحترام أنفسم ، وإثبات شخصيتهم ، والقيام بها للنهضة من واجب قومى .

وقد حذاه هيكل فى ذلك حذو أستاذه لطفى السيد فى دعوته إلى مصرية اللغة . بل إنه بالغ فى احتذائه بعد ذلك عند ما كتب مقالا بعنوان (فوضى اللغة[2]) وفيها يدافع هيكل عن العامية المصرية دفاعا يشبه دفاع لطفى عنها . فمن رأى هيكل فى هذا المقام أن ألفاظ (تليفون وأتومبيل ونحوهما ينبغى أن تكون ضمن ألفاظ المعاجم اللغوية . كما ينبغى ألا يتأبى أدباؤنا من استعمالها فى آثارهم الفكرية والأدبية .

* * *

تلك كانت جهود الجريدة فى الأدب شعره ، ونثره ، وتاريخه ، ونقده . وهى جهود تدل على اتجاهات جديدة للأدب المصرى من حيث الإنشاء ، ومن حيث الوصف معاً .

فأما من حيث الإنشاء فقد رأينا الأدب المصرى ، نزاعاً إلى التحرر من

---

(١) الجريدة فى ٢٠ مارس ١٩١٢

(٢) الجريدة فى ٣٠ مايو ١٩١٣

قيود البلاغة القديمة ، والتحرر من الأفكار القديمة ، والموضوعات القديمة التى كان يسبح فيها الشعراء . ومن ثم كثر الإنتاج الأدبى فى موضوع الطبيعة ، وموضوع التأملات ونحوهما .

وأما من حيث الوصف وهو ضربان : التاريخ والنقد فقد لاحظنا بدء نهضة جديدة فى فهم كلمة النقد ، وفهم الغرض منها . وقد كان نقادنا فى تلك الفترة يدركون جيداً أن النقد نوعان : ذاتى ، وموضوعى . فالذاتى هو عبارة عن الملاحظات الشخصية للناقد، أو هو عبارة عن شعوره الخاص نحو أثر من الآثار الأدبية مهما كان نوعه وصورته . والموضوعى من النقد هو عبارة عن القواعد أو الأصول التى اصطلح عليها القدماء ، واتخذوها أساساً لهم فى معرفة الجيد من الكلام ورديئه . هذا كله فى النقد .

أما فى التاريخ الأدبى فقد كان من طلائع المؤرخين فى تاريخ مصر الحديث ثلاثة وهم : مصطفى صادق الرافعى ، وجورجى زيدان ، وأحمد السكندرى . ولم يسلموا جميعاً من النقد ، وإن كان أولهم وهو الرافعى أكثر تعرضاً له .

على أن هذا النقد فى ذاته كان حركة مباركة نشطت فيها العقول ، وانطلقت الألسن ، وتشعبت الآراء ، وكان من ثمرة هذا كله الوصول بالدرس الأدبى فى الجامعة إلى درجة عالية ظهر صداها فى الجامعة الحديثة ، وذلك على أيدى الرعيل الأول من أساتذة هذه الجامعة الأخيرة. ومنهم طه حسين وأحمد أمين.

الفصل التاسع

أسلوب لطفي السيد

كان ابن العميد يقول «كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانياً» . ونحن نقول «مقالات لطفى السيد تعلم العقل أولا والصحافة والسياسة بعد ذلك» .

والحق اننا مع هذا الكاتب بإزاء عقل من العقول الكبيرة التى انتفعت بها مصر ، وما زالت تنتفع بها إلى اليوم . فعلى يديه تخرج جيل من المصريين كان له أعظم الأثر فى نهضتهم وتقدمهم فى مجال السياسة والأدب والفكر والاجتماع .

ولئن كان على يوسف هو الرائد الأول للصحافة المصرية الحديثة ، وكان مصطفى كامل هو النبى الحق للوطنية الصادقة الكريمة ، فإن لطفى هو رسول هذه الأمة للثقافة الجامعية منذ أوائل القرن الذى نعيش فيه : دعا إليها بكل قوته ، وأخلص فى دعوته اخلاص الطهطاوى فى الربع الأول من القرن الماضى للثقافة الأوربية . كما دعا لطفى السيد مع هذا إلى احترام العقل البشرى . وجاهد فى سبيل وقايته من جميع الآفات الضارة به ؛ حتى لا يلد للإنسانية أفكاراً سقيمة ، أو معانى سخيفة ، أو نظريات تشكو النقص والاعوجاج والانحراف عن جادة الصواب .

ولم يكن لطفى من المؤمنين بالطفرة. بل كان يؤمن بالتطور الذاتى للأمة، فجاء أسلوبه ملائماً لهذه النظرة : عليه طابع الهدوء والتفكير العميق ، وبه صبغة من التجديد تتفق وفكرته عن التطور الذاتى للأمة .

ومن ثم كان الفرق عظيما بينه وبين صاحب اللواء فى الأسلوب الصحفى .

ثم لم يكن لطفى رجلا ضحل الثقافة ولا ضيقها ، وإنما كان واسع العلم بالثقافتين الشرقية والغربية ؛ وذلك فضلا عن كونه من عشاق اللغة العربية ، ومن هنا كان الفرق عظيما كذلك بينه وبين صاحب المؤيد . كلاهما يؤثر الأسلوب الهادىء المنطق . ولكن أحدهما وهو على يوسف يصدر فى أسلوبه عن ثقافة أزهرية لم يدخلها دم أجنبى من ثقافة أوربية . وأما الثانى — وهو لطفى السيد — فهو كالجاحظ تتمثل فيه ثقافات مختلفة ، وعقول مختلفة .

على أن بين صاحب المؤيد ، وصاحب الجريدة فروقا أخرى : فهما وإن اتفقا فى الأخذ من واقع الحياة العامة ، فإنهما يختلفان بعد ذلك فى طريقة الأخذ منها . ولهذا السبب كانت (المصرية) أوضح وأعمق فى أسلوب لطفى منها فى أسلوب صاحبه . بل إن المصرية لم تزل هدف لطفى السيد فى جميع مراحل جهاده ، وبقيت على الدوام مصدر وحيه وإلهامه . وكانت قاعدة التفكير عنده فى كل ما يتصل بالمجتمع ؛ أو السياسة ، أو الأدب ، أو اللغة .

وهناك فرق بين صاحب الجريدة وصاحب مصباح الشرق — وهو إبراهيم المويلحى . وإنه لفرق أكبر من الفرق بين المدرسة الثالثة التى يعتبر لطفى من خير تلاميذها ، والمدرسة الثانية التى كان المويلحى خير من يمثلها فى أواخر القرن الذى مضى — نقول أكبر من الفرق بين هاتين المدرستين لأن المويلحى كان يمثل القمة التى سمت اليها المدرسة القديمة فى الترسل الصحفى الذى يمتاز بالزينة والزخرف . بينما كان لطفى يمثل القمة التى سمت اليها المدرسة الحديثة فى الترسل الصحفى الذى يمتاز بالبساطة والوضوح وحرية التعبير القائم على التعقيل الصحيح . ومعنى هذا كله أن المقالة الصحفية — على النمط الحديث — بلغت ذروتها تقريباً على يد لطفى السيد ، ووصلت قرب نهايتها عنده . وهنا يجمل بنا أن نقف قليلا لنتحدث حديثاً موجزاً عن (فن المقالة الصحفية) .

سبق لنا فى نهاية الجزأين الأولين من أجزاء كتابنا (أدب المقالة الصحفية

فى مصر) أن أشرنا إشارة عابرة إلى أصول هذا الفن ، وحاولنا التفرقة بينه وبين الفنون الأدبية الأخرى . وأذكر أننى قلت فى ذلك إن المقالة الصحفية ليست موضوعا إنشائياً كالذى يكتبه الطلبة فى المدارس، ولا بحثاً علمياً كالذى يكتبه الأساتذة وطلابهم فى الجامعات ، ولا محاضرة ، ولا مناظرة ، ولا قصة أو نحو ذلك . إنما المقالة الصحفية أفكار وخواطر يتلقفها الكاتب الصحفى من المجتمع الذى يحيط به .وليس من الضرورى أن تكون هذه الأفكار مهضومة فى نفس صاحبها . بمعنى أن المقالة تنشر فى الصحف أشبه شىء بالقصيدة الغنائية التى لا حظ لها من الترابط المحكم . فكما أن الشاعر الغنائى يطلق نفسه على سجيتها ، وينتقل بالسامع من طائفة من المعانى أو الخواطر إلى أخرى، وكثيراً ما يكون ذلك على غير نظام معين ، فكذلك الأديب كاتب المقالة الصحفية يعرض أفكاره وآراءه ومشاعره على هذا النسق ، وبنفس هذه الطريقة .

والانجليز يطلقون على المقالة كلمة Essey ومعناها (محاولة) أى أنها شىء غير مكتمل — شىء يشبه المذكرات الخاصة ، أو اليوميات المتناثرة . وعلى القارىء دائماً أن يكمل ما بالمقالة الصحفية من نقص ، كما على سامع القصيدة الغنائية أن يفعل ذلك عند سماعه كل بيت من الأبيات التى تتألف منها .

وفن المقالة الصحفية بهذا المعنى إنما هو فن التعليق ، وهو فن حضرى خالص، إذ هو يأتى متأخراً فى الحضارة، بعكس الشعر فإنه أول الفنون الأدبية ظهوراً فى العالم .

وفى المقال الصحفى نرى الكاتب يعلق على أحداث جرت ، وسمع الناس بها ، وكتب عنها فى الصحف ونحوها . وغالباً ما يفرض الكاتب فى القراء أنهم قد اطلعوا على هذه الحوادث وسمعوا بها وأنهم لا ينتظرون من الكاتب الصحفى إلا أن يحدثهم عنها ، وكأنما يتحدث بلسان القراء جميعاً .

والجماعات البشرية كالأفراد لا غنى لها مطلقاً عن الرجال الذين يتغنون

مشاعرها وعواطفها ، ويسجلون لها أعمالها ومآثرها ، ويعبرون لهاعن آرائها وأفكارها المختلفة . وقدكان هذا الغناء قصائد فى البيئات المتبدية القديمة ، فأصبح هذا الغناء صحافة فى البيئات المتحضرة الحديثة .

ومن ثم انقسمت المقالة من حيث هى إلى نوعين :

(أولها) المقالة الذاتيةأو الشخصية ، يعبر فيها الكاتب عن آرائه الشخصية بحرية تامة ، ثقة منه بأن ماكتبه يعتبر مرآة صافية يرى فيها القراء أنفسهم وأفكارهم وخواطرهم .

(وثانيهما) المقالة الموضوعية . وفيها يأخذ الكاتب نفسه بموضوع معين، لا يحاول الخروج عنه أو الجرى فيه وراء أحاسيسهالخاصة ، كما يفعلصاحب المقالة من النوع الأول .

وقدكان يمثل النوع الأول منهما فى الأدب الأوربى الكاتب الفرنسى مونتانى (١٥٣٣ — ١٥٩٢) . كما كان يمثل النوع الثانى فى الأدب الأوروبى كذلك الكاتبالانجليزى بيكون(١٥٦١ — ١٦٢٦) .وكان كلا الكاتبينالسابقين يؤمنانبحرية التعبير وتعقيل التفكير . وبقى الحال على ذلك حتىظهر (ديفو) الكاتب الانجليزى فى القرن الثامن عشر ، وكان أول من وضع بذرة المقال الصحفى فى انجلترا . وفاض أسلوبه حيوية وإشراقا ، وامتاز صاحبه بالقدرة على مخاطبة رجل الشارع . وهو القائل : إذا سألنى سائل عن الأسلوب قلت إنه الذى إذا تحدثت به إلى خمسة آلاف شخص ممن يختلفون اختلافاً عظيما فى قدراتهم العقلية — خلا البله والمجانين —فإنهم جميعاً يفهمون ما أقول .

وكان من كتابالقرن الثامن عشر الكاتب الانجليزى أديسون Adisson وقد جمع بينالفلسفة العقلية وإجادة الأسلوبالصحفى، كما يبدو ذلكمن مقالاته الكثيرة فى صحيفة Spectator ثم هو كاتبأخلاقى كان يهدف دائماً إلى التعقيل فى كل شىء . فوجه الصحافة وجهة منطقية عقلية ، وامتاز بأسلوب المحادثة ؛

وهو الأسلوب الذى يشف عن شخصية كاتبه وروحه ويتحدث إلى القارىء بصراحة صديق يجلس إلى صديق .

وعندى أن الشبه عظيم بين هذا الكاتب الانجليزى والكاتب المصرى لطفى السيد . فقدعقل كل منهما عصر التنوير ، كما عقل كل منهما طريقة الكتابة فى الصحف .

٭ ٭ ٭

ونعود إلى ما كنا فيه من أن لطفى السيد تلميذ من تلاميذ المدرسة الصحفية الثالثة. وهنا أحب أن ألفت النظر إلى أنه لا ينبغى أن يفهم من لفظ (مدرسة) أنها تضم كتاباً أو أدباء لهم جميعاً طابع معين ينبغى أن ينطبع به جميع أفراد هذه المدرسة انطباعا دقيقاً بحيث يصبحون متشابهين كنسخ الكتاب الواحد

كلا ، لا ينبغى أن نفهم هذا المعنى . فإن للمدرسة الواحدة طابعها ، ولكن لكل فرد من أفراد هذه المدرسة أصالته وشخصيته التى تميزه عن غيره من تلاميذ المدرسة التى ينتمى اليها .

وإذا قلنا إن المدرسة الحديثة فى الصحافة بدأت بالسيد على يوسف ، ومن تلاميذها مصطفى كامل ولطفى السيد ، فمعنى ذلك أن لكل واحد من هؤلاء الثلاثة صورة تميزه، وتدل على شخصيته وينادى بأصالته. ولعل فى الإشارة إلى بعض الفروق السابقة بين لطفى السيد وكل من على يوسف ومصطفى كامل ما يدل دلالة قاطعة على صدق ما نقول .

وإذن — فما هو الطابع العام لصحافة لطفى السيد . وما الخصائص الفنية لأسلوبه فى الكتابة الصحفية ؟ وما الصلة بينها وبين ثقافته وخصائصه العقلية والخلقية ؟

تلك هى الأسئلة التى اعتدنا الإجابة على أمثالها بالقياس إلى كل رجل من رجال الصحافة الذين قدمناهم من قبل إلى القراء . وهى بعينها الأسئلة التى

نجيب عنها بالقياس إلى لطفى السيد كصحفى نابه من هؤلاء :

إذا قلنا إن لطفى السيد رجل ذو عقلية فلسفية ، وإنه ذو ثقافة قانونية سياسية أدبية تاريخية ، وإن نفسه أكثر ميلا للتأمل منها للتمرد أو الثورة فقد قلنا كل شىء عن أسلوب هذا الكاتب ، أو طريقته فى الكتابة . إذ لا بد لهذه الطريقة من أن تتميز بصفات معينة منها :

(أولا) صفة الواقعية . ولطفى يميل إلى هذه الصفة وإلى التحليل والتعليل فى كتابة المقال . فلا يعتمد فيه على التهييج وإثارة الخواطر ، وإنما يعتمد فيه على حسن تذوقه طعوم الحوادث اليومية أو الدولية . كما يعتمد على الشواهد العملية ، والتقارير الرسمية وغير الرسمية ونحو ذلك . ومن ثم تشف مقالته دائما عن عقلية منظمة حقاً — عقلية عالم أكثر منها عقلية كاتب من كتاب الأدب أو الصحافة .

تراه يعمد إلى الحوادث التى تصل إلى علمه ، فيحللها فى نفسه تحليلا دقيقا وينفعل بها انفعالا عقليا لا عاطفيا — إن صح هذا التعبير . وهو فى تحليله وتعليله لا يصطنع لغة تروق القارىء بحلاوتها من حيث الجرس ، أو الصياغة وإنما تروقه من حيث الدقة فى الشرح ، والايجاز فى العبارة .

وصاحب الجريدة فى هذه الصفة أكثر شبها بصاحب المؤيد ولكنهما يفترقان فى أكثر الخصائص الفنية بعد ذلك . لا نكاد نستثنى من هذه الخصائص غير اثنتين وهما : شيوع المنطق فى الكتابة ، ومساواة اللفظ بالمعنى فى الترسل .

(ثانياً) شيوع المنطق فى الكتابة . وليس المنطق الذى يصطنعه لطفى السيد من ذلك النوع الذى نجده عند صاحب المؤيد ، لأن صاحب المؤيد لم يدرس شيئاً من الفلسفة ، فى حين أن لطفى السيد درس كثيراً منها . ولذا نجد آثار هذه الفلسفة واضحاً فى أسلوب صاحب الجريدة : ففى هذا الأسلوب كثير من ألفاظها . مثل ألفاظ الجوهر ، والعرض ، والكيف والكم ،

والقياس المنطقى ، والدوران المنطقى كذلك ثبوتاً ونفياً ، ووجوداً وعدماً ، ونحو ذلك . وفى أسلوب صاحب الجريدة من خصائص الفلسفة فى التعبير استخدام المقدمات والنتائج ، والتحليل ، والتعليل ، والاستقصاء والاكثار من الأدلة والشواهد ، والصور الذهنية ، يأتى بها الكاتب الفيلسوف لغرضين اولهما التأثير على نفس القارىء . وثانيهما قيام هذه الصور والشواهد قيام المقدمات التى يبنى عليها الكاتب نتائجه .

والحق أن الجهد الفكرى الذى يبذله لطفى السيد فى مقالاته ، ولا يشعرنا به بعد ذلك متغلب على الجهد البيانى فيها ، وأن الترتيب المنطقى للحوادث ، والحجج ،والشواهد اليومية ، والأخبار التاريخية متغلب كذلك على الترتيب الفنى للعبارة . ولقد كان من مظاهر الثقافة الفلسفية التى صدر عنها صاحب الجريدة أيضاً ولعه بالاقتباس أحياناً — وهو قلما يجب الاقتباس من حيث هو — من أقوال الفلاسفة خاصة ، لا من أقوال الكتاب أو الشعراء ولا من آيات القرآن أو الحديث ، ولا من كلام العرب القدماء ونحو ذلك . ومن ثم كان استشهاد الكاتب بهذه المواد الأخيرة بالغا غايته فى الندرة ، سواء كان ذلك فى مقالاته السياسية ، أو الاجتماعية ، أو الأدبية .

(ثالثا) مساواة اللفظ بالمعنى . وهى الصفة التى قلنا أنه يشترك فيها مع على يوسف . وهى صفة تلزم الكتاب الواقعيين من أمثالهما . وهى للفلاسفة وأصحاب المعانى أشد لزوما .

والدليل على شيوع هذه الصفة فى كتابة لطفى السيد أننا لا نستطيع أن نقوم باختصار عباراته ، ولا نجد من السهل علينا فى أغلب الأحيان أن نلخص كثيرا من معانيه وآرائه . لأننا إذ نعبر عنها لا نستخدم عدداً من الألفاظ أقل من عدد ألفاظه هو ، ولا طريقة مرتبة مبسطة خيرا من طريقته هو .

من أجل ذلك قلما يسهب لطفى السيد إلا فى مواطن الشرح أو السخرية . ولا يطيل فى العبارة إلا حين يشعر بجدة الموضوع على القراء . ولقد كان من نتائج ذلك أن كاتب الجريدة يعتبر أقل تلاميذ المدرسة التى ينتمى اليها

اصطناعا للغة الخطابة . بل نحن لا نعرف له موقفاً خطابياً إلا فى المساجلات الصحفية ، والمقالات التى كتبها عن المجالس النيابية . ولا نكاد نعرف له لهجة خطابية واضحة كل الوضوح إلا فى مساجلة له مع صاحب المؤيد فى (توديع اللورد كرومر) . وفيها يقول :

« رحماكم يا أرباب الأقلام — لا تغرروا بهذه الأمة التعيسة ، ولا تكونوا للزمان عوناً عليها . وأخلصوا لها النصح ، وذروها فى هذه الفترة هادئة تتكون قوتها من الباقيات الصالحات ، لا من الكلمات الطائحات . أعطوا العقول حقها من حرية الفكر ، والألسن قسطها من حرية القول ، والنفوس أمرها من الجرأة الخ »

ذلك أن الخطابة — وهى فن الإقناع — إنما تقوم فى أكثرها على الهياج والثورة . وكاتب الجريدة ليس ممن يحسنون الهياج والثورة . فجاء أسلوبه غزيراً فى مادته غنياً فى أفكاره ، ولكنه أبعد ما يكون فى الوقت نفسه عن الإسهاب ، والإطالة ، واللف ، والدوران ، والتكرار ونحو ذلك من الأمور التى تميز الخطابة .

(رابعا) قلة احتفال الكاتب أحياناً بربط الجمل بعضها ببعض فى المقالة . وإنه ليخيل إلى القارىء فى هذه الحالات حين يقرأ لكاتب الجريدة أنه يقرأ مقالا على النسق الأوربى فى الكتابة . وأعجب من ذلك أن أكثر ما يكون عدم الربط فى مقالاته الأدبية قبل مقالاته السياسية . وأكبر الظن عندى أن هذه الصفة من صفات الأسلوب أتت من ناحيتين :

أولاهما — اشتغال لطفى السيد بالمعانى ، وترتيبه إياها فى ذهنه بطريقة خاصة . فإذا راح يكتبها لم يحاول أن يربط بعضها ببعض بأدوات الربط المعروفة فى اللغة العربية ، اكتفاء منه بأنها إنما رتبت على الورق بنفس الترتيب الذى كانت عليه فى ذهنه وقت كتابتها والثانية — تأثره بنظام العبارة الأوربية ، وتأثره كذلك بالثقافة القانونية . وكلا الأمرين السالفين قد يورثان الكاتب قلة احتفائه بحروف العطف على اختلافها ، مع غنى اللغة العربية فى هذه الناحية ، وعناية بلغائها بها ، حتى قال الجاحظ :

« قيل للفارسى ما البلاغة ؟ قال هى معرفة الفصل والوصل » .

وللقارىء أن يراجع مقالات لطفى السيد الأدبية فى ذلك ؛ ومنها مقالته بعنوان : جنى القطن [١].

(خامساً) الأسلوب الثقافى [٢] . ونعنى به الأسلوب الذى يدل على ثقافة كاتبه . ورب قائل يقول : وأين الأسلوب الذى لايدل على صاحبه من هذه الناحية ؟ ولكنا نقول : إن أسلوب صاحب الترجمة يطالع القراء دائما بهذه الثقافة الواسعة ، ويشعرهم كذلك بأن جانبا كبيراً من آرائه وعباراته ليس إلا ثمرة جهد كبير فى الدرس والمطالعة . وليس الأمر كذلك عند غيره من كتاب الصحف عادة . لا نكاد نستثنى منهم غير الطبقة التى تميزت بالأسلوب الأدبى الرفيع ، والتى منها أديب إسحق وإبراهيم المويلحى ومن حذا حذوهما . فإن هذه الطبقة تشف آثارها عن تعمقها فى الدراسات الأدبية الخالصة كما رأينا.

ولعل من مظاهر الاسلوب الثقافى أحياناً ميل صاحبه إلى الاقتباس من الكتب . ولكنا ذكرنا أن لطفى السيد لا يأخذ من معين الأدب العربى إلا فى أوقات قليلة نادرة ، وأنه يأخذ خلاصة طيبة من معين الادبين اليونانى والاوربى ، يزين بها العبارة التى يكتبها فى الصحف . فكأنه يعنى دائما بالفكرة من حيث هى . وقلما تعنيه القوالب التى وضعت فيها هذه الفكرة .

وصاحب الجريدة فى هذا الأخذ — على أى صورة من صوره — مخالف لأستاذ مدرستنا — وهو السيد على يوسف — كل المخالفة . فقد كان هذا الكاتب من الكتاب الذين لا يتسلقون على كلام غيرهم ، ولم يعرف عنه — إلا فى القليل النادر كذلك — أنه اقتبس فى كتابته شيئاً من الأدب العربى

---

(١) الجريدة فى ٢ من أكتوبر ١٩١٣ — والتأملات ص ٢٧ وفى الكتاب الذى بين يديك ص ٧١ .

(٢) كلمة « الأسلوب الثقافى » يغلب ألا يكون لها وجود فى كتب النقد . وربما استخدم النقاد مكانها كلمة « الاسلوب العلمى » ولكن ليست هذه الكلمة الأخير هى لعينيها المقصود من الكلمة السابقة . ولذلك آثرنا هذه الكلمة السابقة بالاستعمال .

الذى يعرفه ، ولا شيئاً من الأدب الأوربى الذى يجهله . أما لطفى السيد فقد طغت عليه ثقافته، ولم يستطع فكاكا منها، ومن ثم أفاد من أفكارها وآرائها، واستشهد فى بعض الأحيان بعبارات من كلام الفلاسفة : كسبنسر، ومونسكيو، وجان جاك روسو ، وتولستوى ، وغيرهم . ولم يكتف صاحب الجريدة بهذا بل مال كذلك إلى الاخذ من فلسفة أرسطو وأفلاطون وغيرهما من فلاسفة اليونان . وكل هؤلاء من علماء السياسة والاجتماع . وليسوا من رجال الادب أو الصحافة .

على أن الباحث يشهد لصاحب الجريدة أنه لم يسمح لنفسه قط ان يكون عبد لواحد من هؤلاء فى رأيه، ولا تابعا له فى فكرته، إلا متى أيقن بصحة هذا الرأى أو الفكرة . وإلا فإنه كان يحترم نفسه ، ويناقش الرأى الذى يستشهد به مهما كان مصدره ، ومهما عظمت قيمة قائله .

من أجل هذا كنت ترى لطفى السيد فى بعض الاحيان يبدأ مقالته ، أو يبدأ الفقرة الهامة فى مقالته بكلمة لاحد أولئك الفلاسفة . فاما واقفه عليها وقوى حجته بها . وإما ناقضه فيها ، واعتمد فى هذه المناقضة أيضاً فى تقوية حجته . والامثلة على هذا كثيرة لا حصر لها . منها أخذه من مكيافللى هذه الكلمة :

«من البعيد أن تكون رغبات الامة فى تحرير نفسها مضرة بها فى حريتها . لان هذه الرغبة إنما تتولد عن الاضطهاد ، أو الخوف من الاضطهاد» .

كما أخذ عن سيسرون قوله :

«مهما كانت الامة فى أعماق الجهل فهى قابلة لفهم الحقيقة ، وراجعة اليها بسهولة متى كشف لها عن هذه الحقيقة رجل أهل لثقتها » .

واقتبس من مكيافللى كذلك قوله :

« إنه لا خوف على الامة من الرغبة فى تحرير نفسها . وكل حركة من جانب الامة نحو استجماع كمالها الخاص سعد وسلام لها فى حريتها وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية » .

واستشهد فى إحدى مقالاته بعبارة للكاتب الفرنسى تين Taine ، قالها فى سنة ١٨٥٣ ،وهذا نصها :

« إن كان فى فرنسا سبعة ملايين من الخيل ، فإن لهذه الخيل الحق فى التصرف فيما تملك . ومثل هذه الأمة — مهما كان مقدار الانحطاط فيها — خير نظام للحكم فيها هو النظام الذى يناسب درجتها من التمدن » .

وكتبَ مرة يقول :

« أقول ما قال بعض المفكرين : إن سلطة الأمة ليست كبقية الحقوق . فلا يجوز لها أن تتصرف فيها بأى نوع من أنواع التصرفات . ليس لها أن تتنازل عنها ، ولا عن بعضها ، بمقابل أو من غير مقابل ، لأن كل عهد من هذا القبيل باطل بطلاناً أساسياً » .

إلى غير ذلك من الأقوال والآراء التى اقتبسها من أرسطو وأفلاطون وسبنسر وروسو وهيجو وتولستوى وجوستاف لوبون وغيرهم .

(سادسا) إيثار التراكيب المصرية بالاستعمال،واستخدام الألفاظ الشعبية فى بعض الأحيان . وقد تكون هذه الألفاظ الشعبية أجنبية أوربية ، كلفظ (فابريقة) و (ماكينة) و (مودة) و (أوتوموبيل) و (بنطلون) ونحو ذلك . وثم ألفاظ أوربية لا تعرفها العامة ، وإنما تعرفها الخاصة كثر ورودها كذلك فى مقالات لطفى السيد ، مثل (الليبراليزم) أى مذهب الحريين الذى تقدم ذكره ولفظ (البانسلاميزم) أى الجامعة الإسلامية ونحو ذلك .

أما التراكيب المصرية التى شاعت فى أسلوب لطفى السيد فكثيرة . منها على سبيل المثال :

« لم تبرهن حكومتنا الاستبدادية إلى الآن على أنها تريد مساعدتنا على وقتنا الاجتماعى والاقتصادى الخ» .

فانظر إلى قوله « مساعدتنا على وقتنا » فهو تركيب مصرى خالص ، ولا صلة له — فيما نعلم — بالعربية الخالصة .

وأنظر إلى قوله فى كلامه عن مذهب الحرية :

« مذهب الحرية مذهب مؤلف من طبائع الإنسان . فهو أحسن ضمان للحكومة وللأمة فى وقت معاً . أما المذاهب الأخرى فالاعتماد فيها على القوة والإكراه . وهيهات أن يحب المرء الحكومة (بالنبوت) . »

وأنظر إلى قوله فى نقد سياسة الوفاق :

« فما كان لأحد أن يظن بحق أن هذا الإصلاح الجديد — إصلاح الأزهر — عينة لترقى الحكومة الشخصية فى معاملة الأمة » .

وقال فى موضع آخر :

« ونتج عن سياسة الوفاق هذه فتور عام فى فكرة الاستقلال ، وتراخ فى مفاصل الحركة الوطنية المصرية » .

« انظر إلى قوله (عينة) وهو لفظ مصرى بحت ، بل ربما كان شعبياً بحتاً كذلك . وأنظر إلى قوله (تراخ فى مفاصل الحركة الوطنية) فهو تركيب يوشك أن يكون شعبيا مصريا كذلك .

وفى نقده اللورد كرومر يقول لطفى السيد :

« هكذا سبح كرومر فى بحر من الانتقاد من غير عوامة ، سوى المستر ستانلى لين پول الذى تعلم منه أن الدين الإسلامى كنظام اجتماعى أخفق كل الإخفاق » .

فانظر إلى قوله (عوامة) . وإن كان من قبيل الترشيح فى صورة هذا التشبيه الذى شبه به كرومر فى انتقاده إلا أنه أكثر دورانا فى لغتنا اليومية حتى أصبح من حق العامة .

وانظر إلى قوله :

« يدعون — وهم خمسة ستة فى مصر وانجلترا — إنهم يعلمون مصلحة الأمة أكثر مما تعلمها هى الخ » .

ففى هذه العبارة قوله (خمسة ستة) ، وهو بدل غلط كثيراً ما يستخدم فى لغتنا المصرية العادية ولا نكاد نراه فى اللغة الفصيحة .

وبنفس الطريقة التي استخدمها الكاتب في عباراته السابقة وجدناه يبدأ مقالة له بعنوان (أبناؤنا وبناتنا) فيقول :

« الله يقطع التمدن إذا جاءت من تحت رأسه قلة النسل » الخ . .

فقوله (الله يقطع التمدن) وقوله (جاءت من تحت رأسه) تركيبان مصريان حظهما من العربية قليل جداً .

ألا ما أشبه صاحب الجريدة في هذا الصنيع بشاعرنا المصري القديم (بهاء الدين زهير) ؛ فقد كان له مذهب شعري معروف ، آثر فيه الألفاظ الشعبية ، وترقى بها إلى مستوى الشعر ، ولم يتأب من استعمالها كما يتأبى الكثيرون من المحافظين إلى اليوم .

(سابعا) شيوع السخرية الهادئة . وهي سخرية ليست من النوع الحزين الذي عرفناه عند مصطفى كامل ، ولا من النوع العنيف الذي عرفناه عند المويلحي . ولكنها سخرية تنم عن ابتسامة خفيفة على شفة كاتبها . وهي في نظرنا غاية ما نطلبه من المقالة التي تنشر في الصحف . لأن قارىء الصحيفة يقرؤها على مائده الإفطار ، أو على مائدة الغداء ، ويمسك بها في بعض أوقات الفراغ ، وقد يتصفحها في طريقه الى عمله . وهو في جميع هذه الأوقات غير مستعد للانفعالات النفسية العنيفة التي يثيرها الكتاب المنفعلون انفعالا شديداً بالحوادث العامة . وإذا كان ولا بد من إثارة القراء فليكن ذلك عن طريق الأخبار . إذ أن الجماهير لا غنى لها عن هذه الإثارة بهذه الطريقة في أوقات قليلة من حياتهم .

ولم يسخر لطفي السيد في صحيفته من شيء قدر ما سخر من الحكومة الاستبدادية التي لا ترعى مصالح الشعب، ولا تفكر في طريقة ارتقائه الى مستوى الأمم المتحضرة الخليقة بنعمة الحرية ، ونعمة الدستور ، ونعمة التربية والتعليم ونعمة التمتع بالحقوق العامة .

ومن ذلك أنه دعا الحكومة المصرية إلى تيسير دخول الحدائق العامة للفقراء من الجمهور المصرى بالمجان . فقال :

« إننى أؤكد لأنصار حكومتنا الشخصية أن فتح أبواب الجنينة للفقراء لا يترتب عليه الجلاء ، ولا ينتج عنه إعلان الدستور ، ولا تزيد سلطة الأمة مثقال ذرة ، ولا يجر إلى تحقيق أمر من شأنه أن يهدد الحكومة الشخصية فى شيء يعز عليها ، ولا يترتب عليه الا ظل من تحقيق المساواة التى يدعونها ، وراحة الفقراء الذين هم عيال الله » .

وسخر الكاتب من تلك الفكرة التى أتى بها كرومر يوما ما ؛ وهى فكرة مجلس التشريع الدولى ، فقال فى هذه السخرية :

« ولا ندرى هل يكون الأمر وقتئذ فى هذا البلد — بلد العجائب — أن يسوى بين المصرى والأوربى فى الحقوق ، أو — تنقلب الامتيازات من كونها امتيازات للأوربيين إلى كونها امتيازات للمصريين البيض — يريد النزلاء الأجانب — على المصريين السمر — يريد المصريين الحقيقين —[1] .

وانظر إليه فى مقال له بعنوان : نحن والاستقلال[2]

كيف يقول :

« فهل نحن الآن من هذا الاستقلال المطلوب على تقدم فى طريقه؟ ومن أى مرحلة نحن من مراحله ؟ أم نحن نتقدم فى طريق الاستقلال خطوات واسعة ولكن إلى الوراء ! » .

وفى مهاجمته اللورد كرومر كتب مقالا آخر بعنوان :

---

(١) الجريدة فى ٤ مايو ١٩٠٧ .
(٢) الجريدة فى ٨ أبريل ١٩٠٨ .

الأنجليز فى مصر [1]

ختمه بقوله :

« إن صح قول هيجو أن اللورد «عالم بالقراءة والكتابة بقوة القانون لا يصح أن يكون اللورد عالما بالشريعة الإسلامية بقوة القانون أيضاً » .

ونقد نظم التعليم ، كتب مقالا بعنوان :

سبيلنا إلى الحكم الذاتى [2]

جاء فيه :

«ولا يغلو الذى يقول إن التعليم الحاضر — على ماهو عليه — لا يوصل إلى شيء من سعادة الأمة . وإذا كان لا بد من معدات لتلاشى الوحدة القومية ونقد الاستقلال كان التعليم الحاضر خير المعدات لتلك النتائج » .

وانظر الى الكاتب حين سخر من الحكومة اذ أمرت بإطلاق المدافع تحية (المجلس المبعوثان) فى الوقت الذى رفضت فيه أن تعطى المصريين دستوراً فقال [3] :

« ألا يكون الأمر أن الحكومة بعبت فى إقناعنا بمحبتها للدستور ، وأنه لا يمنعنا منه إلا عدم أهليتنا له ، فأطلقت المدافع — لاحبا فى دستور الترك ولكن لتصم آذاننا وأسماعنا بأنها دستورية بالقوة لا بالفعل . إن كانت هذه فكرتها فنعمت الفكرة ، لأنها تدل على حذق ومهارة لم يظهر إلا نقيضهما يوم الاحتفال بالمحمل الخ » .

(ثامنا) النزاهة فى اللفظ والعفة فى الأسلوب . والحق أننا لا نعرف كاتبا أخذ نفسه بهذه الأخلاق الشريفة فى كتابته كما فعل لطفى السيد . فلا نعلم عنه أنه أتى بكلمة نابية ، أو احتد فى خصومة أو مساجلة . وإن اشترك معه فى هذه الصفة جميع رجال المدرسة الثالثة . ولا غرابة فى ذلك فقد قطعت صحافة هذه المدرسة مرحلة كبيرة من مراحل التطور الصحفى ، أو تطور

---

(١) الجريدة فى ١٤ أبريل ١٩٠٨

(٢) الجريدة فى ١٥ سبتمبر ١٩٠٧

(٣) صفحات مطوية ص ٥٠

الأساليب الكتابية. ولعل القراء يذكرون أننا فى المدرسة الصحيفة الثانية كنا أمام شاب حاد المزاج ؛كأديب إسحق ؛ لا يتورع عن الشتم والسباب بأقذع الألفاظ . وكنا فى تلك المدرسة كذلك أمام شيخ هادىء الطباع كالشيخ محمد عبده سرعان ما يفقد هدوءه وحلمه حين يتعرض للرد على ساسة الأوربيين الذين نقدوا الإسلام والمسلمين. وقد كنا فى تلك المدرسة كذلك أمام كاتب ذرب اللسان لاحد لتطاوله على الحكام وغير الحكام كالسيد عبد الله النديم ، وبخاصة فى مقالاته التى كتبها ضد الخديو اسماعيل ، ومقالاته التى كتبها ضد شخصية كبيرة من شخصيات البلاط الحميدى ؛ هى شخصية أبى الهدى الصيادى . وكنا فى تلك المدرسة أيضاً أمام أديب بارع فى الكتابة ، يستخدم براعته فى النيل من خصمه ، مهما علت منزلته ، كإبراهيم المويلحى . كنا فى المدرسة الثانية أمام أولئك الكتاب ، فأصبحنا فى المدرسة الثالثة أمام رجل كعلى يوسف كثير الاحتياط من الإسفاف فى القول ، أو القصد إلى قبح اللفظ. كما أصبحنا أمام رجل كمصطفى كامل فى أدبه ونزاهة لفظه ، وبعده برغم عنفه عن العبارات الجارحة ، أو الكلمات الساقطة . كما أصبحنا أمام رجل كلطفى السيد من أشد أصحابه إستمساكا بالعفة فى الكتابة ، والنزاهة فى المساجلة . ولا ريب أن جميع ما كتب هذا الرجل فى الجريدة دليل واضح على كماله النفسى فى هذه الناحية .

وإنا لنحيل القارىء إلى الردود المنطقية الهادئة التى رد بها لطفى السيد على تقارير اللورد كرومر، وسير ألدون غورست، وعلى كتب الأول منهما بصفة خاصة؛ مثل كتاب (مصر الحديثة) . وفى هذا الكتاب حمل كرومر على المسلمين من الناحية الاجتماعية ، فرد الكاتب عليه بحجج الأوربيين أنفسهم، واستشهد بكلام بعضهم؛ كجان جاك روسو وغيره. كل ذلك فى كلام نظيف، وبعد عن الأفحاش الذى وقع فيه الأوربيون فى ذلك الحين . وانتهى الكاتب من رده على كرومر بهذه النتيجة. وهى أن النظم الاجتماعية للدين الإسلامى لم يكن فيها من القصور ما ظنه اللورد . ولكن الضعف قد انتابها أخيراً بسبب الاستبداد

الذى رزح تحته الشرق ، والذى أصبح الناس بسببه يجهلون حقيقة هذه النظم ومبلغ تأثيرها فى العلم وفى الحضارة .

(تاسعا) اعتماد الكاتب على نفسه فى نحت الألفاظ ، وتأليف التراكيب . وعمل التشبيهات ، وصوغ الحكم . ولا غرو فى ذلك فقد كان كاتبنا من المؤمنين بحرية التفكير والتعبير ، والداعين إلى الاستقلال الذاتى، والكارهين لأنفسهم أن يكونوا عبيداً لأفكار غيرهم وأساليبهم . فكما كان يفكر تفكيراً مستقلا حين يقتبس من آراء غيره من الكتاب والمفكرين ، وكما كان يمنح من ثر غيره من الفلاسفة أو المشتغلين بالفلسفة ، فكذلك طفق هذا الكاتب يكتب كتابة مستقلة فى (الجريدة) ، ويعبر تعبيراً مستقلا عن فكرته ، ويصوغ الحكمة على طريقته ، ويستوحى فى كل ذلك الرأى الذى يراه بعد طول أناة ، وأعمال فكرة .

وإذا كان لهذا الكاتب أصالته فى الكتابة على هذا النحو ، فمصدر ذلك — كما يقول لطفى السيد نفسه — هو أن للألفاظ والتراكيب حظوظا كحظوظ البشر . فلفظ أو تركيب يكون من حظه الشهرة . ولفظ أو تركيب يكون من حظه الخمول، ولفظ أو تركيب يموت ساعة الميلاد . ولعلنا نذكر من عبارات هذا الكاتب جملة تلوكها الألسن فى وقتنا الحاضر . وهى قوله يصف المعاهدة المصرية الانجليزية لسنة ١٩٣٦ « بأنها معاهدة قد استنفدت أغراضها » وهى عبارة منذ قالها لطفى السيد ورجال الصحافة والسياسة يصطنعونها إلى اليوم .

وإنا لمكتفون ببعض الجمل التى دارت فى كتابات لطفى السيد مدار الحكم، وبعض التشبيهات التى صاغها بطريقته الخاصة به ، وبعض العبارات التى هى من وحى عقله ، وصياغة قلبه ، لا من وحى الآخرين ، أو صياغة الأقدمين. ومنها على سبيل المثال فقط :

« إن خير الحكومات ما لا يكون فيها للحاكم مصلحة فى الحكم مطلقا .

وإن خير الحكم ومصلحته كلها راجعة فى جميع أجزائها إلى المحكومين من غير أن يكون للحكام أنفسهم أدنى منفعة » .

وقال :

«حكومة كل أمة ليست إلا عرضاً من أعراض هذه الأمة . فلا وجود للحكومة الاستبدادية إلا إذا كانت الأمة تروج للاستبداد . ولا شك أن بقاء الباطل إنما هو فى غفلة الحق عنه» .

وقال :

« الحكومة الاستبدادية الصريحة العداء للدستور تستمد قوتها دائماً من ضعف الرأى العام ، ومن نتائج مجهوداتها كل يوم لخنق حرية الأفراد ، وإبعادهم عن العلم بما لهم من الحقوق السياسية . وهى بذلك لا تتفق والرأى العام إلا فى أمة لا يعرف الفرد فيها لوجوده معنى ، ولا لحياته قيمة ، إلا بالإضافة إلى شخص الحاكم المستبد » .

وقال :

« عندنا أن كل حق بنى على القوة لا يسمى حقاً مطلقاً . إذ القوة تنافى الحق ، بل تناهضه وتهدمه . فلا يصح أن يكون الهادم للشىء موجداً له » .

ومن تشبيهاته قوله :

«إن الذى يريد بناء البيت بناء متيناً ، ويرى شيئاً من الصعوبة أو الإبطاء فى نقل الأحجار الكثيرة اليه لايسوغ له فى سبيل سرعة الحصول على إتمامه أن يطحن تلك الأحجار،فيحيلها الى رمل يسهل نقله .لأنه بعد ذلك لا يمكنه أن يبنى بناء متيناً بتلك الأحجار المطحونة . ومثل هذا البانى كمثل الاحتلال البريطانى الذى يستسهل أمامه عاطفة التحكم فى المصريين فى سبيل إصلاح بلادهم ، وتأهيلهم للحكم الذاتى . لأنه متى أصلح مصر — أى أصلح أرضها ، وحالها الاقتصادى والمالى والحربى—والتفت إلى أشخاص يسلمهم هذه المصالح

لم يجد بعد أحداً ، إلا غير الأكفاء المدربين الذين تجردوا بعمله عن الصلاحية للاستقلال» .

وتلك الحكم التي كان يصوغها لطفي السيد بالطريقة المتقدمة كان كثيراً ما يبدأ بها المقال ، فتحل منه محل المقدمة . وإن من أهم خصائص المقدمة — كما يقول الكاتب الانجليزى دريدون — هو التجوال فى الموضوع بحيث لا تخرج عن الطريق خروجا تاما ، ولا تظل مقيداً فيه دواما . وكذلك كان يفعل مونتانى .

وقد رأينا تشبيهات لطفى السيد تأتى فى غضون كلامه ، ويجتهد الكاتب فى تأليف أجزائها بنفسه غير معتمد فى ذلك على طرائق الأقدمين أو المحدثين فى صياغة التشبيه .

* * *

(عاشرا) إذا كان لا بد من ذكر شيء من المآخذ على أسلوب هذا الكاتب العظيم فثم مأخذ واحد، هو من وجهة نظر الأديب، وليس من وجهة نظر المشتغل بالعلم أو الصحافة .

وهذا المأخذ هو أن أسلوب هذا الفيلسوف قليل الماء ، قليل الرواء ، يعوزه كثير من عوامل التطرية .

ولكن بم يكون الكلام جافا ، وبم يكون رطباً ، ظاهر التطرية ؟

الجواب عن ذلك أن عوامل التطرية كثيرة ومتشعبة .

منها العواطف والمشاعر . فالأديب الجم الشعور يصطنع أسلوبا أقل جفافا من الأديب المقل من هذه الناحية .

ومنها الصور البيانية . فالأديب القادر على الإتيان بهذه الصور مقدم فى نظر الناقد الأدبى على الأديب المنصرف عنها دائما .

ومنها طول النفس فى العبارة . فالأديب المتمكن من فن الحديث ، القادر على التصرف فى هذا الفن تصرفا جيدا أدنى إلى ذوق الناقد الأدبى من الكاتب

أو الشاعر القصير النفس ، أو الذى يستخدم قدرا ضئيلا من الألفاظ ؛ يديرها فى أسلوبه ، ولا يكاد يستخدم سواها فى الشعر أو النثر .

ومنها الاستشهاد والاقتباس من الآداب القديمة أحيانا ، والحديثة أحيانا عربية كانت هذه الآداب أو أجنبية . فالأديب الذى ينم أسلوبه عن رصيد كبير من هذه الآداب على اختلافها مقدم فى نظر النقاد على الأديب الذى يشف أسلوبه عن فقر مدقع من هذه الناحية .

كل هذه أمور تعمل عملها فى جفاف الأسلوب وفى تطريته ورطوبته .

وبسببها ينقسم الكتاب هذين القسمين المتمايزين :

كتاب لا تعنيهم غير الحقائق يقدمونها فى أوعية من الكلام لا رواء فيها ، ولا حظ لها من ضروب الإغراء أو التحلية .

وكتاب تعنيهم هذه الحقائق ، ويعنيهم كذلك أن يقدموها فى أوعية من الكلام ، يسرك منظرها ، ويثير فيك الرغبة الصادقة فى استيعاب الحقائق التى تشتمل عليها .

والذى لا شك فيه أن الأول من هذين الفريقين السابقين هو فريق العلماء والفلاسفة ، ومعهم بعض رجال الأدب أو الصحف . وأما الثانى فهو فريق الشعراء والكتاب ، ومعهم كذلك بعض المشتغلين بالأدب أو الصحف .

وقد رأينا فى لطفى السيد كاتبا ، فيلسوفا من جهة ، معنياً بالحقيقة والواقع من جهة ثانية ، سياسيا تقوم سياسته على قاعدة المنفعة من جهة ثالثة ، مصريا يؤثر التراكيب المصرية على العربية أحيانا من جهة رابعة . فلا غرابة بعد هذا أن يكون أسلوبه متأثرا بهذه الأمور كلها دفعة واحدة ، وأن تأتى عبارته صدى لكل واحد منها على حدة .

والقدماء من النقاد يسمون الأسلوب الخالى من الروائع الفنية (مغسولا) يعنون بذلك أنه محروم من عوامل التطرية أو التحلية ، محروم من العبارات

التى تلفت النظر بجزالتها وفخامتها ، أو بجمالها ورونقها ، أو بألفاظها المنتقاة ذات النغم الحلو ونحو ذلك .

على أن هذه الصفة — وهى حرمان الأسلوب من عوامل التندية والتحلية — صفة يشترك فيها كل تلاميذ المدرسة الصحفية الثالثة . لا نكاد نستثنى منهم غير (مصطفى كامل) فى كثير من خطبه ومقالاته فى الصحف .

لا لشىء إلا لأن هذا الزعيم الكاتب كان يميل إلى تغليب العاطفة على الفعل فى خطبه وصحافته . والعاطفة — كما قلنا — ترطب كلام الكاتب أو الخطيب ، وتحبب الناس فى قراءته أو تتبعه أطول مدة ممكنة .

والمقالات الصحفية كالخطب لا تجود إلا وقت صدورها ، ولا تستحسن إلا فى الظروف التى أحاطت بها . فإذا لم تشتمل على عبارات طنانه ، وجمل أخاذة ، فإنها تفقد عنصراً هاما من عناصر الخلود ، وتكون عرضة كذلك للنسيان فلا يذكر القراء من عبارات الصحف الا ما كان أخاذا من حيث أسلوبه ، أو أخاذا من حيث فكرته .

ولكننا وجدنا أسلوب لطفى السيد يروعنا من ناحية العقل بقدر ما يروعنا أسلوب الزعيم الشاب مصطفى كامل أحيانا من ناحية العاطفة . وقد وقفنا له على طائفة كبيرة من العبارات الرائعة الجميلة بهذا المعنى ؛ أشرنا إليها فى تضاعيف هذا البحث ، وأعجبنا بها فى إخلاص وصدق ، وكنا نردد عندها قول الذى يقول:

وما بقيت من اللذات إلا   محادثة الرجال ذوى العقول

* *

(والخلاصة) أن أسلوب لطفى السيد يدل على رجل واحد هو لطفى السيد . أى أن الطريقة التى يكتب بها هذا الكاتب طريقة شخصية خالصة يعتمد فيها على تفكيره الخاص ، كما يعتمد فيها على بضاعته الخاصة ، وتشف فى الوقت نفسه عن طباعه الخاصة . ومن أهم هذه الطباع الصراحة البالغة التى كان يواجه بها الحكومة والمجتمع .

أنظر إلى مقال له بعنوان :

الدستور والوزارة [1]

جاء فيه :

« الوزارة فى الحكم المطلق بقاؤها موقوف على رضى السلطة عنها . ونجاحها موقوف على رضى الأمة عنها . وإن وزارة فضلت البقاء فى كراسيها على النجاح فى أعمالها ، واكتفت برضى السلطة عن رضى الأمة لا تستحق اسمها . ولكن وزارة وقفت بين رضى القوتين ، وعملت لمصلحة الطرفين ؛ حتى إذا رأت أن التوفيق بين رضى الأمة ، وبين رضى السلطة أصبح مستحيلا عليها مالت إلى أصلها ، ونزلت عن دست حكومتها ، وانضمت إلى أمتها . تلك هى الوزارة التى من شأنها أن تخفف ويلات الحكم المطلق ، وأن تأتى بالمنافع الممكنة من الحكومة المطلقة التى قل أن تنفع الأمة نفعا يعتد به » .

أرأيت إلى هذا الأسلوب المنطقى المصفى ؟ أرأيت إلى طريقة الكاتب فى التعبير عن المعانى السياسية الدقيقة التى اشتملت عليها ؟ إنها طريقة تمتاز بالقوة والوضوح ، كما تمتاز بالصراحة والصدق ، كما تستند إلى العقل والمنطق ؛ وذلك فى ألفاظ أدنى إلى السهولة ، وتراكيب أقرب إلى الايجاز والبساطة .

* * *

وللكاتب فضلا عن جميع ما تقدم طريقة كتابية يلزمها فى كثير من مقالاته الاجتماعية . وتتلخص فى اعتماده على الصور والشواهد فى سبيل الوصول إلى اقناع القارىء .

انظر إليه حين يتحدث عن التعليم المصرى كيف يحرص على الاتيان بصور ثلاث

أولاها : صورة التعليم فى الكتاتيب حيث الشيخ الذى يعرف فى القرية المصرية باسم (سيدنا) .. « وهو شيخ تدل هيئته على أنه لا يحسن شيئاً ؛ حتى إنه لا يحسن اختيار لون ملبسه الذى قلما تراه يريح نظر الناظر إليه لتخالف ألوانه . فكثيراً ما تكون من الألوان الزاهية المتنافره ؛ كالقفطان الأزرق ؛ مع الحزام الأحمر ، والجبه الصفراء ، والجوارب البيض ، والنعال الحمر الخ »

(١) الجريدة فى ٣ سبتمبر ١٩٠٨

والثانية : صورة (قسيس) فى مدارس الفرير أو الجيزويت لا تختلف عن صورة (سيدنا) كثيراً . .

والثالثة : « صورة فتى لا يتجاوز العشرين ، كل ماضيه فى العلم أنه تعلم على أساتذة ، أكثرهم فنيان مثله . فحصل بعد ذلك على الشهادة الابتدائية . ومنذ حصوله عليها عين أستاذاً فى المدارس الابتدائية[1].

واذا بدأ الكاتب يتحدث عن عيوبنا الاجتماعية بدأ المقالة — كما رأينا — بأمثلة وشواهد على هذا العيب أو ذاك مشتقة من الحياة اليومية .

ثم يمضى فى تعليقه ، وشروحه ، وتحليله ، وتعليله ، ووصف العلاج الذى يقترحه بعد ذلك . وهنا نحيل القارىء إلى الفصل الذى كتبناه عن الجريدة فى الميدان الاجتماعى . وفيه إشارة إلى مقالات ، نخص الذكر منها العناوين الآتية :

(فى الواجب) ، (حدود اللياقة) ، (حدود الطاعة) ، (انكار الذات) ، (الرياء) ، (الشخصية) ، (تربية الذوق) ، (التسامح فى الحقوق العامة) ، (الاستقلال الذاتى) .

* * *

---

(١) الجريدة فى ١٦ ستمبر ١٩٠٧

خاتمة

وفيها كلمة موجهة إلى رؤساء الصحف

نعم — إنما تقاس أقدار الرجال فى كل أمة من الأمم بمقدار ما يستطيعون تحويلها من طور إلى طور ، ومن عقيدة إلى عقيدة ، ومن حالة أدبية أو مادية إلى حالة أخرى .

وقد شاءت الأقدار لأحمد لطفى السيد أن يكون أستاذاً لمصر فى تلك الفترة التى انتقلت فيها من ظروف القرن الماضى إلى ظروف القرن الحالى ، وأن يقوم على تعليم هذه الأمة عن طريق الصحافة أولا ، وطريق الجامعة بعد ذلك.

ففى الصحافة تهيأ للأستاذ لطفى السيد فى « الجريدة » أن يتخذ منها منبراً عالياً يخطب المصريين من فوقه ، ويرشدهم ويوجههم فى ميادين السياسة ، والفكر ، والأدب ، والاجتماع ، والاخلاق ، والوطنية ، والقومية ، والتعليم ، والتربية !

وفى الجامعة تيسر للأستاذ لطفى السيد أن يضع الأسس الاول لطائفة من التقاليد الجامعية ، وأن يدقق فى اختيار الأساتذة القادرين على تنشئة جيل يفهم معنى الحرية والفكرية ، والأمانة العلمية ، والرسالة الجامعية .

وهكذا هيأت المقادير لمصر والمصريين منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين — طائفة من القادة الصالحين ، كل فى الطريق الذى خلق له : كالسيد على يوسف رائداً وأستاذاً للمدرسة الحديثة من مدارس الصحافة المصرية ، والزعيم مصطفى كامل نبياً وطنياً ، وداعية لا نظير له من دعاة القضية المصرية ، وقاسم أمين مصلحا اجتماعيا يفك الأغلال ، ويحطم

السلاسل ، ويخرج المرأة المصرية من سجنها الذى عاشت فيه قروناعديدة إلى الفضاء الواسع الذى تستنشق فيه نسيم الحرية ، ومحمد عبده مجاهداً دينياً واجتماعياً يقيم من نفسه مصلحاً للعقائد الدينية ، باذلا فى سبيل ذلك مثل مابذله قاسم فى سبيل المرأة المصرية ، وفتحى زغلول مترجماً وناقلا من أفكار الانجليز والفرنسيين ما يصح أن يكون نبراساً يضىء للمصريين والشرقيين طريقهم إلى المدينة . وسعد زغلول — بعد هؤلاء الجميع — قائداً للشعب المصرى بجميع عناصره إلى ثورة عام ١٩١٩ ، وهى من أروع ما مر بمصر وبالشرق من هزات شعبية وحركات وطنية .

أما لطفى السيد فقد هيأته الأقدار — كما قلنا — لعمل لا يقل فى سموه وطهارة قصده ، وشمول فائدته عن الأعمال السابقة كلها . وهذا العمل الجليل هو التربية والتعليم .

من أجل ذلك لم نسرف ولم نتزيد حين نظرنا إلى الأستاذ لطفى السيد على أنه فيلسوف هذه الأمة ، والمربى الحقيق لهذا الجيل والجيل الذى قبله ، وعلى أنه أبو الجامعة المصرية . وهى ذلك المولود الخطير الذى خرج من دم الأمة وأعصابها ، كما خرجت الحركة الوطنية ذاتها على حد تعبير قاسم أمين .

وكان من حظ الجامعة فى ذلك الحين أن تكون فى يد قوية أمينة كيد الأستاذ أحمد لطفى السيد. وهو الرجل الذى هيأته الأقدار للقيام بهذه المهمة، كما قام كل مصلح من المصلحين الذين أشرنا إليهم بدوره فى الحركة القومية . وكان لطفى جديراً بكل صفة من تلك الصفات التى له جدارة كل زعيم من الزعماء المصريين الذين أشرنا إليهم بالصفة التى خلعتها عليه الأمة .

وانظر مثلا إلى الفرق بين مصطفى كامل ولطفى السيد :

كل منهما يهدف إلى الاستقلال التام لهذه البلاد . ولكن الأول — وهو مصطفى كامل — وسيلته الى الاستقلال هى الدعاية لمصر فى جميع البلاد الأوروبية .

أما لطفى السيد فالوسيلة عنده هى تربية الأمة على أخلاق الاستقلال والحرية ، وتهيئتها لممارستهما فى الحياة المصرية .

* * *

ومهما يكن من شىء ففى كلامنا عن نشأة (الجريدة) وجدنا أنفسنا مضطرين إلى أن نشير إلى الحوادث القريبة التى حدت ببعض المستنيرين من المصريين إلى التفكير فى إنشاء هذه الصحيفة :

فأشرنا (أولا) إلى الخلاف الذى وقع بين الحكومتين التركية والمصرية حول مشكلة العقبة وذلك فى ٦ فبراير سنة ١٨٩٣ . وهو خلاف دار حول جزء قريب منها يسمى (طابة) ادعته كل من هاتين الحكومتين لنفسها . ثم تدخلت انجلتره بينهما ، وانحازت فى هذا الخلاف إلى جانب مصر ضد تركيا . ومع ذلك لم يقبل الرأى العام المصرى هذا الانحياز من جانب انجلتره وانتصر يومئذ لتركيا .

ثم أشرنا (ثانيا) إلى حادث فاشودة فى ١٠ فبراير سنة ١٨٩٨ وفيه انحازت مصر إلى جانب فرنسا ضد انجلترة . ودلت بهاتين الحادثتين معا — وهما حادثة العقبة وحادثة فاشودة — على أنها إنما تبغض الاحتلال البريطانى من حيث هو ، وإن أتى لها الاحتلال بأعظم الفائدة !

ثم أشرنا (ثالثا) إلى حادث الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ وهو الحادث الذى بصر المصريين بنوايا المستعمر الأوربى ، ولم يدع مجالا للشك فى فساد الخطة التى سار المصريون عليها إلى ذلك الوقت . وهى الاعتماد من أجل الاستقلال على فرنسا أو تركيا أو غيرهما من الدول الأوروبية .

ثم أشرنا (رابعا) إلى الخطة الحكيمة التى اهتدت إليها الطبقة المستنيرة فى مصر بعد الحوادث السابقة كلها . فقد رأى أفراد هذه الطبقة يومئذ أن تكون لمصر صحف تنطق بلسانها وحدها ، دون أن يكون لها ميل خاص إلى تركيا ، أو ميل خاص إلى فرنسا ، أو ميل خاص إلى إحدى السلطتين

الشرعية والفعلية فى مصر . وقد نضج هذا التفكير السليم فى أوائل القرن العشرين . وعبر عنه الشيخ محمد عبده قبل موته عام ١٩٠٥ بما معناه :

« إنه ما دامت هناك صحف تنصر الخديو كصحيفة المؤيد ، وأخرى تنصر المعتمد البريطانى كصحيفة المقطم . فلا بد من صحيفة تحاسب الجهتين معا وتنصر الأمة » .

ولقد أبلى لطفى السيد بلاءه ، وأدلى دلاءه فى كل من الميدان السياسى ، والميدان العقلى أو الثقافى ، والميدان الخلقى والاجتماعى ، والميدان اللغوى والأدبى فى نهاية الأمر .

* * *

(فأما الميدان السياسى) فأشهر جولاته فيه — كما رأينا — جولته من أجل الحرية ، وجولته من أجل الجامعة المصرية لتحل محل الجامعة العثمانية ، ثم جولته من أجل الدستور . وأهم جولاته فى هذا المجال الكبير اثنتان ، إحداهما الشكل الذى عليه الحكومة المصرية . والأخرى جولته من أجل المسؤولية الوزارية . وقد أحس الكاتب يومئذ كأن (النظار المصريين) فى ذلك الحين بحاجة إلى من يرشدهم إلى المقصود بهذه الكلمة .

وكان لطفى السيد فى كل جولة من تلك الجولات واقعيا بكل ما يحمله هذا اللفظ من معنى . فلم يكن يشتط فى آماله ، ولم يسرف فى مطالبه . وإنما كان يقصر همه على المطالبة بتوسيع اختصاص الهيئات النيابية فى مصر فى ذلك الوقت ؛ لأنه الجزء الذى يمس حاجة المصريين يومئذ من السلطة التشريعية .

* * *

(وأما الميدان العقلى أو الثقافى) فقد أشرنا فيه إلى مذهب التعقيل الذى صدر عنه أستاذ الجيل فى كل ما كتب فى (الجريدة) ، خاصاً بالسياسة أو المجتمع أو العلم الأخلاق. ثم أشرنا إلى المذهب الذى كان يصدر عنه فى شؤون التعليم بوجه أخص ، فعرفنا كيف أنه أراد أن يبنى التعليم فى مصر على الحرية

المطلقة أولا ، وعلى سد حاجات المجتمع المصرى بعد ذلك .

نادى لطفى السيد بأن يكون التعليم فى مصر من عمل الشعب ، فلا يصح فى نظره أن تتدخل الحكومة فى هذا الأمر . بل عليها أن تترك التعليم والزراعة والتجارة وغيرها من المرافق العامة للشعب المصرى يتصرف فيها بما يريد . ولها عليه حق الإشراف الأعلى أو التوجيه من بعيد . فذلك أجدى على الأمة المصرية ، وأدعى إلى الادراك الصحيح لمعنى الاستقلال أو الحرية ، بل إنه خير طريق للخروج بالأمة من دور الطفولة التى تحتاج فيها إلى وصاية الحكومة إلى دور الشباب الذى لا نحتاج فيه إلى شىء من هذه الوصاية .

وفى سبيل ذلك عرض الأستاذ لطفى السيد على قرائه طرق التعليم على اختلافها ومذاهب التربيةعلى تباينها ، ووازن بينها جميعا ، وأشار إلى الأفضل منها بالقياس إلى حالة مصر فى ذلك الوقت . وكان قصده الأول والأخير من كل ذلك هو إصلاح نظم التعليم فى مصر بعد إذ حدد الاحتلال البريطانى أهدافه، وحصر هذهالأهداف فى شىء واحد فقط، هو«الوظيفةالحكومية»..

ولعل أخطر جولة للأستاذ لطفى السيد فى مجال التعليم إنما هى جولته لإرساء قواعد الجامعة ، وبيان رسالة الجامعة ، وتيسر دخول الجامعة للفتاة المصرية ، وذلك فى غفلة من الشعب المصرى والحكومة المصرية ،على النحو الذى أشرنا اليه فى موضعه من هذا الكتاب .

* * *

(وأما الميدان الخلقى والاجتماعى) فقدظفر من نشاط كاتب الجريدة بما لم يظفر به من كتاب الجرائد الأخرى . ولا غرابة فى هذا . فإن ذهنية الأستاذ لطفى السيد ذهنية فلسفية بطبيعتها .تميل إلى التحليل والتعليل.والمجتمع فى ذاته — كما قلنا — مجال من مجالات الفلسفة والتأمل. ولذلك انصرفت عناية الرجل إلى نقد المجتمع المصرى بأفراده وهيآته وجماعاته ، وبأخلاقه وطباعه وموازينه ، ومعايير، ناظراً فى أثناء ذلك كله إلى التاريخ المصرى عبر القرون

التى مرَّ بها ، والدول الأجنبية التى خضعت مصر لها ؛ متحملة فى أثناء ذلك ظلما ترك فى نفوسهم أثراً لا يمكن أن يمحى ، وأخلاقا من الصعب على المصلحين فى هذه الأمة أن يستبدلوا بها أخلاقا أخرى .

فالمصرى فى عبادته للقوة ، وخوفه من الحاكم فى أية صورة أو هيئة ، وشعوره أحياناً بالضعف وبالذلة ، وقصوره كذلك عن الإتيان بحملة صالحة الآراء الحرة ، لا بد أن يكون متأثراً فى ذلك كله بتلك العوامل القديمة التى نجمت عن الظلم والاستبداد . وعلى ذلك مهمه المصلح الاجتماعى فى بلد كمصر مهمة عسيرة شاقة . إذ عليه أن يزيل من الوجود المصرى تلك الجبال الراسخة من الذل ، والأشباح المخيفة من الجهل ، والميراث الضخم العتيد من العادات التى خلقها الخضوع للظلم .

وذلك ما أحس به لطفى السيد منذ اللحظة الأولى.فآلى على نفسه ليهدمن تلك الجبال، وليزيلن تلك الأشباح ، وليسخرن من ذلك الميراث العتيق الذى هو السبب الأول فى ضعف المصرى وضعف شعوره بشخصيته ومصريته .

وأما مسألة السفور والحجاب من مسائل المجتمع المصرى بنوع خاص فقد شغلت من فراغ (الجريدة) حيزاً كبيراً كما علمنا ؛ ولكن يجب علينا أن نشير هنا إلى شىء من تاريخ هذه المسألة :

فى سنة ١٨٩٩ نشرت (المؤيد) كتاب (تحرير المرأة) لقاسم أمين ؛ وذلك فى أكثر من خمسين عدداً من أعدادها اليومية . وفى سنة ١٩٠٠ شهد المصريون ميلاد صحيفة شعبية أخرى كانت تصدر يومياً ؛ وهى صحيفة (اللواء) لصاحبها مصطفى كامل . وكان لها رأى مخالف لما ذهب اليه قاسم أمين ، والسيد على يوسف الذى أباح لصحيفته أن تنشر آراء قاسم الحرة فى موضوع المرأة .

ثم فى سنة ١٩٠٧ كان موضوع الحجاب والسفور قد نضج فى أذهان الكثيرين من أفراد الأمة المصرية . ومع ذلك بقى الرأى فيه موزعا بين طائفتين : منها طائفة ترى رأى قاسم أمين ، وأخرى تصر على مخالفته ، فجاء

لطفى السيد ووقف وقفته المشهورة فى صف قاسم أمين. واشتد انتصاره له وتشبعه لآرائه بعد موته وحرمان الأمة منه ومن أفكاره القيمة .

* * *

(وأما الميدان اللغوى والأدبى) ففيه رأينا الأستاذ لطفى السيد يدعو إلى تمصير اللغة العربية ، لتصبح لغة الكتابة فى الصحف والكتب العلمية والأدبية وينتفع بها أكبر عدد ممكن من أفراد الشعب المصرى . وقد شاركه فى هذا الجهد المشكور كل من حسين هيكل وطه حسين ، وكان لهما مع الرافعى مساجلات أشرنا إلى طرف منها .

ولكن ليس معنى ذلك أن لطفى السيد انتصر للعامية على العربية ، أو أنه دعا إلى تجنب استعمال الألفاظ القديمة والأساليب الموروثة كلا — فإن لطفى السيد كان يعرف للعربية جمالها ، ويقدر لها عظم ثروتها بالقياس إلى اللغات الكثيرة من دونها . ولهذا كان يشجع قراءة الأدب العربى القديم وان كان يؤثر الكتابة بالأسلوب العصرى الجديد . ولا ضير عليه ولا على اللغة فى مثل ذلك .

ولكل رئيس تحرير فى صحيفة من الصحف اليومية حاسة يعرف بها كيف يميز بين مقال كتب بلغة أدبية ، وآخر مكتوب بلغة صحفية ونراه يرفض أن يثبت الأول فى صحيفته إلا عند الضرورة ، بينما يتقبل الثانى برضى منه وسهولة . ولطفى السيد من هذا الطراز من الكتاب ، لأنه تلميذ من تلاميذ المدرسة الصحفية الثالثة التى بدأها السيد على يوسف ، والتى قلنا إنها أول مدرسة عرفت كيف تميز تميزاً واضحاً بين لغة الصحف ولغة الكتب أو الأدب .

ثم إن (الجريدة) فتحت صدرها للنابتة من الكتاب والأدباء والشعراء فأخذوا يكتبون فيها آراءهم وأفكارهم وخواطرهم وقصائدهم . واختلفوا فيما بينهم فى هذه الآراء والأفكار. واصبحت (الجريدة) مسرحا لطائفة من المعارك الأدبية التى إن دلت على شىء فإنما تدل على نشاط فكرى ونشاط أدبى هما

من صفات العقد الأول من عقود القرن العشرين ، وهى صفات دلت على اقتراب العقل المصرى من بلوغ الغاية التى بلغها فى منتصف هذا القرن.

وفى مدرسة (الجريدة) تخرج أقطاب الأدب والفكر والسياسة ممن شاركوا مشاركة قوية فى النهضة الأدبية والنهضة الصحفية، وكان بعضهم رؤساء تحرير وبعضهم زعماء أحزاب ، وبعضهم أصحاب مذاهب فى الفكر وفى العلم، وفى الأدب ونحو ذلك .

* * *

تلك فترة من حياة الصحافة المصرية لاشك أنها فترة ذهبية ، كانت فيها صحافتنا خليقة باسم « صحافة الرأى » . وبها ازداد المصريون شعوراً بمطالب العصر ، وعن طريقها آمنوا بفضل الزعامات التى أشرنا إليها فى أول هذا الحديث . ولولاها لما قطعت مصر هذا الشوط ، وبدونها ما كانت مصر تتطلع إلى اللحاق بالأمم العظيمة فى ميدان الحضارة على هذا النحو . فليت صحافتنا المصرية الحاضرة تفطن إلى هذه الحقائق كلها . فاننا نجد الصحافة فى أيامنا هذه تقوم فى جملتها وتفصيلها على « الخبر » وحده ، وتهمل — أو تسير فى طريقها إلى إهمال (المقال) جملة . وفى هذا خطر كبير على مستقبلها ، وإن كان فيه محاكاة عمياء للصحافة الأمريكية بنوع خاص . نقول عمياء — لأن الفرق بيننا وبين أمريكا فى الوقت الحاضر يجعل الأمريكيين فى غنى عن توجيه الصحف إن أرادوا ، ولا يحل لنا أن نستغنى عن هذا التوجيه من جانب الصحف إن أردنا .

* * *

على أننا فى دعوتنا الصحافة المصرية إلى العناية «بالرأى» عنايتها «بالخبر» نذكرها بأنها بهذه العناية كلها تصبح جديرة باسمها، حقيقة بأن يطلق عليها (السلطة

الرابعة) إلى جانب السلطات الثلاث المعروفة ، وهى السلطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، والسلطة التنفيذية .

يقول الدكتور محمد حسين هيكل فى محاضرة له ألقاها بدار نقابة الصحفيين بالقاهرة (فى ٢٢ مارس ١٩٥٤) ماخلاصته :

« وأكثر من هذا وذاك أننا نجد صحافة الرأى عند أكثر الأمم المتحضرة لا تكتفى بأن توجه الأفكار العامة داخل بلادها ، بل تتجاوز ذلك إلى الرغبة فى توجيه الأفكار العامة خارج بلادها » .

« ومصداق ذلك أننا نجد صحافة العالم المتمدن فى وقتنا هذا تحرص على أن يكون لها رأى فى كل شأن من الشئون التى تهم العالم بأسره : كفكرة الحرب ، وفكرة السلم ، وهل الأفضل أن يكون السلام مسلحاً فنشجع الدول على تكوين الجيش الأوروبى ؟ أو الأفضل أن ندعو العالم كله إلى نزع السلاح دفعة واحدة حتى نطرد فكرة الحرب من الأذهان ؟ »

والخلاصة أن الدكتور حسين هيكل يدعو معنا إلى وجود صحافة الرأى فى مصر . ويرى أن واجبها ذو شقين : شق للداخل ، وشق للخارج . ومن الخير لها أن تقوم بهذا الواجب على الوجهين معاً !

على أنه قد يعزينا عن ذلك أن مصر لا تنفرد الآن بالتقصير فى صحافة الرأى . فإن أمريكا ومعها أكثر الدول الكبرى فى أوروبا — خلا انجلترا — تعانى مثلنا هذه (النكسة) التى نتألم لها ونود أن يبرأ العالم كله من شرها ولعل السبب الأول فى هذه النكسة التى نشكو منها هو الخوف مما يسميه الأمريكيون والأوروبيون « بالخطر الشيوعى » . وهنا نجد الصحف فى أكثر دول العالم المتمدن تتلهف على « الخبر » وتحتاط احتياطاً أكثر مما ينبغى فى كتابة « الرأى » الذى يعقب نشر هذا الخبر . ومن يدرى لعل

الوقت الذى تزول فيه هذه المخاوف كلها يكون أقرب مما يتصور الساسة وكبار رجال الصحف !

• • •

وما دمنا نذكر (الصحافة المصرية) فى النصف الثانى من القرن العشرين ، وما دمنا نؤرخ لرائد من رواد الصحافة المصرية فى فترة من فتراتها الذهبية فى ذلك الحين ، فإن من الخير أن ننتهز هذه الفرصة التى سنحت لدعوة المفكرين، والمحررين ، وأقطاب الصحافة فى مصر على وجه العموم أن يعود لهم إيمانهم بما للثقافة العميقة من الأثر فى تكوين الصحفى و نضوج الصحفى ، ونجاح الصحفى

ونحن هنا فى معهد التحرير والترجمة والصحافة بجامعة القاهرة نعنى عناية كبيرة بهذه الناحية . حتى لقد اتهمنا الكثيرون بأننا نهمل الجانب العملى الخالص أو الفنى الخالص من جوانب الصحافة .

وهذه التهمة الأخيرة وإن كان لها ظل خفيف من الحقيقة. فنحن نستطيع أن نستدرك بعض مافاتنا ، ونسد النقص الذى شعر به الناصحون لنا . ولكن على ألا نغض من الثقافة ، أو نقلل من اهتمامنا بالجانب النظرى من الصحافة . فاعتقادى الذى لا أتحول عنه يوماً أن الثقافة هى الطريق الوحيد للنجاح فى هذه المهنة الشريفة والنهوض بها الى المستوى الذى نرضاه لمصر فى هذا العصر .

وإذا سمح لى أن أصطنع اللغة التى يتكلمها رجال الاقتصاد قلت إنى لا أعرف شيئاً يستهلك من الثقافة مثلما تستهلك الصحافة . فهى بحاجة شديدة إلى كثير من العلوم التى يهضمها الكاتب جيداً ، ويتمثلها فى ذهنه جيداً، ويقدمها شراباً سائغاً للقراء .

وإذا سمح لى مرة أخرى أن أصطنع اللغة التى يتكلمها رجال الأدب أو الصحافة قلت أنه يضحكنى كثيراً ما أسمعه أحياناً من بعض كبار الصحفيين فى بلادنا . إذ يقول أمثلهم طريقة : ما للصحافة والثقافة ؟ إن الصحفى بحاجة

الى شيء واحد فقط هو التدريب العملى أو الفنى فى الصحيفة . أما الثقافة العالية فهى له شيء كمالى لا ضرورى .

ذلك منطق الصحافة المصرية فى النصف الثانى من القرن العشرين ، وحجة الصحفيين فى ذلك أن الصحيفة الحديثة أصبحت تعنى بالخبر أكثر مما تعنى بالمقال !

ألا ما أشبه هـذه الأقوال عندى بدعوى المحافظين فى بلادنا . إذ يقول أمثلهم طريقة : ما للفتاة المصرية والتعليم العالى ؟ إنها لا تصلح إلا للمنزل . والمنزل لا يتطلب منها غير أن تتعلم فن الطهى ونحوه من فنون البيت .

يريدون بهذا أن يحرموا الفتاة المصرية من نعمة التعليم الجامعى . وذلك من أجل الشؤون المنزلية التى تكفى لتعلمها أشهر قليلة ؛ ليس من العدل ولا من العقل أن نضحى من أجلها بالسنوات الطوال تضيع هباء من عمر الفتاة المصرية فى غير التعليم !

إننى أضحك كثيراً من هذه الدعوى التى يواجهنا بها كبار الصحفيين فى أيامنا هذه . وإنى لعظيم الثقة فى أن المستقبل للثقافة العالية ، وأن الأجيال التى تتخرج فى الجامعة ستحمل العبء وحدها ، وتظهر كل كفاية فى عملها ؛ لأن التطور معها ، والزمن يخدمها ، ولأنها مزودة بهذا السلاح الذى لا يشك أحد فى مضائه وغنائه ، وهو سلاح العلم !

• • •

إن الكاتب الذى يؤرخ لأمته ، أو يفرغ من رسم الصورة التى عليها أمته تأخذه الغيرة على قومه ، ويملأ الطموح جوانب قلبه ، ويأمل فى أن تبلغ أمته مبلغ الأمم التى سبقتها فى مجال التقدم والرقى .

وإن الناظر فى سيرة الأبطال الذين حملوا عبء الصحافة منذ أوائل هذا القرن ليعجب من سـعة الأفق الذى كان يسبح فيه كل واحد منهم ، وتنوع الثقافة التى زود بها نفسه قبل دخول هـذا المضمار العظيم ؛ وهو

مضمار الصحافة. وما الصحافة فى نظر المؤرخ الغيور على بلاده إلا جامعة شعبية كبيرة يتعلم فيها الشعب على اختلاف طبقاته دروساً مفيدة تعينه على معرفة نفسه، وتساعده على تعرف حاجاته وغاياته فى كل فترة من فترات حياته وحياة الأمة التى ينتسب اليها .

وإذا كانت الجامعات بحاجة ماسة إلى الأساتذة المتخصصين فى كل مادة من المواد التى ندرسها، فإن الصحافة الرشيدة فى الأمم الكبيرة بحاجة كذلك إلى المتخصصين فى كل جانب من جوانب الحياة التى تصور الصحف أحداثها، وترسم المثل الأعلى لها، وتأخذ بيدها إلى بلوغ هذا المثل .

اللهم أهد صحافتنا الى الطريق السوى، وهىء لأمتنا جيلا صالحا يقوى على اداء هذه الرسالة المهمة وأنت أعظم مسؤول وأكرم مجيب ؟

عبد اللطيف حمزة

النماذج

غرض الامة هو الاستقلال[1]

يجب حقيقة أن يظهر للمصريين خطة معينة واضحة تحدد آمال الأمة والوسائل المشروعة الممكنة المناسبة لتلك الآمال والأطماع. يجب أن تكون تلك الخطة واحدة لجميع المصريين، لأنها ترجمان المصلحة المصرية. ولو صح الخلاف بين الأحزاب فى بعض الجزئيات، لما جاز أن يكون هناك خلاف جوهرى فى آمال الأمة من الاستقلال.

غرضنا النهائى استقلال مصر. ومن المستحيل على الأمة أو على أى فرد من أفرادها أن ينازع فى ذلك. استقلال الأمة فى الحياة الاجتماعية كالخبز فى الحياة الفردية لاغنى عنه، لأنه لاوجود إلا به، وكل وجود غير الاستقلال مرض يجب التداوى منه. وضعف يجب إزالته، بل عار يجب نفيه.

إذا كان الاستقلال ممكناً طلبناه. وإن كان مستحيلا عالجناه، لأنه هو معنى الوجود القومى ومناط الأمل فى الحياة القومية. على أن استقلال أمة فى عددنا وفى ثروتنا وفى مركزنا الجغرافى، بعيد أن يكون مستحيلا. وأقرب شىء أن يكون متى طلبناه من بابه بالوسائل المنتجة. ومن الذل والضعف، بل من الانتحار القومى، أن نسكن أو نساعد على بقائنا إلى الأبد فى الحالة التى نعير بها صباح مساء.

دارت بينى وبين أوربى مناقشة فى السياسة، فإذا به يقول لى: ومتى كنتم مستقلين حتى تبغوا الاستقلال الآن وأظن أنى لم أكن لأختص وحدى بسماع هذا التعبير الجارح من كل الذين لهم مصلحة فى الاستعمار.

استقلال الأمة عمن عداها أو حريتها السياسية حق لها بالفطرة، لا ينبغى لها أن تتسامح فيه، أو أن تنى فى العمل للحصول عليه. بل ليس لها حق التنازل

---

(1) الجريدة فى ٢ من سبتمبر سنة ١٩١٢ العدد ١٦٦٧

عنه لغيرها ــ لا بكله ولا بجزئه ــ لأن الحرية لا تقبل القسمة، ولا تقبل التنازل. فكل تنازل من الأمة عن حريتها كلها أو بعضها باطل بطلانا أصلياً لا تلحقه الصحة بأى حال من الأحوال . فلا جرم مع هذا المبدأ المسلم به عند علماء السياسة ، إن قلت إنه يجب على الأمة أن توجه كل قواها بغير استثناء إلى الحصول على وجودها ، أى الحصول على الاستقلال . وإن من المستحيل على أمة تشعر بوجودها أن تتساهل فى استقلالها ، أو تبرد غيرتها عليه ، فى كل ظرف من الظروف المناسبة .

يجب أن يفهم غيرنا أيضاً أن كل أمة تطلب إلى مصر أن تبقى إلى الأبد مبعدة عن استقلالها إنما هى أمة تخدع نفسها ، لأن هذا المرام لا يرام إلا من لفيف من الناس ليس لهم ما للأمة المصرية من القومية العتيقة، والوطن المحدود، والنظامات الاجتماعية ، حين كان العالم لا يزال قليل العلم بمقتضيات النظامات الاجتماعية . أمة كأمتنا قد ولدت التمدن مرتين ، لا ينبغى للتمدن الحديث أن يطمع فى التوغل فى إذلالها وإبعادها عن أقل الأقدار لمطامع الأمم ؛ وهو الاستقلال .

من العيب العظيم أن تداجى الأمة فى أمر استقلالها، لأنه إن صح لأفراد الساسة أن يلعبوا على الألفاظ ليستروا المقاصد ، فإنه لا يصح بحال من الأحوال أن تكون الخدعة من خلق أمة من الأمم . الأمة شخص معنوى غاية فى الطهر ، لا يقول إلا ما يعتقد ، ولا يعمل إلا ما يريد .

لا يكفى أن يعتقد جماعة من الأمة بضرورة الاستقلال . بل يجب أن يكون الشعور بحب الاستقلال شعوراً عاما فى جميع أفراد الأمة من غير استثناء . يجب أن يكون الشعور بالاستقلال عند كل فرد هو بعينه الشعور بالوجود الذاتى .

بأى عنوان نحن نخدم طول العمر هذه الإنسانية ، عوضاً عن أن أقول بأى كتاب يجب علينا أن نظل طول العمر فى خدمة الغير ؟ لا نريد أن نخدمنا

الغير ، ولكن كيف نريد أن نخدمه دائماً ؟ ولم لانخدم أنفسنا كما تخدم كل أمة نفسها لا . لا . تظلنا وتظلم الإنسانية والوجود ، كل أمة تبغى منا أن تبقى عبيداً أو خداما طول الزمان.

أجل نحن نتمتع بحريتنا الشخصية . نتمتع بها فى كثير من الأحيان على أنها منحة لاحق ، ولكن نتمتع بها على كل حال . وتلك هى حجة كثيرين من الذين يقولون م يشكو المصرى وهو يتمتع فى بلاده بالحرية التى يتمتع بها الانجليزى فى بلاده ، صدقتم ولكن كفيل الحرية الشخصية هو الحرية العامة وما كان المصرى ليقنع من العيشة بالحياة الفردية ، كما يقنع بها كل حيوان حر فى الجبال ، بل المصرى هو أيضاً يريد أن يعيش عيشة القومية ، يريد أن يكسب حريته السياسية التى وهبها الله للمجموع من يوم كان مجموعاً قاطناً فى وطن معين ، قبل أن تحد تخوم الأوطان ، وما سرنا أن يكون الفرد منا حراً إذا كان مجموع أفرادنا ليس كذلك .

الاستقلال حق طبيعى للأمة . ولكنها إذا فقدته زمناً طويلا واعتادت كرها عادات جديدة ، وطبائع تناقض الاستقلال كان لابد لها إلى بلوغه من تربية خاصة ، وتعويض لما فقدته من الملكات والأخلاق فى أزمان الإكراه والاستبداد . ولاشك فى أن التمتع بالحقوق الطبيعية رهن بالقدرة على كسبها. وما القدرة على الاستقلال إلا نية صادقة ووسيلة منتجة .

فأما نية الاستقلال فهى فهمه والتشبث بمزاياه ، وتمثل هذا الفهم فى شعور الأمة تمثلا صحيحا شائعا، أى اعتقاد الأمة بضرورته ، وبأنه هو العيش،وهو الكساء ، وهو المبيت، وهو الوجود ، وبغيره لاوجود . ولابد لذلك من أن يربى فى الأمة معنى القومية المصرية .

إن أول معنى للقومية المصرية . هو تحديد الوطنية المصرية،والاحتفاظ بها، والغيرة عليها غيرة التركى على وطنه، والانجليزى على قوميته ، لا أن تجعل

أنفسنا وبلادنا على المشاع وسط ما يسمى خطأ بالجامعة الإسلامية . تلك الجامعة التي يوسع بعضهم معناها . فيدخل فيه أن مصر وطن لكل مسلم . أما لو كان معنى الجامعة قاصراً على وجوب ائتلاف بين أمة وجارتها على المعاونة المتبادلة على الارتقاء ، فذلك حسن ومفهوم .بشرط أن يكون العقد متبادل المنفعة لا قاصرها على أحد الطرفين دون الآخر. أعنى أن يكون أحدهما خادما دائما ، والثاني مخدوما دائما معك دنية يجب أن يأباها المصرى ذو الحفيظة . ولا يجيئها إلا مكرها، والمكروه لا حيلة فيه .

يعجبني في هذا المعنى أن أورد عبارة أحد الكتاب الانجليز . قال :

مهما كان اللوم على الأمة المتغلبة على غيرها ، فإنه لا يصح أن تنجو الأمة المغلوبة من اللوم . فإنه من السهل أن يدوس الإنسان بقدمه حشرة . لكن إذا كانت هذه الحشرة من العقارب ، يصعب دوسها بالقدم . وعندنا أن الأمة كائن طبيعي يستحيل مهما كانت ضعيفة أن تكون مجردة من آلات الدفاع عن نفسها ، لأن الله قد سلح جميع كائناته بسلاح الدفاع عن ذواتها . والأمة بصفتها إحدى هاته الكائنات الطبيعية لا يمكن أن تكون فاقدة السلاح . فلئن تركته أو أساءت استعماله فاللوم عليها بمقدار تقصيرها .

ولقد كتب على مصر أن ترتقى بالسلام وتستقل بالسلام ، فما أسلحة السلام إلا ذكاء فى العقل والقلب يهدينا إلى معرفة مصريتنا وقصر عملنا على مصرنا وإنماء كفاءاتنا قبل كل شيء ، وتمييز بين الممكن فى الواقع ، وبين الممكن فى الخيال ، حتى لا تقع مرة ثانية فى حبائل ذلك الوهم القديم الذى كان يراود أدمغتنا الوقت بعد الوقت ، إذ كان يزين لنا مرة أن فرنسا ستحرر بلادنا.ومرة أن الدولة العلية ستقوى،وحقنا عليها تسفك دماء أبطالها لتخرج الانجليز من بلادنا ،ثم هى بعد ذلك تتركنا لأنفسنا فى بلادنا أحراراً نتصرف فيها بما نشاء ! لابد لنا من ذلك . ومن عزة تربأ بنا عن أن نطلب من غيرنا أن يأتى ليحرر نفوسنا من الرق . وقلوبنا من عبادة القوى كأننا —

كما ظنوا خطأ بنا — نبغى أن يأتينا الاستقلال ونحن نيام . ويفيض الاستقلال علينا من جوانب البلاد بشرط أن لا نتعب أنفسنا فى أن نحرك ساكنا .

كان الواجب أن نبعد بالأمة عن هذه الخيالات الكاذبة ، ونوجهها إلى أن تنمى فى نفسها عقيدة الاستقلال .

أفنحن حقيقة ننشر عقيدة الاستقلال وننمى حفيظة استقلال المصرى ببلاده ؛ يأخذها الصغار عن الكبار ، والأبناء عن الآباء حتى تصير مصر للمصريين ، أم نحن نصرف معظم همومنا فيما علينا كل غرمه ، وليس لنا شىء من غنمه؟ أم نحن نترك السنين تمر بنا من غير عمل كبير لمصلحتنا ، فإذا تحركنا للعمل ولينا وجهنا غير مصر ، وصرفنا كل همنا فى إعانة من لا تنفعه إعانتنا له.

أكبر معلم للأمم هو الحوادث ومعظم غنم الأمم من الاستفادة من الحوادث . وإن العقيدة لا تأخذ من النفس مكاناً غائراً ، إلا إذا جاءت لمناسبة حادث من الحوادث . تلك هى سنة الأمم . وقد كان لنا درس فى هذه الحركة الحاضرة ؛ حركة دخول فرنسا فى مراكش ، ووقوف ألمانيا لها موقف المطالب بالعوض الاستعمارى ؛ قائلة بأن انجلترا أخذت المقابل فى مصر ، فلابد لها من عوض استعمارى يخرجها من عار الرضى باعتبار أنها خافتة الصوت ، أو ضئيلة الأثر فى الاستفادة من المسائل الشرقية ، وتصريح الدول جمعاء لإيطاليا بمجاوزة المعاهدات الدولية ، والإغارة على طرابلس ؛ وهى جزء من الدولة العلية أو ملك لها . كل هذه الحوادث قد نبهت الرأى العام المصرى إلى قبول الحقائق السياسية تنبيها لو ألقى نصحاؤه عليه نظرة القومية المصرية وحفيظة الاستقلال ، وأظهروا له أن الاعتماد على الموازنة الدولية والمعاهدات الدولية والتصريحات البرلمانية ، صار من (المودة) القديمة ، فلا ينفع مصر شيئاً كثيراً — إنما الذى ينفعها هو ألا تنى لحظة واحدة عن العمل لذاتها ، وعن إثبات شخصيتها وقوميتها وميلها إلى الاستقلال — لو فعلوا ذلك لأثرت

فيه[1] هذه النصيحة ألف مرة أكثر مما تؤثر النصيحة فى يوم هدوء وسكون.

غير أن الذى فات مات ، ولا ينفع الأسف على الوقت الذى ضاع إلا بمقدار ما يلفت الذهن إلى عدم الوقوع فى الخطأ مرة ثانية فى المستقبل. فبدل أن نطوح بشعور الأمة ونذهب به كل مذهب ، وبدل أن نكون فى مصر آلات لجمعية الاتحاد والترقى التى تسعى لخير بلادها دون غيرها ، والتى صرحت من أول يوم أن مصر ليست داخلة فى بروجرام أعمالها ، بدل ذلك كله ، يجب على الكاتبين أن ينتهزوا الفرصة لينشروا فى الأمة عقيدة الاستقلال .

لأننا نكرر أن الاستقلال متوقف على النية أو الاعتقاد بضرورته . ولو جاء الاستقلال من غير أن تكسبه الأمة راغبة فيه معتقدة حسن نتائجه لم يلبث أن يزول .

(١) الضمير هنا عائد على الرأى العام المصرى . على أن القارىء يلاحظ معى أن الجملة التى تبدأ من قوله (كل هذه الحوادث) إلى قوله (يوم هدوء وسكون) طالت فى يد الكاتب أكثر مما ينبغى . وكذلك الجملة التى سبقتها التى تبدىء من قوله (وقد كان لنا درس) الخ .

عبـــــــادة البسالة

الناس يعبدون الله تعالى من أول الخليقة ؛ يرجون رحمته ويخافون عذابه. ولكن إحساس العبادة فى ذاته قد يرقى وينحط تبعا لمستوى الإدراك والتربية فى نفوس العابدين. قد يرقى الشعور بالحاجة إلى عبادة الله حتى يصير حباً وإخلاصاً وفناء لنفس العابد فى حب المعبود. وذلك من أرقى المقامات، ولا يناله إلا من تجردت له نفسه عن الكونيات الفاسدة إلى النشبث بالمبادىء العالية، كما كان عليه الخوارج فى بعض خروجهم على الملوك يبتغون رضى الله بتحقيق مبادىء العدل والإخاء والمساواة. فإن الواحد منهم كان يأتى إلى ساحة القتال يعقر حصانه ويكسر جفير سيفه ويحفر لرجليه فى التراب يدفنهما حتى لا يتمكن من الفرار، ثم يقول بعد ذلك وهو يقاتل على هذه الحال: «وعجلت اليك ربِّ لترضى». مثل حسى للفناء فى تحقيق ما أمر الله به أن يحقق من المبادىء النافعة لبنى آدم فى دينهم ودنياهم. ولقد ينحط شعور العبادة وينمسخ فيتحول عن طبيعته الأولى الشريفة إلى طبيعة غير لائقة بالعقل الإنسانى: ينحط حتى يجعل النفس مستعدة لعبادة كل عمل عظيم وللفناء فى كل كبير، ولذكر الله أكبر لو كانوا يعلمون. تسحر العوام قدرة بطل من أبطال الحرب فتعنو له وجوههم ويشعرون نحوه بشعور يفسر فى أعمالهم الظاهرة بأنه العبادة بعينها. إنهم بذلك يشركون بالله أرباباً جدداً وهم لا يشعرون تأخذهم عزة ظالم من الظلمة فيكبرونه ويقدسونه ويعينونه على ماهو فيه. بل هم يتزلفون له، يرجون رحمته، ويخافون عقابه. ذلك بأن الضعف قد ملك نفوسهم، وأفسد الجهل عليهم نظرهم فى الأشياء. حتى يصبح تقديرهم لها تقديراً فاسداً.

يرون الأعمال الكبيرة فلا يلحظون فى تقديرها أى معنى من المعانى.

لا يلحظون أسبابها ولا نتائجها كأنهم لا يرون منها إلا الجهة المادية .

تنجذب قلوبهم لأعمال الفتك والظلم ولو كانت واقعة عليهم بشرط أن يكون الفتك عظيما هائلا والظلم شنيعا كبيراً .

أضرب لذلك مع الأسف مثل مؤلفى الأغانى وملحنيها وضاربيها ومغنيها وسامعيها فى الحفلات العمومية فى عهد الفرنساويين فى مصر. فمن تلك الأغانى مقطوعات الإطراء على نابليون والتودد اليه والإعجاب به هو وجيشه ، وإظهار التلذذ الكاذب بفتك العساكر الفاتحة بالغزّ وبالعرب ومن تلك المقطوعات التى كان يغنيها « الآلاتية » المصريون فى الحفلات المصرية على أثر الفتح :

(١) ما أحسنك يا فرط الرمان
لما تنادى بالأمان
وفى يدك ماسك الفرمان
تبقى الرعيـة قلبها فرحان
يا سلام . ياسلام

(٢) أوحشتنـا يا جنـار
يا جميـل يا راخى العذار
وسيفك فى مصر دار
على الغـزّ وعلى العربان
يا سلام . يا سلام

(٣) أوحشتنـا يا جمهور
يا جميل يا راخى الشعور
من يوم جيت مصر فيها نور
زى قنـديل من بللور
يا سلام يا سلام

(٤) ياجمهور عسكرك داير فرحان
فى قطع الغـز والعربان
يا سـلام بونابارته
يا سلام لك السـلام
يا سـلام . يا سلام

فانظر كيف أن عبادة البسالة أفسدت على العوام شعورهم الطبيعى ، أفسدت عليهم حب بلادهم ؛ أفسدت عليهم تقديرهم للحوادث الواقعة تحت نظرهم ، حتى سمحوا لأنفسهم أن يغنوا بمثل هذه المقطوعات . فنوا فى عبادة البسالة حتى نسوا أن الغزّ والعرب إخوانهم ، بل المدافعون عنهم وقتئذ ؛ وأخذوا يترنمون بذكر انهزامهم أمام الجيش الفاتح . رأوا عظمة القائد بونابرت ، وشجاعته ، وانتصاره عليهم ففنوا فى الإعجاب ببسالة الرجل وجيشه ، ونسوا أن الحامل لهذا الجيش على الفتح هو الطمع فى حق الغير ؛ وما كان الطمع فضيلة تستحق الثناء . وغفلوا عن أن عمله من أوله إلى آخره هضم لحق الضعيف واعتداء عليه . وما كان لأحد أن يمدح أحداً على الاعتداء على الغير . نسوا كل ذلك ونسوا أن المعتدى عليه فى ذلك هم المغنون والسامعون .

ذلكم طرفان للعبادة: الطرف العالى جداً هو مقام الفناء فى عبادة الله — مثله فناء الخوارج فى حب مذهبهم . والطرف السافل جداً الفناء فى عبادة البسالة ، ومثله أولئك الذين سحرتهم البسالة عن الالتفات للواجبات الوطنية بل إلى أنفسهم بل إلى ما هم فيه . !

لعبادة البسالة أمثلة كثيرة — قد تكون أقل سفالة من المثل المتقدم . ولكنها مع ذلك ليست أقل منه ظهوراً وتأثيراً فى إفساد أخلاق الأفراد والشعوب . من تلك الأمثلة حب الحكومة الأوتوقراطية والرضى ببقائها . لأن الحكومة الأوتوقراطية أساسها — كما يقول علماء السياسة — عبادة البسالة ، أى أخلاق الذل والضعف فى نفوس المحكومين . ومظاهر هذه الأخلاق الفاسدة كثيرة فى ظل تلك الحكومات . أبسطها الإسراف فى التعبير عن الحاكم بالسيد ، وعن المحكوم بالعبد . وقلما تجد شكاية يرفعها فرد من أفراد الأمة المحكومة بالحكومة الاستبدادية إلا مصدرة بألفاظ العبودية صريحة أو مؤولة ، مختومة بألفاظ العبودية الصريحة . وبعيد أن يكون

استعمال هـذه الألفاظ من باب الأدب المجرد ، أو على طريق المجاز ؛ فإن ألفاظ العابد ، والعبودية ، إنما كانت تقال فى الحكومات الأوتوقراطية على طريق الحقيقة لا المجاز فيفهم منها الحاكم أنه معبود حقيقة ويفهم منها الفرد من الرعية أنه عابد حقيقة ، وأن الرابطة بين الرعيـة والراعى هى العابدية والمعبودية . وليس هـذا المعنى غريباً عنا فى مصر فإنه كان شائعاً إلى عهد قريب . ومن المحتمل أن تكون آثاره موجودة إلى الآن على صورتها الأولى أو على أشكال أخرى لاتقل عن الشكل الأول فى إفادة الذل والضعة .

على ذلك ليس من الغريب أن ترى رجلا لا تسعد له حال ، ولا يرتاح له ضمير ، ولا يهنأ له عيش ، إلا إذا غمره حاكم الجهة التى هو فيها بفضل من رضاه عنه ؛ أو اختصاصه له ؛ لا لتحقيق منفعة يبتغيها ، ولا لتأييد مبدأ يسعى إلى تأييده ، ولا لشىء أصلا إلا ليكون مرضياً عنه من الحاكم رضى مجرداً ؛ شأن العبـد لا يرتاح باله إلا إذا قربه سيده عمن سواه من العبيد ، واستخلصه لخدمته .

قد يحب البسالة الرجل الباسل كبير الهمم ، يحبها فى نفسه وفى غيره . فمن المستحيل أن يكون الغرض من هذا المقال الحط من كرامة البسالة ، أو الاستهانة بعظائم الأعمال متى كان أساسها ونتائجها مشروعة عظيمة كذلك . ولـكن الذى نحاول التنبيه عليه إنمـا هو تلك الرذيلة الشنعاء — رذيلة عبادة القوة والأقوياء — ومسخ شعور العبادة الشريف ، وتحويله من الخضوع إلى الله المنفرد بالقدرة إلى الخضوع إلى الأشخاص ، وإكبار القوة والوحشية .

من المفهوم أن التسليم للقوة عند العجز ضرب من العقل والصبر والتبصر فهو فضيلة فى أكثر الأحيان ، ولـكن الرذيلة هى فى نسيان هـذه القيود ، واعتبار القوة من جهة ، والضعف من جهة أخرى حالة من الحالات الطبيعية الدائمة يصح أن تسكن لها النفس ، وترضى بها طائعاً . ثم نترقى فى هذا الرضى الاختيارى إلى حد الحب ثم العبادة . هـذا هو الذى لا يرضاه من يعرف

أن القوة كالضعف عرض زائل . فالقوى يستحيل أن يبقى قوياً إلى الأبد ؛ والضعيف يستحيل أن يبقى ضعيفاً إلى الأبد . فمن استضعف مرة لا يجوز له أن يتخذ الضعف شعاراً له لا يريد الخروج منه ، حتى مع إمكان الخروج بسهولة .

إن عبادة البسالة تعبير براق قد لا يلوح عليه لأول نظرة أنه أحط ما يكون من الصفات والأعمال . ولكنها ليست فى الحقيقة إلا مرادفا للجهل الممزوج بالذل ، أو الذل الممزوج بالخوف ، أو الخوف المصبوغ بصبغة الحب والطاعة . أى أنها رذيلة اجتماعية تفوق جميع الرذائل فى أنها ليست رذيلة بسيطة ؛ بل هى مركبة من جميع رذائل الذل والخوف والتملق والنفاق والكذب الخ ...

فكل رذيلة من هذه هى على الأقل صريحة ؛ ولكن عبادة البسالة بالمعنى الذى نعنيه ليس فيها شىء من الصراحة .

فحقيق بالإنسان أن يكرم بنى الإنسان ، ويعطى كل امرىء حقه. ولكن لا يصح أن يصل به سوء النظر أو الغفلة إلى حد أن يتخذ إلهاً مع الله .

الجامعة المصرية[1]

تتألف الجمعية المصرية من المصريين الأصليين ، ومن عناصر اخرى جديدة من الأجانب حلوا مصر على سبيل القرار ، وجعلوها موضع سعيهم ، فصارت بعد قليل محل ثروتهم وموطن حياتهم فى الحال والاستقبال .

فأصبحوا بذلك مصريين ، يرون من الواجب عليهم ألا يكونوا أقل غيرة على مصر من بنيها الأصليين . فيها أملاكهم ومنابع ثروتهم ، ومقابر آبائهم أو أبنائهم ، ومتعلق رجائهم فى المستقبل ، لا يسهل على أحدهم أن يتركها نهائيا من يوم إلى آخر ، بل لا يسهل عليه أن يعرف له وطنا حقيقيا غيرها . غير أن هؤلاء مع كل هذه الاعتبارات لا يزالون يظنون أن المصريين يعتبرونهم أجانب عنهم ، ويكادون يتحللون بهذا الظن من كثير من الواجبات الوطنية التى يجب على المصريين احتمالها لسعادة بلادهم . وأن هذا الظن مهما كان سببه ضعيفا ، ومهما كان فاسداً لا يستحق البقاء ، فإنه مع الأسف موجود ومنتج جميع النتائج التى تترتب عليه .

نحن المصريين لم نتلق دروس الحرية مختزلة ولا بعيدة عن كمالها بمراحل كما تلقتها الأمم الأخرى من قبلنا فى القرون الثلاثة الماضية ، بل نحن نتلق مبادىء الحرية على آخر طراز لها ، وعن أكمل أساتذتها علما بها ، وهو القرن العشرون . لذلك نحن نبنى عملا لبلادنا على قاعدة المنفعة ، من غير أن يكون لمختلف المعتقدات والأجناس أثر كبير أو قليل فى السياسة المصرية العامة . وأن كل مصرى اعتاد أن يرى المستقبل بعينيه يود من صميم فؤاده لو أصبح كل من على أرض مصر من العثمانيين والأجانب أرباب الامتيازات مصريين متساوين فى الحقوق والواجبات ، يعملون لسعادة هذا الوطن أى

(١) الجريدة فى ٥ من اكتوبر سنة ١٩٠٩ العدد ٧٨٤

لسعادتهم أجمعين . ليس الوطن مقولا على أرض محدودة مجردة فى الذهن عن كتلة من السكان متجانسة متشابهة أفرادها فى كثير من المشخصات . ولكن الوطن مقول على الأرض المحدودة مقترنة فى الذهن وفى الخارج ، بكتلة السكان القائمين عليها على سبيل القرار ، المشتركين فى المنافع ، المتضامنين فى السراء والضراء ، الشاعرين بهذا التضامن .

وأن الذين جاءوا إلى مصر واستوطنوها غير سكانها الأصليين قد برهنوا على اختيارهم لها وطنا ، كما برهنوا على كفاءتهم للحياة العملية وذكائهم وقدرتهم على نفع هذه البلاد ، وبعيد عن الحكمة ألا نعمل نحن الأكثرية كل ما فى استطاعتنا للانتفاع بكفاءة هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم أجانب ونضمهم إلينا ضما حقيقيا صريحا ، تزيد به نسبة الكفاءات المتنوعة فى مصر ، ويخرج به هؤلاء الأكفاء إلى الحركة السياسية والاجتماعية ، ليكون عليهم نصيب من الواجبات يعادل نصيبهم من الحقوق . إذا كانت الامتيازات الأجنبية تجعل الأوربيين المقيمين فى مصر يفضلون أن يبقوا أجانب مؤقتا على تحمل واجبات الوطنية المصرية ، حتى يظهر المستقبل قرار السياسة المبهمة التى تتخبط فيها الأحوال فى مصر ، فما الذى يمنع السوريون مثلا — ولا امتياز لهم — أن ينفضوا عن أنفسهم صفة الأجنبية ، فيدخلوا فى الحركة المصرية، ويدخلوا فى الانتخابات ، ويدخلوا فى الأحزاب السياسية ليقوموا بخدمة وطنهم فى مصر خدمه عملية حقيقية ؟ وما الذى يمنع المصريين من دعوة بنى عمهم إلى ذلك ، وأن يقتلوا من نفوسهم هذا الظن الذى أشرت إليه . والذى رأيت أثره كثيراً فى محاورة بعض السوريين الأكفاء الذين لم يكسبوا فقط الوطنية المصرية بالإقامة المحدودة قانونا ، بل لهم فى مصر آباء وأجداد ، وليس من له فى وطن أب كمن له آباء ؟

إنه لايجوز للمصرى الذى يحب الخير العاجل لوطنه ، أو يستهين بقوة العناصر الأخرى التى تتألف منها جمعيتنا المصرية ، فإنها بالنسبة لعددها العام

وعدد المتعلمين منها وكفاءتهم الاجتماعية والاقتصادية ، تكون جزءاً مهماً جداً من الحركة المصرية ، إلا في السياسة العملية مع الأسف . فإهمال الجامعة الصريحة بين المصرى الأصلى وبين أى عنصر يمكن كسبه من العناصر الأخرى خسارة كبيرة على هذا الوطن المشترك ، ومساعد على تأجيل التقدم المنشود.

وعندى أنه إذا أبتدىء من اليوم فى ادخال العناصر غير ذوات الامتياز فى الوحدة المصرية — وتلك العناصر هى وسط متناسب بين العادات المصرية والعادات الغربية — كان ذلك فألا حسناً لضم سكان مصر الأجانب أرباب الامتيازات إلى الوطنية المصرية عاجلا أو آجلا ، أعنى تأليف الجامعة المصرية المنشودة . وإنها لأكبر الضمانات للخروج من هذا المركز الخطر فى أقرب زمان ممكن .

على أنى لست أعرف من أولى الرأى من المصريين من ينكر على السوريين العمل لمصلحة وطنهم ، كما أنى لا أعرف من السوريين المصريين من لا يتقدم إلى تحقيق هذه الأمنية ، والأمر موقوف على خطوة من كل جانب من الفريقين .

الحـــــرية
ومذاهب الحكم

تناوبت الأمة فى أزمان التاريخ حكومات مختلفة متنوعة المقاصد ،متباينة المظاهر والنتائج ، كان من اختلافها إيجاد المذاهب السياسية لكل حلم : فريق من الكتاب يؤيده ، وطائفة من الناس تنتصر له ، كل يتعصب لمذهبه،ويرى فى تحقيقه نفع الكافة .

أما نحن فإننا نرى من بين مذاهب الحكم أن المذهب الحقيق بالاتباع فى مصر فى الظروف التى نحن فيها ، هو مذهب الحرية ،وإن كان فى المدنية الحديثة أقدم عهداً من مذاهب الاشتراكية ، التى يختلف تطبيقها باختلاف البلاد .

لا ننكر أننا لا نعرف إلى الآن أمة استأثر بها مذهب واحد ، وسارت حكومتها على قواعده ، من غير أن تضيف اليه قواعد أخرى من مذهب آخر حتى لنرى الحكومة الواحدة توفق فى برنامجها بين قواعد مذهب الحرية وقواعد مذهب الاشتراكية ، كما تفعل الآن حكومة الأحرار فى انجلترا . وما يكون تلقيب الحكومة بلقب حكومة الحريين،أو حكومة الملكيين ، أو الاشتراكيين إلا تلقيباً بالتغليب .

وإن هذا النظر لتؤيده طبائع العمران ، ويؤيده العقل أيضاً . فقد يكون من التعسف سوق كل الجزئيات مساقا واحداً تحت قاعدة واحدة . بل علمنا الاستقراء فى الحوادث ، طبيعية كانت أم اجتماعية ، أن للاستثناء فى القواعد محلا من الوجود لا يصح الاستهانة به . حتى إن قاعدة النيابة فى البلاد الديموقراطية ، وهى قاعدة الأكثرية ، أخذت هى أيضاً تنقص من بعض أطرافها . فإن بعض الأمم الديموقراطية جعلت تدخل على هذه القاعدة استثناء جديداً ، هو تمثيل الأقليات بقدر المستطاع .

---

(١) الجريدة فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩١٣ العدد ٢٠٥٨ .

نقول ذلك مقدمة للتصريح بأن قاعدة كل مذهب من مذاهب الحكم هى المنفعة . فكل مبدأ من المبادىء إنما يدور مع منفعة الأمة «د» العلة مع المعلول .

ولو أننا حكّمنا المنفعة فى اختيار المذهب الذى نراه أولى بالاتباع فى تشريعنا المصرى لما ترددنا لحظة واحدة فى أن المذهب الذى تأمر المنفعة باتباعه هو «مذهب الحرية» .

مذهب الحرية أو مذهب (الحرّيين) يقضى فى أصله بألا يسمح للمجموع فى البلاد الحرة أو للحكومة فى بلاد كمصر أن تضحى حرية الأفراد ومنافعهم لحرية المجموع أو الحكومة فى التصرف فى الشؤون العامة . هذا المذهب يقضى فى أصل وضعه بألا يكون للحكومة سلطان إلا على ماولتها الضرورة إياه . وهو ثلاث ولايات : ولاية البوليس ، وولاية القضاء ، وولاية الدفاع عن الوطن ؛ وفيما عداذلك من المرافق والمنافع فالولاية فيه للأفراد والمجاميع الحرة.

الحكومة بأصل نظامها — مهما كان شكلها — ليس لوجودها علة إلا الضرورة . فيجب أن يقف سلطانها داخل حدود الضرورة ، ولا يتعدى إلى غيره من سلطة الأفراد فى دائرة أعمالهم . لأن كل حق نضيفه الحكومة إلى ذاتها إنما تأخذه من حقوق الأفراد ، وكل سلطة تسندها إليها ، ضغط على حرية الأفراد .

ليس ما نقول من هذا القول، وما نقرر من هذا المذهب نظريات مجردة لادليل عليها إلا بالفروض المنطقية . كلا — إذ الحس قد أثبت بالأمثلة اليومية أن الحكومة فى كل أمة ماوليت عملا خارجاً عن دائرة الولايات الثلاث التى ذكرناها إلا أساءت فيه تصرفا وفشلت نتيجته . وعندنا فى مصر نصبت الحكومة نفسها مزارعا كبيراً ؛ فوضعت يدها على الأرض ، وتصدت لاستغلالها ، وجاءت لنا بالبذور والماشية وآلات الزراعة لنزرع على حسابها مرابعين . ففشلت فى مقصدها، وساءت زراعتها ، ولم تأتها الأرض من أكلها شيئاً مذكوراً . فأدركت بعد ذلك خطأها الفاحش ، فتركت الزراعة

وتنازلت زمناً طويلا عن أن تنصب نفسها مزارعا . لأن الزراعة من عمل الأفراد ، ومن عمل المجاميع ، لا من عمـــل الحكومة . خذ مثلا آخر — مصلحة «الدومين» أو الأراضى الأميرية ؛ قدرْ ميزانيتها وإيرادها ومصاريفها تجدمن غير عناء أن ريع الفدان فيها كان دائما أقل من ريع الفدان فى زراعة الأفراد والشركات الحرة ؛ مع أن مصلحة «الدومين» كان لها من الامتياز فى الرى والصرف ومراعاة الخاطر والخروج من مضايق لوائح المناوبات ما كان من شأنه أن يجعل حاصلات أرضها أوفر من حاصلات أرض الفلاحين .

كذلك الحكومة إذا اتجرت فى الملح بالذات ، أو فى غيره من أصناف التجارة لا تستطيع أن تكون تاجراً محمود العمل ، ولا محمود النتيجة . وهى إذا اشتغلت صانعا فأسوأ ما تكون صناعتها ، وأخس ما يكون كسبها منها . فإذا اشتغلت الحكومة معلماً بالذات فلن تعرف من نتيجة تعليمها إلا محاولة التسوية بين العقول ؛ وقد جعل الله بينها من الفروق أكثر مما نراه من الفروق بين الأجسام . ولم يقل أحد إلى الآن إن للحكومة اختصاصاً فى العلم. فإننا قد وجدنا العلماء الأحرار والمعلمين الأحرار يستنبطون كل يوم قاعدة جديدة فى العلوم المختلفة ، ويضيفون إلى الإنسانية مخترعا جديداً . وما عرفنا أن حكومة من الحكومات قررت قاعدة علمية أضيفت إلى قواعد علم الحساب أو علم الفلك ، ولا زادت قاعدة على قواعد الأخلاق والسلوك فى الحياة . فإن لم تكن الحكومة عالمة ولا مربية ، ولم يك ذلك من اختصاصها فمن المعقول أن تكون مزاولتها للتعليم العام بالذات لا تسد أطماع الأمة من التعليم . ولكننا مع ذلك يجب علينا أن نعترف بأن للحكومة الحق الكامل فى مراقبة التعليم ؛ حتى لا يكون فيه ما يخل بالآداب العامة ، التى من حق البوليس أن يحافظ عليها .

هب أن الحكومة الاشتراكية ، أو الحكومة التى تتدخل فى غير الولايات الثلاث التى ذكرناها ، حكومة نافعة ، ومفيدة فى البلاد الديموقراطية

أى البلاد المحكومة بسلطة الأمة ، فهل تكون مداخلة الحكومة فى غير مالها من الحدود ، مفيدة فى مصر ؟

البداهة تشهد بأننا لا مصلحة لنا فى أن نأخذ حق الفرد لنعطيه للحكومة التى ليس لنا من أمرها نصيب ، وليس لنا عليها أى سلطان ! !

على أن كل ما نحن فيه من سوء الحال ، أخلاقية كانت أو اقتصادية أو سياسية ، إنما سببه الأصيل نقص الحرية فى نفوسنا نقصاً فاحشاً ، جرّه علينا الاستعباد القديم أو الاشتراكية المعكوسة . التى كنا فيها الأزمان الطوال . لو كان لأى بلد حاجة من تسليم حقوق الفرد إل المجموع ، أو تحكيم الحكومة فى غير الولايات التى ولتها إياها الضرورة ، فنحن المصريين أحوج ما نكون لتوسيع ميدان العمل لحرية الفرد ،حتى يسترجع مافقد من الصفات الضرورية للرقى المدنى ، والمزاحمة فى معترك الحياة ،وحتى ننبذ نهائياً اتكالنا على الحكومة فى الشئون الجليلة والدقيقة ، ولنخرج من هذا الإحساس الذى كأنه عام فى الشرق ؛ إحساس أن الأمة رعيــة والحاكم راع يتصرت فى رعيته على ما يشتهيه . إن هذا الإحساس الذى اتخذناه قاعدة لسياستنا ، بل طريقاً لسلوكنا فى حياتنا القومية . هو الذى أبعدنا عن سرعة الأخذ بمبادىء التمدن الحديث ، وفرق كلمتنا ، وأثقل فى طريق المجد خطانا . إن هذا الإحساس من شأنه أن يقلل الاعتماد على النفس بل يودى بهــذه الفضيلة التى هى أساس النجاح فى أعمال الأفراد والأمم .

نوابنا المحترمين — أنتم أعلم بحاجة قومكم . وقد أنابتكم الأمة عنها فى تقرير مصالحها . فأنتم أحرار فى اختيار أصلح المذاهب التى تتخذونها القاعدة الغالبة فى تشريعكم . ولكن ذلك لا يمنع من إلفات [1] أنظاركم العالية . إلى أن للتشريع دخلا لايستهان بأثره فى أخلاق الأمة وعاداتهــا ومشاعرها فاذا

(١) صحتها : (لفت) أى بصيغة الفعل الثلاثى . (المؤلف)

كانت قاعدة التشريع هى حرية الأفراد انبعث ضوء هـذه الحرية فى قلوب الشعب ، وظهرت آثاره على أعماله . والحرية أساس المسؤولية ، وطريق النجاح فى الحياة .

لئن تساءل بعضهم ما شأنى فى تقرير هذه الملاحظات ، ولست نائباً عن الشعب ، ولا عضواً فى الجمعية التشريعية ، فإنى منتحل جواب ذلك الكاتب الكبير الذى قال : « لو أنى شارع لما أضعت الوقت فى الكتابة ، ولكن استعضت عنها بالعمل » فليعمل كل منا ما يقدر عليه .

علينا تبيين الحق من الباطل ؛ ونوابنا لهم أن يستمعوا القول ويتبعوا أحسنه .

نوابنا المحترمين — نعلم أن الظروف التى فيها بلادنا وحكومتنا قد تقوم حاجزاً دون تحقيق رغباتكم الشريفة ، التى تسعى بكم إلى تحقيق ما يتمناه المخلصون لهذه الأمة الكريمة . ولكن تصويركم لمذهب الحرية ، أو لمذهب الحريين ، تصويراً بارزاً تراه عيون الشعب ، وتلمسه أيديه ، مفيد فى تربيتنا السياسية ، ذو أثر واضح فى مصالحنا القومية . إننا لانجد تنافياً بين السير على نهج الحريين فى الدائرة الضيقة التى تحد اختصاص نوابنا فى الجمعية التشريعة ، وبين شكل حكومتنا الحاضر . وقد نظن أن حكومتنا لو أنصفت لكان كل ما يهمها حفظ الأمن واستقلال القضاء ، والرجوع إلى تأييد حرية الأفراد ، وحرية الفكر والكتابة ، وحرية الاجتماع والخطابة ، وحرية العمل فى داخل منطقة القانون العام . لنا أن نطلب منها ذلك ، ولنا أن نطلب إليها أيضاً أن تكون شديدة قوية الشكيمة فيما وليت من الأعمال التى ولتها إياها الضرورة . فإننا لا نألم للشدة فى الحق والمصلحة ، ولكننا لا نقبل الاعتداء على حقوق الأفراد ، مهما كسى ثوباً من التسامح والرفق .

تم بحمد الله الجزء السادس من كتابنا أدب
المقالة الصحفية فى مصر . ويليه بإذن الله تعالى
الجزء السابع وموضوعه
(الصحافة المصرية بين حربين)

محتويات الكتاب

كلمـــة الشكر

لم يزل صديق الأستاذ أحمد على يتفضل علىَّ بالمشاركة فى تصحيح تجارب الكتب التى أقدمها للطبعة . وهذ الأخير واحد منها .

ولم أزل مدينا لسيادته بالشكر والتقدير لما يبذل معى من جهد جهيد . منحه الله الصحة والعافية . وكافأه عن إخوانه أحسن المكافأة .

عبد اللطيف حمزة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٤٩٨٢

I.S.B.N 977-01-9876-5

هذا هو المجلد الثانى من السفر العلمى الكبير «أدب المقالة الصحفية فى مصر» وهو يجمع بين (دفتيه الأجزاء الرابع والخامس والسادس) .

وأهمية هذا الكتاب ليس فى كونه الكتاب «العمدة» فى الدراسات الصحفية والإعلامية العربية فقط، ولا لكونه الكتاب الرائد فى فن الكتابة والتحرير الصحفى فى المكتبة العربية أيضاً، وإنما لأنه كان أول محاولة أكاديمية لتحويل الكتابة الصحفية من فن يقوم على الموهبة إلى علم يبنى على أسس وقواعد النظريات الحديثة فى علوم الإعلام والاتصال.

لذلك كان طبيعاً أن تظل الأحكام والمبادئ والاجتهادات التى حفل بها الكتاب صالحة للتطبيق مع اختلاف الأزمنة وتعدد المجتمعات، ومايزال هذا الكتاب المرجع الرئيسى الذى يعتمد عليه طلاب العلم فى كافة كليات ومعاهد الصحافة والإعلام فى مصر والوطن العربى حتى الآن.

اما مؤلف هذا السفر العلمى الرائد فهو الأستاذ الدكتور عبداللطيف حمزة أول رئيس لأول قسم علمى للصحافة أنشىء بالجامعات العربية، وذلك بكلية الآداب بجامعة القاهرة فى عام ١٩٥٤م.

وكان للدكتور عبداللطيف حمزة دوراً بارزاً فى إنشاء الدراسات الصحفية والإعلامية فى العديد من البلدان العربية، وهو أيضاً صاحب فكرة إنشاء كلية للإعلام فى مصر.

ومايزال تلاميذه من أساتذة الكلية يدينون له بالفضل والعرفان، ومازالت مؤلفاته التى تربو على الأربعين كتاباً فى الصحافة والإعلام والاتصال، هى الزاد العلمى الذى ينهل منه كل العارفين بفضله وقدره.

أ. د. فاروق أبو زيد

عميد كلية الإعلام ـ جامعة القاهرة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب